

إِمْدَادُ الْكَلِمِ

فِي

تَفْسِيرَيْنِ خَيْرِ الْكَلِمِ

لِلْعَلَّامَةِ الشَّيْخِ
مُحَمَّدِ إِمْدَادِ حُسَيْنِ بَيْرَزَادَه



دارالفتح
للدراسات والنشر

إِمْدَادُ الْكَلِمِ

فِي

تَفْسِيرَيْنِ خَيْرَ الْكَلِمِ

لِلْعَلَامَةِ الشَّيْخِ

مُحَمَّدِ إِمْدَادِ حُسَيْنِ بَيْرَزَادَه

إمداد الكرم في تفسير خير الكلم
للعلامة الشيخ محمد إمداد حسين بيرزاده
نقله عن الأردية أ.د. إبراهيم محمد إبراهيم السيد
الطبعة الأولى: ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م
جميع الحقوق محفوظة باتفاق وعقد ©

قياس القطع: 24 × 17

الرقم المعياري الدولي: ISBN : ٨-٤٢١-٢٣-٩٩٥٧-٩٧٨

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (١٧٥٧/٤/٢٠١٧)



دارالفتح للدراسات والنشر

هاتف: 6 4646199 (00962)

جوال: 777925467 (00962)

ص.ب: 183479 عقان 11118 الأردن

البريد الإلكتروني: info@daralfath.com

الموقع على الشبكة الإلكترونية: www.daralfath.com



الناشر بالملكة المتحدة:

Al-Karam Publications

Eaton Hall

Retford

Nottinghamshire

DN22 0PR

England, United Kingdom

Tel: +44 (0) 1777 702555

Email: info@alkarampublications.com

Website: www.alkarampublications.com



AL-KARAM
PUBLICATIONS

الدراسات المنشورة لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الناشر

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي سابق من الناشر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing from the publisher.

إمداد الكرم في تفسيين خير الكلام

لِلْعَلَّامَةِ الشَّيْخِ
مُحَمَّدِ إِمْدَادِ حُسَيْنِ بَيْرِزَادَه

نَقَلَهُ عَنِ الْأُرْدِيَّةِ
أ. د. إِبْرَاهِيمَ مُحَمَّدَ إِبْرَاهِيمَ السَّيِّدِ

الْجُزْءُ السَّادِسُ



دار الفتح
لِلدِّرَاسَاتِ وَالنَّشْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فهرس مضامين المجلد السادس

مسلسل	المضمون	رقم الصفحة
١	فهرس مطالب المجلد السادس	٧
٢	سورة الطور (٥٢)	٩
٣	سورة النجم (٥٣)	٢٩
٤	سورة القمر (٥٤)	٦٥
٥	سورة الرحمن (٥٥)	٩٣
٦	سورة الواقعة (٥٦)	١٢٥
٧	سورة الحديد (٥٧)	١٤٩
٨	سورة المجادلة (٥٨)	١٧٩
٩	سورة الحشر (٥٩)	١٩٩
١٠	سورة الممتحنة (٦٠)	٢٢٩
١١	سورة الصف (٦١)	٢٤٥
١٢	سورة الجمعة (٦٢)	٢٥٩
١٣	سورة المنافقون (٦٣)	٢٧٩
١٤	سورة التغابن (٦٤)	٢٨٧

رقم الصفحة	المضمون	مسلسل
٣٠٥	سورة الطلاق (٦٥)	١٥
٣٢١	سورة التحريم (٦٦)	١٦
٣٤٣	سورة الملك (٦٧)	١٧
٣٦١	سورة القلم (٦٨)	١٨
٣٨٩	سورة الحاقة (٦٩)	١٩
٤٠٥	سورة المعارج (٧٠)	٢٠
٤٢٧	سورة نوح (٧١)	٢١
٤٣٩	سورة الجن (٧٢)	٢٢
٤٥٩	سورة المزمل (٧٣)	٢٣
٤٧٧	سورة المدثر (٧٤)	٢٤
٤٩٧	سورة القيامة (٧٥)	٢٥
٥١٣	سورة الإنسان (٧٦)	٢٦
٥٢٩	فهرس المطالب التفصيلي للمجلد السادس	٢٧
٥٥٩	المصادر والمراجع	٢٨



فهرس مطالب المجلد السادس

الصفحة	المضامين	الصفحة	المضامين
٥٢٩	الذِّكْرُ والشكر	٥٢٩	الله تعالى
٥٣٠	متفرقات	٥٣٠	الرحمة
٥٣٢	النبوة والرسالة	٥٣٠	محمد رسول الله ﷺ
٥٣٢	علم النبي ﷺ	٥٣٢	الحاجة إلى القرآن والسنة
٥٣٢	تواضع النبي ﷺ	٥٣٢	الشفاعة
٥٣٣	أخلاق النبي ﷺ ومزاحه	٥٣٣	شأن النبي ﷺ وعظمته
٥٣٤	معراج النبي ﷺ	٥٣٤	المعجزات
٥٣٥	سيدنا إبراهيم عليه السلام	٥٣٤	النبوة والرسالة
٥٣٥	الأنبياء الآخرون عليهم السلام	٥٣٥	سيدنا عيسى عليه السلام
٥٣٦	الأمة المسلمة	٥٣٥	دين الإسلام
٥٣٧	آل البيت رضي الله عنهم	٥٣٧	الأمم السابقة
٥٣٩	الإنسان وعظمة الإنسان	٥٣٧	الصحابه الكرام رضي الله عنهم
٥٤٠	الجهاد والشهادة	٥٤٠	الجبر والقدر

الصفحة	المضامين	الصفحة	المضامين
٥٤٠	المساجد	٥٤٠	الغزوات الإسلامية
٥٤٢	السياسة	٥٤١	الشیطان
٥٤٢	العبادة والعابدون	٥٤٢	الكفر والشرك والنفاق
٥٤٣	التقوى وأهل التقوى	٥٤٣	العلم وأهل العلم
٥٤٤	الجنة والنار	٥٤٤	الإيمان وأهل الإيمان - أولياء الله
٥٤٦	القيامة	٥٤٦	الحسنة والذنوب
٥٤٨	القرآن المجيد	٥٤٧	التوبة والموت والقبر
٥٥٠	مكانة المرأة وحقوقها وواجباتها	٥٤٩	الطلاق والعدة والرضاعة
٥٥١	الوالدان وحقوق الأبناء وواجباتهم	٥٥١	النذر والحنث باليمين
٥٥٣	الصوم	٥٥٢	الصلاة
٥٥٣	الزكاة والصدقات	٥٥٣	الخمر
٥٥٤	الملائكة	٥٥٤	السلام
٥٥٥	زيارة القبور وإيصال الثواب	٥٥٥	التوكل
٥٥٦	اليتميم	٥٥٥	الدنيا ومالها ومتاعها
٥٥٦	مكة المكرمة والمدينة المنورة	٥٥٦	الصبر والشكر
		٥٥٧	متفرقات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
(٥٢) سُورَةُ الطُّورِ

هذه السُّورة مَكِّيَّة، واسمُها «الطُّور»، وهو مأخوذٌ من الآية الأولى منها.

مضامين السورة

- في بداية هذه السُّورة أقسم الله تعالى بأشياءٍ مختلفةٍ مؤكِّداً على أنَّ القيامةَ ستقومُ يقيناً، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يمنعَ قيامها، وفي ذلك اليوم سيُلْقَى بِمُنْكَرِي القيامة في جهنَّم، وسيقالُ لهم: هذه هي جهنَّم التي كنتم تُنكرونَهَا.

- بدايةً من الآية ١٧ جاء بيانٌ لسلسلةِ الأجرِ العظيم الذي سيلقاهُ الْمُتَّقُونَ، يعني: أنَّ الله تعالى سيُنْعِمُ عليهم بِنِعَمٍ متنوِّعةٍ في الجنان، وسيُلْحَقَ بهم أولادُهم المؤمنونَ أيضاً، وسيشْكُرُونَ الله تعالى في الجنَّةِ على أنه نَجَّاهم من عذابِ جهنَّم.

- بدايةً من الآية رقم ٢٩ جاءتِ التَّسْريَّةُ عن قلبِ النَّبِيِّ ﷺ بأنَّ لا تغتمَّ ولا تحزنَنَّ من كلامهم الجارح، فهم يقولون: إنك أنت الذي أَلَفْتَ هذا القرآنَ من عند نفسك، وينبغي لهم أن يأتوا ولو بأيةٍ واحدةٍ من مثله إن كانوا صادقين في دعواهم.

- يا أيُّها النَّبِيُّ الْحَبِيبُ ﷺ، ليس لدى هؤلاء المنكرين أيُّ دليلٍ على إنكارهم التوحيدَ والقيامةَ، وهم مستغرِقون في مخالفتك بسببِ تعصُّبهم، ولكن لا يحزنُكَ هذا، فأنت بأعيننا، ونحن الحافظون لك، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يمسَّ ولو شعرةً واحدةً

١٠ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

منك بسوء، فاصبر على كلامهم الجارح، واستمر في تسييح ربك وحمده من أجل
اطمئنانك وسكينة قلبك، وخاصة حين تنهض من نومك، أو تقف لصلاتك، أو
تذهب من مجلس كنت فيه، وسواء في صلاة التهجد أو صلاة الفجر، انشغل دائماً
بحمد ربك والثناء عليه.

الفقيه إلى الله: محمد إمداد حسين بيرزاده،
جامعة الكرم، إنجلترا
بعد صلاة المغرب من يوم الاثنين ٩ أغسطس
٢٠١٠م
الموافق ٢٨ شعبان ١٤٣١هـ.



سُورَةُ الطُّورِ (٥٢)،

مكية (٧٦)، آياتها (٤٩)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ ① وَكُنْتَ مَسْطُورٍ ② فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ③ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ④ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ⑤
وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ⑥ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ⑦ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ⑧ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ⑨
وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ⑩ فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ⑪ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ⑫ يَوْمَ
يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ⑬ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ⑭ أَفَسِحْرُ هَذَا
أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ⑮ أَصَلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ ⑯ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ⑰ فَتَكْهِنُ بِمَاءِ النَّهْمِ رَبِّهِمْ وَوَقَّهَهُمْ رَبُّهُمْ
عَذَابَ الْجَحِيمِ ⑱ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ⑲ مُتَكِّينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ
وَزَوَاجِلَهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ⑳ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ آَلَفْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا لَنَا
مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ㉑ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ وَمَا شَنُوهُوا ㉒ يَنْتَرِعُونَ
فِيهَا كَأَسَا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيهِ ㉓ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَوْلُؤُهُمْ مَكُونٌ ㉔ وَأَقْبَلَ
بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ㉕ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ㉖ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا
وَوَقَّعْنَا عَذَابَ السَّمُورِ ㉗ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ㉘

﴿وَالطُّورِ﴾

١ - المراد بالطور هنا: ذلك الجبل الذي كلم الله تعالى من فوقه سيدنا موسى

عليه السَّلام^(١)، ويقال لهذا الجبل: «طُورُ سَيْنَاءَ» و«طُورُ سِينِينَ» أيضًا.

﴿وَكُتِبَ مَسْطُورٌ﴾

٢ - المراد بالكتابِ المسطورِ هنا: القرآنُ المَجِيدُ الذي يقرأه أهلُ الإيمانِ^(٢)، وهو واضحٌ وبيّنٌ تمامًا مثلَ الصفحةِ المفتوحة، مَنْ شاءَ قرأه وحَصَلَ منه الهدايةُ.

﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾

٣ - مثلما أنَّ بيتَ الله في الأرض، حيثَ يَعْبُدُ بنو الإنسانِ فيه ربَّهم، كذلك يوجَدُ فوقَ السماءِ السابعةِ البيتُ المعمورُ، حيثَ يَعْبُدُ الملائكةُ فيه ربَّهم.

- يقولُ سيِّدُنا أنسُ رضي الله عنه: إنَّ النبيَّ ﷺ قال: «البيتُ المعمورُ في السماءِ السابعةِ يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لا يعودونَ إليه حتَّى تقومَ السَّاعةُ»^(٣).

- يقولُ سيِّدُنا أنسُ رضي الله عنه: إنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أُتِيَ بالبُرَاقِ... ثمَّ عُرِجَ بنا إلى السماءِ السابعةِ فاستَفْتَحَ جبريلُ، فقيل: من هذا؟ قال: جبريلُ. قيل: ومن معك؟ قال: محمَّدٌ ﷺ. قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه. ففُتِحَ لنا، فإذا أنا بإبراهيمَ ﷺ مُسْنِدًا ظهره إلى البيتِ المعمورِ وإذا هو يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لا يعودونَ إليه»^(٤).

﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾

٤ - المراد بالسَّقْفِ المرفوعِ هنا: السماءُ. يقولُ العلامةُ القرطبيُّ: «يعني:

(١) «الطور: اسم الجبل الذي كلَّم الله تعالى عليه موسى عليه السلام». تفسير القرطبي.

(٢) «يعني: القرآن يقرأه المؤمنون من المصاحف». تفسير القرطبي.

(٣) المستدرك للحاكم، ٢: ٥٠٨؛ تفسير سورة الطور (٥٢).

(٤) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٧٤ برقم ٤١١.

السماء، سَمَّاهَا سَقْفًا؛ لأنها للأرضِ كَالسَّقْفِ لِلْبَيْتِ»^(١).

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾

٥ - أقسم الله تعالى بخمسة أشياء مختلفة مؤكِّداً على أنَّ عذاب القيامة الذي تُنذرون به سيتحقَّق يقيناً، ولا يمكن لأحد أن يمتنعه من الوقوع.

يقول سيِّدنا جَبْرِ بنُ مُطْعِم رضي الله عنه: قَدِمْتُ المدينةَ لأَسْأَلَ رَسولَ اللهِ ﷺ في أُسارى بدر، فوافيته يقرأ في صلاة المغرب ﴿وَالطُّورِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿فكأنما صَدَعَ قلبي، فأسلمتُ خوفاً من نزولِ العذاب﴾^(٢).

﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾

٦ - وقت وقوع الساعةِ وحينَ تبدأُ سلسلةُ تدميرِ هذه الكائنات، ستهتزُّ السَّمَاءُ، وتتناثرُ الجبالُ ذَرَاتٍ وتطائرُ كالعِهْنِ المنفوش، فإذا كان هذا هو مصيرُ السماءِ القويَّة والجبالِ الصُّلبة الصُّلدة، فإنك تستطيعُ أن تتصوَّرَ كيف يكونُ حالُ الدَّمَارِ الذي سيُصيبُ الأشياءَ العاديَّة البسيطة.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾

٧ - الذين يَسْتَغْرِقُونَ في اللَّهْوِ التافه والأُمُورِ التي لا طائلَ من ورائها وَيَشْغَلُونَ أَنْفُسَهُمْ بها، ويُكذِّبُونَ بِالْآخِرَةِ، سيكونُ مصيرُهُم الدَّمَارُ الذي ما بعده دمار.

﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾

٨ - حين يُدْفَعُ بِمُنْكَرِي الآخِرَةِ دفْعاً إلى نارِ جهنَّمَ فستقولُ لهم الملائكةُ

(١) تفسير القرطبي.

(٢) المرجع السابق، سورة الطور (٥٢): الآية ٨.

عندئذ: هذه هي نارُ جهنم التي كنتم تكذبون بها في الدنيا.

﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا بُصُورَ﴾

٩ - دَعَا الْأَنْبِيَاءُ الْكِرَامُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ النَّاسَ إِلَى التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ بِالْآخِرَةِ، وَلَكِنَّ الْمَتَعَصِّبِينَ الْمَتَعَتِّينَ مِنَ النَّاسِ أَنْكَرُوا مَا يَقُولُهُ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، كَمَا أَنْكَرُوا مُعْجَزَاتِهِمْ بِدَعْوَى أَنَّهَا سِحْرٌ، وَحِينَ يُقَرَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ سَتَسْأَلُهُمُ الْمَلَائِكَةُ: أَخْبَرُونَا، هَذِهِ النَّارُ الَّتِي تَرَوْنَهَا الْآنَ، هَلْ هِيَ سِحْرٌ فَعَلًا أَمْ مِنْ أَفْعَالِ الْحَوَاةِ؟ أَمْ أَنْكُمْ لَا تَسْتَطِيعُونَ رُؤْيَةَ هَذَا الْعَذَابِ الْآنَ مِثْلَمَا كُنْتُمْ عُمِيَانًا عَنْ رُؤْيَةِ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا؟

﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصِرُوا سَوَاءً عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

١٠ - الَّذِينَ ظَلَمُوا يُكْذِبُونَ بِالتَّوْحِيدِ وَبِالْآخِرَةِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا سَيُلْقَى بِهِمْ فِي جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَسَيَقَالُ لَهُمْ: الْآنَ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَصَبَرْتُمْ أَمْ اسْتَعْتُمْتُمْ وَصَرَخْتُمْ، لَا فَائِدَةَ تَعُودُ عَلَيْكُمْ مِنْ كُلِّ هَذَا، وَسَتَذُوقُونَ يَقِينًا عِقَابَ مَا ارْتَكَبْتُمْ مِنْ أَفْعَالٍ قَبِيحَةٍ.

﴿فَنَكِيهِنَ بِمَاءٍ أَنْهَمُ رَبُّهُمُ وَوَقَّهَهُمُ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾

١١ - الَّذِينَ يَتَّقُونَ اللَّهَ تَعَالَى وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَعْصُونَهُ، سَيُنْجِيهِمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ جَهَنَّمَ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، وَسَيُنْعِمُ عَلَيْهِمْ بِنِعَمٍ مُتَنَوِّعَةٍ، وَسَيَسْعِدُ أَهْلَ الْجَنَّةِ بِهَذِهِ الْعَنَايَاتِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ وَيَشْكُرُونَهُ عَلَيْهَا.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

١٢ - سَيَقَالُ لِلْمُتَّقِينَ فِي الْجَنَّةِ: كُلُوا وَاشْرَبُوا وَاتِمَّتْ عِبَادَتُكُمْ لِلَّهِ تَعَالَى فِي الْجَنَّةِ؛ لِأَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ فِي الدُّنْيَا.

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾

١٣ - ستوضع السُّرُرُ في الجنة للمتقين في صفوفٍ متقابلة، وسيجلسون متكئين عليها في اطمئنانٍ بالغ، كما أنهم سيُزَوَّجون من حُورٍ ذواتٍ أعينٍ جميلة أيضاً.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾

١٤ - سَيُنْعِمُ اللهُ تعالى على عباده المقبولين المتقين بالدرجات الرفيعة في الجنة، وسيلحق بهم من أولادهم من كان يتبع آباءهم، فإذا كانت درجات الأولاد في الجنة أقل، رَفَعَهُمُ اللهُ تعالى ببركة أعمال والدَيْهِم إلى الدرجة الأعلى حتى يكونوا مع والدَيْهِم، يعني: أن درجات الوالدَيْن تكون عاليةً طبقاً لأعمالهم، ولا ينقص ذلك من أجرهم وثوابهم شيئاً، لكن الله تعالى سينفصل على الأولاد من أجل إسعاد الآباء، ويرفع درجاتهم ليلحقهم بآبائهم.

فائدة حسنات الوالدين

- يروي سيّدنا سعيد بن جبّير رضي الله عنه، عن سيّدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كان لم يبلغها بعمله لتقر بهم عينه» ثم قرأ الآية (١).

- يقول سيّدنا سعيد بن جبّير رضي الله عنه: إن سيّدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال، فيما أظنه عن النبي ﷺ: «إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده (أي: قائلًا: أين هم؟)، فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك (ولهذا فإنهم في مقام مختلف في الجنة). فيقول: يا رب، قد عملتُ لي ولهم. فيؤمر بالحاقهم

به»^(١)، ولهذا ينبغي لكل مسلم أن يشمل أبويه وزوجته وأولاده أيضًا في نيته عندما يُخرج صدقةً أو زكاةً، ولن ينقص هذا من أجرٍ وثوابٍ صدقاته وزكواته.

- يقول العلامة ثناء الله باني بتي: «فعلى هذا معنى الحديث: كلُّ نسبٍ وسبٍ منقطعٌ إلا سبِّي ونسبي ولو بواسطة، يعني: نسبي ونسبِ أبنائي وإن سفّلوا وسبّي ومن له مني سببٌ، فكأنّ المراد أنّ قرابات الكفار وموالاتهم تنقطع دون قرابات المؤمنين وموالاتهم، نظيره قوله تعالى: ﴿الْأَخْلَاءَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] إنّ المؤمنين كلّهم أبناء لرسول الله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الزخرف: ٦]»^(٢)، وبنفس الطريقة، فإنّ الأساتذة المسلمين والمشايخ الروحانيين أيضًا يكونون بمثابة الأب الروحاني والإسلامي، ومن يعمل من الناس الصالحات اتباعًا لهم، فإنّ هؤلاء الأساتذة والمشايخ سيفيدون تلامذتهم ومريدهم أيضًا.

فائدة حسنات الأولاد

يقول الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية بأنه مثلما أنّ الأولاد يستفيدون ببركة الأعمال الصالحة للآباء، فإنّ الآباء كذلك يستفيدون بالأعمال الصالحة للأبناء، مثلما روي عن سيّدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: «إن كان الآباء أرفع درجةً رفع الله الأبناء إلى الآباء، وإن كان الأبناء أرفع درجةً رفع الله الآباء إلى الأبناء، فالآباء داخلون في اسم الذرية»^(٣)، «هذا فضله تعالى على الأبناء

(١) تفسير ابن كثير، سورة الطور (٥٢): الآية ٢١.

(٢) التفسير المظهر، سورة الرعد (١٣): الآية ٢٣.

(٣) تفسير القرطبي، سورة الطور (٥٢): الآية ٢١.

ببركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء»^(١)، وقد أوردَ الحافظُ ابنُ كثيرٍ الحديثينِ التاليينِ تأييدًا لهذا الكلام:

- روي عن سيّدنا أبي هريرة رضي الله عنه، أنّ النبي ﷺ قال: «إنَّ الرجلَ لَتَرْفَعُ درجتهُ في الجنّةِ فيقولُ: أتَى هذا؟ فيقال: باستغفارٍ وَلَدِكَ لك»^(٢).

- يقولُ سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: إنّ النبي ﷺ قال: «إذا مات الإنسانُ انْقَطَعَ عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُتَفَعُّ به، أو وَلَدٍ صالحٍ يدعو له»^(٣).

﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾

١٥ - قال مُقاتِلٌ: «كُلُّ أَمْرٍ كَافِرٍ بِمَا عَمِلَ مِنَ الشَّرِّ مَرْتَهَنٌ فِي النَّارِ»^(٤)؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ لَنْ يَخْلُدَ فِي جَهَنَّمَ إِذَا دَخَلَهَا، مِثْلَمَا يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ [الحشر: ٣٨-٣٩] (أي: أهل الإيمان).

يَنْقَلُ الْعَلَامَةُ الْقُرْطُبِيُّ فِي هَذَا الْخُصُوصِ هَذَا الْقَوْلَ: «هُوَ عَامٌّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مَرْتَهَنٌ بِعَمَلِهِ فَلَا يَنْقُصُ أَحَدٌ مِنْ ثَوَابِ عَمَلِهِ، فَأَمَّا الزَّيَادَةُ عَلَى ثَوَابِ الْعَمَلِ فَهِيَ تَفْضُلٌ مِنَ اللَّهِ»^(٥)، وَهَذَا فَضْلٌ مِنْهُ، وَلَا يُتَافَى الْعَدْلَ وَالْإِنصَافَ.

﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾

١٦ - كُلُّ مَا تَشْتَهِيهِ أَنْفُسُهُمْ مِنْ فَوَاكِهَ وَلَحُومٍ سَتُقَدَّمُ إِلَيْهِمْ. يَقُولُ الْعَلَامَةُ

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) ابن ماجه، أبواب الأدب، باب ١ برقم ٣٦٦٠.

(٣) مسلم، كتاب الوصية، باب ٣ برقم ٤٢٢٣.

(٤) تفسير البغوي.

(٥) تفسير القرطبي.

إسماعيلُ حقي في تفسير هذه الآية: «وفي الخبر: إنك لتشتهي الطير في الجنة، فيخِرُّ بين يديك مشوياً»^(١).

﴿يَنْتَرِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيَةٌ﴾

١٧ - سوف يتسابقون في الجنة إلى الشراب الطهور فيما بينهم من باب التسرية عن النفس، ولكن هذا الشراب الطهور لن يكون مُسكرًا مثل خمر الدنيا، وإنما هو طاهرٌ منعشٌ، فلا يهذي الإنسان بشربه، ولا يرتكب ذنبًا بسببه.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكَوْنٌ﴾

١٨ - سيعطى أهل الجنة أيضًا خدماً من الغلمان صغار السن يطوفون حولهم لخدمتهم، وهؤلاء الخدّم في قمة النظافة والنقاء والجمال مثل اللآلئ التي احتفظ بها بعيداً عن التراب والغبار، وقد نقل الإمام البغوي في تفسير هذه الآية ما يلي:

- يقول سيّدنا عبدُ الله بن عمرٍ رضي الله عنهما: «وما من أحدٍ من أهل الجنة إلّا يسعى عليه ألف غلامٍ، وكلُّ غلامٍ على عملٍ ما عليه صاحبه».

- يقول سيّدنا أبو قتادة رضي الله عنه: ذُكر لنا أنّ رجلاً قال: يا نبيّ الله، هذا الخادّم فكيف المخدوم؟ قال: «فضلُ المخدوم على الخادّم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»^(٢).

﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾

١٩ - حينما يلتقي أهل الجنة مع بعضهم بعد تناول طعام الجنة وشرابها

(١) تفسير روح البيان، سورة الطور (٥٢): الآية ٢٢.

(٢) تفسير معالم التنزيل، سورة الطور (٥٢): الآية ٢٤.

يقولون: لقد كنّا في الدنيا في غايَةِ القلقِ بشأنِ آخرتنا، وسواءً كنا في وحدتنا أم بين أهلينا، كنا نخافُ دائماً من أنه لو غَضِبَ اللهُ تعالى علينا فسنحترقُ في نارِ جهنّم، لكنّ فضلَ الله تعالى علينا عظيمٌ، إذ إنه وفّقنا إلى العملِ الصالح، ونجّانا من عذابِ جهنّم.

﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾

٢٠ - كنّا في الدنيا نقولُ أيضاً: إنّ الله تعالى رحيمٌ غايةَ الرحمة، وسوف يعفو عن أخطائنا، وكنّا ندعو بهذا الدُّعاء كثيراً: ﴿رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَكَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَكَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]، وهكذا أحسنَ اللهُ تعالى إلينا، ونجّانا من العذابِ بفضْلِ رحمته، إنه - بالفعل - ذو الفضلِ العظيم والرحيمُ غايةَ الرحمة.

فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخُلُقُوتُ ﴿٣٥﴾ أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَلْ لَا يُؤْفِقُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصْطَبِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلُوكٌ يَسْمَعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَعْمِلُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْآبِنَةُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾

٢٠ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

﴿فَذَكِّرْ مَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾

٢١ - مَنْ هو المجنون؟

المجنون يُقالُ لذلك: الشَّخصِ الذي يَقَعُ في عقلِه فتورٌ، فلا يستطيعُ التَّمييزَ بينَ الصُّدقِ والكذبِ، وبينَ الحِكْمَةِ والحَمَاقَةِ، وبينَ الخِيَانَةِ والأَمَانَةِ، ثم إنه يتحدَّثُ بكلام غير مترابط، ويأتي أفعالاً بلا طائل.

مَنْ هو الكاهن؟

الكاهنُ يُقالُ لذلك: الشَّخصِ يتحدَّثُ بحديثِ المستقبلِ بغيرِ وَحْيٍ يأتيه، واعتماداً على التخمينِ والظنِّ.

وكان كفَّارُ مَكَّةَ يقولونَ عن النبي ﷺ أحياناً: إنه كاهنٌ، وأحياناً أخرى يقولونَ: إنه مجنونٌ، وفي هذه الآية تسريَّةٌ عن قلبِ النبي ﷺ بأن لا تهتمَّ يا رسولَ الله ﷺ بما يقولونَ من كلام جارحٍ عنك؛ لأنك - بفضْلِ الله تعالى - لست بكاهنٍ ولا مجنون، وإنما أنت رسولُ الله ونبيُّه، ولهذا استمرَّ في تبليغِ دعوتِكَ والنُّصحِ لهم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾

٢٢ - كان كفَّارُ مَكَّةَ يقولونَ: إِنَّ النبي ﷺ شاعرٌ، وعندما يموتُ النبي ﷺ سيُنْتَهِي معه دينُه وشعرُه، مثله مَثَلٌ مَنْ سَبَقُوهُ مِنَ الشعراءِ، ولهذا فإنَّهم ينتظرونَ أن يموتَ بشكلٍ طبيعيٍّ، أو أن تحلَّ به المصائبُ بسببِ دعاءِ الآلهةِ عليه، وعندها ينتهي تفرُّقُ أهلِ مَكَّةَ.

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾

٢٣ - يعني: انتظروا أنتم نهايتي، وأنا أنتظرُ نهايتكم، وسيظهرُ قريباً مَنْ مَنَّا كان

على الحق، ومن منا كان على الضلال؟ وهكذا رأت الدنيا كلها أن الكفر والشرك قد انتهى تمامًا من شبه الجزيرة العربية في خلال عدة سنوات قليلة، ورفرفت فوق كل أرجائها راية الإسلام.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَعُوا مِنْ هَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾

٢٤ - لم يكن كفار مكة يستطيعون الرد على تعاليم النبي الكريم ﷺ المليئة بالعلم والحكمة، فكانوا أحياناً يقولون عنه: إنه كاهن، وأحياناً أخرى يقولون: إنه مجنون، وأحياناً ثالثة يقولون: إنه شاعر، مع أنه لا يمكن لشخص واحد أن يكون كاهناً ومجنوناً وشاعراً في وقت واحد؛ لأن الكاهن يكون في غاية المكر ودقيقاً في نظرته، وبالتالي يستطيع أن يخمن حول مستقبل الناس، أما الشاعر فيكون ماهراً في لغته، فيصُب أفكاره في قالب الأشعار، في حين أن حديث المجنون يكون غير مترابط ولا معنى له.

ألا تدرك عقول كفار مكة هذا الفرق الواضح بين الكاهن والمجنون، بحيث يقولون عن شخصية تنصف بالصدق والأمانة والعلم والحكمة بأن صاحبها مجنون وكاهن؟ الحقيقة أن هذا ليس قراراً من عقولهم، وإنما هم أناس طغاة متمردون، ومتمسكون بضلالهم بدافع من تعصبهم وتعنتهم ليس إلا.

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾

٢٥ - يقول كفار مكة: إن القرآن الكريم ليس كلام الله تعالى، وإنما هو كلام النبي ﷺ. والحقيقة أن هذا الكلام مجرد حيلة يختلقونها لكي لا يؤمنوا، ولو أنهم صادقون في دعواهم هذه، فهم أيضاً من البشر، وبالتالي عليهم أن يأتوا ولو بحديث واحد من مثل هذا القرآن.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾

٢٦ - السُّؤال هنا لمُنكري التوحيد، هو: هل خُلِقُوا هم من أنفُسِهِم هكذا بغير خالقٍ، أم أنهم هم الذين خَلَقُوا أنفُسَهُم؟ وعندئذٍ يُجيبون بأنَّ الذي خَلَقَهُم هو الله تعالى، مثلما قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧]، فإذا كان كفَّارُ مكةَ يعترفون بأنَّ الله تعالى هو الذي خَلَقَهُم، فماذا دَهَى عقولَهُم إذا حتى يترُكوا نورَ التوحيد ويَضِلُّوا في ظلماتِ الشُّرك؟

﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾

٢٧ - يقولُ منكرو التوحيد: إنَّ الله تعالى هو الذي خَلَقَهُم، وهنا يُوَجَّهُ إليهم سؤالُ ثانٍ، يعني: مَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ؟ وواضحٌ أنَّهم سيُجيبون بأنَّهم لم يَخْلُقُوا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ، وإنَّما خَلَقَهُنَّ الله تعالى، والآن السؤالُ هو: إذا كان هؤلاء يعترفون بأنَّ الله تعالى هو خالقُ كلِّ شيءٍ، فلماذا لا يعبدونه وحده؟ الحقيقةُ أنَّهم يعترفون بأنَّهم فقط بأنَّ الله تعالى هو خالقُ الكلِّ، لكنَّهم لا يؤمنون من قلوبهم بهذا الكلام، ولهذا لا يعبدون الله تعالى.

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ﴾

٢٨ - الله تعالى هو خالقُ خزائنِ العلم والحكمة والرِّزق والنُّبوة، فهل هؤلاء الكفَّارُ هم الذين يَمْلِكُونَ هذه الخزائن؟ وهم الذين يُقَسِّمُونَ هذه الخزائن كما يريدون، ولهذا فإنَّهم مُسْتَعْنُونَ عن الله تعالى ويُعْرِضُونَ عن أحكامِهِ؟ مع أنَّ الحقيقةَ ليست هكذا، فالله تعالى هو المالكُ الحقيقيُّ لكلِّ الخزائن وحاكُمُها، فيجعلُ من يشاءُ نبيًّا، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يَمْنَعَهُ من ذلك، فلماذا لا يَفْهَمُ الكفَّارُ هذه الحقيقةَ إذاً، ولماذا لا يؤمنون بها؟

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾

٢٩ - في هذه الآية يُسأل الكفار بأنهم لا يؤمنون بالنبى الكريم ﷺ، ويعتقدون بصحة اتباعهم لأبائهم وأجدادهم، فما الدليل لديهم على صحة هذا الكلام؟ هل لديهم سُلَّم - مثلاً - يصعدون عليه ويستمعون إلى حديث الله تعالى والملائكة في الملأ الأعلى، ويتيقنون من أن اعتقادهم صحيح؟ إن كان الأمر هكذا فليتقدم منهم ذلك الشخص الذي له علاقة مباشرة بالملأ الأعلى، ويُقدم دليلاً واضحاً على هذا الادعاء، وإن لم يكن الأمر هكذا - وهو بالتأكيد ليس هكذا - فلا ينبغي لهم إذاً أن ينكروا نبوة هذا الصادق الأمين الذي أرسله الله تعالى نبياً لهدايتهم.

﴿أَمْ لَهُ أَلْبَنَاتٌ وَلَكُمُ أَبْنَاءٌ﴾

٣٠ - كان أكثر الناس في شبه الجزيرة العربية يكرهون البنات، في حين كانت بعض القبائل تدعى أن الملائكة بنات الله تعالى، وفي هذه الآيات يُوجَّه السؤال إلى مشركي الجزيرة العربية بأنه ما الدليل لديكم على أن الملائكة بنات الله تعالى؟ هل كنتم موجودين حينما خلق الله تعالى الملائكة ورأيتم أنهم بالفعل بنات؟ أم هل لديكم دليل مكتوب ذكره نبي من الأنبياء أو كتاب سماوي؟ وإذا لم يكن لديكم أي من الدليلين - ومن المؤكد أنه ليس لديكم فعلاً أي دليل - فكم هو أحق ومسيء حكمكم بأن تُحبوا لأنفسكم البنين وتُحبوا الله تعالى البنات، مع أن الحقيقة هي أن الله تعالى منزلة عن الولد، ولهذا فإن القول بأن له ولداً كذب خطير وافتراء عظيم.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِّن مَّعْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾

٣١ - يا أيها النبى الحبيب ﷺ، لو أنك تطلب منهم أجراً على دعوتك إليهم إلى الإسلام مما لا يمكنهم تحمله أو أدائه، لكان إنكارهم ذا وجه وسبب، ولكنك تسعى لخيرهم بلا أجر منهم، فما أحق هؤلاء حين لا يسمعون ما تقول ولا يطيعونه!

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾

٣٢- يا أيُّها النبي الحبيب ﷺ، هؤلاء الكفار لا يؤمنون برغم آيات القرآن ومعجزاتك، فاسألهم ما هو الدليل لديهم على إنكارهم هذا؟ هل يأتيهم خبرٌ من الغيب فيكتبونه، فإن كان الأمر كذلك فليُقدِّموا هذه الوثيقة المكتوبة، ولكن الحقيقة هي أنه ليس لديهم أي شيء مكتوب من العلم الغيبي، وهم لا يؤمنون بك بسبب تعصُّبهم وعنادهم ليس إلا.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾

٣٣- لم يُكذِّب سادة قريش بدافع من تعصُّبهم وتكبُّرهم النبي ﷺ فقط، بل حاولوا أيضًا التأمّر على قتله ﷺ، لكنهم نسوا حقيقة أن من حفر لأخيه حفرة وقع فيها، وهكذا نجى الله تعالى النبي ﷺ من أهل مكة، وجاء به إلى المدينة المنورة، بينما قتل سادة قريش في بدر، ومن نجّا منهم تجرّع مرارة الهزيمة يوم فتح مكة.

التأمر على قتل النبي الكريم ﷺ في دار الندوة

حين وصل نور الإسلام إلى المدينة المنورة بعد فترة من المعارضة الشديدة له من قبل مشركي مكة، استمرت ثلاثة عشر عامًا، وهاجر معظم المسلمين من مكة إلى المدينة، شعر أهل مكة بخطر، وهو: أنه إذا هاجر النبي ﷺ أيضًا، فمن الممكن جدًا أن يُهاجم مكة بعد فترة ويفعل بنا الأفاعيل، ولذا علينا أن نأخذ قرارًا حاسمًا قبل أن تخرج الأمور عن سيطرتنا، وهكذا عقد سادة مكة اجتماعًا سرّيًا في قاعة الاجتماعات العامة بمكة (دار الندوة)، وتفصيله موجود في كتب التاريخ والتفسير المختلفة.

وقد روى ابن أبي حاتم في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنه «أن نفرًا من قريش ومن أشرف كل قبيلة، اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة، واعترضهم إبليس في

صُورَةُ شَيْخٍ جَلِيلٍ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ، سَمِعْتُ بِمَا اجْتَمَعْتُمْ لَهُ فَأَرَدْتُ أَنْ أَحْضَرَكُم، وَلَنْ يَعِدَّكُمْ مِنِّي رَأْيٌ وَنَصْحٌ، قَالُوا: أَجَلٌ، فَادْخُلْ، فَدَخَلَ مَعَهُمْ، قَالَ: انْظُرُوا فِي شَأْنِ هَذَا الرَّجُلِ، فَوَاللَّهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يُؤَاثِبَكُمْ فِي أَمْرِكُمْ بِأَمْرِهِ، فَقَالَ قَائِلٌ: احْبِسُوهُ فِي وَثَاقٍ ثُمَّ تَرَبَّصُوا بِهِ الْمُنُونَ حَتَّى يَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الشُّعْرَاءِ زَهِيرٌ وَنَابِغَةٌ، فَإِنَّمَا هُوَ كَأَحَدِهِمْ، فَقَالَ عَدُوُّ اللَّهِ، الشَّيْخُ النَّجْدِيُّ: لَا وَاللَّهِ، مَا هَذَا لَكُمْ بِرَأْيٍ، وَاللَّهُ لَيُخْرِجَنَّ رَأْيَهُ مِنْ مَحْبِسِهِ إِلَى أَصْحَابِهِ فَلَيُوشِكَنَّ أَنْ يَشْبُوا عَلَيْهِ حَتَّى يَأْخُذُوهُ مِنْ أَيْدِيكُمْ، ثُمَّ يَمْنَعُوهُ مِنْكُمْ، فَمَا آمَنُ عَلَيْكُمْ أَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ بِلَادِكُمْ، فَاَنْظُرُوا فِي غَيْرِ هَذَا الرَّأْيِ، فَقَالَ قَائِلٌ: فَأَخْرِجُوهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِكُمْ فَاسْتَرِيحُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ إِذَا خَرَجَ لَمْ يَضُرَّكُمْ مَا صَنَعَ وَأَيْنَ وَقَعَ، وَإِذَا غَابَ عَنْكُمْ أَذَاهُ اسْتَرَحْتُ مِنْهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فِي غَيْرِكُمْ، فَقَالَ الشَّيْخُ النَّجْدِيُّ: وَاللَّهُ مَا هَذَا لَكُمْ بِرَأْيٍ، أَلَمْ تَرَوْا حِلَاوَةَ قَوْلِهِ وَطَلَاقَةَ لِسَانِهِ وَأَخَذَهُ لِلْقُلُوبِ بِمَا يُسْتَمَعُ مِنْ حَدِيثِهِ؟ وَاللَّهُ لئنْ فَعَلْتُمْ ثُمَّ اسْتَعْرَضَ الْعَرَبَ لِيَجْتَمِعَنَّ عَلَيْهِ ثُمَّ لَيَسِيرَنَّ إِلَيْكُمْ حَتَّى يُخْرِجَكُمْ مِنْ بِلَادِكُمْ وَيَقْتُلَ أَشْرَافَكُمْ، قَالُوا: صَدَقَ وَاللَّهُ، فَاَنْظُرُوا رَأْيًا غَيْرَ هَذَا، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: وَاللَّهُ لَا أَشِيرَنَّ عَلَيْكُمْ بِرَأْيٍ مَا أَرَى أَبْصَرْتُموهُ بَعْدُ، مَا أَرَى غَيْرَهُ، قَالُوا: وَمَا هَذَا؟ قَالَ: نَأْخُذُ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ غَلَامًا سَبَطًا شَابًّا نَهْدًا، ثُمَّ نُعْطِي كُلَّ غَلَامٍ مِنْهُمْ سَيْفًا صَارِمًا، ثُمَّ يَضْرِبُونَهُ، يَعْنِي: ضَرْبَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمُوهُ تَفَرَّقَ دَمُهُ فِي الْقَبَائِلِ كُلِّهَا، فَلَا أَظُنُّ هَذَا الْحَيَّ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ يَقُودُونَ عَلَى حَرْبِ قُرَيْشٍ كُلِّهِمْ، وَأَنْتُمْ إِذَا رَأَوْا ذَلِكَ قَبِلُوا الْعَقْلَ وَاسْتَرَحْنَا وَقَطَعْنَا عَنَّا أَذَاهُ، فَقَالَ الشَّيْخُ النَّجْدِيُّ: هَذَا وَاللَّهُ هُوَ الرَّأْيُ، الْقَوْلُ مَا قَالَ الْفَتَى، لَا رَأْيَ غَيْرُهُ، فَتَفَرَّعُوا عَلَى ذَلِكَ وَهُمْ مُجْمِعُونَ لَهُ»^(١).

وَقَدْ اجْتَمَعَ شَبَابٌ مَخْتَارُونَ مِنْ قَبَائِلِ قُرَيْشٍ بِسُيُوفِهِمْ أَمَامَ بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةَ الْهَجْرَةِ، فَأُطْلِعَ سَيِّدَنَا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى مُؤَامَرَةِ

الكَفَّارِ ضِدَّهُ قَائِلًا: لَا تَنَمِ الْيَوْمَ فِي فَرَاشِكَ، فَقَدْ أَذِنَ اللَّهُ لَكَ بِالْهَجْرَةِ. وَعِنْدَئِذٍ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِسَيِّدِنَا عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «نَمِ عَلَى فَرَاشِي وَتَسَجَّ بُرْدِي هَذَا الْحَضْرَمِيِّ الْأَخْضَرَ، فَنَمِ فِيهِ، فَإِنَّهُ لَنْ يَخْلُصَ إِلَيْكَ شَيْءٌ تَكْرَهُهُ مِنْهُمْ»^(١).

وَعَهْدَ النَّبِيِّ ﷺ بِأَمَانَاتِ أَهْلِ مَكَّةَ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَهُ إِلَى سَيِّدِنَا عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَخَرَجَ مِنَ الْمَنْزِلِ، وَقَبَضَ قَبْضَةً مِنَ التُّرَابِ، وَأَلْقَى بِهَا عَلَى أَعْدَائِهِ الشَّبَابِ وَهُوَ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ مِنْ سُورَةِ يَس: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩].

وَهَكَذَا غَشِيَ التُّومُ الشَّبَابَ جَمِيعًا، وَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ بَيْنِهِمْ، وَذَهَبَ إِلَى بَيْتِ سَيِّدِنَا أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَاضْطَحَبَهُ إِلَى غَارِ ثَوْر^(٢). وَلَمْزِيْدٍ مِنَ التَّفْصِيلِ عَنْ أَحْوَالِ غَارِ ثَوْرٍ رَاجِعُ حَاشِيَةِ الْآيَةِ رَقْمَ ٤٠ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ (٩).

﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

٣٤ - فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ أَفْهَمَ اللَّهُ تَعَالَى الْكَفَّارَ بِالْأَدِلَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ أَنَّهُ لَا أَحَدَ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ، وَبِرَغْمِ ذَلِكَ إِنْ أَصْرُوا عَلَى أَنْ يَعْبُدُوا أَحَدًا غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى، فَهَذَا بِمِثَابَةِ طُغْيَانٍ وَاعْتِقَادٍ فَاسِدٍ مِنْهُمْ، فَاللَّهُ تَعَالَى وَاحِدٌ أَحَدٌ، وَهُوَ مَنْزَعٌ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ يَشْرِكُونَهُ مَعَهُ.

﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾

٣٥ - كَانَ كَفَّارُ مَكَّةَ يَطَالِبُونَ النَّبِيَّ ﷺ قَائِلِينَ: إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا حَقًّا فَأْتِنَا بِقِطْعَةٍ

(١) سبل الهدى والرشاد، ٣: ٣٢٦.

(٢) ضياء النبي، ٣: ٥٨.

من السماء، وفي هذه الآية أبطلَ اللهُ تعالى ما يُطالبونَ به قائلاً بأنَّ كَفَّارَ مَكَّةَ قد تَوَغَّلُوا في تعصُّبِهِم وعنادِهِم إلى درجة أنَّا لو أثبتناهم - فَرَضًا - بقطعةٍ من السماء، وأسَقَطْنَاهَا أَمَامَهُم، ورَأَوْا - بالفعل - أنَّ قطعةً من السماء تسقُطُ أَمَامَهُم، فإنَّهم مع ذلك لن يؤمنوا، وإنما سيقولون: إن هذه ليست قطعةً من السماء، وإنما هي سحابةٌ تتدلَّى إلى أسفل.

﴿فَذَرَّهُمْ حَتَّى يَلْقَوْا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾

٣٦ - في هذه الآية تسريَّةٌ عن قلبِ النبيِّ الكريم ﷺ بأنه إذا لم يقبلَ المشركونَ الحقَّ برغم وضوحه، وأصرُّوا على نظريَّاتهم الباطلة، فلا تهتمَّ بتعصُّبهم هذا، ولا تغتمَّ ولا تحزنْ على عَدَمِ إيمانِهِم، فهؤلاء لن يؤمنوا فعلاً، وحين يروْنَ عاقبةَ أفعالِهِم القبيحة يومَ القيامة، سيَطرُ صوابُهُم، ولن يُفِيدَهُم في شيءٍ يومَ القيامة كلُّ مكرٍ أو خِدا ع ارتكبه في الدُّنيا ضدَّ الإسلام، كما أنه لن يستطيعَ أحدٌ أن يمدَّ لهم يدَ العون والمساعدة.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾

٣٧ - يرى سيِّدنا عبدُ اللهِ بنُ عباس رضي الله عنهما أنَّ المرادَ بالعذابِ الذي سيلقاهُ الظالمونَ قبلَ عذابِ يومِ القيامة إنما هو عذابُ القبر^(١)، ولمزيدٍ من التفصيل عن عذابِ القبر راجع الحاشية رقم ٣٨ للآية رقم ٤٦ من سورة غافر (٤٠).

﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾

٣٨ - يا أيُّها النبيُّ الحبيب ﷺ، ليس لدى هؤلاء المُنكرين أيُّ دليلٍ على إنكارِهِم القيامة والتوحيد، وهم يسعونَ جاهدين في مخالفتك بسببِ تعصُّبِهِم،

(١) «عن ابن عباس، هو عذاب القبر». تفسير القرطبي.

ولكن لا تقلق ولا تهتم، فإنك بأعيننا، ونحن نحفظك، ولا يستطيع أحد أن يمس ولو شعرة واحدة منك بسوء، فاصبر على كلامهم الجارح، وواصل التسبيح بحمد ربك من أجل سكينه قلبك وطمأنينته، وخاصة حين تقوم من نومك، وحين تقف للصلاة، وحين تقوم من مجلسك، وسواء في صلاة التهجد أو صلاة الفجر، اجتهد في حمد ربك والثناء عليه.

الفقيه إلى الله: محمد إمداد حسين بيرزاده،
جامعة الكرم، إنجلترا
بعد صلاة الظهر من يوم السبت ١٤ أغسطس
٢٠١٠م
الموافق ٣ رمضان ١٤٣١هـ.

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٣) سُورَةُ النَّجْمِ

هذه السُّورَةُ مَكِّيَّةٌ، واسمُها «النَّجْمُ»، وهو مأخوذٌ من الآية الأولى منها.

هذه أولُ سُورَةٍ يُعلنُها النبي ﷺ، فقد تلاها النبي ﷺ في الحَرَمِ الشَّريفِ بصوتٍ عالٍ، وكان المشركونَ يسمعونَه، وهذه أولُ سورةٍ نَزَلَتْ فيها آيَةُ سَجْدَةٍ^(١)، وكان أعجبُ ما في هذا الأمرِ أنه عندما سَجَدَ النبي ﷺ في آيَةِ السجدة خَرَّ معه في السجودِ الكفارُ أيضًا وليس المسلمونَ فقط.

- يقولُ سيِّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قرَأَ سُورَةَ النَّجْمِ فسَجَدَ بها، فما بقيَ أحدٌ من القومِ إِلَّا سَجَدَ، فأخذَ رجلٌ من القومِ كُفًّا من حَصَى أو ترابٍ، فَرَفَعَهُ إلى وجهه وقال: يكفيني هذا، فلقد رأيته بعدُ قَتَلَ كَافِرًا^(٢).

- يقولُ سيِّدُنا عبدُ الله بنُ عباسٍ رضي الله عنهما: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَجَدَ بِالنَّجْمِ وَسَجَدَ مَعَهُ المسلمونَ والمشركونَ والجنُّ والإنسُ^(٣).

(١) «هذه أول سورة أعلن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقراءتها، فقرأها في الحرم والمشركون يسمعون... وهي أول سورة أنزلت فيها سجدة». تفسير روح المعاني.

(٢) البخاري، كتاب سجود القرآن، باب ٤ برقم ١٠٧٠.

(٣) البخاري، كتاب سجود القرآن، باب ٥ برقم ١٠٧١.

مضامين السورة

- جاء في بداية هذه السورة إبطالاً لاتِّهاماتِ الكفَّارِ التي قالوا فيها: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَادٍ عَنْ دِينِ آبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ، وَيُؤَلِّفُ كَلَامًا مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ، وَيَنْسُبُهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَأَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى مُؤَكِّدًا تَأْكِدًا تَامًّا عَلَى بَطْلَانِ هَذِهِ الْاِتِّهَامَاتِ قَائِلًا: إِنَّ نَبِيَّيْ لَمْ يَحِذْ عَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ أَبَدًا، كَمَا أَنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ بِشَيْءٍ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ، وَإِنَّمَا كُلُّ مَا يَقُولُهُ وَحْيٌ مِنِّي.

- جاء بعد ذلك ذكرُ المعراج، وهو الذي جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ النَّبِيَّ ﷺ يَطُوفُ بِالْعَالَمِ الْعُلُويِّ، وَجَعَلَهُ يَرَاهُ أَيْضًا، وَلِهَذَا فَإِنَّ كُلَّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ النَّاسَ بَعْدَ عَوْدَتِهِ مِنَ الْمِعْرَاجِ لَمْ يَكُنْ مَجْرَدَ إِشَاعَاتٍ أَوْ كَلَامٍ نَظَرِيٍّ، وَإِنَّمَا هُوَ مُشَاهِدَاتُهُ ﷺ بِعِيُونِهِ الطَّاهِرَةِ.

- فِي السُّورَةِ تَنْبِيهٌُ لِلْكَفَّارِ بِأَنَّكُمْ تَتَّبِعُونَ آبَاءَكُمْ وَأَجْدَادَكُمْ، وَتَتَّبِعُونَ كَذَلِكَ ظَنِّكُمْ وَأَهْوَاءَكُمْ، وَلَيْسَ لَدَيْكُمْ أَيْ دَلِيلٌ عَلَى كُفْرِكُمْ وَشِرْكِكُمْ هَذَا، وَالْآنَ أَمَّا وَقَدْ جَاءَتْكُمْ الْهُدَايَةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فَعَلَيْكُمْ إِذَا أَنْ تَتَخَلَّوْا عَنْ ظَنِّكُمْ وَأَوْهَامِكُمْ، وَتَتَّبِعُوا هَذِهِ الْهُدَايَةَ.

إِنَّ نَبِيَّيْ لَمْ يَأْتِ بِدِينٍ جَدِيدٍ، وَإِنَّمَا هَذَا هُوَ الدِّينُ نَفْسُهُ الَّذِي جَاءَ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ الْكَرَامُ السَّابِقُونَ مِنْ قَبْلُ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا السَّلَامُ، وَالْأَقْوَامُ الَّذِينَ كَذَّبُوهُمْ أَهْلَكْنَاهُمْ، وَلِهَذَا لَا يَنْبَغِي أَنْ تُضَيِّعُوا وَقْتَكُمْ فِي الْغَفْلَةِ، وَاعْبُدُوا اللَّهَ تَعَالَى خَالِقَكُمْ الْحَقِيقِيَّ، وَإِنْ لَمْ تَرْجِعُوا عَنْ طُغْيَانِكُمْ، فَسَيَكُونُ مَصِيرُكُمْ مِثْلَ مَصِيرِ مَنْ سَبَقَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ.

الفقيه إلى الله: مُحَمَّدٌ إِمْدَادُ حُسَيْنٍ بَيْرَزَادِهِ،

جامعة الكرم، إنجلترا

بعد صلاة العصر من يوم الأحد ١٥ أغسطس ٢٠١٠م

الموافق ٤ رمضان ١٤٣١هـ.

سُورَةُ النَّجْمِ (٥٣)،

مكية (٢٣)، آياتها (٦٢)، ركوعاتها (٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ① مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ② وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ③ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ④ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ⑤ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ⑥ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ⑦ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ⑧ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ ⑨ أَوْ أَدْنَىٰ ⑩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ⑪ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ⑫ أَفَتَسْمُرُونَ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ⑬ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ⑭ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ⑮ عِنْدَ هَاجَةِ الْمَلْأَىٰ ⑯ إِذِ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ⑰ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ⑱ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ⑲ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّتَ وَالْعُزَّىٰ ⑳ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةِ الْآخِرَىٰ ㉑ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ㉒ تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ㉓ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَعَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ ㉔ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ㉕ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ㉖

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾

١ - يَبَيِّنُ الْمَفْسَّرُونَ فِي هَذَا الْخُصُوصِ مَعَانِي مُتَعَدِّدَةً لِلنَّجْمِ الْمَضِيِّ، عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ:

- يَقُولُ سَيِّدُنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مَعْنَى ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾: وَالثَّرِيًّا إِذَا سَقَطَتْ مَعَ الْفَجْرِ، وَالْعَرَبُ تُسَمِّي الثَّرِيًّا نَجْمًا وَإِنْ كَانَتْ فِي الْعَدَدِ نَجْمًا»^(١).

- ويقول سيّدنا مجاهدٌ: «إنَّ المعنى: والقرآن إذا نُزِّل؛ لأنَّه كان يُنزلُ نجومًا»^(١).

- يقول الإمام جعفرُ الصادقُ ابنُ محمدٍ بن عليٍّ بن الحسين رضي الله عنهم جميعاً: «وَالنَّجْمُ» يعني: محمّداً ﷺ، ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾: إذا نُزِلَ من السَّماءِ ليلةَ المعراج^(٢). وقد تَرَجَّم هذا الفقيرُ إلى الله معنى هذه الآية طبقاً لهذا القول للإمام جعفر الصادق، وهو المعنى القريبُ من القياس؛ لأنَّ الآياتِ التالية لهذه الآية تتحدّثُ عن القُربِ الخاصِّ من الله تعالى، والوحي الخاصِّ من الله تعالى بصورة مباشرة، والرؤية الخاصّة لذاتِ الله تعالى، وكلُّها تتعلّقُ بليلةِ المعراج.

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾

٢ - كان كفّارُ مكة يَتهُمونَ النَّبيَّ ﷺ بأنَّه حادَّ عن دينِ قومه وضلَّ، وقد ردَّ الله تعالى على هذا الاتِّهام في هذه الآية قائلاً: إنَّ نبيِّي دائماً على الصُّراطِ المستقيم، ولم يَضلَّ أبداً، والدليلُ الواضحُ على ذلك أنَّه رفيقُكم، ويعيشُ أيامه ولياليه معكم، وقد أحسنَ النصَّحَ لكم دائماً في الأمورِ الدُّنيويَّة، وهو الآنَ في أمورِ الدِّينِ يريدُ الخيرَ لكم، ولهذا فإنَّ الطريقَ الذي يدعوكم إليه هو الطريقُ المستقيم، وإن كنتم تريدون النِّجاةَ فاتركوا ضلالَ آبائكم وأجدادكم واتَّبِعوه هو.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾

٣ - يعني أنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يتكلَّمُ بهوى نفسه أصلاً، وإنَّما يتكلَّمُ بما يوحى إليه من الله تعالى، ولهذا فإنَّ كلَّ ما يقوله النَّبيُّ ﷺ هو الحقُّ، مثلما قال سيّدنا عبدُ الله بن عمرٍ رضي الله عنهما: كنتُ أَكُتِبُ كلَّ شيءٍ أسمعُه من رسولِ الله ﷺ

(١) تفسير القرطبي.

(٢) المصدر السابق.

أريدُ حفظه، فَهَتَنِي قُرَيْشٌ، وقالوا: تَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،
ورَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَشَّرُ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرَّضَا؟ فَأَمَسَكْتُ عَنِ الْكِتَابِ، فَذَكَرْتُ
ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَوْمَأَ بِإصْبَعِهِ إِلَيَّ فِيهِ، وَقَالَ: «اَكْتُبْ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا
خَرَجَ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ»^(١).

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾

٤ - في الآيات من الآية رقم ٥ إلى الآية رقم ١٨ ذِكْرٌ لَذَلِكَ الْجُزْءِ مِنْ مَعْجَزَةِ
المِعْرَاجِ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَالَّذِي يَتَعَلَّقُ بِسَدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَبِالْأَمْكَانِ.

اختلاف المفسرين

في هذه الآيات ذِكْرٌ لِشَخْصِيَّتَيْنِ، مَنْ هُمَا هَاتَانِ الشَّخْصِيَّتَانِ؟ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ
فِي مَا يَتَعَلَّقُ بِهِمَا، فَقَالَتْ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: إِنَّ الشَّخْصِيَّتَيْنِ الْمَذْكُورَتَيْنِ
فِي الْآيَاتِ هُمَا: سَيِّدُنَا جِبْرِيلُ الْأَمِينُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَسَيِّدُنَا النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ،
يَعْنِي: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَلْتَقِ اللَّهَ تَعَالَى لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ، وَإِنَّمَا التَّقَى سَيِّدُنَا جِبْرِيلُ
عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَقَالَتِ الْمَجْمُوعَةُ الثَّانِيَةُ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: إِنَّ الْمَذْكُورَيْنِ فِي الْآيَاتِ هُمَا النَّبِيُّ
الْكَرِيمُ ﷺ وَاللَّهُ تَعَالَى، يَعْنِي: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ التَّقَى اللَّهَ تَعَالَى لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ.

وَيُمْكِنُ اسْتِنْتَاجُ الْمَعْنَيْنِ مِنَ الْآيَاتِ، لَكِنَّ هَذَا الْعَبْدَ الْفَقِيرَ تَبَنَّى مَوْقِفَ
الْجَمَاعَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ، يَعْنِي: أَنَّ الْمَذْكُورَيْنِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةُ هُمَا:
النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ وَاللَّهُ تَعَالَى، وَقَدْ دَوَّنْتُ التَّرْجُمَةَ وَالتَّفْسِيرَ طَبَقًا لِهَذَا.

خلاصة مفهوم الآيات

الله تعالى شديد القوى الحكيمُ العليم، علّم النبي ﷺ القرآنَ المَجِيد، مثمّا قال الله تعالى في سورة الرحمن: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: ١-٢].

حين وصل النبي ﷺ في رحلة المعراج إلى أعلى حافة في الكائنات، أراد ﷺ الصُّعودَ إلى المزيد من العلوِّ، فأنعم الله تعالى على حبيبه النبي ﷺ بقرب جعله منه أقرب من قوسين أو أقل من ذلك، وفي هذا المقام الخاص من القرب كلم الله تعالى عبده المقرب سيّدنا محمداً ﷺ بما شاء، وهناك رأى النبي ﷺ الله تعالى، وصدّق القلبُ هذه الرؤية، بمعنى: أنها لم تكن مناماً، وإنما كانت رؤية حَظِي بها الجسمُ والروحُ والعينانِ والقلبُ، فهل تُجادلون النبي ﷺ إن كان قد رآه أم لا؟ مع أنه لم يره مرةً واحدة فقط، وإنّما رآه مرةً ثانيةً أيضاً عند سِدرة المنتهى، في ذلك الوقت غطى نورُ الحقِّ تعالى سِدرة المنتهى، ورأى النبي ﷺ نورَ الله تعالى بكلِّ اطمئنان، ولم يفقد وعيه مثلما حدّث مع سيّدنا موسى عليه السّلام، وإنّما استغرقت عيناه في رؤية الحقِّ تعالى بحيث لم تعودا تريان غيره، ولم تلتفتا إلى سواه، وقد شاهد النبي ﷺ في رحلة المعراج هذه آياتٍ من الله تعالى لا حصرَ لها.

١ - دورُ سيّدنا جبريل الأمين عليه السّلام في واقعة المعراج

رافق سيّدنا جبريلُ الأمينُ عليه السّلامُ سيّدنا محمداً ﷺ في رحلة المعراج هذه من مكة المكرمة حتى سِدرة المنتهى كخادم له ﷺ ورسولٍ إليه، على سبيل المثال: كان النبي ﷺ يستريحُ في الحَظِيم عند الكعبة المشرفة، إذ جاءه سيّدنا جبريلُ عليه السّلامُ وأيقظَه من نومه، وأخبرَه بالإرادة الإلهيّة، ثم اضطَحَبَه بالقرب من زمزم، وشقَّ صدرَه الشَّريف، ثم أخرج قلبه منه، فغَسَلَه، وملاهَ بالإيمانِ والحِكمة، ثم

أعادَه إلى موضِعِه وأغلق صدرَه كما كان، ثم قدَّم للنبي ﷺ حيوانًا ليمتطيَه، ويدعى «البراق»، وكان البراقُ في غايةِ السُرعة بحيث كان يضعُ قدمَه حيث يصلُ بصرُه^(١)، وحين وصل النبي ﷺ إلى بيت المقدس حيث جُمع له الأنبياءُ جميعًا عليهم السَّلامُ هناك، فقدَّم سيِّدنا جبريلُ الأمينُ عليه السَّلامُ سيِّدنا محمدًا ﷺ لإمامةِ الأنبياءِ في الصَّلاة، فصلى بالأنبياءِ جميعًا عليهم السَّلام^(٢). ثم عُرجَ سيِّدنا محمدٌ ﷺ من بيت المقدس إلى السَّموات (وكان سيِّدنا جبريلُ عليه السَّلامُ يقومُ بطَّريقِ أبوابِ كلِّ سماءٍ، ويُخبرُه بالطريقِ كالخادم)، ووصل النبي ﷺ إلى سِدرةِ المنتهى بعدَ لقائه بالأنبياءِ الكرامِ عليهم السَّلام^(٣)، وعندَ سِدرةِ المنتهى توقَّفَ سيِّدنا جبريلُ عليه السَّلامُ هناك

(١) «عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة - رضي الله عنهما - أن نبي الله ﷺ حدّثهم عن ليلة أسري به: «بينما أنا في الحطيم - وريّما قال: في الحجر - مضطجعًا، إذ أتاني آتٍ فقدّ - قال: وسمعتَه يقول: فشقّ - ما بين هذه إلى هذه - فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثغرة نحره إلى شعرتَه، وسمعتَه يقول: من قصّبه إلى شعرتَه - فاستخرج قلبي، ثم أتيت بطستٍ من ذهبٍ مملوءةٍ إيمانًا، فغسل قلبي ثم حشي، ثم أتيت بدابةٍ دون البغل وفوق الحمار أبيض». فقال له الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟ قال أنس: نعم، يضع خطوه عند أقصى طرفه. البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب ٤٢ برقم ٣٨٨٧.

(٢) «ثم دخلت بيت المقدس فجمع لي الأنبياء عليهم السَّلام، فقدّمني جبريل حتّى أممتهم». النسائي، كتاب الصَّلاة، باب ١.

(٣) «فحملت عليه، فانطلق بي جبريل حتّى أتى السَّماء الدُّنيا فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمّد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء. ففتح، فلمّا خلصت، فإذا فيها آدم، فقال: هذا أبوك آدم فسلم عليه. فسلمت عليه فردّ السَّلام ثم قال: مرحبًا بالابن الصَّالح والنبي الصَّالح. ثم صعد حتّى أتى السَّماء الثَّانية فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمّد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحبًا به فنعم المجيء جاء. ففتح، فلمّا خلصت، إذا يحيى وعيسى، وهما ابنا الخالة، قال: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما. فسلمت فردّا، ثم قال: مرحبًا بالأخ الصَّالح والنبي الصَّالح. ثم صعد بي إلى السَّماء الثَّالثة، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمّد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء. ففتح، فلمّا خلصت =

وقال: لو تقدّمتُ أكثر من ذلك قَيْدٌ أَنْمَلَةٌ لَاحْتَرَقْتُ^(١)، كما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «ما من نبيٍّ إلّا وله وزيرانِ من أهل السماءِ ووزيرانِ من أهل الأرض، فأما وزيراي من أهل السماء فـجبرئيلُ وميكائيلُ، وأما وزيراي من أهل الأرض فأبو بكرٍ وعُمر»^(٢).

- وبعدَ قراءةِ الأحاديثِ المذكورة يبدو عجيباً القولُ بأنَّ سيّدنا جبريلَ الأمينَ

= إذا يوسف. قال: هذا يوسف فسلم عليه. فسلمت عليه فردّ، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح. ثم صعد بي حتّى أتى السماءَ الرَّابِعةَ، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمّدٌ. قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء. ففتح، فلمّا خلصت إلى إدريس قال: هذا إدريس فسلم عليه. فسلمت عليه فردّ ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح. ثم صعد بي حتّى أتى السماءَ الخامسةَ، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمّدٌ ﷺ. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء. فلمّا خلصت فإذا هارون، قال: هذا هارون فسلم عليه. فسلمت عليه فردّ ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح. ثم صعد بي حتّى أتى السماءَ السادسةَ، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: من معك؟ قال: محمّدٌ. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قال: مرحباً به، فنعم المجيء جاء، فلمّا خلصت، فإذا موسى، قال: هذا موسى فسلم عليه، فسلمت عليه فردّ ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح. فلمّا تجاوزت بكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأنّ غلاماً بعث بعدي، يدخل الجنّة من أمته أكثر من يدخلها من أمّتي. ثم صعد بي إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل. قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً به، فنعم المجيء جاء، فلمّا خلصت، فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك فسلم عليه. قال: فسلمت عليه، فردّ السّلام، قال: مرحباً بالابن الصالح والنبيّ الصالح. ثم رفعت إليّ سدرة المنتهى». البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب ٤٢ برقم ٣٨٨٧.

(١) ويروى أن جبريل لما وصل إلى السدرة التي هي مقامه تأخر فلم يتجاوز، فقال عليه السّلام:

«أفي مثل هذا المقام يترك الخليل خليله؟». فقال: لو تجاوزت لأحرقت بالنور. وفي رواية:

لو دونت أنملة لأحرقت. تفسير روح البيان، سورة الإسراء (١٧): الآية ١.

(٢) كنز العمال، ١١: ٥٦٠ برقم ٣٢٦٤٧.

عليه السَّلامُ قدِ اضْطَحَبَ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عليه الصَّلَاةُ والسَّلامُ بكلِّ هذا الاهتمام إلى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى لكي يُرِيَهُ شَكْلَهُ وَصُورَتَهُ الْأَصْلِيَّةَ، ويوصلَ إليه العِلْمَ المعطى من الله تعالى (أي: الوحي)، في حين أنَّ سَيِّدَنَا جِبْرِيلَ عليه السَّلامُ كان يُبَلِّغُ النَّبِيَّ ﷺ بالوحي على الأرض أيضًا، وقد أراه صُورَتَهُ وشَكْلَهُ الْأَصْلِيَّ من قبل، مثلما قال النَّبِيُّ ﷺ وقتَ فترةِ الوحي: «بَيْنَا أَنَا أَمْشِي، إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ (أي: على صُورَتِهِ الْأَصْلِيَّةِ)»^(١).

٢ - الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ

فَرَضَ اللَّهُ تَعَالَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ عَلَى الْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ أَثْنَاءَ الْقُرْبِ الْخَاصِّ مِنْهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ، مثلما يقولُ سَيِّدُنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مِنْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَتَزَلْتُ إِلَى مُوسَى ﷺ فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلَاةً. قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا يَطِيقُونَ ذَلِكَ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ. قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي فَقُلْتُ: يَا رَبِّ خَفِّفْ عَلَى أُمَّتِي. فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقُلْتُ: حَطَّ عَنِّي خَمْسًا. قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا يَطِيقُونَ ذَلِكَ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ... قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَبَيْنَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً... فَتَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَقُلْتُ: قَدْ

(١) البخاري، كتاب بدء الوحي، باب ٣ برقم ٤.

رجعتُ إلى ربِّي حتَّى استحييتُ منه (أي: أن أسأله مزيدًا من التخفيف)»^(١).

والآن إذا سلّمنا بأن سيّدنا جبريلَ عليه السّلام هو المقصودُ هنا بدلًا من الله تعالى، فهل جبريلُ عليه السّلام هو الذي فَرَضَ الصّلاة؟ وهل نَصَحَ سيّدنا موسى عليه السّلام سيّدنا محمدًا ﷺ في ليلةِ المعراج أن يعودَ إلى سيّدنا جبريلَ عليه السّلام؟ بالقطع لا، فهذا الحديثُ واضحٌ تمامَ الوضوح، أي: أن النبيَّ ﷺ قد مثّل في حضرة الله تعالى ليلةَ المعراج، وأنَّ الله تعالى أوحى إليه بصورةٍ مباشرة، ومن بين هذا الوحي كانتِ الصّلواتُ الخمسون، وأثناء العودَةِ من هناك قال سيّدنا موسى عليه السّلام لسيّدنا محمدٍ ﷺ: أن ارجعْ إلى ربِّك فاسأله التخفيفَ.

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾

٥ - حين تَرَكَ النبيَّ ﷺ خَلْفَهُ الكائناتِ كلّها وكذا سيّدنا جبريلُ عليه السّلام وَوَصَلَ إلى اللامكان، أنعم الله تعالى عليه بقُرْبٍ خاصٍّ بحيث تناقَصَتِ المسافات، مثلما رُوي عن سيّدنا أنسِ بن مالك رضي الله عنه: «ثمّ علا به فوقَ ذلك بما لا يَعْلَمُهُ إلّا الله، حتّى جاء سِدْرَةَ المُنْتَهَى، ودنا الجَبَّارُ ربُّ العِزَّة فَتَدَلَّى حتّى كان منه قَابَ قَوْسَيْنِ أو أدنى»^(٢)، وليس المَرَادُ بهذا القُرْبِ هو قُرْبُ المسافاتِ والأماكن، وإنّما المقصودُ هو الإخبارُ بقُرْبِ شَرَفِ وَعَظَمَةِ النبيِّ ﷺ، يعني: أن الله تعالى قد شَرَّفَ النبيَّ ﷺ باهتمام خاصٍّ، والله تعالى مَنْزَعٌ عن المكان، وعندما يُنعمُ على أحدٍ بالقُرْبِ، أو يَنْزِلُ في مكان، فمعناه: أن الله تعالى يهتمُّ به اهتمامًا خاصًّا، مثلما أن المقصودَ من القُرْبِ والنزولِ في الحديثَيْنِ التالِيَيْنِ هو الاهتمامُ الخاصُّ:

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٧٤ برقم ٤١١.

(٢) البخاري، كتاب التوحيد، باب ٣٧ برقم ٧٥١٧.

- يقول سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: إنّ النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى: أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإنّ ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإنّ ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خيرٍ منهم، وإن تقرب إليّ بشبرٍ تقربتُ إليه ذراعًا، وإن تقرب إليّ ذراعًا تقربتُ إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هزولة»^(١).

- يقول سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: إنّ النبي ﷺ قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كلّ ليلةٍ إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟»^(٢).

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾

٦ - لقد جعل الله تعالى عبده الحبيب يراه في حالة القرب الخاص، وأوحى إليه بصورة مباشرة، فإذا سلّمنا بتفسير المجموعة الأولى من المفسرين، بمعنى: أنّ المذكورين في الآيات هما: سيّدنا جبريل الأمين عليه السلام وسيّدنا محمد ﷺ، فستكون هناك مشكلة في تفسير هذه الآية؛ لأنّ سيّدنا محمدًا ﷺ ليس عبدًا لسيّدنا جبريل عليه السلام، وإنّما عبدٌ لله تعالى، وهو الذي عرج به ليريه ذاته.

رؤية الذات الإلهية

١ - سأل سيّدنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما سيّدنا كعبًا رضي الله عنه في عَرَافَاتٍ عن أمرٍ من الأمور، فقال له سيّدنا كعبٌ رضي الله عنه: «إنّ الله قَسَمَ رؤيته وكلامه بينَ محمدٍ وموسى، فكلمَ موسى مرّتينِ ورآه محمدٌ مرّتينِ»^(٣).

(١) البخاري، كتاب التوحيد، باب ١٥ برقم ٧٤٠٥.

(٢) البخاري، كتاب التهجد، باب ١٤ برقم ١١٤٥، والترمذي برقم ٤٤٦.

(٣) الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب ٥٣، سورة النجم (٥٣): برقم ٣٢٧٨.

٤٠ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

٢ - سأل سيّدنا عبد الله بن شقيق رضي الله عنه سيّدنا أبا ذرّ رضي الله عنه: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألتُهُ، فقال: عن أيّ شيء كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأيت ربّك؟ قال أبو ذرّ: قد سألتُ فقال: «رأيتُ نورًا (يعني: ربّي)»^(١).

٣ - يقول سيّدنا عكرمة رضي الله عنه: إنّ سيّدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: رأى محمّدٌ ربّه. قلتُ: أليس الله يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]؟ قال: وَنَحْك! ذاك إذا تجلّى بنوره الذي هو نوره، وقد رأى محمّدٌ ربّه مرّتين^(٢).

٤ - يقول سيّدنا أبو ذرّ رضي الله عنه: سألتُ رسول الله ﷺ: هل رأيت ربّك؟ قال: «نورٌ أنى أراه»^(٣).

٥ - يقول العلامة بدر الدين العيني في شرح البخاريّ: «وروى ابنُ خزيمة بإسنادٍ قويٍّ عن أنس، قال: رأى محمّدٌ ربّه. وبه قال سائرُ أصحابِ ابنِ عباس وكعبُ الأحرار والزُّهريّ وصاحبُ معمرٍ وآخرون، وحكى عبدُ الرزّاق عن معمرٍ عن الحسن، أنه حلف أن محمّدًا رأى ربّه»^(٤).

٦ - حين سئل سيّدنا الإمام أحمد بن حنبل: إن كان النبي ﷺ رأى ربّه، فقال: «(رأه رآه) حتى ينقطع نفسه ولا يزيدُ على ذلك»^(٥).

٧ - يُبدي العلامة سيّد محمود الألوسيّ رأيَه الشَّخصيَّ في موضوع الرُّؤية

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٧٨ برقم ٤٤٤.

(٢) الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب ٥٣ برقم ٣٢٧٩.

(٣) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٧٨ برقم ٤٤٣.

(٤) عمدة القاري شرح البخاري، ١٩: ١٩٨.

(٥) تفسير روح المعاني، سورة النجم (٥٣): الآية ١٨.

الإلهية هذه قائلاً: «وأنا أقول برؤيته صلى الله تعالى عليه وسلم ربّه سبحانه وبدنوّه منه سبحانه على الوجه اللائق»^(١).

كلام المحبة والدلال

يقول العلامة سيّد سليمان الندوي: ثم إنه ربّما أن محجوب الأزل قد رفع الحجاب عن الوجه، وهكذا كان كلام المحبة والدلال في خلوة السرّ، مما لا يمكن أن تتحمّل الألفاظ رفّته ولطافته، ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]^(٢).

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾

٧ - يقول المفتي أحمد يار خان في تفسير هذه الآية: المراد بالنزلة الأخرى هنا: مرات ومرات؛ لأنّ النبي ﷺ ذهب إلى الحضرة الإلهية مرات ومرات لتخفيف الصلوات بناءً على طلب سيّدنا موسى عليه السّلام^(٣).

﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾

٨ - السدرة هي: شجرة من أشجار الثّوت، جذورها في السّماء السادسة، وجذعها في السّماء السابعة، والسدرة هي البرزخ بين من في السّماء السابعة ومن فوقها، والأشياء التي تصعد إلى أعلى لا تتقدّم فوق السدرة، والأشياء التي تنزل من العالم العلوي لا يمكن أن تنزل أسفل السدرة، مثلما قال سيّدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إنه ينتهي إليها كلّ ما يهبّط من فوقها ويصعد من تحتها»^(٤)، ولكنّ

(١) تفسير روح المعاني، سورة النجم (٥٣): الآية ١٨.

(٢) سيرة النبي، ٣: ٤٢٣.

(٣) تفسير نور العرفان.

(٤) تفسير القرطبي.

٤٢ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

نَبِّئْنَا الْحَبِيبَ ﷺ تَقَدَّمْ فَوْقَ السِّدْرَةِ فِي طَرِيقِهِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ، كَمَا أَنَّهُ نَزَلَ أَسْفَلَ السِّدْرَةِ أَيْضًا فِي عَوْدَتِهِ.

يقول القاضي ثناء الله: الوصولُ إلى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ ثَابِتٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَهُوَ ثُبُوتٌ قَطْعِيٌّ، وَلِهَذَا فَإِنَّ مُنْكَرَ الْمِعْرَاجِ السَّمَاوِيِّ كَافِرٌ^(١).

﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾

٩ - يُعَلِّمُ مِنْهُ أَنَّ جَنَّةَ الْمَأْوَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى «وَهِيَ الْجَنَّةُ الَّتِي آوَى إِلَيْهَا آدَمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى أَنْ أُخْرِجَ مِنْهَا»^(٢).

﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾

١٠ - يَقُولُ الْإِمَامُ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ:

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: «غَشِيَهَا نُورُ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَاسْتَنَارَتْ».

قَالَ سَيِّدُنَا رَبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: «غَشِيَهَا نُورُ الرَّبِّ وَالْمَلَائِكَةُ تَقَعُّ عَلَيْهَا كَمَا يَقَعُ الْغُرْبَانُ عَلَى الشَّجَرَةِ».

وَفِي قَوْلٍ آخَرَ: «غَشِيَهَا نُورٌ مِنَ اللَّهِ حَتَّى مَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا»^(٣).

﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾

١١ - يَعْنِي: أَنَّ عَيْنِي النَّبِيِّ ﷺ مُسْتَعْرِقَتَانِ فِي رُؤْيَا اللَّهِ تَعَالَى فَقَطْ، وَلَمْ تَلْتَفِتَا إِلَى أَيِّ طَرَفٍ آخَرَ.

(١) التفسير المظهر، سورة النجم (٥٣): الآية ١٤.

(٢) تفسير القرطبي، سورة النجم (٥٣): الآية ١٦.

(٣) تفسير القرطبي.

يقول العلامة إسماعيل حقي: «واستدلَّ على أنَّ رؤية الله كانت بعَيْنِ بَصَرِهِ عليه السلام يقظةً بقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ إلخ؛ لأنَّ وصفَ البَصَرِ بَعْدَمَ الزَّيْغِ يقتضي أنَّ ذلك يَقْظَةٌ، ولو كانتِ الرؤيةُ قَلْبِيَّةً لقال: «ما زَاغَ قَلْبُهُ»... وقال البُقْلِيُّ رحمه الله: هذه الآيةُ في الرؤيةِ الثانية؛ لأنَّ في الرؤيةِ الأولى لم يكنْ شيءٌ دون الله، ولذلك ما ذَكَرَ هناك غُضَّ البَصَرِ، وهذا من كمالِ تمكينِ الحبيبِ في محلِّ الاستقامة، وشوقه إلى مشاهدَةِ رَبِّهِ، إذ لم يَمَلْ إلى شيءٍ دُونَهُ»^(١)، وقد رأى النبي ﷺ الله تعالى ثانيةً عندَ عودته من المعراج، وكانت أمامه الجنةُ وآياتٌ أخرى عجيبةً، لكنَّه ﷺ لم يلتفتْ إلى أيِّ منها، وإنما ظلَّ مستغرقاً في رؤيةِ الله تعالى.

١٢ - رَغِمَ أَنْ مُشْرِكِي الجزيرةِ العربيَّةِ كانوا يعْبُدُونَ أصناماً لا حَصَرَ لها، فقد كان في الكعبةِ وحدها ثلاثمائةٍ وستونَ صنماً، لكنَّ الله تعالى ذَكَرَ هنا ثلاثةَ أصنامٍ (آلهة) فَقَطَّ بالاسم؛ لأنَّ هذه الأصنامَ الثلاثةَ كانت مشهورةً أكثرَ من غيرها في شبه الجزيرةِ العربيَّةِ، وفي هذه الآيةِ تَبَّهَ اللهُ تعالى مشركي الجزيرةِ العربيَّةِ قائلاً: هل تدبَّرْتُمْ ذاتَ مرةٍ في حقيقةِ اللاتِ والعُزَّى ومَنَاةِ الثالثةِ؟ إنكم أنتم الذين تصنعونها بأيديكم، وأنتم الذين تُطلقون عليها الأسماءَ، ولو لم تصنعوها أنتم لَمَا كان من الممكنِ أن يكونَ لها وجودٌ من نفسها، فكيف يمكنُ أن تكونَ هذه الأصنامُ شركاءَ الله تعالى وهو خالقُ الأرضِ والسماءِ ومالكُها جميعاً؟

الغرائق العلي

أدرَجْنَا هنا روايةً جاءت في بعضِ التفاسير فَحَوَّاهَا أنه حينَ تلا النبي ﷺ في الحَرَمِ الشَّريفِ هذه السُّورةَ أمامَ مشركي مَكَّةَ، خَرَجَتْ من لسانِهِ الطاهرِ هذه

(١) تفسير روح البيان، سورة النجم (٥٣): الآية ١٧.

٤٤ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

الْجُمْلَةُ: «تِلْكَ الْغَرَانِيقُ الْعُلَى، وَإِنْ شَفَاعَتُهُنَّ لَتُرْتَجَى» والعياذُ بالله! والحقيقةُ أنَّ هذه الجملةَ قالها أحدُ المشركين، ونُسبت - على سبيل الخطأ - إلى النبي ﷺ؛ لأنَّ إجماعَ الأُمَّةِ على أن النبيَّ معصومٌ تمامًا في تبليغه كلامَ ربِّه، ولا يمكنُ أن يخطئَ فيه ولو على سبيل النسيان، لأنه إن كان هذا ممكنًا يتسرَّبُ الشكُّ إلى كلِّ الأحكام والآياتِ بل وإلى الدينِ كلِّه.

﴿تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾

١٣ - كان المشركونَ يحُبُّونَ لأنفسِهِم البنينَ، ويقولون: إنَّ الملائكةَ بناتُ الله تعالى، وفي هذه الآية تنبيهٌ لهم بأنَّ الله تعالى منزَّهٌ عن الولد، ولكنَّ على فرضِ المستحيل لو أنَّ له أولادًا، فكم يكونُ من الظُّلم أن تُحْبُوا لأنفسِكُم البنينَ وتقولوا: إنَّ البناتِ لله.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾

١٤ - يعني: أنَّ الأشياءَ التي اتَّخَذْتُمُوهَا آلِهَةً أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ما هي إلا وَهْمٌ منكم وظنٌّ، أو أنَّها ما تهوى أنفسُكم لا أكثر، ولم يُنزلِ اللهُ تعالى أيَّ دليلٍ على صِدْقِهَا.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾

١٥ - أمَّا وقد نَزَلَ القرآنُ المَجِيدُ من الله تعالى الآنَ، وأَوْضَحَ النبيُّ ﷺ غايةَ التوضيحِ طريقي: الهدايةِ والضلالِ، فكان ينبغي لهم أن يتخلَّوْا عن أهواءِ أنفسِهِم وَوَهْمِهِم وظنِّهِم، وَيَتَّبِعُوا طريقَ الحقِّ والصِّدْقِ.

﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾

١٦ - يتمنَّى المشركونَ ويأْمُلونَ لو أنَّ الأصنامَ التي يعبدونها تشفعُ لهم، وأنَّ

لا تَفْشَلْ في ذلك، ولكن ينبغي لهم أن يعلموا أنه ليس من الضروري أن يحصل الإنسان على كل ما يتمناه؛ لأن المالك الحقيقي للعالم والآخرة هو الله تعالى، وأحكامه لا تصدر طبقاً لأمنية أحد، وإنما تكون مطابقةً لحكمته هو.

وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴿٦١﴾
 إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمَعُونَ أَلْسِنَةَ الْأُنثَى ﴿٦٢﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ
 وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٦٣﴾ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٦٤﴾
 ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴿٦٥﴾
 وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا
 بِالْحَسَنَى ﴿٦٦﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ
 بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ
 بِمَنِ اتَّقَى ﴿٦٧﴾

﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾

١٧ - كان المشركون يعتقدون أنه حتى وإن قامت الساعة على سبيل الفرض فإن أصنامهم ستشفع لهم، وستنجيهم من عذاب جهنم، في حين أن الحقيقة هي أنه حتى الملائكة المقربون أيضاً لن يشفعوا إلا فيمن يأذن الله لهم أن يشفعوا له، أما أمثال هذه الأصنام التي لا معنى لها فلا قيمة لها هناك.

﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾

١٨ - كان المشركون ينكرون القيامة، وكانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله تعالى، ولهذا كانوا يطلقون عليها أسماء إناث، مع أنهم لا علم لديهم ولا دليل فيما يتعلق بكون الملائكة إناثاً فعلاً أم لا، والحقيقة أن هذا ليس إلا وهماً منهم

٤٦ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

وظناً، وقد افترضوا بناءً عليه أن الملائكة إناث، ولكن لا قيمةً للوهم والظن في مقابل الحقيقة والعلم واليقين.

﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾

١٩ - يا أيها النبي الحبيب ﷺ، كلُّ مَنْ لا يبالي بدعوتك، وينهمك فقط في الملذات الدنيوية، لا تغتم بسببه ولا تحزن عليه، واطركه في حاله، فهو لن يؤمن أبداً؛ لأن مبلغه من العلم والظن هو أن هذه الدنيا هي كلُّ شيء فقط، وأنه ليس بعدها شيء.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾

٢٠ - كان المشركون يدعون أنهم على الطريق القويم، وأن المسلمين ضالون، لأنهم تركوا دين قومهم، ولكن الله تعالى هو الذي سيحكم من هو المهتدي ومن هو على الضلال.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾

٢١ - مالك كل شيء في الأرض والسماء هو الله تعالى وحده، وهو الذي سيجزي الصالحين على صلاحهم والمسيئين على سيئاتهم.

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾

٢٢ - الذين يجتنبون الكبائر من الذنوب وكذا الفواحش، ويؤدّون واجباتهم وفروضهم، فإن الله تعالى يغفر لهم صغائر ذنوبهم، مثلما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤].

- يقول سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أرأيتم لو أنّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ، يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا، مَا تَقُولُ ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ؟»، قالوا: لَا يَبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا، قال: «فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بِهَا الْخَطَايَا»^(١).

- يقول سيّدنا أبو ذرّ رضي الله عنه: إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم خَرَجَ زَمَنَ الشّتاءِ والورقُ يَتَهافتُ، فأَخَذَ بُغْصَيْنِ مِنْ شَجَرَةٍ، قال: فَجَعَلَ ذَلِكَ الْوَرَقُ يَتَهافتُ، قال: فقال: «يا أبا ذرٍّ»، قلتُ: لَبَيْكَ يا رسولَ الله. قال: «إنّ العبدَ المسلمَ لَيُصَلِّي الصَّلَاةَ يَريدُ بِهَا وَجَهَ اللَّهِ، فَتَهافتُ عَنْهُ ذُنُوبُهُ كَمَا يَتَهافتُ هَذَا الْوَرَقُ عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ»^(٢).

تعريف الذنب

الذّنب: اسمٌ لمخالفةِ حُكمِ الله تعالى وحُكمِ رسولِهِ الكريم ﷺ، والكبائرُ من الذُّنُوبِ هي: التي عَيَّنَ اللهُ تعالى لها حَدًّا، أو أُنذِرَ بالعذابِ عليها يومَ القيامة، أمّا ما عدا ذلك فهي صغائرُ الذُّنُوبِ.

كبائر الذنوب

كبائرُ الذُّنُوبِ كثيرةٌ، مثلاً: الشُّرْكُ بالله، والقتلُ بغيرِ حقٍّ، والانتحارُ، والزَّنا واللُّواطُ وقذفُ المحصّناتِ الغافلات، وعقوقُ الوالدينِ وأكلُ مالِ اليتيم، وتركُ الفرائضِ (الصَّلَاةِ والصَّوْمِ والزَّكَاةِ وغيرها) ونسيانُ القرآنِ الكريمِ بعدَ حفظِهِ، والسَّحَرُ، وشربُ الخمرِ، وشهادةُ الزُّورِ، وحرَقُ الحيوانِ، وسبُّ الصَّحابةِ الكرامِ وإهانةُ العلماءِ، وأكلُ لحمِ الخنزيرِ ولحمِ المَيْتَةِ بلا اضطرار.

(١) البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب ٦ برقم ٥٢٨.

(٢) مسند أحمد، ٥: ١٧٩.

صغائر الذنوب

وصغائر الذنوب أيضًا كثيرة، مثلًا: النظرُ إلى المرأة الأجنبية والخلوُّ بها، ومصادقةُ الفساق، ورفعُ الحاجةِ باتجاه القبلة، وتركُ الواجبات، وغيرها.

ولا ينبغي الاستهانة بصغائر الذنوب؛ لأنَّ الإصرارَ عليها والمداومةَ على ارتكابها يجعلُ منها كبائر، ومثلُ كبائر الذنوب وصغائرها كمثل نارٍ عظيمة وجذوةٍ صغيرة، فالإنسان لا يستطيع أن يتحمَّلَ الألم الناتجَ عن أيٍّ منهما، ويمكنُ أن تكونَ كلُّ منهما (أي: النارُ العظيمةُ والجذوةُ الصغيرة) سببًا في حرقِ البيتِ بالكامل، والفرقُ هو فقط أنَّ النارَ العظيمةَ تحرقُ سريعًا، بينما لو تغافلنا عن الجذوةِ الصغيرة فقد تحرقُ البيتَ كله أيضًا.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾

٢٣ - في هذه الآية منعُ الإنسانِ من مدحِ نفسه وإظهارِ صلاحِهِ وتقواه، يعني: لا تقلُ عن نفسك: إنك صالحٌ وتقيٌّ طاهرٌ؛ لأنك لا تعلمُ هل قبِلْتَ حسناتك أم لم تقبلْ، فالله تعالى وحده هو الذي يعلمُ هذا تمامَ العلم، فهو الذي خلقَ أباكم آدمَ من تراب، وخلقكم من نطفةٍ في بطونِ أمهاتكم، وهو الذي سيحكمُ ويقررُ مَنْ هو التقيُّ ومَنْ هو الفاسد.

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿٣٤﴾ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يُرَى ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُبْنَأْ بِمَا فِي صُحُفٍ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَا نَزَرُ وَازِرَةً وَذُرْأَى خَيْرٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى ﴿٤١﴾ وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴿٤٢﴾ وَأَنْهُ هُوَ أَصْحَكَ وَأَبْكَى ﴿٤٣﴾ وَأَنْهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنْهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٤٥﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴿٤٦﴾ وَأَنْ عَلَيْهِ النَّشْأَةُ الْأُخْرَى ﴿٤٧﴾ وَأَنْهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴿٤٨﴾

وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعَرَى ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴿٥٠﴾ وَثَمُودًا أَتَقَى ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ
إِنَّهُمْ كَانُوا هُم أَظْلَمَ وَأَطَى ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤَنَّفَكَ أَهْوَى ﴿٥٣﴾ فَغَشَّهَا مَا غَشَّى ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ
تَسْمَارَى ﴿٥٥﴾ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِرِ الْأُولَى ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْأَرْفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾
أَفِنَ هَذَا الْحَدِيثِ تَعَجُّبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾

﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى﴾

٢٤ - رُوِيَ أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةَ جَلَسَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ «وَسَمِعَ وَعْظَهُ، فَتَأَثَّرَ قَلْبُهُ بِمَا سَمِعَ وَكَادَ أَنْ يُسَلِّمَ، فَعَيَّرَهُ رَجُلٌ مِنَ الْمَشْرِكِينَ وَقَالَ: تَرَكْتَ دِينَ آبَائِكَ وَضَلَلْتَهُمْ وَرَعَمْتَ أَتَهُمْ فِي النَّارِ؟ فَقَالَ الْوَلِيدُ: إِنِّي خَشِيتُ عَذَابَ اللَّهِ، فَضَمِنَ لَهُ الرَّجُلُ إِنْ هُوَ أَعْطَاهُ شَيْئًا مِنْ مَالِهِ، وَرَجَعَ إِلَى شَرِكِهِ، أَنْ يَتَحَمَّلَ عَنْهُ عَذَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَأَعْطَاهُ بَعْضَ الَّذِي ضَمِنَ لَهُ ثُمَّ بَخَلَ وَمَنَعَهُ الْبَاقِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى﴾ الْآيَاتِ» (١).

﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ رَئِي﴾

٢٥ - لَمْ يَقْبَلِ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةَ الْإِسْلَامَ؛ لِأَنَّ صَدِيقَهُ الْكَافِرَ قَالَ لَهُ: إِنَّهُ لَوْ تَقَرَّرَ تَعْدِيئُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِسَبَبِ عَدَمِ إِيمَانِهِ فَإِنَّهُ سَوْفَ يُقَدِّمُ نَفْسَهُ لِلْعَذَابِ بَدَلًا مِنْهُ، وَيُنْقِذُهُ هُوَ مِنَ الْعَذَابِ، وَعَلَيْهِ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، هَلْ كَانَ الْوَلِيدُ يَعْلَمُ الْغَيْبَ فَرَأَى أَنَّهُ يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَحْمِلَ عَنْهُ عَذَابَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُنْقِذَهُ مِنْهُ؟ وَمَعَ أَنَّ هَذَا خَدَاعٌ مَخْضُصٌ، وَلَكِنْ لَا نَعْلَمُ عَلَى أَيِّ أُسَاسٍ صَدَّقَهُ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةَ.

﴿أَمْ لَمْ يُبَيِّنَّا بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾

٢٦ - فِي الْآيَاتِ الْقَادِمَةِ يَجِيءُ ذِكْرُ تِلْكَ التَّعَالِيمِ الَّتِي نَزَلَتْ فِي صُحُفِ سَيِّدِنَا

٥٠ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

إبراهيمَ وسَيِّدنا موسى عليهما السَّلامُ، فقد كان اليهودُ يتردَّدونَ على مَكَّةَ، وقد سَمِعَ منهم مشركو مَكَّةَ كثيرًا عن سَيِّدنا إبراهيمَ وسَيِّدنا موسى عليهما السَّلامُ، ولهذا جاء التَّنبُّهُ للوليدِ في هذه الآيات، وهو الذي توهَّم أنه يمكنُ لشخصٍ آخَرَ أن يَحْمِلَ عنه ذنبه، أَلَمْ تَصِلْ تَعَالِيمُ سَيِّدنا إبراهيمَ وسَيِّدنا موسى عليهما السَّلامُ إليه، وهي التي تقولُ: إنه لا يمكنُ لأيِّ أحدٍ أن يَحْمِلَ عن أحدٍ آخَرَ ذنبه يومَ القيامةِ، وإنَّ كُلَّ شخصٍ سيُحاسبُ على أَعْماله كاملةً ويُجازى عليها وحده، وأنه لن يُظْلَمَ أحدٌ ولو بمقدارِ ذرَّةٍ، وحين يصلُ ذلك الشَّخصُ إلى الله تعالى سَتُعَرَضُ عليه كُلُّ الأَعْمالِ التي قام بها في حياته؟

﴿وَابْرَاهِيمَ﴾

٢٧ - المرادُ بصحائفِ سَيِّدنا موسى عليه السَّلامُ: التَّوراة، ولكنَّ صحائفَ سَيِّدنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ ليست مذكورةً في أيِّ كتابٍ من كُتُبِ اليهودِ والنَّصارى، والكتابُ الوحيدُ الذي ذَكَرَ صُحُفَ سَيِّدنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ هو القرآنُ الكريمُ، كما بيَّن بعضُ تَعَالِيمِهِ أيضًا، على سَبِيلِ المِثَالِ: لن يستطيعَ أحدٌ أن يَحْمِلَ عن أحدٍ ذنبه يومَ القيامةِ، وإنَّما كُلُّ شخصٍ مسؤولٌ عن أَعْماله مسؤوليَّةً كاملةً.

﴿الَّذِي وَفَّى﴾

٢٨ - أَدَّى سَيِّدنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ حقَّ الوفاءِ بالدعوةِ إلى التوحيدِ، فلم يَتَخَلَّ عن دعوةِ التوحيدِ هذه حتى في أَصْعَبِ الأوقاتِ وأشدَّها على نفسه، لدرجةٍ أنه قَبْلَ أن يُلْقَى به في النارِ ولكن لا يَتَخَلَّى عن الوفاءِ بدعوةِ التوحيدِ.

﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾

٢٩ - قال عِكْرِمَةُ في تفسِيرِ هذه الآية: «إنَّ ذلك كان لقومِ إبراهيمَ وموسى، وأمَّا هذه الأُمَّةُ فلهم ما سَعَوْا وما سَعَى غَيْرُهُمْ، قاله عِكْرِمَةُ. واستدلَّ بقولِ النَّبِيِّ ﷺ

للمرأة التي سألته: إنَّ أبي مات ولم يُحجَّ، فقال: حجِّي عنه»^(١).

العبادةُ ثلاثةُ أقسام:

١ - عباداتُ بدَنِيَّةٌ خالصةٌ مثلُ: الصَّلَاةِ والصَّوْمِ وتلاوةِ القرآنِ المَجِيدِ وغيرها.

٢ - عباداتُ ماليَّةٌ خالصةٌ مثلُ الزكاةِ والصَّدَقَاتِ وغيرها.

٣ - عباداتُ بدَنِيَّةٌ وماليَّةٌ في نفسِ الوقتِ، مثلُ الحجِّ والعُمرةِ وغيرها.

يقولُ الإمامُ مالكٌ والإمامُ الشافعيُّ: إنَّ ثوابَ العباداتِ البدَنِيَّةِ الخالصةِ لا يمكنُ أن يذهبَ لغيرِ مؤدِّيها، أمَّا القسمانِ الآخَرانِ من العباداتِ فيمكنُ أن يصلَ ثوابُهما لغيرِ مَنْ أداهما، ولكنَّ مسلكَ الأحنافِ هو أنَّ أيَّ شخصٍ يستطيعُ أن يَهَبَ ثوابَ أيِّ عملٍ صالحٍ من أعمالِهِ إلى غيره، أيَّا كان نوعُ العبادةِ التي ينتمي إليها هذا العملُ الصالحُ، يعني: الصَّلَاةَ والصَّوْمَ وتلاوةَ القرآنِ المَجِيدِ والذِّكْرَ والصَّدقةَ والحجَّ والعُمرةَ وغيرها من الأعمالِ الصالحةِ التي يقومُ بها العبدُ، فإنه يستطيعُ أن يلتمسَ في حضرةِ الله تعالى أن يصلَ ثوابُها إلى فلانٍ من الناس.

الدعاء بالمغفرة للموتى

بعض الآيات القرآنية

١ - قال تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ

فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: ١٠].

(١) زاد المسير، سورة النجم (٥٣): الآية ٣٩.

٢ - قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾

[إبراهيم: ٤١].

٣ - قال تعالى: ﴿ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٤].

٤ - قال تعالى: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ

وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [نوح: ٢٨].

بعض الأحاديث النبوية

١ - رُوي عن سيّدنا أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الرَّجُلَ لَتُرْفَعَ درجته في الجنة فيقول: أتى هذا؟ فيقال: باستغفارٍ وَلَدِكَ لك»^(١)، ويُعلم من هذا الحديث أن درجات الأب في الجنة تُرْفَع بِفَضْلِ اسْتِغْفَارِ ابْنِهِ لَهُ، فطبقاً للمذهب الحنفي، المسلم الذي يؤدّي الصَّلواتِ الخمس، ويقرأ في نهاية التشهد الأخير هذا الدعاء: «رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ»، ولأنّ هذا الدعاء يُقرأ مرّتين في الركعات الأربع من السنّة غير المؤكّدة، فإنه بذلك يَسْتَغْفِرُ لأبيه تسع عشرة مرة في اليوم الواحد، ممّا يرفع درجات أبيه في الجنة تسع عشرة درجة في اليوم الواحد، ولهذا ينبغي لكلّ أب أن يجعل أبناءه من المصلّين، فبذلك يكون قد أدّى حقّ التربية من جانب، ومن جانبٍ آخر أعدّ لنفسه وسيلة لرفع درجاته في الجنة.

٢ - يقول سيّدنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: إن النبي ﷺ قال: «ما

الميتُ في القبرِ إلّا كالغريقِ المتغوّث، ينتظرُ دعوةً تلحقه من أبٍ أو أمٍّ أو أخٍ

أو صديقٍ، فإذا لَحِقَتْهُ كانت أَحَبَّ إليه من الدُّنيا وما فيها، وإنَّ اللهَ لَيَدْخُلُ على أهل القبورِ من دعاءِ أهلِ الأرضِ أمثالَ الجبالِ، فإنَّ هَدْيَةَ الأحياءِ إلى الأمواتِ الاستغفارُ لهم^(١).

٣- يقولُ سَيِّدُنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه: إنه سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يقولُ: «أُمَّتِي أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ، مُتَابٌ عَلَيْهَا، تَدْخُلُ قُبُورَهَا بِذُنُوبِهَا، وَتَخْرُجُ مِنْ قُبُورِهَا لَا ذَنْبَ عَلَيْهَا، تُمَحَّصُ عَنْهَا ذُنُوبُهَا بِاسْتِغْفَارِ الْمُؤْمِنِينَ لَهَا»^(٢).

٤- يقولُ سَيِّدُنَا أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: إنه سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «إِذَا صَلَّيْتُمْ عَلَى الْمَيِّتِ فَأَخْلِصُوا لَهُ الدُّعَاءَ»^(٣).

٥- رُوِيَ عَنْ سَيِّدِنَا عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ أَرْبَعِينَ مِنْ مُؤْمِنٍ يَشْفَعُونَ لِمُؤْمِنٍ إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللهُ»^(٤).

٦- تقولُ السَّيِّدَةُ أُمُّ سَلَمَةَ رضي الله عنها: إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا حَضَرْتُمُ الْمَرِيضَ أَوِ الْمَيِّتَ فَقُولُوا خَيْرًا، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُؤْمِنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ». قَالَتْ: فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أَبَا سَلَمَةَ قَدْ مَاتَ، قَالَ: «قُولِي: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَلِهِ وَأَعْقِبْنِي مِنْهُ عُقْبَى حَسَنَةً». قَالَتْ: فَقُلْتُ فَأَعْقَبَنِي اللهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ لِي مِنْهُ، مُحَمَّدًا ﷺ»^(٥).

(١) مشكاة المصابيح، باب الاستغفار.

(٢) المعجم الأوسط للطبراني، ٢: ٥٢٣ برقم ١٩٠٠، ومجمع الزوائد، ١٠: ٦٩.

(٣) أبو داود، كتاب الجنائز، باب ٦٠ برقم ٣١٩٩.

(٤) ابن ماجه، أبواب الجنائز، باب ١٩ برقم ١٤٨٩.

(٥) مسلم، كتاب الجنائز، باب ٣ برقم ٢١٢٩.

بعض الأحاديث النبوية عن إيصال الثواب

١ - تقولُ السيِّدة عائشةُ رضي الله عنها: إنّ رجلاً قال للنَّبِيِّ ﷺ: إنّ أُمِّي افْتُلِتَتْ نَفْسُهَا، وَأَظْنُهَا لو تَكَلَّمْتُ تَصَدَّقْتُ، فهل لها أَجْرٌ إِنْ تَصَدَّقْتُ عنها؟ قال: «نعم»^(١).

٢ - يقولُ سيِّدنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: إنّ امرأةً من خَتَمِ اسْتَفْتَتْ رسولَ الله ﷺ في حَجَّةِ الوداعِ والفَضْلِ بنِ عَبَّاسٍ رديفِ رسولِ الله ﷺ، فقالت: يا رسولَ الله، إنّ فريضةَ الله على عباده أدركتُ أبي شيخاً كبيراً لا يستطيعُ أن يستويَ على الرَّاحلة، فهل يقضي أن أُحجَّ عنه؟ قال: «نعم»^(٢).

٣ - تقولُ السيِّدة عائشةُ رضي الله عنها: إنّ رسولَ الله ﷺ أَمَرَ بكبشٍ أَقْرَنَ يَطَأُ في سَوَادٍ وَيَبْرُكُ في سَوَادٍ وَيَنْظُرُ في سَوَادٍ، فَأَتَيْ بِهِ لِيُضَحِّيَ بِهِ، فقال لها: «يا عائشةُ، هَلُمِّي المُدِيَّةَ». ثم قال: «اشحذِيها بِحَجَرٍ». ففَعَلْتُ، ثم أَخَذَهَا وَأَخَذَ الكَبْشَ فَأَضْجَعَهُ ثُمَّ ذَبَحَهُ، ثم قال: «باسمِ الله، اللهمَّ تَقَبَّلْ من مُحَمَّدٍ وآلِ مُحَمَّدٍ، ومن أُمَّةِ مُحَمَّدٍ». ثم ضَحَّى بِهِ^(٣).

٤ - يقولُ سيِّدنا حَنَسُ رضي الله عنه: رأيتُ عليّاً يُضَحِّي بِكَبْشَيْنِ، فقلتُ: ما هذا؟ فقال: إنّ رسولَ الله ﷺ أوصاني أن أضحِّي عنه، فأنا أضحِّي عنه^(٤).

٥ - قال سيِّدنا سعدُ بنُ عُبادة رضي الله عنه لرسولِ الله ﷺ: يا رسولَ الله، إنّ أُمَّم سعدٍ ماتت، فأني الصَّدَقَةُ أَفْضَلُ؟ قال: «الماء». قال: فَحَفَرُ بَيْتٍ أَوْ قال: هذه لأُمِّ سعدٍ^(٥).

(١) البخاري، كتاب الجنائز، باب ٩٥ برقم ١٣٨٨.

(٢) البخاري، كتاب المغازي، باب ٧٨ برقم ٤٣٩٩.

(٣) مسلم، كتاب الأضاحي، باب ٣ برقم ٥٠٩١.

(٤) أبو داود، كتاب الضحايا، باب ١ برقم ٢٧٩٠.

(٥) أبو داود، كتاب الزكاة، باب ٤١ برقم ١٦٨١.

٦ - يقولُ سيِّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا مات الإنسانُ انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُنتفعُ به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له»^(١)، أما العَمَلانِ الأولانِ فللميتِ فيهما دَخْلٌ، لكنَّ دعاءَ الولدِ فهو من عملِ الولدِ فقط، وهو يَنْفَعُ الميتَ.

٧ - قال سيِّدنا أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه لرسولِ الله ﷺ: يا رسولَ الله، إنّنا نتصدَّقُ عن موتانا ونَحُجُّ عنهم ونَدعو لهم، فهل يَصِلُ ذلك لهم؟ قال «نعم، إنّهُ ليَصِلُ إليهم، وإنَّهم لَيَفْرَحُونَ به كما يَفْرَحُ أحدُكم بالطَّبَقِ (المليءِ بالهدايا) إذا أُهدي إليه»^(٢).

٨ - يقولُ سيِّدنا أنسٌ رضي الله عنه: إنه سَمِعَ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما من أهل بيتٍ يموتُ منهم ميتٌ فيتصدَّقون عنه بعدَ موته، إلا أهداها إليه جبريلُ عليه السَّلامُ على طَبَقٍ من نُورٍ، ثم يقفُ على شَفِيرِ القبرِ، فيقول: يا صاحبَ القبرِ العميقِ، هذه هديَّةٌ أهداها إليك أهلُك فاقبلُها، فَيَدْخُلُ عليه، فيفْرَحُ بها وَيَسْتَبْشِرُ، ويَحْزَنُ جيرانُهُ الذين لا يُهْدَى إليهم بشيءٍ»^(٣).

٩ - يَروي سيِّدنا عبدُ الله بنُ بُريدة رضي الله عنه، عن والده، أنه قال: «بَيْنَا أنا جالسٌ عندَ رسولِ الله ﷺ، إذ أتته امرأةٌ فقالت: إنّني تصدَّقتُ على أُمِّي بجاريةٍ، وإنَّها ماتت، قال: فقال: «وَجَبَ أَجْرُكِ وَرَدَّهَا عَلَيْكَ الميراثُ». قالت: يا رسولَ الله، إنّهُ كان عليها صومٌ شهرٍ، أفأصُومُ عنها؟ قال: «صومي عنها». قالت: إنّها لم تَحُجَّ قطُّ، أفأحُجُّ عنها؟ قال: «حُجِّي عنها»^(٤).

(١) مسلم، كتاب الوصية، باب ٣ برقم ٤٢٢٣.

(٢) رد المحتار، باب الحج عن الغير، ٢: ٥٩٦.

(٣) المعجم الأوسط للطبراني، ٧: ٦٠ برقم ٦٥٠٠.

(٤) مسلم، كتاب الصيام، باب ٢٧ برقم ٢٦٩٧.

١٠ - تقول السيِّدة عائشة رضي الله عنها: إنّ رسول الله ﷺ قال: «مَن مات وعليه صيامٌ صامَ عنه وليُّه»^(١).

١١ - يقول سيِّدنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسولَ الله، إنّ أُمِّي ماتت وعليها صومٌ شهرٍ، أفأَقْضِيه عنها؟ فقال: «لو كان على أُمِّكَ دَيْنٌ أَكُنْتَ قاضِيه عنها؟». قال: نعم. قال: «فدَيْنُ الله أحقُّ أن يُقْضَى»^(٢).

تلاوة القرآن عن الميت وعند القبر

١ - يقول سيِّدنا مَعْقِلُ بنُ يَسَارٍ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «اقرأوها عند موتاكم». يعني ﴿يَس﴾^(٣).

٢ - يقول سيِّدنا أبو الدَّرْداءِ رضي الله عنه: إنّ النبي ﷺ قال: «ما من ميتٍ يُقرأُ عنده ﴿يَس﴾ إِلَّا هَوَّنَ الله عليه»^(٤).

٣ - يقول سيِّدنا أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَن زارَ قَبْرَ والديهِ أو أحَدَهما في كلِّ جُمُعَةٍ، فَقرأَ عندهما ﴿يَس﴾ غَفَرَ اللهُ له بعددِ كلِّ حرفٍ منها»^(٥).

٤ - يقول سيِّدنا أنسٌ رضي الله عنه: إنّ النبي ﷺ قال: «مَن دَخَلَ المقابرَ فَقرأَ سورة ﴿يَس﴾ خَفَّفَ اللهُ عنهم يومئذٍ، وكان له بعددِ حروفِها حسناتٌ»^(٦).

(١) مسلم، كتاب الصيام، باب ٢٧ برقم ٢٦٩٢

(٢) مسلم، كتاب الصيام، باب ٢٧ برقم ٢٦٩٤.

(٣) ابن ماجه، أبواب الجنائز، باب ٤ برقم ١٤٤٨.

(٤) تفسير الدر المنثور، تعارف سورة يس (٣٦).

(٥) المرجع السابق.

(٦) تفسير القرطبي، تعارف سورة يس (٣٦).

٥ - يقول سيّدنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: مرَّ النَّبِيُّ ﷺ بحائِطٍ من حِيطانِ المدينة أو مَكَّةَ، فَسَمِعَ صَوْتَ إِنْسَانَيْنِ يُعَذِّبانِ في قُبُورِهِما، فقال النَّبِيُّ ﷺ: «يُعَذِّبانِ، وما يُعَذِّبانِ في كَبِيرٍ»، ثمَّ قال: «بلى، كان أحدهما لا يَسْتَرُ من بَوْلِهِ، وكان الآخرُ يمشي بالنَّمِيمة». ثمَّ دعا بجريدةٍ فَكَسَرَهَا كِسْرَتَيْنِ، فَوَضَعَ على كُلِّ قَبْرٍ منهما كِسرةً. فقيل له: يا رسولَ الله، لِمَ فعلتَ هذا؟ قال: «لعلَّه أن يُخَفَّفَ عنهما ما لَمْ تَبْسِسا أو إلى أن يَبْسِسا»^(١)، فإذا كان تَسْبِيحُ الغُصَنِ الأخضرِ يَنفَعُ أهلَ القبورِ، فكيف لا يَنفَعُهُم وضعُ الورودِ اليبانة عندَ قبورِهِم وتلاوةُ القرآن؟

إيصال ثواب تلاوة القرآن

١ - يقول سيّدنا عليّ رضي الله عنه: إنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ مرَّ على المقابرِ فقرأَ فيها - إحدى عشرةَ مرّةً - ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثُمَّ وَهَبَ أَجْرَهُ الأمواتِ أُعْطِيَ من الأجرِ بعددِ الأمواتِ»^(٢)، ويقولُ العلامةُ العيني: «اختلف الناسُ في هذه المسألة، فَذهَبَ أبو حنيفةٌ وأحمدُ رضي الله عنهما إلى وصولِ ثوابِ قراءةِ القرآن إلى الميتِ»^(٣).

٢ - يَنْقُلُ أبو القاسمِ سعدُ بن عليّ، عن سيّدنا أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ دَخَلَ المقابرَ ثُمَّ قرَأَ فاتحةَ الكتابِ و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿الْهَمِّكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ ثُمَّ قال: إِنِّي جَعَلْتُ ثوابَ ما قرأتُ من كلامِكَ لأهلِ المقابرِ من المؤمنينَ والمؤمناتِ، كانوا شُفَعاءَ له إلى الله»^(٤).

(١) البخاري، كتاب الوضوء، باب ٥٥ برقم ٢١٦.

(٢) كنز العمال، ١٥: ٦٥٥ برقم ٤٢٥٩٦، وجمع الجوامع، برقم ٢٣١٥٢.

(٣) عمدة القاري، ٣: ١١٨، برقم ٢١٦.

(٤) التفسير المظهر، سورة النجم (٥٣): الآية ٣٩.

٣ - جاء في «شَرْح اللَّبَاب»: «وَيَقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا تيسَّرُ لَهُ مِنَ الْفَاتِحَةِ وَأَوَّلِ الْبَقَرَةِ إِلَى ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ وَالْإِخْلَاصَ سَبْعًا أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ أَوْصِلْ ثَوَابَ مَا قَرَأْنَاهُ إِلَى فَلَانٍ، أَوْ: إِلَيْهِمْ»^(١).

٤ - يَقُولُ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ قَاسِمٌ فِي كِتَابِهِ «تَحْذِيرُ النَّاسِ»: «ذَاتَ مَرَّةٍ، تَغَيَّرَ لَوْ أَنَّ أَحَدَ مُرِيدِي سَيِّدِنَا جُنَيْدٍ فَجَاءَهُ، فَسَأَلَهُ عَنِ السَّبَبِ، فَقَالَ لَهُ عَلَى سَبِيلِ الْمَكَاشِفَةِ: إِنِّي أَرَى أُمِّي فِي جَهَنَّمَ، وَكَانَ سَيِّدُنَا جُنَيْدٌ قَدْ قَرَأَ الْكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ «الشَّهَادَتَيْنِ» مِائَةً وَخَمْسَةً وَسَبْعِينَ أَلْفَ مَرَّةٍ، فَوَهَبَ ثَوَابَ قِرَائَتِهِ لِلشَّهَادَتَيْنِ هَذِهِ لِأُمِّ الْمُرِيدِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ، مَعْتَبِرًا أَنَّهَا سَيُغْفَرُ لَهَا بِثَوَابِ هَذَا الْقَدْرِ مِنْ قِرَاءَةِ الشَّهَادَتَيْنِ طَبَقًا لِمَا جَاءَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ الشَّرِيفَةِ، وَلَمْ يُخْبِرِ الْمُرِيدَ بِذَلِكَ، وَلَكِنْ مَا أَنَّ وَهَبَهَا الثَّوَابَ حَتَّى رَأَى الشَّابَّ هَاشِمًا بَاشًّا الْوَجْهَ، فَسَأَلَهُ عَنِ السَّبَبِ، فَقَالَ: إِنَّهُ يَرَى وَالِدَتَهُ فِي الْجَنَّةِ الْآنَ، وَعِنْدَئِذٍ قَالَ الشَّيْخُ: لَقَدْ عَلِمْتُ بِكَشْفِ هَذَا الشَّابِّ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ، وَقَدْ تَمَّ تَصْحِيحُ هَذَا الْحَدِيثِ بِكَشْفِ هَذَا الشَّابِّ»^(٢).

٥ - يَقُولُ سَيِّدُنَا شَاهُ عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي كِتَابِهِ «الْفَتَاوَى الْعَزِيزِيَّةَ»: «لَوْ أَنَّكَ طَهُوْتَ طَعَامًا وَلَبْنَا وَأَطَعَمْتَهُ النَّاسَ بِقَصْدٍ إِيصَالِ الثَّوَابِ لِرُوحِ شَيْخٍ مِنَ الشُّيُوخِ فَلَا حَرَجَ فِي ذَلِكَ... وَلَوْ أَعَدَدْتَ الطَّعَامَ بِاسْمِ هَذَا الشَّيْخِ، يَجُوزُ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهُ الْأَغْنِيَاءُ أَيْضًا... فَإِنَّ ذَلِكَ الطَّعَامَ الَّذِي يُقْصَدُ بِهِ إِيصَالُ الثَّوَابِ لِسَيِّدِنَا الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَتُقْرَأُ عَلَيْهِ الْفَاتِحَةُ وَالْإِخْلَاصُ وَالْفَلَقُ وَالنَّاسُ، وَيُصَلَّى فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، يَكُونُ مَبَارَكًا، وَتَنَاوُلُهُ أَمْرٌ طَيِّبٌ»^(٣).

(١) رد المحتار، صلاة الجنازة، مطلب في زيارة القبور، ٢: ٢٤٣.

(٢) تفسير تبيان القرآن، سورة النجم (٥٣)، الآية ٣٩.

(٣) تفسير ضياء القرآن، سورة النحل (١٦)، الآية ١١٥.

٦ - يقول شاه إسماعيل الدهلوي في «الصراط المستقيم»: «ينبغي للطالب أن يتوضأ ويجلس جلسة التشهد، ويقرأ الفاتحة باسم أكابر هذه الطريقة، يعني: سيّدنا خواجّه معين الدّين سنّجري وسيّدنا قطب الدين بختيار كاكي وغيرهما، ثم يلتجئ في الحضرة الإلهية بوسيلة هؤلاء المشايخ، ويضرع إلى الله بكلّ تواضع وانكسار، باكيًا منتحبًا وداعيًا الله تعالى أن يرفع عنه شدائده، ثم يبدأ في الذكر ضربًا مرّتين»^(١).

﴿وَأَن سَعِيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾

٣٠ - سوف يتم إظهار أعمال الإنسان كلّها في الآخرة وكشفها، سواء كان قد عمّلها في الدنيا خفية أم علانية، وبهذا سيري الناس جميعًا هذه الأعمال، ثم سيُجازى كلّ إنسان بشكلٍ كامل طبقًا لأعماله.

ما الحكمة في إظهار الأعمال يوم القيامة؟

لو قدّم بلاغٌ ضدّ متّهمٍ في محاكم أيامنا هذه، أو تقدّم أحدٌ بالشهادة ضدّه، فيمكن للمتهم هذا أن ينكر هذا البلاغ ويكذب هذه الشهادة، ولكن لو عُرض في المحكمة تسجيلٌ مصوّرٌ للمتهم يُظهره وهو يرتكبُ جرمه فلن يستطيع الإنكار عندئذٍ. وبنفس الطريقة، لو أنكر «متّهم» - يوم القيامة - ما جاء في صحيفة أعماله، وكذب شهادة اليد والرّجل، فإنه يُعرضُ أمامه ما هو بمثابة فيلم بكلّ أعماله، يظهر فيه وهو يرتكبُ هذه الأعمال القبيحة، مثلما قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿ [الزلزلة: ٧-٨].

وكاميرا الفيديو في هذه الدنيا تحتاجُ إلى ضوءٍ وبطاريات، ولكن «كاميرا فيديو» قدرة الله تعالى قويّةٌ ودقيقةٌ إلى درجةٍ تجعلُها لا تحتاجُ إلى ضوءٍ وبطاريات، والأهمُّ من هذا أنّها لا تعرّضُ الأعمالَ الظاهريّةَ فقط، وإنما تعرّضُ نوايا القلوبِ أيضًا، وحين يصدرُ حُكمُ الله تعالى يومَ القيامةِ ستعرّضُ «كاميرا فيديو» القدرةَ الإلهيّةَ فيلمًا تسجيليًا للحياةِ الإنسانيّةِ كلّها.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾

٣١ - سَيَرَجُعُ النَّاسُ جَمِيعًا فِي نَهَايَةِ الْأَمْرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَنْ يَسْتَطِيعَ أَحَدٌ الْإِخْتِفَاءَ فِي أَيِّ مَكَانٍ، وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ تَعَالَى يُنْعِمَ عَلَيْهِ وَيُضْحِكْهُ، وَمَنْ يُرِدْ يَبْتَلِهِ وَيُبْكِيهِ، بِمَعْنَى: أَنَّهُ سَوَاءٌ كَانَتِ السَّعَادَةُ أَمْ الْحُزَنُ، وَسَوَاءٌ كَانَتِ الْحَيَاةُ أَمْ الْمَوْتُ، اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ أَسْبَابِهَا، وَبِالتَّالِي فَإِنَّ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْلُقَ الْإِنْسَانَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ وَيَخْلُقَ لَهُ الْأَسْبَابَ، يُمَكِّنُهُ أَنْ يَخْلُقَ لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ أَيْضًا، فَهُوَ الْقَادِرُ الْمَطْلُوقُ، وَهُوَ - وَحْدَهُ - الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ.

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٤٥﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تَأَنَّى﴾

٣٢ - اللَّهُ تَعَالَى الَّذِي خَلَقَ - مِنْ قَطْرَةٍ بَسِيطَةٍ عَادِيَّةٍ - هَذَا الْإِنْسَانَ الْعَظِيمَ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ هَذِهِ الْقَطْرَةِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى أَيْضًا، هَلْ يَصْعَبُ عَلَيْهِ أَنْ يُعِيدَ خَلْقَ مِثْلِ هَذَا الْإِنْسَانِ ثَانِيَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَعْنَى وَأَقْنَى﴾

٣٣ - اللَّهُ تَعَالَى هُوَ خَالِقُ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَهُوَ مَالِكُ خَزَائِنِهِمَا، وَهُوَ الَّذِي يُغْنِي مَنْ يَشَاءُ، وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ فَقِيرًا، وَلَكِنْ مَا الْحِكْمَةُ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ؟ اللَّهُ تَعَالَى

هو الذي يَعْلَمُ تمامَ الْعِلْمِ هذه الْحِكْمَةُ؛ لأنه هو أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ، ولا يخلو فعلٌ من أفعاله من الْحِكْمَةِ.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعَرَى﴾

٣٤ - رَغِمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ رَبُّ كُلِّ النُّجُومِ وَالْكَوَاكِبِ، لَكِنَّهُ ذَكَرَ هُنَا اسْمَ الشَّعَرَى (نَجْمٌ) لِأَنَّ بَعْضَ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ كَانَتْ تَعْبُدُهُ، وَالْمَقْصُودُ هُنَا هُوَ إِخْبَارُ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ أَنَّ نَجْمَ الشَّعَرَى أَيْضًا مِثْلُهُ مِثْلُ بَاقِي النُّجُومِ، مَخْلُوقٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلِهَذَا لَا يَسْتَحِقُّ هَذَا النَّجْمُ وَلَا غَيْرُهُ مِنَ النُّجُومِ الْعِبَادَةَ.

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴿٥٠﴾ وَثَمُودًا فَمَا أَبْقَى ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى﴾

٣٥ - الْأَقْوَامُ الَّتِي بَلَغَتْ الْمَدَى فِي الطُّغْيَانِ وَالظُّلْمِ أَهْلَكَهُمْ اللَّهُ تَعَالَى بِسَبَبِ طُغْيَانِهِمْ وَظُلْمِهِمْ، مِثْلًا أَهْلَكَ قَوْمَ عَادٍ وَقَوْمَ ثَمُودَ وَقَوْمَ نُوحٍ.

﴿وَالْمُؤْنِفَكَ أَهْوَى﴾

٣٦ - لَقَدْ حَمَلَ سَيِّدُنَا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْمَ لُوطٍ إِلَى أَعْلَى فِي الْفُضَاءِ وَقَلَّبَهَا رَأْسًا عَلَى عَقَبٍ مُسْقِطًا إِيَّاهَا عَلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ أَمْطَرَهُمْ بِحِجَارَةٍ أَهْلَكَتَهُمْ وَدَمَّرَتْهُمْ.

﴿فِي آيَةِ الْآلِ رَيْكَ نَتَمَارَى﴾

٣٧ - الْإِنْسَانُ مُحَاطٌ مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ بِأَنْعُمِ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَفِي كُلِّ نِعْمَةٍ مِنْ هَذِهِ النَّعْمِ تَبَرُّزُ آيَاتٍ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ وَاضِحَةً جَلِيلَةً، بِحَيْثُ لَوْ تَأَمَّلَهَا الْإِنْسَانُ وَتَدَبَّرَهَا لَمْ

٦٢ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

يُمْكِنُهُ إِنْكَارُ أَيِّ نِعْمَةٍ مِنْهَا، وَسَوْفَ يَصْدَعُ قَلْبُهُ مُعْلِنًا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ بِالْفِعْلِ، وَهُوَ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَى الْإِنْسَانِ بِكُلِّ هَذِهِ النِّعَمِ الَّتِي لَا يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ عَدَّهَا وَلَا حَصْرَهَا، مِثْلَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ الَّتِي لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأَوَّلِ﴾

٣٨ - هُنَا نَبِيَّةُ لُكْفَارِ مَكَّةَ بِأَنَّ بَعْثَةَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَزُولَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ لَيْسَ بِالْأَمْرِ الْجَدِيدِ، وَإِنَّمَا مِثْلَمَا جَاءَ الْأَنْبِيَاءُ الْكَرَامُ السَّابِقُونَ لِإِنْدَارِ أَقْوَامِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ، كَذَلِكَ جَاءَ سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ ﷺ أَيْضًا بِاعْتِبَارِهِ النَّبِيِّ الْخَاتَمِ، فَاتَّبَعُوهُ وَأَرْضُوا اللَّهَ تَعَالَى عَنْكُمْ؛ لِأَنَّ عَذَابَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ.

﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾

٣٩ - اللَّهُ تَعَالَى - وَحْدَهُ - هُوَ الَّذِي سَيُظْهِرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَأْتِي بِهَا حِينَ يَشَاءُ، إِلَّا أَنَّ الْقِيَامَةَ تَقْتَرِبُ كُلَّ سَاعَةٍ عَنْ سَابِقَتِهَا، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ الْمَوْتَ فِي ذَاتِهِ قِيَامَةٌ، وَهُوَ يَقْتَرِبُ مِنْ كُلِّ نَفْسٍ مِنْ أَنْفَاسِنَا كُلِّ لَحْظَةٍ عَنْ سَابِقَتِهَا، وَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ فِي أَيِّ لَحْظَةٍ سَيَنْطَفِئُ مِصْبَاحُ حَيَاتِهِ، لِهَذَا عَلَيْكُمْ أَنْ تَسْتَفِيدُوا اسْتِفَادَةً كَامِلَةً مِنْ هَذِهِ الْمُهْلَةِ حَتَّى لَا تَنْدَمُوا فِي الْغَدِ عَلَى شَيْءٍ.

﴿وَضَحَكُونَ وَلَا يَتَكُونُونَ﴾

٤٠ - هُنَا نَبِيَّةُ لُكْفَارِ مَكَّةَ بِأَنَّ كُلَّ آيَةٍ مِنَ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي ذَاتِهَا مَعْجَزَةٌ وَتَبَعٌ لِلْهُدَايَةِ، وَكَانَ يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَذَرِفُوا دُمُوعَ النَّدَمِ عَلَى ضَلَالِكُمْ، وَتَقْبَلُوا هُدَايَةَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، لَكِنَّكُمْ تَضَحَكُونَ مِنَ الْقُرْآنِ وَتَسَخَرُونَ مِنْهُ، وَتُثِيرُونَ ضَجَّةً وَصَخْبًا بَلْعِبِكُمْ حَتَّى لَا يَتِمَكَّنَ أَحَدٌ مِنَ الْاسْتِمَاعِ إِلَى آيَاتِهِ الْمَعْجَزَةِ.

﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾

٤١ - وفي النهاية جاء الحُكْمُ للمسلمين بأنه: إذا كان المشركون - بحُكمهم وجَهلهم - يَسْخَرُونَ من القرآن الكريم، فلا تبالوا أنتم بهم، وإنما خُزُوا ساجدين لمعبودكم الحقيقي، وهكذا خَرَّ النبي ﷺ وأصحابه الكرام رضي الله عنهم ساجدين، فسَجَدَ معهم كُلُّ مَنْ كان موجودًا من الكُفَّارِ وقتئذٍ. والسجود واجبٌ على مَنْ يتلو هذه الآية وعلى مَنْ يسمَعُها في رأي الإمام أبي حنيفة والإمام الشافعي رحمهما الله.

- يقول سيّدنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قرَأَ سُورَةَ النَّجْمِ فسَجَدَ بها، فما بقي أحدٌ من القوم إلا سَجَدَ، فأخذ رجلٌ من القوم كُفًّا من حصي أو ترابٍ، فرَفَعَهُ إلى وجهه وقال: «يكفيني هذا، فلقد رأيته بعدُ قُتِلَ كافرًا»^(١).

- يقول سيّدنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَجَدَ بِالنَّجْمِ، وسَجَدَ معه المسلمون والمشركون والجنُّ والإنسُ^(٢).

الفقيه إلى الله: محمد إمداد حسين بيرزاده،

جامعة الكرم، إنجلترا

بعد صلاة العشاء من يوم الاثنين ٢٣ أغسطس ٢٠١٠م

الموافق ١٢ رمضان المبارك ١٤٣١هـ.

هذا وقد اكتمل تفسيرُ سورة «النجم» بفضل الله تعالى وكرمه في ثمانية أيام

فقط، يعني: من ١٥ إلى ٢٣ أغسطس، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيّد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

(١) البخاري، كتاب سجود القرآن، باب ٤ برقم ١٠٧٠.

(٢) البخاري، كتاب سجود القرآن، باب ٥ برقم ١٠٧١.

1

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
(٥٤) سُورَةُ الْقَمَرِ

هذه السُّورَةُ مَكِّيَّةٌ، واسمُها «القَمَرُ»، وهو مأخوذٌ من الآية الأولى منها.

خلاصة مضامين السورة

- جاء في بداية هذه السُّورة ذِكْرُ معجزة انشقاق القمر، والتي لم يؤمن أهلُ مكةَ حتى بعدَ مشاهدتها، وقالوا: إنَّ هذا لَساحِرٌ عظيم! وقد تعدَّى أثرُ سحره الأرضَ ووَصَلَ إلى السماء.

- في السُّورة إشارةٌ إلى أنه مثلما انشقَّ القمرُ، فإنَّ ذلك اليومَ - الذي ستَنشقُ فيه السماءُ والأرضُ - يقتربُ أيضًا، وعندها ستقومُ الساعةُ.

- رَغِمَ أَنْ من الصَّعبِ إنكارَ شيءٍ بعدَ مشاهدته عيانًا، لكنَّ هؤلاء الناسَ أعمَّتهم أهواؤهم إلى درجةٍ كبيرةٍ بحيثُ أنهم لم يؤمنوا حتى بعدَ أن رأوا بأعينهم انشقاقَ القمر، وسوف تفتحُ أعينهم فعليًا عندما ينهضون من قبورهم، وتُخيفهم أهوالُ القيامة.

- في السُّورة ذِكْرُ لبعضِ الأقوامِ السابقين الذين كَذَّبوا أنبياءهم عليهم السَّلامُ، فأصابهم بذلك عذابٌ أليم، ولهذا ينبغي لكفَّارِ مكةَ أن يَعتَبروا من هؤلاء

٦٦ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

الأقوام السابقين، وأن يقبلوا نصيحة القرآن الكريم، حتى لا يُصيبهم العذاب الأليم.

الفقيه إلى الله: محمّد إمداد حسين بيژزاده،

جامعة الكرم، إنجلترا

بعد ظهر يوم الأربعاء ٢٥ أغسطس ٢٠١٠م

الموافق ١٤ رمضان ١٤٣١هـ.



سُورَةُ الْقَمَرِ (٥٤)،

مكية (٣٧)، آياتها (٥٥)، ركوعاتها (٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ ۖ وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ ۚ (١) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حُكْمُهُ بَلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ التَّذْذِرُ (٥) فَقَوْلُ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ (٦) خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨) ۖ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَحْنُونا ۖ وَازْدَجَرَ (٩) فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثَمَرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ فَرِدَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوَجِّ وَدُسِرَ (١٣) تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءُ لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً ۖ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ۖ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ (١٧) كَذَبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ۖ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ (٢٢)

﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾

١ - نبينا الحبيب سيدنا محمد ﷺ هو آخر الأنبياء والمرسلين، ولن يأتي نبي بعده، وإنما ستقوم الساعة، ولهذا فإن القيامة قد اقتربت - بالفعل - في وقتنا هذا قياساً

بزمِ الأُمم السابقة، كما أنَّ كلَّ شيءٍ قادمٍ يقتربُ لمحَّةً بعدَ أخرى، والأحاديثُ التاليةُ تشيرُ إلى قُرْبِ قيام الساعة:

- يقولُ سيِّدنا بُرَيْدَةُ رضي الله عنه: إنه سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يقولُ: «بُعِثْتُ أنا والسَّاعَةُ كهاتين»، وَضَمَّ أَصْبَعَيْهِ: السَّبَّابَةَ وَالْوُسْطَى^(١).

- يقولُ سيِّدنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: إنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّما أَجَلُكُمْ فيما خلا من الأُمم، كما بينَ صلاةِ العصرِ إلى مغربِ الشمسِ»^(٢).

﴿وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾

٢ - يقولُ المفسِّرونَ في تفسيرِ هذه الآية: إنه ذاتَ مرةٍ اجتمعَ كفَّارُ مكةَ وقالوا للنبيِّ ﷺ: إن كنتَ صادقاً فشقِّ لنا القمرَ شَقْنَيْنِ، فسألهم النبيُّ ﷺ: لو فعلتُ هذا هل تؤمنونَ بي؟ قالوا: نعم - وكان القمرُ في ليلةِ الرابعِ عشرَ من الشهرِ القمريِّ - ثم دعا النبيُّ ﷺ ربَّه أن يُعطيه القُدرةَ على إظهارِ المعجزةِ التي طلبَها الكفَّارُ، وبالفعل، انشقَّ القمرُ إلى نصفَيْنِ: نصفٌ على جبلِ أبي قُبَيْسٍ، والنصفُ الآخرُ على جبلِ قُعَيْقِعَانَ، حتَّى بدا للناسِ جبلُ حراءٍ بينَ النصفَيْنِ، وعندئذٍ نادى النبيُّ ﷺ على الكفَّارِ بأسمائهم قائلاً: يا فلان، يا فلان، شاهدوا بأعينكم واشهدوا أنَّ طلبَكم قد أُجيب، وعليه قال المشركونَ: لقد سَحَرَنَا مُحَمَّدٌ ﷺ، لكنَّه لا يستطيعُ أن يسحرَ الناسَ جميعاً، فقال أبو جَهْلٍ: اصبروا، ننتظرُ عابري السَّبيلِ وأهلَ البوادي ونسألهم، فإنَّ أكَّدوا على انشقاقِ القمرِ فإنَّ كلامَ مُحَمَّدٍ ﷺ يكونُ صحيحاً، وإلاَّ فإنه يكونُ قد سَحَرَ أعيننا، وحينَ شَهِدَ عابرو السَّبيلِ والبدوُ بأنَّهم شاهدوا انشقاقَ القمرِ فعلاً قال أبو جَهْلٍ والمشركونَ: إنه سِحْرٌ يَحْدُثُ منذُ الزَّمنِ القديم، وعليه أنزلَ اللهُ

(١) مجمع الزوائد، ١٠: ٣١١.

(٢) المعجم الأوسط، ١: ٣٠٤ برقم ٤٩٨.

تعالى الْآيَتِينَ الْأُولَيَيْنِ من هذه السُّورَةِ^(١)، وفيه إشارةٌ إلى أنه مثلما انشقَّ القمرُ فإنَّ ذلك اليومَ - الذي ستَنشقُ فيه السَّمَاءُ والأَرْضُ - يقتربُ أيضًا، وعندها ستقومُ الساعةُ.

وقال العلامةُ القرطبيُّ: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾ هذا يدلُّ على أنَّهم رأوا انشقاقَ القمرِ. قال ابنُ عباسٍ: اجتمعَ المشركونَ إلى رسولِ الله ﷺ، وقالوا: إن كنتَ صادقًا فاشقُّ لنا القمرَ فرقتين: نصفٌ على أبي قُبَيْسٍ ونصفٌ على قُعَيْقِعَانَ، فقال لهم رسولُ الله ﷺ: إن فعلتُ تؤمنون؟ قالوا: نعم؟ وكانت ليلةَ بدرٍ، فسأل رسولُ الله ﷺ ربَّه أن يُعطيه ما قالوا، فانشقَّ القمرُ فرقتين، ورسولُ الله ﷺ ينادي المشركين: يا فلانُ، يا فلانُ، اشهدوا. وفي حديثِ ابنِ مسعودٍ: انشقَّ القمرُ على عهدِ رسولِ الله ﷺ، فقالت قريشٌ: هذا من سِحْرِ ابنِ أبي كَبْشَةَ، سَحَرَكُم، فاسألوا السُّقَّارَ، فسألوهم فقالوا: قد رأينا القمرَ انشقَّ، فنزلت: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾^(٢)

وقد حَدَّثَتْ معجزةُ شقِّ القمرِ قبلَ خمسِ سنواتٍ من الهجرة، وإليك بعضُ الأحاديثِ التي تدورُ حولها:

(١) «إن كفار مكة قالوا للرسول ﷺ: إن كنت صادقًا فشق لنا القمر فرقتين، ووعدوه بالإيمان إن فعل، وكانت ليلة بدر، فسأل رسول الله ﷺ ربَّه أن يعطيه ما طلبوا، فانشقَّ القمر: نصف على جبل الصفا، ونصف على جبل قعيقعان المقابل له، حتى رأوا حراء بينهما، فقالوا: سحرنا محمد، ثم قالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم! فقال أبو جهل: اصبروا حتى تأتينا أهل البوادي فإن أخبروا بانشقاقه فهو صحيح، وإلا فقد سحر محمد أعيننا، فجاءوا فأخبروا بانشقاق القمر، فقال أبو جهل والمشركون: هذا سحرٌ مستمر، أي: دائم». صفوة التفاسير، ودلائل النبوة، الأصبهاني، ١: ٣٦٨ برقم ٢٠٩.

(٢) تفسير القرطبي.

- يقول سيّدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: انشقَّ القمرُ على عهدِ رسولِ الله ﷺ شِقَّتَيْنِ، فقال النَّبِيُّ ﷺ: «اشهدوا»^(١).

- يقول سيّدنا أنس بن مالك رضي الله عنه: إنّ أهلَ مكّة سألوا رسولَ الله ﷺ أن يُريهم آيةً، فأراهم انشقاقَ القمرِ^(٢).

- يقول سيّدنا جُبَيْر بن مُطْعِم رضي الله عنه: انشقَّ القمرُ على عهدِ النَّبِيِّ ﷺ حتّى صارَ فِرْقَتَيْنِ على هذا الجبل وعلى هذا الجبل، فقالوا: سَحَرَنَا مُحَمَّدٌ، فقال بعضهم: لئن كان سَحَرَنَا ما يستطيعُ أن يسحرَ النَّاسَ كلَّهم^(٣).

﴿وَلَا يَرَوْنَ آيَةً يُعْرِضُونَ وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾

٣ - لك أن تتصوّر مدى تعصّب أهل مكّة وتعتّتهم من أنّهم هم الذين طالبوا بشقّ القمر، ووعدوا بأنهم سيؤمنون لو انشقّ القمر، ولكنّ عندما ظهرت هذه المعجزة خلفوا وعودهم وقالوا: إنّ هذا لسحرٌ عظيم، وقد وصل أثره إلى السماء! ولكن لا داعي للخوف والقلق؛ لأنّ مثل هذا السحر كان السابقون أيضًا يقومون به، ومثلما مضى السحرة من قبل إلى حال سبيلهم، سيأتي يومٌ يمضي فيه هذا هو الآخر إلى حال سبيله، ويتحوّل الأمرُ كلّهُ إلى قصّة عفى عليها الزّمن.

﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾

٤ - كذّب مشركو مكّة النَّبِيَّ ﷺ حتى بعد أن رأوا معجزةً عظيمةً مثل معجزة انشقاق القمر، وكذبوا بيوم القيامة أيضًا، وليس لديهم أيّ دليل على تكذيبهم هذا،

(١) البخاري، كتاب المناقب، باب ٢٧ برقم ٣٦٣٦.

(٢) البخاري، كتاب المناقب، باب ٢٧ برقم ٣٦٣٧.

(٣) الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب ٥٤ برقم ٣٢٨٩.

ولم يكن سوى التعصّب الذي أعماههم وهوى أنفُسهم الذي اتَّبَعُوهُ، والذي وَقَفَ عائقًا في سَبِيلِ اتِّبَاعِهِمُ الْحَقَّ، وفي هذه الآية تنبيهٌ للمُشْرِكِينَ بأنَّ السَّاعَةَ ستَقُومُ لا مَحَالَةَ، وسوف يُعاقَبُونَ على تكذيبهم هذا، ولكنَّ طَبَقًا لِلوَقْتِ الذي حَدَّدَهُ اللهُ تعالى لهذا، فإذا حان الوقتُ فلن يجدوا لهم ملجأً من الله.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾

٥ - كان لدى مشركي مكّة أخبارُ الأقوامِ السابقين الذين كَذَّبُوا أنبياءهم الكرامَ عليهم السَّلامُ، فنَزَلَ عليهم العذابُ، وفي مثل هذه الأخبارِ عبرةٌ ونصيحةٌ يجبُ أن تدفعَهم - وبِقوّة - إلى تركِ طريقِ الهلاكِ والدَّمارِ.

﴿حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾

٦ - الأخبارُ التي جاء بها القرآنُ الكريمُ عن هلاكِ الأقوامِ السابقين فيها حِكْمَةٌ وَعِلْمٌ لا حدَّ لهما، ولو أنَّ المُشْرِكِينَ استعملوا عقولَهم وتدبَّروها وفكَّروا فيها لكان من الممكن أن ينجُوا من مصيرِهم السيِّئ، ولكنَّ لأنَّهم كانوا عبيدًا لأهوائهم، عُميانًا في اتِّبَاعِهِمُ لَهَا، ولم يكونوا يستمعونَ إلى القرآنِ الكريمِ بتدبُّرٍ وتمعُّنٍ، لهذا لم يُفدِّهم الإنذارُ بشيءٍ.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ﴾

٧ - يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، الذين لم يؤمنوا بك رَغَمَ مشاهدتهم معجزةَ انشقاقِ القمرِ، ورَغَمَ دعوتِكَ المليئةَ بِالْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ لَهُمْ، وظلُّوا مُصِرِّينَ على عنادِهِمْ، لا تحزَنُ عليهم ولا تغتمَّ لَهُمْ، واتركَهُمْ في حالِهِمْ، وسيكونُ يومُ القيامةِ بالنِّسْبَةِ لَهُمْ في غايةِ الصُّعُوبَةِ وَالسُّوءِ؛ لأنَّهم كانوا يُنْكِرُونَ يومَ القيامةِ من جانبٍ، ومن جانبٍ آخَرَ لن يكونَ هناك من يُنقِذُهُمْ من عذابِ يومِ القيامةِ.

﴿خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾

٨ - حينَ تهجمُ أسرابُ الجرادِ على منطقةٍ من المناطقِ تغطي هذه الأسرابُ الأرضَ: الفضاءَ والحقولَ من كلِّ جانبٍ في تلكِ المنطقة، وبنفسِ الطريقةِ ستكونُ الأرضُ يومَ القيامةِ خاليةً تمامًا ونظيفةً، ولكن حينَ يخرجُ الناسُ من قبورِهِم ستمتلئُ الأرضُ بهم من كلِّ جانب، وستكونُ أبصارُهُم خاشعةً من أهوالِ يومِ القيامة.

﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾

٩ - حينَ يخرجُ بنو الإنسانِ من قبورِهِم ستطرأ عليهم حالةٌ من الوحشة، وسيتفرقون ويتشرون مثلَ الفراشات، وحينَ يُنادى عليهم بالتوجهِ إلى ميزانِ العدلِ سيُهرولونَ باتجاهِ مَنْ يناديهم وهم في حالةٍ من الخوفِ والدُّعْرِ الشديدِ، وسيقولُ الكفارُ في خوفٍ ورُعبٍ: إِنَّ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ مُخِيفٌ. لَيْتَهُمْ فَهَمُوا فِي الدُّنْيَا أَنَّ هَذَا الْيَوْمَ قَادِمٌ لَا مَحَالَةَ، ولو فَهَمُوا مَا وَصَلُوا إِلَى حَالَةِ النَّدَمِ الشَّدِيدِ هَذِهِ.

﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾

١٠ - في الآياتِ التاليةِ ذَكَرَ لَطُغْيَانِ الْأَقْوَامِ السَّابِقِينَ وَهَلَاكِهِمْ وَدَمَارِهِمْ، وفي هذهِ الواقعاتِ درسٌ عبرةٌ للمشرِكينَ من جانب، ومن جانبٍ آخَرَ فيها تَسْرِيَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ الْكَرِيمِ ﷺ، يَعْنِي: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﷺ، إِنَّ مَخَالَفَةَ مُشْرِكِي مَكَّةَ لَيْسَتْ بِالْأَمْرِ الْجَدِيدِ، فَقَدْ كَذَّبَتْ الْأَقْوَامُ السَّابِقَةُ نَبِيَّنَا الْحَبِيبَ سَيِّدَنَا نُوْحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَمْ يَكْتَفُوا بِقَوْلِهِمْ عَنْهُ: إِنَّهُ مَجْنُونٌ وَحَسْبُ، وَإِنَّمَا زَجَرُوهُ كَذَلِكَ وَهَدَّوْهُ، مِثْلَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْتُحِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ﴾

١١ - نَقَلَ القاضي ثناء الله باني بتي هنا قولاً لمجاهد، من أنه كان: «واحدٌ منهم يلقاه فيخنقه حتى يَحِرَّ مَغْشِيًّا عليه فيفِيقُ ويقول: اللهم اغفرْ لقومي فإنهم لا يعلمون»^(١)، وظلَّ يقابلُ إيذاءهم له لمدة تسعمائة وخمسين عامًا بالدعاء لهم، ولكن حين هدّده بالرجم، وشعر سيّدنا نوحٌ عليه السلام بأنهم لن يؤمنوا دعا عليهم بالدعاء الذي بيّنه القرآن الكريمُ في قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ﴾، كما بيّن القرآن الكريمُ هذا الدعاء في موضع آخر منه، فقال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦-٢٧].

﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ﴾

١٢ - قَدَّرَ الله تعالى العذابَ بالماءِ على قوم نوح، وهكذا عندما حان وقتُ تعذيبهم أنزلَ الله تعالى من السَّمَاءِ - مطرًا - سُيُولًا لم تتوقَّف، وأجرى الماء من الأرضِ كذلك عيونًا، حتى أنَّ أفرانَ النارِ أيضًا فاضتْ بالماء، ثم التقتِ المياهُ النازلةُ من السَّمَاءِ معَ المياهِ النابعة من الأرض، وأعطتْ حُكْمَ الله هذا - بتعذيبِ قوم نوح بما تقرَّر لهم - الشَّكْلَ العمليَّ، يعني: أنَّ هذه المياهَ صارت طوفانًا وأغرقتهم جميعًا.

﴿تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا﴾

١٣ - رَكِبَ سيّدنا نوحٌ عليه السَّلامُ ورفاقه في السَّفينة التي أَمَرَ الله تعالى سيّدنا نوحًا عليه السَّلام أن يصنَّعها من الألواح والمسامير، وكان الطوفانُ شديدًا

(١) التفسير المظهر، سورة القمر (٥٤): الآية ٩.

لدرجة أن كلَّ شيءٍ غرِق فيه، بينما ظَلَّت هذه السَّفِينَةُ تسيرُ إلى منزلِها بحفظِ الله ورعايته، ولم تواجهِ أيَّ خطرٍ.

﴿جَزَاءٌ لِمَن كَانَ كُفْرًا﴾

١٤ - انتَقَمَ اللهُ تعالى عن طريقِ هذا الطُّوفانِ من أولئك الذين أنكَروا رسولَ الله إليهم، يعني: سَيَدَنَا نوحًا عليه السَّلام، وسَخَرُوا من تعاليمه، وأَذَوْه جسدًا، بل وهَدَّوْهُ بالرَّجم كذلك.

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾

١٥ - كان غَرَقُ الناسِ جميعًا في طُوفانِ نوح، ونجاةُ البعض منهم، وهمُ الذين رَكِبُوا السَّفِينَةَ، بمثابة واقعةٍ غيرِ عاديةٍ في التاريخِ الإنسانيِّ، ولهذا ظلَّ الناجُونَ من الطُّوفانِ يَقْصُونَ على الأجيالِ التالية واقعةَ الطُّوفانِ والسَّفِينَةِ، ولا تزالُ هذه الواقعةُ معروفةً حتى اليوم، بل إنَّ السفينةَ نفسها بقيتْ موجودةً لفترةٍ طويلة، حتى يَعْتَبِرَ الناسُ من واقعةِ الطُّوفانِ والسَّفِينَةِ، ويقبلوا نصيحةَ الله تعالى التي أنزلها إليهم.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾

١٦ - يعني: أنَّ العذابَ الذي أُنذَرَكُم به رسولي، سيأتِيَكُم - بالضرورة - في وقتهِ المحدَّد، ومثلما تعلمون أنتم كيف أنَّ الله تعالى أغرَقَ العُصاةَ في الماء، ونجَّى المُطِيعِينَ عن طريقِ السفينة.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾

١٧ - القرآنُ المَجِيدُ سهلٌ وميسرٌ للغاية فيما يتعلقُ بالحصولِ على النصيحةِ منه، وفيه بيانٌ بأمثلةٍ سَهْلَةٍ وبسيطةٍ على جزاءِ الأعمالِ الصَّالحةِ وعقابِ الأعمالِ

السيئة، وإذا تدبّر إنسانٌ على قدرٍ عاديٍّ من الفهم والدِّكاء هذه الأمثلة، استطاع بسهولة أن يحصلَ على النصّح منها، مثلما مرَّ الآن في مثالِ الطوفان، وكيف نجّى الله تعالى الصالحين وأغرقَ المفسدين.

ولكن لا يلزم من ذلك أن يكونَ استنباطُ الأحكام من القرآن الكريم أمراً سهلاً وبسيطاً، وإنما هو فنٌّ مستقلٌّ وصعبٌ في الوقتِ نفسه، ويحتاجُ إلى علمٍ كبيرٍ واطّلاعٍ واسعٍ.

وهناك مفهومٌ آخرٌ لهذه الآية، يعني: أن حفظَ القرآن الكريم سهلٌ ميسّرٌ، والدليلُ على هذا أن هناك آلافَ الحُفّاظِ اليوم في كلِّ ركنٍ من أركانِ العالم الإسلامي، بل إنَّ هناك أطفالاً أقلَّ من عشرِ سنينَ عمراً يحفظون القرآن الكريم عن ظهرِ قلب، بحيث لا يُخطئون في فتحةٍ أو كسرةٍ منه.

يقول العلامةُ غلام رسول سَعِيدِي في تفسيرِ هذه الآية: إنه ذاتَ مرّةٍ ذهب رجلُ الدِّينِ الهِنْدُوسِيّ رام تشندر إلى سيّدنا صدرِ الأفاضلِ نعيم الدِّينِ مُراد آبادي وقال له: إنني أحفظُ أربعةَ عشرَ جزءاً من قرآنكم، فكم تحفظُ أنت من كتابِ الهندوسِ المقدّس (فيد)؟ فقال سيّدنا صدرُ الأفاضلِ نعيم الدِّينِ مراد آبادي: لا تقلْ مثْلَ هذا الكلامِ ثانيةً، وإلا ستلقَى هواناً وذلّاً. قال رام تشندر: لا تتهرَّب من الإجابة عن سؤالي، إن كنتَ تحفظُ شيئاً فأسمِني إياه. قال سيّدنا صدرُ الأفاضلِ: إن من إعجازِ قرآننا وكمالِهِ أنه محفوظٌ في صدرِ عدونا، ومن عيبِ كتابكم (فيد) أنكم لا تحفظون منه بقدرَ ما تحفظون من القرآن. أُسْقَطَ في يدِ رجلِ الدِّينِ الهِنْدُوسِيّ لَمَّا سَمِعَ هذه الإجابة، فغادرَ المكانَ وذهب.

وبنفسِ الطريقة، فإنَّ التَّوراةَ والزَّبُورَ والإنجيلَ كُتِبَ سَماويّةً، ولكن لا يوجدُ لأيٍّ من هذه الكُتُبِ حُفّاظٌ لها في الدنيا، بينما هذا هو إعجازُ القرآن الكريم

فقط، يعني: أَنَّ حِفَاظَهُ مَوْجُودُونَ بِأَعْدَادٍ لَا تَحْصَى فِي كُلِّ بَلَدٍ مِنَ الْبُلْدَانِ^(١).

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾

١٨ - أُنْذِرَ سَيِّدُنَا هُوْدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْمَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى، لَكِنَّهُمْ كَذَّبُوا سَيِّدَنَا هُوْدًا عَلَيْهِ السَّلَامَ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ فِي صُورَةٍ عَاصِفَةٍ شَدِيدَةٍ. يَقُولُ الْعَلَامَةُ الْخَازِنُ: «كَانَ ذَلِكَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ»^(٢)، وَكَانَ يَوْمٌ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ بِالنِّسْبَةِ لَهُمْ.

لَا يَوْجَدُ نَهَارٌ أَوْ لَيْلٌ مَنْحُوسٌ فِي ذَاتِهِ، وَالْمَرَادُ بِيَوْمٍ نَحْسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّهُ كَانَ يَوْمٌ نَحْسٍ بِالنِّسْبَةِ لَهُمْ؛ لِأَنَّ الْعَذَابَ نَزَلَ عَلَيْهِمْ فِيهِ، وَلَمْ يَكُنِ الْيَوْمُ هُوَ السَّبَبُ فِي عَذَابِهِمْ، وَإِنَّمَا كَانَ طُغْيَانُهُمْ وَعِصْيَانُهُمُ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ، وَلَوْ أَنَّ الْيَوْمَ مَنْحُوسٌ فِي ذَاتِهِ لَنَزَلَ الْعَذَابُ فِيهِ عَلَى الْأَقْوَامِ الْأُخْرَى أَيْضًا بِجَانِبِ قَوْمِ عَادَ، وَهَذَا لَمْ يَحْدُثْ، أَوْ أَنَّ الْعَذَابَ ظَلَّ يَنْزِلُ عَلَى قَوْمٍ عَادٍ كُلِّ أَرْبَعَاءَ، وَهَذَا أَيْضًا لَمْ يَحْدُثْ.

﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ﴾

١٩ - كَانَ النَّاسُ فِي قَوْمِ عَادٍ طَوَالَ الْقَامَةِ أَقْوِيَاءَ، وَلِهَذَا كَانُوا يَعْتَبِرُونَ أَنْفُسَهُمْ أَقْوِيَاءَ عُظَمَاءَ وَالْآخَرِينَ ضُعَفَاءَ حَقِيرِينَ، وَقَدْ أَفْهَمَهُمْ سَيِّدُنَا هُوْدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنَّهُ تَعَقَّلُوا، فَالَّذِي خَلَقَكُمْ وَجَعَلَكُمْ أَقْوِيَاءَ هُوَ نَفْسُهُ أَقْوَى مِنْكُمْ، وَلَكِنْ عِنْدَمَا لَمْ يَرَجِعُوا عَنْ طُغْيَانِهِمْ، وَأَصْرُوا عَلَى الْإِنْكَارِ الْمُتَوَاصِلِ لآيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، أَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ - فِي نَهَايَةِ الْأَمْرِ - رِيحًا عَاصِفًا رَفَعَتْهُمْ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى الْفُضَاءِ وَأَسْقَطَتْهُمْ بِكُلِّ غُنْفٍ عَلَى الْأَرْضِ، فَانْفَصَلَتْ رءُوسُهُمْ عَنْ أَجْسَادِهِمْ، وَتَنَازَرَتْ جُثَثُهُمْ عَلَى الْأَرْضِ كَأَنَّهُمَا جَذُوعُ نَخِيلٍ مُّقْطُوعَةٍ مُّبْتَوْرَةٍ.

(١) تفسير تبيان القرآن، ١١: ٥٨٥.

(٢) تفسير الخازن.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾

٢٠ - مرّ تفسير هذه الآية فارجع إليه في الحاشية رقم ١٧.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِمَّا وَحَدَّا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِدَا لَئِي ضَلَّلِ وَسُعِرِ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ لَقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فِئْتَهُ لَهُمْ فَأَرْتَقِبْهُمْ وَأَصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْضَرٌّ ﴿٢٨﴾ فَادَّوَا صَاحِبَهُمْ فَنَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٤٠﴾

﴿فَقَالُوا أَبَشْرًا مِمَّا وَحَدَّا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِدَا لَئِي ضَلَّلِ وَسُعِرِ﴾

٢١ - كَذَّبَ قَوْمُ ثَمُودَ أَيْضًا نَبِيَّهُمْ، يعني: سَيِّدَنَا صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَام، وَبَرَّروا ذلك قائلين: إنه بشرٌ مثْلُنَا، كما أنه وحيدٌ ولا جماعة معه، فإذا تَرَكْنَا نحن دينَ آبائنا وأجدادنا، واتَّبَعْنَا شخصًا لا يفوقنا حَسَبًا ولا نَسَبًا، بل ولا من أيِّ اعتبارٍ آخَرَ، فإننا عندئذٍ لا نكون ضالِّينَ فقط، بل ونكون مجانينَ كذلك؛ لأنه لن يوافقَ عاقلٌ من قومنا على مثلِ هذه الخطوة من جانبنا.

﴿أَلَمْ لَقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾

٢٢ - ثم قالوا - على سبيل السُّخْرِيَّةِ والاستحقار -: هل هذا فقط هو المؤهَّل

من بَيْنَنَا لَكِي يَنْزِلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ، مَعَ أَنْ بَيْنَنَا أَنَا أَوْ أَفْضَلَ مِنْهُ بَكْثِيرٌ، وَهُمْ الْأَكْثَرُ اسْتِحْقَاقًا لِأَنْ يَنْزِلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِمْ؟ وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ عَلَيْهِ وَحْيٌ، وَإِنَّمَا هُوَ كَاذِبٌ، وَيُرِيدُ أَنْ يُعْظَمَ نَفْسَهُ بَيْنَنَا عَنْ طَرِيقِ ادِّعَائِهِ الْكَاذِبِ هَذَا (وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ).

﴿سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ الْكَذَّابِ الْأَشِيرِ﴾

٢٣ - الْيَوْمَ يَقُولُ هَؤُلَاءِ النَّاسُ عَنْ نَبِيِّ اللَّهِ تَعَالَى: إِنَّهُ كَاذِبٌ وَمَتَكَبِّرٌ، لَكِنَّهُمْ فِي الْغَدِ، يَعْنِي: يَوْمَ مَوْتِهِمْ أَوْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حِينَ يَرَوْنَ عَذَابَ اللَّهِ تَعَالَى، سَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ الْكَذَّابُ وَمَنْ هُوَ الْمَتَكَبِّرُ، يَعْنِي: أَنَّهُمْ سَيَتَقَيَّنُونَ عِنْدَئِذٍ مِنْ أَنَّهُمْ كَانُوا هُمُ الْمَتَكَبِّرِينَ الْكَذَّابِينَ، وَسَيَنْدُمُونَ قَائِلِينَ: لَيْتَهُمْ لَمْ يُكَذِّبُوا أَنْبِيَاءَ اللَّهِ، وَلَكِنَّ النَّدَمَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لَنْ يَنْفَعَهُمْ شَيْءٌ.

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فَمَنْ تَبِعَهَا فَرَقَّ بِئْسَ الْيَوْمَ الْحَاقُّ﴾

٢٤ - طَالَبَ قَوْمٌ ثَمُودَ سَيِّدَنَا صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِلِينَ: إِنْ أَخْرَجْتَ لَنَا مِنَ الصَّخْرَةِ نَاقَةً حَيَّةً سَنُؤْمِنُ بِكَ، وَهَكَذَا دَعَا سَيِّدُنَا صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا صَالِحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِنَّا سَنُرْسِلُ النَّاقَةَ ابْتِلَاءً لَكُمْ وَاخْتِبَارًا، عَلَيْكَ فَقْطُ أَنْ تَصْبِرَ عَلَى إِذْأَتَهُمْ لَكَ، وَانْتَظِرْ لَتَرَى هَلْ يُؤْمِنُونَ بِكَ عِنْدَمَا يَرَوْنَ هَذِهِ الْمَعْجَزَةَ أَمْ لَا؟!

﴿وَنَبِّئَهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْضَرٌ﴾

٢٥ - أَطْلَعَ سَيِّدُنَا صَالِحٌ قَوْمَهُ - بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى - عَلَى أَنَّ هَذِهِ النَّاقَةَ سَتَشْرَبُ الْمَاءَ يَوْمًا، وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ يَشْرَبُ قَوْمُ ثَمُودَ، يَعْنِي: سَيَشْرَبُ كُلُّ فَرِيقٍ الْمَاءَ فِي دَوْرِهِ فِي الْيَوْمِ الْمَحْدَدِ لَهُ، وَلَنْ يَتَدَخَّلَ فَرِيقٌ فِي الْيَوْمِ الْمَحْدَدِ لِلْفَرِيقِ الْآخَرِ.

يقولُ سيِّدنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: كان يومُ شربهم لا تشربُ الناقةُ شيئاً من الماء وتَسقيهم لبناً وكانوا في نعيم، وإذا كان يومُ الناقة شربتِ الماءَ كُلَّهُ فلم تُبقِ لهم شيئاً^(١).

﴿فَادْأَوْصَايَهُمْ فَنَعَاطَى فَعَقَرَ﴾

٢٦ - كانت هذه الناقةُ بمثابةِ النعمةِ العظيمةِ لهم، فقد كانوا يشربون الماءَ يوماً، وفي اليوم التالي يشربون من لبنِ الناقةِ مَجَاناً ودونَ ثمنٍ يدفعونه، ولكنَّهم لم يُقدِّروا هذه النعمةَ حقَّ قدرها، فحرَّضوا رجلاً أحمقَ من بينهم على أن يقتلَ الناقةَ، وبالفعل قام هذا الأحمقُ بقطعِ سيقانِ الناقةِ وقتلها.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْحُمْطِرِ﴾

٢٧ - لقد حَذَّر سيِّدنا صالحٌ عليه السَّلامُ قومه من عذابِ الله تعالى قائلاً لهم: إن آذيتُم هذه الناقةَ فسيَنزِلُ عليكم عذابٌ عظيمٌ أليم، وهكذا أنزلَ الله عليهم العذابَ في صورةِ صَيْحَةٍ عظيمةٍ لَمَّا قَتَلُوا الناقةَ، وقد جَعَلَتْهم هذه الصَّيْحَةُ العظيمةُ كمثلِ العُشبِ الذي داسَتْهُ الأقدامُ مراراً وتكراراً، وأصبحوا موتى مُلقَيْنَ على وجوههم.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾

٢٨ - سبقَ تفسيرُ هذه الآيةِ في الحاشية رقم ١٧ فارجعْ إليها.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾

٢٩ - كَذَّب قومُ لوطٍ أيضاً نبيَّهم، يعني: سيِّدنا لوطاً عليه السَّلام، فدَمَّر الله

(١) تفسير القرطبي، سورة القمر (٥٤): الآية ٢٨.

٨٠ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

تعالى قُراهم كُلَّهَا عقابًا لهم على تكذيبهم هذا، ثم أمطرهم بحجارة مطرًا استمرَّ حتى أَهْلَكَ الْكُفَّارَ جميعًا، وأَخْرَجَ اللهُ تعالى سَيِّدَنَا لوطًا عليه السَّلامُ والمؤمنين معه من آلِ بَيْتِهِ من هذه الْقُرَى في الجزءِ الْآخِرِ من اللَّيْلِ، وهكذا يَفْضَلُ اللهُ تعالى ويَتَكَرَّمُ على عِبَادِهِ الشَّاكِرِينَ.

﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾

٣٠ - حَدَّرَ سَيِّدُنَا لوطٌ عليه السَّلامُ قَوْمَهُ من عِقَابِ اللهِ تعالى وَأَخَذَهُ، لَكِنَّهُمْ لم يبالوا بتحذيره لهم، بل إنَّهُم شَكَّوْا فيه، وَأَخَذُوا يَتَشَاجِرُونَ معه.

﴿وَلَقَدْ رَاوَوْهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾

٣١ - أَرْسَلَ اللهُ تعالى بعضَ الملائكةِ في شكلِ فتيانٍ حَسَنِي الصُّورَةِ إلى سَيِّدِنَا لوطٍ عليه السَّلامُ بِقَصْدِ إِنْزَالِ الْعَذَابِ على قومِ لوط، وما أنْ سَمِعَ الْفُسَّاقُ من قومِ لوطٍ بِخَبَرِ قَدُومِ فَتَيَانِ حَسَنِي الصُّورَةِ حتى هَزَلُوا إلى بَيْتِ سَيِّدِنَا لوطٍ عليه السَّلامِ وقالوا له أَنْ سَلَّمْنَا هَؤُلَاءِ الْفَتَيَانَ الضُّيُوفَ حتى نَفْعَلَ بِهِمُ الْفَاحِشَةَ! حَاوَلَ سَيِّدُنَا لوطٌ عليه السَّلامُ إِفْهَامَهُمْ بِأَنْ هَؤُلَاءِ ضِيُوفِي، وَلَنْ أُسَلِّمَهُمْ لَكُمْ، وَلَكِنْ لَا فَائِدَةَ، وَلَمَّا شَعَرَ سَيِّدُنَا لوطٌ عليه السَّلامُ بِأَنَّهُ لَا أَثَرَ لِنُصِيحَةٍ عَلَيْهِمْ، قَامَ بِإِغْلَاقِ بَابِ بَيْتِهِ حِمَايَةً لَضِيُوفِهِ.

ولَمَّا بَلَغَ الْخَوْفُ مَبْلَغَهُ بِسَيِّدِنَا لوطٍ عليه السَّلامِ، وَبَلَغَ طُغْيَانُ قَوْمِ لوطٍ الْمَدَى، قَالَ الضُّيُوفُ لِسَيِّدِنَا لوطٍ عليه السَّلامِ: نَحْنُ رُسُلُ رَبِّكَ، وَقَدْ أُرْسِلْنَا لِنُنْزِلَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ، وَلِهَذَا لَا تَخَفْ شَيْئًا، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ لَنْ يَسْتَطِيعُوا الْوَصُولَ إِلَيْكَ مَطْلَقًا، فَافْتَحِ الْبَابَ، وَنَحْنُ سَتَتَوَلَّى أَمْرَهُمْ، وَهَكَذَا فَتَحَ سَيِّدُنَا لوطٌ عليه السَّلامُ بَابَ الْبَيْتِ، وَضَرَبَ سَيِّدُنَا جِبْرِيلُ عليه السَّلامُ بِجَنَاحِهِ، فَصَاحَ الْكُفَّارُ بِأَعْلَى

صوتهم وقد طُمست أبصارهم: اهربوا من هنا فوراً، فإن ضيوف لوط عليه السّلام أكثر منه سحراً^(١).

﴿وَلَقَدْ صَبَحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾

٣٢- عند الليلة الأولى أذاق الله تعالى قوم لوط عذاباً بسيطاً بسبب سوء سلوكهم، يعني: أنه طمس على عيونهم وأعماهم، ثم أذاقهم العذاب الأكبر عند الصّباح الباكر، يعني: أنه قلب قراهم رأساً على عقب، وأمطرهم بحجارة من عنده أهلكتهم إلى الأبد.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾

٣٣- راجع تفسير هذه الآية في الحاشية رقم ١٧.

وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ ﴿٤١﴾ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْنَدٍ ﴿٤٢﴾ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْجَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَفَرٍ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمَرْنَا إِلَّا وَاحِدَةً كَلِمَةً بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ

(١) «قال ابن عباس وأهل التفسير: أغلق لوطُ بابَه والملائكة معه في الدار، وهو ينظر قومه ويناشدهم من وراء الباب، وهم يعالجون تسوّر الجدار، فلما رأت الملائكة ما لقي من الجهد والكرب والتصب بسببهم، قالوا: يا لوط، إن ركنك لشديد، وإنهم آتيهم عذابٌ غير مردود، وإنّا رسل ربك، فافتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب، فضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم وعموا وانصرفوا على أعقابهم، وجعلوا يقولون: التجاء التجاء! فإن في بيت لوط قوماً هم أسحر من على وجه الأرض، وقد سحرونا فأعموا أبصارنا». تفسير القرطبي: سورة هود (١١): الآية ٨١.

شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْتَّقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ﴿٥٤﴾
 فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ ﴿٥٥﴾

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْنَدٍ﴾

٣٤ - الله تعالى هو القادرُ المطلق والغالبُ على الجميع، وهو الذي أَرْسَلَ سَيِّدَنَا موسى وسَيِّدَنَا هَارُونَ عليهما السَّلَامُ إلى فِرْعَوْنَ وقومه، وقد أُنْذِرَا الفِرْعَوْنَ وحَدَّرَاهُ من عَذَابِ الله تعالى، وَأَرَيَاهُ معْجَزَاتٍ دَلِيلًا على صِدْقِهِمَا، ولكنَّ لَمَّا أَتَا فِرْعَوْنَ وقومُهُ المعْجَزَاتِ كُلَّهَا انتَقَمَ اللهُ تعالى منهم، وَأَغْرَقَ فِرْعَوْنَ ورجاله في البحر.

﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ أَمْ لَهُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾

٣٥ - في هذه الآياتِ تنبيهٌ للكفارِ بآئِنَا أَخْبَرْنَاكُمْ في الآياتِ السابقةِ أَنَّ الأَقْوَامَ السَّابِقِينَ الَّذِينَ كَذَّبُوا أَنْبِيَاءَهُمْ نَزَلَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ، فلماذا تَتَّبِعُونَهُمْ بِرَغْمِ ذَلِكَ؟ هل أنتم أكثرُ منهم مَالًا وثَرَةً وَقُوَّةً وشَوْكَةً، أم أنه جاء في كتابِ سَماوِيٍّ أَنْ افْعَلُوا ما شِئْتُمْ فلن يَنْزَلَ الْعَذَابُ عَلَيْكُمْ أَبَدًا، أم أنكم أكثرُ عَدَدًا وجماعةً بحيث لا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَهْزِمَكُمْ، في حينَ أَنَّكُمْ لَسْتُمْ أَفْضَلُ مِنْهُمْ مِنْ أَيِّ جَانِبٍ، فَمَنْ - يا تُرى - سَيُنْقِذُكُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ تعالى؟

﴿سَيَهْرِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾

٣٦ - أَخْبَرَ اللهُ تعالى في هذه الآيةِ أَنَّ كَفَّارَ مَكَّةَ عَمَّا قَرِيبٍ سَيَهْزِمُونَ، وَسَيُولُونَ الأَدْبَارَ وَيَفْرَوْنَ، وهاتانِ بُيُوءَتانِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تَحَقَّقَتَا في سَبْعِ سَنَوَاتٍ فَقَطْ، بِمَعْنَى: أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ نَزَلَتْ قَبْلَ الْهَجْرَةِ بِخَمْسِ سَنَوَاتٍ، وَهُزِمَ

الكفار في غزوة بدر التي وقعت في العام الثاني للهجرة، والتي قُتل فيها العديد من سادة كفار مكة، وولّى الباقر هاربن.

يقول سيدنا عكرمة رضي الله عنه: «لَمَّا نَزَلَتْ ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ قال عمر رضي الله عنه: جَعَلْتُ أَقُولُ: أَيُّ جَمْعٍ سَيُهْزَمُ؟ حَتَّى كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَثْبُثُ فِي الدَّرْعِ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ فَعَرَفْتُ تَأْوِيلَهَا يَوْمَئِذٍ^(١).

ويقول العلامة القرطبي بعد أن نقل رواية مشابهة للرواية السابقة: «وهذا من معجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنه أخبر عن غيب، فكان كما أخبر»^(٢).

﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾

٣٧ - يعني: أن هزيمة بدر ليست نهاية عقابهم، بل إن الوعد الأصلي بعقابهم سيتحقق كاملاً يوم القيامة، حيث سيعاقبون عقاباً شديداً وأليماً.

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾

٣٨ - الكفار اليوم مُصْرَوْنَ على ضلالهم متمسكون به إلى درجة الجنون، وسوف يعود إليهم رُشدُهم حين يُلقَوْنَ على وجوههم في نار جهنم، ويقال لهم: ذوقوا الآن الاحتراق بالنار عقاباً لكم على جرائمكم.

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾

٣٩ - كل شيء مقدّر منذ البداية في علم الله واللوح المحفوظ، ويظهر إلى

(١) تفسير الدر المنثور، سورة القمر (٥٤): الآية ٤٥.

(٢) تفسير القرطبي، سورة القمر (٥٤): الآية ٤٥.

حَيَزَ الوجودَ فِي وقْتِهِ المَحْدَدِ لَهُ طبقًا لِمَا هُوَ مَحْفُوظٌ. وَقَدْ فَهَمَ أَكْثَرُ المَفْسِّرِينَ القَدَرُ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ عَلَى أَنَّهُ: التَّقْدِيرُ، وَرَغْمَ أَنَّ الحَدِيثَ عَنِ التَّقْدِيرِ قَدْ مَرَّ بِشَكْلِ مُتَنَوِّعٍ فِي الحَاشِيَةِ رَقْمَ ١٠ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ، وَفِي الحَاشِيَةِ رَقْمَ ٣٦ مِنْ سُورَةِ الأنعام، وَلَكِنْ نَظَرًا لِأَهْمِيَّةِ المَوْضُوعِ فَإِنَّا نَعِيدُ بَيَانَ مَا قُلْنَاهُ مَجْتَمِعًا هُنَا، حَتَّى يَفْهَمَ القُرَّاءُ مَوْضُوعَ التَّقْدِيرِ هَذَا بِشَكْلِ صَحِيحٍ.

مسألة التقدير

كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى كُلَّ حَسَنَةٍ وَكُلِّ سَيِّئَةٍ فِي عِلْمِهِ الْأَزَلِيِّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الكَائِنَاتِ مِثْلَمَا سَيَقَعُ، وَكُلُّ مَا سَيَفْعَلُهُ الْإِنْسَانُ بِرِضَاهُ وَمَخْضِ إِرَادَتِهِ كَتَبَهُ اللَّهُ بِعِلْمِهِ الْأَزَلِيِّ عِنْدَهُ فِي اللُّوحِ المَحْفُوظِ، وَهَذَا هُوَ مَا نُطْلِقُ عَلَيْهِ القَدَرَ أَوْ القَضَاءَ، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَبَدًا أَنَّ مَا كَتَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى نُضْطَرُّ لِلْقِيَامِ بِهِ، وَبِالتَّالِي نَحْنُ مُجْبُورُونَ عَلَى أَفْعَالِنَا، وَإِنَّمَا كُلُّ فَعْلٍ سَنَفْعَلُهُ نَحْنُ بِمَخْضِ إِرَادَتِنَا هُوَ الَّذِي كَتَبَهُ اللَّهُ عِنْدَهُ، وَهَذَا هُوَ القَدَرُ، وَنَذْكُرُ هُنَا وَاقِعَةً تَسَاعَدُ فِي فَهْمِ هَذِهِ المَسْأَلَةِ بِشَكْلِ سَهْلٍ وَبَسِيطٍ.

سيدنا محمود الغزنوي (متوفى ٤٢١هـ)

وَالْقِصَّةُ هِيَ أَنَّهُ اشْتَهَرَ، فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِسَيِّدِنَا مَحْمُودِ الْغَزْنَويِّ، أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَعْطَاهُ بَصِيرَةً وَفِرَاسَةً، بَحِيثٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُخَبِّرَ بِمَا فِي قُلُوبِ الْآخَرِينَ، مِثْلَمَا قَالَ ﷺ: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ»^(١)، فَقَامَ شَابَانٍ بِوَضْعِ بَرْنَامِجٍ لِلتَّأَكُّدِ مِنْ هَذِهِ الْكِرَامَةِ خُلَاصَتُهُ أَنَّهُمَا سَيَلَنْتَ قِيَانِ بِمَحْمُودِ الْغَزْنَويِّ عَصَرَ الْيَوْمِ التَّالِي فِي الْحَدِيقَةِ، وَهَنَّاكَ سُورٌ عَالٍ حَوْلَ هَذِهِ الْحَدِيقَةِ، وَيَتَخَلَّلُ هَذَا السُّورَ أَرْبَعَةُ أَبْوَابٍ مِنَ الْجِهَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ لِلدَّخُولِ إِلَى الْحَدِيقَةِ، وَاتَّفَقَ الشَّابَانِ أَنْ يَسْأَلَا مَحْمُودًا الْغَزْنَويَّ: مِنْ أَيِّ

(١) جامع الترمذي، أبواب تفسير القرآن، سورة الحجر (١٥): باب ١٥ برقم ٣١٢٧.

بابٍ من أبوابِ الحديقةِ سنُخرجُ؟ وبطبيعةِ الحالِ سيُخبرُهم ببابٍ من الأبوابِ، لكنَّهما سيَصعدانِ على الشجرةِ الموجودةِ في الجانبِ الغربيِّ، ويقفزانِ إلى الخارجِ من فوقِ الشَّورِ، وهكذا يَبُتُّ خطأ هذه الكرامة.

وهكذا ذَهَبَ الصَّدِيقانِ في اليومِ التالي إلى تلكِ الحديقةِ للقائه محمودُ الغزنويِّ، وكان محمودُ الغزنويُّ في ذلكِ الوقتِ يسيِّرُ في الحديقةِ معَ وزرائه، فسأله الصَّدِيقانِ: هل يمكنُ أن تُخبرنا من أيِّ بابٍ سنُخرجُ من الحديقة؟ فقال محمودُ الغزنويُّ: لو قلتُ: إنكما ستُخرُجانِ من البابِ الشماليِّ فنظرًا لأنكما قرَّرتُما معارَضتي فسُتُحاولانِ الخروجَ من البابِ الجنوبيِّ بغيرِ تصريحٍ، لكنِّي - معَ ذلكِ - سأكتبُ على ورقةٍ من أين ستُخرُجانِ، وسأعطيكُما الورقةَ، فاذهبَا بها وافتحاهما في الخارجِ واقراء ما فيها، وسأتي بنفسِي إليكما. وهكذا كَتَبَ محمودُ الغزنويُّ في الورقةِ: «إنكما لن تُخرُجا من أيِّ بابٍ، وإنما ستَقفزانِ إلى الخارجِ بالصُّعودِ فوقَ الشجرةِ الموجودةِ في الجانبِ الغربيِّ». ثم طوى الورقةَ وأعطاهما لهما. وقام الشابانِ طبقًا لما خَطَّطا سابقًا بالخروجِ من الحديقةِ عن طريقِ الصُّعودِ فوقَ الشجرةِ الموجودةِ في الجانبِ الغربيِّ فعلاً، وحين فَتَحَا الورقةَ وَجَدَا ما فيها.

وسؤالِي الآنَ: هل أَجَبَتِ الورقةُ المكتوبةُ هَذَيْنِ الشَّابَّيْنِ على أن يقفزا خارجَ الحديقةِ عن طريقِ الشجرةِ، أم أنهما فعلاً ذلكَ بِمَحْضِ إرادتهما وطبقًا لما خَطَّطاه؟ لقد خَرَجَا بالطَّبعِ برضاهُما عن طريقِ الشجرةِ، ولم يكنِ للورقةِ دَخْلٌ في الأمرِ مطلقاً.

وهكذا، فإنَّ اللهَ تعالى - بعِلْمِهِ المحيطِ بالمستقبلِ - قد كَتَبَ تقدِيرَ كُلِّ فردٍ بأنَّه بِمَحْضِ إرادتهِ وفي الوقتِ الفلانيِّ سيقومُ بالعملِ الفلانيِّ، وليس في هذا أيُّ إِجبارٍ من القَدَرِ، والقرارُ قرارُ العبدِ نفسه، وهو المسئولُ عن عقابه و ثوابه، وإنَّما كَتَبَ اللهُ تعالى ما في عِلْمِهِ المحيطِ ليس إلَّا، وعِلْمُ اللهِ كاملٌ بحيثُ لا مجالَ فيه مطلقاً للخطأ.

إظهار التقدير

أظهر الله تعالى التقدير في بعض المواضع من القرآن المجيد، والتي يُعلم منها في الظاهر أنّ الإنسان مجبورٌ مُحض، ولكنّ الإنسان - مع ذلك - يفعل ما يريدُه هناك أيضًا، والله تعالى أظهرَ هذا التقديرَ قبلَ وقته ونسبَه إليه، مثلما جاء في الآية السادسة والآية السابعة من سورة البقرة، حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦-٧].

وَيُعلم هنا ظاهرًا أنه إذا كان الله تعالى نفسه قد طَبَعَ على قلوبهم، وحَكَمَ عليهم بأنّ لا يَقْبَلُوا الإسلامَ، فكيف يمكنُ لهم أن يؤمنوا إذا؟ والحقيقةُ أنه إذا افترضنا أنّ طبيبًا أعلن أنّ حالة مريضٍ من المرضى لم تُعدْ تستجيبُ للعلاج، فهل عَدَمُ استجابة حالة المريض للعلاج كانت بسببِ إعلانِ الطبيبِ ذلك، أم المرضُ كان قد دَخَلَ قبلَ هذا الإعلانِ مرحلته الأخيرة وهكذا، فإنّ من الواضح تمامًا أنّ المريضَ قد أصبحَ ميئوسًا من علاجه أولًا، ثم كان إعلانُ الطبيبِ بعدَ ذلك مجردَ إعلانٍ لا أكثر؟ وبنفسِ الطريقةِ أيضًا، فإنّ هؤلاء الكفّارَ المخصوصينَ كانوا قد قرّروا عَدَمَ قبولِ الإسلامِ بسببِ تعصّبِهِم، والله تعالى أَخْبَرَ بنواياهم وعزائمِهِم لا أكثرَ.

سورة المسد

وبنفسِ الطريقةِ في سورة المَسَدِ جاء إظهارُ للعاقبةِ الوخيمةِ لأبي لهبٍ وموته على الكفر، يعني: أنّ أبا لهبٍ سيَدْخُلُ قريبًا نارًا ملتهبةً شُعْلَاتُهَا، وكذا زوجته التي تَحْمِلُ الحطبَ، سيكونُ في عَنَقِهَا حبلٌ من مَسَدٍ.

وقد أعلنت هذه السُورة أَنَّ أبا لهبٍ سيموتُ على الكُفر، وأنه سيحترقُ بنارِ جهنَّمَ، في حينَ أنه كان يمكنه أن يأتي إلى النبي ﷺ ويقبلَ الإسلامَ، حتى ولو على سبيل التظاهر، ثم بعد ذلك يمكنه تحدي نبوة القرآن الكريم قائلاً: إنه أسلم، ولهذا فإن القرآن مخطئ، وقد ذَكَرَ القرآن الكريمُ زوجةَ أبي لهبٍ بصفةٍ خاصّة، ولم يذكر الكفار الآخرين مثل: خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم؛ لأنهم أسلموا بالفعل فيما بعد، وهنا تكون المعجزة؛ بأن القرآن الكريم تحدّى بأنَّ أبا لهبٍ لن يُغيّر من طريقه الخاطيء، ولم يكن هذا من قبيل التحدي الذي لا دخل لعمل أبي جهل أو قراره اختيار فيه، لكن الله تعالى كان يعلم أنَّ أبا لهبٍ سيموتُ على الكُفر، ولن يقبلَ الإسلامَ ولو بشكلٍ عارضٍ على سبيل المراءاة^(١).

الإفراط والتفريط فيما يتعلق بالقدر

إنَّ مسألة القَدَرِ هذه مسألة معقّدة بقَدَرٍ ما هي مسألة هامةٌ أيضًا، ولهذا منَعَ النبي ﷺ من الجِدالِ في موضوع القَدَرِ هذا، وبالرغم من ذلك فإنَّ بعضَ الناس قد حاولوا الوصولَ إلى عُمقه، ووقعَ منهم إفراطٌ وتفريطٌ في هذا الخصوص فضلُّوا، وهناك مذهبان مشهوران في هذا الأمر هما: الجبريّة، والقَدَريّة.

١ - الجبرية

وعقيدة هؤلاء أنَّ الإنسانَ مجبورٌ مخضٌ مثله كمثل الحجر، لا يستطيع أن يفعلَ شيئًا بإرادته، وإنّما هو مجبورٌ على فعل الحسنّة أو السيئة التي كتبها الله عنده في قدره، وهذه العقيدة تُنافي الإسلام؛ لأنَّ الله تعالى أعطى الإنسانَ الاختيارَ في فعل الخير والشرِّ، ولو لم يكن لدى الإنسانِ الاختيارُ لفعل الخير، فما الداعي إذاً

(١) الإمام الشعراوي، معجزات الرسول، ٣٠.

لإرسال الأنبياء الكرام عليهم السّلام لدعوة الناس إلى فعل الخير؟ ولهذا فإن الله تعالى لا يُجبر أحداً على فعل الخير أو الشرّ، وقد أبطل مولانا جلال الدّين الرّومي هذه العقيدة بالمثال التالي:

المُعْتَقِدُ بعقيدة الجبريّة كالسافر الذي كان يُمُر من أمام بستان، فأصابه الجوع، وحينئذٍ دَخَلَ البستان وأخذ في تناول العنب منه، ولكن مالك البستان أمسك به وسأله: لماذا تجرأت على فعل هذا دون إذنٍ مني؟ فقال: لا تستطيع ورقة أن تتحرّك من مكانها إلّا بإذن الله، والبستان بستان الله، وعبد الله يأكل منه بإذن من الله، فأنا لا اختار لي في ذلك، وإن أردت فاسأل الله لماذا يطعمني؟ وعندئذٍ ربطه مالك البستان من يديه ورجليه وأشبعه ضرباً بالعصا، فصرخ الرجل واستغاث قائلاً: لماذا تظلمني؟ فقال مالك البستان: إنني مثلك مجبورٌ محض! والعصا عصا الله، وأنا أضربك بها بإذن من الله، وبعد ذلك تاب هذا الرجل ورجع عن عقيدته هذه.

وبعد أن كتّب مولانا جلال الدّين الرّومي هذه الواقعة قال: أيها الإنسان، لو أنك ضربت كلباً بحجرٍ فإن الكلب لا يعضّ الحجر، وإنما يعضّك أنت؛ لأنه يعرف أن الحجر مجبورٌ محض، وأنت مُخيّر في ذلك، فيا قليل العقل، الكلب يميّز بينك وبين الحجر، فإذا لم تفهم أنت هذا الفرق، فأنت أكثرُ حمقاً من الكلب إذاً.

٢ - القدريّة:

هذه عقيدة أولئك الذين يقولون: إنّ الإنسان مُخيّرٌ تامّاً، يفعل ما يشاء، وهذه العقيدة أيضاً مخالفةٌ للإسلام؛ لأنّ المختار المطلق هو الله تعالى فقط، وقد ردّ الإمام أبو حنيفة - بالمثال التالي - على أتباع هذه العقيدة:

ذات مرة جاء رجلٌ إلى سيّدنا عليّ بن أبي طالبٍ وقال له: إنّ الإنسانَ مختارٌ مطلقاً، فقال له سيّدنا عليّ رضي الله عنه: ارفع إحدى رجليك إلى أعلى، فرفعها، فقال له: والآن احتفظ بها مرفوعةً إلى أعلى وارفع رجليك الثانية أيضاً. فقال الرجل: إني بهذه الطريقة سأسقط على الأرض. فقال سيّدنا عليّ: هكذا هو الاختيارُ الذي لدى الإنسان، لا يستطيع أن يرفع سوى رجلٍ واحدة، ولو كان مختاراً مطلقاً لاستطاع أن يرفع رجله الثانية^(١).

الموقف الصحيح من القضاء والقدر

النظريّتان المذكورتان أعلاه في نظر أهل السنة والجماعة مخالفتان للإسلام، والحقيقة أنّ الإنسان ليس مجبوراً مطلقاً كالحجر، ولا مختاراً مطلقاً كالله، وإنّما أعطاه الله الاختيارَ ليفعلَ الخيرَ والشرَّ، وأعطاه - مع ذلك - العقلَ والتمييزَ أيضاً، ولهذا أرسلَ الله تعالى الأنبياءَ عليهم السّلام، حتى يمكنَ له أن يُميّزَ بينَ الطيّبِ والخبيثِ، فالإنسانُ يستطيعُ باختياره أن يعملَ عملاً صالحاً يثابُ عليه، وباختياره أيضاً يستطيعُ أن يعملَ عملاً سيئاً يعاقبُ عليه، لكنّ هناك بعضَ الأشياءِ لا اختيارَ للإنسانِ فيها، مثلاً: الحياةُ والموتُ، وأين سيولدُ وأين سيموتُ، وكيف سيكونُ شكله، وغير ذلك، لكنّ الإنسانَ لن يُسألَ عن هذه الأشياءِ أيضاً.

﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾

٤٠ - الله تعالى قادرٌ على كلّ شيءٍ، وكلُّ أمرٍ يُصدره يتمُّ تنفيذه في طرفة

عينٍ، بل قبل أن تنتهي طرفة العين أيضاً، مثلما قال الله تعالى:

(١) العقائد الإسلامية، لمحمد إمداد حسين بيرزاده.

- ﴿وَمَا أَمُرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧].

- ﴿فَإِذَا قُضِيَ أَمْرٌ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٨].

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّيرٍ﴾

٤١ - في هذه الآية تنبيه للكَفَّارِ بأنَّ الذين كَفَرُوا مِثْلَكُمْ من الأمم السابقة أَهْلَكْنَاهُمْ، وإنَّ لم تَعْتَبِرُوا منهم فسوف نُهْلِكُكُمْ أنتم أيضاً، ولهذا عليكم أن تَقْبَلُوا نَصَحَ القرآنِ المجيد وترجعوا عن شُرِكِكُمْ.

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾

٤٢ - كُلُّ ما فَعَلَهُ الْأَقْوَامُ السَّابِقُونَ، وَكُلُّ ما سَيَفْعَلُهُ النَّاسُ حَتَّى قِيَامِ السَّاعَةِ، وَكُلُّ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، كَبِيرًا كَانَ أَوْ صَغِيرًا، مَكْتُوبٌ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ وَفِي صَحَائِفِ أَعْمَالِهِمْ، وَسَوْفَ يَتَقَرَّرُ عِقَابُهُمْ وَإِثَابُهُمْ طَبَقًا لِهَذَا كُلِّهِ.

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُنْقَدِرٍ﴾

٤٣ - ذُكِرَتْ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ عَاقِبَةُ الْكُفَّارِ، يَعْنِي: أَنَّ الْمَجْرِمِينَ سَيُسْحَبُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي النَّارِ، وَالْآنَ فِي الْآيَتَيْنِ الْأَخِيرَتَيْنِ يَأْتِي ذِكْرُ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ اللَّهَ تَعَالَى، فَهَؤُلَاءِ سَيَكُونُونَ فِي جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، وَالتِّي هِيَ مَكَانُ الْعِزَّةِ وَالْكَرَامَةِ، وَسَوْفَ يُنْعَمُ اللَّهُ تَعَالَى، الْقَادِرُ الْمَطْلُوقُ، عَلَيْهِم بِالْقُرْبِ الْخَاصُّ مِنْهُ تَعَالَى.

يقول الإمام جعفر الصادق: «مَدَحَ الْمَكَانَ بِالصَّدَقِ فَلَا يَقْعُدُ فِيهِ إِلَّا أَهْلُ

الصِّدْق، وهو المقعدُ الذي يُصَدِّقُ اللهُ تعالى فيه مواعيدَ أوليائه بأنه يُبَيِّحُ - عَزَّ وَجَلَّ -
لَهُم النظرَ إلى وجهه الكريم»^(١).

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمداد حُسَيْن بيززاده،
جامعة الكرم، إنجلترا
بعد ظهر يوم الاثنين ٣٠ أغسطس ٢٠١٠م
الموافق ١٩ رمضان ١٤٣١هـ.

هذا، وقد اكتملَ تفسيرُ سورة القمر في خمسةِ أيام فقط، أي: من ٢٥ إلى
٣٠ أغسطس، والحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلَاةُ والسلام على سيِّد المرسلين،
وعلى آله وأصحابه أجمعين.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٥) سُورَةُ الرَّحْمَنِ

هذه السُّورة - عند جمهور المفسرين - مكِّيّة، وأول كلمة فيها هي «الرَّحْمَنُ»، وهذا هو اسمها أيضًا.

- يقول سيّدنا جابر رضي الله عنه: خَرَجَ رسولُ الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سُورَةَ الرَّحْمَنِ من أولها إلى آخرها فسكّتوا، فقال: «لقد قرأتها على الجنِّ ليلةَ الجنِّ، فكانوا أحسنَ مردودًا منكم، كنتُ كلما أتيتُ على قوله: ﴿فِي أَيِّ آيَةٍ رَكِعْتُ﴾ تَكْذِبَانِ» قالوا: لا بشيءٍ من نِعَمِكَ ربَّنَا نُكْذِبُ فَلَكَ الْحَمْدُ^(١).

- في هذه السُّورة خطابٌ مباشرٌ إلى كلِّ من الجنِّ والإنس، وتذكيرٌ لهم جميعًا مرّاتٍ ومرّاتٍ بنِعَمِ الله تعالى عليهم، والتنبيهُ لهم بأنَّ من يَطْغَى من الجنِّ والإنسِ لن يُفْلِتَ من العقابِ في الآخرة، ومن يُطع الله تعالى سَيَنْعَمُ بنِعَمِ الله المتنوّعة.

ويُعلّمُ منه أنّ دعوةَ النبي ﷺ للإنسِ والجنِّ معًا، وكلاهما مسؤولٌ مسؤوليّةً كاملةً عن أعمالِهِ؛ لأنّهم جميعًا خُلِقُوا من أجل عبادةِ الله تعالى، مثلما قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

(١) الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب ٥٥، سورة الرحمن (٥٥) برقم ٣٢٩١.

- يقولُ سيِّدُنَا عليُّ كَرَّمَ اللهُ وجهَهُ: إِنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قال: «لكلِّ شيءٍ عَرُوسٌ، وعَرُوسُ القُرْآنِ سُورَةُ الرَّحْمَنِ»^(١).

الفقيِّرُ إلى اللهِ: محمَّدُ إمداد حُسَيْنِ بيززاده،
جامعة الكرم، إنجلترا
بعد ضحى يوم الأربعاء الأول من سبتمبر ٢٠١٠م
الموافق ٢١ رمضان ١٤٣١هـ.



سُورَةُ الرَّحْمَنِ (٥٥)،

مكية (٩٧)، آياتها (٧٨)، ركوعاتها (٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ ① عَلَّمَ الْقُرْآنَ ② خَلَقَ الْإِنْسَانَ ③ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ④ الشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ⑤ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ⑥ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ⑦
أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ⑧ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ⑨ وَالْأَرْضَ
وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ⑩ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ⑪ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ⑫
فِي آيَةِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ ⑬ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ⑭ وَخَلَقَ
الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ⑮ فِي آيَةِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ ⑯ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ⑰
فِي آيَةِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ ⑱ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ⑲ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ⑳ فِي آيَةِ الْآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ ㉑ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ㉒ فِي آيَةِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ ㉓ وَلَهُ
الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ㉔ فِي آيَةِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ ㉕

﴿الرَّحْمَنُ﴾

١ - اسمُ ذاتِ الله تعالى واحدٌ فقط وهو: «الله»، إلّا أنَّ أسماءَ صفاته كثيرةٌ،
ومنها: «الرَّحْمَنُ»، وهو صيغةٌ مبالغة، يعني: أنَّ الله تعالى رحيمٌ غايةَ الرَّحمةِ بما لا
يمكنُ تصوُّره، وهذا اللَّفْظُ مخصوصٌ بالله تعالى، وكما لا يجوزُ إطلاقُ اسمِ الله على

أحد غير الله، كذلك لا يجوز إطلاق اسم الرحمن على أحد غير الله أيضاً، وإطلاق اسم عبد الرحمن على أحد أمرٌ محبَّبٌ تماماً، لكن من غير الجائز أن تنادي عليه باسم «رحمن» فقط! ويجب أن تُناديه باسمه كاملاً، أي: عبد الرحمن.

﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾

٢ - عندما قال أهل مكة: إن أحداً من البشر هو الذي يُعلِّمُ سيِّدنا محمداً ﷺ القرآن، نزلت هذه الآية، يعني: إنه الرحمن الذي علَّم سيِّدنا محمداً ﷺ القرآن المجيد^(١). وقال الكلبي في تفسير هذه الآية: «علَّم القرآن محمداً وعَلَّمه محمدٌ أمته»^(٢).

ويعلمُ منه أن أولَ معلِّمٍ للقرآن الكريم هو الله تعالى، وأن أولَ طالبٍ علمٍ لهذا القرآن هو سيِّدنا محمدٌ ﷺ، وقد أقام نبينا الحبيب ﷺ أولَ مدرسةٍ لتعليم القرآن الكريم تعملُ لبعضِ الوقت في دارِ الأرقم، ثم لما شَرَفَ المدينة المنورة بالقدوم إليها أقام ﷺ دارَ العلوم مع المسجد النبوي لتعملَ في تعليم القرآن الوقت كله، وكان ما بين ثلاثمائة وأربعمائة طالبٍ موجودين دائماً في دارِ العلوم هذه، وهم الذين يقالُ لهم: «أصحابُ الصُّفَّة»، وكان هؤلاء السُّعْداءُ يقيمون في المسجد النبوي، وعلى استعدادٍ دائمٍ للقيام بأيِّ عملٍ من أعمالِ الدين، فإذا أُعلنت الحرب كانوا في الصفوفِ الأولى منها، وإذا كان زمنُ السَّلم انشغلوا في تحصيلِ علومِ الدين، وتبليغِهِ إلى الآخرين، وكانوا ينهمكون في الخدماتِ الدِّيَّنيَّةِ إلى درجةٍ أنهم لم تكنْ لديهم فرصةٌ لكسبِ أرزاقِهِم، ولهذا كان أهلُ المدينة المنورة يهيئونُ لهم الطعامَ والشرابَ من خلالِ الصَّدَقَاتِ والعطايا والتبرُّعات، ويصطحبونهم إلى

(١) «هذا جواب لأهل مكة حين قالوا: إنما يعلمه بشر، فقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ (يعني: علم محمداً القرآن). تفسير الخازن.

(٢) تفسير فتح القدير، تفسير زاد المسير.

بيوتهم لإطعامهم، مثلما يقول سيّدنا عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما: أن أصحاب الصّفة (طلاب العلم في المسجد النبوي) كانوا أناساً فقراء، وأنّ النبي ﷺ قال: «مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامٌ اثْنَيْنِ فَلْيُذْهِبْ بِثَالِثٍ (مَنْ هُوَ لَاءِ الطُّلَابِ)، وَإِنْ أَرْبَعٍ فَخَامِسٍ أَوْ سَادِسٍ». وأنّ أبا بكرٍ جاء بثلاثة (من طلاب العلم هؤلاء) فانطلق النبي ﷺ بعشرة...^(١).

ومنذ ذلك الوقت وحتى يومنا هذا لا تزال سُنَّةُ النبي ﷺ وأصحاب الصّفة قائمة، فتقام دور العلوم ملحقّة بالمساجد الكبرى، حيث يتمّ إعداد أئمة وخطباء المستقبل فيها، ويتحمّل أهل المدينة نفقات طُلاب العلم هؤلاء.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۖ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾

٣- نقل العلامة الخازن قولاً في هذا الخصوص هو: «أراد بالإنسان: محمّداً ﷺ، ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ يعني: بيان ما يكون وما كان؛ لأنه ﷺ يُنبئ عن خبر الأولين والآخرين وعن يوم الدين»^(٢). وقد قال الله تعالى:

١- ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

٢- ﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَاسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ويقول سيّدنا ابن مسعود رضي الله عنه: «أنزل في هذا القرآن علم كل شيء، ويبيّن لنا فيه كل شيء، ولكنّ علمنا يُقصرُ عما بيّن لنا في القرآن»^(٣).

(١) البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب ٤٢ برقم ٦٠٢.

(٢) تفسير الخازن، سورة الرحمن (٥٥): الآية ٤.

(٣) روح المعاني، سورة الرحمن (٥٥): الآية ٢.

وَنُقِلَ عَنْ سَيِّدِنَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَوْلُهُ: «لَوْ ضَاعَ لِي عَقْلُ بَعِيرٍ لَوْ جَدْتُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى»^(١).

وَيُعَلِّمُ مِنَ الْآيَاتِ وَالرَّوَايَاتِ السَّابِقَةِ أَنَّ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بَيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلَّمَ النَّبِيَّ ﷺ عِلْمَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ وَبَيَانَهُ، وَنَتِيجَةً هَذَا كُلُّهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْطَى النَّبِيَّ ﷺ عِلْمَ كُلِّ شَيْءٍ.

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مُحْسَبَانِ﴾

٤ - جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ مُلْتَزِمَيْنِ بِمَدَارٍ مُحَدَّدٍ وَوَقْتٍ مُعَيَّنٍ، وَبِهَذَا يَتَعَاقَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَتَتَبَدَّلُ الْمَوَاسِمُ وَالْفُصُولُ، وَهَكَذَا يَسْتَمْتِعُ الْإِنْسَانُ بِفَوَائِدِهِ وَثَمَارِ الْفُصُولِ الْمَخْتَلِفَةِ، فِي الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَلَوْ تَوَاصَلَ فَصْلٌ وَاحِدٌ فَقَطْ لَأَصَابَ الْإِنْسَانَ الْمَلَلُ، وَلَمَّا حَدَثَ التَّنَوُّعُ فِي مُحَاصِيلِ الْأَرْضِ.

﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾

٥ - يَقُولُ النَّحَّاسُ: «أَصْلُ السَّجُودِ فِي اللُّغَةِ: الْاسْتِسْلَامُ وَالْإِنْقِيَادُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٢).

وَباعتبارِ اللُّغَةِ، الْمُرَادُ بِسُجُودِ الْأَشْجَارِ وَالنُّجُومِ هُنَا هُوَ: أَنَّهَا جَمِيعًا مُلْتَزِمَةٌ بِحُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا تَتَجَاوَزُ حَدُودَ الْقَوَاعِدِ الَّتِي وُضِعَتْ لَهَا، بِمَعْنَى: أَنَّ النُّجُومَ لَيْسَ لَهَا اخْتِيَارٌ أَنْ تَحُلَّ مَحَلَّ الشَّمْسِ مِثْلًا، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَدَى أَشْجَارِ الْمَانِجُو اخْتِيَارٌ الْمَقْدَرَةَ عَلَى أَنْ تُثْمَرَ ثَمَرًا.

(١) روح المعاني، سورة الرحمن (٥٥): الآية ٢.

(٢) تفسير القرطبي.

ولو اعتبرنا المراد هو السُّجُودَ بالمعنى الاصطلاحي، مثلما نَسْجُدُ نحن، فمن الممكن أن يكون المعنى: أنها كلّها تسجُدُ بطريقتها ولكُنّا لا نستطيع إدراك طبيعة وكيفية هذا السُّجُود، مثلما أنّ كلّ شيءٍ في الأرضِ والسَّمَاءِ يُسَبِّحُ الله تعالى ولكنّا لا نفقه تسيّحه.

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾

٦ - المراد من الميزان لدى أكثر المفسرين هو: العدل والإنصاف، يعني: أنّ الله تعالى أقام نظام الكائنات كلّها: من السماوات العلى إلى قاع الأرض، على العدل، فإذا لم يُحفظ هذا العدل والتوازن فيه ارتبك نظام الكائنات كلّها وانقلب رأساً على عقب، ولهذا إن أردتم أنتم أيضاً بقاء المجتمع والحفاظ عليه، يجب أن تقيموا نظام العدل في معاملتكم، ولا تطفّفوا في الموازين، وإلا عمّ الفساد والدمار مجتمعتكم أيضاً.

وفهم بعض المفسرين الميزان هنا على أنه: ميزان الآخرة، وهو الذي توزن فيه الحسنات والسيئات^(١)، يعني: أنّ الله تعالى حدّر الناس من أنه أقام ميزان العدل والإنصاف في الآخرة، حيث ستوزن أعمال كلّ إنسان فيه، ولهذا عليكم بالعدل والإنصاف، ولا تخسروا الميزان، وإلا افتضح أمركم عند ميزان العدل في الآخرة، ولن تستطيعوا الإفلات من العقاب.

﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾

٧ - في الآيات التالية ذكرٌ لإنعامات الله تعالى وآيات قدرته، والتي يستفيد منها الإنس والجن على السواء، مثلاً: الله تعالى فرش الأرض بحيث تستطيع المخلوقات

(١) «قيل: أراد وضع الميزان في الآخرة لوزن الأعمال». تفسير القرطبي.

كلُّها الحياةَ عليها في سهولةٍ ويسرٍ، كما أنه خَلَقَ فيها الثَّمَارَ والفواكهَ والورودَ ذاتَ الروائحِ العِطْرةِ، وكذا المحاصيلَ والغِلالَ أيضًا، والتي يأكلُها الإنسانُ، وتأكلُ الحيواناتُ من تَبْنِها وقَشِّها، واللهُ تعالى لم يَخْلُقْ شيئًا عبثًا، وإنما خَلَقَ كلَّ شيءٍ لحكمةٍ ومصلحةٍ معيَّنة.

﴿فَيَأْتِيءَ الْآءَ رَيْكَمَا تُكْذِبَانِ﴾

٨ - بَيَّنَّ اللهُ تعالى نِعَمَهُ وآيَاتِ قُدْرَتِهِ، ثم سَأَلَ الجِنَّ وَالْإِنْسَ: بِأَيِّ نِعْمَةٍ مِنْ هَذِهِ النِّعَمِ الَّتِي لَا حَصْرَ لَهَا، وَبِأَيِّ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ قُدْرَتِهِ الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى سَتُكْذِبُونَ وَتُنْكِرُونَ؟

- يَقُولُ سَيِّدُنَا جَابِرٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ سُورَةَ الرَّحْمَنِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا، فَسَكَتُوا، فَقَالَ: «لَقَدْ قَرَأْتُهَا عَلَى الْجِنِّ لَيْلَةَ الْجِنِّ فَكَانُوا أَحْسَنَ مَرْدُودًا مِنْكُمْ، كُنْتُ كُلَّمَا أَتَيْتُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿فَيَأْتِيءَ الْآءَ رَيْكَمَا تُكْذِبَانِ﴾ قَالُوا: لَا بَشِيءَ مِنْ نِعْمِكَ رَبَّنَا نَكْذِبُ فَلَكَ الْحَمْدُ»^(١).

وَقَدْ تَكَرَّرَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ ٣١ مَرَّةً حَتَّى يَشْعُرَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ بِنِعَمِ اللهِ تَعَالَى، فَلَا يَجْحَدُوهَا وَلَا يُغْضِبُوهُ.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾

٩ - الْمُرَادُ بِالْإِنْسَانِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ: الْإِنْسَانُ الْأَوَّلُ، يَعْنِي: سَيِّدُنَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالَّذِي خَلَقَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ طِينٍ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، ثُمَّ خَلَقَ لَهُ مِنْ ضَلْعِهِ زَوْجَهُ، وَبَدَأَ - بَتْنِاسِلِهِمَا - خَلْقَ وَاسْتِمْرَارِيَّةِ النَّسْلِ الْإِنْسَانِيِّ.

رَوَى الإمامُ ابنُ عساکر، عن سَيِّدِنَا عبدِ الله بنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: «خُلِقَ آدَمُ مِنْ أَدِيمِ الْأَرْضِ، فَأُلْقِيَ عَلَى الْأَرْضِ حَتَّى صَارَ طِينًا لَازِبًا، وَهُوَ الطِّينُ الْمَلْتَرِقُ، ثُمَّ تَرِكَ حَتَّى صَارَ حَمًّا مَسْنُونًا، وَهُوَ الْمُتِنُّ، ثُمَّ خَلَقَهُ اللَّهُ بِيَدِهِ، فَكَانَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا مَصُورًا حَتَّى يَبَسَ فَصَارَ صَلْصَالًا كَالْفَخَّارِ إِذَا ضُرِبَ عَلَيْهِ صَلْصَلٌ، فَذَلِكَ الصَّلْصَالُ، وَالْفَخَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ»^(١).

﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾

١٠ - المرادُ به الجنُّ الأوَّلُ الذي خَلَقَهُ اللهُ تعالى من شُعْلَةٍ من النارِ الخالصةِ التي لا أَثَرَ فيها لِدُخَانٍ، ثم جَعَلَ سِلْسِلَةَ الجنِّ تستمرُّ كما هي في بني الإنسان.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

١١ - يعني: يا بني الإنسان، لقد خَلَقْنَا الإنسانَ الأوَّلَ فيكم من الطِّينِ، ثم جَعَلْنَاكُمْ تَتَكَاثَرُونَ وَتَتَشَرُّونَ فِي الْأَرْضِ كُلِّهَا عَنْ طَرِيقِهِ، وَأَنْعَمْنَا عَلَيْكُمْ بِالْعَقْلِ وَالْفَهْمِ بَحِيثَ تَحْكُمُونَ فِي الْأَرْضِ كَمَا تَحْكُمُونَ كُلَّ الْمَخْلُوقَاتِ الْأُخْرَى فِيهَا وَتُسَخِّرُونَهَا.

ويا أَيُّهَا الْجِنُّ، لقد خَلَقْنَا الْجِنَّ الأوَّلَ فيكم من شُعْلَةٍ من النار، وجَعَلْنَاكُمْ تَتَكَاثَرُونَ وَتَتَشَرُّونَ عَنْ طَرِيقِهِ، وَأَعْطَيْنَاكُمْ قُوَّةَ تَقْوَمُونَ مِنْ خِلَالِهَا بِأَعْمَالٍ خَارِقَةٍ، وَفِي نَفْسِ الْوَقْتِ لَا يَرَاكُمْ أَحَدٌ، فَيَا أَيُّهَا الْجِنُّ، ويا أَيُّهَا الْإِنْسُ، ليس لدى الطِّينِ والنارِ المقدرةُ على القيام بما تقومونَ به أنتم من أَعْمَالٍ كَبِيرَةٍ الْيَوْمَ، وَهَذَا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَكَرَمِهِ عَلَيْكُمْ، فَهَلْ تَسْتَطِيعُونَ أَنْكَارَ أَفْضَالِ رَبِّكُمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْكُمْ وَالتِّي لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى؟

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾

١٢ - يقال للجهة التي تُشرق منها الشمس: «المشرق»، ويقال للجهة التي تغرب فيها الشمس: «المغرب»، والشمس تطلع كل يوم من مكانٍ مختلف، وتغرب في مكانٍ مختلف، وبهذه الطريقة يصبح للشمس ٣٦٠ مكاناً مختلفاً للشرق ومثلها للغروب، ولكن الشمس تطلع مبكراً في الصيف، وتغرب متأخرةً، بينما في الشتاء تطلع متأخرةً وتغرب مبكراً، ولهذا فالنهار في الصيف أطول منه في الشتاء، وفي هذه الآية جاء ذكر مشرقين ومغربين باعتبار الصيف والشتاء، مع أن الله تعالى ربُّ المشارق والمغارب كلها.

﴿فَيَأْتِيهِمْ الْآءُ رِيكًا تَكْذِبَانِ﴾

١٣ - لو كان المشرق واحداً في السنة كلها وكذا المغرب، لما تبدلت المواسم والفصول، ولما تنوعت المحاصيل والثمار، والله تعالى أنعم عليكم بأقسام مختلفة ومتنوعة من المحاصيل والثمار عن طريق المشرقين والمغربين، فبأي نعم الله تعالى ستكذبون؟

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾

١٤ - ثلاثة أرباع هذه الدنيا يشتمل على البحار ذات المياه المالحة والمرة، بينما ربع هذه الدنيا يشتمل على البر، حيث تجري المياه العذبة ذات الطعم الحلو من العيون والأنهار والجداول، وحين تصب مياه النهر العذبة في البحر تسير مياه النهر جنباً إلى جنب مع مياه البحر متوازيين دون أن يمتزجا لعدة أميال، ويبدو للناظر وكأن القدرة الإلهية قد أقامت بينهما حداً فاصلاً منعتهما من الالتقاء معاً، مع أن الطبيعي أن يلتقي الماء فوراً ويمتزجاً معاً. وبنفس الطريقة، عندما يصب

نَهْرُ النَّيْلِ فِي الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ الْمَتَوَسِّطِ يَسِيرُ الْمَاءُ مِنْ مَتَوَازِيْنٍ دُونَ أَنْ يَمْتَزِجَا، وَإِنَّمَا تَبَقَى مِيَاهُ النَّيْلِ بِطَعْمِهَا الْعَذْبَ وَلَوْنِهَا الْمُنْفَرِدَ، وَهَكَذَا الْمِيَاهُ الَّتِي تَوْجَدُ تَحْتَ أَرْضِنَا، هِيَ أَيْضًا قِسْمَانِ، وَفِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ حِينَ نَقُومُ بِتَرْكِيبِ طُلُمْبَةِ (مِصْحَخَةٍ) الْمِيَاهِ أَوْ حَفْرِ الْآبَارِ، يَخْرُجُ مِنْهَا مَاءٌ عَذْبٌ، وَعَلَى بُعْدِ عِدَّةٍ أَمْتَارٍ تَخْرُجُ مِيَاهٌ مَالِحَةٌ مِنْ طُلُمْبَةِ مِيَاهٍ أُخْرَى أَوْ مِنْ بئرٍ آخَرَ.

﴿فَيَأْتِيهِمَا الْآءُ رِيكًا تَكْذِبَانِ﴾

١٥ - لو لم تكن مياه البحر مالحةً لَنَتَجَّعَ عَنْ الْحَيَوَانَاتِ الْمَيِّتَةِ فِيهِ تَعَفُّنٌ يَصْعُبُ تَحْمُلُ رَائِحَتِهِ، وَلَوْ لَمْ تَكُنْ مِيَاهُ الْأَنْهَارِ عَذْبَةً لَوَاجَهَتِ الْمَحَاصِيلُ وَالْحَيَوَانَاتُ مَشَاكِلَ جَمَّةً، وَلِهَذَا يَا أَيُّهَا الْإِنْسُ وَالْجِنُّ، بِأَيِّ نِعْمَةٍ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْكُمْ سَتُكْذَّبُونَ؟

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾

١٦ - تَصُبُّ مِيَاهُ الْأَنْهَارِ الْعَذْبَةُ فِي الْبَحْرِ وَتَصْبُحُ - فِي نَهَايَةِ الْأَمْرِ - جُزْءًا مِنْ مِيَاهِهِ، وَلَكِنْ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْمَائِيْنِ مُخْتَلَفٌ فِي حَقِيقَتِهِ، لِهَذَا أَشَارَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ إِلَى أَنَّهُمَا بَحْرَانِ بِاعْتِبَارِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ. عَلَى أَيِّ حَالٍ، أَوْدَعَ اللَّهُ تَعَالَى فِي بَحْرِ هَذَيْنِ الْمَائِيْنِ اللَّوْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ (وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ اللَّوْلُؤِ أَيْضًا)، بِحَيْثُ تَسْتَخْرِجُونَهُ أَنْتُمْ، وَتَسْتَعْمِلُونَهُ فِي زِينَتِكُمْ وَصِنَاعَةِ حُلِيِّكُمْ، فَيَا أَيُّهَا الْإِنْسُ وَالْجِنُّ، مِثْلَمَا مَدَّ اللَّهُ تَعَالَى لَكُمْ شَبَكَةً كَبِيرَةً مِنْ نِعَمِهِ فِي الْأَرْضِ، جَعَلَ لَكُمْ فِي الْبَحْرِ أَيْضًا أَسْمَاكَا وَلَالِيَّ، فَبِأَيِّ نِعْمَةٍ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى سَتُكْذَّبُونَ؟

وَهُنَا يَنْقُلُ سَيِّدُ مُحَمَّدٍ الْاَلُوسِيُّ كَلَامًا يَزِيدُ الْإِيمَانَ فِي الْقَلْبِ، فَاقْرَأْهُ أَنْتَ أَيْضًا، وَجَدِّدْ إِيْمَانَكَ بِمَحَبَةِ آلِ الْبَيْتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جَمِيعًا:

يقول سيّدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾: عليّ وفاطمة رضي الله تعالى عنهما، ﴿يَبْنِيهِمَا بَرَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾: النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾: الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما^(١).

﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾

١٧ - من نعم الله تعالى التي لا تعدّ ولا تحصى: نعمة البحر أيضاً، فقد أوقف الله تعالى ماءه في الأعماق بحيث تستطيع المراكب الشراعية والسفن العملاقة كالجبال السير على سطحه بكل سهولة ويسر، وأنتم أنفسكم تسافرون في هذه المراكب والسفن بحثاً عن الرزق، وتنقلون بضائعكم التجارية عليها من مكان إلى آخر، ولو جعل الله تعالى سطح البحر صلباً صلداً، وجعل أمواجه تتلاطم هائجة في كل وقت، لأصبح من الصعب على المراكب والسفن السير فيه، فبأي نعمة من نعم الله تعالى ستكذبون؟

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٣٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٣٧﴾ فَإِنِّي آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾
يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٣٩﴾ فَإِنِّي آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ سَنَفَعُ لَكُمْ
آيَةَ الثَّقَلَانِ ﴿٤١﴾ فَإِنِّي آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ يَمْعَشَرُ الْجَنِّ وَالْإِنْسُ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ
أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٤٣﴾ فَإِنِّي آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٤﴾
يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاْظٌ مِّنْ نَّارٍ وَمَحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴿٤٥﴾ فَإِنِّي آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٦﴾
فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٤٧﴾ فَإِنِّي آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا
يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ ﴿٤٩﴾ فَإِنِّي آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٠﴾ يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ
بِسِمَتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٥١﴾ فَإِنِّي آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ
بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ ﴿٥٤﴾ فَإِنِّي آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾

﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾

١٨ - كلُّ شيءٍ في هذه الدُّنيا فانٍ، ولا يبقى إلَّا ذاتُ الله تعالى. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ العملَ الذي يُعْمَلُ من أجلِ الدُّنيا سيفنى مع الدنيا هو الآخر، بينما يبقى العملُ الذي يُعْمَلُ من أجلِ رضا الله تعالى ويخلد، ويكونُ وسيلةً للنَّجاةِ في القبرِ ويومِ الحشرِ.

﴿فَيَأْتِي آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

١٩ - يقول سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «الدُّنيا سِجْنُ المؤمنِ وَجَنَّةُ الكافرِ»^(١)، ويُعلَمُ منه أنَّ الموتَ أيضًا نعمةٌ بالنَّسبةِ لأهل الإيمان؛ لأنَّهم سيُخْرَجُونَ مِنَ السَّجْنِ إلى الجَنَّةِ الخالدة، وَمَنْ ظَلَّ يَعْبُدُ الله تعالى طيلةَ حياته دونَ أن يراه سَيَنَعَمُ في الجنةِ برؤياه، وهل هناك نعمةٌ أعظمُ من هذه النِّعمة، فبأيِّ نعمةٍ من نِعَمِ الله تعالى ستُكذِّبون؟

﴿يَسْأَلُهُمَنَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾

٢٠ - المخلوقاتُ كُلُّها في السَّماءِ والأرضِ محتاجةٌ إلى الله تعالى، وهي كُلُّها تقفُ على بابِه سائلةً، وخزائنُ الله تعالى غيرُ محدودة، فيُعْطِي كُلَّ سائلٍ مسألةً، ومع ذلك لا تَنقُصُ خزائنه، وهو يَتَجَلَّى في كُلِّ لحظةٍ بشأنٍ مختلف، يعني: أنَّ كلَّ شيءٍ محفوظٌ من قبلُ في علمِ الله تعالى وفي لَوْحِ المحفوظ، يَظْهَرُ إلى عالمِ الوجودِ في وقتهِ وحينه، وهكذا يَظْهَرُ إلى عالمِ الوجودِ من قِبَلِه تعالى شيءٌ جديدٌ في كُلِّ حين، فبأيِّ نعمةٍ من نِعَمِ الله تعالى ستُكذِّبون؟

(١) مسلم، كتاب الزهد، باب ٥٣ برقم ٧٤١٧.

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾

٢١ - ليس معنى هذا أن الله تعالى مشغولٌ في عملٍ آخرٍ وحين يَفْرُغُ منه سَيَلْتَفِتُ لهم، وإنما شأنه تعالى هو أنه حينَ يَلْتَفِتُ إلى طَرَفٍ لا يَغْفُلُ عن الأطراف الأخرى، ومثلما أن الشمسَ تُنِيرُ كلَّ شيءٍ في الدنيا بِنُورِها في وقتٍ واحد، كذلك يُفِيضُ الله تعالى على كلِّ إنسانٍ في الدُّنيا بعنايته في وقتٍ واحد. سئل سيِّدنا عليٌّ رضي الله عنه: «كيف يُحَاسِبُ ربُّنا الناسَ جميعًا في وقتٍ واحد؟ قال الإمام عليٌّ كَرَّمَ اللهُ وجهه: كما يَرْزُقُهُم في وقتٍ واحدٍ يُحَاسِبُهُم في وقتٍ واحدٍ»^(١)، وكما أن الله تعالى يَرى الناسَ جميعًا في وقتٍ واحد، وَيَعْلَمُ تمامَ العلم ما في قلوبهم، ويسمَعُ دعاءهم، فإنه كذلك يَلْتَفِتُ إليهم جميعًا في وقتٍ واحد.

ولهذا، فإنَّ مفهومَ هذه الآية هو أننا نَعْلَمُ تمامَ العِلْم طُغيانكم وعصيانكم، ولو شئنا لَأَخَذْنَاكم به، لكنَّ رَحْمَتَنَا وَحِكْمَتَنَا تَقْتَضِي أن نُمَهِّلَكُم لكي تتوبوا وتُصْلِحُوا من أنفُسِكُم، ولهذا عليكم أن تَسْتَفِيدُوا من ساعاتِ المُهْلَةِ المَقْدَمَةِ لَكُم، وتهتَمُّوا بِإِصْلَاحِ أحوالِكُم، وإلا فإنَّ وقتَ هذه المُهْلَةِ قد أَوْشَكَ على الانتهاء، وسوف نَلْتَفِتُ إليكم عِنْدَئِذٍ، يعني: سَنُحَاسِبُكُم عِنْدَها على أفعالِكُم القبيحة، ألم تتفكروا أبداً لماذا لم يَؤَاخِذْكُم اللهُ تعالى فوراً، ولماذا أُمَهِّلَكُم لإِصْلَاحِ أحوالِكُم؟ أليست هذه نعمةٌ من نِعَمِهِ عليكم، فبأيِّ نعمةٍ من نِعَمِ الله سَتُكْذِبُونَ؟

﴿يَمْعَشَرُ الْجَنِّ وَالْإِنْسُ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾

٢٢ - سيقولُ اللهُ تعالى لِلطُّغَاةِ والمتمردينَ من الإنسِ والجنِّ يومَ القيامة: لو تستطيعون الخروجَ من نهاياتِ السَّماءِ والأرضِ لِلإِفْلَاتِ من قبضتي فافعلوا،

ولكن اسمعوا جيِّداً، إنَّ هذا ليس في استطاعتِكُم، ولا تستطيعون الخروجَ من هذه الكائناتِ إلَّا بإذني، وعلى فرضِ المستحيل لو أنكم حاولتم الخروجَ من أقطارِ السماواتِ والأرض، فأين ستذهبون؟ إنَّ كلَّ مكانٍ في مُلكي وتحت سيطرتي، ولهذا لن تستطيعوا الإفلاتَ من عقابي لكم.

لقد بيَّن الله تعالى لكم أهوالَ القيامة، وبيَّن كذلك - بالتفصيل - العجزَ الذي ستكونونَ عليه، حتى تخافوا من ذلك اليوم، وترجعوا إلى الله تعالى، أليست هذه نعمةً من الله تعالى؟ فبأيِّ نعمةٍ من نِعَمِ الله تعالى ستُكذِّبونَ إذا؟

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ﴾

٢٣ - في ذلك اليوم لو حاولتم الهربَ من ميدانِ الحَشَر، فسيُرسلَ عليكم عذابٌ من نارٍ ودُخان، ولن تستطيعوا مساعدةَ بعضِكُم بعضاً في الإفلاتِ منه، كما أنَّ أحداً آخرَ لن يستطيعَ مدِّ يدِ العونِ لكم في هذا الخصوص، وإنما ستبتَلونَ بهذا العذابِ عاجزين، وهنا أيضاً تبَّهكم الله تعالى ببيانِ حالةِ العجزِ التي ستكونونَ عليها، حتى تخشوا ذلك اليومَ وتَتَّقوه، وتُصلحوا من أنفُسِكُم، أليس هذا إحساناً من الله تعالى، فبأيِّ نعمةٍ من نِعَمِهِ ستُكذِّبونَ؟

﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾

٢٤ - قال أبو عبيد: «أي: تصيرُ السَّمَاءُ حمراءَ كالأديمِ لشِدَّةِ حرِّ النارِ»^(١)، فالنارُ التي تصلُّ حرارةً لهيبها إلى السماء، وتحمُرُّ منها السَّمَاءُ، كيف يكونُ حالُ المجرمينَ عندما يُلْقَوْنَ فيها، وحرارةُ النارِ هذه نعمةٌ للمخطئين أيضاً، حتى يشعروا بشِدَّةِ العذابِ ويُصلحوا من أنفُسِهِم، فبأيِّ نعمةٍ من نِعَمِ الله إذا ستُكذِّبونَ؟

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾

٢٥ - يقول أبو العالية: «لَا يُسْأَلُ غَيْرُ الْمَجْرَمِ عَنْ ذَنْبِ الْمَجْرَمِ»^(١)، يعني: لن يوضع وزرُ ذنوبِ أحدٍ على أحدٍ آخر، وإنما سيكون كلُّ شخصٍ مسئولاً عن أعماله هو.

وهذه الآيةُ نعمةٌ للصالحينَ بأنهم ليسوا مسئولينَ عن ذنوبِ غيرهم، وإنما سيُدخلونَ هم الجنةَ بسببِ حسناتهم، كما أنها نعمةٌ للمخطئينَ أيضاً، إذ يتمُّ إخبارُهم قبلَ الموعدِ بأنكم ستواجهونَ عقابَ أفعالكم القبيحةِ يقيناً، ولهذا عليكم أن تشعروا بهذا العقاب، وترجعوا عن ارتكابِ الذنوب، فبأيِّ نعمةٍ من نعمِ ربكم ستكذبون إذا؟

﴿يَعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ بِسْمَتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾

٢٦ - في هذه الآياتِ تخويفٌ للمجرمينَ ببيانِ أحوالِ جهنم، حتى يرجعوا عن عصيانهم، يعني: أن وجوهَ المجرمينَ ستكونُ سوداءَ يومَ القيامة، وسوف يؤخذونَ من شعورِ نواصيهم وأرجلهم، ويُسحبونَ إلى نارِ جهنم، وحين يصلونَ إلى حافةِ جهنمَ ستقولُ لهم الملائكةُ: هذه هي جهنمُ التي كنتم تنكرونها، ثم يُلقى بهم في نارِ جهنم، وستحرقُ النارُ أجسادهم، وحين يطلبونَ الماءَ ليشربوا يسقونَ من ماءٍ مغليٍّ تنقطعُ منه أمعاؤهم، وتبرزُ من أبدانهم، وسوف تستمرُّ هذه السلسلةُ من العذابِ إلى الأبد.

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ﴿٤٦﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِيهَا رَكِبُوا فِيهَا رَكِبُوا ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِيهَا رَكِبُوا ﴿٤٩﴾ فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِيهَا رَكِبُوا ﴿٥١﴾ فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِيهَا رَكِبُوا ﴿٥٣﴾ مُتَكِبِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانِ ﴿٥٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِيهَا رَكِبُوا ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَصَصَاتُ الطَّرَفِ لَمْ يَطْمِئْنِ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾
 هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِنْ دُونِهِمَا
 جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَمَمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾
 فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَنَكُهُهُ نُخْلٌ وَرَمَّانٌ ﴿٦٨﴾
 فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرٌ حَسَنٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ
 مَّقْصُورَتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّ عَنْ قُلُوبِهِمْ وَلَا جَاذٌ ﴿٧٤﴾
 فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مَتَّكِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرِي حَسَنٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ
 رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ نَبْرَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾

٢٧ - في الآيات السابقة جاء تخويفُ المجرمين من عذابِ الآخرة، حتى يتوبوا ويصلحوا من أنفسهم، وفي الآيات التالية جاء ذِكْرُ الأجرِ العظيم للصالحين، حتى يستزيدوا من عمل الصالحات.

إنَّ الذين يخافونَ من هذا المكانِ الذي سيقفونَ فيه أمامَ الله تعالى ليحاسبهم، ويتروكون الذُّنوبَ من خوفه تعالى، لهم في الجنَّةِ حديقتان، في واحدةٍ منهما القَصْرُ الذي يقيمونَ فيه، حيث سيعيشونَ مع أهلِهِم، أما الحديقةُ الثانيةُ فسيكونُ فيها مَقَرٌّ إقامةٍ لضيوْفِهِم، حيث سيَحْتَفُونَ بأصدقائهم وأحبابِهِم. كم هي نعمةٌ عظيمةٌ أن تُعطى في مقابلِ عملٍ من أعمالِك الصَّالحةِ جَنَّتَيْنِ، فبأيِّ نعمةٍ من نِعَمِ الله تعالى ستُكذِّبونَ إذا؟

جنتان لترك الذنوب خوفاً من الله

يقول يحيى بنُ أيوب: «سَمِعْتُ مَنْ يَذْكُرُ أَنَّهُ كَانَ زَمَنَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ شَابًّا مُتَعَبِّدًا قَدْ لَزِمَ الْمَسْجِدَ، وَكَانَ عُمَرُ بِهِ مُعْجَبًا، وَكَانَ لَهُ أَبٌ شَيْخٌ كَبِيرٌ، فَكَانَ

إِذَا صَلَّى الْعَتَمَةَ انصَرَفَ إِلَى أَبِيهِ، وَكَانَ طَرِيقُهُ عَلَى بَابِ امْرَأَةٍ فَافْتَنَتْ بِهِ، فَكَانَتْ تَنْصِبُ نَفْسَهَا لَهُ عَلَى طَرِيقِهِ، فَمَرَّ بِهَا ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَمَا زَالَتْ تُغْوِيهِ حَتَّى تَبِعَهَا، فَلَمَّا أَتَى الْبَابَ دَخَلَتْ وَذَهَبَ يَدْخُلُ، فَذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى، وَجَلَّى عَنْهُ، وَمَثَلَتْ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى لِسَانِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَلِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] فَخَرَّ الْفَتَى مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، فَدَعَتِ الْمَرْأَةُ جَارِيَةً لَهَا فَتَعَاوَنَتَا عَلَيْهِ فَحَمَلَتْهُ إِلَى بَابِهِ، وَاحْتَبَسَ عَلَى أَبِيهِ، فَخَرَجَ أَبُوهُ يَطْلُبُهُ فَإِذَا بِهِ عَلَى الْبَابِ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، فَدَعَا بَعْضَ أَهْلِهِ فَحَمَلُوهُ فَأَدْخَلُوهُ، فَمَا أَفَاقَ حَتَّى ذَهَبَ مِنَ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللَّهُ، فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ: يَا بُنَيَّ، مَا لَكَ؟ قَالَ: خَيْرٌ، قَالَ: فَإِنِّي أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ، فَأَخْبِرْهُ بِالْأَمْرِ، قَالَ: أَيُّ بُنَيَّ، وَأَيِّ آيَةٍ قَرَأْتَ؟ فَقَرَأَ الْآيَةَ الَّتِي كَانَ قَرَأَ، فَخَرَّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، فَحَزَّ كَوْهُ فَإِذَا هُوَ مَيِّتٌ، فَغَسَلُوهُ فَأَخْرَجُوهُ وَدَفَنُوهُ لَيْلًا، فَلَمَّا أَصْبَحُوا رُفِعَ ذَلِكَ إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَجَاءَ عُمَرُ إِلَى أَبِيهِ فَعَزَّاهُ بِهِ وَقَالَ: هَلَّا أَذْنَتْنِي؟ قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، كَانَ لَيْلًا، قَالَ عُمَرُ: فَادْهَبُوا بِنَا إِلَى قَبْرِهِ، فَاتَى عُمَرُ وَمَنْ مَعَهُ الْقَبْرَ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا فُلَانُ! ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٤٦]، فَأَجَابَهُ الْفَتَى مِنْ دَاخِلِ الْقَبْرِ: يَا عُمَرُ! قَدْ أَعْطَانِيهِمَا رَبِّي فِي الْجَنَّةِ مَرَّتَيْنِ^(١).

وَيُعَلِّمُ مِنْ هَذَا أَنَّ التَّخْلِيَّ عَنِ ارْتِكَابِ الذَّنْبِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى يَكُونُ سَبَبًا فِي الْحَصُولِ عَلَى جَنَّتَيْنِ، وَأَنَّ الذَّهَابَ إِلَى بَيْتِ مَتَوَفٍّ وَتَعَزِيَةَ أَهْلِهِ وَالذَّهَابَ إِلَى قَبْرِهِ مِنْ سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، مِثْلَمَا ذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ بِنَفْسِهِ إِلَى قَبْرِ الْمَرْأَةِ الَّتِي كَانَتْ تَنْظِفُ الْمَسْجِدَ النَّبَوِيَّ^(٢)، وَيَقُولُ سَيِّدُنَا أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

(١) كنز العمال، ٥١٦: ٢ برقم ٤٦٣٤.

(٢) عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ امْرَأَةً سُودَاءَ كَانَتْ تَقِمُّ الْمَسْجِدَ - أَوْ شَابًا - فَفَقَدَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلَ عَنْهَا - أَوْ عَنْهُ - فَقَالُوا: مَاتَ، قَالَ: «أَفَلَا كُنْتُمْ أَذْنَتُمُونِي؟»، قَالَ: فَكَانَتْهُمْ صَغُرًا أَمْرَهَا - أَوْ أَمْرَهُ - فَقَالَ: «دَلُونِي عَلَى قَبْرِهِ»، فَدَلُّوهُ، فَصَلَّى عَلَيْهَا. =

«ما من رجل يزور قبر حميمه فيسلم عليه ويقعدُ عنده إلا ردَّ عليه السلام وأنس به حتى يقوم من عنده»^(١).

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾

٢٨ - في هَاتَيْنِ الْجَنَّتَيْنِ تَسْتَعْرِضُ أَغْصَانُ الْأَشْجَارِ الْخَضِرَاءُ الْيَانِعَةُ رِبْعَهَا فِي الْأَعْلَى، وَفِي الْأَسْفَلِ تَجْرِي عَيْنَانِ. يَقُولُ عَطِيَّةٌ: «إِحْدَاهُمَا مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وَالْأُخْرَى مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ»^(٢).

الفرق بين خمر الدنيا والخمر الطهور

خَمْرُ الدُّنْيَا سَيِّئُ الطَّعْمِ، يُذْهِبُ الْعَقْلَ بِمُعَاقَرَتِهِ، إِلَى دَرَجَةٍ أَنَّ السَّكَرَانَ لَا يَسْتَطِيعُ التَّمْيِيزَ بَيْنَ أَهْلِهِ وَبَيْنَ مَنْ هُمْ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ، وَفِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ يَهْذِي بِكَلَامٍ خَاطِئٍ يَنْدُمُ عَلَيْهِ دَائِمًا، بَيْنَمَا خَمْرُ الْجَنَّةِ الطَّهَوْرُ مَنْزَعَةٌ عَنْ كُلِّ هَذِهِ النِّقَاطِصِ، وَتَسْجُرِي فِي الْجَنَّةِ عَيْنٌ مِنْ هَذَا الْخَمْرِ الطَّهَوْرِ، وَلَوْهُ أَيْضُ، وَطَعْمُهُ لَذِيذٌ، وَلَيْسَ لَتَنَاوُلِهِ أَثَرٌ سَلْبِيٌّ عَلَى جِسْمِ الْإِنْسَانِ وَعَقْلِهِ، وَبِاخْتِصَارٍ: فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ خَمْرِ الدُّنْيَا الْحَرَامِ وَخَمْرِ الْجَنَّةِ الطَّهَوْرِ قَدْرٌ مِنَ الشَّابْهِ سِوَى فِي الْأَسْمِ فَقَطْ.

وَيُمْكِنُكُمْ أَنْ تَتَصَوَّرُوا كَمْ هِيَ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ أَنْ يَكُونَ رِبْعُ الْأَشْجَارِ الْخَضِرَاءِ الْيَانِعَةِ فِي الْأَعْلَى، وَعَيُونُ الْمَاءِ وَالْخَمْرِ الطَّهَوْرِ فِي الْأَسْفَلِ، فَبِأَيِّ نِعْمَةٍ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى سَتُكْذِّبُونَ إِذَا؟

= مسلم، كتاب الجنائز، باب ٢٣ برقم ٢٢١٥.

(١) كنز العمال، ١٥: ٦٥٦، برقم ٤٢٦٠١.

(٢) تفسير القرطبي، سورة الرحمن (٥٥): الآية ٥٠.

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾

٢٩- يقالُ للقماشِ الداخليِّ لِلْحَافِ أو الفِرَاشِ (المَرْتَبَةِ): بطانةٌ، وهو قماشٌ عاديٌّ بشكلٍ عامٍ، أمّا القماشُ الخارجيُّ - وهو غطاءُ اللِّحَافِ أو الفِرَاشِ (المَرْتَبَةِ) - فيكونُ عادةً من القماشِ الفاخرِ غالي الثمن، وإذا كانت بطائنُ فُرُشِ الجنَّةِ من الحريرِ الفاخرِ الجيّدِ فما بالُك بالغطاءِ الخارجيِّ لها؟ وسيجلسُ أهلُ الجنَّةِ على هذه الفُرُشِ مُتَّكِئِينَ عليها، وتَدَلَّى من الأشجارِ حولَهم الفواكهُ بنوعِها: الطازِجُ والمَجْفَفُ، وكلّما أرادوا تناولَها تَدَلَّى هذه الفواكهُ وتقرَّبُ منهم، وقد أعدَّ اللهُ تعالى لكم في الجنَّةِ الفُرُشَ القيِّمةَ وأنواعَ الفواكهِ المختلفةِ الطازِجةِ والمَجْفَفَةِ، فبأيِّ نعمةٍ من نِعَمِ الله إذا سَتُكذِّبون؟

﴿فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْظُرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾

٣٠- سَيُنْعِمُ على أهلِ الجنَّةِ - علاوةً على أزواجِهِم - بالخُورِ العِينِ، وهنَّ في جمالِ الياقوتِ والمَرْجانِ، وسَيُنْعِمُ اللهُ تعالى عليكم في الجنَّةِ بهذه الخُورِ العِينِ التي لا يمكنُ أن يَتَصَوَّرَ أحدٌ في هذه الدُّنيا نساءً في جمالِهنَّ، فبأيِّ نعمةٍ من نِعَمِ الله سَتُكذِّبون؟

ما الجنة؟

المرادُ بالجنَّةِ: تلك الحديقةُ الخاصَّةُ التي سيَدْخُلُها الصَّالِحونَ يومَ القيامةِ، وتجري فيها الأنهارُ، والشَّكْلُ الظاهريُّ لفاكهةِ الجنَّةِ وثمارِها يُشَبِّهُ فواكهَ الدُّنيا وثمارِها، لكنَّها تتفوّقُ عليها بمراحلٍ في الرائحةِ والطَّعمِ، وللرِّجالِ في هذه الجنانِ زوجاتٌ طاهراتٌ، وللنِّساءِ فيها أزواجٌ يَتَمَيَّزُونَ بالحُسْنِ والجمالِ.

من أي شيء خلقت الجنة؟

يقول: سَيِّدُنَا أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْجَنَّةُ مَا بَنَاهَا؟ قَالَ: «لَبَنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَلَبَنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَمَلَأْتُهَا الْمِسْكَ الْأَذْفَرَ، وَحَصَبَاهَا اللَّوْلُؤُ وَالْيَاقُوتَ، وَتُرْبُهَا الزَّعْفَرَانُ، مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ وَلَا يَبْئَسُ، وَيُخَلَّدُ وَلَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُمْ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُمْ»^(١).

كيف ستكون نعم الجنة؟

- يَقُولُ سَيِّدُنَا أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ»^(٢).

- يَقُولُ سَيِّدُنَا أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْمُؤْمِنُ إِذَا اشْتَهَى الْوَلَدَ فِي الْجَنَّةِ كَانَ حَمْلُهُ وَوَضْعُهُ وَسَنُّهُ فِي سَاعَةٍ كَمَا يَشْتَهِي»^(٣).

- يَنْقُلُ الْإِمَامُ الْبَيْهَقِيُّ رَوَايَةً عَنْ سَيِّدِنَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّكَ لَتَنْظُرُ إِلَى الطَّيْرِ فِي الْجَنَّةِ فَتَشْتَهِيهِ، فَيَخْرُبُ بَيْنَ يَدَيْكَ مَشْوِيًّا»^(٤).

ما هي أعظم نعمة في الجنة؟

أَعْظَمُ نِعْمَةٍ فِي الْجَنَّةِ هِيَ رُؤْيُ اللَّهِ تَعَالَى، مَثَلَمَا يَقُولُ سَيِّدُنَا صُهَيْبٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مِنْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ

(١) الترمذي، أبواب الجنة، باب ١ برقم ٢٥٢٦.

(٢) مسلم، كتاب الجنة، باب ١ برقم ١٧٣٢.

(٣) الترمذي، أبواب الجنة، باب ٢٣ برقم ٢٥٦٣.

(٤) التفسير المظهر، سورة حم السجدة (٣٢): الآية ٣٢.

وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا، ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل^(١).

- يقول سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنه: إن النبي ﷺ قال: «... وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشيّة»^(٢).

كم تكون الأعمار في الجنة؟

- يقول سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه: إن النبي ﷺ قال: «يدخل أهل الجنة الجنة جُزْءًا مُزْدًا مُكْحَلِينَ أبناء ثلاثين أو ثلاث وثلاثين سنة»^(٣).

أي لغة ستكون لغة الجنة؟

قال الله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَوَلَّلْنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

ويقول المفتي أحمد يار خان في تفسير هذه الآية: يُعلم منه أنه لن يكون هناك شخص لا يستطيع القراءة يوم القيامة، فسوف يقرأ الجميع، وسيكون الجميع على معرفة باللغة العربية؛ لأن صحائف الأعمال ستكون مكتوبة باللغة العربية، بل إن لغة الجميع ستكون هي العربية بمجرد وفاتهم؛ لأن السؤال في القبر سيكون باللغة العربية، وسيجيب الناس باللغة العربية أيضاً^(٤)، يعني: أن لغة الجنة ستكون

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٨٠ برقم ٤٤٩.

(٢) الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب ١٧ برقم ٢٥٥٣.

(٣) الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب رقم ١٢ برقم ٢٥٤٥.

(٤) تفسير نور العرفان.

اللغة العربية، مثلما قال رسول الله ﷺ: «أَجِبُوا الْعَرَبَ لثَلَاثٍ: لَأَنِّي عَرَبِيٌّ، وَالْقُرْآنُ عَرَبِيٌّ، وَكَلَامُ أَهْلِ الْجَنَّةِ عَرَبِيٌّ»^(١).

الدعاء بالجنة

١ - ﴿وَجْعَلَنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ [الشعراء: ٨٥].

٢ - دعا النبي ﷺ قائلاً: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى مِنَ الْجَنَّةِ»^(٢).

٣ - يقول سَيِّدُنَا عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ رضي الله عنه: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «فِي الْجَنَّةِ مِائَةُ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالْفِرْدَوْسُ أَعْلَاهَا دَرَجَةً، وَمِنْهَا تَفْجَرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ الْأَرْبَعَةُ، وَمَنْ فَوْقَهَا يَكُونُ الْعَرْشُ، فَإِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ فَسَلُّوهُ الْفِرْدَوْسَ»^(٣).

ما شأن الحور في الجنة؟

الحُورُ: مخلوقات في الجنة، مثلما قال الله تعالى: ﴿كَانَتْ هُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٥٨]، وهنَّ طاهراتٌ عفيفاتٌ إلى درجة أنه لم يَلْمَسْهُنَّ أَحَدٌ سِوَاهُنَّ مِنَ الْإِنْسِ أَوْ الْجِنِّ قَبْلَ أَزْوَاجِهِنَّ فِي الْجَنَّةِ؛ لِأَنَّهُنَّ خُلِقْنَ فِي الْجَنَّةِ، وَلَيْسَ فِي الْجَنَّةِ تَصَوُّرٌ لِلسَّيِّئَةِ أَصْلًا.

وسوف يُزَوَّجُ أَهْلُ الْجَنَّةِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ مثلما قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الدخان: ٥٤]، وأنظَرُ الحُورَ إلى أسفلَ دائماً، ولا يُحِبِّينَ أَنْ يَرَيْنَ أَحَدًا سِوَى أَزْوَاجِهِنَّ؛ لِأَنَّ أَزْوَاجَهُنَّ يَبْدُونَ لَهُنَّ أَجْمَلَ الرِّجَالِ وَأَحْسَنَهُمْ.

(١) المستدرک للحاکم، ٤: ٩٨.

(٢) المعجم الكبير للطبراني، ٢٣: ٣١٧ برقم ٧١٧.

(٣) الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب رقم ٤ برقم ٢٥٣١.

- يقول سيّدنا أنس رضي الله عنه: إنّ النبي ﷺ قال: «مررت ليلة أُسري بي في الجنة بنهر حافته قباب المَرَّجان، فتوديتُ منه: السّلامُ عليك يا رسولَ الله، فقلتُ: يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء جوار من الحورِ العِين استأذنَ ربّهنَّ في أن يُسلّمنَ عليك فأذنَ لهنَّ فقلنَّ: نحن الخالداتُ فلا نموتُ أبدًا، ونحن النّاعماتُ فلا نبؤسُ أبدًا، ونحن الرّاضياتُ فلا نَسخطُ أبدًا، أزواجُ رجالٍ كرامٍ»^(١).

- يقول سيّدنا عبدُ الله بنُ مسعود رضي الله عنه: إنّ النبي ﷺ قال: «إنّ المرأةَ من نساءِ أهلِ الجنة ليرى بياضُ ساقها من وراء سبعين حُلّةً، حتّى يرى مُخها، وذلك بأنّ الله يقول: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾، فأما الياقوتُ فإنّه حجرٌ لو أدخلتَ فيه سلكًا ثم استصفّيته لأرّيته من ورائه»^(٢).

- يقول زيدُ بنُ أسلم: «إنّ الله تبارك وتعالى لا يخلُقُ الحورَ العِينَ من تراب، إنّما خلَقهنَّ من مسكٍ وكافورٍ وزعفرانٍ»^(٣).

- الحورُ خُلِقنَ في الجنة، مثلما يقول الإمامُ جلالُ الدّين السّيوطي: «خلَقَهُمُ اللهُ في الجنة كما خلَقَ الحورَ العِين، لا يموتونَ ولا يَشيبونَ ولا يهرُمونَ»^(٤).

والحورُ العِينُ موجوداتُ اليوم أيضًا في الجنة، مثلما يقول سيّدنا معاذُ بنُ جبل رضي الله عنه، من أنّ النبي ﷺ قال: «لا تؤذي امرأةً زوجها في الدّنيا إلّا قالت زوجته من الحورِ العِين: لا تؤذيه قاتلكِ الله، فإنّما هو عندك دخیلٌ يوشكُ أن يفارقَكَ إلينا»^(٥).

(١) تفسير القرطبي، سورة الرحمن (٥٥): الآية ٧٢.

(٢) الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب ٥ برقم ٢٥٣٣.

(٣) التفسير المظهر، سورة الرحمن (٥٥): الآية ٧٢.

(٤) تفسير الدر المنثور، سورة الواقعة (٥٩): ٨: ٤١.

(٥) الترمذي، أبواب الرضاع، باب ١٩ برقم ١١٧٤.

ما شأن النساء في الجنة؟

- يقول سيّدنا أنس بن مالك رضي الله عنه: إنّ النبي ﷺ قال: «لَرَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ غَذْوَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَقَابٌ قَوْسٍ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ أَوْ مَوْضِعُ قَيْدٍ - يعني: سَوْطَه - خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمَلَأَتْهُ رِيحًا، وَلَتَصِفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»^(١).

- عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أُنْسَاءُ الدُّنْيَا أَفْضَلُ أَمْ الْحُورُ الْعِينُ؟ قَالَ: «بَلِ نِسَاءُ الدُّنْيَا أَفْضَلُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ كَفَضْلِ الظَّهَارَةِ (الْغَطَاءِ الْخَارِجِيِّ لِلْفِرَاشِ) عَلَى الْبِطَانَةِ (الْقِمَاشِ الدَّاخِلِيِّ لِلْفِرَاشِ)». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَبِمَ ذَاكَ؟ قَالَ: «بِصَلَاتِهِنَّ وَصِيَامِهِنَّ وَعِبَادَتِهِنَّ اللَّهُ أَلْبَسَ اللَّهُ وَجُوهَهُنَّ النُّورَ وَأَجْسَادَهُنَّ الْحَرِيرَ، يَبِضُّ الْأَلْوَانُ خُضَرَ الثِّيَابِ، صُفْرَ الْحُلِيِّ، مَجَامِرُهُنَّ الدُّرُّ وَأَمْشَاطُهُنَّ الذَّهَبُ، يَقْلُنَ: أَلَا نَحْنُ الْخَالِدَاتُ فَلَا نَمُوتُ أَبَدًا، أَلَا وَنَحْنُ النَّاعِمَاتُ فَلَا نَبُؤُسُ أَبَدًا، أَلَا وَنَحْنُ الْمُقِيمَاتُ فَلَا نَنْظَعُنُ أَبَدًا، أَلَا وَنَحْنُ الرَّاغِبَاتُ فَلَا نَسْخَطُ أَبَدًا، طُوبَى لِمَنْ كُنَّا لَهُ وَكَانَ لَنَا»^(٢).

ما الذي سيحظى به الرجال في الجنة؟

سيحظى الرِّجَالُ فِي الْجَنَّةِ بِالْحُورِ الْعِينِ إِضَافَةً إِلَى زَوْجَاتِهِمْ، وَجَنَسُ الْحُورِ مُخْتَلَفٌ عَنْ جَنَسِ الْإِنْسَانِ، وَلَا يَجُوزُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا نِكَاحُ الْإِنْسَانِ مِنْ غَيْرِ جَنَسِهِ، يَعْنِي: مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ وَالْحَيَوَانِ، وَلَكِنْ سَيَكُونُ مِنَ الْمُمْكِنِ فِي الْجَنَّةِ زَوَاجُ الْإِنْسَانِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ.

(١) البخاري، كتاب الجهاد، باب ٦ برقم ٢٧٩٦.

(٢) المعجم الكبير، ٢٣: ٣٦٨، والأوسط، ٣: ٢٧٩.

ما الذي ستحظى به النساء في الجنة؟

أودع الله تعالى داخل المرأة حسناً وجمالاً، والجمال يقتضي أن يكون هناك من يحبّه ويعشقه، ولهذا فإن أعظم أمنية لدى أي امرأة أن يتيسر لها زوجٌ محبٌ لها، وسيكون زوج كل امرأة في الجنة على قدر كبير من الحسن والجمال بحيث يسعد قلبها حين تراه؛ لأن هذا الزوج يكون بمثابة انعكاس كامل لأمانيتها، وتحقيق كامل لأحلامها، مثلما قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا دَشْتَهُنَّ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ [فصلت: ٣١]، ولهذا فإنه مثلما سيكون كل رجل في الجنة تجسيدا كاملاً لما تريده زوجته، كذلك ستكون كل امرأة تحقيقاً لأحلام زوجها، وسيحب كل منهما الآخر من قلبه.

سيكون في الجنة حورٌ وغللمان أيضاً، وسيكون هؤلاء بمثابة الراحة الإضافية للزوجين، ولكن الحور والغلمان ليسا من جنس البشر، وإنما سيخلقهما الله تعالى من راحة الجنة، وسيكون كل همتما خدمة الأزواج في الجنة، أما الحور ففي عمر الشباب، وسيزوجن من الرجال، حتى لا يحدث اختلاط للرجال من غير المحارم من النساء، بينما الغلمان في عمر الصبا، حتى لا تختلط النساء مع غير المحارم من البالغين.

سيكون لكل إنسان في الجنة -بالإضافة إلى الأنبياء والمقرّين- زوجة واحدة من الجنس الإنساني، ولا تستطيع الحور أن يبلغن من المحبة والرغبة في قلب الرجال مثل ما للزوجات من بني الإنسان في قلوب أزواجهن، مثلما يقول النبي ﷺ: «بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة». قلت: يا رسول الله، وبم ذاك؟ قال: «بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن الله، ألبس الله وجوههن النور وأجسادهن الحرير، بيض الألوان خضر الثياب صفر الحلي، مجامرهن الدرّ

وَأَمْشَاظُهُنَّ الذَّهَبُ، يَقْلُنَ: أَلَا نحن الخالداتُ فلا نموتُ أبدًا، أَلَا ونحن الناعماتُ فلا نبؤُسُ أبدًا، أَلَا ونحن المقيماتُ فلا نظعنُ أبدًا، أَلَا ونحن الراضياتُ فلا نسخطُ أبدًا، طوبى لمن كُنَّا له وكان لنا^(١). في هذه الدنيا إذا لم يستطع الرجلُ أن يصبرَ على زوجته في أيام الحيض والنَّفاس، أو إذا لم تعدَّ زوجته قادرةً على أداءِ حقوقه الزوجية لمرضٍ أو حادثٍ أصابها، فقد يحتاجُ الرجلُ في مثل هذه الحالاتِ إلى زوجةٍ ثانية، ولكنَّ النساءَ في الجنةِ لن تحدثَ لهنَّ مثلُ هذه الأمور، ولهذا سيكونُ كلُّ رجلٍ سعيدًا مستريحًا مع زوجته دائمًا.

المرأةُ التي دَخَلَ زوجها في الدنيا الجنةَ، سيكونُ زوجها لها في الجنةِ أيضًا، معَ محبةٍ ورغبةٍ جديدتينِ تمامًا، وسيكونُ هذا الزوجُ مطهرًا من كلِّ العيوبِ التي كانت موجودةً في طباعه وسلوكه، إمَّا إذا لم يستطعَ زوجُ امرأةٍ في الدنيا أن يدخُلَ الجنةَ لظلم ارتكبه، أو أنَّ المرأةَ ماتت بغيرِ زواج، فستزوجُ من شابٍّ في الجنةِ كان قد مات بغيرِ زواجٍ في الدنيا، وسوف تُحبُّه هذه المرأةُ من قلبها. وبنفسِ الطريقة، فإنَّ الأطفالَ من الذكورِ والإناثِ - الذين ماتوا صغارًا في الدنيا - سيُبعثونَ في الجنةِ شبابًا، وسيتزوجونَ فيما بينهم.

أما المرأةُ التي تزوجت في الدنيا بأكثرَ من رجلٍ، وطلَّقها أزواجها جميعًا، ولم تكنْ متزوجةً من أحدٍ عندَ وفاتها، فسيكونُ لها الخيارُ في الجنةِ بأن تختارَ من بينِ أزواجها مَنْ كان في الدنيا أحسنَهم أخلاقًا، «أما المرأةُ التي تزوجتْ أكثرَ من مرةٍ في الدنيا، وطلَّقت من كلِّ مَنْ تزوجتهم، فإنَّ ماتت ولم تكنْ في عصمة رجلٍ، خُيِّرَت يومَ القيامةِ لتكونَ زوجةً لمن كان أحسنَ أزواجها في الدنيا أخلاقًا؛ لأنَّ الفلاحَ في الدنيا والآخرةَ مرتبطٌ بالأخلاقِ الحسنة. عن أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله

عنها، قالت: قلت: يا رسول الله، المرأة منا تتزوج زوجين والثلاثة والأربعة، ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها، من يكون زوجها؟ قال: يا أم سلمة، إنها تخير فتختار أحسنهم خلقاً، فتقول: أي رب، إن هذا كان أحسنهم معي خلقاً في دار الدنيا، فزوجنيه. يا أم سلمة، ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة^(١). لكن المرأة التي تزوجت أكثر من مرة ولم يطلّقها آخر أزواجها، وماتت وهي في عصمتها، فستكون في الآخرة زوجة له^(٢).

وباختصار: فإن الزوجين يكونان شاباً في الجنة، وستصدّر من عرقهما رائحة كرائحة المسك، وسيحب كل منهما الآخر غاية المحبة، وسيكون كل منهما سعيداً مع الآخر غاية السعادة.

ما المراد بالغلّمان في الجنة؟

سيُعطى أهل الجنة خداماً من صغار السن أيضاً، يطوفون حولهم لخدمتهم، وهؤلاء في جمال اللؤلؤ الذي حفظ بعيداً عن الغبار والتراب.

- يقول الإمام البغوي: إن سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «وما من أحد من أهل الجنة إلا يسعى عليه ألف غلام، وكل غلام على عمل ما عليه صاحبه»^(٣).

- يقول سيدنا قتادة رضي الله عنه: ذكر لنا أن رجلاً قال: يا نبي الله، هذا الخادم فكيف المخدم؟ قال: «فضل المخدم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»^(٤).

(١) المعجم الكبير، ٢٣: ٣٦٨.

(٢) تبيان القرآن، ١: ٣٣٨.

(٣) تفسير البغوي، سورة الطور (٥٢): الآية ٢٤.

(٤) تفسير معالم التنزيل، سورة الطور (٥٢): الآية ٢٤.

- يقول الإمام جلال الدين السيوطي: «خَلَقَهُمَ اللهُ في الجنة كما خَلَقَ الحُورَ العِينِ، لا يموتونَ ولا يَشْيَبُونَ ولا يَهْرَمُونَ»^(١).

وهناك قولٌ آخرٌ فيما يتعلّق بالعلّمانِ أيضًا، فحواه: أنّ هؤلاء هم أطفالُ المشركين الذين ماتوا قبل سنّ البلوغ، مثلما قال سيّدنا سلّمانُ الفارسيّ رضي الله عنه: «أطفالُ المشركين هم خَدَمُ أهلِ الجنة»^(٢).

﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾

٣١- الشّخصُ الذي يخشى الله تعالى ولا يعصيه سيكونُ جزاؤه أن يُدخِلَه اللهُ تعالى الجنةَ، وأن يُنعمَ عليه بمختلفِ أنواعِ النّعم، أليس هذا فضلًا من الله وإحسانًا بأن يَشْرِكَ بالجنةِ جزاءً على حسناتك، حتى تستزيدَ من الحسناتِ وعَمَلِ الصّالحاتِ؟ فبأيّ نعمةٍ من نِعَمِ الله تعالى ستُكذّبون؟

- يقولُ سيّدنا أنسُ رضي الله عنه: إنّ النّبِيَّ ﷺ قرأ ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ ثم قال: «هل تَدْرُونَ ماذا قال ربُّكم؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: يقول: ما جزاءُ مَنْ أَنْعَمْتُ عليه بالتّوحيدِ إِلَّا الجنةُ»^(٣).

- يقولُ سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: كان النّبِيُّ ﷺ بارزًا يومًا للنّاس، فأثابه جبريلُ فقال: ما الإيمانُ؟ قال: «الإيمانُ أن تؤمنَ بالله وملائكته وبلقائه (أي: في الآخرة) ورسله، وتؤمنَ بالبعث». قال: ما الإسلامُ؟ قال: «الإسلامُ أن تعبُدَ اللهَ ولا تُشْرِكَ به، وتقيمَ الصّلاةَ، وتؤدّيَ الزّكاةَ المفروضةَ، وتَصُومَ رمضانَ». قال: ما

(١) تفسير الدر المنثور، سورة الواقعة (٥٦)، ٨: ٤١.

(٢) تفسير القرطبي، سورة الواقعة (٥٦): الآية ١٧.

(٣) تفسير القرطبي، سورة الرحمن (٥٥): الآية ٦٠.

الإحسان؟ قال: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ (فَتَقَيَّنْ) فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^(١).

جاء في هذا الحديث تعليم الإيمان أولاً - يعني: التصديق من القلب بالعقائد التي أخبرنا بها الله تعالى - ثم جاء تعليم الإسلام - يعني: العمل بأحكام الله تعالى التي أنزلها - ثم جاء تعليم الإحسان، يعني: أَنْ تَجْعَلَ هذه العقائد والأعمال جزءاً لا يتجزأ من حياتك، بحيث يَغْلِبُ عليك دائماً تصوُّرُ الله تعالى، وتشعُّرُ وكأنَّه أمامك، ولكن لأنَّ تصوُّرَ الذاتِ العَلِيَّةِ ليس أمراً سهلاً، وهي الذاتُ التي ليس كمثليها شيءٌ، لهذا ينبغي - على الأقل - أَنْ يَكُونَ عندَكَ تصوُّرٌ بأنَّ الله تعالى يراك، وأنه يراقبُ كلَّ أحوالك دائماً.

﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾

٣٢ - الْجَنَّتَانِ اللَّتَانِ ذَكَرْتَا فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ كَانَتَا لِلْمُتَّقِينَ وَالْعِبَادِ الْمُقَرَّبِينَ، أَمَّا الْجَنَّتَانِ اللَّتَانِ وَرَدَ ذِكْرُهُمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ فَهُمَا أَقْلُ مِنَ الْأُولَيْنِ دَرَجَةً، وَسَكُونَانِ لِعَامَّةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَرَغْمَ أَنْ هَاتَيْنِ الْجَنَّتَيْنِ أَقْلُ دَرَجَةً مِنْ سَابِقَتَيْهِمَا، لَكِنَّهُمَا مَعَ ذَلِكَ جَنَّتَانِ، يَعْنِي: سَتَكُونُ الرَّفَاهِيَّةُ وَالرَّاحَةُ فِيهِمَا بِمَا لَا يَسْتَطِيعُ عَقْلٌ أَنْ يَتَصَوَّرَهُ، فَبِأَيِّ نِعْمَةٍ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى سَتُكْذَّبُونَ؟

يقول ابنُ زَيْدٍ: «وَمِنْ دُونِهِمَا فِي الْفَضْلِ... إِنَّ الْأُولَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ لِلْمُقَرَّبِينَ، وَالْآخِرَتَيْنِ مِنْ وَرَقٍ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ»^(٢). والمرادُ بِأَصْحَابِ الْيَمِينِ: أَهْلُ الْجَنَّةِ الَّذِينَ سَيَأْخُذُونَ صُحُفَ أَعْمَالِهِمْ بِإِيمَانِهِمْ، وَسَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بَعْدَ الْحِسَابِ، لَكِنْ دَرَجَاتِهِمْ

(١) البخاري، كتاب الإيمان، باب ٣٨ برقم ٥٠.

(٢) تفسير القرطبي، سورة الرحمن (٥٥): الآية ٦٢.

أقلُّ من درجاتِ السابقينَ والمقرَّبينَ؛ لأنَّ هؤلاءِ يَدْخُلُونَ الجنةَ بغيرِ حسابٍ.

﴿مُدَّهَامَتَانِ﴾

٣٣ - هَاتَانِ الْجَنَّتَانِ فِي غَايَةِ الْإِخْضَارِ وَالْيُنُوعَةِ، تُفَوِّرُ الْمِيَاهُ مِنَ الْعَيُونِ فِيهِمَا، فَبَآئِي نِعْمَةٍ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى سَتُكَذِّبُونَ؟

﴿فِيهِنَّ خَيْرٌ حَسَانٌ﴾

٣٤ - سَيَكُونُ فِي هَاتَيْنِ الْجَنَّتَيْنِ الْحُورُ الْجَمِيلَاتُ صُورَةً وَسِيرَةً، مُحْتَجِبَاتٌ فِي خِيَامٍ مِنَ اللَّوْلُؤِ، لَمْ تَمْسُحْنَ أَبَدًا يَدَ إِنْسٍ أَوْ جَنٍّ مِنْ قَبْلُ، فَبَآئِي نِعْمَةٍ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ سَتُكَذِّبُونَ بَعْدَ هَذِهِ الْحُورِ الْعِينِ الْجَمِيلَاتِ؟

يَقُولُ سَيِّدُنَا عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الْخَيْمَةُ دُرَّةٌ مُجَوَّفَةٌ»^(١)، وَكَمَا أَنَّ الْأَغْنِيَاءَ فِي أَيَّامِنَا هَذِهِ يَخْرُجُونَ مِنْ بَيْوتِهِمْ لِقِضَاءِ يَوْمٍ فِي الْمَتَزَّهَاتِ وَالْبَيْوتِ الْمُتَحَرِّكَاتِ (الكَرَفَانَاتِ)، فَرُبَّمَا سَتَكُونُ فِي الْجَنَّةِ خِيَامٌ مِنَ اللَّوْلُؤِ أَيْضًا، بَحِثْ تَكُونُ الْحُورُ الْعِينُ مُنْتَظَرَاتٍ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ فِي هَذِهِ الْخِيَامِ عِنْدَمَا يَخْرُجُونَ لِلتَّنَزُّهِ.

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرِيٍّ حَسَانٍ﴾

٣٥ - السُّرُرُ الْجَمِيلَةُ الْفَرِيدَةُ الَّتِي سَيَجْلِسُ أَهْلُ الْجَنَّةِ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا، سَيَكُونُ مَفْرُوشًا تَحْتَهَا سَجَادٌ أَحْمَرٌ، وَقَدْ ذَكَرَتْ الْآيَاتُ السَّابِقَةُ عِدَدًا مِنْ أَوْجِهَةِ التَّعْظِيمِ وَالتَّكْرِيمِ الَّتِي سَيَلْقَاهُ أَهْلُ الْإِيمَانِ فِي الْآخِرَةِ، فَهَلْ يُمَكِّنُكُمْ إِنْكَارُ نِعَمِ اللَّهِ هَذِهِ؟

﴿بَبْرَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾

٣٦- اسمُ الله تعالى اسمُ الخيرِ والبركة، وَمَنْ يُرَدِّدُ ذِكْرَ اسْمِهِ عَلَى لِسَانِهِ وَيَجْعَلُهُ وَرْدًا لَهُ، يَكُونُ مُسْتَحِقًّا لِلْخَيْرَاتِ وَالْبَرَكَاتِ، وَمَنْ كَانَ اسْمُهُ مُبَارَكًا بِهَذَا الشَّكْلِ، فَكَمْ تَكُونُ ذَاتُهُ مُبَارَكَةً؟

الفقيه إلى الله: محمّد إمداد حُسَيْن بيززاده،
جامعة الكرم، إنجلترا
بعد ظهر يوم الاثنين ٦ سبتمبر ٢٠١٠ م
الموافق ٢٦ رمضان ١٤٣١ هـ

هذا وقد اكتملَ تفسيرُ سورة «الرَّحْمَن» بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَكَرَمِهِ فِي خَمْسَةِ أَيَّامٍ فَقَطْ، أَي: مِنَ الْأَوَّلِ حَتَّى السَّادِسِ مِنْ سَبْتِمْبَرٍ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٦) سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

هذه السورة مكيّة، واسمها: «الواقعة»، وهو مأخوذ من الآية الأولى منها.

مضامين السورة

كان كفّارُ مكة منكرينَ للآخرة والتوحيدِ والقرآنِ بشكلٍ أساسيٍّ، ولهذا جاء التركيزُ في هذه السورة على المضامين الثلاثة التي تُركّزُ عليها السورُ المكيّةُ عموماً.

الآخرة

في الجزء الأول من هذه السورة جاء ذكرُ قيام الساعة، يعني: أنّ هناك الكثيرَ من الناس اليوم يُنكرونَ القيامةَ، ولكن حين تقوم الساعة لن يكونَ هناك مَنْ يُنكرُها أو يُكذّبُ بها؛ لأنّ الأرضَ حينذاك ترتعدُّ وتزلزلُ، وتتناثرُ الجبالُ وتفتّتُ كأنّها الحصى. سيجتمعُ الأولونَ والآخرونَ يومَ القيامة في ميدانِ الحشر، وسيتمُّ تقسيمُهم إلى ثلاثِ مجموعات:

١ - المجموعة الأولى هي: مجموعةُ أصحابِ اليمين، وهم الذين ستكونُ صُحفُ أعمالهم في أيديهم اليمنى، وسيدخلونَ الجنةَ بعدَ الحساب.

٢ - المجموعة الثانية هي: مجموعةُ أصحابِ الشمال، وستكونُ صُحفُ أعمالهم في أيديهم الشمال، وسيدخلونَ جهنّمَ.

٣ - المجموعة الثالثة هي: مجموعة السابقين الأولين، وهم: الذين كانوا يَسْبِقُونَ إلى الأعمالِ الصَّالحة، وهؤلاء سيَدْخُلُونَ الجنةَ بغيرِ حساب، كما أنَّهم سيَشْفَعُونَ لغيرِهم.

التوحيد

في الجزء الثاني من هذه السُّورة جاء بيانٌ لدلائلِ التوحيد، يعني: أَلَمْ تَتَفَكَّرُوا أَوَّلًا مَنْ الَّذِي خَلَقَكُمْ؟ فَأَنْتُمْ لَسْتُمْ الَّذِينَ خَلَقُوا أَنْفُسَهُمْ، وَإِنَّمَا خَلَقَكُمْ اللَّهُ تَعَالَى، وَهُوَ الَّذِي حَدَّدَ وَقْتَ مَوْتِكُمْ، وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْمَاءَ الْعَذْبَ مِنَ السَّمَاءِ، وَهُوَ الَّذِي يُنْبِتُ لَكُمْ الزَّرْعَ وَالْمَحَاصِيلَ لِرِزْقِكُمْ، فَكَيْفَ إِذَا تُنْكِرُونَ وجودَه؟

القرآن

في الجزء الثالث من هذه السُّورة جاء ذِكْرُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَقَدْ أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى مُؤَكِّدًا عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ كَلَامٌ كَرِيمٌ، وَلَيْسَ كَلَامَ بَشَرٍ، وَإِنَّمَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَلَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ.

الموت

في الجزء الرابع والأخير من هذه السُّورة جاء التنبيهُ على الإنسانِ بأنه حين يَأْتِي مَلَكُ الْمَوْتِ لَنْ يَسْتَطِيعَ أَحَدٌ أَنْ يَمْنَعَهُ، وَكَمَا أَنَّكُمْ لَا تَسْتَطِيعُونَ مَنَعَ الْمَوْتِ، كَذَلِكَ لَا تَسْتَطِيعُونَ مَنَعَ وَقْعِ الْقِيَامَةِ وَلَا الْحِسَابِ وَالْعِقَابِ.

فضل سورة الواقعة

- يَقُولُ سَيِّدُنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

«من قرأ سورة الواقعة في كلِّ ليلةٍ، لم تُصِبْه فاقةٌ أبداً»^(١).

- يقول سيّدنا أنسٌ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «سورةُ الواقعة سُورةُ الغنى، فاقرأوها وعَلِّموها أولادكم»^(٢).

- يقول سيّدنا أنسٌ رضي الله عنه أيضاً: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «علِّموا نساءكم سُورةَ الواقعة، فإنّها سُورةُ الغنى»^(٣).

- يقول سيّدنا أبو ظبّية رضي الله عنه: مرّضَ عبدُ الله مرَضَه الَّذي تُوفّي فيه، فعاده عثمانُ بنُ عفّان

فقال: ما تشتهي؟

قال: ذنوبي.

قال: فما تشتهي؟

قال: رحمةَ ربّي.

قال: ألا أمرُ لك بطبيبٍ؟

قال: الطّبيبُ أمرَضني؟

قال: ألا أمرُ لك بعطاءٍ؟

قال: لا حاجةَ لي فيه.

قال: يكونُ لبناتك من بعدك؟

(١) تفسير ابن كثير، تعارف سورة الواقعة (٥٦).

(٢) تفسير الدر المشور، تعارف سورة الواقعة (٥٦).

(٣) المرجع السابق، تعارف سورة الواقعة (٥٦).

«من قرأ سورة الواقعة في كلِّ ليلةٍ، لم تُصِبْه فاقةٌ أبداً»^(١).

- يقول سيّدنا أنسٌ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «سورةُ الواقعة سُورةُ الغنى، فاقْرَأُوها وعَلِّمُوها أولادكم»^(٢).

- يقول سيّدنا أنسٌ رضي الله عنه أيضاً: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «علِّموا نساءكم سُورةَ الواقعة، فإنّها سُورةُ الغنى»^(٣).

- يقول سيّدنا أبو ظبيّة رضي الله عنه: مرّضَ عبدُ الله مرَضَه الَّذي تُوفِّي فيه، فعاده عثمانُ بنُ عفّان

فقال: ما تشتهي؟

قال: ذنوبي.

قال: فما تشتهي؟

قال: رحمةَ ربّي.

قال: ألا أمرُّ لك بطبيبٍ؟

قال: الطَّبيبُ أمرَضَني؟

قال: ألا أمرُّ لك بعطاءٍ؟

قال: لا حاجةَ لي فيه.

قال: يكونُ لبناتك من بعدك؟

(١) تفسير ابن كثير، تعارف سورة الواقعة (٥٦).

(٢) تفسير الدر المشور، تعارف سورة الواقعة (٥٦).

(٣) المرجع السابق، تعارف سورة الواقعة (٥٦).

١٢٨ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

قال: أتخشى على بناتي الفقر؟ إني أمرتُ بناتي يَقْرَأْنَ كُلَّ لَيْلَةٍ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ،
إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ كُلَّ لَيْلَةٍ، لَمْ تُصِبْهُ فَاقَةٌ أَبَدًا»^(١).

الفقيرُ إلى الله: محمّد إمداد حُسين بيززاده،
جامعة الكرم، إنجلترا

بعد صلاة العشاء من ليلة القدر يوم الاثنين ٦ سبتمبر ٢٠١٠ م
الموافق ٢٦ رمضان ١٤٣١ هـ.

* * *

(١) تفسير ابن كثير، تعارف سورة الواقعة (٥٦).

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ (٥٦)،

مكية (٤٦)، آياتها (٩٦)، ركوعاتها (٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ① لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ ② خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ③ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ④ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ⑤ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ⑥ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ⑦ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ⑧ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ⑨ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ⑩ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ⑪ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ⑫ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ⑬ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ⑭ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ⑮ مُتَكِبِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ⑯ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ⑰ بِأَكْوَابٍ ⑱ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ⑲ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْفَوْنَ ⑳ وَفَنَكَّهُمْ مِمَّا يَشَخِرُونَ ㉑ وَلَحِمٍ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ㉒ وَحُورٌ عِينٌ ㉓ كَأَمْثَلِ اللَّوْلِيِّ الْمَكُونِ ㉔ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ㉕ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ㉖ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ㉗ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ ㉘ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ㉙ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ㉚ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ㉛ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ㉜ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ㉝ وَفَنَكَّهُمْ كَثِيرًا ㉞ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ㉟ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ㊱ إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنِشَاءً ㊲ فَجَعَلْنَهُمْ أَجْنَارًا ㊳ عُرُبًا أَتْرَابًا ㊴ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ㊵

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾

١ - يقول الإمام ابن كثير: «الواقعة من أسماء يوم القيامة، سُميت بذلك لتحقق كونها ووجودها»^(١).

(١) تفسير ابن كثير، سورة الواقعة (٥٦): الآية ١.

﴿لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ﴾

٢ - حين تقوم الساعةُ سيُشاهدُها الجميعُ، ولن يستطيع أحدٌ أن يكذبَها.

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾

٣ - حين تقوم الساعةُ ستَنزاحُ الحُجُبُ الظاهرةُ والمزيفةُ، وستَظهرُ الأحوالُ الباطنيةُ والأصليةُ، وسيكونُ نتيجة ذلك أن يلقى المخطئون الدَّلَّ والخزي في مستنقع أفعالهم القبيحة، بينما سيكونُ الصالحونَ مرفوعي الرأسِ يَنعمونَ بِنعم الله تعالى، مثلما يقولُ سيِّدنا عُمَرُ الفاروقُ رضي الله عنه: «خَفِضَتِ (القيامةُ) أعداءَ الله في النار، ورَفَعَتِ أولياءَ الله في الجنة»^(١).

﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾

٤ - حينَ تقومُ الساعةُ سَتَرَتُ الأرضُ وتزلزلُ بحيث يَنهدمُ كلُّ ما فوقها من مَبَانٍ وتُسَوَّى بالأرض، وتتناثرُ الجبالُ وتفتتُ وتتطايرُ في الفضاءِ كذَرَاتِ التراب.

﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾

٥ - يومُ القيامة سَيَتَمُّ تقسيمُكم جميعاً، يعني: بني الإنسانِ جميعاً، إلى ثلاثِ مجموعات:

١ - المجموعةُ الأولى هي: مجموعةُ أصحابِ اليمين، وهم: الذين ستكونُ صُحُفُ أعمالهم في أيديهم اليمنى، وسيدخلونَ الجنةَ بعدَ الحساب.

(١) تفسير القرطبي، سورة الواقعة (٥٦): الآية ٣.

٢ - المجموعة الثانية هي: مجموعة أصحاب الشمال، وستكون صُحُف أعمالهم في أيديهم الشمال، وسيدخلون جهنم.

٣ - المجموعة الثالثة هي: مجموعة السابقين الأولين، وهم: الذين كانوا يسبقون إلى الأعمال الصالحة، وهؤلاء سيدخلون أعلى درجات الجنة بغير حساب، وهؤلاء هم السعداء الذين سينعم الله عليهم بقرب خاص منه.

﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾

٦ - أمة النبي ﷺ أفضل الأمم، وسيكون عدد الداخلين في الجنة من أمة النبي الكريم ﷺ هو الأكبر قياساً بالأمم الأخرى، ولهذا فإن المراد بجماعة السابقين الكبيرة هم: السابقون من أمة النبي الكريم ﷺ، مثلما جاء في الحديث الذي نقله سيّد محمود الألوسي، عن سيّدنا أبي بكر رضي الله عنه، من أنّ النبي ﷺ قال فيما يتعلّق بهذه الآية: «هما جميعاً من هذه الأمة»^(١)، كما أنّ الحافظ ابن كثير أيضاً رجّح هذا الأمر، يعني: «أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: من صدر هذه الأمة ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ أي: من هذه الأمة»^(٢).

- يقول سيّدنا عمران بن الحصين رضي الله عنه: إنّ النبي ﷺ قال: «خير أمتي قرني (يعني: عهد الصحابة رضي الله عنهم)، ثم الذين يلونهم (يعني: عهد التابعين رضي الله عنهم)، ثم الذين يلونهم (يعني: عهد تابعي التابعين رضي الله عنهم) - قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنيه قرنين أو ثلاثاً - ثم إنّ بعدكم قومًا يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يفون، ويظهرون فيهم

(١) تفسير روح المعاني.

(٢) تفسير ابن كثير.

١٣٢ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

السَّمَن»^(١)، يعني: لا يُفَرِّقُونَ فِي جَمْعِ الْمَالِ وَالثَّرْوَةِ بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَلَكِنْ إِذَا كَانَ هُنَاكَ أَحَدٌ بَدَيْنَا بِطَبِيعَةٍ خَلَقَهُ فَذَلِكَ لَيْسَ مَذْمُومًا.

وَيُعْلَمُ مِنْهُ أَنَّ الصَّحَابَةَ الْكَرَامَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هُمْ أَوْلَثُكَ السُّعْدَاءُ الَّذِينَ تَضُمُّهُمْ مَجْمُوعَةُ السَّابِقِينَ، وَالْيَوْمَ إِنْ أَسَاءَ أَحَدٌ إِلَى جَنَابِهِمْ فَعَلِيهِ إِذَا أَنْ يُعِيدَ النَّظَرَ فِي إِيْمَانِهِ.

فضائل الصحابة الكرام رضي الله عنهم

- يَقُولُ سَيِّدُنَا جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا تَمَسُّ النَّارُ مُسْلِمًا رَأَى أَوْ رَأَى مَنْ رَأَى»^(٢).

- يَقُولُ سَيِّدُنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَسُبُّونَ أَصْحَابِي فَقُولُوا: لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى شُرَكَائِهِمْ»^(٣).

- يَقُولُ سَيِّدُنَا أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدُّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»^(٤).

- يَرَوِي سَيِّدُنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ وَالِدِهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِي يَمُوتُ بِأَرْضٍ إِلَّا بُعِثَ قَائِدًا وَنُورًا لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٥).

- يَقُولُ سَيِّدُنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُغْفَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اللَّهُ اللَّهُ

(١) البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب ١ برقم ٣٦٥٠.

(٢) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٥٦ برقم ٣٨٥٨.

(٣) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٥٩ برقم ٣٨٦٦.

(٤) البخاري، فضائل الأصحاب، باب ٥ برقم ٣٦٧٣.

(٥) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٥٨ برقم ٣٨٦٥.

في أصحابي، الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرَضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه»^(١).

- يقول سيّدنا الحُسين بنُ عليّ رضي الله عنهما: إنّ النبي ﷺ قال: «الإسلامُ غُريَانٌ، فلباسُه الحياءُ، وزينتهُ الوفاء، ومُروءتهُ العملُ الصّالحُ، وعِمادُه الوَرعُ؛ ولكلُّ شيءٍ أساسٌ، وأساسُ الإسلامِ حُبُّ أصحابِ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، وحُبُّ أهلِ بيته»^(٢).

- يقول سيّدنا عبدُ الله بنُ عمرَ رضي الله عنهما: إنّ النبي ﷺ قال: «... وإنّ بني إسرائيلَ تفرّقت على ثنتينِ وسبعينَ مِلَّةً، وتفرّقُ أُمّتي على ثلاثٍ وسبعينَ مِلَّةً، كلّهم في النارِ إلّا مِلَّةً واحدةً»، قالوا: ومن هي يا رسولَ الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»^(٣).

- يقول العلامةُ القُرطبيُّ «عن (المحدّث المشهور) عُمَرُ بنِ حَبِيبٍ، قال: حضَرتُ مجلسَ هارونَ الرّشيد، فجَرتُ مسألةً تنازَعها الحضورُ وعَلّت أصواتُهم، فاحتجَّ بعضهم بحديثٍ يرويه أبو هريرةَ عن رسولِ الله ﷺ، فدفعَ بعضهم الحديثَ، وزادتِ المدافعةُ والخِصامُ، حتّى قال قائلونَ منهم: لا يُقبَلُ هذا الحديثُ على رسولِ الله ﷺ؛ لأنّ أبا هريرةَ متهمٌ فيما يرويه، وصَرَّحوا بتكذيبه، ورأيتُ الرّشيدَ قد نَحَّانَحوهم ونَصَرَ قولَهم، فقلتُ أنا: الحديثُ صحيحٌ عن رسولِ الله ﷺ، وأبو هريرةَ صحيحُ الثَّقَلِ صدوقٌ فيما يرويه عن النبي ﷺ وغيره، فنظَر إليّ الرّشيدُ نظرَ مُغَضَبٍ، وقُمْتُ من المجلسِ فانصرفتُ إلى منزلي، فلم أَلْبَثُ حتّى قيل: صاحبُ

(١) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٥٨ برقم ٣٨٦٢.

(٢) كنز العمال، ١١: ٥٣٩ برقم ٣٢٥٢٣.

(٣) الترمذي، أبواب الإيمان، باب ١٨ برقم ٢٦٤١.

البريد بالبواب، فدخل فقال لي: أجب أمير المؤمنين إجابة مقتول، وتحنط وتكفن! فقلت: اللهم إنك تعلم أنني دفعت عن صاحب نبيك، وأجللت نبيك أن يطعن على أصحابه، فسلمني منه. فأدخلت على الرشيد وهو جالس على كرسي من ذهب، حاسر عن ذراعيه، بيده السيف وبين يديه النطع، فلما بصر بي قال لي: يا عمر بن حبيب، ما تلقاني [أحد] [من الرد والدفع] لقولي بمثل [ما تلقيتني به، فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الذي قُلتَه وجادلت عنه فيه ازدرأ على رسول الله ﷺ] وعلى ما جاء به [إذا كان أصحابه كذابين فالشريعة باطلة، والفرائض والأحكام في الصيام والصلاة والطلاق والنكاح والحدود كله مردود غير مقبول، فرجع إلى نفسه ثم قال: أحيتني يا عمر بن حبيب أحياء الله! وأمر لي بعشرة آلاف درهم^(١)].

- يروي عويم بن ساعدة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل اختارني، واختار لي أصحابي، فجعل لي منهم وزراء وأختاناً وأصهاراً، فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ولا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً»^(٢).

- يقول العلامة القرطبي: «فالصحابة كلهم عدول، أولياء الله تعالى وأصفياءه، وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله. هذا مذهب أهل السنة»^(٣).

﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَيْهَا مُتَقَنِّيلِينَ﴾

٧ - سيجلسون متكبين على سرر من ذهب ولؤلؤ، متقابلين متواجهين، بينما يطوف حولهم الفتيان الصغار لخدمتهم، وهؤلاء الخدم سيقنون فتیاناً يافعين، ولن يشيبوا أبداً.

(١) تفسير القرطبي، سورة الفتح (٤٨): الآية ٢٩.

(٢) المرجع السابق، سورة الفتح (٤٨): الآية ٢٩.

(٣) تفسير القرطبي، سورة الفتح (٤٨): الآية ٢٩.

﴿يَا كُؤَابَ وَأَبَارِيقَ وَكَاسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾

٨ - هؤلاء الخدمُ اليافعون من الفتيان والمأمورون بخدمة أهل الجنة، سيُقدَّمونَ لهم كؤوس الخمر الطهور المليئة، هذه الخمر الطهور لن يؤدي شربها إلى صداع في الرأس، ولا يذهب العقل بتناولها.

﴿وَفَكَهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾

٩ - وسيُقدَّم هؤلاء الخدمُ إلى أهل الجنة ما يُحبُّونَ من الفاكهة، وإذا أراد أهل الجنة تتدلى الفاكهة بنفسها قريباً منهم، مثلما يقول سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «تدنو الشجرة حتى يجتنىها وليُّ الله إن شاء قائماً وإن شاء قاعداً وإن شاء مضطجعا، لا يردُّ يده بعد ولا شك»^(١).

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾

١٠ - وسيُقدَّم هؤلاء الخدمُ لأهل الجنة لحم الطيور، وإذا أراد أهل الجنة يأتي الطير بنفسه مشوياً أمامهم، مثلما يقول العلامة إسماعيل حقي: «وفي الخبر: إنك لتشتهي الطير في الجنة فيخرب بين يديك مشوياً»^(٢).

﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾

١١ - سيُعطى أهل الجنة الحور العين ذوات العيون الواسعة، واللائى يتسمنَ بجمال وصفاء ونقاء كاللالئ التي حُفظت بعيداً عن التراب والغبار.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾

١٢ - بيئَةُ الجنة وجوها رائع، ومجمَعُها آمنٌ غاية الأمن، فلا كلامٌ تافهٌ لا

(١) تفسير القرطبي، سورة الرحمن (٥٥): الآية ٥٤.

(٢) تفسير روح البيان، سورة الطور (٥٢): الآية ٢٢.

١٣٦ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

طائل من ورائه، ولا يعصي الله أحدٌ هناك أبداً، وإنما يتناهى إلى السَّمْع صوتٌ تبادُلِ
السَّلام والتَّحِيَّة في كلِّ جانب، بمعنى: أنهم يسلِّم بعضهم على بعضٍ حين يلتقون،
وحين تأتي الملائكةُ يُسلِّمونَ هم أيضاً على أهل الجنة.

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾

١٣ - جاء في الآيات السابقة ذكرُ السابقين، يعني: المقربين بشكلٍ خاصٍّ،
والآن جاء ذكرُ أصحابِ اليمين، يعني: عامة المؤمنين، والجنة التي سيدخلونها
سيكون فيها أيضاً أشجارُ الثَّوْت ذاتِ الثَّمارِ اللَّذِيذَةِ التي لا شوكَ فيها، وسِباطُ
الموزِ تتدلى من أشجارها، وفيها أيضاً أشجارٌ جميلةٌ سامقةٌ ذاتُ ظلالٍ وارفَةٍ، والماءُ
يجري فيها أيضاً، وسيكون فيها وَفْرَةٌ من الفواكه، فاكهةُ المواسم كلها، ولا عائقُ
يُعيقُ أهلَ الجنة من الحِصُولِ عليها، في بعض الأحيان تكون الأشجارُ مرتفعةً، أو
يكون فيها شوكٌ يُعيقُ الإنسانَ عن الحِصُولِ على الثَّمارِ، أمَّا أشجارُ الجنة فلا شوكَ
فيها، وكلِّما أراد أهلُ الجنة تناولَ الثَّمارِ تدلَّت أمامهم ليسهلَ عليه تناولها.

﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنشَاءً﴾

١٤ - أصحابُ اليمين، يعني: عامة المؤمنين، سيكونونَ على فُرْشٍ مرتفعة،
وقد خلق الله تعالى لهم الحُورَ العَذَارَى في مثل أعمارهم، ومُحَبَّاتٍ لهم.

ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ
وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾
وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى اللَّغْثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِهْنَا
لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَّابًا أَوَّابًا أَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّا الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ

مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّا كُنَّا آتِيَهَا الصَّاَلُونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَا كُفُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُقْمٍ ﴿٥٢﴾ فَأَثَرُونَ مِنْهَا
الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَرِبُوا شَرِبَ الْهَيْمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا نَزَّلْنَاهُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ
خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تَصَدَّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ
قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن تُبَدَّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾
وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ
الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ ﴿٦٧﴾
أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ
أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ
الْمُنْشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَفِتْنًا لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾

١٥ - في هذه الآيات ذكّر لجماعتين من أصحاب اليمين، يعني: أن عدد السابقين من المؤمنين في العهد الأول لهذه الأمة سيكون كبيراً، ورغم أن عدد السابقين منهم في العهود التالية سيكون أقلّ قياساً بما سبق، لكنّ عدد عامة المؤمنين سيكون كبيراً، مثلما يقول سيّدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، عن هذه الآيات، بأنّ النبي ﷺ قال: «هم جميعاً من أمتي»^(١). ويقول العلامة الخازن: «قلت: الآية الأولى في السابقين الأولين، وقليل ممّن يلحق بهم من الآخرين (لأنّهم في الفترة الأولى كثيرون، وقليلون فيما بعد)، وهذه الآية في أصحاب اليمين (السابقين وعامة المؤمنين) وهم كثيرون من الأولين والآخرين»^(٢).

(١) تفسير القرطبي، سورة الواقعة (٥٦): الآية ٣٩.

(٢) تفسير الخازن، سورة الواقعة (٥٦): الآية ٣٩.

سيكون عدد الأمة المحمدية هو الأكبر

- يقول سيّدنا بُرَيْدَةُ رضي الله عنه: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «أهل الجنة عشرون ومائةُ صَفٍّ، ثمانونَ منها من هذه الأُمَّة، وأربعونَ من سائرِ الأُمم»^(١).

- رُوِيَ عن سيّدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُممُ، فرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ والنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ والرَّجُلَانِ والنَّبِيُّ ليس معه أَحَدٌ، إذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هذا موسى ﷺ وقومه، وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الأفُقِ. فَتَنَظَرْتُ فإذا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ إِلَى الأفُقِ الآخَرِ، فإذا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هذه أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الجنةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ»^(٢).

- يقول سيّدنا ثَوْبَانُ رضي الله عنه: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ»^(٣).

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مِمَّا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾

١٦ - المرادُ بِأَصْحَابِ الشِّمَالِ: أولئك الذين يتناولون صُحُفَ أَعْمَالِهِمْ بأيديهم الشِّمَالِ، وسوف تَسَحِّبُهُم الملائكةُ وتُلْقِي بهم في جهنّم، حيث سَيَحْرِقُ الهَوَاءُ الساخنُ فيها أجسادَهُمْ، وتُمَزِّقُ المِياهُ الساخنةُ أَمْعَاءَهُمْ، وحين يَرَوْنَ هذا العذابَ يسارعونَ إلى ظِلٍّ، ولكنَّ حينَ يَصِلُونَ إلى هذا الظِّلِّ يكتشفونَ أَنَّهُ ليس ظِلًّا، وإنّما الدُّخَانُ الأسودُ الكثيفُ المتصاعِدُ من جهنّم، وليس فيه راحةٌ أو برودة، وإنّما عذابٌ ما بعده عذابٌ.

(١) الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب رقم ١٣ برقم ٢٥٤٦.

(٢) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٩٤ برقم ٣٧٤.

(٣) مسلم، كتاب الإمارة، باب ٥٣ برقم ٤٩٥٠.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾

١٧ - في هذه الآيات بيان لبعض الأسباب في عذاب جهنم، يعني: أن الله تعالى أنعم عليهم في الدنيا بحياة مُترَفَةٍ، لكنهم لم يُقدِّروا نعمة الله حقَّ قدرها وجحدوها، وعَصَوْا الله تعالى مغترِّين بأموالهم وثرواتهم، وارتكبوا كبائر الذنوب مثل الكفر والشرك.

﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾

١٨ - كانوا يسخرون من الإسلام قائلين: كيف يمكن أصلاً أن يتم إحيائنا وإحياء آبائنا بعد أن متنا وصيرنا تراباً؟

﴿قُلِ إِنْ أَلَّوَيْنَ وَالْآخِرِينَ﴾

١٩ - يا أيها النبي الحبيب ﷺ، قل لهم: إن الساعة ستقوم في الوقت المحدد لها يقيناً، وفيها سيجمع الأولون والآخرون للحساب.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ لَمُكْذِبُونَ﴾

٢٠ - في هذه الآيات تنبيه للضالين منكري التوحيد بأنكم إن لم ترجعوا عن ضلالكم فسوف تملأون بطونكم في جهنم من شجرة الزقوم، وسوف تشربون الماء الساخن كالجمال الظامئة، وسيكون هذا ما يُقدَّم لكم هناك دائماً.

ما شجرة الزقوم؟

شجرة من أشجار جهنم اسمها «الزقوم»، وهي شجرة ذات أشواك، طعمها شديد المرارة، وتصدر عنها رائحة مُنتنة، وهذه الشجرة هي طعام أهل النار في جهنم، وحين يطعمون منها، ستغلي في بطونهم وتنصهر مثلما يغلي الماء وينصهر النحاس.

يقول سيّدنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «لو أنّ قطرةً من الرُّقُومِ قَطَرَتْ في دارِ الدُّنيا لَأَفْسَدَتْ على أهلِ الدُّنيا معاشَهم، فكيف بمن يكونُ طعامه؟»^(١).

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾

٢١ - في الآياتِ التالية جاء بيانٌ للدلائل على التوحيدِ والآخرة بأسلوبٍ بسيطٍ سهلِ الفُهم، يعني: إنكم تَعْلَمُونَ أنّنا خَلَقْنَا أبابكم سيّدنا آدمَ عليه السّلام من طين، فإذا كنّا قد خَلَقْنَا أولَ إنسانٍ من طين، فهل يَصْعَبُ علينا إحياءه من جديدٍ بعدَ موته؟ ثم لماذا لا تتدبّرونَ تجربةَ الخلقِ الأولِ وتُصدّقونَ بالخلقِ ثانية؟

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾

٢٢ - ألم تتفكّروا أبداً كيف يُخلَقُ الطُّفْلُ في بطنِ أمّه، مع أنّ كلّ ما تفعلونه أنتم هو أنكم تَضَعُونَ نُطْفَكم في أرحامِ زوجاتِكم، ثم لا تَعْلَمُونَ بعدها هل سيَحْدُثُ الحَمْلُ من هذه النُّطْفِ أم لا؟ وإذا حَدَثَ الحَمْلُ، فَمَنْ يا تُرى يَخْلُقُ من قطرةِ الماءِ هذه أعضاءً لا تُقَدَّرُ بثمنٍ مثَل: الدّم واللّحم والعظام والقلب والدماغ والعين والأذن، وهي التي يتكوّن من مجموع امتزاجها الرائع هذا الإنسانُ الذي يَحْكُمُ كلّ شيءٍ على وجهِ الأرض الآن. هل أنتم الذين أودعتم في قطرةِ الماءِ هذه كلّ هذه الميزات، أم أنها ظَهَرَت هكذا من نفسها؟ بالقطع لا، فلا يمكنُ أن يُخلَقَ هذا الإنسانُ المتحرّكُ بنفسه هكذا من قطرةِ ماءٍ لا رُوحَ فيها، إنه الله تعالى الذي خَلَقَ الإنسانَ وصوَّره في أحسنِ صورة، وهو الذي سيُحييه من جديدٍ بعدَ موته.

﴿نَحْنُ قَدْ زَانَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾

٢٣ - لقد حددنا نحن بحكمتنا وقتاً معيناً لموتكم، فمنكم من يموت في طفولته، ومنكم من يموت في شبابه، ومنكم من يموت في شيخوخته، ولا يمكن أن يُعجزنا أحدٌ فيفتر من الموت مثلاً، أو يُغيّر في وقته، كما أنني أنا القادر المطلق، وحين نشاء نفنيكم، ونأتي بقوم غيركم من مثلكم، وإذا أردنا بدّلنا بعد الموت صوركم، مثلما سيكون وجه المؤمن يوم القيامة أبيض، ووجه المنكر أسود، ولا يعلم أحد الآن كيف سيكون وجهه.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾

٢٤ - إنكم تعلمون - جيّداً - أنّ الله تعالى هو الذي خلقكم لأول مرة، فلماذا لا تتفكرون في الأمر، بأنّ الذي خلقكم لأول مرة يمكن أن يخلقكم من جديد، مع أنّ الخلق للمرة الثانية يكون أيسر من الخلق للمرة الأولى.

﴿إِنَّمَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ النَّارِ إِذَا نَزَّ بِهَا نَارٌ وَنَارٌ تَلْفَحُهَا فَتَرِزُّهَا رَبِّهَا إِذْ تَرَىٰ أَصْحَابَهَا يَرْزُقُونَ أَرْوَاحَهُمْ وَإِنَّمَا فِي السَّمَاءِ الْمَاءُ يُسْقَىٰ بِهِ الْبَرُّ وَالْإِنسَانُ إِذْ يَبْعَثُ رَبُّهُ نِجْمَاتٍ سَوَاءٌ لِّمَن لَّا يَرْزُقْهُ مِمَّا يَحْمِلُهُ غُلَامٌ أَسَدٌ أَلَيْسَ لِّلْمُتَدَبِّرِينَ عِلْمٌ﴾

٢٥ - هل تفكرتم أبداً أنّ البذرة التي تبذرونها من الذي يُنبئها من الأرض؟ وكيف تشق حبة لا روح فيها الأرض وتخرج منها، وتصبح نبتة خضراء يانعة؟ فالله تعالى مثلاً يجعل من الحبة الجافة التي لا روح فيها، المدفونة في الأرض، نبتة خضراء يانعة ويخرجها من الأرض، كذلك يُحيي الإنسان المدفون في الأرض بعد موته.

﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾

٢٦ - وحين يقترب نضج المحصول يمكننا أن نجعله جافاً وحطاماً إذا أردنا،

وعندها تقولون: لقد أهْلِكْنَا، وضاعَتْ جهودُنا هباءً، وأصبحت هذه الجهودُ كأنَّها مَغْرَمٌ لنا وعذابٌ، فقد خَسِرْنَا الحبوبَ، ولم نحْصُلْ على شيءٍ عَوْضًا عن جهْدِنا.

﴿أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾

٢٧ - حين يَنْزِلُ المطرُ تَصُبُّ بعضُ مياهه في الأنهار، ولكنَّ الجُزءَ الأكبرَ منها يتسرَّبُ إلى الأرض، ويتجمَّع تحتها في شكلِ ثُرُواتٍ مائيةٍ، ثم إنَّنا نُخْرِجُ هذا الماءَ لكم عن طريقِ الآبارِ وغيرها من الطُّرُق، وباختصار: فإنَّ أصلَ كلِّ ماءٍ عَذْبٍ هو المطرُ، فهل تفكَّرْتُمْ أبدًا مَنْ يُنْزِلُ هذا الماءَ العَذْبَ؟ واضحٌ أنكم لستُمْ أنتم الذين أنزلْتُمُوهُ، وإنما الله تعالى هو مُنْزِلُهُ، ولو لم يَنْزِلْ هذا الماءَ العَذْبُ لحاقت الأخطارُ بحياتِكم، فهل من العقلِ في شيءٍ إنكارُ مثلِ هذا الربِّ الرَّحيمِ وكُفْرانُهُ؟

﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾

٢٨ - ماءُ البحارِ مالحٌ، ولكن حين يَرْفَعُ الله تعالى هذه المياهَ من البحارِ عن طريقِ البَحْرِ وَيَجْعَلُ منها سُحْبًا، تتركُ هذه المياهُ ملوحتها وراءها في البحر، وتُنْزِلُ عليكم مياهًا عَذْبَةً حُلُوةَ المذاق، ولو أنَّ الله أنزلها لكم مالحةً مرَّةً، لأصبحت الأرضُ كُلُّها سَبِيخَةً، وأصبح من الصَّعْبِ عليكم مواصلةُ الحياة، فلماذا لا تَوْدُّونَ شُكْرَ الله تعالى على هذه النِّعمِ كُلِّها؟

﴿أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾

٢٩ - النارُ والأشكالُ المتطوِّرةُ عنها، يعني: الكهرباء والغاز، لها أهميةٌ كبرى في تلبيةِ احتياجاتِ الإنسانِ الضَّروريةِ، فهل فكَّرْتُمْ أبدًا مَنْ ذاك الذي خَلَقَ لكم الأشجارَ التي تكونُ وسيلةً لإشعالِ النارِ؟ ولو لم يَخْلُقِ الله تعالى هذه الأشجارَ، لَوَاجَهْتُمْ مشاكلَ جَمَّةٍ في حياتِكم، فكيف تُنكرون قُدرةَ الله ورحمته؟

﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾

٣٠- حين يَمُرُّ المسافرونَ مشيًا على الأقدام من الغابات، يحتاجونَ إلى النارِ لِيَطْهَوْا عليها طعامهم عندَ الليل، وليستدِفُوا بها في فَضْلِ الشتاء، كما أنَّ في حرارةِ النارِ نصيحةً وعبرةً أيضًا، بأنَّ جسمَ الإنسانِ يحترقُ إذا وَقَعَ في نارِ الدُّنيا، فينبغي للإنسانِ أن يخافَ من نيرانِ الآخرةِ ويَحذَرُها، فهي أقوى وأشدُّ من نارِ الدُّنيا.

يقولُ سيِّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: «نارُكم هذه التي يوقِدُ ابنُ آدمَ جُزءً من سبعينَ جزءًا من حرِّ جهنَّمَ». قالوا: واللهِ إنَّ كانتَ لكافيةً يا رسولَ الله. قال: «فإنَّها فَضِّلَتْ عليها بتسعةٍ وستينَ جُزءًا كُلُّها مثلُ حرِّها»^(١).

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾

٣١- يصبحُ من الواجبِ على الإنسانِ أن يؤدِّيَ حقَّ شكرِ نِعَمِ الله تعالى التي لا حَصَرَ لها، وأن يُسَبِّحَ بحمده، وأن لا يُشركَ معه أحدًا.

يقولُ سيِّدنا عُقبَةُ بنُ عامر رضي الله عنه: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قال رسولُ الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعِكم». فَلَمَّا نَزَلَتْ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ سَبَّحَ اسمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى قال: «اجعلوها في سجودِكم»^(٢).

فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْقِعِ الْجُورِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَفَسَّمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نُّظَرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ

(١) مسلم، كتاب الجنة، باب ١٢ برقم ٧١٦٥.

(٢) أبو داود، كتاب الصلاة، باب ١٤٦ برقم ٨٦٩.

مَدِينٍ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَنَصْلَةٌ حَمِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾

٣٢ - أقسم الله تعالى بمواقع النجوم تأكيداً على أن القرآن المجيد ليس كلاماً عادياً، وإنما هو كلامٌ معزَّزٌ ومكرَّمٌ، ولا يمكن لأحدٍ التبدُّل فيه؛ لأنه مسطورٌ في اللوح المحفوظ من قبل.

﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾

٣٣ - يقول سيّد محمود الألوسي: «والمراد بالمُطَهَّرُونَ: الْمُطَهَّرُونَ عن الحَدَثِ الأصغر (يعني: بغير وضوء)، والحَدَثِ الأكبر (يعني: الجَنَابَةِ والحَيْضِ والنَّفَاسِ) بِحَمْلِ الطَّهَارَةِ عَلَى الشَّرْعِيَّةِ، والمعنى: لا ينبغي أن يَمَسَّ القرآنَ إِلَّا من هو على طهارةٍ من الناس»^(١).

وهناك مسألةٌ فقهيةٌ، وهي: أَنَّ المرأةَ الْجُنُبَ والحائِضَ والنَّفَسَاءَ لا يجوزُ لها أن تَمَسَّ القرآنَ الكريمَ ولا أن تقرأه، بينما تجوزُ قراءةُ القرآنِ بغيرِ وضوءٍ، ولكن دونَ أن يَمَسَّهُ غيرُ المتوضِّئِ، إلا أنه يجوزُ له أن يَضَعَ يدهُ على غلافِ المصحفِ.

﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾

٣٤ - في هذه الآيةِ تنبيهٌ لكفارِ مَكَّةَ بأنَّ اللهَ تعالى ربَّ العالمين قد أنزلَ هذا القرآنَ المجيدَ لهدايةِ بني الإنسانِ جميعاً، وبالتالي كان ينبغي لكم أن تحصلوا منه

على الهداية، ولكنّ تعاسّتكم لا حدّ لها، إذ لا تهتمُّون بالقرآن الكريم، وتجعلون تكذيبه نصب أعينكم وهدفكم الأكبر.

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾

٣٥ - المال والثروة والقوّة والقبيلة التي انتشيتُم بها واغتررْتُم، وبالتالي لم تهتمُّوا بالقرآن المجيد، كلُّ هذه القوّة الدنيويّة لن تستطيع أن تُنقذكم من أخذِ الله تعالى لكم، ويُمكنكم أن تُجربوا هذا الأمر، بأنه عندما يقتربُ عزيزٌ عليكم من الموت، وتبلغُ رُوحه حُلُقومه، وأنتم تجلسون حوله تنظرون رُوحه التي تفارقه، لكن لا طاقة لأحد منكم على أن يُعيد رُوحه هذه إلى جسده مرةً أخرى، وكما أنكم لا تستطيعون إعادة الرُوح إلى الميت، فإنكم كذلك لا تستطيعون منعُ الله تعالى من إعادة أرواحكم إلى أجسادكم الميّتة يوم القيامة، وحين يُعاقبكم بسبب تكذيبكم للقرآن المجيد، فلن تستطيعوا الإفلات منه أبداً.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصُرُونَ﴾

٣٦ - نحن نعلمُ أحوالَ هذا الذي يموت أكثر منكم أنتم الذين تجلسون بجانبه، وملائكتنا يكونون أقرب إليه منكم، لكنكم لا تستطيعون رؤيتهم.

﴿تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

٣٧ - لو كنتم صادقين فيما تدعون بأنه لا مالكَ لكم، وأنه لا وجود لما يُسمّى يوم القيامة الذي تحاسبون فيه على أعمالكم، فلماذا لا تُعيدون الرُوح إلى هذا الذي يموت، حتى لا يموت من جانب، وحتى لا يحيا من جديد لحسابه من جانبٍ آخر؟ ولكنكم لا تستطيعون فعل ذلك، وسوف تموتون جميعاً في يوم من الأيام، والذي يُميتكم هو نفسه الذي سيُحييكم يوم القيامة.

﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾

٣٨ - أقسامُ الناسِ الثلاثة الذين جاء بيانهم في بداية السُّورة، جاءتِ الإشارةُ إليهم ثانيةً في آخر السُّورة، يعني: أنَّ السابقين من الموتى والمقربين منهم بشكلٍ خاصٍّ سيكونونَ في جنَّة ذاتِ نِعَمٍ وراحةٍ وروائحٍ طيبة.

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾

٣٩ - أمَّا أصحابُ اليمينِ من الموتى، يعني: الذين ستكونُ صحائفُ أعمالهم في أيديهم اليمنى، سيُشَرَّونَ بأنكم قد جئتم في دارِ السَّلام، حيث لن يلحقَ بكم تعبٌ ولا نصبٌ أو قلق.

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الضَّالِّينَ﴾

٤٠ - وأمَّا الضَّالُّونَ والمكذَّبونَ بالحقِّ من الموتى فسيدخلونَ نارَ جهنَّم، حيث يُسَقَّونَ من الماءِ المَغلي، وكلُّ ما يجري بيانه هنا حقٌّ قَطْعِيٌّ، ولا مجالَ لأيِّ شكٍّ فيه.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾

٤١ - المرادُ بالتسبيح: بيانُ عَظَمَةِ الله تعالى وتنزُّهه، يعني: أنه منزَّهٌ عن كلِّ عيبٍ ونقصٍ، لكنَّ الحُكمَ هنا هو أن نُبَيِّنَ قُدْسِيَّةَ اسمِ الله تعالى، ويُعلَمُ منه أنه كما أنَّ الله تعالى منزَّهٌ عن كلِّ نقصٍ وعيبٍ، كذلكُ أَسْمَاؤُهُ الحُسنى منزَّهَةٌ عن كلِّ عيبٍ ونقصٍ أيضًا، ولهذا علينا أن نذكُرَ اسمَ الله تعالى بكلِّ إجلالٍ وتكريمٍ، ولا ينبغي أن نذكُرَ اسمَ الله تعالى في مكانٍ لا يليقُ بعَظَمَتِهِ سبحانه.

اسمُ الله تعالى مباركٌ، ولهذا فإنَّ تعاليمَ الإسلام هي أن يبدأَ المسلمُ كلَّ عملٍ جائزٍ باسمِ الله تعالى، حتى تحلَّ البركةُ في هذا العمل.

التدخين

سأل أحدهم شيخاً: ما حُكْمُ الإسلام في تدخين السجائر؟ فقال الشيخ: هل سَمِعْتَ أَحَدًا يَذْكُرُ اسمَ الله تعالى قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ بِتَدخينِ السَّجائر؟ فقال السائل: لا. فقال الشيخ: أنا لستُ عالمًا، لكنَّ مَنْ الواضح أنَّ التدخينَ ليسَ عملاً مباركًا، وإلَّا ذَكَرَ المدخِّنُ اسمَ الله قَبْلَ أَنْ يُشْعَلَ سيجارته.

وبعدُ، فإنَّ هذا العبدَ الفقيرَ يَخْتَمُ تفسیرهَ لِسُورَةِ «الواقعة» فيما يتعلَّقُ بالتسبيح، بالحديثِ الشَّريفِ الذي اختَمَ به الإمامُ البخاريُّ «صحيحه»:

يقولُ سيِّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»^(١).

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمداد حُسَيْن بيززاده،
جامعة الكرم، إنجلترا
بعد ضحى يوم الأحد ١٢ سبتمبر ٢٠١٠ م
الموافق ٣ شوال ١٤٣١ هـ.

هذا وقد اكتمَل بفضل الله تعالى وكرمه تفسيرُ سورة «الواقعة» في ستَّة أيام فقط، أي: من ٦ إلى ١٢ سبتمبر، والحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على سيِّد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٧) سُورَةُ الْحَدِيدِ

هذه السُّورَةُ مَدَنِيَّةٌ، واسمُها «الحديد»، وهو مأخوذٌ من الآية رقم ٢٥ منها.

مضامين السورة

- في بداية هذه السُّورَةِ جاء الحديثُ عن عَظَمَةِ اللَّهِ تعالى وقُدْرَتِهِ وَسَعَةِ عِلْمِهِ، يعني: أنه خالقُ السَّماءِ والأَرْضِ ومالكُهما، وَيَعْلَمُ تَمَامَ الْعِلْمِ كُلَّ شَيْءٍ فِي السَّماءِ والأَرْضِ، وهو - وحده - الذي يستحقُّ العبادَةَ، ولهذا أيُّها النَّاسُ، آمِنُوا بِاللَّهِ تعالى ورسوله الكريم ﷺ، فقد أنزلَ اللهُ تعالى القرآنَ المجيدَ على سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ حتى يُخْرِجَكُم من ظُلُمَاتِ الضَّلَالِ إلى نُورِ الْهُدَايَةِ.

- نَزَلَتْ هذه السُّورَةُ في الْفَتْرَةِ التي وَقَفَتْ فِيهَا الْقَبَائِلُ الْعَرَبِيَّةُ كُلُّهَا أَيْضًا - وليس أهلُ مَكَّةَ فقط - ضِدًّا لِلْمُسْلِمِينَ، ولمواجهة هؤلاءِ جاء هنا ترغيبٌ لِلْمُسْلِمِينَ بأنْ يُنْفِقُوا من أموالهم في سَبِيلِ اللَّهِ تعالى، وفي نفسِ الْوَقْتِ جاء الْإِخْبَارُ بأنَّ الْمَالِكَ الْحَقِيقِيَّ لهذه الْأَمْوَالِ هو اللَّهُ تعالى، ولو شاءَ سَلَبَكُمْ هذه الْأَمْوَالِ وَأَنْعَمَ بِهَا على غيرِكُمْ، ولا يُعْطِيكُمْ أَجْرًا عَلَيْهَا، ولكنْ إِنْ أَنْفَقْتُمْ بِرِضَاكُمْ في سَبِيلِ اللَّهِ تعالى فَإِنَّ إِنْفَاقَكُمْ هذا سَيَكُونُ بِمِثَابَةِ قَرْضٍ تُقْرِضُونَهُ اللَّهَ، وسوف يُعْطِيكُمْ على ذلك أَجْرًا كبيرًا وثوابًا عظيمًا، وحين تُبْعَثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَيَكُونُ من أَمَامِكُمْ نُورٌ وعن أَيْمَانِكُمْ نُورٌ بسببِ هذا الْإِثَارِ الذي أَبْدَيْتُمُوهُ، وَسُتُبَشَّرُونَ بِالْجَنَّةِ.

- في السُّورَةِ تَنْبِيْهُ لِّلْمُنَافِقِيْنَ بِأَنَّهُمْ سَيَكُونُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَائِهِيْنَ فِي ظُلُمَاتٍ نَّفَاقِهِمْ، وَسَيَرْجُونَ أَهْلَ الْإِيْمَانِ قَائِلِينَ: لَقَدْ كُنَّا مَعَكُمْ فِي الدُّنْيَا، فَسَاعِدُونَا الْيَوْمَ، وَتَكْرَّمُوا عَلَيْنَا بِبَعْضِ مِّنْ نُورِكُمْ. وَسَيَأْتِيَهُمُ الْجَوَابُ: إِنَّكُمْ لَمْ تَكُونُوا مُسْلِمِينَ مِنْ قُلُوبِكُمْ، وَقَدْ خَدَعْتَكُمْ أَنْفُسُكُمْ وَشِيَاطِينُكُمْ، وَلِهَذَا لَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يُمَدِّدَ لَكُمْ الْيَوْمَ يَدَ الْعَوْنِ، وَمَصِيرُكُمْ جَهَنَّمَ.

- فِي السُّورَةِ تَذَكِيرٌ لِأَهْلِ الْإِيْمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَتَرْغِيبٌ لَهُمْ فِي الْعَمَلِ بِأَحْكَامِهِ، يَعْنِي: لَا تَكُونُوا مِثْلَ الْأُمَمِ الَّتِي سَبَقَتْكُمْ، وَالَّذِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِمُ الْكِتَابُ، وَلَكِنْ قُلُوبُهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ أَصْبَحَتْ قَاسِيَةً مِثْلَ الْحَجَرِ، وَأَعْرَضُوا عَنِ الْكِتَابِ السَّمَاوِيَّةِ.

- جَاءَ فِي السُّورَةِ أَيْضًا أَنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا لَهْوٌ وَلَعِبٌ، وَمَا هِيَ إِلَّا زِينَةٌ وَمَتَاعٌ خَادِعٌ، وَلَئِنْ ضَلَلْتُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا فَسَتُوجَاهُونَ فِي الْآخِرَةِ عَذَابًا أَلِيمًا، أَمَّا إِنْ عَمِلْتُمْ عَلَى الْفَوْزِ بِرِضَا اللَّهِ تَعَالَى وَمَغْفِرَتِهِ فَسَتَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ.

- فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْحِكْمَةِ مِنْ وَرَاءِ ابْتِعَاطِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا أَرْسَلَ الرُّسُلَ لِكَيْ يُقِيمُوا الْعَدْلَ وَالْإِنصَافَ بَيْنَ النَّاسِ، وَلَا يَظْلِمُوا مِنْهُمْ أَحَدًا أَوْ يُؤْذَوْهُ.

الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ: مُحَمَّدٌ إِمْدَادُ حُسَيْنٍ بَيْرَزَادِهِ،

جَامِعَةُ الْكَرَمِ، إِنْجَلْتَرَا

بَعْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ مِنْ يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ ١٣ سَبْتَمْبَرِ ٢٠١٠ م

الْمُوَافِقُ ٤ شَوَالِ ١٤٣١ هـ.

سُورَةُ الْحَدِيدِ (٥٧)،

مدنية (٩٤)، آياتها (٢٩)، ركوعاتها (٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ
وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ
الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا
يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾
لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُوَلِّجُ الْبَلَّ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي الْبَلِّ
وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَانْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَسَخِّفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ
ءَامِنُوا مِنْكُمْ ءَانْفِقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِنُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ
وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءِآيَاتٍ يَتْلُو بِهَا الْخُرْجَافَ مِنَ
الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْطَاهُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ
أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُواوَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

١ - كل شيء في الأرض والسماء يُسَبِّحُ الله تعالى، ولكن لأننا لا نعرف

لغاتهم، أو لا نسمعُ أصواتهم، لهذا لا نستطيعُ أن نفهمَ تسييحهم، مثلما قال الله تعالى: ﴿تَسِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

أنعم الله تعالى على سيدنا داودَ عليه السلامَ بصوتٍ جميل ومؤثر، بحيث أنه عندما كان يقرأُ الزبورَ، فإنَّ الطيورَ كانت تَسْكُنُ حيث هي في السماء، وتُسَبِّحُ الله تعالى مع تسييحه، بل إنَّ الجبالَ أيضًا كانت تُسَبِّحُ مع تسييحه، مثلما قال الله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

كما أنَّ بعضَ الملائكة يكونُ معنا ويسبِّحون الله تعالى في كلِّ وقتٍ وحين، ولكننا نَعْجِزُ عن رؤية أشكالهم وسماع كلامهم، ولهذا لا نستطيعُ أن نسمعَ تسييحهم أيضًا، إلا أنَّ الأنبياء الكرامَ عليهم السلام والأولياء الكرامَ يستطيعونَ سماعَ تسييحهم بفضل معجزاتهم وكراماتهم، مثلما وَرَدَ فيما يلي:

- يقولُ سيدنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: «ولقد كنَّا نسمعُ تسييحَ الطَّعام وهو يؤكَلُ»^(١).

- يقولُ سيدنا جابرُ بن سَمُرَةَ رضي الله عنه: إنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إني لأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كان يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ، إني لأَعْرِفُهُ الْآنَ»^(٢).

التسييح بغير لسان

ليس من الضروري أن يكونَ لمن يُسَبِّحُ لسانًا مثلنا، مثلما أنه ليس للتلفزيون

(١) البخاري، كتاب المناقب، باب ٢٥ برقم ٣٥٧٩.

(٢) مسلم، كتاب الفضائل، باب ١ برقم ٢٢٧٧.

والراديو والحاسب الآلي المصنوعة من البلاستيك لساناً مثلنا، ولكن حين نُسْغَلُّها تُسْمِعُنَا أصوات الناس، وهكذا عندما يأمر الله تعالى أيدينا وأرجلنا وأذاننا بأن نتكلم، فإنها - برغم أنها ليس لها لسان مثلنا - ستقول كل شيء رأته أو سمعته، مثلما قال الله تعالى:

- ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

- ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠].

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

٢ - مثلما أن خالق الأرض والسماء هو الله تعالى، فإن الحاكم لهما هو الله تعالى أيضاً، وأمر حياة وموت كل شيء في يده هو؛ لأنه هو القادر على كل شيء.

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

٣ - المراد بالأول: أن الله تعالى هو الأول قبل كل شيء، ولا بداية له.

والمراد بالآخر: أن الله تعالى هو الآخر بعد كل شيء، ولا آخر له.

والمراد بالظاهر: أنه الغالب على كل شيء، وأن الدلائل على قدرته في غاية الوضوح، بحيث أنها - بالفعل - أظهر من الشمس، والمراد بالباطن: أنه يعلم تمام العلم كل ما خفي في الكائنات، ولكنه هو نفسه مخفي بحيث لا تستطيع حواس الإنسان أن تدرك ذاته تعالى.

وأفضل تفسير لهذه الألفاظ هو ما قاله النبي الكريم ﷺ في ثنايا دُعائه فيما يلي:

يقول سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه: إن النبي ﷺ قال (في حضرة الله تعالى): «... اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس (ظاهر) فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر»^(١).

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾

٤ - هنا يتبادر إلى الذهن سؤال: لماذا استغرق الله تعالى ستة أيام في خلق السماوات والأرض؟ في حين أنه هو القادر المطلق، ويُمكنه أن يخلق الكائنات كلها في لحظة واحدة بمجرد قوله: «كُنْ»؟ ثم ما الوقت المراد باليوم؛ لأن الشمس لم تكن قد خلقت بعد، وهي التي يتعين النهار بطلوعها وغروبها؟ وما المراد - كذلك - بتجلي الله تعالى على العرش؛ لأنه منزّه عن المكان. والحقيقة أن الله تعالى - وحده - هو الذي يعلم تمام العلم حقيقة هذه الأمور كلها والحكمة من ورائها، ولا يخلو فعل من أفعاله من الحكمة، ولكن إذا لم نستطع فهم حكمة فعل من أفعاله تعالى، يكون من الفرض علينا أن نؤمن به دون أدنى تردد.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾

٥ - الماء الذي ينزل إلى الأرض، والبذور وغيرها التي تدخل فيها، والنباتات والمعادن وغيرها التي تخرج من الأرض، والمطر الذي ينزل من السماء، وكذا الملائكة وغيرهم، والدعاء الذي يصعد من الأرض إلى أعلى، وكذا الأبخرة وغيرها، كلها يعلمها الله تعالى تمام العلم، ونظام هذه الكائنات يسير برحمته.

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

٦ - يعني: سواء كنتم في ظلام الليل أم في ضوء النهار، وسواء كنتم في غُرفٍ مغلقة أم مجتمعين في ميدانٍ مفتوح فسيح، في كلِّ حال لستم خارج قُدرة الله وعِلمه، وهو يرى تمامًا كلَّ حركةٍ تقومون بها، وقادرٌ تمامًا المقدرة على حسابكم بشكلٍ كامل.

﴿لَهُ، مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾

٧ - الحاكم الحقيقي للأرضِ والسَّمَاءِ هو الله تعالى، ولا يستطيع أيُّ شخصٍ أن يخرج من حكمه وملكوته، وسوف يُرجعُ الجميعُ إليه تعالى في نهاية المطاف، حيث سيُحاسبهم على الأمورِ كُلِّها صغيرها وكبيرها.

﴿يُؤَلِّحُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّحُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

٨ - المرادُ به: التغيُّراتُ الموسميَّة، يعني: أحيانًا يكونُ اللَّيْلُ طويلًا بحيثُ يشمَلُ جزءًا من النَّهار، وأحيانًا يكونُ النَّهارُ طويلًا بحيثُ يشمَلُ جزءًا من اللَّيْلِ، وبهذا يستمتعُ الإنسانُ بالفصولِ والمواسمِ كُلِّها، ولو سادَ الدُّنيا موسمٌ واحدٌ لأصابَ الإنسانَ منه المللُ، ولما كان هناك تنوُّعٌ في المحاصيل الناتجة من الأرض، ولهذا ينبغي لكم أن تشعروا بنعم الله تعالى وتؤمنوا به، فهو يَعْلَمُ تمامًا العلم حركاتكم الظاهرة، والنَّوايا الخفيَّة في صدوركم أيضًا، وسوف يحْكُمُ في حسابكم طبقًا لأعمالكم ونواياكم.

﴿إِذْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا هُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾

٩ - يعني: أنَّ الأموال التي لديكم اليوم، المالك الحقيقي لها هو الله تعالى،

وقد مَنْحَكَمَ حَقَّ التَّصَرُّفِ فِيهَا بِاعْتِبَارِ كَمِ خُلَفَاءَ وَنَوَابًا لَهُ تَعَالَى، لَكِنْ كَمْ هُوَ جَاهِدٌ ذَلِكَ الشَّخْصُ الَّذِي لَا يَنْفَقُ مِثْلَمَا يَقُولُ لَهُ الْمَالِكُ الْحَقِيقِيُّ، كَمَا أَنَّ هَذِهِ الْمَنَازِلَ وَهَذِهِ الْأَرْضَ لَيْسَتْ عِنْدَكُمْ لِلْأَبَدِ، فَقَدْ كَانَتْ عِنْدَ أَسْلَافِكُمْ أَمْسَ، وَانْتَقَلَتْ إِلَيْكُمْ الْيَوْمَ، وَتَسْكُونُ لَوَرَثَتِكُمْ فِي الْغَدِ، وَلِهَذَا إِنْ أَنْفَقْتُمْ هَذَا الْمَالَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي عَهْدِ خِلَافَتِكُمْ وَنِيَابَتِكُمْ فَسَوْفَ يُعْطِيكُمْ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ أَجْرًا عَظِيمًا.

وَيُعَلِّمُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ كُلَّ مَا لَدَى الْإِنْسَانِ لَيْسَ مُلْكًا لَهُ فِي الْوَاقِعِ، وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ: مِنْ عَطَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَنْ رَسَخَ فِي قَلْبِهِ هَذَا الْيَقِينَ يَصْبِحُ مِنَ السَّهْلِ عَلَيْهِ الْإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، أَمَّا مَنْ يَعْتَبِرُ أَنَّ هَذِهِ النِّعَمَ مِنْ جُهْدِ نَفْسِهِ مِثْلَ قَارُونَ، يَصْبِحُ مِنَ الصَّعْبِ عَلَيْهِ الْإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ۖ وَآيَيْنَاهُ مِنَ الْكُتُوبِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ دُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الْأَصْكِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٧٦-٨١].

يقول الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية: «فيه إشارة إلى أنه سيكون مُخَلَّفًا عنك، فلعلَّ وارثك أن يُطِيعَ الله فيه، فيكونَ أَسْعَدَ بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكَ مِنْكَ، أَوْ

يعصِي الله فيه فتكون قد سَعَيْتَ في معاونته على الإثم والعُدوان»^(١).

ويقول العلامة فخر الدين الرازي في تفسير الآية رقم ١٩٦ من سورة الأعراف: إنَّ أمير المؤمنين سيّدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لم يكن يجمع لأولاده مالا، فلمّا سئل عن السبب قال: لو كان أولادي من الصّالحين، وتلا الآية رقم ١٩٦ من سورة الأعراف (٧) ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ تَوَلَّى الصّٰلِحِينَ﴾، يعني: حيثنّ سيكون الله حاميه وناصرهم، ومن كان الله حاميه وناصره فليس في حاجة إلى مالي، أمّا إن كان أولادي - والعياذ بالله - غير ذلك، فإنّي لا أستطيع أن أفيدهم شيئا بمالي، وتلا الآية رقم ١٧ من سورة القصص (٢٨) ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: يا إلهي، مثلما أنعمت عليّ فإنّي لن أكون أبداً مُعيناً لأيّ مجرم مهما كانت علاقته بي^(٢).

فضل التصدق

- يقول سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: إنَّ النبي ﷺ قال: «يقول العبدُ: مالي مالي، إنّما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فاقتنى (للاخرة)، وما سوى ذلك فهو ذاهبٌ وتاركهُ للناس»^(٣).

- يقول سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله،

(١) تفسير ابن كثير، سورة الحديد (٥٧): الآية ٧.

(٢) «وسمعت أنّ عمر بن عبد العزيز ما كان يدّخر لأولاده شيئا، فقليل له فيه، فقال: ولدي إمّا أن يكون من الصّالحين أو من المجرمين، فإن كان من الصّالحين فولّيه الله، ومن كان الله له وليّا فلا حاجة له إلى مالي، وإن كان من المجرمين فقد قال تعالى: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧] ومن ردّه الله لم أشتغل بإصلاح مهمّاته». التفسير الكبير، سورة الأعراف (٧): الآية ١٩٦.

(٣) مسلم، كتاب الزهد، باب ١ برقم ٧٤٢٢.

أَيَّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَاحِبُ شَيْءٍ، تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى، وَلَا تُمَهِّلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا، وَلِفُلَانٍ كَذَا، وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ»^(١).

- تقولُ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً (وَقَسَمُوا لِحُومِهَا بَيْنَ الْمَسَاكِينِ) فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا بَقِيَ مِنْهَا؟». قَالَتْ مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا كَتِفُهَا. قَالَ: «بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا»^(٢)، يَعْنِي: أَنَّ الَّذِي تَمَّ تَقْسِيمُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ هُوَ الَّذِي حُفِظَ فِي الْآخِرَةِ لَنَا، أَمَّا لَحْمُ الْكَتِفِ فَهُوَ الَّذِي سَيَفْنَى لِأَنَّا سَنَأْكُلُهُ.

- يَقُولُ سَيِّدُنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَيُّكُمْ مَالٌ وَارِثُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ. قَالَ: «فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ (أَي: لِلْآخِرَةِ)، وَمَالٌ وَارِثُهُ: مَا آخَرَ»^(٣).

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

١٠ - يَعْنِي: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَدْعُوكُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَقَدْ بَيَّنَّ لَكُمْ أَيْضًا الدَّلَائِلَ عَلَى التَّوْحِيدِ، فَمَا الَّذِي جَرَى لِعُقُولِكُمْ وَأَفْهَامِكُمْ إِذْ لَا تُؤْمِنُونَ بِرَغْمِ كُلِّ هَذَا؟ وَمَا حُجَّتُكُمْ فِي عَدَمِ إِيْمَانِكُمْ بَعْدَ الدَّلَائِلِ وَالْمُعْجَزَاتِ؟ مَعَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَخَذَ الْمِيثَاقَ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ قَبْلَ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ، وَهُوَ الَّذِي نَقُولُ لَهُ: «مِيثَاقُ الْأَسْتِ»، وَيُمْكِنُكَ مَرَاجَعَةُ تَفَاصِيلِهِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ رَقْمَ ١٧٢ مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ، يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْرَجَ أَرْوَاحَ بَنِي الْإِنْسَانِ جَمِيعًا مِنْ ظَهْرِ سَيِّدِنَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَجَمَعَهَا فِي وَادِي التُّعْمَانِ الْمَتَّصِلِ بِجَبَلِ عَرَفَاتٍ، مِثْلَمَا وَرَدَ عَنْ أَبِي بَنْ كَعْبٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ

(١) البخاري، كتاب الزكاة، باب ١١ برقم ١٤١٩.

(٢) الترمذي، صفة القيامة، باب ٣٣ برقم ٢٤٧٠.

(٣) البخاري، كتاب الرقاق، باب ١٢ برقم ٦٤٤٢.

رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴿١٧٢﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآية، قال: «جَمَعَهُمْ فَجَعَلَهُمْ أَرْوَاحًا، ثُمَّ صَوَّرَهُمْ فاستنطقهم فتكلّموا، ثم أخذ عليهم العهد والميثاق، وأشهدهم على أنفسهم، أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قال: فَإِنِّي أَشْهَدُ عَلَيْكُمْ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ، وَأَشْهَدُ عَلَيْكُمْ أَبَاكُمْ آدَمَ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: لَمْ نَعْلَمْ بِهَذَا، اَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرِي، وَلَا رَبَّ غَيْرِي، فَلَا تُشْرِكُوا بِي شَيْئًا، وَإِنِّي سَأُرْسِلُ إِلَيْكُمْ رُسُلِي يُذَكِّرُونَكُمْ عَهْدِي وَمِيثَاقِي»^(١).

- يقول سيّدنا عبادة بن الصّامِتِ رضي الله عنه: إن رسول الله ﷺ قال وحولَه عصابةً من أصحابه: «بَايَعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللّهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ، فَهُوَ إِلَى اللَّهِ: إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ». فبايَعناه على ذلك^(٢).

﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبَيِّنُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

١١ - أعطى الله تعالى عبده الحبيب سيّدنا محمداً ﷺ المعجزات الواضحات، حتى تؤمنوا بنبوّته، وأنزل عليه آيات القرآن الكريم البينات حتى يُخْرِجَكُم من ظلمات الكُفْرِ إلى نور الإيمان، فالله تعالى يقيناً مُشْفِقٌ عليكم غاية الشفقة، ورحيمٌ بكم غاية الرحمة.

(١) مسند أحمد، ٥: ١٣٥.

(٢) البخاري، كتاب الإيمان، باب ١١ برقم ١٨.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

١٢ - المالك الحقيقي لكل خزائن الأرض والسماء هو الله تعالى، وقد أعطاكم بعض ماله بصفة مؤقتة، ثم أمركم بأن تُنْفِقُوا بعضاً منه، فكم هو نُكرَانٌ للجميل وجُحودٌ بالمعروف أن لا تُنْفِقُوا من ماله الذي أعطاه لكم في سبيله، ولو أنكم مُتُّم وتَرَكْتُم المَالَ خَلَفَكُمْ دُونَ أَنْ تُنْفِقُوهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فلن يَنْفَعَكُمْ هذا المَالُ في شيء، ولو أنكم أَنْفَقْتُمُوهُ بِيَدِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فسيكون لكم به في الآخرة أَجْرٌ عَظِيمٌ.

﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَدْ أُوتِيَكَ أَكْثَرُ دَرَجَةٍ مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتِلُوا﴾

١٣ - في هذه الآية الكريمة بيّن الله تعالى طبقتين من الصّحابة الكرام رضوان الله عليهم: طبقة هم الذين أَنْفَقُوا أموالهم في سبيل الله قبل فتح مكة، وحاربوا الكفّارَ وقَاتَلُوهم، والطبقة الثانية: هم الذين أَنْفَقُوا أموالهم في سبيل الله بعد فتح مكة وحاربوا الكفّارَ وقَاتَلُوهم، وفي نفس الوقت أَخْبَرَ الله تعالى أن مقام الصّحابة الكرام في الطبقة الأولى أعلى وأَرْفَعُ قِيَاسًا بَمَنْ هم في الطبقة الثانية؛ لأنّ عدد المسلمين قبل فتح مكة كان قليلاً، وكانوا ضُعَفَاءَ مَالِيًّا، ولهذا كان الإنفاقُ في سبيل الله في الفترة الأولى، وكذا المشاركة في القتالِ أمرًا في غاية الصّعوبة، في حين أنّ عدد المسلمين بعد فتح مكة قد ازداد، وتحسّنت أحوالهم المادية، ولهذا كان هذان الأمران (الإنفاقُ والمشاركة في القتال) في الفترة الثانية أيسرَ من سابقتها.

ويعلم منه أنّ العبادة التي تعترضها مُعَوِّقَاتٌ ومَصَاعِبُ أكثر، هي التي يكون أَجْرُها وثوابها عند الله أعظم، والذين يُضَحُّونَ من أجل الإسلام في وقتِ الشدائدِ مقامهم عند الله أعلى وأَرْفَعُ من باقي المسلمين، ولهذا فإنّ مقامَ سَيِّدِنَا أَبِي بَكْرٍ

الصديق - عند أهل السنة - رفيع؛ لأنه أول من أسلم من الرجال، ووقف إلى جانب النبي ﷺ في أصعب الظروف، وأنفق أمواله في سبيل الله، وقاتل الكفار أيضاً، ولهذا جعله النبي ﷺ في آخر حياته الطاهرة إماماً في المسجد النبوي، واختاره الصحابة الكرام رضي الله عنهم بعد انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى ليكون خليفة عليهم.

- تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: إن النبي ﷺ قال: «أنزلوا الناس منازلهم»^(١).

- يقول سيدنا أبو الدرداء رضي الله عنه: رأي رسول الله أمشي أمام أبي بكر، فقال: «يا أبا الدرداء، أمتشي أمام من هو أفضل منك في الدنيا والآخرة؟ فوالذي نفس محمد بيده، ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد بعد النبيين والمرسلين أفضل من أبي بكر»^(٢).

يقول المفسرون: إن هذه الآية «نزلت في أبي بكر رضي الله عنه، وفيها دليل واضح على تفضيل أبي بكر رضي الله عنه وتقديمه؛ لأنه أول من أسلم وأول من أنفق ماله في سبيل الله وذبح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم»^(٣).

ويقول الإمام فخر الدين الرازي: «واعلم أن الآية دلت على أن من صدر عنه الإنفاق في سبيل الله، والقتال مع أعداء الله قبل الفتح، يكون أعظم حالاً ممن صدر عنه هذان الأمران بعد الفتح، ومعلوم أن صاحب الإنفاق هو أبو بكر، وصاحب القتال هو علي، ثم إنه تعالى قدّم صاحب الإنفاق في الذكر على صاحب القتال، وفيه إيحاء إلى تقديم أبي بكر، ولأن الإنفاق من باب الرحمة، والقتال من باب الغضب، وقال

(١) أبو داود، كتاب الأدب، باب ٢٠ برقم ٤٨٤٢.

(٢) السيرة الحلبية، ٥٦: ٢.

(٣) صفوة النفاسير، وتفسير القرطبي.

تعالى: «سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي»، فكان السَّبْقُ لصاحبِ الإنفاق، فإن قيل: بل صاحبُ الإنفاق هو عليٌّ، لقوله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونََ الطَّعَامَ﴾ [الإنسان: ٨]. قلنا: إطلاقُ القولِ بأنَّه أنفقَ لا يتحقَّقُ إلَّا إذا أنفقَ في الوقائع العظيمةِ أموالاً عظيمةً، وذكر الواحدِي في «البيسط» أنَّ أبا بكرٍ كان أوَّلَ مَنْ قَاتَلَ على الإسلام، ولأنَّ عليًّا في أوَّلِ ظهورِ الإسلام كان صبيًّا صغيرًا، ولم يكن صاحبَ القتال، وأما أبو بكرٍ فإنَّه كان شيخًا مقدَّمًا، وكان يذُبُّ عن الإسلام حتَّى ضُرِبَ بسببه ضربًا أشرفَ به على الموت^(١).

فضائل سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه

- تقولُ السيِّدة عائشةُ رضي الله عنها: إنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لا ينبغي لقومٍ فيهم أبو بكرٍ أن يؤمَّهم غيره»^(٢).

- يقولُ سيِّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: إنَّ النبيَّ ﷺ قال: «ما لأحدٍ عندنا يدٌ إلَّا وقد كافَّيناهُ، ما خلا أبا بكرٍ، فإنَّ له عندنا يدًا يكافئُه الله بها يومَ القيامة، وما نفعني مالٌ أحدٍ قطُّ ما نفعني مالُ أبي بكرٍ، ولو كنتُ متَّخذًا خليلاً لا تأخذُ أبا بكرٍ خليلاً، ألا وإنَّ صاحبكم خليلُ الله»^(٣).

- تقولُ السيِّدة عائشةُ رضي الله عنها: قال لي رسولُ الله ﷺ في مرضه: «ادعي لي أبا بكرٍ وأخاك حتَّى أكتبَ كتابًا، فإنِّي أخافُ أن يتمنَّى مُتَمَنِّ ويَقولَ قائلٌ: أنا أوَّلِي. ويأبى الله والمؤمنونَ إلَّا أبا بكرٍ»^(٤).

(١) التفسير الكبير، سورة الحديد (٥٧): الآية ١٠.

(٢) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٤٣ برقم ٣٦٧٣.

(٣) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٣٤ برقم ٣٦٦١.

(٤) مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب ١ برقم ٦١٨١.

- تقولُ السَّيِّدَةُ عائِشَةُ رضي الله عنها: لَمَّا مَرَضَ النَّبِيُّ ﷺ مَرَضَهُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَتَاهُ بِلَالٌ يُؤَذِّنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَقَالَ: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ». قُلْتُ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ، إِنَّ يَقُومَ مَقَامَكَ يَبْكِي فَلَا يَقْدِرُ عَلَى الْقِرَاءَةِ. قَالَ: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ». فَقُلْتُ مِثْلَهُ فَقَالَ فِي الثَّلَاثَةِ أَوْ الرَّابِعَةِ: «إِنْ كُنَّ صَوَاحِبُ يَوْسُفَ، مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ». فَصَلَّى، وَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ يُهَادِي بَيْنَ رَجُلَيْنِ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ يَخْطُ بِرِجْلَيْهِ الْأَرْضَ، فَلَمَّا رَأَاهُ أَبُو بَكْرٍ ذَهَبَ يَتَأَخَّرُ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ أَنْ صَلِّ، فَتَأَخَّرَ أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَقَعَدَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى جَنْبِهِ، وَأَبُو بَكْرٍ يُسْمَعُ النَّاسَ التَّكْبِيرَ»^(١).

- رُوِيَ عَنْ سَيِّدِنَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَعِنْدَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعَلَيْهِ عِبَادَةٌ قَدْ خَلَّلَهَا فِي صَدْرِهِ بِخِلَالٍ، فَتَزَلَّ جِبْرِيلُ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مَا لِي أَرَى أَبَا بَكْرٍ عَلَيْهِ عِبَادَةٌ قَدْ خَلَّلَهَا فِي صَدْرِهِ بِخِلَالٍ؟ فَقَالَ: «قَدْ أَنْفَقَ عَلَيَّ مَالَهُ قَبْلَ الْفَتْحِ»، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لَكَ: اقْرَأْ عَلَى أَبِي بَكْرٍ السَّلَامَ وَقُلْ لَهُ: أَرَا ضِيقَ أَنْتَ فِي فَقْرِكَ هَذَا أَمْ سَاخِطٌ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ: أَرَا ضِيقَ أَنْتَ فِي فَقْرِكَ هَذَا أَمْ سَاخِطٌ؟» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَسْخَطُ عَلَى رَبِّي؟ إِنِّي عَنْ رَبِّي لَرَا ضِيقَ! إِنِّي عَنْ رَبِّي لَرَا ضِيقَ! فَبَكَى رَبِّي لَرَا ضِيقَ! قَالَ: «فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لَكَ: قَدْ رَضِيتُ عَنْكَ كَمَا أَنْتَ عَنِّي رَا ضِيقَ»، فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ يَا مُحَمَّدٌ بِالْحَقِّ، لَقَدْ تَخَلَّلْتُ حَمَلَةَ الْعَرْشِ بِالْعَبِيِّ مِنْذُ تَخَلَّلْتُ صَاحِبُكَ هَذَا بِالْعِبَادَةِ»^(٢).

﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسَيْنَ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

١٤ - مثلاً أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ جَمِيعًا سِوَاءَ فِي النُّبُوَّةِ نَفْسِهَا، لَكِنْ يَفْضَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا

(١) البخاري، كتاب الآذان، باب ٦٧ برقم ٧١٢.

(٢) التفسير المنير، وتفسير القرطبي، سورة الحديد (٥٧): الآية ١٠.

في الكمالات والمراتب، كذلك فإن الصحابة جميعاً سواء في كونهم صحابة، لكن يفضل بعضهم بعضاً في الكمالات والمراتب أيضاً، وفي هذه الآية فضل الله تعالى الذين أنفقوا من أموالهم قبل الفتح على الذين أنفقوا من أموالهم بعد الفتح، ولكن الوعد بالخير، أي: بالمغفرة والجنة، هو للصحابة جميعاً، سواء كانوا من الطبقة الأولى أم من الطبقة الثانية؛ لأن كل واحد من هؤلاء قد بذل غاية جهده حسب استطاعته في نشر الإسلام، والله تعالى راض عنهم جميعاً، فهم أولئك النفوس القدسية الذين يمثلون واسطة بين النبي ﷺ وأمته، ولم يكن هناك سواها طريق لكي يصل القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة إلى الأمة المسلمة، ولهذا فإن زمانهم هو خير الأزمنة، ولا يستطيع ثواب أعظم حسنتنا أن يكون ولو في مثل ثواب أقل حسنتهم.

- يقول سيدنا أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: إن النبي ﷺ قال: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»^(١).

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَلِّعْهُ لَهُ، وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَفَقِّهُونَ وَالْمُتَفَقِّهَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتِس مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضَرَبَ بَيْنَهُمْ سُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمْ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾ قَالِیَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَانُكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَانُكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ

فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ الله قرضًا حسنًا فيضاعفه له﴾

١٥ - المراد بالقرض الحسن: ذلك القرض الذي يُقدِّمه رجلٌ غنيٌّ إلى مَنْ يحتاجه خالصًا لنيل رضا الله تعالى، ولا يتقاضى عليه فائدة أو ربحًا، على سبيل المثال: لو أعطى أحدٌ محتاجًا قرضًا حسنًا بقيمة ألفِ جُنيَّةٍ، فعلى مَنْ أخذ القرضَ أن يُعيده إلى مَنْ أقرضه في الوقت المحدد، والآن تخيلْ إلى أيِّ مدى يكون فضلُ الله تعالى وكرمه، إذ إنه هو الغنيُّ المستغني، ولا يحتاجُ إلى أحدٍ، فهو نفسه الذي يُعطي المالَ للإنسان، ثم يقولُ له أن احتفظْ بالجزء الأكبر من المالِ لنفسك، ولكن أنفقْ جزءًا منه لخير الآخرين، والفائدة هنا يجنيها بنو الإنسان، ولكن شأن كرم الله تعالى أن يتعهدَ به قرضًا حسنًا عليه، وسيعيده إلى الإنسان أضعافًا مضاعفةً في الوقت الذي يكون فيه الإنسان في أمسِّ الحاجةِ إليه.

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾

١٦ - حينَ يفرُّغُ الناسُ من ميزانِ العدل، ويتجهَّونَ إلى الصُّراطِ المستقيم، سيكونُ هناك ظلامٌ دامسٌ، وستَبْرُقُ صحائفُ الأعمالِ لامعةً في أيدي أهل الإيمان اليمنى من الرِّجالِ والنساء، وسيكونُ أمامهم نورٌ إيمانهم وأعمالهم الصَّالحة يضيءُ، ولكنَّ هذا النُّورَ لن يضيءَ إلَّا طريقَ أهل الإيمان فقط، مثلما يربطُ كلُّ واحدٍ من العاملين في الأنفاقِ والمناجم والظَّلام كشافًا على رأسه ليضيءَ له،

وهذا الكَشافُ يضيءُ لصاحبه فقط الطريقَ، ولا يتفرَّقُ الضوءُ إلى طريقِ الآخرين، كذلك ستكونُ وجوهُ أهلِ الإيمانِ مثلَ الكَشافاتِ، تضيءُ لهم طريقهم، ولكنها لا تضيءُ طريقَ الآخرين، وحينَ يَعْبُرُ أهلُ الإيمانِ الصَّراطَ في ضوءِ هذا النُّورِ تُبَشِّرُهُم الملائكةُ بجنَّةِ الخلد التي تجري فيها الأنهار، وَمَنْ فازَ بالجنَّةِ يومَ القيامةِ فاعلَمَ أنه قد فاز فوزًا عظيمًا.

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِمَ مِنْ ثَوْرِكُمْ﴾

١٧ - في ذلك اليوم سيكونُ المنافقونَ من الرِّجالِ والنساءِ تائهينَ يعمَهُونَ في الظلام، وسيَرْجُونَ أهلَ الإيمانِ أَنْ يفتَحُوا ناحيتنا قليلًا، حتى نستطيعَ أَنْ نتَحَسَّسَ نحنَ أيضًا طريقنا في نورِ وجوهكم، وسيُجيبُهُم أهلُ الإيمانِ أَنْ يرجعوا إلى حيثُ أنعم علينا بهذا النُّورِ، وابتَحَثُوا أنتم أيضًا هناك، وما أَنْ يَلْتَفِتُوا إلى الوراءِ حتى يُقَامَ جدارٌ بينَهُم وبينَ أهلِ الإيمانِ، وهذا الجدارُ فاصلٌ بينَ الجنَّةِ والنارِ، وسيكونُ فيه بابٌ، أمَّا الجنَّةُ فستكونُ على الجانبِ الداخليِّ للبابِ، وهذا الجانبُ رحمةٌ كُلُّهُ، وأمَّا من ناحيةِ الجانبِ الخارجِيِّ له فستكونُ جهنَّمُ، وهو جانبُ عذابٍ كُلُّهُ.

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾

١٨ - حينَ يَحُولُ الجدارُ بينَ المنافقينَ وأهلِ الإيمانِ، ويبقى المنافقونَ في جانبِ الظلامِ والعذابِ، عندئذٍ يُنادُونَ على أهلِ الإيمانِ قائلينَ: لقد كنَّا في الدُّنيا ضمنَ جماعتِكُم، وكنا نُصلِّي معكم، فلماذا لا تأخذوننا اليومَ معكم؟ ولماذا تركتمونا في الظلامِ هكذا؟ وسيجيبُهُم أهلُ الإيمانِ قائلينَ: صحيحٌ أنكم كنتم

تَعيِشُونَ مَعَنَا، وَكُنتُمْ تُظْهِرُونَ أَنْفُسَكُمْ عَلَى أَنْتُمْ مُؤْمِنُونَ، وَلَكِنْ كَانَتْ بِدَاخِلِكُمُ الْعُيُوبُ التَّالِيَةُ، وَهِيَ الَّتِي فَرَّقَتْكُمْ عَنَا الْيَوْمَ:

١ - لَقَدْ وَضَعْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي فِتْنَةِ النِّفَاقِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُحِبَّ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا مَنَافِقًا، وَلَكِنَّكُمْ بَلَغْتُمْ الْمَدَى فِي نِفَاقِكُمْ، بِحَيْثُ اخْتَرْتُمْ النِّفَاقَ حَتَّى مَعَ اللَّهِ تَعَالَى! وَمَعَ دِينِهِ، وَلِهَذَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ هَذَا مُصِيرَكُمْ.

٢ - كُنتُمْ مَعَنَا فِي الظَّاهِرِ، لَكِنَّكُمْ كُنتُمْ مُتَأَمِّرِينَ مَعَ الْكُفَّارِ فِي الدَّاخِلِ، حَتَّى تَبْقَى عِلَاقَتُكُمْ بِهِمْ أَيْضًا، وَتَنْتَظِرُونَ الْجَمَاعَةَ الَّتِي تَنْتَصِرُ فَتَنْضَمُّونَ إِلَيْهَا.

٣ - كُنتُمْ تَشْكُونَ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ، وَلَوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَنَّ الْإِسْلَامَ دِينُ الْحَقِّ، لَأَمْتُمْ بِهِ مِنْ قُلُوبِكُمْ، لَكِنَّكُمْ أَسْلَمْتُمْ بِلِسَانِكُمْ فَقَطْ لَتَخَدَعُوا الْمُسْلِمِينَ بِهَذَا.

٤ - كُنتُمْ تَتَأَمَّرُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ لَيْلَ نَهَارٍ، وَكُنتُمْ تَعْمَلُونَ دَائِمًا عَلَى تَدْمِيرِهِمْ، إِلَى أَنْ جَاءَكُمْ الْمَوْتُ، وَلَمْ تَتَحَقَّقْ أَمَانِيَّتُكُمْ، وَلِهَذَا فَإِنَّ آمَالَكُمْ الْبَاطِلَةَ هَذِهِ هِيَ الَّتِي أَوْصَلَتْكُمْ إِلَى هَذَا الظَّلَامِ، حَيْثُ لَا طَرِيقَ مُطْلَقًا لِنَجَاتِكُمْ.

٥ - خَدَعَكُمْ الشَّيْطَانُ، وَانْخَدَعْتُمْ بِالْأَعْيُنِ، وَلَمْ تَسْتَطِيعُوا إِدْرَاكَ أَنَّهُ عَدُوٌّ مُبِينٌ لَكُمْ، وَلِهَذَا سَتَمُكِّثُونَ مَعَهُ فِي جَهَنَّمَ إِلَى الْأَبَدِ.

﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

١٩ - حِينَ يَصْدُرُ الْحُكْمُ عَلَى الْمَنَافِقِينَ بِأَنَّكُمْ سَتَخْلَدُونَ فِي جَهَنَّمَ إِلَى الْأَبَدِ، فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لَوْ أَرَدْتُمْ أَيُّهَا الْمَنَافِقُونَ أَنْ تَفْتَدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ بِأَيِّ مُقَابِلٍ

مهما كان، فلن يُقْبَلَ منكم؛ لأنه أولاً: لن يكون لديكم أي شيء يمكن أن تُقدّموه مقابلًا لنجاتكم، وعلى افتراض أنه سيكون لديكم شيء تُقدّمونه، فإنه لن يُقْبَلَ منكم؛ لأن يوم القيامة ليس للعمل، وإنما للحساب والثواب والعقاب.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾

٢٠ - في هذه الآية تنبيهٌ للغافلين من المسلمين بأنه لا أحد منكم يضمن الحياة في شيء، وملك الموت يمكن أن يأتيكم في أي وقت، وينطفئ مصباح حياتكم، ولهذا أن الأوان أن تخضعوا لذكر الله وتسلموا لدين الحق، ولا تكونوا كأهل الكتاب الذين كانوا يعملون بدینهم، ولكنهم بعد مرور وقت طويل على وفاة نبيهم، ألّفوا بأحكام كتابهم خُلفَ ظهورهم، وقست قلوب أكثرهم بسبب غفلتهم المتواصلة، بحيث أصبحوا عصاةً لله تعالى.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾

٢١ - مثلما تخضر الأرض الجافة الميتة وتنبعث حين تنزل عليها أمطار الرحمة وتعود إليها الحياة، كذلك يزول صدام الغفلة من القلب الغافل حين يضيء شمع ذكر الله فيه، فتعود الحياة إلى هذا القلب بفضل ذكر الله تعالى.

- يقول سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: إن النبي ﷺ كان يقول: «إن لكل شيء سقالة (جلاء)، وإن سقالة (جلاء) القلوب: ذكر الله عز وجل، وما من شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله»^(١).

- يقول أبو موسى رضي الله عنه: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ»^(١).

﴿إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾

٢٢ - راجع - لتفسير هذه الآية - الحاشية رقم ١٥.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾

٢٣ - الصَّدِيقُ يقال: للذي يكون في غاية الصدق، أو مصدقاً بالرسالة والثبوة والتوحيد، والشهيد يقال: للذي يشهد بالتوحيد والثبوة والرسالة، أو الذي يقتل في سبيل الله، ولأنه قيل لكل مؤمن صديق وشهيد في هذه الآية، لهذا يكون معنى الصديق هنا هو: المصدق بالتوحيد والثبوة والرسالة، ويكون معنى الشهيد هو: الشاهد بالتوحيد والثبوة والرسالة، وهذا المعنى ينطبق على كل مؤمن.

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ آَعَجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاهُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا

(١) البخاري، كتاب الدعوات، باب ٦٦ برقم ٦٤٠٧، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب النافلة في بيته برقم ٧٧٩.

بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ بَصُرِهِ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾

﴿اعْلَمُوا أَنَّهَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾

٢٤ - هذه الدنيا مزرعة الآخرة، ولهذا فإن أهل الله يُعدُّون منها ذخائر الحسنات للآخرة، أما الذين يعتقدون أنَّ هذه الدنيا هي كلُّ شيء، فإنها تكون بمثابة الخديعة والسراب الخالص لهم، فتضيع طفولتهم في اللهو واللعب، ويضيع شبابهم في التزيين والتجمل والتفاخر فيما بينهم، بينما في الشيخوخة يلحق بهم هم الأولاد والانشغال بهم، ومثلهم كمثلي المطر الذي ينزل على الأرض فتخضر وتينع، وتظهر المحاصيل فيها، ويسعد الزارع بها حين يراها، وبعد عدة أيام تجف الزروع الخضراء، ويميل لونُها إلى الاصفرار، وعندئذٍ إما أن يحصدَها الزارع، أو أن تصيبها آفة تقضي عليها، ولا يبقى في هذه المزرعة أثر لخضرة أو ينوعة. وهذا هو حال هذه الحياة الدنيا ومآلها ومتاعها، كلُّ هذا فإن أسباب الخداع والاغترار، والشخص الذي يستغرق نفسه في اللهو واللعب في هذه الدنيا العارضة المؤقتة، سيكون له في الآخرة عذاب شديد، أما الذي يحاول في هذه الدنيا أن يرضي ربه، فإن الله تعالى يغفر ذنبه، ويُنعِم عليه برضاه.

﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾

٢٥ - هذه الدنيا ومآلها ومتاعها عارضة مؤقتة، وأسباب للاغترار والخداع، ولهذا لا تُفسدوا آخرتكم بالانهماك فيها، وإنما ارجعوا إلى ربكم، وإن كنتم

في السابق عَصَا غَافِلِينَ، فَاسْرِعُوا بِالتَّوْبَةِ إِلَى اللَّهِ، حَتَّى يَغْفَرَ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ،
وَيُدْخِلَكُمْ - مِنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ - جَنَّةً وَاسِعَةً عَرِيضَةً أَعَدَّهَا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، هَذِهِ
الْجَنَّةُ الَّتِي عَزَّضَهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، فَكَمْ يَكُونُ طَوْلُهَا يَا تُرَى؟

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾

٢٦ - أَيُّ مُصِيبَةٍ تَحُلُّ عَلَيْكُمْ، بِشَكْلِ انْفِرَادِيٍّ أَوْ بِشَكْلِ جَمَاعِيٍّ، هِيَ فِي
عِلْمِ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ، وَمَكْتُوبَةٌ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَلَيْسَ مِنَ الصَّعْبِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى
كِتَابَةُ أَيِّ شَيْءٍ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ أَوْ يَحْدُثَ؛ لِأَنَّ عِلْمَهُ سَبْحَانَهُ
وَتَعَالَى مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ سَيَحْدُثُ حَتَّى يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

يَقُولُ سَيِّدُنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنُ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّهُ سَمِعَ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»^(١).

ولمزيدٍ من التفصيل عن التقدير والقدر راجع الحاشية رقم ٣٩ للآية رقم
٤٩ من سورة القمر (٥٤).

﴿لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ
فَخُورٍ﴾

٢٧ - الْمَصِيبَةُ أَوِ النِّعْمَةُ الَّتِي قَدَّرَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْكُمْ سَتَنَالُكُمْ يَقِينًا، وَالْحُزْنَ
عِنْدَ الْمَصِيبَةِ وَالْفَرَحَ عِنْدَ النِّعْمَةِ أَمْرٌ فِطْرِيٌّ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُحِبُّ الْحُزْنَ الَّذِي

يُؤدِّي بالإنسانِ إلى اليأسِ وفُقدانِ الصَّبْرِ، والفرَح الذي يؤدِّي بالإنسانِ إلى الظُّلم والتكَبُّر، ولهذا ينبغي للإنسانِ أن يصبرَ عندَ المصيبة، ويعملَ - جاهداً - على التخلُّص منها، إلى أن يُنَجِّيه اللهُ منها، كما ينبغي له أن يشكرَ الله تعالى عندَ النِّعمة، ويتعاطفَ مع خَلْقِ الله تعالى، حتى يُديمَ اللهُ عليه نِعَمَه.

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾

٢٨ - أَمَرَ اللهُ تعالى أهلَ الإيمانِ أن يُنفقوا في سَبِيلِ الله تعالى من مالِ الله الذي أعطاهُ لهم، لكنَّ الذين لا يُبالونَ بهذا الحُكم، ويَبْخُلُونَ من جانب، ويَحَرِّضُونَ الآخَرِينَ أيضًا على البُخلِ من جانبٍ آخر، هنا تنبيهٌ لهم في هذه الآية بأنَّهم إنْ أنفقوا في سَبِيلِ الله فسيؤتيهم اللهُ أجرًا عظيمًا على هذا الإنفاق، وإنْ بَخِلُوا فسيكونُ بُخلُهم وبآلاً عليهم، ولن يَضُرُّوا الله بهذا البُخلِ شيئًا؛ لأنَّه هو المستغني عن عبادةِ الناس وعن أموالهم، وخزائنه لا حدَّ لها، وهو الذي يستحقُّ الحمدَ والثَّناء في كلِّ حال، سواءَ حَمَدَهُ أحدٌ وأثنى عليه أم لا.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾

٢٩ - أَرْسَلَ اللهُ تعالى الرُّسلَ لهدايةِ بني الإنسان، وأعطاهم المعجزاتِ تصديقًا لنبوتهم ورسالتهم، كما أنه أنزلَ عليهم الكتابَ السَّماويَّةَ التي تُبَيِّنُ للناسِ العقائدَ الصحيحةَ والأعمالَ الصَّالحةَ، وأعطاهم أيضًا ميزانَ العَدْلِ، يعني: نظامَ الشريعة، حتى يقوموا بينَ الناسِ بالعدلِ والإنصافِ، ويَحْفَظُوا حقوقَ الله وحقوقَ العباد، ولا يَضِيعَ حقٌّ أحدٍ، وإذا خَالَفَ أحدٌ ميزانَ العدل، يجبُ عقابُه طبقًا لنظامِ الشريعة.

﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾

٣٠ - الحديدُ نعمةٌ عظيمةٌ من بَيِّنِ نِعَمِ الله التي لا تُعدُّ ولا تُحصى.

وهو معدنٌ في غايةِ الصَّلابَةِ، ولا يَتِمُّ إعدادُ أسلحةِ الحربِ فقط منه، وإنما تُصنَعُ

منه كذلك الطائرات والسَّيَّارات والقطارات والآلات والماكينات وأشياء أخرى كثيرة مما يحتاجه الإنسان.

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

٣١ - من مقاصد إرسال الرسل عند الله تعالى أن يبتلي الناس، وليس ذلك لكي يَعْلَمَ الله حقيقة الناس، فالله تعالى يَعْلَمُ - تمام العلم - حقيقة كل شيء، ولكن ليُشَاهِدَ الناس بأنفسهم من الذي يؤمنُ برُسُلِهِ، ويعزُّزُهم ويوقِّرُهم دون أن يرى الله تعالى، والله تعالى قادرٌ مطلق، ولو شاء الله لنصرَ رُسُلَهُ دونَ عَوْنٍ من البشر، ولكنه يأمرُ الناسَ بعَوْنِ الرسل حتى يُنفِذُوا الحُكْمَ فينالوا رضا الله تعالى، ويستحقُّونَ دخولَ الجنة.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فَتَيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَنَاءَ ابْدَعُوهَا مَا كَتَبْنَا عَلَيْهَا إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَارِعُوهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٣٢﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرُسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَفْلًا مِّن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَفْقَرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٣٤﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾

٣٢ - عندما أَرْسَلَ اللهُ تعالى سَيِّدَنَا نُوحًا وَسَيِّدَنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ نَبِيِّنَ، أَعْلَنَ أَنَّ كُلَّ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ سَيَّاتُونِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَكُلَّ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَةِ الَّتِي سَتَنْزِلُ عَلَيْهِمْ، سَيَكُونُونَ جَمِيعًا مِنْ نَسْلِ هَذَيْنِ النَّبِيِّينَ الْعَظِيمَيْنِ.

وسَيِّدُنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ نَسْلِ سَيِّدِنَا نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكُلُّ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ الَّذِينَ جَاءُوا بَعْدَ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانُوا مِنْ نَسْلِهِ، وَالْأَنْبِيَاءُ الَّذِينَ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ الْكُتُبُ السَّمَاوِيَّةُ الْأَرْبَعَةُ الْمَعْرُوفَةُ، يَعْنِي: التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَالزَّبُورَ وَالْقُرْآنَ، كُلُّهُمْ كَانُوا مِنْ نَسْلِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾

٣٣- الْأَقْوَامُ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءُ الْكَرَامُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، آمَنَ بَعْضُ النَّاسِ مِنْهُمْ بِهِمْ، وَأَكْثَرُهُمْ ظَلَّ عَاصِيًا.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾

٣٤- أَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى سَيِّدَنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ نَبِيًّا، وَأَعْطَاهُ الْإِنْجِيلَ، وَأَوْدَعَ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ شَفَقَةً وَرَحْمَةً بِالْآخِرِينَ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ عَنِ الصَّحَابَةِ الْكَرَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جَمِيعًا: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وَيَقُولُ سَيِّدُنَا النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى»^(١).

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾

٣٥- الْمَرَادُ بِالرَّهْبَانِيَّةِ: أَنْ يَنْقَطِعَ الْإِنْسَانُ عَنْ أُمِّهِ وَأَبِيهِ وَزَوْجَتِهِ وَأَطْفَالِهِ وَالنَّاسِ جَمِيعًا، وَيَتَخَلَّى عَنْ كُلِّ أَعْمَالِ الدُّنْيَا، ثُمَّ يَلْجَأُ إِلَى الْوَحْدَةِ أَوْ يَتَّجِهَ إِلَى غَايَةِ لِيَقْضِيَ بَقِيَّةَ حَيَاتِهِ فِي الْعِبَادَةِ هُنَاكَ.

كيف بدأتِ الرّهبانّيّة في المسيحيّة؟ ظاهرٌ أنّ الرّهبانّيّة لا يمكنُ أن تكونَ حُكمًا من الله تعالى، وإلاّ فإنّ النّسلَ الإنسانيّ سينقطعُ حتمًا باعتزالِ الزّوجات، ولو حَدَثَ هذا لما بقيَ على وجهِ الأرضِ مسيحيٌّ واحدٌ اليومَ، وإليك هذا الحديثُ الشّريفُ في هذا الخُصوص فتأمّله:

يقولُ سيّدنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: كنتُ رديفَ رسولِ الله ﷺ على حمارٍ، فقال لي: «يا ابنَ أُمِّ عبدٍ، هل تدري من أين أخذتَ بنو إسرائيلَ الرّهبانّيّة؟»، قلت: الله ورسولُه أعلم، قال: «ظَهَرَت عليهمُ الجبّارةُ بعدَ عيسى يعمَلونَ بالمعاصي، فغَضِبَ أهلُ الإيمانِ فقاتلوهُم، فهُزِمَ أهلُ الإيمانِ ثلاثَ مرّاتٍ فلم يبقَ منهمُ إلّا القليل، فقالوا: إنّ ظَهَرْنَا لهؤلاءِ فَنُتُونَا ولم يبقَ أحدٌ يدعو إليه تعالى، فتعالوا لتتفرّقَ في الأرضِ إلى أن يبعثَ اللهُ النّبيَّ الذي وَعَدْنَا عيسى به - يعنُونُ محمّدًا ﷺ - فتفرّقوا في غيرانِ الجبالِ وأحدثوا الرّهبانّيّة، فمنهم من تمسّكَ بدينه ومنهم من كَفَرَ»، ثم تلا هذه الآية ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ إلى ﴿فَتَأْتِنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ﴾ أي: من الذين ثَبَتُوا عليها، أَجَرَهُم. ثم قال النّبيُّ ﷺ: «يا ابنَ أُمِّ عبدٍ، أتدري ما رهبانيّةُ أُمّتي؟»، قلت: الله ورسولُه أعلم. قال: «الهجرةُ، والصّلاةُ، والجهادُ، والصّومُ، والحجُّ، والعُمرةُ، والتّكبيرُ على التّلاع»^(١).

ويعلمُ من هذا الحديثِ أنّ الله تعالى لم يَفْرِضْ عليهمُ الرّهبانّيّةَ، وإنّما اختاروها هم بأنفسهم مضطّرينَ لحمايةِ إيمانهم ونيلِ رضا الله تعالى، وكان هذا صحيحًا تمامًا طبقًا لحالةِ الاضطّرابِ التي كانوا يعيشونها، وكان ينبغي لمن يأتي بعدهم أن يختاروا الرّهبانّيّةَ في حالةِ الاضطّرابِ فقط، وحين تعودُ الأمورُ إلى حالتها الطّبيعيّة يتركونَ الرّهبانّيّةَ، لكنّهم لم يؤدّوا حقَّ رهبانيّةِ الاضطّرابِ هذه، وجعلوا منها جزءًا من النّصرانيّة حتى في الحالاتِ العاديّة، وهو أمرٌ لم يكن صحيحًا.

على أيِّ حال، فإنَّ النَّصارى الذين اختاروا الرَّهبانيَّةَ في بداية الأمر مضطَّرينَّ بَعَرَضٍ نَيْلِ رضا الله تعالى، سينالونَ الأَجَرَ عليها من الله تعالى، أمَّا الذين جاءوا بعدَ ذلك، واختاروا الرَّهبانيَّةَ دونَ أن تكونَ هناك ضرورةٌ إليها فإنَّهم عُصاةٌ، ولن ينالوا أَجراً على رَهْبانيَّتِهِمْ، ولكنَّ هناك بعضَ الناسِ ممَّن اتَّوا بعدَ ذلك بقُوا على النَّصْرانيَّةِ الصحيحة، إلى أن أدركوا زمنَ بَعَثَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وآمنوا به، فاستحقُّوا بذلك الأجرَ العظيم.

وحيثما أثنى الإسلامُ على بعضِ جوانبِ الرَّهبانيَّةِ مثل: الحِفاظِ على الدِّينِ وحمائيته، وكذا عبادةُ الله تعالى، فإنه تبرَّأ من القيودِ غيرِ الجائزةِ التي فرضتها الرَّهبانيَّةُ من قَطْعِ الصَّلَاةِ قطعاً تامّاً معَ الدنيا.

- يقولُ سيِّدنا عُرْوَةُ رضي الله عنه: دَخَلَتِ امرأَةُ عُثْمَانَ بنِ مَظْعُونٍ - أَحَسَبُ اسْمِهَا خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ - على عائِشَةَ وهي باذَّةُ الهَيْئَةِ، فسأَلَتْها: ما شأنُكِ؟ فقالت: زوجي يقومُ اللَّيْلَ، ويصومُ النَّهارَ، فدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ، فذَكَرْتُ عائِشَةَ ذلكَ له، فلَقِيَ رسولُ اللهِ ﷺ عُثْمَانَ فقال: «يا عُثْمَانُ، إِنَّ الرَّهْبَانِيَّةَ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْنَا، أَفَمَا لَكَ فِيَّ أَسْوَةٌ؟ فواللهِ إِنِّي أَخْشَاكُمَ اللهُ، وَأَحْفَظُكُمْ لِحُدُودِهِ»^(١).

- يقولُ سيِّدنا سَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه: لَمَّا كانَ من أَمْرِ عُثْمَانَ بنِ مَظْعُونٍ الَّذِي كانَ مِنْ تَرْكِ النِّسَاءِ، بَعَثَ إِلَيْهِ رسولُ اللهِ ﷺ فقال: «يا عُثْمَانُ، إِنِّي لَمْ أَوْمَرْ بِالرَّهْبَانِيَّةِ، أَرِغِبْتَ عَنْ سُنَّتِي؟» قال: لا يا رسولَ اللهِ، قال: «إِنَّ مِنْ سُنَّتِي أَنْ أَصَلِّيَ، وَأَنَامَ، وَأَصُومَ، وَأَطْعَمَ، وَأَنْكِحَ، وَأُطْلِقَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي، فَلَيْسَ مِنِّي. يا عُثْمَانُ، إِنَّ لَأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»^(٢).

(١) مسند أحمد، ٦: ٢٢٦.

(٢) سنن الدارمي، كتاب النكاح، باب ٣.

- يقول سيّدنا أنس رضي الله عنه: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تَفَالُوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذنبه وما تأخَّر. قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله - إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد وأتزوج النساء، فمن رَغِبَ عن سُنَّتِي فليس مِنِّي»^(١).

الإسلام لا يسمَحُ باعتزال الدنيا تماماً، كما لا يتحمَّلُ مطلقاً ترك العبادة والانغماس في اللُّهُو والعبَثِ الدُّنيويِّ، فالإسلام يُعلِّمُنا التوازن بين الدنيا والعبادة؛ لأن الاثنين ضروريان لحياة الإنسان الناجحة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَفْلًا مِّن رَّحْمَتِهِ﴾

٣٦ - في هذه الآية ترغيب لأهل الكتاب بأن اتَّقُوا الله تعالى، وآمِنُوا بنبيِّه سيّدنا محمد ﷺ، وسيُعطيكم الله تعالى لقاء ذلك جزئَيْنِ من رحمته، جزءاً على إيمانكم بنبيِّكم، وجزءاً على إيمانكم بسيّدنا محمد ﷺ، كما أنه سيغفرُ كلَّ خطاياكم يوم القيامة، وسيُعطيكم نوراً تعبّرون في ضوئه الصُّراط وتتمكّنون من دخول الجنة.

- يقول سيّدنا أبو بُردة رضي الله عنه، رواية عن أبيه: إن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لهم أجران: رجلٌ من أهل الكتاب آمنَ بنبيِّه وآمنَ بمحمد ﷺ، والعبدُ المملوكُ إذا أَدَّى حقَّ الله وحقَّ مَوالِيه، ورجُلٌ كانت عنده أُمَةٌ [يطأها] فأدبها فأحسنَ تأديبها،

وعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا، فَتَزَوَّجَهَا، فَلَهُ أَجْرَانِ»^(١).

﴿لَا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

٣٧- عندما يغفر الله تعالى يوم القيامة لأهل الكتاب الذين آمنوا بالنبى الكريم ﷺ، ويُعطِيهم نورًا يُنِيرُ لَهُم طريقهم إلى الجنة، سَيَعْلَمُ عِنْدَئِذٍ أَهْلُ الْكِتَابِ الذين لم يؤمنوا بالنبى الكريم ﷺ بأنهم لا يَمْلِكُونَ قُدْرَةً عَلَى فَضْلِ اللَّهِ تعالى، وأنهم لن ينالوا ولو أَجْرًا واحدًا؛ لأنَّ الإيمانَ بالنبى الكريم ﷺ أصبح فرضًا بعد الإعلان عن بُبُوته، لكنَّهم لم يؤمنوا به ﷺ، واختاروا الكُفْرَ، ممَّا أَدَّى إِلَى ضِيَاعِ أَجْرِهِمِ الْأَوَّلِ أيضًا، ولو كانوا آمنوا بالنبى الكريم ﷺ لَقَبِلَتْ حَسَنَاتُهُمِ الْأَوَّلَى أيضًا، ولكنَّ ضَاعَ مِنْهُمْ كُلُّ شَيْءٍ بِسَبَبِ إنْكَارِهِمْ. على أيِّ حال، الله تعالى قَادِرٌ مُّطْلَقٌ، وهو الذي يَتَفَضَّلُ عَلَى مَنْ يُطِيعُهُ وَيَتَكَرَّمُ عَلَيْهِ.

الفقيه إلى الله: محمّد إمداد حُسين بيززاده،

جامعة الكرم، إنجلترا

بعد صلاة الظهر من يوم السبت ١٨ سبتمبر ٢٠١٠م

الموافق ٩ شوال ١٤٣١هـ

هذا، وقد اكتمل تفسيرُ سورة «الحديد» بفضل الله تعالى وكرمه في خمسة أيام فقط، أي: من ١٣ إلى ١٨ سبتمبر، وهذا يعني أنني بدأتُ تفسيرَ الجزء السابع والعشرين في ٣١ يوليو، واكتمل اليوم في شهرٍ وثمانية عشرَ يومًا، والحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٨) سُورَةُ الْمُجَادِلَةِ

هذه السورة مدنيّة، واسمها: «المُجادلة»، وهو مأخوذ من الآية الأولى منها.

المجادلة

إذا قرأنا كلمة «المُجادلة» بدالٍ مفتوحة يكون معناها: «الجدال والنقاش»، وإذا قرأناها بدالٍ مكسورة يكون معناها: «المرأة المُجادلة».

ويُذكر أنّ سبب نزول هذه السورة هو أنّ سيّدنا أوس بن الصّامت رضي الله عنه قال لزوجته خولة بنت ثعلبة بن مالك - في شيء راجعته فيه: «أنت عليّ كظهر أمي»، وكان الرجل في الجاهليّة إذا قال لزوجته ذلك، حرّمت عليه، فنّدم من ساعته، فدعاها فأبّت وقالت: والذي نفس خولة بيده، لا تصل إليّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله ﷺ، فأتت رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إنّ أوساً تزوّجني وأنا شابة مرغوب فيّ، فلمّا خلا سنيّ، ونثرت بطني (كثُر ولدي)، جعلني عليه كأّمه، وتركني إلى غير أحدٍ، فإن كنت تجد لي رخصةً يا رسول الله تُعشّني بها وإياه، فحدّثني بها.... ورؤي أنها قالت: إنّ لي صبيّة صغاراً، إنّ ضمّمتهم إليه ضاعوا، وإن ضمّمتهم إليّ جاعوا، وجعلت ترفع رأسها إلى السّماء، وتقول: اللهمّ إنّني أشكو إليك، اللهمّ فأنزل على لسان نبيّك^(١).

وهكذا استجاب الله تعالى دعاءها، ونزلت هذه السورة، وقد سُميت هذه السورة باسم «المجادلة» نسبةً إلى جدال السيدة خولة رضي الله عنها.

الظهار

في الجزيرة العربية قبل الإسلام كان الشخص إذا قال لزوجته: «أنت عليّ كظهر أمي» اعتُبر ذلك طلاقاً، وتحرّم عليه امرأته؛ لأنّه شبّهها بأمّه، وحُكّم الإسلام فيما يتعلّق بهذا الأمر هو أنّ الزوجة لا تصبح أمّاً للزوج إذا قال لها بلسانها: «أنت عليّ كظهر أمي»، وبالتالي لا يقع طلاقها، إلّا أنّ الإسلام منع من مثل هذا القول، فإذا قال زوجٌ مثلاً هذا الكلام لزوجته يكون عليه أداء كفارة، ويقال لهذا الأمر في المصطلح الفقهي: «الظهار».

حدود الله

الذين يتعدّون حدودَ الله تعالى المقرّرة ينبغي لهم أن يعتبروا من المصير السيّئ للأقوام السابقة، وما هو التبرير الذي سيقدّمونه يوم القيامة عندما يُسألون؟

المنافقون

جاء في الآية السابعة والآية الثامنة من هذه السورة تنبيهٌ للمنافقين، بأنّ المؤامرات التي تحيكونها ضدّ الإسلام، وتهاؤسكم حولّه فيما بينكم، يعلمه الله كلّها تمام العلم، وإنّ لم ترجعوا عن تأمركم هذا فسيكون مصيركم في الآخرة هو جهنّم.

المؤمنون

في الآيتين: التاسعة والعاشر من هذه السورة تعليمٌ للمسلمين بأنّ تهاؤس

المنافقين فيما بينهم وتناجيهم لن يضرَّكم في شيء، ولهذا لا تتحدَّثوا بالإثم والعدوان فيما بينكم عندما تَخْتُلُون بأنفسكم، وإنَّما تحدَّثوا فيما بينكم بالبرِّ والتقوى، وتوكلوا على الله، وهو حاميكم وناصرُكم.

آداب المجلس

إذا جلستُم في مجلسٍ من المجالس، ولحق بكم أحدٌ من بعدكم، فافسحوا مكانًا له ليجلسَ فيه، وإذا طلبَ منكم مضيفُ المجلسِ المغادرةَ فعليكم أن تغادروا برضى وطيبِ خاطر، ولا تتدخلوا في أمورِ مُضيفكم.

حزب الله وحزب الشيطان

في نهاية السورة جاء بيانٌ لطائفتين، الأولى: هي حزبُ الشيطان، أي: الذين يتَّبَعُونَ الشَّيْطَانَ، وهؤلاء همُ الأَخْسَرُونَ في الآخرة، والثانية: هي حزبُ الله، وهم أكثرُ الناسِ حُبًّا لله تعالى ولرسوله، وهؤلاء همُ المفلحون في الآخرة.

الفقيه إلى الله: محمَّد إمداد حُسين بيززاده،
جامعة الكرم، إنجلترا
بعد صلاة الظهر من يوم الأحد ١٩ سبتمبر ٢٠١٠م
الموافق ١٠ شوال ١٤٣١هـ.



سُورَةُ الْمَجَادِلَةِ (٥٨)،

مدنية (١٠٥)، آياتها (٢٢)، ركعاتها (٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحَرِيرُ رَقَبَةٍ مَنْ قَبْلَ أَنْ يَتِمَّاسًا ذَلِكَ كُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتِمَّاسًا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاطْعَامُ سِتِّينَ مَسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوا كَمَا كُنْتِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنُسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾

١ - في هذه الآية إشارة إلى واقعة السيدة خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها، والتي ظاهرها زوجها سيدنا أوس بن الصامت رضي الله عنه.

ومفهوم الظاهر هنا هو أنه (أي: سيدنا أوسًا) قال لزوجته (أي: السيدة خولة): أنت علي كظهر أمي، وكان هذا يُعدُّ طلاقاً في الجاهلية، فلما سمعت السيدة خولة

هذا انزعجت كثيرا وقالت: والذي نفس خولة بيده، لا تصل إلي وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله ﷺ، فأتت رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن أوسا تزوجني وأنا شابة مرغوب في، فلما خلا سني، ونثرت بطني (كثُر ولدي)، جعلني عليه كأمه، وتركني إلى غير أحد، فإن كنت تجد لي رخصة يا رسول الله تُنعضني بها وإياه، فحدثني بها.... وروي أنها قالت: إن لي صبية صغارا، إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلي جاعوا، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء، وتقول: اللهم إني أشكو إليك، اللهم فأنزل على لسان نبيك^(١). وهكذا استجاب الله تعالى دعاءها، ونزلت هذه السورة، ثم استدعى النبي ﷺ سيدنا أوس بن الصامت رضي الله عنه وقال له: «اعتق رقبة». قال: لا أجد. قال: «صم شهرين متتابعين»، قال: إن لم أكل في اليوم ثلاث مرات خفت أن يعشوا بصري. قال: «فأطعم ستين مسكينا»، قال: فأعني. فأعانه بشيء^(٢).

وهذا شرف للسيدة خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها، أن الله تعالى قال في هذه الآية: «إنا قد التفتنا إلى هذه المرأة وسمعنا صوتها، بل وأنزلنا آيات من القرآن الكريم إجابة عليها، وبسبب هذه الواقعة أصبح للسيدة خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها مكانة عظيمة لدى الصحابة الكرام رضي الله عنهم، وكانوا يحترمونها كثيرا. وفي هذا الخصوص ينقل العلامة القرطبي واقعة فحواها أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بها ذات مرة في خلافته والناس معه على حمار، فاستوقفته طويلا ووعظته وقالت: يا عمر، قد كنت تدعى عميرا، ثم قيل لك: عمر، ثم قيل لك: أمير المؤمنين، فاتق الله يا عمر، فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت، ومن أيقن بالحساب خاف

(١) التفسير المنير.

(٢) تفسير القرطبي، سورة المجادلة (٥٨): الآية ١.

العذاب، وهو واقفٌ يسمعُ كلامها، فقليل له: يا أمير المؤمنين، أنقذْ لهذه العجوزِ هذا الوقوفَ؟ فقال: والله لو حبسني من أولِ النهارِ إلى آخره لا زِلْتُ إِلَّا للصلاة المكتوبة، أتدرون من هذه العجوزُ؟ هي خولة بنت ثعلبة، سمع الله قولها من فوق سبع سموات، أسمعُ ربُّ العالمين قولها ولا يسمعه عمر؟^(١).

﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مَنْ نَسَاهُمْ مَا هُمْ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾

٢ - في الجزيرة العربية قبل الإسلام كان الشخصُ إذا قال لزوجته: «أنتِ عليّ كظهر أمي» اعتبر ذلك طلاقاً، وتحرمُ عليه امرأته، لأنه شبَّهها بأمه، وحكم الإسلام فيما يتعلق بهذا الأمر هو أن الزوجة لا تصبحُ أمّاً للزوج إذا قال لها بلسانها: «أنتِ عليّ كظهر أمي»، وبالتالي لا يقع طلاقها؛ لأنَّ الأم في الأصل هي: التي ولدت، وقولك لزوجتك مثل هذا الكلام أمرٌ مكروهٌ في ذاته غاية الكراهية، والأمر الآخر هو أن هذا كذبٌ صريحٌ؛ لأنَّ الزوجة لا يمكنُ أن تكونَ أمّاً، فإذا قال زوجٌ مثل هذا الكلام لزوجته يكونُ عليه أداءُ كفارة، ويقال لهذا الأمر في المصطلح الفقهي «الظهار».

﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا﴾

٣ - الشخصُ الذي يُظاهرُ زوجته، ثم يريدُ إعادتها إليه، فإنَّ حكمَ الإسلام فيه هو: أن يؤديَّ الكفارة قبل أن يمسَّ زوجته، يعني: أن يُعتقَ غلاماً أو أمةً، فإذا لم يستطع يصوم شهرين متتابعين، فإذا لم يستطع هذا أيضاً يكونُ عليه إطعام ستين مسكيناً، وهذا حدٌّ مقررٌ من الله تعالى، ولهذا يجبُ عليكم أن تؤمنوا بالحدود التي قرَّرها الله ورسوله، ولا تعتدوها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾

٤ - يقول العلامة الصاوي: «هذه الآية نزلت في أهل مكة عام الأحزاب، حين أرادوا التحزب على رسول الله وأصحابه»^(١)، لكنهم عادوا في خزي أذلاء، ثم هزموا هزيمة منكرة إلى الأبد بعد فتح مكة. وطبقاً لما نقله العلامة القرطبي فإن المراد بهم: منافقو المدينة، إذ حين افتضح أمر نفاقهم أصابهم الخزي والعار الأبدي، وللمنكرين جميعاً في الآخرة - بالطبع - عذاب الخزي الأليم، كما أن الله تعالى أنزل معجزات بينات تصديقاً للنبي الكريم ﷺ، فالذين لا يؤمنون برغم ذلك سيحاسبهم الله تعالى على كل أعمالهم يوم القيامة، رغم أنهم سيكونون حتى ذلك الوقت قد نسوها، ولكن حين يكشف الله تعالى عن أفعالهم القبيحة أمام الناس، سيكون ذلك سبباً في إلحاق الخزي والعار بهم.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يَنْتَهِمُ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُونَهَا فَاِغْلُظْ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالنَّقْوَى وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُبَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا يَرْفَعِ

اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَاشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ صَدَقْتُمْ فَأِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾

٥ - كان كلما اجتمع بعض المنافقين معاً في أي مكان تأمروا على الإسلام، وكانوا يظنون أن لا أحد يعرف بنجواهم وتهاؤمهم فيما بينهم، وفي هذه الآية تبهم الله تعالى بأنكم سواء كنتم ثلاثة أم خمسة أم أقل من ذلك أم أكثر، وأيا كان عددكم، وأيا كان المكان الذي تتخفون فيه، فإن ذلك كله لا يمكن أن يخفى على الله في شيء، فهو يراكم في كل وقت وفي كل مكان، وسوف يفضح أفعالكم القبيحة أمامكم يوم القيامة، وسيحاسبكم طبقاً لها ويعاقبكم عليها.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَنِ وَمَعْصِيَةِ الرُّسُولِ﴾

٦ - كلما اجتمع يهود المدينة مع المنافقين تأمروا ضد الإسلام، فإذا مرَّ أحد من المسلمين من عندهم قربوا رءوسهم من بعضهم كأنهم يتهايمسون فيما بينهم، وأشاروا إلى هذا المسلم، مما كان ينزعج له المسلم كثيراً، ظناً منه أنهم يتآمرون عليه، وحين شكوا المسلمون إلى النبي ﷺ هذه الحركة التي يقومون بها، منع النبي ﷺ المنافقين من مثل هذا التناجي والتهاؤم، ولكن لما لم يرجعوا عن تأمرهم ذكر الله تعالى عصيانهم هذا في القرآن المجيد.

لقد منع الإسلام من أيّ تناجٍ أو تهاؤسٍ يكون فيه إيذاءٌ لقلبٍ أحدٍ، مثلما يقول سيّدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، من أنّ النبي ﷺ قال: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى رجلان دون الآخر، حتّى تختلطوا بالناس، أجل أن يُحزنه»^(١)، لكنّ تناجي وتهاؤس الاثنين فيما بينهما بإذن الثالث جائز؛ لأنه - في هذه الحالة - لن يكون هناك ما يُزعج الثالث، أمّا إذا كانوا أكثر من ثلاثة فيستطيع اثنان منهم إن أرادا أن يتنحيا جانباً ويتناجيا.

﴿وَإِذَا جَاءَكَ حَيَّوْكَ مِمَّا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾

٧ - كان اليهود والمنافقون كلّما ألقوا السلام على النبي ﷺ والمسلمين قالوا: «السّام عليكم»! بمعنى: لينزل الموت عليكم؛ لأنّ «السّام» بمعنى: الموت، وذلك بدلاً من أن يقولوا: «السلام عليكم»، وكانوا يقولونها بطريقةٍ خاصّةٍ لا يتنبّه المسلمون بسببها إلى ما يقولون، وبعد أن يقولوا هذه الجملة المهيّنة كانوا يتهاؤسون فيما بينهم قائلين عن النبي ﷺ: لو كان نبياً حقّاً لنزل علينا العذاب عقاباً لنا على هذه الجملة المهيّنة التي نقولها، ولهذا فإننا نعتقد أنه ليس نبياً حقّاً.

وفي هذه الآية تنبيهٌ لهم بأنّ الله تعالى يعلم تمام العلم مؤامراتكم، وإذا كان قد أمهلكم في الدنيا - لحكمةٍ عنده - فليس معنى هذا أنّكم ستُفْلَتُونَ مِنَ الْعِقَابِ، بل إنه تعالى قد أعدّ لكم عذاب جهنّم عقاباً لكم على إساءتكم هذه، وسوف تدخلون جهنّم على وجه اليقين في يوم من الأيام.

- تقول السيّدّة عائشة رضي الله عنها: أتى النبي ﷺ أناسٌ من اليهود، فقالوا:

السَّامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ (أي: فليُنزِلِ الموتُ عليك يا أبا القاسم). قال: «وعليكم» (أي: فليُنزِلْ عليكم ما دَعَوْتُمْ به علينا). قالت عائشة: قلت: بل عليكم السَّامُ والذَّامُ. فقال رسولُ الله ﷺ: «يا عائشة، لا تكوني فاحشةً». فقالت: ما سَمِعْتُ ما قالوا؟ فقال: «أوليس قد رَدَدْتُ عليهمُ الَّذي قالوا؟ قلت: وعليكم»^(١).

- يقولُ سيِّدنا أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَقُولُوا: وَعَلَيْكُمْ»^(٢)، وكانت هذه إِساءَةً مِنَ الْيَهُودِ وَالْمَنَافِقِينَ، مَعَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اسْتَعْمَلَ لَفْظَ «سَلامٍ» لِكُلِّ الرُّسُلِ الْكَرامِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ، مِثْلَما قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّجُوا بِالْأَنِّ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّجُوا بِالْبَرِّ وَالنَّقْوَى وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

٨ - هنا تربيةٌ لأهل الإيمانٍ وتدريبٌ لهم بأن لا تُشاركوا في مجلسٍ مُريبٍ أو في تناجٍ وتهاُمٍ يجري التخطيُّطُ فيه لارتكابِ ذنبٍ أو طُغيانٍ وظلمٍ، وإنَّما شارِكوا في تناجٍ وتهاُمٍ يكونُ الحديثُ فيه عن فعلِ الحسناتِ وخَشْيَةِ اللهِ تَعَالَى؛ لأنَّ الجميعَ - في نهايةِ الأمرِ - سَيَمُثَلُونَ في حَضْرَةِ اللهِ تَعَالَى ذاتِ يومٍ، مِثْلَما قالَ اللهُ تَعَالَى في سورةِ المائدةِ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالنَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِنِّ وَالْعُدُونِ وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

﴿إِنَّمَا التَّجَوَّى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾

٩ - يعني: أَنَّ الشَّيْطَانَ هو الَّذي يُحَرِّضُ الْيَهُودَ وَالْمَنَافِقِينَ عَلَى التَّنَاجِيِ بِالْإِثْمِ

(١) مسلم، كتاب السلام، باب ٤ برقم ٥٦٥٨.

(٢) البخاري، كتاب الاستئذان، باب ٢٢ برقم ٦٢٥٨.

والعدوان، بحيث ينزعج المسلمون. وفي هذه الآية يُسرِّي الله تعالى عن قلوب أهل الإيمان بأنه على افتراض أنهم - بإغواء من الشيطان لهم - يَحِيكُونَ مؤامرةً ضدَّكم، فإنَّهم مع ذلك لا يستطيعون إلحاق أيِّ ضررٍ بكم إلا بإذن الله تعالى، ولهذا لا تُبالوا بهم، وتوكلوا على الله واعتمدوا عليه وحده.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا﴾

١٠ - في هذه الآية تعلُّيمُ المسلمين آداب المجالس، يعني: إذا كنتم في مجلسٍ من المجالس، ثم لحق بكم آخرٌ من بعدكم، فافسحوا له مكاناً ليجلس فيه، والله تعالى سيفسح لكم في الرزق والأجر مقابل فعلكم هذا، وإذا طلب منكم مُضيفُ المجلس الانصراف فانصرفوا عن طيب خاطرٍ راضين، ولا تتدخلوا في أموره ومعاملاته.

﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾

١١ - غير المؤمنين والجاهلون مهما كانوا أغنياء في هذه الدنيا، ليس لهم في الآخرة نصيبٌ، وستكون درجاتُ أهل الإيمان في الآخرة عاليةً، كما أنَّ درجات العلماء من أهل الإيمان ستكون أعلى وأرفع.

- يقول سيِّدنا أبو الدرداء رضي الله عنه: إنه سَمِعَ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ سَلَكَ طريقاً يبتغي فيه علماً سَلَكَ اللهُ به طريقاً إلى الجنة، وإنَّ الملائكةَ لتضعُ أجنتَها رضا لطالب العلم، وإنَّ العالمَ لَيَسْتَغْفِرُ له مَنْ في السَّمَوَاتِ وَمَنْ في الأرضِ حَتَّى الحِيتَانِ في الماءِ، وَفَضَّلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا درهماً إِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحِطَّةٍ وَافِرٍ»^(١).

- يقول سيّدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: إنّ النبي ﷺ قال: «إذا اجتمع العالم والعابد على الصراط؛ قيل للعابد: ادخل الجنة وتنعم بعبادتك، وقيل للعالم: قف هنا واشفع لمن أحببت، فإنك لا تشفع لأحدٍ إلا شُفعت، فقام مقام الأنبياء»^(١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

١٢ - أمر الله تعالى بتقديم صدقة قبل التناجي مع النبي ﷺ قائلاً: إنّ هذا خير لكم، وفي هذا الخصوص يقول سيّدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «نزلت بسبب أنّ المسلمين كانوا يكثرُونَ المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقُّوا عليه، فأراد الله عزَّ وجلَّ أن يُخَفِّفَ عن نبيِّه ﷺ، فلمَّا قال ذلك كفَّ كثيرٌ من الناس»^(٢).

كما أنّ الأغنياء وأصحاب الثروات كانوا يسألون النبي ﷺ كثيراً، ولم يكن المساكين يجدون فرصة لسؤال النبي ﷺ، وحين أمر الله تعالى بتقديم صدقة قبل مناجاة النبي ﷺ امتنع أكثر الأغنياء عن سؤال النبي ﷺ، وبذا أُتيح للمساكين فرصة سؤال النبي ﷺ؛ لأنَّ من ليس لديه شيءٌ يقدِّمه صدقةً إذا سأل دون أن يقدِّم صدقةً فإنَّ الله تعالى يتكرَّم عليه ويتفضَّل.

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَنَّ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ صَدَقَتٍ فَإِذْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾

١٣ - يعني: إذا بدَّ لكم تقديم صدقة قبل مناجاة النبي ﷺ أمراً صعباً عليكم، وبالتالي لم تقدّموا صدقة، فلم يؤاخذكم الله على ذلك، وإنّما تكرّم عليكم، ونسخ

(١) الجامع الصغير، ١: ٢٧ برقم ٣٥٢، وجمع الجوامع، ١: ١٣٨ برقم ٨٧٨، وكنز العمال، ١٠: ١٣٦ برقم ٢٨٦٨٨.

(٢) تفسير القرطبي.

حُكْم تقديم الصَّدَقَةِ سريعًا، ولهذا عليكم الآن أن تقيموا الصَّلَاةَ وتؤدُّوا الزَّكَاةَ،
واسألوا رسولَ الله ﷺ دونَ أن تقدِّموا صَدَقَةً.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾
أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ
اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٦﴾ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ
النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى
شَيْءٍ أَلَا إِنَّمَا هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ
أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾
كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَ بِي أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ
إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ
وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ
أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾

١٤ - ما أعجب المنافقين من بشر! فقد كانوا في الظاهر مع المسلمين،
لكنهم في الحقيقة لم يكونوا مسلمين، فقد كانوا يؤكِّدون لليهود صداقتهم لهم،
وهم الذين غَضِبَ اللهُ عليهم، لكن الحقيقة أنَّ هؤلاء لم يكونوا يهودًا أيضًا، ولهذا
فإنهم لم يكونوا من المسلمين بشكلٍ كامل، كما لم يكونوا من اليهود بشكلٍ كامل
أيضًا، وإنما كانوا معلَّقين بينَ هذا وذاك، مثلما قال الله تعالى: ﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ
لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النساء: ١٤٣].

يقول سيّد محمود الألوسي في تفسير هذه الآية: «وفي الحديث: مثلُ المنافقِ مثلُ الشاةِ العائرة بينَ غنَمَيْنِ - أي: المتردّدة بينَ قطيعَيْنِ - لا تدري أيُّهما تتبّع»^(١).

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

١٥ - قال السُّدِّيُّ ومُقاتِلٌ: «نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ نَبْتَلٍ الْمُنَافِقَيْنِ، كَانَ أَحَدُهُمَا يُجَالِسُ النَّبِيَّ ﷺ ثُمَّ يَرْفَعُ حَدِيثَهُ إِلَى الْيَهُودِ، فَيُبَيِّنُ النَّبِيُّ ﷺ فِي حُجْرَةٍ مِنْ حُجَرَاتِهِ إِذْ قَالَ: «يَدْخُلُ عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ قَلْبُهُ قَلْبُ جَبَّارٍ وَيَنْظُرُ بَعَيْنِي شَيْطَانٍ»، فَدَخَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ نَبْتَلٍ - وَكَانَ أَزْرَقَ أَسْمَرَ قَصِيرًا خَفِيفَ اللَّحْيَةِ - فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «عَلَامَ تَشْتُمْنِي أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ؟»، فَحَلَفَ بِاللَّهِ مَا فَعَلَ ذَلِكَ. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «فَعَلْتَ»، فَاِنْطَلَقَ فَجَاءَ بِأَصْحَابِهِ فَحَلَفُوا بِاللَّهِ مَا سَبَّوْهُ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ»^(٢).

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

١٦ - أَعَدَّ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُنَافِقِينَ عَذَابًا شَدِيدًا؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُنَافِقُونَ مِنْ جَانِبٍ، وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ كَانُوا يَحْلِفُونَ كَذِبًا، وَكَلَا الْأَمْرَيْنِ فِي غَايَةِ الشُّوْءِ.

﴿أَتُخَذُوا أَيْمَنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾

١٧ - كَانَ الْمُنَافِقُونَ يَزْرَعُونَ الشُّكُوكَ وَالشُّبُهَاتِ فِي قُلُوبِ النَّاسِ ضِدَّ الْإِسْلَامِ حَتَّى لَا يَدْخُلُوا فِيهِ، وَحِينَ كَانَ الْمُنَافِقُونَ يُسْأَلُونَ عَنْ تَأْمِيرِهِمْ هَذَا فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُقْسِمُونَ - كَذِبًا - أَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ صَادِقُونَ، وَأَنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ شَيْئًا ضِدَّ الْإِسْلَامِ،

(١) تفسير روح المعاني، سورة المجادلة (٥٨): الآية ١٤. والحديث في صحيح مسلم، برقم ٢٧٨٤، عن ابن عمر.

(٢) تفسير القرطبي.

وهكذا كانوا يُنْقِذُونَ أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْعِقَابِ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْأَوْلَادَ الَّذِينَ يَحْلِفُونَ كَذِبًا مِنْ أَجْلِ الْحِفَاطِ عَلَيْهِمْ، وَأَمْوَالَ الْغَنَائِمِ الَّتِي يَحْلِفُونَ كَذِبًا طَمَعًا فِي الْحَصُولِ عَلَيْهَا، لَنْ يَسْتَطِيعُوا إِنْقَادَهُمْ مِنْ عَذَابِ الْخِزْيِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ، كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ، وَحَسْبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾

١٨ - مَتَتَّى الْحِمَاقَةِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ أَنَّهُ حِينَ يَتَضَحُّ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ تَمَامًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، سَيَحْلِفُونَ كَذِبًا أَيْضًا، مِثْلَمَا يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وَيَتَصَوَّرُونَ أَنَّ هَذِهِ الْإِيمَانَ الْكَاذِبَةَ سَتَنْفَعُهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِثْلَمَا كَانُوا يُنْقِذُونَ أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْعِقَابِ عَنْ طَرِيقِهَا فِي الدُّنْيَا، وَلَكِنْ عَلَيْهِمْ أَنْ يَفْهَمُوا جَيِّدًا أَنَّ الْكَذِبَ لَنْ يُفِيدَ بِشَيْءٍ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَإِنَّمَا سَيَأْتِي الْإِعْلَانُ - بوضوح - مِنْ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ، وَأَنَّهُمْ سَيُخْلَدُونَ فِي جَهَنَّمَ.

﴿أَسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ إِلَّا إِنْ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

١٩ - الَّذِينَ يَتَغَلَّبُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ يُرْسِخُ مَحَبَّةَ الذُّنُوبِ فِي قُلُوبِهِمْ وَعَقُولِهِمْ إِلَى دَرَجَةٍ أَنَّهُ يُنْسِيهِمْ ذِكْرَ اللَّهِ تَعَالَى، وَهَكَذَا يَتَوَغَّلُ هَؤُلَاءِ فِي غَفْلَتِهِمْ بِحَيْثُ لَا يَخْطُرُ عَلَى بَالِهِمْ أَصْلًا أَنَّ لَهُمْ رَبًّا، وَأَنَّهُ سَيُحَاسِبُهُمْ أَيْضًا، وَيَنْضَمُّ هَؤُلَاءِ إِلَى حِزْبِ الشَّيْطَانِ، فَيَفْعَلُونَ - فَقَطْ - مَا عَاقِبَتُهُ الْخَسَارَةُ الدَّائِمَةُ.

﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَ بَكَ أَنَا وَرُسُلِي﴾

٢٠ - الَّذِينَ يُخَالِفُونَ اللَّهَ تَعَالَى وَرَسُولَهُ ﷺ وَيَعَادُونَهُمَا هُمُ الْأَذْلُونَ وَالْأَخْسَرُونَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ أَنَّ الْغَالِبَ فِي نَهَايَةِ الْأَمْرِ هُوَ اللَّهُ

تعالى ورسله، والله تعالى يساعد رسله بالدلائل والمعجزات الواضحة بما لا يمكن للكفار أن يزودوا عليه بمثله، وكثيراً ما انتصر الأنبياء الكرام عليهم السلام سياسياً أيضاً في ميدان الصراع هذا، مثلما حدث مع سيدنا موسى عليه السلام في مقابل الفرعون ورجاله، ومع نبينا الكريم ﷺ في مقابل المشركين العرب، حيث انتصرا سياسياً أيضاً، لكن الأنبياء الكرام الذين لم تكتب لهم الغلبة السياسية - لحكمة عند الله تعالى - ثبت الله تعالى أقدامهم في مهمتهم ورسالتهم، بحيث لم تستطع جبال المصائب والآلام أن تقلل من عزيمتهم في شيء.

﴿لَا يَحِدُّهُمْ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾

٢١ - لا يمكن أن تدخل محبة أحد في قلوب أهل الإيمان يكون عدواً لله ورسوله ﷺ، حتى ولو كان من آبائهم أو أبنائهم أو إخوانهم أو أقاربهم الأقربين.

وفي كتب التاريخ والتفسير أحداث وواقعات لا حصر لها، تُخبرنا أنه ما من مرة شارك فيها أب أو ابن غير مسلمين في الحرب ضد المسلمين، إلا وقام الابن أو الأب المسلم بالتغاضي عن قرابة الدّم هذا، وقطع عني هؤلاء، وقد ذكر العلامة القرطبي في تفسير هذه الآية عدة واقعات بهذا الشكل، نذكر بعضها فيما يلي:

- «وقال ابن مسعود: نزلت في أبي عبيدة بن الجراح، قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أحد، وقيل: يوم بدر»^(١).

- «قال ابن جريج: حدثت أن أبا قحافة سب النبي ﷺ، فصكه أبو بكر ابنه صكة فسقط منها على وجهه، ثم أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال: أوفعلته؟ لا

تَعُدُّ إِلَيْهِ، فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ نَبِيًّا، وَلَوْ كَانَ السَّيْفُ مَنِيَّ قَرِيبًا لَقَتَلْتُهُ»^(١)، وَقَدْ أَسْلَمَ سَيِّدُنَا أَبُو قُحَافَةَ فِيمَا بَعْدُ.

- فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ دَعَا عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ سَيِّدِنَا أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْحَرْبِ وَالنِّزَالِ (وَلَمْ يَكُنْ قَدْ أَسْلَمَ بَعْدُ، فَأَرَادَ سَيِّدُنَا أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يُنَازِلَهُ)، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَتَّعْنَا بِنَفْسِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، أَمَا تَعْلَمُ أَنَّكَ عِنْدِي بِمَنْزِلَةِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ؟»^(٢).

مصادقة الكفار

أُولَئِكَ الْكُفَّارُ الَّذِينَ يُبْغِضُونَ الْإِسْلَامَ، وَيَبْذُلُونَ قُصَارَى جُهِودِهِمْ فِي إِذَاءِ الْمُسْلِمِينَ، لَا تَجُوزُ أَبَدًا مَصَادِقَتُهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ - بِذَلِكَ - سَيَعْرِفُونَ أَسْرَارَ الْمُسْلِمِينَ، أَوْ يَقْدُمُونَ لَهُمْ مَشُورَةً خَاطِئَةً لِيَزِيدُوا فِي خَسَارَتِهِمْ وَإِذَائِهِمْ، لَكِنَّ الْكُفَّارَ أَصْحَابَ الْمَزَاجِ الْمَعْتَدِلِ، وَالَّذِينَ لَا يُضَايِقُونَ الْمُسْلِمِينَ أَوْ يُؤْذِنَهُمْ بِشَكْلِ مُبَاشِرٍ أَوْ غَيْرِ مُبَاشِرٍ، يَجُوزُ لِلْمُسْلِمِينَ مَعَامَلَتُهُمْ مَعَامَلَةً حَسَنَةً: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ [الْمُمْتَحَنَةُ: ٨]، وَكَذَا التَّعَاوُنُ مَعَهُمْ فِي التِّجَارَةِ وَأَعْمَالِ التَّنْمِيَةِ، وَالدَّفَاعُ ضِدَّ الْعَدُوِّ الْمَشْتَرَكِ مِنْ خِلَالِ إِبْرَامِ الْمَعَاهِدَاتِ وَمَا شَابَهُ، بَلْ إِنَّهُ يَجِبُ التَّعَامُلُ مَعَهُمْ بِأَخْلَاقٍ حَسَنَةٍ تَجْعَلُهُمْ يَتَأَثَّرُونَ بِالْإِسْلَامِ وَيَدْخُلُونَ فِيهِ.

﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

٢٢ - السُّعْدَاءُ الَّذِينَ يَقْدُمُونَ مَحَبَّةَ اللَّهِ تَعَالَى وَمَحَبَّةَ رَسُولِهِ الْكَرِيمِ ﷺ عَلَى

(١) تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ، سُورَةُ الْمَجَادِلَةِ (٥٨): الْآيَةُ ٢٢.

(٢) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، سُورَةُ الْمَجَادِلَةِ (٥٨): الْآيَةُ ٢٢.

محبّة آبائهم وأبنائهم وأقاربهم، يُنعمُ الله تعالى عليهم بالإِنعاماتِ التالية:

١ - يجعلُ الله تعالى الإيمانَ في قلوبهم راسخًا بحيث لا يمكنُ أن يتعدوا عنه أبدًا.

٢ - يقوّي قلوبهم بُنورٍ خاصٍّ من عنده بحيث يَمَنَحُهم السَّكِينَةَ والطَّمَأْنِينَةَ.

٣ - يُدْخِلُهم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار.

٤ - سيرَضَى الله عن عبوديتهم، وسيرَضُونُهم عن ربوبيّة الله تعالى.

٥ - سيَشْمَلُهم الله تعالى في حزبٍ عباده المقربين.

٦ - سيكونونَ من المفلحين.

الفقيه إلى الله: محمّد إمداد حُسين بيززاده،

جامعة الكرم، إنجلترا

بعد صلاة العشاء من يوم الثلاثاء ٢١ سبتمبر ٢٠١٠م

الموافق ١٢ شوال ١٤٣١هـ.

هذا وقد اكتمل بفضل الله تعالى وكرمه تفسيرُ سورة «المجادلة» في يومين

فقط، أي: من ١٩ إلى ٢١ سبتمبر، والحمدُ لله ربّ العالمين، والصلاة والسلامُ على سيّد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٩) سُورَةُ الْحَشْرِ

هذه السُّورَةُ مَدَنِيَّةٌ، واسمُها «الحَشْر»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الثانيةِ منها.
ولهذه السُّورَةُ اسمٌ آخرٌ أيضًا وهو: «بنو النَّضِير»؛ لأنه جاء فيها بيانٌ لقِصَّةِ نَفْيِ
قبيلةِ بني النَّضِيرِ اليهوديةِ من المدينة، وخَلْفِيَّةُ هذه القِصَّةِ كما يلي:

قدوم النبي ﷺ إلى المدينة

عندما هاجرَ المسلمونَ من مَكَّةَ المَكْرَمَةِ إلى المدينةِ المَنُورَةِ، كان اليهودُ
يُمَثِّلُونَ هناكَ مجموعةً قويَّةً، وكانوا حياتُهُمْ مُرْفَهَةً من الناحيةِ الاقتصاديةِ، كما كانوا
يتفَوَّقُونَ علميًّا أيضًا على أهلِ المدينةِ باعتبارِهِم أهلَ كتاب، ولم يكنْ من الممكنِ
في ذلك الوقتِ إقامةُ وحدةٍ بينَ أطرافِ المجتمعِ المدنيِّ ما لم يكنِ اليهودُ أيضًا جزءًا
منه، وفي نفسِ الوقتِ كانَ الأعداءُ الأوَّلُ للإسلام، أي: أهلُ مَكَّةَ، يعملونَ بكلِّ ما
يملِكُونَهُ من قوَّةٍ على القضاءِ على المسلمينَ قضاءً مُبرِّمًا، وكان من الممكنِ أن
يُغَيِّرُوا على المدينةِ في أيِّ وقتٍ، وللتغلُّبِ على هذه المُعَوِّقاتِ الداخليَّةِ والخارجيَّةِ
كانَ لا بدَّ من وجودِ دستورٍ موسَّعٍ، ولهذا أَعَدَّ النَّبِيُّ ﷺ معاهدةً ينضوي تحتها اليهودُ
أيضًا بالإضافةِ إلى المهاجرينَ وَالْأَنْصَارِ، وتُعَدُّ هذه الوثيقةُ أوَّلَ دستورٍ مكتوبٍ في
العالمِ.

أول دستور مكتوب في العالم

يمكنُ الاطلاعُ على تفاصيلِ هذا الدُّستور في كُتُبِ التاريخ، وأنا هنا أنقلُ إليك من صفحاتِ رقم ١٠٧-١٠٨ من الجزء الثاني من «سيرة ابن هشام» بعضَ الجُمَل من هذا الدُّستور في شكلِ بنودٍ منتظمة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- هذا كتابٌ من محمدٍ ﷺ النبيِّ الأُمِّيِّ، بينَ المؤمنينَ والمسلمينَ من قُرَيشٍ ويَثَرِبَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ فَلَاحِقَ بِهِمْ وَجَاهَدَ مَعَهُمْ، أَنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ دُونِ النَّاسِ.

- الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ عَلَى مَنْ بَغَى مِنْهُمْ، أَوْ ابْتَغَى ظُلْمًا أَوْ إِثْمًا أَوْ عُدَوَانًا أَوْ فسادًا بينَ المؤمنينَ، وَإِنَّ أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِ جَمِيعُهُمْ، وَلَوْ كَانَ وَلَدٌ أَحَدِهِمْ.

- أَيُّ اخْتِلَافٍ يَنْشَأُ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ يَكُونُ فَإِنَّ مَرَدَّهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ.

- يَحْرُمُ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ إِثَارَةُ أَيِّ نَوْعٍ مِنَ الْفِتْنَةِ أَوْ الْفَسَادِ فِي يَثَرِبَ.

* يَحْرِصُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْمَشَارِكِينَ فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ عَلَى خَيْرِ الْآخِرِ بِكُلِّ إِخْلَاصٍ، وَلَا يَظْلِمُ أَحَدٌ أَحَدًا مِنْ حُلَفَائِهِ.

* مَنْ تَبَعَنَا مِنْ يَهُودٍ فَإِنَّ لَهُ النَّصْرَ وَالْأُسُوءَةَ غَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلَا مُتَنَاصِرِينَ عَلَيْهِمْ.

* إِذَا دَهَمَ أَحَدٌ يَثَرِبَ مِنْ خَارِجِهَا، أَوْ حَارَبَ أَيًّا مِنَ الْمَشَارِكِينَ فِي هَذِهِ الْمَعَاهَدَةِ، فَعَلَيْهِمْ مُسَاعَدَةُ بَعْضِهِمْ فِي مُوَاجَهَتِهِ، وَطَالَمَا اسْتَمَرَّتِ الْحَرْبُ يَتَحَمَّلُ الْيَهُودُ نَفَقَاتِهَا مِشَارَكَةً مَعَ الْمُسْلِمِينَ.

* يكون اليهود مع المسلمين في جماعة واحدة، ولليهود دينهم وللمسلمين دينهم، لكل منهم الحرية في اتباع دينه والعمل به، باستثناء من يظلم، فهو المسئول عن أعماله، وهو الذي سيدمر نفسه وأهله وعياله.

مؤامرة بني النضير

يقول المؤرخون والمفسرون: إن النبي ﷺ مضى ذات يوم «إلى بني النضير ومعهم أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم، فتلقوه، فقالوا: مرحباً يا أبا القاسم، لماذا جئت؟ قال: رجل من أصحابي قتل رجلين من كلاب معهما أمان مني طلب مني ديتهما، فأريد أن تعينوني، قالوا: نعم، اقعذ حتى نجمع لك، فقعذ تحت الحصن وأبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم، وقد تأمر بنو النضير أن يطرحوا عليه - عليه الصلاة والسلام - حجراً، فجاء جبريل عليه السلام فأخبره فقام ومن معه»^(١)، يعني: أن فضل الله تعالى على أهل الإيمان أنه أنقذ النبي ﷺ والصحابة الكرام رضي الله عنهم جميعاً من مؤامرة اليهود.

نفي بني النضير

أرسل النبي ﷺ إلى اليهود بعد أن خالفوا المعاهدة، بل وخانوا فيها خيانة صريحة، أن عليكم أن تغادروا المدينة في غضون عشرة أيام، وأن من يبقى منكم بعدها سيضرب عنقه.

في البداية حاول اليهود المقاومة بناءً على نصيحة المنافقين لهم، ولكن عندما حاصر المسلمون قلاع اليهود، ولم يصل المنافقون لمساعدتهم، عندئذ خافوا واستسلموا، فصادر النبي ﷺ أسلحتهم، وسمح لهم باصطحاب باقي أموالهم

(١) تفسير روح المعاني، سورة المائدة (٥): الآية ١١، وسيرة ابن هشام، ٢: ١٥١.

٢٠٢ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

وأمتعتهم، وهكذا أخذوا معهم أمتعتهم، ولم يتركوا شيئاً، حتى أنهم قاموا بخلع شبابيك وأبواب المنازل وأسقفها، وحملوها على جمالهم، ثم اتجه بعضهم إلى الشام، وهاجر البعض الآخر إلى خيبر.

أموال الفيء

جاء في هذه السورة طريقة تقسيم أموال الفيء، ويمكنك الاطلاع على تفاصيلها في تفسير الآية رقم ٦ من السورة.

إطاعة الرسول ﷺ

جاء الحكم إلى أهل الإيمان بأن أطيعوا النبي ﷺ في كل ما يأمركم به، وانتهوا عن كل ما يأمركم بالانتهاء عنه.

المنافقون

أكد منافقو المدينة لبني النضير أنهم سيساعدونهم، ولهذا عليهم ألا يهاجروا من المدينة، ولكن عندما حان وقت المساعدة لم يأتهم المنافقون للمساعدة.

التقوى

جاء الحكم لأهل الإيمان بأن يتخذوا من التقوى طريقاً، وأن لا يكونوا مثل أولئك الذين نسوا الله تعالى.

عظمة القرآن

القرآن الكريم كتاب عظيم، بحيث لو أنزله الله تعالى على جبل لخشع وتصدع من خوف الله تعالى.

أسماء الله الحسنى

جاء ذكرُ أسماءِ الله الحُسنى في مواضع كثيرةٍ من القرآن الكريم، ولكنَّ الموضعَ الذي جاء فيه ذكرُ أكبرِ عددٍ من أسماءِ الله الحُسنى - مجتمعةً - هو نهايةُ هذه السُّورة.

التسبيح

بدأتْ هذه السُّورةُ بذكرِ تسبيحِ الله تعالى، وانتهتْ كذلك بذكرِ تسبيحِ الله تعالى، يعني: أنَّ كلَّ شيءٍ في الأرضِ والسَّماءِ يُسَبِّحُ الله تعالى، ولهذا ينبغي للإنسانِ أن يُسَبِّحَ الله تعالى، حتى يفوزَ في الدارينِ.

فضل سورة الحشر

- يقول سيِّدنا أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه: إنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ قرَأَ سُورَةَ الْحَشْرِ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ»^(١).

- يقول سيِّدنا أبو أمامةٍ رضي الله عنه: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «مَنْ قرَأَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْحَشْرِ (الآيَاتِ الثَّلَاثِ الْأَخِيرَةَ مِنْهَا) فِي لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، فَقَبَضَهُ اللَّهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَوْ ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ الْجَنَّةَ»^(٢).

الفقيِّرُ إلى الله: محمَّدُ إمداد حُسَيْنِ بيززاده،
جامعةُ الكَرَم، إنجلترا
بعد صلاةِ الفجر من يومِ الخميس ٢٣ سبتمبر ٢٠١٠ م
الموافق ١٤ شوال ١٤٣١ هـ.

(١) تفسير القرطبي، سورة الحشر (٥٩): الآية ٢٤.

(٢) المرجع السابق، سورة الحشر (٥٩): الآية ٢٤.

سُورَةُ الْحَشْرِ (٥٩)،

مدنية (١٠١)، آياتها (٢٤)، ركوعاتها (٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَا آفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ بَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

١ - للتعرف على تفسير هذه الآية راجع الحاشية الأولى من سورة الحديد (٥٧).

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾

٢ - عندما هاجر النبي ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، عقد معاهدة مع اليهود بهدف أن يعيشوا معاً في أمن وسلام، وأن يواجهوا كل من يهاجم المدينة، لكن بني النضير لم يخالفوا هذه المعاهدة فقط، وإنما تأمروا كذلك على قتل النبي ﷺ، وهو ما أدى إلى إخراجهم من المدينة المنورة، وكان بنو النضير يسكنون المدينة المنورة منذ زمن طويل، وكان هذا هو أول نفى لهم خارج وطنهم، ثم تم إخراجهم ثانية من خيبر في عهد سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه، فهاجروا إلى الشام. ولمزيد من التفصيل عن هذه المعاهدة وعن نفى بني النضير راجع تعارف هذه السورة.

لما خالف اليهود المعاهدة، بل وتعدى ذلك إلى الخيانة الصريحة منهم، أرسل النبي ﷺ إلى اليهود أن عليكم أن تغادروا المدينة في غضون عشرة أيام، وأن من يبقى منكم بعدها سيضرب عنقه. في البداية حاول اليهود المقاومة بناءً على نصيحة المنافقين لهم، ولكن عندما حاصر المسلمون قلاع اليهود، ولم يصل المنافقون لمساعدتهم، عندئذ خافوا واستسلموا، فصادر النبي ﷺ أسلحتهم، وسمح لهم باصطحاب باقي أموالهم وأمتعتهم، وهكذا أخذوا معهم أمتعتهم، ولم

يَتْرُكُوا شَيْئًا، حَتَّى أَتَهُمْ قَامُوا بِخَلْعِ شَبَابِيكِ وَأَبْوَابِ الْمَنَازِلِ وَأَسْقُفِهَا، وَحَمَلُوهَا عَلَى جَمَالِهِمْ، ثُمَّ أَتَجَّهُ بَعْضُهُمْ إِلَى الشَّامِ، وَهَاجَرَ الْبَعْضُ الْآخَرَ إِلَى خَيْبَرَ.

لَمْ يَكُنِ الْمُسْلِمُونَ يَتَصَوَّرُونَ أَنَّ الْيَهُودَ سَيَتْرُكُونَ الْمَدِينَةَ هَكَذَا بِسَهُولَةٍ، نَظَرًا لِمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ قَلَاعٍ وَأَسْلِحَةٍ وَحِدَائِقٍ وَبَسَاتِينٍ، وَكَانَ الْيَهُودُ يَتَفَاخَرُونَ كَثِيرًا بِقَلَاعِهِمُ الْحَصِينَةِ إِلَى دَرَجَةٍ جَعَلَتْهُمْ لَا يَتَخَيَّلُونَ أَنَّ عَدَدًا ضَيْلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُمْكِنُ أَنْ يَنْفُوهُمْ مِنْ وَطَنِهِمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَادِرٌ مُطْلَقٌ، فَقَدْ أَدْخَلَ الرُّعْبَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي قُلُوبِ الْيَهُودِ، وَحِينَ تَيَقَّنَ بَنُو النَّضِيرِ أَنََّّهُمْ سَيَتْرُكُونَ مَنَازِلَهُمْ لَا مَحَالَةَ، قَامُوا بَانْتِزَاعِ أَبْوَابِهَا وَشَبَابِيكِهَا وَغَيْرِ ذَلِكَ وَحَطَّمُوهَا، وَبَعْدَ ذَلِكَ قَامَ الْمُسْلِمُونَ بِإِزَالَةِ هَذِهِ الْأَنْقَاضِ، وَبَنَوْا مَكَانَهَا بَيْوتًا لَهُمْ كَمَا يُحِبُّونَ، وَفِي هَذِهِ الْوَاقِعَةِ آيَاتٌ عِبَرَةٌ كَثِيرَةٌ لِأَهْلِ الْفِكْرِ وَالْبَصِيرَةِ.

﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾

٣- لَقَدْ كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى بَنِي النَّضِيرِ الْجَلَاءَ وَالتَّنْفِيَّ عَنِ الْوَطَنِ بِدَايَةً، وَلَوْ لَمْ يَقْبَلُوا التَّنْفِيَّ عَنِ الْوَطَنِ، وَنَشِبَتِ الْحَرْبُ لَقُتِلُوا جَمِيعًا، وَمُحِي كُلُّ أَثَرٍ لَهُمْ مِنَ الْوُجُودِ.

﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ﴾

٤- رَفَضَ بَنُو النَّضِيرِ الْخُرُوجَ مِنَ الْمَدِينَةِ بِدَايَةً، وَدَخَلُوا قَلَاعَهُمْ وَأَغْلَقُوا أَبْوَابَهَا مِنَ الدَّخْلِ، وَكَانَتْ بَسَاتِينُ النَّخِيلِ الْكَثِيفَةُ تَحِيطُ بِهِذِهِ الْقَلَاعِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَلَمَّا أَرَادَ الْمُسْلِمُونَ مُحَاصِرَةَ قَلَاعِهِمْ هَذِهِ، قَطَّعُوا كُلَّ شَجَرَةٍ يُمْكِنُ أَنْ تَعُوقَ طَرِيقَهُمْ إِلَى ذَلِكَ، أَمَّا الْأَشْجَارُ الَّتِي لَمْ تَشْكَلْ عَائِقًا فِي التَّحَرُّكَاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ

هذه فقد تَرَكوها قائمةً، وكان المسلمون سُعداءَ بَقَطْع هذه الأشجار، إذ بذلك نَجَح حصارُهم لبني النُّضير، أما بالنسبة لليهود العُصاة فإنَّ ذلك كان بمثابة الدُّلِّ والخِزي، فالبساتينُ التي زَرَعوها بِجُهدٍ شديدٍ بَدَلوه يَتَمُّ قَطْع أشجارِها أمامَ أعْيُنهم، ولم تكن لديهم الشجاعةُ لِيَمْنَعُوا المسلمينَ من ذلك.

وقد اعترضَ المنافقونَ واليهودُ على ذلك بأنَّ المسلمينَ من جانبٍ يَدْعُونَ أنهم يريدونَ الأمنَ والسَّلامَ في الأرض، ولكنَّ من جانبٍ آخَرَ يُفْسِدُونَ في الأرض بَقَطْع الأشجارِ الخضراءِ اليانعةِ في البساتين، فنَزَلَتْ هذه الآيةُ ردًّا عليهم، بأنَّ هذا كُلُّه حَدَثٌ بإذنِ الله تعالى؛ لأنَّ اليهودَ هم الذين بَدَأُوا الفسادَ في الأرضِ بِخَرْقِهِم المعاهدةَ، وأنَّ المسلمينَ إِنَّمَا قَطَّعُوا الأشجارَ لكي يَنْجَحَ الحصارُ، وَيُطَهِّرُوا الأرضَ من المفسدين.

﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾

٥ - الأموال التي استولَى عليها المسلمون بعدَ جَلَاءِ بني النُّضير إِنَّمَا هي فَضْلٌ من الله تعالى أعطاهُ لرسوله الكريم ﷺ، فلم يتحمَّل المجاهدونَ المسلمونَ مشقَّةَ السَّفَرِ من أَجْلِ الحُصُولِ على هذه الأموال؛ لأنَّهم كانوا في ضواحي المدينة، كما أنَّ الأمرَ لم يَصِلْ إلى درجةِ الحربِ والقتال؛ لأنَّ اليهودَ قَبِلُوا الرِّحِيلَ عن المدينة دونَ حربٍ أو قتال.

الأموالُ التي تَوَوَّلُ إلى المسلمينَ بعدَ خروجِها من مِلْكِيَّةِ غيرِ المسلمينَ لها صورتان، الأولى: أنها أموالٌ فيءٌ، وهي التي وَرَدَ ذِكْرُها في هذه الآيات، والثانية: أنها أموالٌ غنائمٌ، وهي التي جاءَ ذِكْرُها في الآية رقم ٤١ من سورة الأنفال، وفيما يلي تعريفٌ بالصُّورتَيْنِ وطريقةُ تقسيمِهما:

أموال الفَيء

أموالُ الفَيءِ تُطلَقُ على الأموالِ والمناطقِ التي تَوَوَّلُ إلى مِلْكِيَّةِ المسلمينَ من الكُفَّارِ حالَ اعترافهم بالهزيمةِ دونَ قتالٍ، وهناك ثلاثةُ أنواعٍ من الأموالِ يُطلَقُ عليها: «أموالُ الفَيءِ» وهي:

١ - الأموالُ التي يَسْتُولِي عليها المسلمونَ بغيرِ حربٍ أو قتالٍ.

٢ - الممتلكاتُ غيرُ المنقولةِ التي يَحْصُلُ عليها المسلمونَ بغيرِ حربٍ أو قتالٍ، مثل: المنازلِ والبيوتِ والأراضيِ والبساتينِ والقلاعِ وغيرها مما شابهها.

٣ - الممتلكاتُ المنقولةُ وغيرُ المنقولةِ التي يَحْصُلُ عليها المسلمونَ بعدَ الحربِ والقتالِ.

في الآيةِ التاليةِ جاءَ ذِكرُ المستَحِقِّينَ لأموالِ الفَيءِ، وقد ذُكرَ اسمُ الله تعالى ضَمَنَ المستَحِقِّينَ لأموالِ الفَيءِ والغنائمِ على سَبِيلِ التَّبَرُّكِ، أمَّا الخمسةُ المتَبَقُّونَ من مستَحِقِّي هذه الأموالِ فهم: رسولُ الله ﷺ، وأقاربه، واليتامى من أبناءِ المسلمين، والمساكينُ، وعابرو السَّبِيلِ الذين انتهَى الزادُ معهم ويستَحِقُّونَ بذلكَ المساعدةَ.

وبعدَ انتقالِ النبي ﷺ إلى الرِّفِيقِ الأعلى فإنَّ السَّهْمَ المَخْصَصَ له يقولُ عنه جمهورُ الفقهاءِ: إنه يَدْخُلُ بَيْتَ المالِ، ويُنفَقُ منه على استكمالِ مهمَّةِ النبي ﷺ.

أموال الغنائم

الأموالُ المنقولةُ التي يَسْتُولِي عليها المسلمونَ في جالَةِ الحربِ معَ الأعداءِ يُقالُ لها - في الاصطلاحِ الإسلاميِّ -: «الأنفالُ» أو «الغنائمُ»، أي: أموالُ الغنائمِ،

وغير مسموح لأي مجاهد أن يحتفظ بشيء من هذه الأموال لنفسه، وإنما يتم تجميع هذه الأموال كلها وتقديمها لقائد الجيش الإسلامي، ويقوم هو بتقسيمها طبقاً للقواعد المنظمة لذلك.

يتم تقسيم أموال الغنائم إلى خمسة أقسام، أربعة منها يتم تقسيمها بين الذين شاركوا في القتال، أما القسم الخامس فيتم تقسيمه إلى خمسة أقسام أيضاً: قسم منه لرسول الله ﷺ، وهو الذي يتم إنفاقه على المصالح العامة للمسلمين بعد انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وأما القسم الثاني فيكون لأقارب النبي ﷺ، بينما يكون القسم الثالث لليتامى، والرابع للمساكين، والخامس لعابري السبيل، مثلاً قال الله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَلِالْيَتَامَىٰ وَلِلسَّكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١].

﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾

٦ - يقول العلامة القرطبي: «لأن أهل الجاهلية كانوا إذا غنموا أخذ الرئيس ربعها لنفسه، وهو المربع. ثم يصطفي منها أيضاً بعد المربع ما شاء»^(١)، وبعد ذلك يقسم الأمير وأصحاب النفوذ من الناس الجزء الأكبر من الأموال على أنفسهم، ولا يتبقى للفقراء والمساكين سوى القُتات والنزير اليسير، وبهذه الطريقة تظل الأموال تدور بين الأغنياء بصفة عامة، ويظل الفقراء والمساكين محرومين لا ينالون شيئاً، وقد جعل الإسلام من المساكين واليتامى أيضاً مستحقين للثروة، وذلك لكي لا تتجمع الثروة في أيدي الأغنياء فقط.

فَرَضَ الْإِسْلَامُ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ فِي الْأَحْوَالِ الْعَادِيَةِ أَيْضًا، وَلَيْسَ فِي حَالَةِ أَمْوَالِ الْفَيِّءِ أَوْ الْغَنَائِمِ فَقْطُ، أَنْ لَا يَكْنِزُوا الْأَمْوَالَ وَيَجْلِسُوا عَلَيْهَا حُرَاسًا كَالثَّعَابِينَ، وَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ أَنْ يُشْرِكُوا الْفُقَرَاءَ أَيْضًا مَعَهُمْ، عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ: الْحِكْمَةُ فِي أَدَاءِ زَكَاةِ الْمَالِ وَزَكَاةِ الْفَطْرِ، وَفِي تَحْرِيمِ الرِّبَا، وَالتَّوْرِيثِ، وَأَدَاءِ الْكُفَّارَاتِ وَإِخْرَاجِ الصَّدَقَاتِ وَغَيْرِهَا هِيَ أَنْ لَا تَتَجَمَّعَ الثَّرْوَةُ فِي بَعْضِ الْأَيْدِي فَقْطُ، وَإِنَّمَا تَتَصَلَّ إِلَى الْفُقَرَاءِ كَذَلِكَ.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكُمْ إِلَّا رُسُلًا فَخُذُوهُمَا وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

٧ - مَا يُعْطِيكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَالِ الْفَيِّءِ فَخُذُوهُ، وَمَا مَنَعَكُمْ مِنْهُ فَانْتَهُوا عَنْهُ، وَرَغْمَ أَنْ نَزَلَ هَذِهِ الْآيَةُ خَاصَّةً بِمَالِ الْفَيِّءِ إِلَّا أَنَّ حُكْمَهَا عَامٌّ، يَعْنِي: أَنَّ مَا يُعْطِيكُمْ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ ثَرْوَةٍ مَادِيَّةٍ أَوْ رُوحَانِيَّةٍ أَوْ عِلْمِيَّةٍ فَخُذُوهُ، وَمَا يَنْهَاكُمْ عَنْهُ عَلَيْكُمْ الْامْتِنَاعُ مِنْهُ، وَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِعَصِيَانِ النَّبِيِّ ﷺ؛ لِأَنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾

٨ - يَعْنِي: أَنَّ أَوْلَئِكَ الْمُهَاجِرِينَ الْفُقَرَاءَ الَّذِينَ اضْطُرُّوا إِلَى التَّخَلِّيِ عَنْ بَيُوتِهِمْ وَمَمْلَكَاتِهِمْ بِسَبَبِ دُخُولِهِمُ الْإِسْلَامَ، هُمْ أَيْضًا مِمَّنْ يَسْتَحِقُّونَ نَصِيبًا مِنْ مَالِ الْفَيِّءِ، وَقَدْ كَانَ بَعْضُ الْمُهَاجِرِينَ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ، وَلَكِنَّهُمْ اضْطُرُّوا إِلَى تَرْكِ أَمْوَالِهِمْ وَأَمْتَعَتِهِمْ عِنْدَ الْهَجْرَةِ، فَأَصْبَحُوا بِذَلِكَ مِنَ الْفُقَرَاءِ، وَرَغْمَ أَنَّ أَنْصَارَ الْمَدِينَةِ لَمْ يَتَوَانَوْا عَنْ مُسَاعَدَتِهِمْ، وَلَكِنْ حِينَ آلَتْ أَرْضِي بَنِي النَّضِيرِ وَبَسَاتِينُهُمْ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، أَصْبَحَ مِنَ السَّهْلِ حُلُّ مُشْكَلَةِ تَوْطِينِ الْمُهَاجِرِينَ بِشَكْلِ دَائِمٍ.

هَذِهِ الْآيَةُ لَمْ تَقَرَّرْ أَنَّ الْمُهَاجِرِينَ يَسْتَحِقُّونَ نَصِيبًا مِنْ مَالِ الْفَيِّءِ فَقْطُ، وَإِنَّمَا بَيَّنَّتْ فَضْلَهُمْ كَذَلِكَ، يَعْنِي:

- أَنَّهُمْ قَدْ تَخَلَّوْا عَنْ وَطَنِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ بِسَبَبِ الْإِسْلَامِ فَقَطُّ.

- لَمْ تَكُنْ هَجْرَتُهُمْ طَمَعًا فِي تَحْقِيقِ هَدَفٍ دُنْيَوِيٍّ، وَإِنَّمَا كَانَتْ بَحْثًا عَنْ رِضَا اللَّهِ تَعَالَى وَفَضْلِهِ.

- إِنَّهُمْ فَعَلُوا كُلَّ مَا فَعَلُوهُ نُصْرَةً لِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى.

- هَؤُلَاءِ هُمُ الصَّادِقُونَ فِي دِينِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ.

لَقَدْ أَعْلَنَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ صِدْقَ كُلِّ الْمُهَاجِرِينَ وَإِخْلَاصَهُمْ، وَبِالتَّالِي إِذَا أَتَاهُمْ أَحَدُ الْآنَ بِالنِّفَاقِ، فَهُوَ بِهَذَا يُنْكَرُ هَذِهِ الْآيَةَ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَتَّقِيَ عَذَابَ اللَّهِ تَعَالَى، وَيُعِيدَ النَّظَرَ فِي إِيْمَانِهِ.

تُرى، ما هي مكانة هؤلاء المهاجرين السُّعْدَاءِ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ يُمْكِنُكَ أَنْ تَتَعَرَّفَ عَلَيْهَا مِنْ خِلَالِ الدُّعَاءِ الَّذِي نَقَلَهُ الْإِمَامُ الْبَغَوِيُّ فِي ثَنَائِهِ تَفْسِيرَ هَذِهِ الْآيَةِ. يَقُولُ سَيِّدُنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُسَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ «كَانَ يَسْتَفْتِحُ بِصَعَالِيكِ الْمُهَاجِرِينَ»^(١)، أَي: بِوَسِيلَةِ هَؤُلَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الْمَعْدَمِينَ وَعَنْ طَرِيقِهِمْ.

﴿وَالَّذِينَ نَبَّؤُوا الدَّارَ وَالْآيْمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾

٩ - فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَقَرَّرُ أَنَّ أَنْصَارَ الْمَدِينَةِ أَيْضًا يَسْتَحِقُّونَ نَصِيبًا مِنْ مَالِ الْفَيْءِ، كَمَا جَاءَ فِيهَا بَيَانٌ لِفَضْلِهِمْ أَيْضًا، يَعْنِي:

- إِنَّهُمْ كَانُوا ثَابِتِينَ عَلَى إِيْمَانِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْمُهَاجِرُونَ مِنْ مَكَّةَ.

- أنصارُ المدينة كانوا يُحِبُّونَ مِنْ قُلُوبِهِمْ كُلَّ مَنْ هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ لَنَيْلِ رِضَا اللَّهِ تَعَالَى، فَكَانُوا يَتَدَبَّرُونَ أَمْرَ إِقَامَتِهِمْ وَطَعَامِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ، وَيُعْطُونَهِمْ نَصِيبًا مِنْ أَرْضِهِمْ وَبَسَاتِينِهِمْ، حَتَّى أَنْ مَنْ كَانَ لَدَيْهِ مِنَ الْأَنْصَارِ أَكْثَرُ مِنْ زَوْجَةٍ، عَرَضَ عَلَى أَخِيهِ الْمَهَاجِرِ أَنْ يُطَلِّقَ إِحْدَاهُنَّ لِيَتَزَوَّجَهَا هُوَ، مِثْلَمَا يَقُولُ سَيِّدُنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَيِّدِنَا سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، «وَكَانَ (أَي: سَيِّدُنَا سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) كَثِيرَ الْمَالِ، فَقَالَ سَعْدُ: قَدْ عَلِمْتُ الْأَنْصَارُ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا، سَأَقْسِمُ مَالِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ شَطْرَيْنِ، وَلِي امْرَأَتَانِ، فَانْظُرْ أَعْجَبَهُمَا إِلَيْكَ فَأُطَلِّقْهَا، حَتَّى إِذَا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَهَا. فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ، دُلُّونِي عَلَى الشُّوقِ^(١). وَمِثْلُ هَذِهِ الْمَحَبَّةِ الْقَلْبِيَّةِ لَا نَجِدُ لَهَا مِثِيلًا فِي تَارِيخِ أَقْوَامِ الْعَالَمِ.

- أَمْوَالُ الْفَيِّءِ الَّتِي قَسَمَهَا النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْمَهَاجِرِينَ، لَمْ يَشْعُرِ الْأَنْصَارُ مِنْ قُلُوبِهِمْ بِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا، بِمَعْنَى: أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي قُلُوبِهِمْ أَيُّ ضَيْقٍ مِنْ هَذَا، كَمَا لَمْ تَكُنْ لَدَيْهِمْ رَغْبَةٌ فِيهَا، وَإِنَّمَا كَانُوا سُعْدَاءَ بِمُسَاعَدَةِ إِخْوَانِهِمِ الْمَهَاجِرِينَ بِهَذَا الشَّكْلِ.

- رَغِمَ أَنْ أَنْصَارَ الْمَدِينَةِ كَانُوا هُمْ أَيْضًا مُحْتَاجِينَ، لَكِنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ كَانُوا يُؤْثِرُونَ إِخْوَانَهُمِ الْمَهَاجِرِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، مِثْلَمَا يَقُولُ سَيِّدُنَا أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَبَعَثَ إِلَى نِسَائِهِ فَقُلْنَ: مَا مَعَنَا إِلَّا الْمَاءُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يَضُمُّ، أَوْ يُضِيفُ هَذَا؟». فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: أَنَا. فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ، فَقَالَ: أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ مَا عِنْدَنَا إِلَّا قَوْتُ صَبْيَانِي. فَقَالَ: هَيْئِي طَعَامَكَ، وَأَصْبِحِي سِرَاجَكَ، وَتَوَمِّي صَبْيَانَكَ إِذَا أَرَادُوا عِشَاءً. فَهَيَّأتُ طَعَامَهَا وَأَصْبَحْتُ

(١) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب ٣ برقم ٣٧٨١، كتاب النكاح، باب ٧ برقم ٥٠٧٢، وغيرهما عنده.

سِرَاجِهَا، وَنَوِّمَتْ صِبْيَانَهَا، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهُا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فَأَطْفَأَتْهُ، فَجَعَلَا يُرِيَانَهُ أَنَّهُمَا يَأْكُلَانِ، فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ، غَدَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «ضَحِكَ اللَّهُ اللَّيْلَةَ - أَوْ عَجِبَ - مِنْ فِعَالِكُمَا»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١).

وهناك واقعات أخرى كثيرة أثر فيها الصَّحَابَةُ الكرامُ رضي الله عنهم
الآخَرِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، عَلَى سَبِيلِ المِثَالِ:

- يَقُولُ الحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ: «وهذا الماءُ الَّذِي عَرَضَ عَلَى عِكرِمَةَ وَأَصْحَابِهِ يَوْمَ اليرموك، فكلُّ منهم يَأْمُرُ بِدَفْعِهِ إِلَى صاحِبِهِ، وهو جريحٌ مُثَقِّلٌ أَحْوَجُ مَا يَكُونُ إِلَى الماءِ، فَزَدَهُ الْآخَرُ إِلَى الثَّلَثِ، فَمَا وَصَلَ إِلَى الثَّالِثِ حَتَّى ماتُوا عَنْ آخِرِهِمْ وَلَمْ يَشْرَبْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ، رضي الله عنهم وأَرْضاهم» (٢).

- يَقُولُ سَيِّدُنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه: «أَهْدِي لِرَجُلٍ مِنَ الصَّحَابَةِ رَأْسُ شَاةٍ، وَكَانَ مَجْهُودًا، فَوَجَّهَ بِهِ إِلَى جَارٍ لَهُ، فَتَدَاوَلَتْهُ سَبْعَةُ أَنْفُسٍ فِي سَبْعَةِ أَبْيَاتٍ، ثُمَّ عَادَ إِلَى الْأَوَّلِ، فَتَزَلَّتْ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ الْآيَةُ» (٣).

- البُخْلُ مَرَضٌ يَجْعَلُ مِنْ صاحِبِهِ أَنَانِيًّا إِلَى دَرَجَةٍ أَنَّهُ يُقْصِرُ فِي أدَاءِ حَقْقِ اللَّهِ وَحَقْقِ العِبَادِ، وَيَنْشَغِلُ بِجَمْعِ المَالِ دُونَ التَّمْيِيزِ بَيْنَ حَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، وَلَكِنَّ فَضْلَ اللَّهِ تَعَالَى وَكَرَمَهُ عَلَى أَنْصَارِ المَدِينَةِ كَانَ عَظِيمًا، إِذْ حَفِظَهُمْ مِنْ مَرَضِ البُخْلِ، وَأَوْدَعَهُمْ عَاطِفَةَ الإِثَارِ والتَضَحِّيَةِ، وَأَمْثَالُ هَؤُلَاءِ هُمُ المَفْلِحُونَ فِي الدَّارَيْنِ.

يَقُولُ سَيِّدُنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو رضي الله عنه: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اتَّقُوا

(١) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب ١٠ برقم ٣٧٩٨.

(٢) تفسير ابن كثير، سورة الحشر (٥٩): الآية ٩.

(٣) تفسير القرطبي، سورة الحشر (٥٩): الآية ٩.

الظُّلْمَ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الْفُحْشَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ، وَإِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ؛ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، أَمَرَهُم بِالظُّلْمِ فَظَلَمُوا، وَأَمَرَهُم بِالْفُجُورِ فَفَجَرُوا، وَأَمَرَهُم بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا^(١).

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

١٠ - يعني: أن المسلمين جميعاً بعد الأنصار والمهاجرين والصَّحابة الكرام رضي الله عنهم جميعاً، وحتى يوم القيامة، يستحقُّ كلُّ واحدٍ منهم نصيباً من مالِ الفَيءِ، ولكن بشرط أن يعترف بإيمانِ الأنصارِ والمهاجرين، وأن لا يكون في قلبه بُغْضٌ لهم، وأن يدعو الله لهم بالمغفرة، أما الذين يَحْمِلُونَ في قلوبهم ضَغِينَةً وحقداً للصَّحابة الكرام رضي الله عنهم جميعاً، فهؤلاء لا يستحقُّون من مالِ الفَيءِ شيئاً.

- تقولُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أُمِرْتُم بِالْإِسْتِغْفَارِ لِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَسَبَّيْتُمُوهُمْ! سَمِعْتُ نَبِيَّكُمْ ﷺ يَقُولُ: «لَا تَذْهَبْ هَذِهِ الْأُمَةُ حَتَّى يَلْعَنَ آخِرُهَا أَوَّلُهَا»^(٢).

- يقولُ الْعَلَامَةُ الْقُرْطُبِيُّ: «هَذِهِ آيَةُ دَلِيلٌ عَلَى وَجُوبِ مَحَبَّةِ الصَّحَابَةِ، لِأَنَّهُ جَعَلَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ حِطًّا فِي الْفَيءِ مَا أَقَامُوا عَلَى مَحَبَّتِهِمْ وَمَوَالَتِهِمْ وَالِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ، وَأَنَّ مَنْ سَبَّهُمْ أَوْ وَاحِدًا مِنْهُمْ أَوْ اعْتَقَدَ فِيهِ شَرًّا أَنَّهُ لَا حَقَّ لَهُ فِي الْفَيءِ»^(٣).

- يقولُ مَالِكُ بْنُ مِغْوَلٍ: قَالَ عَامِرُ بْنُ شَرَّاحِيلَ الشَّعْبِيُّ: يَا مَالِكُ، تَفَاضَلَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى عَلَى الرَّافِضَةِ بِخَصْلَةٍ، سُئِلَتِ الْيَهُودُ: مَنْ خَيْرُ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ؟ فَقَالَتْ: أَصْحَابُ

(١) تفسير ابن كثير، سورة الحشر (٥٩): الآية ٩.

(٢) تفسير البغوي، سورة الحشر (٥٩): الآية ١٠.

(٣) تفسير القرطبي، سورة الحشر (٥٩): الآية ١٠.

موسى عليه السلام، وسُئِلَتِ النَّصَارَى: من خَيْرُ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ؟ فقالوا: حَوَارِيُّ عِيسَى عليه السلام، وسُئِلَتِ الرَّافِضَةُ: من شَرُّ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ؟ فقالوا: أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ^(١).

- يَقُولُ الْعَوَّامُ بْنُ حَوْشَبٍ: أَدْرَكْتُ صَدْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَقُولُونَ: اذْكُرُوا مَحَاسِنَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى تَوَلَّفَ عَلَيْهِمُ الْقُلُوبُ، وَلَا تَذْكُرُوا مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ فَتَجَسَّسُوا النَّاسَ عَلَيْهِمْ^(٢).

- فِي هَذِهِ الْآيَاتِ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى ثَلَاثَ طَبَقَاتٍ لِلأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، يَعْنِي: الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ، بِالإِضَافَةِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ حَتَّى قِيَامِ السَّاعَةِ. يَرَوِي سَيِّدُنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ أَبِيهِ سَيِّدِنَا عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، «أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ جَاءُوا إِلَيْهِ، فَسَبُّوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ثُمَّ عِثْمَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَأَكْثَرُوا، فَقَالَ لَهُمْ: أَمِنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: لَا. فَقَالَ: أَفَمِنَ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ؟ فَقَالُوا: لَا. فَقَالَ: قَدْ تَبَرَّأْتُمْ مِنْ هَذَيْنِ الْفَرِيقَيْنِ! أَنَا أَشْهَدُ أَنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ قَوْمُوا، فَعَلَ اللَّهُ بِكُمْ وَفَعَلَ!!»^(٣).

- يَقُولُ سَيِّدُنَا جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا تَمَسُّ النَّارُ مُسْلِمًا رَأَى أَوْ رَأَى مَنْ رَأَى (أَي: بَعِينَ الْإِيمَانِ)»^(٤).

- يَقُولُ سَيِّدُنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا

(١) تفسير البغوي، سورة الحشر (٥٩): الآية ١٠.

(٢) تفسير القرطبي، سورة الحشر (٥٩): الآية ١٠.

(٣) المرجع السابق، سورة الحشر (٥٩): الآية ١٠.

(٤) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٥٦ برقم ٣٨٥٨.

رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَسْتُبُونُ أَصْحَابِي فَقُولُوا: لعنة الله على شرِّكم»^(١).

- يقول سيّدنا أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: إنّ النبي ﷺ قال: «لا تَسُبُّوا أصحابي، فلو أنّ أحدكم أنفق مثل أحدٍ ذهبًا ما بلغ مدَّ أحدِهِم ولا نصيفَه»^(٢).

- يُعَلِّمُ من هذه الآية أنه ينبغي لنا أن ندعو لأسلافنا بالمغفرة، فيغفر الله ذنوبهم، ويرفع درجاتهم، مثلما يقول سيّدنا أنس بن مالك رضي الله عنه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أمّتي أمةٌ مرحومةٌ، متابٌ عليها، تدخل قبورها بذنوبها، وتخرج من قبورها لا ذنوب عليها، تُمَحَّصُ عنها ذنوبها باستغفار المؤمنين لها»^(٣)، كما أنّ للصّحابة الكرام رضي الله عنهم وكذا الأسلاف حقًا علينا، هو: أن ندعو لهم بالمغفرة؛ لأنّ نعمة الإسلام وصلت إلينا عن طريقهم وبوسيلتهم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَّيْنَّ الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُوْنَ ﴿١٣﴾ لَا يَقْنِطُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَذَلِكَ لَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَذَلِكَ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾

(١) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٥٩ برقم ٣٨٦٦.

(٢) البخاري، ٣٦٧٣، فضائل الأصحاب، باب ٥.

(٣) المعجم الأوسط للطبراني، ٢: ٥٢٣ برقم ١٩٠٠، ومجمع الزوائد، ١٠: ٦٩.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾

١١ - حينَ أَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى بني النَّضِيرِ يُعَلِّمُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ عَنِ الْمَدِينَةِ فِي غُضُونِ عَشْرَةِ أَيَّامٍ، وَذَلِكَ بَعْدَ خَرْقِهِمُ الْمَعَاهِدَةَ وَخِيَانَتِهِمْ، أَرْسَلَ الْمُنَافِقُونَ (الَّذِينَ تَظَاهَرُوا بِالصَّدَاقَةِ وَالْأُخُوَّةِ لِلْيَهُودِ لِمَجْرَدِ عِدَائِهِمُ لِلنَّبِيِّ ﷺ) لِلْيَهُودِ أَنْ أَرْفُضُوا الْخُرُوجَ مِنَ الْمَدِينَةِ وَلَا تَخَافُوا شَيْئًا، فَنَحْنُ مَعَكُمْ، وَإِذَا أَخْرَجُوكُمْ مِنَ الْمَدِينَةِ سَنَخْرُجُ نَحْنُ أَيْضًا مَعَكُمْ، وَلَنْ نُطِيعَ كَلَامَ أَحَدٍ ضِدَّكُمْ، وَإِنْ حَارَبَكُمْ الْمُسْلِمُونَ سَنُرْسِلُ إِلَيْكُمْ أَلْفَيْنِ مِنَ الشَّبَابِ لِنُصْرَتِكُمْ.

وَرَدًّا عَلَى هَذِهِ التَّرَاهَاتِ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ، وَفِيهَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُسْلِمِينَ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ يَكْذِبُونَ، وَلَوْ أُخْرِجَ الْيَهُودُ لَنْ يَخْرُجَ مَعَهُمُ الْمُنَافِقُونَ كَمَا قَالُوا، وَلَوْ حَارَبَتْ الْيَهُودُ لَنْ يَنْصُرَهُمْ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ، وَعَلَى فَرَضِ الْمُسْتَحِيلِ لَوْ أَنَّ هَؤُلَاءِ سَاعَدُوهُمْ فِي الْحَرْبِ فَعَلًّا فَسَيُؤَلُّونَ الْأَدْبَارَ سَرِيعًا، وَعِنْدَهَا لَنْ يَسْتَطِيعَ أَحَدٌ أَنْ يَسَاعِدَ الْيَهُودَ، كَمَا لَنْ يَسْتَطِيعَ أَحَدٌ أَنْ يَسَاعِدَ الْمُنَافِقِينَ أَيْضًا، وَفِي نَهَايَةِ الْأَمْرِ سَيَكُونُ كِلَاهُمَا مِنَ الْيَائِسِينَ الْمَحْرُومِينَ.

وَقَدْ ثَبَّتْ صَحَّةُ النُّبُوَّةِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ بِخُصُوصِ الْمُنَافِقِينَ مَائَةً بِالمِائَةِ، يَعْنِي: أَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَمْ يُسَاعِدُوا الْيَهُودَ فِي شَيْءٍ أَلْبَتَّةَ، وَهَذِهِ النُّبُوَّةُ دَلِيلٌ عَلَى صِدْقِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَمُعْجَزَةٌ تُؤَيِّدُ نُبُوَّةَ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ.

﴿لَا يَقْنَلُوكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ نَحْسُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾

١٢ - فِي هَذِهِ الْآيَاتِ تَسْرِيَةٌ عَنِ قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ بِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ وَالْيَهُودَ فِي غَايَةِ

الجبن، والخوف منكم يملأ قلوبهم أكثر من خوفهم من الله تعالى، ولن يستطيعوا مواجهتكم في ميدان الحرب حتى وإن كانوا مجتمعين، إلا أنهم قد يتحصنون في قلاعهم، أو يتخفون خلف الجدران، ثم يهاجمونكم، لكنهم مع ذلك لن ينجحوا في هذا أيضاً؛ لأنهم وإن ظهروا متحدين، إلا أن الحقيقة هي أنهم يخالف بعضهم قلوب بعض، ولو أنهم استعملوا عقولهم لما خافوا إلا من الله تعالى فقط، ولما خالفوا المسلمين.

﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

١٣ - وبنو النضير كمثال بني قينقاع، الذين ذاقوا وبال ما صنعوا في الماضي القريب، وينتظرهم في الآخرة عذاب أليم.

غزوة بني قينقاع

لما جاء النبي ﷺ إلى المدينة عقد معاهدة أمن وسلام مع اليهود، وبنو قينقاع أيضاً قبيلة يهودية، وقد خرقت هذه القبيلة المعاهدة بعد غزوة بدر، فنبههم النبي ﷺ إلى أنه يجب عليهم الالتزام بالمعاهدة، ولكن لما لم يرجعوا عما هم فيه، وأهانوا امرأة مسلمة بتعريتها من ملابسها، حاصر المسلمون بأمر من النبي ﷺ منطقة بني قينقاع، ولم يخرج أحد من اليهود لمواجهتهم، وبعد عدة أيام استسلم اليهود وألقوا أسلحتهم، واعترفوا بهزيمتهم، وطلبوا السماح لهم بمغادرة المدينة مع أهلهم وذويهم، وهكذا أذن لهم النبي ﷺ، فهاجروا خلال أيام قليلة إلى قرية من قرى الشام تدعى أذرعاء.

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾

١٤ - مثل المنافقين كمثال الشيطان الذي يحرض الناس أولاً على الكفر،

وحين يصبحُ الناسُ كُفَّارًا راسخي الكُفر، فيَنزِلُ عليهم العذابُ، عندئذٍ يُعلنُ الشَّيْطانُ براءته منهم، وبنفسِ الطريقة، فإنَّ المنافقين قد شَجَّعُوا بني النَّصِيرِ أوَّلاً على مواجهة المسلمين مؤكِّدين لهم أنَّهم معهم، وعندما جاء وقتُ القتال خَدَعُوهم، ولم يَهْبُوا لُنصرتهم.

مثال خداع الشيطان في الدنيا

لقد خَدَعَ الشَّيْطانُ كُفَّارَ مَكَّةَ في غزوة بدرِ بنفسِ الطريقة، مثلما قال اللهُ تعالى:

﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتْهُ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨]، ولمزيد من التفصيل حول تفسير هذه الآية يمكنك الرجوع إلى الحاشية رقم ٣٨ للآية رقم ٤٨ من سورة الأنفال (٨).

مثال خداع الشيطان في الآخرة

سَيَلُومُ كُلُّ مَنْ فِي النَّارِ قَرِينَهُ الشَّيْطَانُ قَائِلًا لَهُ: لَعَنَكَ اللهُ! لقد أَضَلَلْتَنِي، وسيقولُ له الشَّيْطانُ: متى أَجَبَرْتُكَ على اتِّباعي؟ إنَّني لم أَفْعَلْ شيئاً سوى أَنْ رَغَبْتُكَ فِي السَّيِّئَاتِ، وقد اخْتَرْتَ أَنْتِ اتِّباعي لتحقيقِ رَغْبَاتِكَ النَّفْسَانِيَّةِ وَمَصَالِحِكَ الدُّنْيَوِيَّةِ، مثلما جاء في القرآنِ الكريمِ على لسانِ الشَّيْطانِ: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وعلى سَبِيلِ المِثَالِ: لو أَنَّ أَحَدًا قَالَ لَكَ أَنْ تَرْمِي بِنَفْسِكَ فِي الْبَحْرِ

لأنَّ في أعماقه جواهرَ ولآلئَ يمكنكُ استخراجُها، فإذا أَلْقَيْتَ بنفسِكَ في البحرِ ووقعَ موتُكَ لذلك، فإنَّ المسئولَ عن هلاكِكَ ليس ذلك الشَّخصَ الذي رَغِبَ في القفزِ في البحرِ، وإنَّما المسئولُ عن ذلك هو من ارتكَبَ حماقةَ إلقاءِ نفسه في البحرِ.

وحين يحتدُّ التَّقاشُ بينَ مَنْ هو من أهلِ النارِ ورفيقه الشَّيْطانَ سيقولُ اللهُ تعالى: لا تتجادلا أمامي، فلا فائدةَ الآنَ في ميدانِ الحُشْرِ لمثلِ هذا الجِدالِ؛ لأنَّني قد أعلمُكَ من قبلُ عن طريقِ رُسُلِي أنَّ الشَّيْطانَ سيدخلُ النارَ هو ومن يتَّبِعونه، مثلما قال اللهُ تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ يَتَّبِعُكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥].

﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾

١٥ - الشَّيْطانُ عدوٌّ صريحٌ للإنسانِ، ومن يتَّبِعِ الشَّيْطانَ سيدخلُ هو والشَّيْطانُ الذي اتَّبَعَهُ نارَ جهنَّمَ خالداً فيها، وهذا هو جزاءُ الظالمينِ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَقُوا اللَّهَ وَلَتَنْظُرَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَأَنَقُوا اللَّهَ﴾

١٦ - ينبغي لكل مؤمن أن يتقي الله، ويحاسب نفسه: ما الذي يفعله من أجل يوم القيامة القادم قريباً، لأن الله تعالى يعلم كل ما يفعله تمام العلم، وسوف يكون حسابه وثوابه وعقابه طبقاً لأعماله.

الحياة الدنيا والحياة الآخرة

حياتنا تشتمل على جزأين؛ الجزء الأول: دُنْيَوِيّ، والجزء الثاني: أُخْرَوِيّ، أما الحياة الدنيا فهي دارُ العمل، وهي التي نعملُ فيها، والحياة الآخرة هي دارُ الجزاء، والتي نحاسبُ فيها على أعمالنا في الحياة الدنيا، مثلما قال النبي ﷺ: «الدنيا مزرعةُ الآخرة»^(١)، يعني: أن مثل الحياة الدنيا كمزرعةٍ يتوقفُ زراعتها على رغبتنا نحن، وبالتالي فإن الأمر يعودُ إلى اختيارنا نحن لما نريدُ أن نزرعَ. على أيِّ حال، النتيجة واضحةٌ، فلو زرعنا أعمالاً طيبةً سنسعدُ يومَ القيامة بشمارها الطيبة، ولو زرعنا أعمالاً سيئةً فسوف نشقى يومَ القيامة بشمارها المُرّة. يقول النبي ﷺ: «نِعِمَّتِ الدَّارُ الدُّنْيَا لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنْهَا لِآخِرَتِهِ»^(٢).

جاء لفظ «غدٍ» في هذه الآية الكريمة دلالةً على يوم القيامة، وفيه إشارةٌ إلى أنه مثلما أن مجيء الغد بعد اليوم أمرٌ يقيني، كذلك فإن مجيء القيامة بعد هذه الدنيا أمرٌ يقيني أيضاً، وفيه إشارةٌ أخرى إلى أنه مثلما أن الغد يكون قريباً للغاية بعد اليوم، كذلك فإن القيامة أيضاً قريبةٌ للغاية بعد هذه الدنيا، ورغم أن قيامة الكائنات كلها بعيدة، لكن قيامة كل إنسان قريبة؛ لأن الموت في ذاته قيامةٌ صغرى للإنسان يبدأ معها العذاب، والموت يمكن أن يأتي في أي لحظة. يقول سيدنا

(١) المقاصد الحسنة، ٢٢٧.

(٢) المرجع السابق، ٢٢٧.

أَنْسُ بَنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ، فَاعْبُدُوا اللَّهَ كَأَنَّكُمْ تَرَوْنَهُ وَاسْتَغْفِرُوهُ كُلَّ سَاعَةٍ»^(١).

إِنَّ الْوَطْنَ الْأَصْلِيَّ لِلْإِنْسَانِ هُوَ الْآخِرَةُ، وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَى الدُّنْيَا حَتَّى يُعَدَّ زَادًا لِلْآخِرَةِ، وَالْآنَ الْوَاقِعُ هُوَ أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ إِنْسَانٌ أَنْ يَصْطَحِبَ مَعَهُ عِمْلَةَ هَذِهِ الدُّنْيَا، وَبِفَرَضِ الْمُسْتَحِيلِ لَوْ أَنَّ الْإِنْسَانَ اصْطَحَبَ بَعْضًا مِنْ عِمْلَةِ هَذِهِ الدُّنْيَا مَعَهُ، فَإِنَّ هَذِهِ الْعِمْلَةَ لَنْ تَنْفَعَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَلِهَذَا يَنْبَغِي لِكُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَتَدَبَّرَ لِنَفْسِهِ عِمْلَةَ الْآخِرَةِ قَبْلَ مَوْتِهِ، وَعِمْلَةُ الْآخِرَةِ هِيَ الْحَسَنَاتُ، وَبِقَدْرِ مَا تَكُونُ حَسَنَاتُ الْإِنْسَانِ كَثِيرَةً، بِقَدْرِ مَا يَكُونُ سَعِيدًا فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا الْمَحْرُومُ مِنَ الْحَسَنَاتِ فَيَكُونُ مِنَ الْأَشْقِيَاءِ فِي الْآخِرَةِ.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

١٧ - فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَرْغِيبٌ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَعْرِيفُهُمْ بِالْمَصِيرِ السَّيِّئِ لِعَصْيَانِهِ، يَعْنِي: أَنَّ الَّذِينَ يَنْسَوْنَ اللَّهَ تَعَالَى وَلَا يُبَالُونَ بِأَحْكَامِهِ، سَيَكُونُ عِقَابُهُمْ أَنْ يَنْسُوا أَنْفُسَهُمْ، وَلَا تَبْقَى لَدَيْهِمْ مَلَكَةُ التَّمْيِيزِ بَيْنَ النَّفْعِ وَالْخَسَارَةِ، وَفِي النِّهَايَةِ يَسِيرُونَ عَلَى طَرِيقِ عَصْيَانِ اللَّهِ تَعَالَى.

﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾

١٨ - هَذَا أَمْرٌ وَاضِحٌ تَمَامَ الْوُضُوحِ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَوِيَ الطَّلَابُ الَّذِينَ اجْتَهِدُوا فِي دَرَسَتِهِمْ وَنَجَّحُوا فِي الْامْتِحَانِ مَعَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ غَفَلُوا عَنْ دَرَسَتِهِمْ وَرَسَبُوا فِي الْامْتِحَانِ؛ لِأَنَّ الطَّلَابَ الْمُجْتَهِدِينَ يَحْتَفِلُونَ بِنَتِيجَةِ اجْتِهَادِهِمْ، أَمَّا

الطلابُ الراسِبونَ فيندُمونَ على غفْلَتِهِمْ، وبنفسِ الطريقةِ فإنَّ الذينَ يستَحِقُّونَ الجنةَ بأعمالِهِم الصَّالحة لا يَسْتَوُونَ مع أولئك الذينَ سيَدْخُلونَ جهنَّمَ بسببِ أعمالِهِم السيِّئةِ.

﴿لَوْ أَنزَلْنَاهُذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

١٩ - جاء في هذه الآية بيانُ عَظَمَةِ القرآنِ الكريمِ بأنه لو أُعطيَ الجبلُ الضَّخْمُ القاسي عقلاً كعقل الإنسان، ثم أنزل عليه القرآنُ، لَأنحَى هو الآخرُ أمامَ عَظَمَةِ اللَّهِ تعالى، وَلَتَصَدَّعَ من خَشْيَتِهِ وخوفِهِ وتناثر، لكنَّ الذينَ تغلبَهم شهواتُهُم ينتهي خوفُ اللَّهِ من قلوبِهِم، وتصبحُ قلوبُهُم أكثرَ قسوةً من الجبال، مثلما قال اللَّهُ تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]؛ لأنَّ بعضَ الأحجارِ تتفجَّرُ منها عيونُ المياه، بينما لا تَدْرِفُ عيونُ هؤلاءِ الظالمينَ دَمعةً نَدَمَ واحدةً، وقد جاء بيانُ هذه الأمثلةِ حتى يتدبَّرَ الناسُ القرآنَ الكريمَ ويتأمَّلوا فيه، ويحاولوا فهمَ قُدرةِ اللَّهِ تعالى وعَظَمَتِهِ.

نَقَلَ العلامةُ الشُّوكانيُّ قولاً هو: «الخطابُ للنبيِّ ﷺ، أي: لو أنزلنا هذا القرآنَ يا مُحَمَّدُ على جَبَلٍ لَمَا ثَبَتَ، وَلَتَصَدَّعَ من نزولِهِ عليه، وقد أنزلناه عليك وَتَبَتْنَاكَ لَهُ وَقَوَّيْنَاكَ عَلَيْهِ، فيكونُ على هذا من بابِ الامتنانِ على النبيِّ ﷺ، لأنَّ اللَّهَ سبحانه ثَبَّتَهُ لِمَا لَا تَثْبُتُ لَهُ الجبالُ الرُّواسي»^(١).

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

٢٠ - جاء ذِكرُ أسماءِ اللَّهِ الحسنَى في مواضع كثيرةٍ من القرآنِ الكريمِ، ولكنَّ

(١) تفسير فتح القدير للشوكاني.

الموضع الذي جاء فيه ذكر أكبر عددٍ من أسماء الله الحُسنى مجتمعاً هو الآيات الثلاث الأخيرة في نهاية هذه السُورة، وإليك تعريفاً مختصراً بها:

- الله: هو اسمُ ذاتِ خالقِ الكائنات، ولا يجوزُ استعمالُه لغيره تعالى، والله تعالى واحدٌ متفردٌ، واسمُ ذاته يعني: الله متفردٌ أيضاً، ولا جَمْعَ له، وهو جامعٌ لكلِّ الأسماءِ الحُسنى (صفاتِ البارئ تعالى). «قال جابرُ بن زَيْد: إنَّ اسمَ الله الأعظمَ هو الله»^(١).

- إله: هو الذاتُ التي تُعبدُ، والحقيقةُ أنه ليس هناك أيُّ ذاتٍ تستحقُّ العبادةَ سوى الله تعالى، وقد قالت رابعةُ العدويّةُ رحمها الله:

- أَحِبُّكَ حُبَّيْنِ؛ حَبِّ الهوى وحُبِّا لأنكَ أهلٌ لذاك^(٢)

وقالت رحمها الله في موضعٍ آخر: «ما عبدتُ الله خوفاً من الله، ولا حبّاً للجنة، ولكنِّي عبدتهُ حبّاً له وشوقاً إليه»^(٣).

«أوحى الله تعالى إلى داودَ عليه السّلام: إِنَّ أَوَدَّ الأوداءِ إِلَيَّ مَنْ عبدَنِي بغيرِ نَوالٍ، لكنَّ لِيُعْطِيَ الرُّبوبيّةَ حقّها. وفي الرُّبُور: مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ عبدَنِي لجنّةٍ أو نارٍ؟ لو لم أخلُقْ جنّةً ولا ناراً، ألم أكنْ أهلاً أن أُطاع؟ ومَرَّ عيسى عليه السّلامُ على طائفةٍ من العبادِ قد نَحَلُوا، فقالوا: نخافُ النارَ ونرجو الجنّةَ، فقال لهم: مخلوقاً خِفْتُمْ ومخلوقاً رَجَوْتُمْ! ومَرَّ بقومٍ آخَرِينَ كذاكَ فقالوا: نعبُدُه حبّاً له وتعظيمًا لجلالِهِ، فقال: أنتم أولياءُ الله حقّاً، معكم أُمِرْتُ أن أُقيمَ»^(٤)، و«قال أبو حازم رحمةُ الله عليه: إِنِّي لَا أُسْتَحْيِي أَنْ أَعْبُدَه لِالثَّوابِ والعقابِ فأكونَ كالعبدِ السُّوءِ إن لم يَخَفْ فلم يَعمَلْ، وكالْأجيرِ السُّوءِ إن لم يُعْطَ لم يَعمَلْ. وفي الخبر: لا يكونَنَّ أحدُكم كالْأجيرِ السُّوءِ

(١) تفسير القرطبي.

(٢) تفسير المنار، سورة التوبة (٩): الآية ٢٤.

(٣) قوت القلوب، الجزء الثاني: ص ١٠٦٧: ذكر أحكام المحبة.

(٤) إحياء علوم الدين، كتاب المحبة والشوق، ص ١٧٥٧.

إِنْ لَمْ يُعْطَ أَجْرًا لَمْ يَعْمَلْ، وَلَا كَالْعَبْدِ الشَّوْءِ إِنْ لَمْ يَخَفْ لَمْ يَعْمَلْ»^(۱).

- لَنْ سَكَنْتُ حُورَ الْجَنَانِ فِي الْقَلْبِ، فَعِبَادَتُكَ لَيْسَتْ عِبَادَةً، وَإِنَّمَا تِجَارَةٌ^(۲).

- عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ: عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَيَعْلَمُ حَتَّى تِلْكَ الْأَشْيَاءَ الَّتِي تَخْفَى عَلَى النَّاسِ، كَمَا يَعْلَمُ الْأَشْيَاءَ الَّتِي تَظْهَرُ لَهُمْ.

- الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ: هَذَانِ اسْمَانِ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُمَا صِيغَةُ مَبَالِغَةٍ، وَفِي الرَّحْمَنِ قَمَّةُ الْمَبَالِغَةِ، يَعْنِي: رَحِيمٌ إِلَى دَرَجَةٍ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَصَوَّرَهَا أَحَدٌ، وَلَا يَجُوزُ اسْتِعْمَالُ لَفْظِ الرَّحْمَنِ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْأَعْظَمُ، وَرَحْمَتُهُ تَغْلِبُ غَضَبَهُ، وَلِهَذَا مَهْمَا كَانَ الْإِنْسَانُ مُذْنِبًا، لَوْ تَابَ مِنْ قَلْبِهِ مُخْلِصًا صَادِقًا فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَخَافَ شَيْئًا، فَرَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي لَا حَدَّ لَهَا وَلَا حِسَابَ تَنْتَظَرُ مُشْتَاقَةً لِأَنْ تُغْفَرَ لَهُ وَتَعْفَوْ عَنْهُ، يَا رَحْمَنُ يَا رَحِيمُ، يَا مَالِكِي، أَنْتَ دَائِمًا إِلَى الْكَرَمِ أَمِيلٌ، لِيَتَنَا نُرْزُقُ صِدْقَ الطَّلَبِ، آمِينَ.

- الْمَلِكُ: «أَيُّ: الْمَالِكُ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، الْمَتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالْإِبْجَادِ وَالْإِعْدَامِ»^(۳).

- الْقُدُّوسُ: «أَيُّ: الْمُنَزَّهَ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ وَالطَّاهِرُ عَنْ كُلِّ عَيْبٍ»^(۴).

- السَّلَامُ: «أَيُّ: ذَوِ السَّلَامَةِ وَالْمُسْلِمُ لِعِبَادِهِ»^(۵).

(۱) إحياء علوم الدين، كتاب المحبة والشوق، ۱۷۵۷، وقوت القلوب، ذكر أحكام المحبة ۲: ۱۰۶۴.

(۲) البيت بالأردنية هو:

اگر حور جنت کی دل میں بسی ہے ... عبادت ہی کیا یہ تو سوداگری ہے

(۳) صفوة التفاسیر.

(۴) تفسیر القرطبي.

(۵) المرجع السابق.

- المؤمن: «الذي يؤمن أولياءه من عذابه ويؤمن عباده من ظلمه»^(١).

- المهيمن: «أي: الرقيب الحافظ لكل شيء، والشهيد على عباده بأعمالهم الذي لا يغيب عنه شيء»^(٢).

- العزيز: «أي: القادر القاهر الذي لا يُغلب ولا يناله ذل»^(٣).

- الجبار: «أي: القهار العالي الجناب الذي يدل له من دونه، وهو العظيم الذي إذا أراد أمرًا فعله»^(٤).

- المتكبر: «أي: الذي له الكبرياء حقًا ولا تليق إلا به»^(٥).

«والكبرياء صفة تستحق الثناء بالنسبة لله تعالى ولا تليق إلا به، ولكن إذا ادعى مخلوق الكبرياء، فإن هذه صفة مذمومة بالنسبة إليه»^(٦). يقول سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه: إن النبي ﷺ قال: «يقول الله سبحانه: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، من نازعني واحدًا منهما ألقيته في جهنم»^(٧).

- الخالق: «الخالق لجميع الأشياء»^(٨).

- الباري: «أي: المخرع المنشئ للأعيان من العدم إلى الوجود»^(٩).

(١) تفسير القرطبي.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق.

(٥) المرجع السابق.

(٦) «والكبرياء في صفات الله مدح، وفي صفات المخلوقين ذم». تفسير القرطبي.

(٧) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ١٦ برقم ٤١٧٤.

(٨) صفوة التفاسير.

(٩) تفسير الخازن.

- المصوّر: «أي: المبدع للأشكال على حسب إرادته^(١)»، والتشكيل الذي يكون به صورة وهيئة يُعرف بها ويتميّز عن غيره بسمتها^(٢).

﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾

٢١ - الأسماء الحُسنى: الله تعالى واحدٌ، واسم ذاته واحدٌ أيضًا، يعني: «الله»، وصفاته كثيرةٌ جدًا، ولهذا فإنَّ أسماء صفاته كثيرةٌ جدًا أيضًا، مثلاً: الرَّحْمَنُ، الرَّحِيمُ، الرَّازِقُ، الْخَالِقُ، وغيرها من أسماء صفات الله تعالى التي ورد ذكرها في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وصفات الله تعالى هي الأكمل والأعلى على الإطلاق، والأسماء التي تُعبّر عن هذه الصفات هي الأحسن والأكمل والأعلى على الإطلاق أيضًا، ولهذا عندما تذكرون الله تعالى، أو تدعونه، فاختاروا من أسمائه ما يناسب واقع الحال، ولا تأتوا من عند أنفسكم بأسماء قد لا تليق بذاته العلية.

﴿يَسِيحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

٢٢ - للتعرف على تفسير هذه الآية راجع الحاشية الأولى من سورة الحديد (٥٧).

الفقيه إلى الله: محمّد إمداد حُسين بيززاده،

جامعة الكرم، إنجلترا

بعد صلاة العشاء من يوم الاثنين ٢٧ سبتمبر ٢٠١٠م

الموافق ١٨ شوال ١٤٣١هـ.

هذا وقد اكتمل بفضل الله تعالى وكرمه تفسير سورة «الحشر» في أربعة أيام فقط، أي: من ٢٣ إلى ٢٧ سبتمبر، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

(١) صفوة التفاسير.

(٢) تفسير القرطبي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٠) سُورَةُ الْمُتَحَنِّةِ

هذه السُّورَةُ مَدَنِيَّةٌ، واسمُها «المُتَحَنِّةُ»، وهو مأخوذٌ من الآية رقم ١٠ منها، ويُقرأ اسمُ هذه السُّورَةِ على وجهَيْن، فإذا قُرئَ بكسرِ الحاءِ، يعني «المُتَحَنِّةُ»، فهو اسمُ فاعِلٍ، ويكونُ معناه: «السُّورَةُ الَّتِي تَمْتَحِنُ النِّسَاءَ»، وإذا قُرئَ بفتحِ الحاءِ، يعني: «المُتَحَنِّةُ»، فهو اسمُ مفعولٍ، ويكونُ معناه: «المرأةُ الَّتِي امْتَحِنَتْ»، لأنَّ النِّسَاءَ اللَّائِي كُنَّ يَهَاجِرْنَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَيَدَّعِينَ أَنَّهِنَّ مُسْلِمَاتٌ، كَانَ يَتِمُّ امْتِحَانُهُنَّ، فَإِنْ كُنَّ - بِالْفِعْلِ - مُسْلِمَاتٍ جُئْنَ حِفَاطًا عَلَى إِيْمَانِهِنَّ فَلَا تَتِمُّ إِعَادَتُهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ، أَمَّا إِنْ كُنَّ قَدْ جِئْنَ هَرَبًا مِنْ أَزْوَاجِهِنَّ لِهَدَفٍ آخَرَ تَتِمُّ إِعَادَتُهُنَّ مِنْ حَيْثُ جِئْنَ.

الحفاظ على الأسرار القومية

في بداية هذه السُّورَةِ إشارةٌ إِلَى قِصَّةِ سَيِّدِنَا حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ، فَقَدْ حَاولَ أَنْ يُبَلِّغَ الْكُفَّارَ بِسَرِّ مَهْمٍّ مِنَ الْأَسْرَارِ الْحَرِيَّةِ لِلْمُسْلِمِينَ بِهَدَفِ حِمَايَةِ زَوْجَتِهِ وَأَوْلَادِهِ مِنْهُمْ، وَلَوْ لَمْ يَتَدَارَكَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا الْأَمْرَ فِي وَقْتِهِ، لَكَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ تَلْحَقَ بِالْمُسْلِمِينَ خَسَارَةٌ فَادِحَةٌ فِي الْأَرْوَاحِ، وَرَغْمَ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ نَزَلَتْ فِي سَيِّدِنَا حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ، لَكِنَّ حُكْمَهَا عَامٌّ، يَعْنِي: يَنْبَغِي لِلأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ تَجَنُّبُ الْأَخْطَاءِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تُسَبِّبَ لَهُمْ خَسَارَةً أَوْ ضَرَرًا.

مصادقة الكفار ومعاداتهم

يُعلمُ من الآية رقم ٩ والآية رقم ١٠ من السُّورة أنَّ السَّبَبَ في قَطْعِ العِلاقَةِ معَ الكُفَّارِ ليسَ كُفْرَهُمْ، وإنَّما معاداتُهُم للإسلام، وظُلْمُهُم للمسلمينَ واعتداؤُهُم عليهم، واليومَ لا يوجَدُ شعبٌ متحضِّرٌ يسمَحُ لأحدِ أفرادِهِ بأن يُقيمَ عِلاقاتَ صِداقةٍ معَ أعدائِهِ؛ لأنَّ من الممكنِ جدًّا أن تتسرَّبَ الأسرارُ القوميَّةُ للبلادِ إلى العدوِّ بهذا الشكل، ولهذا فإنَّ مَنْ يفعلُ ذلكَ تُوجَّهُ له تَهْمَةُ الخِيانةِ العُظمى، ويُعاقَبُ عليها بأشدَّ العقوبات، وبالتالي ينبغي للمسلمينَ أن لا يكونَ سلوكُهُم معَ الكُفَّارِ جميعًا واحدًا، وعليهم أن يفرِّقوا بينَ الكافرِ العدوِّ والكافرِ الذي ليسَ عدوًّا، فهذه حقيقةٌ يعملُ بموجبها العالمُ كُلُّه اليومَ، فلا يوجَدُ شعبٌ يقيمُ عِلاقاتَ صِداقةٍ معَ عدوِّه، كما لا يُفسِدُ عِلاقَتَهُ بغيرِ سببٍ معَ شعبٍ ليسَ عدوًّا له.

الزواج بين المسلمين والكفار

قَبْلَ نزولِ الآية رقم ١٠ من هذه السُّورة كانَ الزَّوْجُ معمولًا به بينَ المسلمينَ والكُفَّارِ، فكانتِ السيِّداتُ المسلماتُ يتزوَّجنَ برجالٍ كُفَّارَ، وكانَ الرجالُ المسلمونَ يتزوَّجونَ بنساءٍ كافرات، ولكنَّ بعدَ نزولِ هذه الآية أُغْلِقَ بابُ زِواجِ الرجالِ المسلمينَ مِنَ النِّسَاءِ الكافراتِ والمُشْرَكَاتِ، إلَّا أنَّ الرجالَ مِنَ المسلمينَ يُمكنُهُمُ الزَّوْجُ مِنَ سيِّداتِ أهلِ الكتابِ، لكنَّ العكسَ من ذلكَ غيرُ جائزٍ، ولمزيدٍ من التفصيلِ عن هذا الأمرِ يُمكنُكَ مراجعةُ الحاشية رقم ١٦ للآية رقم ٥ من سُورة المائدة (٥).

أخذ البيعة من النساء

جاءَ ذِكرُ أَخْذِ البيعةِ مِنَ النِّسَاءِ في نهايةِ هذه السُّورة، كانَ النَّبِيُّ ﷺ يأخُذُ البيعةَ مِنَ النِّسَاءِ على التَّخْلِیِّ عنِ المساوئِ التي كانتِ موجودةً قَبْلَ الإسلامِ في

المجتمع العربيّ عمومًا، وبينَ نساءِ هذا المجتمعِ بصفةٍ خاصّة، وكان يُعلِّمُهُنَّ
أنَّهُنَّ إذا خالَفْنَ حكمًا، فسيكونُ هناكُ أربعةُ شهودٍ عيانٍ عليهنَّ يومَ القيامة، يعني:
ستشهدُ عليهنَّ يداهُنَّ ورجلاهُنَّ.

الفقيِرُ إلى الله: محمّد إمداد حُسين بيززاده،
جامعةُ الكَرَم، إنجلترا
بعدَ صلاةِ الظهر من يومِ الثلاثاء ٢٨ سبتمبر ٢٠١٠ م
الموافق ١٩ شوال ١٤٣١ هـ.



سُورَةُ الْمُمتَحِنَةِ (٦٠)،

مدنية (٩١)، آياتها (١٣)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخْذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ
الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي
تُشْرُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾
إِنْ يَشْفِقُكُمْ يُكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾
لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾
قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ
إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا تُشْفِقَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ
الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ
لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخْذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾

١ - حينَ فسَخَ أهلُ مَكَّةَ معاهدةَ صلحِ الحُدَيْيَةِ، بدأ النبي ﷺ يُعِدُّ العُدَّةَ للهجوم

على مكة، وأخفى هذه الاستعدادات الحربيّة عن عامّة الناس، حتى لا تتسرّب الأخبار إلى أهل مكة ويعرفوا بها مسبقاً، وكان سيّدنا حاطب بن أبي بلتعة قد جاء إلى المدينة مهاجراً، لكنّ زوجته وأولاده كانوا لا يزالون في مكة، فقام بإرسال خطابٍ إلى مشركي مكة يُخبرهم فيه عن هذه الحملة العسكريّة، بغرض أن يُحافظ هؤلاء المشركون على أولاده وزوجته في مكة لقاء هذا المعروف الذي يُسديه إليهم، ولكنّ الله تعالى أطلع نبيه الكريم ﷺ بأمر هذا الخطاب عن طريق الوحي، وتفصيل ذلك في الحديث التالي:

- عن عليّ رضي الله عنه، قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والرّيز والمقداد فقال: «انطلقوا حتّى تأتوا روضة خاخ، فإنّ بها طعينة معها كتاب، فخذوا منها». قال: فانطلقنا تُعادي بنا خيلنا حتّى أتينا الرّوضة، فإذا نحن بالطعينة، قلنا لها: أخرجي الكتاب. قالت: ما معي كتاب. فقلنا: لتخرجنّ الكتاب أو لتلقينّ الثّياب، قال: فأخرجته من عقاصيها، فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناسٍ بمكة من المشركين، يُخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ «يا حاطب، ما هذا؟». قال: يا رسول الله، لا تعجل عليّ، إنّي كنتُ امرأً مُلصّقاً في قريش - يقول: كنتُ حليفاً ولم أكن من أنفسها - وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات، يحمون أهلهم وأموالهم، فأحببتُ إذ فاتني ذلك من النّسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني (لا قدر الله)، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «أما إنّه قد صدّقكم». فقال عمر: يا رسول الله، دغني أضرب عنق هذا المنافق. فقال: «إنّه قد شهد بدراً، وما يدريك لعلّ الله أطلع على من شهد بدراً قال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». فأنزل الله السّورة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخْذُوا عَدُوّ وَعَدُوّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ إلى قوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾^(١).

(١) البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس برقم ٣٠٠٧، كتاب المغازي، باب ٤٨ برقم

وكان من الممكن جدًا أن يؤدي هذا الخطأ من سيدنا حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه إلى ضررٍ عظيم، ولكنه لم يكن يقصدُ إلى مخالفة الإسلام والإضرار به، ولهذا عفا عنه النبي ﷺ، ومن أسباب هذا العفو أيضًا: أن سيدنا حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه كان من الذين شاركوا في غزوة بدر، ويُغفرُ للعُظماء هفواتهم مراعاةً لأعمالهم وحسناتهم العظيمة، مثلما تقول السيدة عائشة رضي الله عنهما، من أن النبي ﷺ قال: «أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود»^(١).

ورغم أن هذه السورة نزلت في سيدنا حاطب بن أبي بلتعة، لكن حكمها عامٌ، يعني ينبغي للأمة الإسلامية تجنب الأخطاء التي يمكن أن تُسبب لهم خسارة أو ضررًا، ولهذا فإن مقصد هذه الآية هو أن الذين هم أعداء الله تعالى وأعداؤكم، وقد أنكروا دينكم، وأجبروكم أنتم ورسول الله ﷺ - بسبب هذا الدين - على الهجرة من وطنكم، لا يمكن أن يكونوا محبين لخيركم، ولهذا لا تتخذوا من أمثال هؤلاء أصدقاء، حتى لا تتسرب أسرار المسلمين إليهم. وباختصار: إذا كنتم خرجتم للجهاد في سبيلي وبحثاً عن رضائي، فلا تُرسلوا إلى أعداء الإسلام رسائل خفية، وإذا قام أحد منكم بإخبار الكفار بأسراركم بقصد الإضرار بالمسلمين، فاعلموا أنه قد ضلَّ سواء السبيل، ولن يستطيع أن يخدع الله تعالى؛ لأن الله تعالى يعلم تمام العلم ظاهركم وباطنكم.

﴿إِنْ يَتَفَقَّهْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾

٢ - يعني: لا تتخذوا من أعداء الإسلام والمسلمين أصدقاء أو مُقرَّبين، إذ إنهم لو تغلبوا عليكم في وقتٍ من الأوقات سيتغيرون تجاهكم فوراً، وسيعادونكم،

وسوف يضايقونكم بالسَّيِّئَاتِ، ويؤذونكم بأيديهم، وستكون أكبر أمانيتهم أن تتركوا الإسلام أنتم أيضاً وتصبحوا كافرين مثلهم.

﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

٣- في هذه الآية تنبيه مباشر لسيدنا حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه، وتنبيه غير مباشر للأمة المسلمة كلها، بأن الذي يعصي الله ورسوله، أو يحاول إلحاق الضرر بالمسلمين بضغظ من حبه لأولاده، فليعلم أن أولاده وأقرباءه لن ينفعوه بشيء يوم القيامة، بل إن كل إنسان في ذلك اليوم سيكون مشغولاً بنفسه وبما سيؤول إليه مصيره، إلى درجة أنه سيفر من أولاده وأقربائه عندئذ، مثلما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقْرَأُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَحْبِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

لم يكن الزَّوْجُ من المشركات حتى ذلك الوقت قد حُرِّمَ، وكانت زوجة سيدنا حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه وأولاده مشركين، وكانوا في مكة، ولن تنفع الزَّوْجَةُ المشركة زوجها يوم القيامة بشيء، وكذا الأولاد المشركون لن ينفعوا أباهم بشيء أيضاً، بينما سيساعد أهل الإيمان يومئذ بعضهم بعضاً، مثلما يقول الله تعالى:

- ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

- ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١].

﴿فَدَكَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيِ الْبَرِّهِيمِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾

٤- هنا يُقْصُّ الله تعالى على المسلمين قصة سيدنا إبراهيم عليه السَّلام

بَغَرَضٍ إِدْخَالِ السَّكِينَةِ إِلَى قُلُوبِهِمْ وَالتَّسْرِيَةِ عَنْهُمْ لَمَّا اضْطَرُّوا إِلَى مَفَارِقَةِ الْكُفَّارِ مِنْ أَهْلِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ وَأَقَارِبِهِمْ، يَعْنِي: أَنَّ لَكُمْ فِي حَيَاةِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَحَيَاةِ أَصْحَابِهِ أَسْوَةً حَسَنَةً لَكُمْ، فَقَدْ قَالَ لِقَوْمِهِ: إِنَّا بَرِئُونَ مِنْكُمْ وَمِنَ الْهَيْكَمِ وَعَقَائِدِكُمْ، وَمَا لَمْ تَتُومِنُوا بِاللَّهِ الْوَاحِدِ، سَيَبْقَى جِدَارٌ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالْكَرَاهِيَةِ يَحُولُ بَيْنَنَا.

﴿لَا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا اسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾

٥ - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ: إِنَّ فِي حَيَاةِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَسْوَةً حَسَنَةً لَكُمْ، فَاتَّبِعُوهُ، لَكِنَّ الْاسْتِغْفَارَ الَّذِي كَانَ سَيِّدُنَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ اسْتَغْفَرَهُ لِأَبِيهِ (عَمَّهُ آزَرَ) الْكَافِرِ، لَا تَتَّبِعُوهُ وَلَا تَفْعَلُوا مِثْلَهُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ الدُّعَاءُ بِالْمَغْفِرَةِ لِلْكَافِرِ، وَحِينَ عَلِمَ سَيِّدُنَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنَّ آزَرَ قَدْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ، تَرَكَ الدُّعَاءَ لَهُ وَقَالَ: لَسْتُ مُجَازًا بِأَنْ أَشْفَعَ لِلْكَفَّارِ أَمَامَ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الدُّعَاءَ فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ كَمَا يَلِي:

﴿وَمَا كَانَتْ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، وَيَعْلَمُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ يَجُوزُ الْاسْتِغْفَارُ وَالدُّعَاءُ بِالْهَدَايَةِ لِلْمَشْرِكِ وَالْكَافِرِ الَّذِي عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ، مِثْلَمَا يَقُولُ سَيِّدُنَا عَبْدُ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ، وَهُوَ يَمَسُّحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»^(١)، وَكَانَ دُعَاءُ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِآزَرَ لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ وَعَدَهُ بِأَنْ يَدْعُوَ اللَّهَ لَهُ بِالْمَغْفِرَةِ، وَكَانَ يَسْتَغْفِرُ لَهُ عَلَى أَمَلٍ أَنْ يَعْفُوَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ كُفْرِهِ وَيَهْدِيَهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَلَكِنْ حِينَ اتَّضَحَ لِسَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ آزَرَ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ وَالْعِدَاءِ لِلَّهِ تَعَالَى، عِنْدَئِذٍ

تبرأ سيّدنا إبراهيم عليه السّلام منه، وتوقّف عن الدّعاء والاستغفار له.

إلا أنّ سيّدنا إبراهيم عليه السّلام ظلّ يدعو لوالدّيه اللّذين كانا مؤمنين حتى النّهاية، مثلما يقول القرآن المجيد: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وقد اشتهر هذا الدّعاء وسار على الألسنة، إلى درجة أنّ المسلمين حتى اليوم لا يزالون يدعون لوالديهم بهذا الدّعاء في الصّلاة، كما يعلم منه أنّ والدّي سيّدنا إبراهيم عليه السّلام كانا مؤمنين، ولهذا كان يدعو لهما بالمغفرة، ولم يكن آزر والدّه، وإنّما كان عمّه، ولمزيد من التفصيل عن هذا الموضوع راجع الحاشية رقم ٧٠ من سورة الأنعام (٦).

هل كان آزر والدّ سيّدنا إبراهيم عليه السّلام أم عمّه؟ وهل كان كافراً أم مسلماً؟ وهل يمكن أن يكون والدّ أيّ نبيّ كافراً أم لا؟ وهل كان والد النبي ﷺ مؤمنين أم لا؟ يمكنك التعرّف على أجوبة هذه الأسئلة بالرجوع إلى الحاشية رقم ٧٠ للآية رقم ٧٤ من سورة الأنعام (٦).

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

٦ - كان سيّدنا إبراهيم عليه السّلام ورفاقه يدعون الله قائلين: يا ربّنا، إنّنا نتوكّل عليك وحدك، ونستعين بك وحدك، ونتوقّع من قدرتك الغالبة وحكمتك العظيمة أن تغفر خطايانا، وأن لا تسلط علينا الكفّار، وآلا تبتلينا بالهزيمة في مواجهة الكافرين.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾

٧ - في حياة سيّدنا إبراهيم عليه السّلام وحياة رفاقه المؤمنين أسوة حسنة، ولكنّ سعادة التّأسيّ بهم تكون فقط من نصيب الذين يؤمنون بلقاء الله تعالى

وباليوم الآخر، ويخافون من الحساب في قلوبهم، لكن الذين لا يؤمنون بالآخرة، وينحرفون عن اتباع أنبيائهم، إنما يضرون أنفسهم فقط، ولا يضرون إعراضهم الله تعالى في شيء؛ لأن الله تعالى هو المستغني، وهو المستحق لكل حمدٍ وثناء في كل حال، سواء أطمعتموه أم عصيتموه.

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتُلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ نَكَحُوهُنَّ إِذَا ءَالَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ وَتَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ أَنْفَقُوا ذَلِكَ كُنْ حُكْمُ اللَّهِ يَنْهَكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَتَاوُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَأَنْفَقُوا اللَّهُ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعُكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرَكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسْأَلُونَ مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَسْأَلُ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَةً﴾

٨ - في هذه الآية تسرية عن قلوب المسلمين بأن كفار مكة المنهمكين اليوم في مخالفتكم والكيد لكم، سيأتي وقت قريب جدًا يحبونكم فيه، ولم يكن من

السهل في ذلك الوقت فهُمْ مغزى هذه النبوءة، إذ كيف يمكن أن يُحبُّهم كفَّارُ مكة؟ لكنَّ الله تعالى هو القادرُ على كلِّ شيءٍ، فلم تكدْ تمضي أسابيعٌ قليلةٌ حتى فُتحت مكة، ورأى الناسُ بأعينهم أنَّ أعداءَ الأُمسِ الذين كانوا متعطِّشينَ لدماءِ المسلمين يَدْخُلونَ اليومَ في دينِ الله أفواجًا، ويُضْحَوْنَ بدمائهم في سبيلِ نشرِ الإسلامِ.

﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾

٩ - هاتان الآيتان (يعني: الآية رقم ٨ والآية رقم ٩) من هذه السورة لهما أهميةٌ كبيرةٌ فيما يتعلَّق بمصادقةِ الكفَّارِ ومعاداتهم، وقد قَسَمَتِ الآيتان الكفَّارَ إلى قسمين:

القسمُ الأول: هم أولئك الكفَّارُ الذين لم يُقاتلوكم في الدِّين، ولم يُخْرِجُوكم من ديارِكم، ولهذا فإنَّ الإنصافَ يقتضي أن نسلِّكَ مع هؤلاءِ سلوكًا حسنًا، والله تعالى يحبُّ المنصفين.

القسمُ الثاني: هم أولئك الكفَّارُ الذين قاتلوكم في الدِّين، وأخْرِجُوكم من ديارِكم، وساعدوا أعداءكم عليكم، ومصادقةٌ أمثالِ هؤلاءِ ظلمٌ عظيم، والله تعالى لا يحبُّ الظالمين.

ويُعلِّمُ من هذه الآيات أنَّ السَّبَبَ في قَطْعِ العلاقةِ مع الكفَّارِ ليس كُفْرُهُمْ، وإنَّما معاداتهم للإسلام، وظلُّمُهُم للمسلمين واعتداؤُهُم عليهم، واليومَ لا يوجدُ شعبٌ متحضَّرٌ يسمحُ لأحدِ أفرادِهِ بأن يُقيمَ علاقاتِ صداقةٍ مع أعدائه؛ لأنَّ من الممكنِ جدًّا أن تتسرَّبَ الأسرارُ القوميَّةُ للبلادِ إلى العدوِّ بهذا الشكلِ، ولهذا فإنَّ مَنْ يفعلُ ذلكَ تُوجَّهُ له تُهمَّةُ الخيانةِ العُظمى، ويعاقَبُ عليها بأشدَّ العقوبات، وبالتالي ينبغي للمسلمين أن لا يكونَ سلوكُهُم مع الكفَّارِ - جميعًا - واحدًا، وعليهم أن يفرِّقوا بينَ الكافرِ العدوِّ والكافرِ الذي ليس عدوًّا، فهذه حقيقةٌ يعملُ

بموجبها العالم كله اليوم، فلا يوجد شعب يُقيم علاقات صداقة مع عدوه، كما لا يُفسد علاقاته بغير سبب مع شعب ليس عدواً له.

حسن السلوك مع غير المسلمين

- تقول السيدة أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قدمت عليّ أمي وهي مشرّكة في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قلت: إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأصل أمي؟ قال: «نعم، صلي أمك»^(١).

- جاء في بعض الروايات الإسرائيلية «أن إبراهيم كان لا يأكل وحده، فإذا خضر طعامه أرسل يطلب من يأكل معه، فلقي يوماً رجلاً، فلما جلس معه على الطعام، قال له إبراهيم: سم الله، قال الرجل: لا أدري ما الله، فقال له: فاخرج عن طعامي، فلما خرج نزل إليه جبريل فقال له: يقول الله: إنه يرزقه على كفره مدى عمره وأنت بخلت عليه بلقمة، فخرج إبراهيم فرحاً يجرّ رداءه، وقال: ارجع، فقال: لا أرجع حتى تخبرني لم تزدني لغير معنى؟ فأخبره بالأمر، فقال: هذا ربّ كريم، آمنّت، ودخل وسمّى الله وأكل مؤمناً»^(٢).

- روي عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «أوحى الله إلى إبراهيم: يا خليلي، حسن خلقك، ولو مع الكافر، تدخل مدخل الأبرار، فإن كلمتي سبقت لمن حسن خلقه أن أظله تحت عرشي، وأن أسقيه من حظيرة قدسي، وأن أدنيه من جواربي»^(٣).

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب ٣ برقم ٢٦٢٠.

(٢) تفسير القرطبي، سورة هود (١١): الآية ٦٩.

(٣) المعجم الأوسط، الإمام الطبراني ٧: ٢٦١ برقم ٦٥٠٢، والترغيب والترهيب، ٣: ٤٠٧: الترغيب في الخلق الحسن.

- عن مجاهد^(١): أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ذُبِحَتْ لَهُ شَاةٌ فِي أَهْلِهِ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: أَهْدَيْتُمْ لَجَارِنَا الْيَهُودِيَّ؟ أَهْدَيْتُمْ لَجَارِنَا الْيَهُودِيَّ؟ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورُّهُ»^(٢). وَتَبَادُلُ الْهَدَايَا مَعَ الْجِيرَانِ مِنَ الطَّرِيقِ الَّتِي تَسَاعَدُ فِي الْإِحْتِفَافِ بِعَلَاقَاتِ طَيِّبَةٍ مَعَهُمْ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي لِلطَّرَفَيْنِ عِنْدَ تَبَادُلِ الْهَدَايَا أَنْ يَحْتَرَمَ كُلُّ مِنْهُمَا الْمَشَاعِرَ الدِّيْنِيَّةَ لَدَى الْآخَرِ، وَالْأَيُّقَدَّمُ لَهُ فِي إِهْدَائِهِ شَيْئًا غَيْرَ مَحَبَّبٍ فِي دِينِهِ.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَ كُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾

١٠ - الشُّرُوطُ الَّتِي قَدَّمَهَا سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو مَدُوبٌ كَفَّارٌ مَكَّةَ فِي صَلَاحِ الْحُدُودِ كَانَتْ مِنْ بَيْنِهَا شَرْطٌ يَقُولُ: إِنَّ أَيَّ رَجُلٍ مِنْ رَجَالِنَا يَأْتِيكُمْ فِي الْمَدِينَةِ، حَتَّى وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكُمْ، عَلَيْكُمْ أَنْ تُعِيدُوهُ إِلَيْنَا^(٣)، وَلَئِنْ الْمَعَاهِدَةُ نَصَّتْ عَلَى مَوْضُوعٍ إِعَادَةِ الرِّجَالِ هَذَا، لِهَذَا كُلَّمَا هَاجَرَ رَجُلٌ مُسْلِمٌ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعِيدُهُ إِلَى مَكَّةَ ثَانِيَةً، لَكِنْ عِنْدَمَا تُهَاجِرُ سَيِّدَةٌ مُسْلِمَةٌ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ تَحَقَّقُوا جَيِّدًا مِنْ هَؤُلَاءِ النِّسَاءِ، فَإِذَا تَبَيَّنَتْ مِنْ أَنَّهِنَّ مُسْلِمَاتٌ حَقًّا فَلَا تُعِيدُوهُنَّ إِلَى كَفَّارٍ مَكَّةَ؛ لِأَنَّهُنَّ - بِهَذَا الشَّكْلِ - لَا يَحِلُّ لِنَّ الرِّجَالِ مِنَ الْكُفَّارِ.

قَبْلَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ كَانَ الزَّوْجُ مَعْمُولًا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْكَفَّارِ، فَكَانَتْ السَّيِّدَاتُ الْمُسْلِمَاتُ يَتَزَوَّجْنَ بِرَجَالٍ كُفَّارٍ، وَكَانَ الرِّجَالُ الْمُسْلِمُونَ يَتَزَوَّجُونَ بِنِسَاءٍ كَافِرَاتٍ، وَلَكِنْ بَعْدَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ أُغْلِقَ بَابُ زَوَاجِ الرِّجَالِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ

(١) ينظر، تفسير القرطبي، ٥: ١٨٨.

(٢) الترمذي، أبواب البر، باب ٢٨ برقم ١٩٤٣.

(٣) «فقال سهيل وعلى أنه لا يأتيك من رجل، وإن كان على دينك، إلا رددته إلينا». البخاري،

كتاب الشروط، باب ١٥ برقم ٢٧٣٢.

النِّسَاءِ الْكَافِرَاتِ وَالْمَشْرِكَاتِ، إِلَّا أَنَّ الرِّجَالَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُمَكِّنُهُمُ الزَّوْجُ مِنْ سَيِّدَاتِ أَهْلِ الْكِتَابِ، لَكِنَّ الْعَكْسَ مِنْ ذَلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ، وَلَمَزِيدٍ مِنَ التَّفْصِيلِ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ يُمْكِنُكَ مَرَاجَعَةُ الْحَاشِيَةِ رَقْمَ ١٦ لِلآيَةِ رَقْمَ ٥ مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ (٥).

﴿وَأَتَوْهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسَلُّوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَسْتُمْ لَهُمْ أَنْفَقُواذِلْكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾

١١ - يعني: أَنَّ النِّسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ اللَّاتِي يُهَاجِرْنَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ، بِمَا أَنَّهُنَّ لَمْ يُعْذَنَ يَحْلُلْنَ لِأَزْوَاجِهِنَّ الْكَفَّارِ، عَلَيْكُمْ أَنْ تُعِيدُوا إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ الْكَفَّارِ الصَّدَاقَ الَّذِي قَدَّمُوهُ لِنِسَائِهِنَّ الْمُسْلِمَاتِ، وَبَعْدَهَا يُمَكِّنُكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَإِعْطَاؤَهُنَّ مَهْوَرَهُنَّ، وَهَكَذَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ الرِّجَالُ، أَنْتُمْ أَيْضًا، طَبَقًا لِلْحُكْمِ الْجَدِيدِ، لَا تَسْتَطِيعُونَ الْإِحْتِفَاطَ بِزَوْجَاتِكُمُ الْكَافِرَاتِ، وَلِهَذَا اسْتَعِيدُوا الصَّدَاقَ الَّذِي أَدَيْتُمُوهُ لَزَوْجَاتِكُمُ الْكَافِرَاتِ، وَأَعِيدُوا هَؤُلَاءِ الزَّوْجَاتِ إِلَى الْكَفَّارِ، وَبِنَفْسِ الطَّرِيقَةِ يَسْتَعِيدُ الْأَزْوَاجُ الْكَفَّارُ مِنْكُمْ الصَّدَاقَ الَّذِي أَدَّوهُ إِلَى زَوْجَاتِهِمُ الْمُسْلِمَاتِ، وَهَذَا هُوَ حُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي صَدَّرَ بِشَأْنِكُمْ.

﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكَفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتَّوُوا الَّذِي بَكَتْ أَرْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾

١٢ - لو أَنَّ زَوْجَةً كَافِرَةً لِمُسْلِمٍ هَرَبَتْ مِنْهُ إِلَى الْكَفَّارِ وَلَمْ يَقُمْ هَؤُلَاءِ الْكَفَّارُ بِإِعَادَةِ صَدَاقِهَا: يُوَدَّى مَبْلَغُ الصَّدَاقِ لِهَذَا الْمُسْلِمِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ أَوْ مِنْ أَمْوَالِ الْغَنَائِمِ.

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَتُ يُبَايِعُكَ عَلَى أَنْ لَا يَشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ﴾

١٣ - تَقُولُ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ

يَمْتَحِنُ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ بِهَذِهِ الْآيَةِ، بِقَوْلِ اللَّهِ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايِعُكَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾. قَالَ عُرْوَةُ: قَالَتْ عَائِشَةُ: فَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا الشَّرْطِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَدْ بَايَعْتُكَ» كَلَامًا، وَلَا - وَاللَّهِ - مَا مَسَّتْ يَدُهُ امْرَأَةً قَطُّ فِي الْمُبَايَعَةِ، مَا يُبَايِعُهُنَّ إِلَّا بِقَوْلِهِ: «قَدْ بَايَعْتُكَ عَلَى ذَلِكَ»^(١).

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾

١٤ - فِي النَّهَايَةِ جَاءَتِ النَّصِيحَةُ إِلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ بِأَنْ لَا تُصَادِقُوا أَوْلَئِكَ الَّذِينَ بَعْضِيَانِهِمُ الْمُسْتَمِرُّ يَجْعَلُونَهُمْ مُسْتَحِقِّينَ لَغَضَبِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَدْ يَئِسُوا مِنْ نَجَاتِهِمْ فِي الْآخِرَةِ مِثْلَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ فِي قُبُورِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ قَدْ عُرِضَ عَلَيْهِمْ فِي قُبُورِهِمْ مَصِيرُهُمُ السَّيِّئُ.

الفقيه إلى الله: محمّد إمداد حسين بيرزاده،

جامعة الكرم، إنجلترا.

بعد صلاة العشاء من يوم الأربعاء ٢٩ سبتمبر ٢٠١٠م

الموافق ٢٠ شوال ١٤٣١هـ

هَذَا وَقَدْ اكْتَمَلَ بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَكَرَمِهِ تَفْسِيرُ سُورَةِ «الْمُمْتَحِنَةِ» فِي يَوْمٍ وَنَصَفِ الْيَوْمِ فَقَطُّ، أَي: مِنْ ٢٨ إِلَى ٢٩ سَبْتِمْبَرٍ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦١) سُورَةُ الصَّفِّ

هذه السُّورَةُ مَدَنِيَّةٌ، واسمُها: «الصَّفِّ»، وهو مأخوذٌ من الآية رقم ٤ منها.

التطابق في القول والفعل

في الآية الثانية والثالثة من هذه السُّورَةِ تربيةٌ للمسلمين وتعليمٌ لهم بأنَّ الدينَ الذي اختاركم اللهُ تعالى لتبليغِهِ يقتضي أن تعملوا أنتم أولاً به، ثم بعد ذلك تُرغبون الآخرين في العمل به، والله تعالى يكره كثيراً أن تقوموا بدعوة الآخرين إلى الحسنة، بينما أنتم تفعلون خلافها.

الاتحاد والتوافق

عندما لم يتوقف ظلمُ كفَّارِ مكةَ للمسلمين حتى بعدَ هجرتهم إلى المدينة، أذنَ اللهُ تعالى للمسلمين أن يزدُّوا على القوةِ بالقوةِ، وفي نفسِ الوقتِ أرشدَهم وأكَّدَ عليهم أن يثبتوا في ميدانِ الحربِ متَّحدين متوافقين منظمين إذا ما قرَّروا دخولَ الحربِ ضدَّ الكفَّارِ في سبيلِ اللهِ تعالى، وأن يحمي كلُّ منهم ظهرَ الآخرِ، ويُصبحَ حائطُ صدٍّ للأعداءِ عنه؛ لأنَّهم إن لم يفعلوا ذلك سيُفرِّقُهم الأعداءُ ويَهْزِمُونَهُمْ.

بشارة سيدنا عيسى عليه السلام

في الآية رقم ٦ من هذه السُّورَةِ قال سيِّدُنَا عيسى عليه السَّلامُ لبني إسرائيلَ: إِنِّي أَبَشِّرُكُمْ بِبَعْثَةِ رَسُولٍ عَظِيمٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي واسمُهُ: «أحمد».

انتصار نور الإسلام

لَحِقَتْ بالمسلمين خسارةٌ كبيرةٌ في الأرواح يومَ غزوةِ أُحُدٍ، وأدَّى ذلك إلى ارتفاعِ معنوياتِ كُفَّارِ مكةَ، في ذلك الوقتِ دعا كُفَّارُ مكةَ من ناحيةِ باقيِ القبائلِ العربيَّةِ لِيَنْضُمُوا إليهم حتى يَقْضُوا على الإسلامِ مجتمعينَ، وعلى الجانبِ الآخرِ بَشَّرَ اللهُ تعالى المسلمينَ بأنه لا حاجةَ بكم إلى الخوفِ من شيءٍ، فاللهُ تعالى هو الذي أضَاءَ شمعةَ الإسلامِ، ولا يستطيعُ الكُفَّارُ إطفاءَ نورِهِ ولو اجْتَمَعُوا له، بل إِنَّ اللهَ تعالى سَيُكْمِلُ نورَ الإسلامِ، وسيصلُ النبيُّ الكريمُ ﷺ بالإسلامِ - بِفَضْلِ تَبْلِيغِهِ ودَعْوَتِهِ المستمرةِ - إلى حيثُ لا يمكنُ أن يُوازِيَهُ أيُّ دينٍ آخَرَ في العالمِ، وهكذا رَأَتْ الدُّنْيَا أَنَّ رَايَةَ الإسلامِ رَفَرَتْ على شِبْهِ الجزيرةِ العربيَّةِ كُلِّهَا في غُضُونِ سنواتٍ قلائِلَ، واليومَ، وبعدَ مرورِ أَكْثَرِ من أَلْفٍ وأربعمائةِ عامٍ، لا يزالُ الإسلامُ هو أَكْثَرُ الأديانِ انتشارًا في العالمِ.

التضحية بالأموال والأنفس

في نهايةِ هذهِ السُّورةِ رَغَّبَ اللهُ تعالى المسلمينَ في تجارةٍ، يعني: إذا مَسَّتِ الحاجةُ إلى التَّضْحِيَةِ بالأموالِ والأنفُسِ في سَبِيلِ الله فتسابقوا إلى تقديمِ التَّضْحِيَةِ، وسوف يُنْعِمُ اللهُ تعالى عليكم بالفتحِ والنُّصرةِ في هذهِ الدُّنيا، وفي الآخرةِ سَيَغْفِرُ لكم ذُنُوبَكُمْ ويُدْخِلُكم الجنةَ.

الفقيهُ إلى الله: محمَّدُ إمداد حُسَيْن بيروزاده،

منكاني شريف، مركز جهنك، باكستان.

بعدَ صلاةِ المغرب من يومِ الأحد ٣ أكتوبر ٢٠١٠م

الموافق ٢٤ شوال ١٤٣١هـ.

سُورَةُ الصَّفِّ (٦١)،

مدنية (١٠٩)، آياتها (١٤)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنِينَ مَرْصُوصٍ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنَى إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

١ - للتعرف على تفسير هذه الآية راجع الحاشية الأولى من سورة الحديد (٥٧).

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾

٢ - في هذه الآيات تربية للمسلمين وتعليم لهم بأن الدين الذي اختاركم الله

تعالى لتبليغه يقتضي أن تعملوا أنتم أولاً به، ثم بعد ذلك تُرغبون الآخرين في العمل به، والله تعالى يكره كثيراً أن تقوموا بدعوة الآخرين إلى الحسنه، بينما أنتم تفعلون خلافها.

يقول سيدنا أسامة بن زيد رضي الله عنهما: إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أفتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: أي فلان، ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتية، وأنهاكم عن المنكر وآتية»^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بَنِينَ مَرْصُوصًا﴾

٣ - عندما لم يتوقف ظلم كفار مكة للمسلمين حتى بعد هجرتهم إلى المدينة أذن الله تعالى للمسلمين أن يردوا على القوة بالقوة، وفي نفس الوقت أرشدهم وأكد عليهم أن يثبتوا في ميدان الحرب متحدين متوافقين منظمين إذا ما قرروا دخول الحرب ضد الكفار في سبيل الله تعالى، وأن يحمي كل منهم ظهر الآخر ويصبح حائط صد للأعداء عنه؛ لأنهم إن لم يفعلوا ذلك سيفرّقهم الأعداء ويهزمونهم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ لِمَ تُوذَوْنَ وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

٤ - كان كفار مكة يعلمون جيداً أن النبي ﷺ صادق وأمين، فإذا كان لم يكذب مع البشر أبداً، فكيف يمكن أن يكذب فيما يتعلق بالله تعالى رب البشر؟ لكنهم خالفوا النبي ﷺ وعادوه بسبب عنادهم وتعنتهم لا أكثر، فأخرجوه من وطنه، واستمروا في

مهاجمة المدينة المنورة أيضاً، وفي هذه الآية تسرية عن قلب النبي ﷺ بأن لا تحزن ولا تغتم بسبب مخالفة الكفار لك؛ لأن العصاة من الناس يرتكبون مثل هذه الأفعال القبيحة دائماً، وعليك - في هذا الخصوص - أن تذكر أحوال بني إسرائيل، فقد رأوا معجزة اليد البيضاء ومعجزة العصا، كما أنهم رأوا فرعون وهو يغرق في البحر، وكانت هذه الأمور كلها دليلاً كافياً على صدق نبوة سيدنا موسى عليه السلام، ومع ذلك فقد عبد قومه العجل أحياناً، وعبدوا الأوثان أحياناً أخرى، وعندما لم يرجعوا عن عصيانهم واغوجاجهم في النهاية تركهم الله تعالى يعمهون في ضلالهم، بأنهم إذا لم تعجبهم الهداية فليتهمكوا في الضلال إذاً، والله تعالى لا يهدي العصاة عنوة، وإنما يُنعم بالهداية على أولئك الذين في قلوبهم رغبة لنيل الهداية.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعُوا إِلَهُيَ إِلَهُيَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾

٥ - توجد آراء مختلفة لدى أهل الكتاب عن سيدنا عيسى عليه السلام، فقد قلل اليهود من شأن سيدنا عيسى عليه السلام بشكل إجرامي! وبدلاً من أن يؤمنوا بمولده المعجزة اتهموا السيدة مريم عليها السلام في شرفها، وحاولوا محاولات فاشلة لقتل سيدنا عيسى عليه السلام.

وبنفس الطريقة، فإن النصارى ضلوا في فهم مولد سيدنا عيسى عليه السلام المعجز بغير أب، مع أنه كان أمامهم مثال خلق سيدنا آدم عليه السلام بغير أم أو أب، لكنهم - مع ذلك - جعلوا من سيدنا عيسى عليه السلام لغزاً عجبياً، فهو عند المسيحيين البروتستانت ابنُ الله تعالى، وعند الكاثوليك: الثالث من بين ثلاثة آلهة، وعند الأرثوذكس هو: الله! وباختصار: فإن اليهود قد فرطوا في حق سيدنا عيسى عليه السلام، بينما أفرط المسيحيون في شأنه^(١).

(١) «اختلف الأحزاب بينهم. وقال قتادة: أي: ما بينهم، فاختلفت الفرق من أهل الكتاب في أمر عيسى عليه السلام. فاليهود بالقدح والسحر. والتصارى، قالت التسطورية - منهم -: هو ابن الله. =

وَيُعَلِّمُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ سَيِّدَنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْسَ اللَّهُ، وَلَا هُوَ ابْنُ اللَّهِ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ ابْنُ امْرَأَةٍ بَغِيَّةٍ كَمَا يَقُولُ الْيَهُودُ، وَإِنَّمَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ، وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَطْ مِثْلَمَا يَتَّضِحُّ مِنَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ أَيْضًا:

١ - «أُرْسِلْتُ إِلَى أَغْنَامِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ»^(١).

٢ - أَمَرَ سَيِّدَنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَوَارِيَّهِ: «لَا تَذْهَبُوا إِلَى الْأَقْوَامِ الْأَجَانِبِ، وَلَا تَدْخُلُوا أَيَّ مَدِينَةٍ مِنْ مُدُنِ السَّامِرِيِّينَ، وَإِنَّمَا اذْهَبُوا إِلَى الْأَغْنَامِ الضَّالَّةِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ»^(٢).

وَيُعَلِّمُ مِنَ الْاسْتِشْهَادَاتِ السَّابِقَةِ مِنَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ أَنَّ سَيِّدَنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أُرْسِلَ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَطْ؛ لِأَنَّ هَذِهِ هُوَ مَا قَالَهُ سَيِّدَنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ نَفْسَهُ، وَأَمَرَ بِهِ حَوَارِيَّهِ، وَلَكِنَّ هَذَا الْحُكْمَ كَانَ سَارِيًّا طَالَمَا لَمْ يُبْعَثْ نَبِيٌّ آخِرَ الزَّمَانِ سَيِّدَنَا مُحَمَّدٌ ﷺ، لِأَنَّهُ بَعْدَ إِعْلَانِ نَبْوَةِ سَيِّدَنَا مُحَمَّدٍ ﷺ أَصْبَحَ الْإِيمَانُ بِهِ لَازِمًا عَلَى كُلِّ فَرْدٍ.

﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾

٦ - إِنِّي مُصَدِّقٌ بِالتَّوْرَةِ وَبَسَيِّدِنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَعْنِي: أَنَّ سَيِّدَنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا، وَأَنَّ التَّوْرَةَ كِتَابٌ صَادِقٌ نَزَلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى.

﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾

٧ - يَعْنِي: مِثْلَمَا أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَانَ سَيِّدَنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ

= وَالْمَلَكَائِيَّةُ: ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ. وَقَالَتِ الْيَهُودِيَّةُ: هُوَ اللَّهُ، فَأَفْرَطَ التَّصَارِي وَغَلَتِ، وَفَرَطَتِ الْيَهُودُ وَقَصَّرَتْ. تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ، سُورَةُ مَرْيَمَ (١٩): الْآيَةُ ٣٧.

(١) متى: ١٥: ٢٤. "I am not sent but unto the lost sheep of the house of Israel". (Mathew: 15: 24: The Holy Bible: printed by Collins: London)

(٢) متى: ١٠: ٥ - ٦. "These twelve Jesus sent forth, and commanded them, saying. Go not into the way of the Gentiles, and into any city of the Samaritans enter ye not: But go rather to the lost sheep of the house of Israel". (Mathew: 10: 5-6: ibid).

قَبْلِي رَسُولَ اللَّهِ أَيضًا، فَإِنَّ رَسُولًا عَظِيمًا سَيَأْتِي مِنْ بَعْدِي وَاسْمُهُ «أَحْمَد».

- يَرَوِي سَيِّدُنَا خَالِدُ بْنُ مَعْدَانَ عَنْ الصَّحَابَةِ الْكَرَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أَنَّهُمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنَا عَنْ نَفْسِكَ. قَالَ: «أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبُشْرَى عِيسَى، وَرَأْتُ أُمِّي حِينَ حَمَلْتُ بِي كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورٌ بُصِّرَى مِنْ أَرْضِ الشَّامِ»^(١).

- يَقُولُ سَيِّدُنَا جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ «إِنَّ لِي أَسْمَاءً، أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِي الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ»^(٢)، والمرادُ بالعاقِب: ذَلِكَ النَّبِيُّ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ^(٣).

أَحْمَد ﷺ

معنى أحمد «أي: أحمدُ الحامدينَ لربِّه. والأنبياءُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ كُلُّهُمْ حامدونَ اللَّهِ، وَنَبِيُّنَا أَحْمَدُ أَكْثَرُهُمْ حَمْدًا»^(٤).

يقولُ العلامةُ سيِّدُ محمودِ الألوسي في تفسيرِ هذه الآية: إن «أحمدًا» واحدٌ من أسماءِ نَبِيِّنَا الْحَبِيبِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وهذا هو الاسمُ الَّذِي تَنَاوَلَهُ سَيِّدُنَا حَسَنَانُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي مَدْحِهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ:

صَلَّى الْإِلَهَ وَمَنْ يَحُفُّ بِعَرْشِهِ وَالطَّيِّبُونَ عَلَى الْمُبَارَكِ أَحْمَدُ^(٥)

(١) تفسير ابن كثير، سورة الصف (٦١): الآية ٦.

(٢) البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الصف (٦١) برقم ٤٨٩٦.

(٣) «ومعنى العاقب: الذي لا نبيَّ بعدي». صفوة التفاسير.

(٤) تفسير القرطبي، سورة الصف (٦١): الآية ٦.

(٥) ديوان حسان بن ثابت، وتفسير روح المعاني.

اسم ذات نبينا الحبيب ﷺ هو محمد وأحمد، أما باقي الأسماء فهي صفات له. يقول علماء اللغة: الذات التي تجمع صفات الخير، يعني: مجموعة الصفات الحسنة، وتُحمد ويُثنى عليها مرارًا يقال لصاحبها: «محمد»، وبقدر ما يتطور الزمان بقدر ما تُضيء صفات وكمالات سيدنا محمد ﷺ أكثر من ذي قبل، ولهذا فإن مدحه ﷺ والثناء عليه لا يتوقف، مثلما قال الله تعالى: ﴿وَلَا آخِرَ خَيْرَ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤]، يعني: كل لمحة تضيف مزيدًا من العظمة إلى رسول الله ﷺ.

ذكر سيدنا محمد ﷺ في الكتاب المقدس

جاء ذكر سيدنا محمد ﷺ والتعريف به في التوراة والإنجيل بشكل واضح، إلى درجة أن أهل الكتاب كانوا يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم، ويمكنك في هذا الخصوص مراجعة الحاشية رقم ٦٣ للآية رقم ٨٩ من سورة البقرة، وكذا الحاشية رقم ١٠٤ للآية رقم ١٤٦ من نفس السورة، والحاشية رقم ٢١ للآية رقم ٢٠ من سورة الأنعام، وفي الكتاب المقدس الحالي أيضًا توجد آيات تُشير إلى سيدنا محمد ﷺ، وفي هذا الإطار يمكنك مراجعة الاقتباسات التالية من الكتاب المقدس الحي، الطبعة البريطانية لسنة ١٩٧٥ م:

قال سيدنا عيسى عليه السلام

١ - «عندما يُرسل أبي مُساعدًا لي ليمثلني (المراد بالمساعد: الروح المقدسة)، سيُعلمكم كثيرًا، وسوف يُذكركم بكل ما قلته لكم»^(١).

(١) إنجيل يوحنا: باب ١٤: آية ٢٦.

٢ - «في الحقيقة، مَنْ الأفضَلِ لكم أَنْ أرحَلَ؛ لَأَتِي إنْ لم أرحَلَ فلن يَأْتِي ذلك المساعدُ، لكنْ إنْ رحَلْتُ سيأتي هو؛ لَأَتِي سَأُرْسِلُهُ إليكم... وأريدُ أن أقولَ لكم أشياء كثيرةً، لكنَّكم لن تفهموها الآن، أمّا عندما يَأْتِي رُوحُ الصِّدِّقِ فسيهديكم إلى طريقِ الصِّدِّقِ كلِّه، وذلكَ لأنَّه لن يقولَ شيئاً من عندِ نفسه، وإنما سيقولُ لكم ما يسمَعُ، وسوف يُبَيِّنُكم عن المستقبلِ، ويُثْنِي عَلَيَّ، ويُرِيكم عَظَمَتي فيمنَحُني بذلكَ شَرَفًا عَظِيمًا»^(١).

إنَّ الصِّفَاتِ التي وَرَدَ ذِكْرُها في الآياتِ المذكورة من الكتابِ المقدَّس تنطبِقُ على نَبِيِّنا سَيِّدنا مُحَمَّدٍ ﷺ، وكأَنَّ سَيِّدنا عيسى عليه السَّلامُ قال: إنَّ الرُّوحَ المقدَّسَ الذي سيأتي بعدي، يعني: النَّبِيَّ الخاتَمَ سَيِّدنا مُحَمَّدًا ﷺ، سوف يُعرِّفُكم على شريعتي، وسوف يُفهمُكم كلَّ أحكامِ شريعته، ولأنَّ وقتَ مجيئه سيكونُ بعدي، لهذا فإنَّ رحيلي خيرٌ لكم، وذلكَ لكي يَأْتِي ذلكَ النَّبِيُّ، فيُرشدكم إلى طريقِ الحقِّ في الأحكامِ التي لا تفهمونها الآن، كما أنَّه لن يقولَ شيئاً من عندِ نفسه، وإنما سيقولُ فقط ما يسمَعُه من الله تعالى، وسوف يُطلِّعُكم على نَبأِ المستقبلِ، وسوف يُبجِّلُني بالحديثِ عن معجزاتي.

I mean the Holy Spirit - he will teach you much, as well as remind you of everything I myself have told you". (John: 14: 26)

(١) إنجيل يوحنا: باب ١٦ : آيات ٧-١٤ .

"But the fact of the matter is that it is best for you that I go away, for if I don't, the comforter won't com. If I do, he will - for I will send him to you... Oh, there is so much more I want to tell you, but you can't understand it now. When the Holy Spirit, who is the truth, comes, he will guide you into all truth, for he will not be presenting his own ideas, but will be passing on to you what he has heard. He will tell you about the future. He shall praise me and bring me great honor by showing you my glory". (John: 16: 7-14.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾

٨ - لَمَّا بُعِثَ سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ ﷺ، وَقَدَّمَ معجزاتٍ أيضًا، لم يؤمن به أكثر أهل الكتاب، وَرَفَضُوا اتِّبَاعَهُ، وقالوا عن معجزاته ﷺ: إنها سِحْرٌ.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

٩ - يعني: أَنَّ الذين يَعْلَمُونَ - بِالْأَدَلَّةِ - أَنَّهُ ﷺ رسولُ الله حَقًّا، لم يؤمنوا به حينَ دعاهم إلى الإسلام، فمن يكون أكبر من مثل هؤلاء ظلمًا؟ هؤلاء الذين يَفْتَرُونَ على الله الكذبَ قائلينَ بأنه تعالى لم يُرسله ﷺ نبيًّا، فكيف يمكنُ أن يَهْتَدِيَ هؤلاء الظالمون؟

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾

١٠ - لقد حاول الكفار كثيرًا - منذ ظهور الإسلام وحتى يومنا هذا - إطفاء نورِ شمعَةِ الإسلام، لكنَّ الله تعالى وَعَدَ أَنْ يَزِدَّادَ نورَ الإسلام بشكل متواصل^(١)، والآن إذا أراد أحدٌ أن يطفئَ نورَ الله هذا الذي أَرْسَلَهُ، فسيكونُ مثله كمثل مَنْ أراد أن يطفئَ نورَ الشمسِ التي خَلَقَهَا الله تعالى، حيث يمكنُ أن ينطفئَ هو، ولكن لن ينطفئَ نورُ الشمسِ.

- نورُ الله يَسْخَرُ ضاحكًا من حركةِ الكُفْرِ، فهذا المِصباحُ لن تُطفئَهُ النفخات!
وهكذا يشهدُ التاريخُ أَنَّ العربَ هم أولُ مَنْ خالفوا الإسلامَ، ولكنَّ أكثرَ هؤلاءِ دَخَلُوا الإسلامَ في غضونِ ثلاثةِ وعشرينَ عامًا، والإسلامُ اليومَ أيضًا هو أكثرُ الأديانِ التي تنتشرُ بينَ أبناءِ الأَقْوَامِ التي تخالفه.

(١) «يريدون أن يطفئوا الإسلام». تفسير ابن أبي حاتم، سورة التوبة (٩): الآية ٣٢.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾

١١ - أعطى الله تعالى سيدنا محمداً ﷺ الهداية المجسدة في صورة القرآن الكريم، والحق المجسد في صورة الإسلام، وأرسله نبياً، حتى يجعل الإسلام غالباً على كل الأديان.

لقد ظل الإسلام غالباً على كل الأديان في مجال الدلائل والبراهين، ولهذا السبب فإن الإسلام هو أكثر الأديان انتشاراً بين الشعوب غير المسلمة، كما ظل الإسلام غالباً أيضاً في المجال المادي طالما ظل المسلمون يعملون به بشكل كامل، وهكذا يشهد التاريخ أن الإسلام ظلت له الغلبة المادية في عصر الخلافة الراشدة وفي العصور الوسطى أيضاً، وعندما قصر المسلمون في العمل بالإسلام كان من الطبيعي أن يطرأ عليهم الزوال، مثلما يقول الله تعالى (١).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذِلُّكُمْ عَلَىٰ بِحْرِهِمْ تُحِيكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (١٠) تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ اللَّهُ قَالُوا أَنْصَارُ اللَّهِ فَنَامَتْ ظُلَمَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عُدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤)

﴿تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

١٢ - في هذه الآيات رغب الله تعالى المسلمين في تجارة، يعني: إذا مسّت الحاجة إلى التّضحية بالأموال والأنفس في سبيل الله فتسابقوا إلى تقديم التّضحية،

وسوف يُنعمُ الله تعالى عليكم بالفتح والنصرة في هذه الدنيا، وفي الآخرة سيغفرُ لكم ذنوبكم ويُنجيكم من عذاب جهنم، ويدخلكم في قصور طاهرة من الجنة.

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَيَبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

١٣ - يعني: إذا ضحيتم في سبيل الله بالمال والنفس فسوف يُنعمُ عليكم بالفتح والنصرة في هذه الدنيا قريبًا، بالإضافة إلى أنه سيمنحكم النجاح والفلاح في الآخرة، وبالفعل رأيت الدنيا أن الله فتح على المسلمين مكة بعد سنوات قليلة، ورُفِرت راية الإسلام في نهاية الأمر على شبه الجزيرة العربية كلها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾

١٤ - في هذه الآية حكم لأهل الإيمان أن كونوا ناصرين لدين الله تعالى، مثلما قال سيّدنا عيسى عليه السّلام لأنصاره من منكم سيكون مناصرًا لدين الله؟ فقال أنصاره جميعًا: نحن جميعًا مستعدّون لنصرة دين الله تعالى، وهكذا آمَنت مجموعة من بني إسرائيل بسيّدنا عيسى عليه السّلام، بينما لم تؤمن طائفة أخرى، وقد نصر الله تعالى الطائفة التي آمَنت، وأهل الإيمان هم المنتصرون في نهاية المطاف دائمًا.

الفقيه إلى الله: محمّد إمداد حسين بيرزاده،

منكاني شريف، مركز جهنك، باكستان.

بعد صلاة العشاء من يوم الأحد ٣ أكتوبر ٢٠١٠م

الموافق ٢٤ شوال ١٤٣١هـ.

هذا، وقد اكتمل بفضل الله وكرمه تفسير سورة «الصف» في أربع ساعات تقريباً، أي: من بعد صلاة المغرب وحتى بعد صلاة العشاء، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

ملحوظة:

أنا أقيم بشكل دائم في جامعة الكرم بإنجلترا، ولهذا فإن الجزء الأكبر من هذا التفسير حتى الآن كُتب فيها، وقد اكتمل تفسير السورة السابقة في ٢٨ سبتمبر، وكانت النتيجة أن أبدأ في تفسير سورة «الصف» بعد صلاة الظهر من يوم ٣٠ سبتمبر نفسه، لكن إرادة الله تعالى كانت غير ذلك، فقد جاءني خبر وفاة أرملة أخي الأكبر سيدنا الشيخ محمد كرم حسين القادري، في الحادية عشرة من صباح يوم ٣٠ سبتمبر، وابناها صهراي، وقيمان في بريطانيا أيضاً، وكانا قد سافرا إلى باكستان من قبل لما علما بمرض والدتهما، وهكذا تدبّرت أمر تذاكر السفر على الفور، وسافرت إلى باكستان في يوم ٣٠ سبتمبر نفسه، ووصلت إلى مطار لاهور في الخامسة من صباح اليوم التالي، أي: الجمعة أول أكتوبر، وبعد صلاة الجمعة صليت بالناس صلاة الجنازة على زوجة أخي. أدعو الله تعالى أن يُنزل رحمته على قبرها، وأن يُسكنها جنة الفردوس، آمين.

وظلت سلسلة العزاء متواصلة حتى مساء الأحد ٣ أكتوبر، ولما سَنحت لي فرصة بعد صلاة المغرب بدأت في كتابة تفسير سورة «الصف»، ورغم أنه لم تيسر لي هنا كتُب التفاسير المختلفة، ولكن الله تعالى أنعم عليّ بالبركة بمشاركتي في جنازة المرحومة، بحيث لم أجد أي صعوبة في كتابة تفسير هذه السورة، كما أن بعض آياتها قد ورد تفسيره في سور أخرى سابقة سأنقله من هناك، وهكذا اكتمل تفسير سورة «الصف» في أربع ساعات فقط، السورة السابقة على هذه السورة

تتضمن على ثلاث عشرة آية فقط، وقد أكملتُ تفسيرها في يوم ونصف اليوم، ولهذا كانت هذه هي المرة الأولى التي أكمل فيها تفسير سورة من السور في أربع ساعاتٍ لا أكثر.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٢) سُورَةُ الْجُمُعَةِ

هذه السُورَةُ مَدَنِيَّةٌ، واسمُها: «الجمعة»، وهو مأخوذٌ من الآية رقم ٩ منها.

فرائض النبوة

جاء ذكرُ أربعة فروضٍ من فرائضِ النبوة في أربعة مواضعٍ في القرآن الكريم، يعني: في الآية رقم ١٢٩، والآية رقم ١٥١ من سورة البقرة، والآية رقم ١٦٤ من سورة آل عمران، والآية رقم ٢ من سورة الجمعة، وهذه الفرائضُ الأربعُ هي: تلاوةُ القرآن الكريم على الناس، تزكيةُ النفس، تعليمُ القرآن الكريم، وتعليمُ الحكمة.

مثال العلماء غير العاملين بعلمهم

الذين لديهم علمٌ بالكتابِ السماويِّ، ولكنهم لا يعملون به، مثلهم كمثالِ الحمارِ الذي يحملُ كُتُبًا عظيمةً وضخمةً، لكنه لا يستفيدُ من هذه الكتبِ رغمَ أنه يحملُها على ظهره.

- يقولُ سيِّدنا الوليدُ بنُ عُقبة رضي الله عنه: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِنَّ أَناسًا من أَهْلِ الْجَنَّةِ يَطَّلَعُونَ إِلَى أَناسٍ من أَهْلِ النَّارِ فيقولون: بِمَ دَخَلْتُمُ النَّارَ؟ فوالله ما دَخَلْنَا الْجَنَّةَ إِلَّا بما تَعَلَّمْنَا مِنْكُمْ، فيقولون: إِنَّا كُنَّا نَقُولُ ولا نَفْعَلُ»^(١).

(١) كنز العمال، ١٠: ١٨٩ برقم ٢٨٩٩١.

ادعاء اليهود

كان اليهودُ يقولون: إنَّهم أحبابُ الله، ولهذا فإنَّ الجنةَ مخصوصةٌ لهم، وقد فنَّد القرآنُ الكريمُ ادَّعاءهم هذا، بمعنى: لو أنكم - فعلاً - أهلُ الجنة، فلماذا تُزعجُكم مصائبُ هذه الدُّنيا؟ فلتتمنَّوا الموتَ إذا، حتى تلقوا الله تعالى وتدخلوا الجنةَ وتستمتعوا بنعيمِها المختلفة. ولكنَّهم لن يتمنَّوا الموتَ أبدًا؛ لأنَّهم خائفونَ من المصيرِ الذي سيؤولونَ إليه بسببِ ما ارتكبوه من أفعالٍ قبيحة.

عندما نزلتِ الآيةُ رقم ٧ من هذه السُّورة قال النبي ﷺ: «والذي نفسُ محمدٍ بيده، لو تمنَّوا الموتَ ما بقيَ على ظهرِها يهوديٌّ إلَّا مات»^(١). ثم أضاف العلامةُ القرطبيُّ قائلاً: «وفي هذا إخبارٌ عن الغيبِ (يعني: أنهم لن يتمنَّوا الموتَ أبدًا)، ومعجزةٌ للنبي ﷺ»^(٢).

حكم صلاة الجمعة

جاء الحُكْمُ إلى أهلِ الإيمانِ في الآية رقم ٩ من هذه السُّورة، أنه عندما يُرْفَعُ الأذانُ لصلاةِ الجمعةِ فعليكم أن تتركوا البيعَ والشِّراءَ وغيرَها من المشاغل، وتتوجَّهوا إلى المسجدِ لأداءِ الصَّلاة، وهذا هو الخيرُ لكم إن كان لديكم علمٌ فعلاً. ولمزيدٍ من التفصيلِ عن فَضْلِ صلاةِ الجمعةِ وأحكامِها راجعُ تفسيرِ الآية رقم ٩ من السُّورة.

الفقيهُ إلى الله: محمَّد إمداد حُسين بيْرزاده،

منكاني شريف، مركز جهنك، باكستان.

بعد صلاة المغرب من يوم الاثنين ٤ أكتوبر ٢٠١٠م

الموافق ٢٥ شوال ١٤٣١هـ.

(١) تفسير القرطبي، سورة الجمعة (٦٢): الآية ٧.

(٢) المرجع السابق، سورة الجمعة (٦٢): الآية ٧.

سُورَةُ الْجُمُعَةِ (٦٢)،

مدنية (١١٠)، آياتها (١١)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِبَايَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْظَالِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَتَايَأُ الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْفِقٌ كُمْ ثُمَّ تَرْدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾

١ - للتعرف على تفسير هذه الآية راجع الحاشية الأولى من سورة الحديد (٥٧).

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾

٢ - كان أكثر العرب أميين لا يقرأون ولا يكتبون، وقد أرسل الله تعالى إليهم

سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا ﷺ من بينهم، ولكن رسالته ﷺ ليست محدودةً بالعرب فقط، ولكن لأن المخاطبين الأول له ﷺ كانوا هم العرب، لهذا اكتفت الآية هنا بذكرهم، والحقيقة أن النبي ﷺ نبي لكل البشر، مثلما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨].

في هذه الآية ذكرت أربع فرائض من فرائض النبوة، وقد جاء ذكر أربع فروض من فرائض النبوة في أربعة مواضع في القرآن الكريم، يعني: في الآية رقم ١٢٩، والآية رقم ١٥١ من سورة البقرة، والآية رقم ١٦٤ من سورة آل عمران، والآية رقم ٢ من سورة الجمعة.

١ - قراءة القرآن وتلاوته على الناس

يعني: تلاوة آيات القرآن الكريم على الناس، ويُعلم منه أن مجرد تلاوة ألفاظ القرآن الكريم فقط عبادة في ذاتها، ولهذا إذا بدل أحد ألفاظ القرآن الكريم، فإننا لا يمكن أن نطلق عليها قرآنًا، حتى وإن لم تبدل المعاني، كما أنها لا يمكن أن تؤدي بها الصلاة، ولذا فإن ألفاظ القرآن المجيد مقصودة لذاتها كما أن معانيه مقصودة لذاتها، ولكن هذا لا يعني - أبدًا - أن لا نحاول فهم القرآن الكريم، وإنما على كل مسلم أن يحاول - قدر استطاعته - العمل على فهم معاني القرآن الكريم ومطالبه؛ لأن في تدبر معاني القرآن ثوابًا عظيمًا.

- يقول سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إن النبي ﷺ قال: «مَنْ قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: الم حرف، ولكن ألف حرف، ولا م حرف، وميم حرف»^(١)، وكأن الإنسان ينال ثلاثين حسنة على

مَجْرَدِ قِرَاءَةِ «الم»، وقد بَيَّنَّ أَهْلُ الْعِلْمِ مَعْنَى آخِرِ لِهَذَا الْحَدِيثِ وَهُوَ: أَنَّ الَّذِي يَقْرَأُ «الْأَلْفَ» فَقَطْ يُوَدِّي فِي الْحَقِيقَةِ ثَلَاثَةَ حُرُوفٍ بِلِسَانِهِ (ال ف)، وَهَكَذَا «ل ا م»، وَ«م ي م»، وَبِالتَّالِي فَإِنَّ قِرَاءَةَ «الم» يَأْخُذُ عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ تِسْعِينَ حَسَنَةً، وَيَنَالُ هَذَا الثَّوَابَ كُلُّ مُؤْمِنٍ يَقْرَأُهَا، سِوَاءٍ فَهِمَ مَعْنَاهَا أَمْ لَمْ يَفْهَمْهُ؛ لِأَنَّ «الم» حُرُوفٌ مَقْطَعَاتٌ، وَفِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ آيَةً تَشْتَمِلُ عَلَى حُرُوفٍ مَقْطَعَاتٍ، لَا يَعْلَمُ مَعْنَاهَا أَحَدٌ سِوَى اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ الْكَرِيمِ ﷺ، وَلَكِنْ يَنَالُ مَنْ يَقْرَأُ كُلَّ حَرْفٍ مِنْهَا ثَوَابَ عَشْرِ حَسَنَاتٍ.

- يَقُولُ سَيِّدُنَا أَبُو أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اقْرَأُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ»^(١).

- يَقُولُ سَيِّدُنَا مَعْقِلُ بْنُ يَسَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اقْرَأُوهَا عِنْدَ مَوْتَاكُمْ». يَعْنِي: ﴿يَس﴾^(٢).

- يَقُولُ سَيِّدُنَا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ زَارَ قَبْرَ وَالِدَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا فِي كُلِّ جُمُعَةٍ، فَقَرَأَ عِنْدَهُمَا ﴿يَس﴾ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ بَعْدَ كُلِّ حَرْفٍ مِنْهَا»^(٣).

- يَقُولُ سَيِّدُنَا عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ مَرَّ عَلَى الْمَقَابِرِ فَقَرَأَ فِيهَا إِحْدَى عَشْرَةَ مَرَّةً ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثُمَّ وَهَبَ أَجْرَهُ الْأَمْوَاتِ، أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ بَعْدَ الْأَمْوَاتِ»^(٤).

(١) مسلم، صلاة المسافرين، باب ٤٢ برقم ١٨٧٤.

(٢) ابن ماجه، أبواب الجنائز، باب ٤ برقم ١٤٤٨.

(٣) تفسير الدر المنثور، تعارف سورة يس (٣٦).

(٤) كنز العمال، ١٥: ٦٥٥، برقم ٤٢٥٩٦.

سماع القرآن المجيد

- أقام الإمام الدارمي في «سُنَنِه» باباً مستقلاً عن فضل سماع القرآن الكريم، وأدرج فيه روايةً لسيّدنا خالد بن معدان رضي الله عنه، يقول فيها: «إِنَّ الَّذِي يقرأُ القرآنَ له أَجرٌ، وإنَّ الَّذِي يستمعُ له أَجران»^(١)، وقراءةُ القرآنِ الكريم ليست فرضاً، إنما سماعُه فرضٌ، مثلما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، ولأنَّ ثوابَ الفرضِ في مُقابلِ ثوابِ الواجبِ والسُّنةِ والمستحبِّ يكونُ أكبرَ، لهذا قيل: «أَجْران» لسماع القرآن الكريم.

- يقول سيّدنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: إِنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «مَنْ استمعَ حرفاً من كتابِ الله ظاهرًا كُتِبَ له عَشْرُ حَسَنَاتٍ ومُحِيتُ عنه عَشْرُ سَيِّئَاتٍ ورُفِعَتْ له عَشْرُ درَجَاتٍ»^(٢).

٢ - تزكية الناس وتطهيرهم

يعني: تطهير عقائدهم من الشُّكوكِ والشُّبُهاتِ بحُسنِ الدَّلّائلِ، حتى يتَّضحَ الفرقُ لديهم بينَ الحقِّ والباطلِ، وتطهير قلوبهم من الرغباتِ النَّفسانيّةِ والشّهواتِ بالتصوُّفِ الرُّوحاني، حتى يمكنَ لقلوبهم أن تكونَ مرآةً للتجلّياتِ الإلهيّةِ، وتطهير سلوكيّهم وأخلاقيّاتهم بالتربية الظاهريّة من الصّفاتِ والعاداتِ النافهةِ التي لا معنى لها، حتى يتأثّرَ من حُسنِ سلوكيّهم الكفّارُ، ويحفظوا بثروة الإسلام.

يتصوّرُ بعضُ الناسِ أنَّ النَّبيَّ مجرّدُ حاملٍ للرّسالةِ مثلَ ساعي البريدِ لا أكثرَ، لكنْ يُعلّمُ من هذه الآيةِ أنَّ هناكَ فرقاً كبيراً بينَ النَّبيِّ وبينَ حاملِ الرّسالةِ أو ساعي

(١) سنن الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب ١٠.

(٢) كنز العمال، ١: ٥٤٢ برقم ٢٤٢٩، وإتحاف السادة المتقين، ٥: ٧٩.

البريد؛ لأنَّ حاملَ الرِّسالة لا يَعْلَمُ مطلقاً ماذا بداخلِ الرِّسالة التي يَحْمِلُها من أسرار ورموز، كما أنَّ ساعيَ البريد لا يَعْلَمُ مطلقاً بما هو داخلَ المظروفِ الذي يَحْمِلُهُ، بينما النبيُّ يكونُ ممثلاً لله تعالى وأعظمَ معلِّمٍ لخلْقِهِ، وهو الذي يُطَهِّرُ الناسَ، ويُفهِمُهُم رِسالةَ الله، ويُخَبِّرُهُم عن كَيْفِيَّةِ العملِ بهذه الرِسالة.

٣- تعلِيمُ القرآنِ الكريمِ

يعني: إفهامَ الناسِ معاني القرآنِ الكريمِ وتعليمَهُم أحكامَهُ.

٤- تعلِيمُ الحِكْمَةِ

المرادُ بالحِكْمَةِ: الحديثُ الشَّرِيف، يعني: أن يُعَلِّمَهُم طريقةَ العملِ بأحكام القرآنِ الكريمِ، على سَبِيلِ المِثَالِ: جاءَ الحُكْمُ بأداءِ الصَّلَاةِ في القرآنِ الكريمِ، لكنَّ طريقةَ أداءِ الصَّلَاةِ والعملِ بالحُكْمِ الذي جاءَ في القرآنِ الكريمِ نجْدُها في الحديثِ الشَّرِيف، والحِكْمَةُ ليست رأياً شخصياً للنبيِّ الكريمِ ﷺ، وإنما يُنَزِّلُها اللهُ تعالى أيضاً عليه: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

كان أكثرُ الذين أُرْسِلَ إليهم نبيُّنا الحَبِيبُ ﷺ - في بدايةِ الأمرِ - أُمِّيَّينَ، والفرائضُ التي عَهِدَ بها إلى النبيِّ ﷺ كُلُّها عِلْمِيَّةٌ وإِصْلاحِيَّةٌ، ولكنها قُدْرَةُ اللهِ تعالى وأثرُ دعوةِ النبيِّ ﷺ أنْ ظَهَرَ من بينِ هؤلاءِ الأُمِّيَّينَ علماءٌ وحُكَمَاءُ أصبحوا نجوماً مضيئةً في سماءِ العلمِ والحِكْمَةِ.

وَرَغِمَ أَنْ نَبِيَّنَا الحَبِيبَ ﷺ أُمِّيٌّ أيضاً، يعني: لم يَتَلَمَّذْ على يدِ أيِّ أستاذٍ من أَساتذةِ الدُّنْيَا، ولكنَّ عِلْمَ النبيِّ ﷺ الذي لا نظيرَ له بمِثَابَةِ المعجزةِ لقُدْرَةِ اللهِ تعالى وعطائه، مثلما يقولُ سيِّدُ محمودِ الألوَسِيُّ: «إِشارةً إلى عَظِيمِ قُدْرَتِهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَنَّ

إفاضة العلوم لا تتوقف على الأسباب العادية، ومنه قالوا: إِنَّ الْوَلِيَّ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أُمِّيًّا... وَمِنْ انْقَطَعَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَخَلَصَتْ رُوحُهُ، أُفِيضَ عَلَى قَلْبِهِ أَنْوَارُ الْهِيَةِ تَهَيَّأَتْ بِهَا لِإِدْرَاكِ الْعُلُومِ الرَّبَّانِيَّةِ وَالْمَعَارِفِ اللَّدُنِّيَّةِ»^(١). ويقول العلامة إسماعيل حقي: «وَلَمَّا كَانَ الْخَطُّ صِنْعَةً ذَهْنِيَّةً وَقُوَّةً طَبِيعِيَّةً صَدَرَتْ بِالْآلَةِ الْجِسْمَانِيَّةِ لَمْ يَحْتَاجَ إِلَيْهِ مَنْ كَانَ الْقَلَمُ الْأَعْلَى يَخْدُمُهُ وَاللُّوْحُ الْمَحْفُوظُ مُصَحِّفُهُ وَمَنْظَرُهُ، وَعَدَمَ كِتَابَتِهِ مَعَ عِلْمِهِ بِهَا مَعْجَزَةٌ بَاهِرَةٌ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ»^(٢). ولمزيد من التفصيل حول كون النبي ﷺ أُمِّيًّا راجع الحاشية رقم ٨١ للآية رقم ١٥٧ من سورة الأعراف (٧).

﴿وَأَن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

٣ - كان العرب قبل بعثة النبي ﷺ في ضلال كبير، فأبى انقلاب حدث بعد بعثته ﷺ؟ نتعرف على هذا باختصار مما قاله سيّدنا جعفر بن أبي طالب أمام ملك الحبشة في وجود سفراء مكة إليه: «أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ وَنَسِيءُ الْجَوَارِ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِمَّا الضَّعِيفُ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِّنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَحْنُ نَعْبُدُ وَأَبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجَوَارِ وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالِدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّيَامِ»^(٣).

(١) تفسير روح المعاني، باب الإشارة، سورة الجمعة (٦٢): الآية ٢.

(٢) المرجع السابق، باب الإشارة، سورة الجمعة (٦٢): الآية ٢.

(٣) مسند أحمد، ١: ٢٠٢.

﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

٤ - الذين سيدخلون في دائرة الإسلام بعد ذلك وحتى قيام الساعة، سَنَظْلُ تَنَالُهُمْ فيوضُ تَزَكِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ وتعليم الكتاب والحكمة، أما عامة الناس فيسَحْضُلُونَ على هذه الفيوض من العلماء، وأما خواصُ الناس فيسَحْضُلُونَ عليها بشكلٍ مباشرٍ في عالم الرُّوحانيَّةِ وعالم اليَقْظَةِ على السَّواء.

- يقولُ سيِّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: إنه سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يقولُ: «مَنْ رَأَنِي فِي الْمَنَامِ فَمِثْرَانِي فِي الْيَقْظَةِ، وَلَا يَتَمَثَّلُ الشَّيْطَانُ بِي»^(١).

- يقولُ سيِّدنا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «مَنْ رَأَنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَأَنِي، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَخَيَّلُ بِي»^(٢).

- يقولُ الإمامُ جلالُ الدِّين السُّيوطيُّ رحمه الله عندما سُئِلَ: كم رَأَيْتَ النَّبِيَّ صَلَّى الله عليه وآله وسلَّم يَقْظَةً؟ فقال: بضْعًا وسبعينَ مرَّةً^(٣).

السُّعْدَاءُ الَّذِينَ يَحْضُلُونَ على الفيوضِ النَّبَوِيَّةِ من النَّبِيِّ ﷺ مباشرةً بعد انتقاله لِلرَّفِيقِ الْأَعْلَى، يكونُ هذا بمثابة فَضْلِ اللهِ الْخَاصِّ عَلَيْهِمْ، وَاللهُ تعالى يَخْتَارُ لهذه الفيوضِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ. يقولُ سيِّدُ مُحَمَّدٍ الْأَلُوسِيُّ: «إِشَارَةٌ إِلَى عَدَمِ انْقِطَاعِ فَيْضِهِ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أُمَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَقَدْ قَالُوا بَعْدَ انْقِطَاعِ فَيْضِ الْوَلِيِّ أَيْضًا بَعْدَ انْتِقَالِهِ مِنْ دَارِ الْكَثَافَةِ وَالْفَنَاءِ إِلَى دَارِ التَّجَرُّدِ وَالْبَقَاءِ»^(٤).

﴿مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾

٥ - جاء في هذه الآية ذِكْرُ أولئك اليهود الذين أعطاهم الله تعالى عِلْمَ التَّوْرَةِ،

(١) البخاري، كتاب التعبير، باب ١٠ برقم ٦٩٩٣.

(٢) البخاري، كتاب التعبير، باب ١٠ برقم ٦٩٩٤.

(٣) الكواكب السائرة، ١: ٢٢٩.

(٤) تفسير روح المعاني، باب الإشارة سورة الجمعة (٦٢): الآية ٣.

لكنهم لم يعملوا به، فمثلهم كمثّل الحمار الذي يحمل على ظهره حملاً من الكتُب، ولكنه لا يستفيد منها.

﴿يَسْ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾

٦ - الذين يكذبون بآيات الله تعالى يكونون أسوأ من الحمير؛ لأن الحمير محرومة من العقل، ولهذا لا تستطيع الاستفادة من الكتُب التي تحملها على ظهورها، لكن أمثال هؤلاء الناس أصحاب عقل وفراصة، وبالرغم من ذلك لا يستفيدون من الكتُب السماوية، فهم - فعلاً - أسوأ من الحمير.

- يقول سيّدنا الوليد بن عُقبة رضي الله عنه: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَنَاسًا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَطْلَعُونَ إِلَى أَنَاسٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فيقولون: بَمَ دَخَلْتُمُ النَّارَ، فَوَاللَّهِ مَا دَخَلْنَا الْجَنَّةَ إِلَّا بِمَا تَعَلَّمْنَا مِنْكُمْ؟ فيقولون: إِنَّا كُنَّا نَقُولُ وَلَا نَفْعَلُ»^(١).

- يقول سيّدنا سُفيان بن عُيَيْنَةَ: «أَجْهَلُ النَّاسِ مَنْ تَرَكَ مَا يَعْلَمُ، وَأَعْلَمُ النَّاسِ مَنْ عَمِلَ بِمَا يَعْلَمُ، وَأَفْضَلُ النَّاسِ أَحْشَعُهُمْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٢).

- يقول سيّدنا أبو كَبْشَةَ رضي الله عنه: إِنَّهُ سَمِعَ سَيِّدَنَا أَبَا الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه يقول: «إِنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ: عَالِمٌ لَا يَتَفَعَّلُ بِعِلْمِهِ»^(٣).

﴿قُلْ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صٰدِقِينَ﴾

٧ - كان اليهودُ يقولون: إنهم أحبابُ الله، ولهذا فإن الجنةَ مخصوصةٌ لهم، وقد فَنَدَ القرآنُ الكريمُ ادّعاءهم هذا، بمعنى: لو أنكم - أهلُ الجنة، فلماذا

(١) كنز العمال، ١٠: ١٨٩ برقم ٢٨٩٩١.

(٢) الدارمي، المقدمة، باب ٣٢.

(٣) سنن الدارمي، المقدمة، باب ٢٧.

تُرْعَجُكُمْ مَصَائِبُ هَذِهِ الدُّنْيَا؟ فَلْتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِذَا، حَتَّى تَلْقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَتَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَتَسْتَمْتِعُوا بِنِعَمِهَا الْمَخْتَلِفَةِ. وَلَكِنَّهُمْ لَنْ يَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ أَبَدًا؛ لِأَنَّهُمْ خَائِفُونَ مِنَ الْمَصِيرِ الَّذِي سَيُؤْوِلُونَ إِلَيْهِ بِسَبَبِ مَا ارْتَكَبُوهُ مِنْ أَفْعَالٍ قَبِيحَةٍ.

لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ تَمَنَّوْا الْمَوْتَ مَا بَقِيَ عَلَى ظَهْرِهَا يَهُودِيٌّ إِلَّا مَاتَ»^(١)، وَيُضِيفُ الْعَلَامَةُ الْقُرْطُبِيُّ قَائِلًا: «وَفِي هَذَا إِخْبَارٌ عَنِ الْغَيْبِ، وَمُعْجَزَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ»^(٢).

نَقَلَ الْإِمَامُ الْبَيْهَقِيُّ فِي كِتَابِهِ «الدَّلَائِلُ» رَوَايَةً عَنْ سَيِّدِنَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا تَقُولُ: «إِنَّهُ حِينَ نَزَلَتْ الْآيَةُ رَقِمَ ٩٤ ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ جَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ الْيَهُودَ جَمِيعًا وَقَالَ لَهُمْ: «إِنْ كُنْتُمْ فِي مَقَالَتِكُمْ صَادِقِينَ قُولُوا: اللَّهُمَّ أَمْتْنَا، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَقُولُهَا رَجُلٌ مِنْكُمْ إِلَّا غَصَّ بِرِيقِهِ فَمَاتَ مَكَانَهُ، فَأَبَوْا أَنْ يَفْعَلُوا وَكَرِهُوا مَا قَالَ لَهُمْ»^(٣)، وَمِثْلُ هَذِهِ الدَّعْوَى لَا يَسْتَطِيعُهَا إِلَّا نَبِيٌّ صَادِقٌ.

﴿قُلْ إِنْ أَلَمْتُ أَلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

٨ - يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ الْحَبِيبُ ﷺ، قُلْ لِأُولَئِكَ الْيَهُودِ: إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ لَنْ تَسْتَطِيعُوا الْإِفْلَاتَ مِنْهُ، وَسَوْفَ يَأْتِيكُمْ - يَقِينًا - فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ ثُمَّ سَتُمَثِّلُونَ أَمَامَ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ الَّذِي يَعْلَمُ تَمَامَ الْعِلْمِ كُلَّ ظَاهِرٍ وَخَفِيٍّ، وَسَوْفَ يُكْشَفُ أَمَامَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ كُلِّ أَحْوَالِكُمْ: الظَّاهِرَةُ وَالْبَاطِنَةُ.

(١) تفسير القرطبي، سورة الجمعة (٦٢): الآية ٧.

(٢) المرجع السابق، سورة الجمعة (٦٢): الآية ٧.

(٣) تفسير الدر المنثور، سورة البقرة (٢): الآية ٩٤.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ثُوِّدَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ
ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا
مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا
وَتَرَكَوْكَ فَمَا بَأْسَ قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ثُوِّدَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾

٩ - في هذه الآية حُكْمٌ للمسلمين بأنه حين يُرْفَعُ الأذان لصلاة الجمعة،
فاتركوا البيع والشراء وكلّ المشاغل، واتّجهوا إلى المسجد لأداء الصلاة، فهذا
خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون.

حكم صلاة الجمعة

صلاة الجمعة فرضٌ عَيْنٍ على كلّ مكلفٍ يقدرُ على شروطها.

وصلاة الجمعة ركعتان، وفي فرضيّتها تأكيدٌ أكثر من صلاة الظهر، ولكنها
ليست بديلاً لصلاة الظهر، إلا أنّ الذي لا يتمكّن من صلاة الجمعة عليه أن يؤدّي
أربع ركعاتٍ فرضَ صلاة الظهر.

- رُوِيَ عن سيّدنا عمر رضي الله عنه، أنه قال: «صلاة السّفر ركعتان، وصلاة
الأضحى ركعتان، وصلاة الفطر ركعتان، وصلاة الجمعة ركعتان، تمامٌ غيرُ قَصْرِ،
على لسانِ محمّد ﷺ» (١).

- يقول سيّدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: خطبنا رسولُ الله ﷺ، فقال: «يا
أيّها النّاس، توبوا إلى الله قبل أن تموتوا، وبادروا بالأعمال الصّالحة قبل أن تُشغَلوا...

واعلموا أنّ الله قد افترضَ عليكم الجمعة... هذا من عامي هذا إلى يوم القيامة، فمن تركها في حياتي أو بعدي وله إمام، عادلٌ أو جائرٌ، استخفافاً بها أو جُحوداً بها، فلا جَمَعَ الله له شَمْلَه ولا بَارَكَ له في أمره، ألا ولا صلاة له ولا زكاة له ولا حجّ له ولا صوم له ولا برّ له حتّى يتوب، فمن تاب تابَ الله عليه»^(١).

- «إنّ الجمعةَ فريضةٌ مُحَكَّمَةٌ بالكتابِ والسُّنةِ والإجماعِ، يكفُرُ جاحدُها»^(٢).

فضل صلاة الجمعة

- يقول سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: إنّ النبي ﷺ قال: «من اغتسلَ يومَ الجمعة ولبسَ من أحسنِ ثيابه ومَسَّ من طيبٍ - إن كان عنده - ثم أتى الجمعة فلم يتخطَّ أعناقَ الناسِ، ثم صلّى ما كتَبَ الله له، ثم أنصتَ إذا خرجَ إمامُه حتّى يفرِّغَ من صلاته كانت كفارةً لما بينها وبينَ جمُعته التي قبلها»^(٣).

- يقول سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: إنّ النبي ﷺ قال: «إذا كان يومُ الجمعة، وقفتِ الملائكةُ على بابِ المسجدِ يكتبونَ الأوّلَ فالأوّلَ، ومثلُ المُهَجَّرِ كمَثَلِ الذي يُهدي بَدَنَةً، ثم كالذي يُهدي بقرةً، ثم كبشاً، ثم دجاجةً، ثم بيضةً، فإذا خرجَ الإمامُ طوّروا صُحُفَهُم، ويستمعونَ الذِّكْرَ»^(٤).

فضل يوم الجمعة

- يقول سيّدنا أبو لُبَابَةَ بن عبد المُنذر رضي الله عنه: إنّ النبي ﷺ قال: «إنّ

(١) ابن ماجه، أبواب إقامة الصلاة، باب ٧٨ برقم ١٠٨١.

(٢) شرح فتح القدير، باب صلاة الجمعة.

(٣) أبو داود، كتاب الطهارة، باب ١٢٧ برقم ٣٤٣.

(٤) البخاري، كتاب الجمعة، باب ٣١ برقم ٩٢٩.

يومَ الجمعة سيّد الأيام وأعظمُها عندَ الله، وهو أعظمُ عندَ الله من يومِ الأضحى ويومِ الفِطر، فيه خمسُ خِلالٍ:

١ - خَلَقَ اللهُ فيه آدَمَ.

٢ - وَأَهْبَطَ اللهُ فيه آدَمَ إلى الأرضِ.

٣ - وفيه تَوَفَّى اللهُ آدَمَ.

٤ - وفيه ساعةٌ لا يَسْأَلُ اللهُ فيها العبدُ شيئاً إلّا أعطاه ما لم يَسْأَلِ حراماً.

٥ - وفيه تقومُ السَّاعةُ.

ما من مَلَكٍ مُقَرَّبٍ ولا سَمَاءٍ ولا أرضٍ ولا رِياحٍ ولا جبالٍ ولا بحرٍ إلّا وهنَّ يُشْفِقْنَ من يومِ الجمعة^(١).

- يقولُ سيّدنا شَدَّادُ بنِ أَوْسٍ رضي الله عنه: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ التَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصَّعَقَةُ، فَأَكْثَرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ، فَإِنْ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةً عَلَيَّ»، فقال رجلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ تُعَرِّضُ صَلَاتُنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرَمْتَ؟ يَعْنِي: بَلَيْتَ؟ فقال: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ»^(٢).

- يقولُ سيّدنا عبدُ اللهِ بنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِنْ هَذَا يَوْمٌ عِيدٌ جَعَلَهُ اللهُ لِلْمُسْلِمِينَ»^(٣)، وعن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: «إِنْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ يَوْمٌ عِيدٌ»^(٤).

(١) ابن ماجه، إقامة الصلاة، باب ٧٩ برقم ١٠٨٤.

(٢) ابن ماجه، إقامة الصلاة، باب ٧٩ برقم ١٠٨٥.

(٣) ابن ماجه، أبواب إقامة الصلاة، باب ٨٣ برقم ١٠٩٨.

(٤) مسند أحمد، ٢: ٣٠٣.

الوعيد على ترك صلاة الجمعة

- يقول سيّدنا عبد الله بن عمر وسيّدنا أبو هريرة رضي الله عنهما، إنهما سمعا النبي ﷺ يقول على أعواد منبره: «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ثُمَّ لَيَكُونَنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ»^(١).

- يقول سيّدنا أبو الجعد الضمري رضي الله عنه: إنّ النبي ﷺ قال: «مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ جُمُعٍ تَهَاوَنَّا بِهَا طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ»^(٢).

- يقول سيّدنا عبد الله رضي الله عنه: إنّ النبي ﷺ قال لقوم يتخلّفون عن الجمعة: «لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَمُرَّ رَجُلًا يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ ثُمَّ أُحَرِّقَ عَلَى رِجَالٍ يَتَخَلَّفُونَ عَنِ الْجُمُعَةِ بِيَوْتِهِمْ»^(٣).

شروط وجوب الجمعة

- ١ - أن يكون رجلاً، فالجمعة ليست واجبة على النساء.
- ٢ - أن يكون حُرّاً، فالجمعة ليست واجبة على العبيد.
- ٣ - أن يكون بالغاً، فالجمعة ليست واجبة على الأطفال.
- ٤ - أن يكون صحيحاً، فالجمعة ليست واجبة على المريض، والمريض الذي يستلزم وجود مُرافقٍ يُمرّضه، لا تجب الجمعة على الممرّض أيضاً.
- ٥ - أن يكون مقيماً، فالجمعة ليست واجبة على المسافر.

(١) مسلم، كتاب الجمعة، باب ١٢ برقم ٢٠٠٢.

(٢) سنن النسائي، كتاب الجمعة، باب ٢ برقم ١٣٧٠.

(٣) مسلم، كتاب المساجد، باب ٤٢ برقم ١٤٨٥.

٦ - أن يكون عاقلًا، فالجمعة ليست واجبةً على المجنون ومن هم في حكمه.

ملحوظة

الذين لا تجب عليهم الجمعة إذا حضروا الجمعة وأدّوا صلاتها فهي صحيحة، ويسقط عنهم أداء فرض صلاة الظهر.

سنن الخطبة

١ - الطهارة

«يُسَنُّ لِلخَطِيبِ أَنْ يَكُونَ طَاهِرًا مِنَ الْحَدَثَيْنِ: الْأَكْبَرِ وَالْأَصْغَرِ»^(١).

٢ - الجلوس على المنبر

«يُسَنُّ أَنْ يَجْلِسَ الْخَطِيبُ عَلَى الْمَنْبَرِ قَبْلَ الشَّرْعِ فِي الْخُطْبَةِ»^(٢).

٣ - رَفْعُ الْأَذَانِ بَيْنَ يَدَيِ الْخَطِيبِ

«جَرَى بِهِ التَّوَارُثُ كَالْإِقَامَةِ بَعْدَ الْخُطْبَةِ»^(٣).

٤ - أَنْ يَخْطُبَ وَاقِفًا

«أَنْ يَخْطُبَ وَهُوَ قَائِمٌ بَعْدَ الْأَذَانِ فِي الْخُطْبَتَيْنِ»^(٤).

٥ - أَنْ يَسْتَقْبَلَ النَّاسَ بِوَجْهِهِ

يقول شمس الأئمة: «من كان أمام الإمام استقبل بوجهه، ومن كان عن يمين

(١) كتاب الفقه.

(٢) نور الإيضاح.

(٣) مراقي الفلاح.

(٤) المرجع السابق.

الإمام أو يساره انحرف إلى الإمام»، وقال السرخسي: «الرَّسْمُ في زماننا استقبالُ القومِ القبلةَ وتركُ استقبالهم الخطيبَ لما يلحقهم من الحرج بتسوية الصفوف بعد فراغ الخطيب من خطبته؛ لكثرة الزحام، قال: وهذا أحسن»^(١).

٦ - الخطبة

«أن يخطب خطبتين إحداهما سنة والأخرى شرط لصحة الجمعة»^(٢).

«والسنة هي أن يبدأ الخطيب خطبته الأولى «بالتعوذ في نفسه، ثم يجهز فيها بالحمد لله والثناء عليه بما هو أهله، والشهادتين، والصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والعظة بالزجر عن المعاصي، والتخويف والتحذير مما يوجب مقت الله تعالى وعقابه سبحانه، والتذكير بما به النجاة في الدنيا والآخرة، وقراءة آية من القرآن.

ويبدأ الثانية بالحمد لله تعالى والثناء عليه، والصلاة والسلام على رسوله، ويدعو فيها للمؤمنين والمؤمنات ويستغفر لهم، أما الدعاء للملك والأمير بالنصر والتأييد والتوفيق لما فيه مصلحة رعيته ونحو ذلك فإنه مندوب؛ لأن أبا موسى الأشعري كان يدعو لعمر في خطبته ولم يتركز عليه أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم»^(٣).

ومن المناسب أن يبدأ خطبته الثانية أيضاً بقوله: «الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونؤمن به ونتوكل عليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له»^(٤).

(١) حاشية الطحطاوي.

(٢) كتاب الفقه، مباحث الجمعة.

(٣) المرجع السابق، مباحث الجمعة.

(٤) بهار شريعت.

٧ - الجلوسُ بينَ الخطبتين

من السنة «أن يجلسَ بينهما بقدرِ ثلاثِ آيات»^(١).

- يقولُ سيّدنا عبدُ الله بنُ عمرَ رضي الله عنهما: «كان النبي ﷺ يخطُبُ خطبتينِ يقعدُ بينهما»^(٢).

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

١٠ - عندما تنتهي صلاة الجمعة انتشروا في الأرض، وابحثوا عن أرزاقكم، واذكروا الله تعالى في كلِّ وقت، حتى لا يقعَ منكم أثناء بحثكم عن الرزق عملٌ يُغضبُ الله تعالى، وهذا هو الخيرُ لكم.

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ النَّجْوَى وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾

١١ - ذات مرة حلَّ بالمدينة عامٌ قحطٍ ومجاعة، وانتهت الغلالُ من الأسواق، وفجأة، وبينما كان النبي ﷺ يخطُبُ للجمعة إذ وصلت قافلةٌ تجاريةٌ إلى المدينة قادمةً من الشام، فلما علم الناسُ بقدوم القافلة تركَ بعضُ المسلمين خطبة الجمعة وذهب إليها خوفاً من أن تُباع البضائع التي جلبتها قبل أن يصل إليها، وكان هؤلاء يعتقدون أنه لا حرج في ترك خطبة الجمعة، ولكن عندما نزلت هذه الآية أصبح سماعُ الخطبة واجباً، وقال لهم رسولُ الله ﷺ: إنَّ ما أعدَّه الله تعالى لكم من ثوابٍ على الخطبة والصلاة أفضلُ كثيراً من هذه التجارة، وهذا اللهو الدنيوي، والله هو

(١) الفتاوى العالمية، باب الجمعة.

(٢) البخاري، كتاب الجمعة، باب ٣٠ برقم ٩٢٨.

خيرُ الرازِقين، ولهذا اعملوا بالتَّجارة كما تريدون، وبَقَدْرٍ ما تريدون، فإنَّ كَسْبَ الرِّزْق الحلالِ عبادةٌ، وهو سُنَّةُ الأنبياءِ الكرام عليهم السَّلام، ولكن لا خيرَ في تجارةٍ تتركون من أجلها خُطبةَ الجمعةِ أو صَلاتها.

الفقيهُ إلى الله: محمَّد إمداد حُسين بيززاده،
منكاني شريف، مركز جهنك، باكستان.
بعد صلاة العشاء من يوم الاثنين ٤ أكتوبر ٢٠١٠م
الموافق ٢٥ شوال ١٤٣١هـ.

هذا وقد اكتمل بفضل الله تعالى وكرمه تفسيرُ سورة «الجمعة» في ساعتين فقط، أي: من بعد صلاة المغرب حتى بعد صلاة العشاء، ومن أسباب اكتمال تفسيرها سريعاً: أنَّ بعضَ المواضع من هذه السورة، يعني الآية رقم ٣، قد مرَّ تفسيرُها من قبل، وقد فصلتُ أنا الحديث عن صلاة الجمعة في كتابي «إمداد الفقه»، ولهذا فإنني سأُنقل هذين الشيئين من حيثما كُتبا، والحمد لله ربَّ العالمين، والصلاة والسلام على سيِّد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٣) سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ

هذه السُّورَةُ مَدَنِيَّةٌ، واسمُها: «المنافقون»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأولى منها.

المنافقون

في الآياتِ الثماني الأولى من هذه السُّورَةِ جاء بيانُ صفاتِ المنافقين، يعني: أنَّهم يكذبون، وأكبرُ كذبٍ منهم هو أنَّهم يُقرُّونَ بالإسلامِ بالسَّتِهم، لكنَّهم يُنكروْنَه بقلوبهم، ويَحْلِفُونَ بالله كذبًا لِيُخَفُّوا كذبهم، كلامُهم حُلُوٌّ، ولكنَّ لأنَّ قلوبهم تمتلئُ كُفْرًا، لهذا لن يغفرَ اللهُ لهم أبدًا، ولهذا أيضًا ينبغي للمسلمين أن يَحْتَاطُوا من المنافقين.

كان المنافقونَ يَعْتَقِدُونَ أنه لو أنَّ أهلَ المدينة تَرَكَوا إِنْفاقَ ثرواتهم على المسلمين، فسوف يَضِيقُونَ ذُرْعًا بالجوع، وَيَفِرُّونَ من هنا، وفي هذه السُّورَةِ حَذَّرَهُم اللهُ تعالى بأنَّكم لستم الرَّاظِقِينَ لهم، وأنَّ رازقَهُم هو اللهُ تعالى، وهو مالِكُ خَزَائِنِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ.

المؤمنون

في الآياتِ الثلاثِ الأخيرة من هذه السُّورَةِ جاء تعليمٌ لأهلِ الإيمانِ وإرشادٌ لهم بأنَّ يَنْشَغِلُوا بِذِكْرِ اللهِ تعالى وبطاعته، وأنَّ يُنْفِقُوا من رزقِ اللهِ عليهم في سبيله.

٢٨٠ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

لأنه حين يأتي موعد الموت، لن يمكن حينئذ تأخيرُه ولو للحظة، ولن ينفع الندم بشيء في ذلك الوقت.

الفقيرُ إلى الله: محمّد إمداد حُسين بيززاده،

جامعة الكرم، إنجلترا

بعد صلاة الفجر من يوم الثلاثاء ١٢ أكتوبر ٢٠١٠م

الموافق ٣ ذي القعدة ١٤٣١هـ.



سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ (٦٣)،

مدنية (١٠٤)، آياتها (١١)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ
 الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا
 رَأَوْهُمْ تَعْجَبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ
 صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُوَّ فَاذْرَهُمْ فَتَالَهُمُ اللَّهُ أَلَيْسَ بِذُنُوبِهِمْ أَنَّهُمْ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ
 رَسُولُ اللَّهِ لَوَّارُهُمْ وَسَاءَ مَا وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ
 لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ
 الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَاللَّهُ خَرَّابُنُ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَ
 الْأَعْرُضُ مِنَّا الْأَذَلُّ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾
 ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ
 الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾

١ - يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ الْحَبِيبُ ﷺ، عِنْدَمَا يَأْتِيكَ الْمُنَافِقُونَ لِيَشْهَدُوا أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ،

فإنَّ شهادَتَهُم صَادِقَةٌ؛ لَأَنَّكَ - بالفعل - رسولُ الله! لكنَّهُم كاذِبُونَ في هذه الشهادة؛ لأنَّهُم لا يعترفونَ بِكَ رسولًا من قلوبِهِم.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

٢ - المنافقونَ مِنْهُمْ يكونَ ليلَ نهارٍ في التأمُرِ على الإسلامِ، وحينَ يُفْتَضَحُ أمرُ مؤامرةٍ من مؤامراتِهِم يخافونَ أنْ يُعاقَبوا عليها، فإنَّهُم يحلفونَ كذبًا دفاعًا عن أنفُسِهِم، ويُفْلِتُونَ من العقاب، وهكذا يُعَدُّونَ - في الظاهر - من المسلمين، لكنَّهُم في الحقيقة أبعَدوا أنفُسَهُم عن الإسلامِ، ولو أرادَ كافرُ الدخولِ في الإسلامِ قَدَّموا له صُورَةً مُشوَّهةً وسَلْبِيَّةً عن الإسلامِ، فيمنَعُونَهُ بذلكَ من دخوله، وهذا السلوكُ من المنافقينَ في غايةِ السُّوءِ، وسيؤدِّي بِهِم إلى الخِزي والعارِ في الدُّنيا والآخرة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾

٣ - إنَّ تصرُّفَ المنافقينَ سَيِّئٌ؛ لأنَّهُم يدْعُونَ الإسلامَ، وبالتالي يعيشونَ بينَ المسلمين، معَ أنَّهم - في الحقيقة - غيرُ مسلمين، وبالتالي هم أشدُّ خطرًا من الكفارِ الظاهريينَ، وقد طُبِعَ على قلوبِهِم بسببِ نفاقِهِم هذا، وأصبحت عقولُهُم ومشاعرُهُم متحجَّرةً وجامدةً، بحيثَ لم يعودوا يميِّزونَ بينَ الحقِّ والباطلِ.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسْنَدَةٌ﴾

٤ - شكَّلَ المنافقينَ وصُورَتُهُم الظاهريَّةُ، وكذا حديثُهُم يبدو حُلُومًا جميلًا، ولكنَّهُم - في الحقيقة - مثَلُ تلكَ الأخشابِ المهملة التي أُوقِفَتْ مستندةً على الجُدرانِ، وعندما يجلسونَ في مجلسِ النبيِّ الكريم ﷺ فكأنَّهُم أيضًا أخشابٌ مسندةٌ لا حياةَ فيها، ولا يحاولونَ فَهْمَ شيءٍ يقال.

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾

٥ - بَلَغَ الْجُبْنَ بِالْمُنَافِقِينَ دَرَجَةً جَعَلَتْ قُلُوبَهُمْ تَخْفِقُ بِشِدَّةٍ إِذَا عَلَا صَوْتُ الْمُسْلِمِينَ فِي أَيِّ وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ، خَوْفًا مِنْ أَنْ تَكُونَ مَوَامِرَاتُهُمْ قَدْ اكْتُشِفَتْ، وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَادِمُونَ لِعِقَابِهِمْ.

﴿هُمْ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ﴾

٦ - هُنَا تَنْبِيهُ لَأَهْلِ الْإِيمَانِ بِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ أَعْدَاؤُكُمْ، فَاحْذَرُوا مِنْ مَوَامِرَاتِهِمْ.

﴿فَنَالَهُمُ اللَّهُ أَنْ يُولَافُوكُمْ﴾

٧ - لِيُهِلِكَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَيَلْعَنُهُمْ، أَيُّ جَهْلَةٍ وَحَمَقَى هَؤُلَاءِ! لَا يَزَالُونَ يَغْمَهُونَ فِي الضَّلَالِ، رَغْمَ رُؤْيَيْهِمْ لِدَلَائِلِ وَبَرَاهِينِ الْإِسْلَامِ الْوَاضِحَةِ.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأَوْا بِرُءُوسِهِمْ وَرَأَيْتَهُمْ يُصْذَنُونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾

٨ - يَقُولُ الْعَلَامَةُ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: «لَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ بِصِفَتِهِمْ مَشَى إِلَيْهِمْ عَشَائِرُهُمْ وَقَالُوا: افْتَضَحْتُمْ بِالنِّفَاقِ، فَتُوبُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ مِنَ التَّفَاقِ، وَاطْلُبُوا أَنْ يَسْتَغْفَرَ لَكُمْ. فَلَوَّأَوْا بِرُءُوسِهِمْ، أَيُّ: حَرَّكَوْهَا اسْتَهْزَاءً وَإِبَاءً»^(١).

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾

٩ - يَعْنِي: أَنَّ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يُتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيُصْبِحُونَ مُسْلِمِينَ، سَيَغْفِرُ اللَّهُ لَهُمْ، أَمَّا الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى نِفَاقِهِمْ وَعَلَى انْكَارِهِمْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى آخِرِ لَحْظَةٍ مِنْ حَيَاتِهِمْ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ مَهْمَا اسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ.

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا﴾

١٠ - إليك خلاصة الواقعة التي وَرَدَ ذِكْرُهَا فِي كُتُبِ التَّفَاسِيرِ وَالْأَحَادِيثِ
فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ الْآيَةِ.

يقال: إن مهاجرًا وأنصارًا اختلفا فيما بينهما وقت غزوة بني المصطلق، فاستدعى كلُّ منهما من ينصره من المهاجرين والأنصار، فقال عبد الله بن أبي (المنافق)، للأنصار: لقد ساعدتم المهاجرين، واليوم هم يهددونكم، مع أننا كنا قبل مجيئهم أصحاب عزة وكرامة، ولهذا عليكم الآن أن تتركوا الإنفاق على هؤلاء المهاجرين، حتى يُحاصِرَهم الجوع والإفلاس، فيفروا من هنا، كما قال لهم أيضًا بأنهم عندما يصلون المدينة عليهم إخراج هؤلاء الأذلاء (يعني المسلمين) منها. وعندما سمع سيدنا زيد بن الأرقم رضي الله عنه هذا الكلام ذهب إلى النبي ﷺ وأخبره بالأمر، وعندئذ استدعى النبي ﷺ عبد الله بن أبي وسأله عن الموضوع، فأنكر ابن أبي إنكارًا تامًا بأنه قال مثل هذا الكلام، وعليه انزعج سيدنا زيد بن الأرقم رضي الله عنه كثيرًا، ثم نزلت هذه السورة، فاستدعى النبي ﷺ سيدنا زيد بن الأرقم رضي الله عنه، وبشّره بأن الله تعالى أنزل سورة المنافقين تصديقًا لما قلت وتأكيديًا على كذب المنافقين.

﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾

١١ - كان المنافقون يعتقدون أنه لو أنّ أهل المدينة تركوا إنفاق ثروتهم على المسلمين، فسوف يضيّقون دَرْعًا بالجوع، ويفرون من هنا، وفي هذه السورة حذّره الله تعالى بأنكم لستم الرازقين لهم، وإن رازقهم هو الله تعالى، وهو مالكُ خزائن السماوات والأرض. ولأنّ المنافقين لا يعرفون قدرة الله تعالى، لهذا يقولون هذا الكلام الجاهل.

﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

١٢ - قال سيد المنافقين عبد الله بن أبي لرفاقه في غزوة بني المصطلق: إنهم أهل عزة وكرامة واحترام ومكانة، وحين يعودون إلى المدينة سيخرجون هؤلاء الأذلاء - يعني المسلمين - منها! لكن أنى لهم أن يعلموا أن مالك العزة الحقيقي هو الله تعالى، وهو الذي يُنعم بالعزة الحقيقية على أهل الإيمان، بينما لا يستحق المنافقون منها شيئاً، وما أن يُفتضح أمر نفاقهم، سيُصيّهم الخزي والعار والذل، لكن هؤلاء غافلون عن مصيرهم.

إن العزة الحقيقية لا تستند إلى الطعام الجيد والملابس الفاخرة والمسكن الجميل، وإنما يستحق العزة من كان سلوكه جميلاً، وهو في كل حال شاكر لله تعالى خالقه الحقيقي.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾

١٣ - بعد بيان صفات المنافقين يتم تعليم المسلمين وإرشادهم إلى أن أحبوا أولادكم وأموالكم، ولكن ليس إلى الدرجة التي تجعلكم غافلين عن ذكر الله تعالى؛ لأن القلب الذي يغفل عن ذكر الله تعالى يدخله الشيطان، وعندئذ يصبح صاحب مثل هذا القلب من الخاسرين بسبب تأثير الشيطان عليه.

﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

١٤ - عليكم أن تؤدّوا حقوقَ خلقِ الله تعالى في وقتها من الرِّزقِ الذي أنعم به عليكم، ولا تؤخّروها عامدين، فقد يأتيكم الموت وتندمون، وتدعون الله عندئذٍ أن يمهلكم قليلاً حتى تتصدّقوا وتخرجوا زكاتكم، وتكونوا من الصّالحين، ولكنّ وقت الموت محدّد، وعندما يحينُ هذا الوقتُ فإنه لا يمكن تأخيرُه ولو للحظةٍ واحدة.

ويعلمُ منه أنه إذا أصبح الحجُّ أو الزكاةُ أو غيرُهما فرضاً على أحدٍ ينبغي له ألا يؤخّر أداءَ هذا الفرض؛ لأنّ الموتَ يمكنُ أن يأتي في أيّ وقتٍ من الأوقات، وعندها لن ينفَع الندمُ بشيء.

الفقيّر إلى الله: محمّد إمداد حُسين بيززاده،
جامعة الكرم، إنجلترا
بعد صلاة العصر من يوم الثلاثاء ١٢ أكتوبر ٢٠١٠م
الموافق ٣ ذي القعدة ١٤٣١هـ.

هذا، وقد اكتمل بفضل الله تعالى وكرمه تفسير سورة «المنافقون» من بعد صلاة الفجر وحتى بعد صلاة العصر من اليوم نفسه، والحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٤) سُورَةُ التَّغَابُنِ

هذه السُّورَةُ مَدَنِيَّةٌ، واسمُها: «التَّغَابُنُ»، وهو مأخوذٌ من الآية رقم ٩ منها.

صفات البارئ سبحانه وتعالى

جاء في بداية هذه السُّورَةِ بيانٌ لبعضِ صفاتِ الله تعالى، يعني: أنَّ الله تعالى هو خالقُ الأرضِ والسَّماءِ، وحاكُمُهُما، وهو الذي خَلَقَ الإنسانَ كذلك، وأنَّعَمَ عليه بالشَّكْلِ الجميل، وهو الذي يَعْلَمُ تمامَ العِلْمِ ظاهرَ كلِّ شيءٍ وباطنه في الأرضِ والسَّماءِ.

درس عبرة

في السُّورَةِ السَّابِقَةِ جاء بيانُ صفاتِ المنافقينَ، وفي هذه جاء بيانُ لأحوالِ الكفَّارِ، بأنَّهم أنكَرُوا التَّوْحِيدَ والثُّبُوءَ والآخِرَةَ، وكان نتيجةُ ذلك أنَّ أهلكَهُمُ اللهُ تعالى، فعليكم أن تَعْتَبِرُوا من أحوالِ هؤلاء، وأن لا تُفْسِدُوا آخِرَتكم بعصيانكم لله تعالى.

المال والأولاد

وفي النِّهَايَةِ تَبَّهَ اللهُ تعالى بأنَّ أموالكم وأزواجكم وأولادكم بمثابةِ الفتنَةِ

لكم، فلا تُبالغوا في محبتهم إلى الدرجة التي تُنسيكم الله تعالى، ولا تُقصرُوا في حقوقهم إلى الدرجة التي تجعلكم مجرمين عند الله تعالى، وإنما احرصوا على التوازن بين الحقوق والواجبات، واتقوا الله، وأنفقوا في سبيله، فهذا خير لكم.

الفقيه إلى الله: محمد إمداد حسين بيرزاده،

جامعة الكرم، إنجلترا

بعد الإشراق من يوم الأربعاء ١٣ أكتوبر ٢٠١٠م

الموافق ٤ ذي القعدة ١٤٣١هـ.



سُورَةُ التَّغَابُنِ (٦٤)،

مدنية (١٠٨)، آياتها (١٨)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي
خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ
وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَدَافُوا بِأَلْأَمْرِ هُمْ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا
وَأَسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُغْنَا قُلُوبُنَا وَرَبِّي لَتُبْعِنَنَّهُمْ لَنْبُؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ
وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ
يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَعَمِلْ صَالِحًا يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾

١ - للتعرف على تفسير هذه الآية راجع الحاشية الأولى من سورة الحديد

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

٢ - الله تعالى هو الذي خلقكم، ثم أنكر بعضكم الله تعالى وأصبح كافراً، والبعض اعترف به وأصبح مؤمناً، وقد أخبركم الله تعالى بالفرق بين الحق والباطل أيضاً، وأعطاكم القدرة على اختيار أيّ منهما، والآن فإن الطريق الذي تختارونه لأنفسكم يراه الله تعالى تمام الرؤية، وسوف يقرّر ثوابكم وعقابكم طبقاً لأعمالكم. ولمزيد من التفصيل عن القدر راجع الحاشية رقم ٣٩ للآية رقم ٤٩ من سورة القمر (٥٤).

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾

٣ - خلق الله تعالى الأرض والسماء بحكمة تجعل الإنسان العاقل يقرّ بقدرة الله وحكمته فور أن يراهما، فلقد هيأ الله تعالى في هذه الكائنات كل الوسائل الضرورية التي يحتاجها الإنسان في حياته، كما أن الله تعالى قد أقام التوازن في الأرض والسماء، بحيث لم يحدث أي خلل في نظامهما رغم مرور أزمان طويلة عليهما.

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾

٤ - جعل الله تعالى من الأرض مقراً للإنسان، ومن السماء سقفاً يستظل به، وأنعم عليه بالرزق الحلال، والأحياء الأخرى تشارك الإنسان هذه النعم أيضاً، لكن الشكل والصورة والعلم والحكمة التي أنعم الله تعالى بها على الإنسان، لا يشاركه فيها أحد من هذه الأحياء، وهذا هو السبب في أن حيوانات ضخمة كالفيل والجمل، وأخرى مفترسة كالأسد والنمر، تخضع للإنسان.

شكل الإنسان وصورته هي الأجل

- في عهد الخليفة المنصور «كان عيسى بن موسى الهاشمي يحب زوجته

حبًا شديدًا، فقال لها يومًا: أَنْتِ طَالِقٌ ثَلَاثًا إِنْ لَمْ تَكُونِي أَحْسَنَ مِنَ الْقَمَرِ، فَهَضَبْتُ وَاحْتَجَبْتُ عَنْهُ، وَقَالَتْ: طَلَّقْتَنِي! (لَأَنْتِي لَا يُمْكِنُ أَنْ أَكُونَ أَجْمَلَ مِنَ الْقَمَرِ). وَبَاتَتْ بَلِيلَةً عَظِيمَةً، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَى دَارِ الْمَنْصُورِ، فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ، وَأَظْهَرَ لِلْمَنْصُورِ جَزَعًا عَظِيمًا، فَاسْتَحْضَرَ الْفُقَهَاءَ وَاسْتَفْتَاهُمْ، فَقَالَ جَمِيعُ مَنْ حَضَرَ: قَدْ طُلِّقَتْ، إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا مِنْ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ، فَإِنَّهُ كَانَ سَاكِنًا. فَقَالَ لَهُ الْمَنْصُورُ: مَا لَكَ لَا تَتَكَلَّمُ؟ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: ﴿وَالَّذِينَ وَالِ الزَّيْنُونَ﴾ * وَطُورِ سَيْنِينَ * وَهَذَا أَلْبَلَدِ الْأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ١-٤]. يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِلَى نَسَانٍ أَحْسَنُ الْأَشْيَاءِ، وَلَا شَيْءَ أَحْسَنُ مِنْهُ. فَقَالَ الْمَنْصُورُ لِعِيسَى بْنِ مُوسَى: الْأَمْرُ كَمَا قَالَ الرَّجُلُ، فَأَقْبِلْ عَلَى زَوْجَتِكَ»^(١).

- يَقُولُ سَيِّدُنَا ابْنُ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلَا يَلْطِمَنَّ الْوَجْهَ (أَي: لَا يَضْفَعُهُ عَلَى وَجْهِهِ)»^(٢)؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ.

- يَقُولُ سَيِّدُنَا أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُجْتَنِبِ الْوَجْهَ، فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»^(٣)، وَاللَّهُ تَعَالَى نَوَّرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، ثُمَّ إِنَّهُ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَالْمَرَادُ مِنْ كُلِّ هَذَا هُوَ تَكْرِيمُ الْإِنْسَانِ وَاحْتِرَامُهُ.

- مِنْ عَظَمَةِ شَكْلِ الْإِنْسَانِ وَصُورَتِهِ أَيْضًا أَنَّ الْأَحْيَاءَ كُلَّهَا تَحْنِي رَأْسَهَا أَمَامَ طَعَامِهَا وَشَرَابِهَا لِتَتَنَاوَلَهُ، لَكِنَّ السَّيِّدَ الْإِنْسَانَ يَحْمِلُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ بِيَدِهِ لِيَضَعَهُ

(١) تفسير القرطبي، سورة «التين» (٩٥): الآية ٤.

(٢) مسلم، برقم ٦٦٥٤.

(٣) مسلم، كتاب البر، باب ٣٢ برقم ٦٦٥٥.

في فيه، حتى لا ينحني أمام طعام أو شراب، وإنما ينحني أمام الله تعالى فقط الذي هو خالقه ومعبوده الحقيقي:

- إنك لم تُخلَق للأرض ولا للسماء، العالم كله خلق من أجلك أنت، ولم تُخلَق أنت من أجله.

لقد أنعم الله تعالى على الإنسان بنعم لا تعد ولا تحصى، وينبغي للإنسان أن يتذكر جيداً أن الله تعالى يعلم تمام العلم ظاهر كل إنسان وباطنه، وما يخفيه في قلبه من أسرار وما يعلنه، وأن الجميع سيمثلون ذات يوم في حضرة الله تعالى، وسيحاسبهم على كل هذه النعم، ولهذا ينبغي استعمال النعم في الأغراض التي خلقت من أجلها.

﴿الْمَرِيَّاتُ كُفَرُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

٥ - كانت قصص قوم نوح وقوم عاد وثمود وغيرهم مشهورة معروفة عند العرب بأن هؤلاء اختاروا الكفر والظلم، فنزل عليهم العذاب في الدنيا عقاباً لهم على ذلك، وسوف يُعاقبون في الآخرة بالعذاب الأليم، وفي هذه الآية تذكير لأهل الجزيرة العربية بأن يعتبروا مما حدث للكفار الذين كانوا من قبلهم، وأن يؤمنوا، وإلا فلن يُفلقوا من العذاب الأليم في الآخرة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾

٦ - السبب في تعذيب الكفار أن الله تعالى أرسل إليهم رُسُلَهُ، وأعطى الرُسُلَ معجزات واضحة، حتى يعرفهم الكفار ويؤمنوا بهم، إلا أن الكفار رفضوا الإيمان

بالرُّسُلِ، وأعرضوا عن دعوتهم، فرَفَعَ اللهُ أيضًا نَظَرَ رَحْمَتِهِ عَنْهُمْ، وَتَرَكَهُمْ فِي حَالِهِمْ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الْمُسْتَغْنَى، وَهُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِكُلِّ حَمْدٍ وَثَناءٍ، سِوَاءِ حَمْدِهِ الْحَامِدُونَ أَمْ لَا.

وَمِنْ أَسْبَابِ إِنْكَارِ الْكُفَّارِ أَيْضًا: أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِلْإِيمَانِ بِإِنْسَانٍ مِثْلِهِمْ نَبِيًّا، فَقَدْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ اللهُ تَعَالَى لَا بَدَّ مَرْسَلًا نَبِيًّا، فَسِيرَ سِلُّ مَلَكًا نَبِيًّا، وَلَكَ أَنْ تَتَخَيَّلَ مَدَى تَفْكِيرِهِمْ، فَإِذَا أَنْكَرُوا كَانَ إِنْكَارُهُمْ لِأَنَّهُ يَكُونُ أَشْرَفُ الْمَخْلُوقَاتِ السَّيِّدُ الْإِنْسَانُ نَبِيًّا، وَإِذَا آمَنُوا كَانَ إِيْمَانُهُمْ بِأَحْجَارٍ نَحْتُوها بِأَيْدِيهِمْ آلِهَةً. إِنَّ إِنْكَارَ بَشَرِيَّةِ الْأَنْبِيَاءِ كُفْرٌ، مِثْلَمَا يَقُولُ سَيِّدُنَا الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَضِيَ عَنْهُ: وَمَنْ يَنْفِي بَشَرِيَّةَ سَيِّدِنَا النَّبِيِّ ﷺ نَفْيًا مُطْلَقًا فَقَدْ كَفَرَ، فَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيْ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣] ^(١).

لماذا لم يجعل الله من الملائكة أنبياء؟

لَوْ جَعَلَ اللهُ مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ نَبِيًّا فَلَهُ صُورَتَانِ؛ إِمَّا أَنْ يَأْتِيَ هَذَا الْمَلَكُ فِي صُورَتِهِ الْأَصْلِيَّةِ، وَبِالتَّالِي لَنْ يَسْتَطِيعَ الْبَشَرُ أَنْ يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ بِسَبَبِ هَيْبَتِهِ وَجَلَالِهِ، وَإِنَّمَا سَيُصْعَقُونَ بِمَجَرَّدِ رُؤْيَاهُ، وَالصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ هِيَ أَنْ يَأْتِيَ هَذَا الْمَلَكُ فِي صُورَةِ بَشَرٍ، مِثْلَمَا كَانَ سَيِّدُنَا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَأْتِي إِلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ فِي صُورَةِ إِنْسَانٍ، وَرَأَى الصَّحَابَةُ الْكَرَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَيْضًا فِي هَذِهِ الصُّورَةِ، وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ سَيَعْتَرِضُ الْكُفَّارُ قَائِلِينَ: إِنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُنَا، لِمَاذَا لَمْ يُرْسَلِ اللهُ مَلَكًا رَسُولًا؟

(١) تفسير تبيان القرآن، سورة التغابن (٦٤): الآية ٦.

وردًا على هذا قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانِ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥]، يعني: لو أنَّ الأرضَ يسكنُها الملائكةُ لأرسل الله تعالى منهم رسولًا على وجه اليقين، ولكنَّ البشرَ هم الذين يعيشون على الأرض، وبالتالي يصبحُ من الضروريِّ إرسالَ بشرٍ رسولًا لهدايةِ البشر أمثاله، حتى يقدِّمَ لهم أسوةً بأقواله وأفعاله يمكنُ أن تكونَ وسيلةً لهدايةِ الآخرين.

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثَ أَقْبَلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثَنَّ﴾

٧ - كان الكفار يعتقدون أنَّهم لن يُبعثوا من جديدٍ أحياءً بعد موتهم، ولكنَّ هذا كان مجردَ اعتقادٍ منهم، وليس لديهم أيُّ دليلٍ معقولٍ على ما يعتقدون، في حين أنَّ الحقيقةَ هي أنَّهم سيُبعثون من جديدٍ أحياءً فعلاً.

وهناك دليلٌ على ذلك، وهو أنَّ هذا هو ما كان يقوله لهم الصادقُ الأمين، يعني: ذلك الذي لم يكذبَ أبدًا حتى في الظروفِ العاديةِ، كيف يمكنُ أن يكذبَ فيما يتعلَّقُ بكلامِ الله تعالى؟

والدليلُ الثاني هو: أنَّ الذي سيُحيينا ثانيةً يومَ القيامةِ هو الله تعالى، والله تعالى هو الذي خلقَ الناسَ جميعًا للمرَّةِ الأولى، وبالتالي يصبحُ من السَّهلِ عليه أن يخلقَ ثانيةً مثلَ هؤلاءِ الناسِ الذين خلَقهم من قبلُ.

والحكمةُ في إحياءِ الخلقِ وبعثهم من جديدٍ هي أن يُحاسِبَ كلُّ إنسانٍ على أعمالِهِ حسابًا كاملاً، فينالُ الثوابَ والعقابَ عليها طبقًا لها؛ لأنَّ بعضَ الأعمالِ تبقى خافيةً في الدُّنيا لا يعلمُ بها أحدٌ، وبعضُ أصحابِ القوةِ والنفوذِ يفلتُونَ من العقابِ في الدُّنيا اعتمادًا على قوَّتهم وتزييفهم للحقائق، ولكنَّ يومَ القيامةِ لن يبقى عملٌ أحدٍ

خافياً، إذ إنَّ الله تعالى سيكشفُ أعمالَ الناسِ جميعاً، وسيقرِّرُ لهم الثوابَ والعقابَ طبقاً لهذه الأعمال.

﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

٨ - يعني: أن ما قرأتموه في الآيات السابقة من صفاتِ الله تعالى، وعن المصيرِ السيِّئِ للكفار، يقتضي أن تؤمنوا بالله تعالى وبرسوله وبالنور الذي أنزل عليه، أي: بالقرآن الكريم، فإن لم تؤمنوا بعد كلِّ هذا فاعلموا - جيِّداً - أن الله تعالى يعلمُ تمامَ العلم كلَّ أفعالكم القبيحة، وأنكم لن تستطيعوا الإفلاتَ من العقابِ عليها.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾

٩ - قيل ليوم القيامة: «يومُ الجَمْع» لأنَّ الأولين والآخرين سيُجمَعون في ذلك اليوم في ميدانٍ واحد، وقيل لذلك اليوم - يوم «ظهورِ الخسارة» -: (التغابُن) لأنَّ الكفارَ والعصاةَ سيَشْعُرُونَ في ذلك اليوم أنَّهم أضاعوا حياتهم في عصيانِ الله تعالى، واليومَ ظهرَ خسارةُ ذلك، وسيشْعُرُ أهلُ الإيمانِ في الجنةِ بنقصِهم فيه، بمعنى: لو أنَّهم زادوا في فعلِ الحسنات في الدنيا لكانت درجاتُهم في الجنةِ أرفعَ وأعلى ممَّا هم فيه الآن، مثلما وردَ في سورة «مريم» من تسمية هذا اليوم بيوم الحسرة، ويقولُ العلامةُ المظهرِي في تفسيرِ هذه الآية: «أي: يوم يتحسَّرُ الناسُ؛ المُسيءُ على إساءته والمُحسِنُ على قلةِ إحسانه، وروى البَغَوِيُّ، عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما من أحدٍ يموتُ إلَّا ندم»، قالوا: فما ندمُه يا رسولَ الله؟ قال: «إن كان مُحسِنًا ندم أن لا يكونَ ازداد، وإن كان مُسيئًا ندم أن لا يكونَ نَزَعَ»^(١).

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾

١٠ - كلُّ من يؤمن ويعمل صالحاً تُغفرُ سيئاته ببركة حسناته، مثلما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤].

الحسنات يذهبن السيئات

- يقول سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: إنه سمع النبي ﷺ يقول: «أرأيتم لو أنّ نهراً باب أحدكم، يغتسل فيه كلّ يوم خمساً، ما تقول ذلك يُبقي من درّنه؟»، قالوا: لا يبقى من درّنه شيئاً. قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بها الخطايا»^(١).

- يقول سيّدنا أبو ذرّ رضي الله عنه: إنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم خرج زمن الشتاء والورق يتهافت، فأخذ بغصنين من شجرة، قال: فجعل ذلك الورق يتهافت، قال: فقال: «يا أبا ذرّ» قلت: لبيك يا رسول الله. قال: «إنّ العبد المسلم ليصلي الصلوة يريد بها وجه الله، فتهافت عنه ذنوبه كما يتهافت هذا الورق عن هذه الشجرة»^(٢).

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَأْتِيهَا الذِّبَابُ ؕ آمَنُوا بِهَا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ
أَزْوَاجَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ عُدُوَّكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِن
اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَأَنْقَرُوا

(١) البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب ٦ برقم ٥٢٨.

(٢) مسند أحمد، ٥: ١٧٩.

اللَّهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ تَقْرُؤُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾

١١ - خلق الله تعالى هذه الحياة والموت للابتلاء، ولهذا فإن من تحلَّ عليه مصيبة تكون بإذن الله تعالى، وأحياناً تكون هذه المصيبة عقاباً له على بعض أعماله السيئة، وأحياناً يكون المقصود بها هو الابتلاء فقط.

وبعض الناس يضطرب في المصيبة ويئأس، وبعض الناس يسير على طريق الظلم والإيذاء بكل تعنت وصلف، لكن الذين يؤمنون بالله تعالى من صدق قلوبهم يهدي الله تعالى قلوبهم، وهم يصبرون على المصيبة، ويحاولون النجاة منها داعين الله تعالى بذلك؛ لأنهم يكونون على يقين من أن المصيبة تكون من الله تعالى، وهو - وحده - القادر على إبعادها، وهكذا تكون المصيبة بالنسبة للصابرين عليها بمثابة الوسيلة لرفع درجاتهم.

مصائب أهل الإيمان

- يقول سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: إن النبي ﷺ قال: «ما يُصيب المسلم من نصبٍ ولا وصبٍ ولا همٍّ ولا حزنٍ ولا أذى ولا غمٍّ حتى الشوكة يُشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياها»^(١).

- يقول سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: إن النبي ﷺ قال: «من يُرد الله به خيراً يُصب منه»^(٢).

(١) البخاري، كتاب المرضى، باب ١ برقم ٥٦٤١.

(٢) البخاري، كتاب المرضى، باب ١ برقم ٥٦٤٥.

- يقول سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»^(١).

- يقول سيّدنا ضُهِيبُ رضي الله عنه: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(٢).

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾

١٢ - يعني: أطيعوا الله ورسوله، فَإِنْ أَعْرَضْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ أَدَّى بِكُلِّ أَمَانَةٍ مَهْمَّةَ الدَّعْوَةِ وَالتَّبْلِيغِ الَّتِي عَهَدَ بِهَا إِلَيْهِ، وَالْآنَ سَوَاءٌ عَمِلَ بِهَا أَحَدٌ أَمْ لَا، فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ مَسْئُولِيَّةَ النَّبِيِّ، وَإِنَّمَا كُلُّ إِنْسَانٍ مَسْئُولٌ عَنْ عَمَلِهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يُجْبِرُ أَحَدًا؛ لِأَنَّ الْإِجْبَارَ يَتَنَافَى مَعَ حِكْمَتِهِ.

ولها مفهومٌ آخَرٌ أَيْضًا، وَهُوَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ بَلَّغَكُمْ الرِّسَالَةَ بِكُلِّ أَمَانَةٍ، وَالْآنَ أَصْبَحَ مَسْئُولِيَّةُ الْأُمَّةِ أَنْ تُبْلِغَ رِسَالَةَ الْحَقِّ هَذِهِ إِلَى كُلِّ الْأَجْيَالِ الْقَادِمَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، وَأَنْ لَا تَزِيدَ فِيهَا وَلَا تَنْقُصَ، وَمَنْ سَيَحَاوِلُ إِخْفَاءَ شَيْءٍ مِنْهَا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْلَمُ تَمَامَ الْعِلْمِ ظَاهَرَ النَّاسِ جَمِيعًا وَبَاطِنَهُمْ، وَسَوْفَ يُحَاسِبُهُمْ عَلَى نَوَايَاهُمْ وَيُجَازِيهِمْ عَلَيْهَا ثَوَابًا وَعِقَابًا.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

١٣ - التَّوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ جُزْءٌ مِنَ الْإِيمَانِ، يَعْنِي: أَنْ يَكُونَ الْإِيمَانُ رَاسِخًا بِأَنَّ حُكْمَ اللَّهِ قَاطِعٌ، وَأَنَّ النِّجَاحَ وَالْفِشْلَ بِيَدِ اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ، وَحِكْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى فَاعِلَةٌ فِي كُلِّ مِنْهُمَا، كَمَا أَنَّ الْاعْتِمَادَ الْكُلِّيَّ عَلَى الْأَسْبَابِ - اعْتِقَادًا بِأَنَّهَا كُلُّ شَيْءٍ

(١) مسلم، كتاب الزهد، باب ٥٣ برقم ٧٤١٧.

(٢) مسلم، كتاب الزهد، باب ١٣ برقم ٧٥٠٠.

لحصول المطلوب - إنما هو بمثابة العقيدة الشَّرَكِيَّة، وفي نفس الوقت فإنَّ تَرَكَ الأسبابِ وادِّعاءِ التَّوَكُّلِ ذَنْبٌ أيضًا، ولهذا يكونُ مفهومُ التَّوَكُّلِ هو أن نجتهدَ في توفيرِ وتهيئةِ الأسبابِ الضَّروريَّة، ولكنْ لا نعتمدُ في النتائجِ على الأسبابِ، وإنَّما نتوكَّلُ على الله فقط، وبهذا تبقى معنوياتُ المسلمينَ وهمَّتُهم مرتفعةً، ويشملُهم الله تعالى أيضًا بنصرته، في حينَ أنَّ الكافرَ يعتمدُ على الأسبابِ فقط، ويظلُّ قلقًا بسببِ فقدانِهِ للطَّمَأْنينةِ الرُّوحانيَّة، وإليك بعضُ الأمثلةِ في هذا الخصوص:

التوكل على الله

١ - حينَ كانَ النبيُّ ﷺ ينوي الخروجَ للحربِ، كانَ يستعدُّ لها، ويُشكِّلُ مجلسًا استشاريًا لهذا الأمرِ، ويتخيَّرُ الزمانَ والمكانَ والطَّريقَ والمجاهدينَ، وكذلك يتدبَّرُ أمرَ المطايا، وفي ميدانِ الحربِ يتمُّ تشكُّيلُ الجنودِ في صفوفٍ، وباختصارٍ: فإنه ﷺ كانَ يتدبَّرُ كلَّ الأسبابِ الضَّروريَّة لتحقيقِ الانتصارِ في الحربِ، ثم يرفعُ يَدَ السَّوَالِ إلى الله تعالى قائلاً: «اللَّهُمَّ... اهزمِهم وانصُرنا عليهم»^(١).

٢ - عندَ الهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة أعَدَّ النبيُّ ﷺ الناقةَ للركوبِ، وكذا زادَ السَّفَر، كما اختارَ رفيقَ السَّفَرِ أيضًا، ثم اضطحبَ سيِّدنا أبا بكرٍ الصديقَ رضي الله تعالى في ظلامِ اللَّيْلِ ولَجَأَ إلى غَارِ ثَوْرٍ، حتى لا يراه كُفَّارُ مكة، وهكذا بعدَ الأخذِ بكلِّ الأسبابِ الماديَّة الضَّروريَّة دعا الله قائلاً: «اللَّهُمَّ أعني على هَؤُلَ الدُّنيا و بوائِقِ الدَّهرِ ومصائبِ اللَّيالي والأَيَّامِ، اللَّهُمَّ اصحبني في سَفَري... وإلى النَّاسِ فلا تكلني»^(٢).

وهكذا، عندما خَرَجَتْ جماعةٌ من كُفَّارِ مكة تبحثُ عن النبيِّ ﷺ، ووصلت

(١) البخاري، كتاب الجهاد، باب ١١٢ برقم ٢٩٦٦.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير، المجلد الثاني: ٣: ١٧٨.

إلى بابِ غارِ ثور، قال سيّدنا أبو بكرٍ رضي الله عنه للنبيِّ ﷺ: لو أنّ أحدهم نظرَ تحتَ قدميه لأبصرنا، فقال: «ما ظنُّك يا أبا بكرٍ باثنين، الله ثالثهما؟»^(١)، أي: فقال ﷺ مبيّناً التوكّلَ على الله بالأفاظِ قاطعة: «ما ظنُّك يا أبا بكرٍ باثنين، الله ثالثهما؟»، يعني: إنّنا قد أكملنا الأخذَ بكلِّ الأسبابِ الممكنة وتوكّلنا على الله، وهو الذي يحفظنا، وهكذا خلق الله أسباباً رآها الكفّارُ فعادوا من حيثُ جاءوا، وذلك حين قيضَ حامتين بيضهما، وكذا شبّاك العنكبوتِ على بابِ الغار، وبالتالي أنقذَ الله تعالى سيّدنا محمداً ﷺ وسيّدنا أبا بكرٍ الصديقَ رضي الله تعالى عنه من أيدي الكفار.

٣- عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه، قال: قال رجلٌ: يا رسولَ الله، أعقلها وأتوكّل أو أطلقها وأتوكّل؟ قال: «اعقلها وتوكّل»^(٢)، حتى لا يسرقها لصٌ.

٤- يقول سيّدنا عمرُ بنُ الخطّاب رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «لو أنّكم كنتم توكّلون على الله حقَّ توكّله لرزقتم كما تُرزق الطير: تغدو خماصاً وتروحُ بطاناً»^(٣)، والمرادُ بالتوكّل في هذا الحديث ليس تركَ العمل، وإنما فيه دليلٌ على بذلِ الجُهد والسَّعي من أجلِ الحصولِ على الرِّزق، مثلما أنّ الطيورَ تخرجُ أولاً باحثّةً عن رزقها، وعندئذٍ تعودُ في المساءِ مليئةً بطونها، ولو بقيتِ الطيورُ في أعشاشها ولم تخرج منها لما أتاها الرزقُ طائراً إليها.

- يقول سيّدنا ابنُ عباس رضي الله عنهما: «الدّوابُّ هو: كلّ ما دبّ من الحيوان، فكلُّه لا يحملُ رزقه، ولا يدخُرُ إلّا ابنُ آدمَ والنَّمْلُ والفأرُ»^(٤)، وهذه الأحياء الثلاثة تأكلُ قليلاً وتفكرُ كثيراً في الجَمْع والتخزين.

(١) البخاري، فضائل الأصحاب، باب ٢ برقم ٣٦٥٣.

(٢) الترمذي، أبواب صفة القيامة، باب ٦٠ برقم ٢٥١٧.

(٣) الترمذي، أبواب الزهد، باب ٣٣ برقم ٢٣٤٤.

(٤) تفسير القرطبي، سورة العنكبوت (٢٩): الآية ٦٠.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِرَبِّكَ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُدُوَّالَّذِينَ كُنتُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾

١٤ - إذا حَرَّضَكُمْ أَوْلَادُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ أَنَّ مُحِبَّتَكُمْ لَهُمْ أَغْفَلَتْكُمْ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْأَوْلَادَ وَالْأَزْوَاجَ أَعْدَاءُ لَكُمْ، وَيُمْكِنُهُمْ أَنْ يُفْسِدُوا آخِرَتَكُمْ، وَلِهَذَا عَلَيْكُمْ أَنْ تَحْذَرُوهُمْ، وَأَنْ تَنْجُوا مِنْ عَصِيَانِ اللَّهِ تَعَالَى بِسَبِيهِمْ، وَلَوْ صَدَرَ خَطَأٌ مِنْ أَوْلَادِكُمْ أَوْ أَزْوَاجِكُمْ، فَلَا يَأْخُذُكُمُ الْغَضَبُ الشَّدِيدُ إِلَى قَطْعِ عِلَاقَاتِكُمْ بِهِمْ، وَإِنَّمَا عَلَيْكُمْ أَنْ تَعْفُوا عَنْهُمْ، وَتُفْهِمُوهُمْ أَنْ يَتَجَنَّبُوا مِثْلَ هَذَا الْخَطِئِ مُسْتَقْبَلًا، وَاللَّهُ تَعَالَى سَيَجْزِيكُمْ لِقَاءَ هَذَا الْعَفْوِ مِنْكُمْ بِأَنْ يَرْحَمَكُمْ، وَيَعْفُو عَنْ سَيِّئَاتِكُمْ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْعَفْوُ الْغَفُورُ.

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

١٥ - كَمَا أَنَّ الْمَالَ وَالْأَوْلَادَ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، يُمْكِنُ أَنْ يَكُونُوا ابْتِلَاءً لِلْإِنْسَانِ أَيْضًا، وَمَنْ لَا يَعِصِي اللَّهَ تَعَالَى انْشَغَالًا بِمُحِبَّةِ مَالِهِ وَأَوْلَادِهِ فَإِنَّ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ أَجْرًا عَظِيمًا، أَمَّا مَنْ يَعِصِي اللَّهَ تَعَالَى انْشَغَالًا بِمَالِهِ وَأَوْلَادِهِ، فَسَيُحَرِّمُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

﴿فَأَنْقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾

١٦ - يَعْنِي: اجْتَهِدُوا كَثِيرًا مِنْ نَاحِيَّتِكُمْ فِي أَنْ تَتَّقُوا اللَّهَ وَتَخْشَوْهُ، وَالْعَمَلُ الَّذِي يَكُونُ فَوْقَ طَاقَتِكُمْ لَنْ تُسْأَلُوا عَنْهُ، مِثْلَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

﴿وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

١٧ - إِنْ كُنْتُمْ تَرِيدُونَ فَلَاحَ الدَّارَيْنِ فَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا تَبْخُلُوا؛ لِأَنَّ الْبُخْلَ مَرَضٌ يَجْعَلُ الْإِنْسَانَ أَنَانِيًّا لِدَرَجَةٍ يَقْصُرُ مَعَهَا فِي حَقْقِ اللَّهِ وَحَقْقِ

العباد، وينشغل في جمع المال دون تمييز بين الحلال والحرام.

يقول سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: إن رسول الله ﷺ قال: «اتَّقُوا الظُّلْمَ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الْفُحْشَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ، وَإِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ؛ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، أَمَرَهُم بِالظُّلْمِ فَظَلَمُوا، وَأَمَرَهُم بِالْفُجُورِ فَفَجَرُوا، وَأَمَرَهُم بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا»^(١).

﴿إِنْ تَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾

١٨ - إِنْ أَقْرَضْتُمُ اللَّهَ تَعَالَى قَرْضًا حَسَنًا، فَسَوْفَ يَضَاعِفُ لَكُمْ أَجْرَهُ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً، وَسَوْفَ تُغْفَرُ سَيِّئَاتُكُمْ بِبِرْكَتِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْظَمُ مَنْ يُقَدَّرُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَهُوَ يُقَدَّرُ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ تَقْدِيرًا صَحِيحًا.

ما المراد بالقرض الحسن؟

المرادُ بِالْقَرْضِ الْحَسَنِ: ذَلِكَ الْقَرْضُ الَّذِي لَا يَتَقَاضَى عَلَيْهِ صَاحِبُهُ فَائِدَةً أَوْ رِبْحًا، عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ: لَوْ أُعْطِيَ أَحَدٌ مُحْتَاجًا قَرْضًا حَسَنًا بِقِيَمَةِ أَلْفِ جُنَيْهِ، فَعَلَى مَنْ أَخَذَ الْقَرْضَ أَنْ يُعِيدَهُ إِلَى مَنْ أَقْرَضَهُ فِي الْوَقْتِ الْمَحْدَدِ، وَالْآنَ تَخِيلُ، إِلَى أَيِّ مَدَى يَكُونُ فَضْلُ اللَّهِ تَعَالَى وَكَرَمُهُ، إِذْ إِنَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْمُسْتَغْنِي، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ، فَهُوَ نَفْسُهُ الَّذِي يُعْطِي الْمَالَ لِلْإِنْسَانِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ أَنْ احْتَفِظْ بِالجزءِ الْأَكْبَرِ مِنَ الْمَالِ لِنَفْسِكَ، وَلَكِنْ أَنْفِقْ جزءًا مِنْهُ لِخَيْرِ الْآخَرِينَ، وَالْفَائِدَةُ هُنَا يَجْنِيهَا بَنُو الْإِنْسَانِ، وَلَكِنْ شَأْنُ كَرَمِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَتَعَهَّدَ بِهِ قَرْضًا حَسَنًا عَلَيْهِ، وَسَيُعِيدُهُ إِلَى الْإِنْسَانِ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ الْإِنْسَانُ فِي أَمْسٍ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ.

(١) تفسير ابن كثير، سورة الحشر (٥٩): الآية ٩.

يقولُ سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «من تصدّقَ بعدلٍ تمرّةً من كَسْبٍ طيّبٍ - ولا يقبلُ اللهُ إلّا الطيّبَ - وإنّ اللهَ يتقبّلُها بيمينه، ثم يُرَبّيها لصاحبه كما يربّي أحدكم فُلُوّه (أي: صدقةً قليلةً) حتّى تكونَ (أي: يومَ القيامة) مثلَ الجبلِ»^(١).

الفقيرُ إلى الله: محمّد إمداد حُسين بيرزاده،

جامعةُ الكرم، إنجلترا

بعد صلاة العصر من يوم الجمعة ١٥ أكتوبر ٢٠١٠م

الموافق ٦ ذي القعدة ١٤٣١هـ.

هذا وقد اكتمل بفضل الله تعالى وكرمه تفسيرُ سورة «التغابن» في يومين فقط، أي: من ١٣ إلى ١٥ أكتوبر، والحمدُ لله ربّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على سيّد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٥) سُورَةُ الطَّلَاقِ

هذه السُّورَةُ مَدَنِيَّةٌ، واسمُها: «الطَّلَاقُ»؛ لأنها ذَكَرَتْ مسائلَ الطَّلَاقِ.

الطلاق

مَرَّ بَيَانُ بَعْضِ مَسَائِلِ الطَّلَاقِ وَالْعِدَّةِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَسُورَةِ النَّسَاءِ وَسُورَةِ الْأَحْزَابِ، وَجَاءَ بَيَانُ بَعْضِ الْمَسَائِلِ الْبَاقِيَةِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ: الطَّلَاقُ يُمْكِنُ إِيقَاعُهُ فِي الْأَيَّامِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا بِالطَّلَاقِ، مِثْلَمَا يَقُولُ سَيِّدُنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الْأُولَى مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ بِأَنْ «لَا يُطَلِّقُهَا وَهِيَ حَائِضٌ، وَلَا فِي طُهْرٍ قَدْ جَامَعَهَا فِيهِ، وَلَكِنْ يَتْرُكُهَا، حَتَّى إِذَا حَاضَتْ وَطُهِرَتْ طَلَّقَهَا تَطْلِيقَةً»^(١).

العدة

جاء في الآية الرابعة من هذه السُّورَةِ بَيَانٌ لِعِدَّةِ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ مِنَ النِّسَاءِ:

- ١ - الْمَرْأَةُ الَّتِي انْقَطَعَ حَيْضُهَا بِسَبَبِ الشَّيْخُوخَةِ، وَعِدَّتُهَا ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ.
- ٢ - الْمَرْأَةُ الَّتِي لَمْ يَأْتِهَا الْمَحِيضُ بَعْدُ لَصِغَرِ سِنِّهَا، وَعِدَّتُهَا ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ أَيْضًا.

(١) تفسیر ابن جریر الطبری، سورة الطلاق (٦٥): الآية ١.

٣ - المرأة الحامل، وعدّتها بالوضع، يعني: في اليوم الذي تَضَعُ فيه حَمْلَهَا، تنتهي عدّتها في هذا اليوم.

الإيمان والعمل الصالح

بعد بيان مسائل الطلاق والعدة جاء التنبيه على المسلمين بأن يحافظوا على حدود الله المقررة، وأن يعتبروا من طغيان الأمم السابقة ومن هلاكهم، وأن يؤمنوا بكل إخلاص من قلوبهم، وأن يعملوا الصالحات حتى يستحقوا الجنة.

قدرة الله تعالى

في الآية الأخيرة من هذه السورة بين الله تعالى قدرته، يعني: أنه خلق الأرض والسماء، وحكم الله تعالى نافذ بينهما، ولا يوجد شيء خارج حكمه، فإذا تأملتم نظام الكائنات هذا تيقنتم من أن الله تعالى قادر على كل شيء، وعلمه محيط بكل شيء.

الفقيه إلى الله: محمد إمداد حسين بيرزاده،

جامعة الكرم، إنجلترا

بعد صلاة الظهر من يوم السبت ١٦ أكتوبر ٢٠١٠م

الموافق ٧ ذي القعدة ١٤٣١هـ.



سُورَةُ الطَّلَاقِ (٦٥)،

مدنية (٩٩)، آياتها (١٢)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ كُم يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَنَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَالَّتِي يَبْسُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾ اسْكُنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارَّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَضَعْنَ لَكُمْ فَنَأَوُّهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَأَتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمَ فَسَرِّضْهُ لهُ أُخْرَى ﴿٦﴾ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾

﴿تَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾

١ - رَغْمَ أَنَّ الْخُطَابَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِلنَّبِيِّ ﷺ، إِلَّا أَنَّ حُكْمَهَا عَامٌّ لِلأُمَّةِ كُلِّهَا، يَعْنِي: يَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، عِنْدَمَا تَقْرُرُونَ بِجِدِّيَةِ التَّطْلِيقِ، فِرَاعُوا عِدَّةَ نِسَائِكُمْ، يَعْنِي: أَنَّ تُطْلِقُوا فِي الْأَيَّامِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِالتَّطْلِيقِ فِيهَا.

أيام التطليق

يَقُولُ سَيِّدُنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ -: «لَا يُطَلِّقُهَا وَهِيَ حَائِضٌ، وَلَا فِي طَهْرٍ قَدْ جَامَعَهَا فِيهِ، وَلَكِنْ يَتْرُكُهَا حَتَّى إِذَا حَاضَتْ وَطَهَّرَتْ طَلَّقَهَا تَطْلِيقَةً»^(١).

وَيَقُولُ سَيِّدُنَا سَالِمٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ سَيِّدَنَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَخْبَرَ «أَنَّهُ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ، فَذَكَرَ عُمَرُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَغَيَّظَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «لِيُرَاجِعْهَا ثُمَّ يُمَسِّكُهَا حَتَّى تَطْهَرَ، ثُمَّ تَحِيضَ فَتَطْهَرَ، فَإِنْ بَدَأَ لَهَا أَنْ يُطَلِّقَهَا فَلْيُطَلِّقْهَا طَاهِرًا قَبْلَ أَنْ يَمَسَّهَا، فَتِلْكَ الْعِدَّةُ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ»^(٢).

عدم التطليق في أيام الحيض

تَقُلُّ رَغْبَةُ الزَّوْجَيْنِ فِي بَعْضِهِمَا أَيَّامَ الْحَيْضِ، فَالرَّجُلُ يَكُونُ مُحَرِّمًا مِنَ الْجَمَاعِ، وَالْمَرْأَةُ لَيْسَتْ فِي طَبِيعَتِهَا الْعَادِيَّةِ، فَإِذَا وَقَعَ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ مُشَادَّةٌ كَلَامِيَّةٌ، فَقَدْ يَصِلُ الْأَمْرُ إِلَى الطَّلَاقِ بِسَهُولَةٍ وَسُرْعَةٍ، وَلِهَذَا يَنْبَغِي لِلرَّجُلِ أَنْ لَا يُطَلِّقَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ، وَإِنَّمَا يَتَطَرَّطُ حَتَّى تَطْهَرَ زَوْجَتُهُ مِنَ الْحَيْضِ، وَمِنْ الْمُمْكِنِ أَنْ يُعِيدَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الزَّوْجَيْنِ تِلْكَ الرَّغْبَةَ وَالْجَاذِبِيَّةَ الطَّبِيعِيَّةَ، وَذَلِكَ الْحِمَاسَ

(١) تفسير ابن جرير الطبري، سورة الطلاق (٦٥)، الآية ١.

(٢) البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الطلاق (١٥): باب ١ برقم ٤٩٠٨.

الذي خَمَدَ أثناءَ أيامِ الحَيْضِ، ويوافقُ الزَّوْجَانِ على البقاءِ معًا، كما أنَّ الطَّلَاقَ لو تَمَّ أيامَ الحَيْضِ فإنَّ هذا الحَيْضَ لا يُعَدُّ ضمنَ فترةِ العِدَّةِ، وإنَّما سيكونُ عليه انتظارُ ثلاثِ حَيْضَاتٍ أُخْرَيَاتٍ، وبذلك تزيْدُ عِدَّةُ المرأةِ، بمعنى: أنَّ عِدَّةَ المرأةِ ستصبحُ أربعَ حَيْضَاتٍ بدلًا من ثلاثٍ خلافًا لحُكْمِ الله تعالى.

التطليق قبل المباشرة في أيام الطهر

لو تَمَّ التطليقُ في طَهْرٍ وَقَعَتْ فيه المباشرةُ، لا يَعْلَمُ أحدُ الزَّوْجَيْنِ هل حَدَثَ الحَمْلُ بهذه المباشرةِ أم لا؟ ومن الممكنِ - فعلاً - أن يكونَ الحَمْلُ قد حَدَثَ، وحينَ يَعْلَمَانِ ذلكَ بعدَ أن يَتَمَّ الطَّلَاقُ يندمان؛ تُرى كيف سيكونُ مستقبلُ هذا الطفلِ؟ ولهذا لا ينبغي للزوج أن يُطْلَقَ في مثلِ هذا الطَّهْرِ الذي جَامَعَ فيه زوجته.

مكانة الطلاق وحيثيته

لو لم يُمكنِ الصُّلْحُ بأيِّ شكلٍ من الأشكالِ بينَ الزَّوْجَيْنِ برغمَ بذلِ الجهودِ المخلصةِ في هذا الإطارِ، فإنَّهما ينفصلانِ بالطَّلَاقِ أو بالخُلْعِ، واللهُ تعالى يتولَّى كلاً منهما، فمنَ الممكنِ جدًّا أن يَجِدَ الزَّوْجُ زوجةً أُخْرَى تُناسِبُهُ، وتَجِدُ الزَّوْجَةُ زوجًا آخَرَ يناسبُها.

- يقولُ سيِّدنا عبدُ الله بنُ عمرَ رضي الله عنهما: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «أَبْغَضُ (الأعمالِ) الحلالِ إلى الله تعالى: الطَّلَاقُ»^(١)، ومعَ ذلكَ فقد أجازَه اللهُ تعالى؛ لأنه في بعضِ الأحيان تكونُ هناكَ ظروفٌ تجعلُ منَ الخيرِ للزَّوْجَيْنِ أن ينفصلا عن بعضِهما.

(١) أبو داود، كتاب الطلاق، باب ٣ برقم ٢١٧٨.

٣١٠ إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

- يقول سيّدنا عليّ رضي الله عنه: إنّ النبي ﷺ قال: «تَزَوَّجُوا وَلَا تُطَلِّقُوا، فَإِنَّ الطَّلَاقَ يَهْتَرُ مِنْهُ الْعَرْشُ»^(١).

- يقول سيّدنا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رضي الله عنه: إنّ النبي ﷺ قال له: «يا مُعَاذُ، مَا خَلَقَ اللَّهُ شَيْئًا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الْعِتَاقِ، وَلَا خَلَقَ اللَّهُ شَيْئًا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَبْغَضَ مِنَ الطَّلَاقِ»^(٢).

حق الطلقات ثلاثاً

لم يكن للطلاق ولا للرجوع فيه في زمن الجاهليّة حدّ معيّن، فالمرأة التي يغضب منها زوجها، كان يُطلقها مراراً، وفي كلّ مرة يُرجعها إليه قبل انتهاء العدة، وهكذا، فلا هو يدعها تعيش في سلام، ولا هو يعطيها حرّيتها، وقد أغلق القرآن الكريم هذا الباب من الظلم، وحدّد حقّ الزوج في التطليق بثلاث مرّات، فيمكن له إرجاع زوجته إلى عصمته بعد أن يطلقها المرة الأولى والمرة الثانية، وهذا وقت كافٍ لكي يُعيد الزوج النظر في قراره، ولكن إن طلقها الثالثة فهذا دليل على أنه لا يريد الاحتفاظ بهذه الزوجة بأيّ صورة من الصّور، ولم يعد من حقّه الرجوع إليها، وفي مثل هذا الموقف الحرج أيضاً يُرشد القرآن الكريم الزوج إلى أن يُحسن معاملته الزوجة عند تطليقها للمرة الأخيرة، فإذا طلقها فلا يستردّها منها ما أعطاه لها من صدّق وهدايا، بل على العكس، إن استطاع قدّم لها المزيد إرضاءً لخاطرِها وتطبيعاً لنفسها.

أقسام الطلاق

الطلاق عند الأحناف ثلاثة أقسام:

(١) تفسير القرطبي، سورة الطلاق (٦٥): الآية ١.

(٢) مشكاة المصابيح، كتاب النكاح، باب الخلع والطلاق برقم ٣٢٩٤.

الطَّلَاقُ الْأَحْسَنُ

وهو: أن يُطَلِّقَ الزَّوْجُ زَوْجَتَهُ فِي طَهْرٍ لَمْ يَقْرَبْهَا فِيهِ، ثُمَّ لَا يُطَلِّقَهَا الثَّانِيَةَ حَتَّى تَنْتَهِيَ عِدَّتُهَا؛ لِأَنَّ النِّكَاحَ يَبْطُلُ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ، وَهَذِهِ هِيَ أَفْضَلُ طَرِيقَةٍ فِي الطَّلَاقِ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ لِلرَّجُلِ حَقُّ الرُّجُوعِ فِي خِلَالِ فِتْرَةِ الْعِدَّةِ، وَبَعْدَ انْتِهَاءِ الْعِدَّةِ يُمْكِنُ أَنْ يَتَزَوَّجَا مِنْ جَدِيدٍ بِالِاتِّفَاقِ فِيمَا بَيْنَهُمَا.

الطَّلَاقُ الْحَسَنُ

وهو: أن يُطَلِّقَ الزَّوْجُ زَوْجَتَهُ فِي طَهْرٍ لَمْ يُبَاشِرْهَا فِيهِ، وَعِنْدَمَا تُمْرُ حَيْضَةٌ يُطَلِّقَهَا الطَّلَاقَ الثَّانِيَةَ دُونَ أَنْ يُبَاشِرْهَا، وَحِينَ تَنْقُضِي الْحَيْضَةَ الثَّانِيَةَ يُطَلِّقَهَا الثَّالِثَةَ دُونَ مُبَاشَرَتِهَا، وَحِينَ تَنْقُضِي الْحَيْضَةَ الثَّالِثَةَ يَبْطُلُ النِّكَاحُ.

وَهَذِهِ الطَّرِيقَةُ فِي الطَّلَاقِ حَسَنَةٌ أَيْضًا؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ مِنْ حَقِّ الرَّجُلِ الرُّجُوعُ فِي الطَّلَاقِ قَبْلَ الطَّلَاقِ الثَّالِثَةِ، وَلَكِنْ بَعْدَ الطَّلَاقِ الثَّالِثَةِ لَا يَسْتَطِيعُ الرَّجُلُ إِعَادَةَ زَوْجَتِهِ إِلَيْهِ، كَمَا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْكِحَهَا كَذَلِكَ، إِلَّا أَنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ يُمْكِنُهَا أَنْ تَتَزَوَّجَ بِرَجُلٍ آخَرَ، وَتَعِيشَ مَعَهُ، وَيُجَامِعَهَا أَيْضًا، فَإِذَا طَلَّقَهَا الزَّوْجُ الثَّانِي بَعْدَ ذَلِكَ بِرَغْبَتِهِ، أَوْ مَاتَ عَنْهَا، يَجُوزُ لَزَوْجِهَا الْأَوَّلِ عِنْدَئِذٍ أَنْ يَنْكِحَهَا، بِشَرْطِ أَنْ يَغْلِبَ عَلَى ظَنِّ كُلِّ مِّنْهُمَا أَنَّهُمَا سَيُؤَدِّيَانِ حَقُوقَ الزَّوْجِيَّةِ كَمَا يَجِبُ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ، أَمَّا إِذَا أَرَادَ شَخْصٌ أَنْ يُحْلَلَ زَوْجَتَهُ الَّتِي طَلَّقَهَا ثَلَاثًا، بَأَن يَزَوَّجَهَا لِشَخْصٍ آخَرَ يَشْتَرِطُ عَلَيْهِ أَنْ يُطَلِّقَهَا بَعْدَ الزَّوْاجِ، فَإِنَّ هَذَا غَيْرُ جَائِزٍ مِنْ أَسَاسِهِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَسْمَحَ بِهِ نَفْسُ إِنْسَانٍ لَدَيْهِ كِرَامَةٌ.

الطَّلَاقُ الْبِدْعِيُّ

وهو: أن يُطَلِّقَ الزَّوْجُ زَوْجَتَهُ فِي طَهْرٍ بِأَشْرَافِهَا فِيهِ، أَوْ أَنْ يُطَلِّقَهَا ثَلَاثًا فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ، أَوْ أَنْ يُطَلِّقَهَا فِي أَيَّامِ الْحَيْضِ، كُلُّ هَذِهِ مِنْ أَشْكَالِ الطَّلَاقِ الْبِدْعِيِّ، وَأَيُّمَا كَانَتْ صُورَةُ الطَّلَاقِ الْبِدْعِيِّ فَإِنَّ الْمَطْلُوقَ مُذْنَبٌ، لَكِنَّ الطَّلَاقَ يَقَعُ.

ملحوظة

الأقسام الثلاثة السابقة من الطلاق (يعني: الطلاق الأحسن والطلاق الحسن والطلاق البدعي) تتعلق بالمرأة التي يأتيها الحيض، وتمت مباشرتها، ولم يظهر لها حمل، لكن المرأة التي توقفت حيضها بسبب الشيخوخة، أو أنّ الحيض لم يأتيها أصلاً بسبب صغر سنّها، فإنه يمكن تطليقها بعد المباشرة أيضاً؛ لأنه ليس لديها إمكانية للحمل، أما المرأة التي لم يباشرها زوجها أصلاً فيمكن تطليقها في أيام الطهر والحيض على السواء، وإذا كانت المرأة حاملاً يمكن تطليقها بعد المباشرة أيضاً؛ لأنه قد تأكد أنها حامل، والطريقة الأفضل لتطليق أمثال هؤلاء النساء هو أن يُطلقها مرة واحدة فقط، ثم تنفصل عنه بعد مضيّ العدة، أما الطريقة الحسنّة لذلك فهي أن يُطلقها مرة بعد كل شهر، وبعد مرور الشهور الثلاثة تنفصل عنه المرأة.

﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾

٢ - المراد بالعدة: تلك الأيام التي تمضيها المرأة بعد طلاق زوجها لها، أو بعد وفاته عنها، وينبغي أن تحصى أيام العدة جيّداً؛ لأن المرأة تستطيع الزواج بآخر بعد انقضاء العدة، بينما يستطيع زوجها إرجاعها إليه خلال الطلقة الأولى والطلقة الثانية، فإذا لم تحفظوا فترة بداية العدة أو انتهائها ولم تتذكروها، فقد يؤدي ذلك إلى تعقيدات في مسألة زواج المرأة بآخر، أو في مسألة رجوعها إلى زوجها خلال الطلقة الأولى والثانية.

مدة العدة

- المرأة التي يأتيها الحيض، وباشرها زوجها، وليست حاملاً، فعدتها ثلاث حيضات.

- إذا طُلِّقَتِ المرأةُ قَبْلَ الْجَمَاعِ أَصْلًا فَلَا عِدَّةَ لَهَا، وَيُمْكِنُهَا أَنْ تَتَزَوَّجَ بآخَرَ وَقَتْمَا تَشَاءُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

- المطلقةُ التي لا يأتِيها الحَيْضُ لَشَيْخُوخَةٍ أَوْ صِغَرٍ سَنٌ عِدَّتُهَا ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ: ﴿وَالَّتِي يَسِّنُّ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِضْ﴾ [الطلاق: ٤].

- لو كانتِ المطلقةُ حَامِلًا فَعِدَّتُهَا وَضَعُ الْحَمْلِ: ﴿وَأُولَئِذَا أَلْمَلْتُمْ أَوْلَاهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤].

- المرأةُ التي مات عنها زَوْجُهَا عِدَّتُهَا أَرْبَعَةُ شُهُورٍ وَعَشْرَةُ أَيَّامٍ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرَبِّضْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وعلى كُلِّ امْرَأَةٍ أَيًّا كانت أن تقضيَ هذه المدةَ حُزْنًا على زَوْجِهَا، ما عدا الحامل، فَإِنَّ عِدَّتَهَا بَوَضْعِ الْحَمْلِ.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾

٣ - هنا تنبيهٌ بصفةٍ خاصَّةٍ للزَّوجِ والزَّوْجَةِ، وهو أن يَتَّقِيَ كُلُّ مَنِهما اللهَ تعالى في أمورِ الطَّلَاقِ والعِدَّةِ، يعني: أن يُطَلِّقُوا بالطَّرِيقَةِ الْأَحْسَنِ أَوِ الْحَسَنَةِ، وأن يُحْضُوا العِدَّةَ بِكُلِّ احتياطٍ وحَذَرٍ، وأَلَّا يَكْذِبَ كُلُّ مَنِهما على الآخرِ في شيءٍ؛ لأنَّهما سَيَمَثُلَانِ - ذاتَ يومٍ من الأيامِ في النِّهَايَةِ - أَمَامَ رَبِّهِمَا، وهو يَعْلَمُ تمامَ العلمِ أَعْمَالَ الجميعِ وأحوالَهُم.

﴿لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾

٤ - هنا أمر للرجال بأن لا يُخرجوا أزواجهنَّ من بيوتهنَّ فورَ تطليقهنَّ، ولا ينبغي للمرأة أن تخرجَ من البيت فورَ الطلاق، وإنما عليها أن تقضيَ عدَّتَها في هذا البيت؛ لأنَّ مسئوليةَ طعامها وشرابها وكسوتها ومسكنها على الزوج، كما أنَّ من الممكن في حالة بقائها في البيت أن تتولَّد المحبةُ في قلبيهما من جديد، فيعودان إلى بعضهما في حالة الطلاق الرجعي، ويرجعُ الزوجُ عن طلاقه، أما إذا كانت المرأة قد خربت بيتها بارتكابها الفاحشة، أو بسلاطة لسانها، فللزَّوج عندئذ الحقُّ في إخراجها من البيت، وبنفس الطريقة، فإنَّ المرأة التي طُلِّقت ثلاثاً ينبغي لها أن تخرجَ من بيت زوجها السابق؛ لأنه لا يجوزُ له الآن مُراجعتها.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾

٥ - الأحكامُ السابقةُ هي تلك الحدودُ التي قرَّرها الله تعالى، ومن يتعدَّى هذه الحدودَ من الزَّوجين فقد ظلمَ نفسه، وسيكونُ من الخاسرين في الدنيا والآخرة، أما الزَّوجان اللذان يُحافظان على حدودِ الله ولا يتعدَّيانها سيُهيئُ الله لهما ظروفاً أفضلَ، يعني: من الممكن - في حالة الطلاق الرجعي - أن يشعرَ كلُّ منهما بخطأه، ويرجعَ الزوجُ عن الطلاق، وبهذا يعمرُ بيتُهما من جديد، وفي حالة الطلاق البائن من الممكن أن يُهيئَ الله لكلِّ منهما رفيقاً أفضلَ من سابقه.

﴿فَإِذَا بَلَغَ الْأَجَلُ مِنْ مَعْرُوفٍ أَوْ فَأَرَقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾

٦ - عندما تقتربُ العدةُ في صورة الطلاق الرجعي من الانقضاء، عليك أن تُعيدَ النظرَ بكلِّ جدِّية فيما قرَّرت، وإذا أردت الاحتفاظَ بزوجتك بنية خالصة فارجع

عن الطَّلَاقِ قَبْلَ انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ، وَوَاصِلًا حَيَاتِكُمَا مَعًا فِي مُحَبَّةٍ مُتَبَادِلَةٍ، أَمَا إِذَا كُنْتَ لَا تَرِيدُ ذَلِكَ فَعَلَيْكُمَا الْانْفِصَالُ بِهَدْوٍ وَمَعْرُوفٍ، وَتَجَنُّبًا لِلْإِسَاءَةِ وَالْمُعَايِرَةِ وَالتَّشْنِيعِ وَالشُّجَارِ وَالْخِصَامِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ، بَلْ عَلَيْكَ إِذَا اسْتَطَعْتَ أَنْ تُعَيِّنَهَا بِبَعْضِ الْمَالِ حَتَّى لَا تُوَاجِهَ مَشَاكِلَ بَعْدَ الْانْفِصَالِ فَافْعَلْ.

﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾

٧ - عِنْدَمَا تُطَلِّقُ زَوْجَتَكَ أَوْ تُرَاجِعُهَا عَلَيْكَ أَنْ تَشْهَدَ فِي الْحَالَتَيْنِ شَاهِدَيْنِ مُعْتَبَرَيْنِ مُوثِقَيْنِ فِي نِزَاهَتِهِمَا، وَرَغْمَ أَنَّ اتِّخَاذَ شَاهِدٍ لَيْسَ فَرَضًا، وَيُمْكِنُ التَّطْلِيقُ وَالْمِرَاجَعَةُ بِغَيْرِ شَهُودٍ كَذَلِكَ، لَكِنَّ اتِّخَاذَ شَاهِدٍ هُوَ الْأَفْضَلُ، حَتَّى إِذَا حَدَثَ اخْتِلَافٌ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ، وَنَتَجَ عَنْهُ نِزَاعٌ، يُمْكِنُ الْفَضْلُ فِي الْأَمْرِ بِسَهُولَةٍ، وَإِذَا مَسَّتِ الْحَاجَةُ إِلَى شَهُودٍ فَعَلَى الشَّهُودِ أَنْ يَتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى، وَأَنْ يَشْهَدُوا شَهَادَةً حَقًّا.

﴿ذَلِكَ لَكُمْ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾

٨ - الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ تَعَالَى وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ، عَلَيْهِ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ دَائِمًا، وَأَنْ يَعْمَلَ بِأَحْكَامِهِ عَزَّ وَجَلَّ مَهْمَا كَانَتِ الصُّعُوبَاتُ فِي ذَلِكَ، فَإِنْ فَعَلَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُهَيِّئُ لَهُ أَسْبَابَ النِّجَاةِ مِنْ هَذِهِ الصُّعُوبَاتِ، وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَكُنْ يَتَصَوَّرُ أَنْ يَأْتِيَهُ الرِّزْقُ مِنْ هُنَاكَ.

- يَقُولُ سَيِّدُنَا أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنِّي لَأَعْرِفُ كَلِمَةً - وَقَالَ عَثْمَانُ: آيَةً - لَوْ أَخَذَ النَّاسُ كُلُّهُمْ بِهَا لَكَفَّتْهُمْ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، آيَةُ آيَةٍ؟ قَالَ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾^(١).

- يقول سيّدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: نزلت في عوف بن مالك الأشجعيّ، أسر المشركون ابنًا له يُسمّى سالمًا، فأتى رسول الله ﷺ وشكا إليه الفاقة وقال: إنّ العدوّ أسر ابني وجزعت الأمّ، فما تأمرني؟ فقال عليه السلام: «أتق الله واصبر، وأمرك وإياها أن تستكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله». فعاد إلى بيته وقال لا مرأته: إنّ رسول الله ﷺ أمرني وإياك أن نستكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله. فقالت: نعم ما أمرنا به. فجعل يقولان، فعفل العدو عن ابنه، فساق غنمهم وجاء بها إلى أبيه، فنزلت الآية^(١).

- يقول سيّدنا جابر رضي الله عنه: إنّ النبي ﷺ قال: «استكثروا من لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها تدفع تسعة وتسعين بابًا من الضرّ، أدناها الهَمُّ»^(٢).

- يقول القاضي ثناء الله باني بتي في تفسير هذه الآية: «اختار المجدد لجلب المنافع ودفع المضارّ: الدنيّة والدنيويّة إكثار لا حول ولا قوة إلا بالله، وعين في مقدار الإكثار أن يقرأها في كلّ يوم خمسمائة مرة ويصلّي على النبي ﷺ - قبله مائة مرة وبعده مائة مرة»^(٣).

﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿

٩ - المؤمن الذي يبذل قصارى جهده في أمر ما، ثم يتوكل على الله في النتائج، فإن الله تعالى حسبه وهو يكفيه، فالله تعالى قادر مطلق، يفعل ما يشاء، ولا يستطيع أحد أن يمنعه من شيء، ولكن كلّ شيء مكتوب ومقدر من قبل في اللوح

(١) تفسير القرطبي، سورة الطلاق (٦٥): الآية ٢.

(٢) الجامع الصغير، الإمام جلال الدين السيوطي، ١: ٦٧.

(٣) التفسير المظهر، سورة الطلاق (٦٥): الآية ٢.

المحفوظ وفي علم الله تعالى، ويظهر في الوقت المحدد له طبقاً لذلك. ولمزيد من التفصيل عن التوكّل على الله تعالى راجع الحاشية رقم ١٣ للآية رقم ١٣ من السورة السابقة، أي: سورة «التغابن».

﴿وَالَّتِي يَسْنَنُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾

١٠ - جاء في هذه الآية ذكر ثلاثة أقسام من النساء:

- ١ - المرأة التي انقطع حيضها بسبب الشيخوخة، وعدتها ثلاثة أشهر.
- ٢ - المرأة التي لم يأتها المَحِيضُ بعدُ لِصِغَرِ سِنِّهَا، وعدتها ثلاثة أشهر أيضاً.
- ٣ - المرأة الحامل، وعدتها بالوَضْع، يعني في اليوم الذي تَضَعُ فيه حَمْلَهَا، تنتهي عدتها في هذا اليوم.

﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ، وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾

- ١١ - من يتَّقِ الله تعالى، ويُواصِلِ الْعَمَلَ بِأَحْكَامِهِ رَغْمَ مُوَاجَهَتِهِ الصُّعُوبَاتِ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَهَيِّئُ لَهُ أَسْبَابَ التَّيْسِيرِ فِي أُمُورِهِ، وَيَمْحُو سَيِّئَاتِهِ، وَيُضَاعِفُ ثَوَابَ حَسَنَاتِهِ.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا نَضَازُوهْنَ لِنُضِيقُوا عَلَيْهِنَّ﴾

- ١٢ - عِنْدَ الْأَحْنَافِ تَقَعُ مَسْئُولِيَّةُ طَعَامٍ وَشَرَابٍ وَكُسُوةٍ كُلِّ امْرَأَةٍ فِي فِتْرَةِ الْعِدَّةِ عَلَى الزَّوْجِ، أَمَّا الْمَرْأَةُ الَّتِي تَقْضِي عِدَّةَ طَلَاقٍ رَجْعِيٍّ، فَيَنْبَغِي لِلزَّوْجِ أَنْ يُبْقِيَ عَلَيْهَا فِي بَيْتِهِ، وَأَنْ لَا يَتَعَمَّدَ إِيْدَاءَهَا بَنِيَّةً أَنْ تَضِيقَ ذُرْعًا بِالْوَضْعِ وَتَتْرِكَ الْبَيْتَ مُضْطَرَّةً، إِذْ

إنَّ من الممكن - بفضل البقاء معاً في فترة العِدَّة هذه - أن يَتَوَرَّ بداخلهما الحماسُ الطبيعيُّ لمُواصلة الحياة، فيَنفِقا على الرُّجوع، ويعُمِّرا البيتَ الذي كان في طريقه إلى الخرابِ من جديدٍ، أمَّا المرأةُ التي طُلِّقت ثلاثاً، فقد أصبحت مُراجعتها غيرَ ممكنة، ولذلك ينبغي للزوج في مثل هذه الحالة أن يُدبِّرَ لها مسكناً مناسباً منفصلاً حسبَ استطاعته؛ لأنه إذا ثار بداخلهما الحماسُ الطبيعيُّ للحياة، فإنَّ الشريعةَ لا تسمَحُ لهما بالمباشرة.

﴿وَأِنْ كُنْ أُولَتْ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَمْرُهُمْ بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمَ فَمَسْئُورٌ لَّكُمْ أُخْرَى﴾

١٣ - عِدَّةُ المرأةِ الحاملِ: بوضع الحمل، ولهذا فإنَّ مسكناً وكسوةً وطعاماً وشراباً مثل هذه المرأة - حتى وضع الحمل - يكونُ على الرَّجل، وحين يولدُ الطُّفلُ تكونُ مسئوليَّةُ إرضاعه وتربيته على الأب، وبانقضاء العِدَّة لا تبقى أُمُّ الطُّفل في عصمته، وتصبُحُ أجنبيَّةً عنه، وبالتالي لا يستطيعُ أبو الطُّفل إجبارَ أمِّه على إرضاعه، فإذا رَضِيَتْ بإرضاع الطُّفل فعلى الرَّجل أن يؤدِّيَ لها أجرًا مناسباً على ذلك طبقاً لاستطاعته، وعلى المرأة ألا تطالبه بأكثر من طاقته، ولهذا ينبغي لهما أن يحدِّدا هذا الأجرَ المناسبَ بالتشاورِ معاً، فإذا لم يمكن الاتفاقُ فيما بينهما على الأجر، يمكنُ للرجل أن يَسْتَأْجِرَ امرأةً أخرى لإرضاع الطُّفل.

﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا آتَاهَا﴾

١٤ - على الرَّجلِ إن كان مُوسِراً أن يُعطيَ أجرَ الإرضاع بكرمٍ وسخاء، أمَّا إن كان مُعسِراً فعليه أن يُنْفِقَ طبقاً لاستطاعته، والله تعالى لا يُكَلِّفُ نفساً إلّا وُسْعَهَا.

﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾

١٥ - لا ينبغي للشخص المعسر أن يئأس أو يُصيبه إحباط، وإنما عليه أن يواصل جهوده باستقامة، وأن يأمل من الله تعالى أن يُنعم عليه بسعة في رزقه.

وَكَاثِنٍ مِّن قَرِيَةٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَهَا حَسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَهَا عَذَابًا ثَقِيرًا ﴿٨﴾
فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ
الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّخُرَاجِ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ
مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِلْعَمَلِ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾

﴿وَكَاثِنٍ مِّن قَرِيَةٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾

١٦ - في هذه الآيات تنبيه للمسلمين بأن الأمم التي أعرضت عن أحكام الله تعالى وأحكام رسوله وتمردت عليها ولم ترجع عن الكفر والشرك والظلم والطغيان، عاقبها الله تعالى عقاباً شديداً، وكان مصيرها مُرعباً ومُخيفاً، بحيث أنهم لم ينالوا غير الخسارة والندم، وكان هذا مصيرهم في الدنيا، أما في الآخرة فينتظرهم العذاب الأليم.

﴿رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾

١٧ - على أهل الإيمان أن يعتبروا من الخسارة التي لحقت بالأقوام السابقة التي تمردت على رسلها وأعرضت عنهم، فقد أرسل الله تعالى إليكم رسولاً

٣٢٠ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

مُخْلَصًا لَكُمْ، يَنْصَحُكُمْ وَيَعْظُمُكُمْ، وَيَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، حَتَّى يُخْرِجَكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ وَالظُّلْمِ إِلَى نُورِ الْإِيمَانِ وَالسَّلَامِ، وَلِهَذَا عَلَيْكُمْ أَنْ تَتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى، وَتُؤْمِنُوا - بِصِدْقٍ - مِنْ قُلُوبِكُمْ، وَتَعْمَلُوا الصَّالِحَاتِ، وَسَوْفَ يُدْخِلُكُمْ اللَّهُ تَعَالَى فِي مَقَابِلِ هَذَا جَنَاتٍ خَالِدَةٍ، وَهَذَا أَفْضَلُ رِزْقٍ لِلْمُؤْمِنِ وَخَيْرُ أَنْعَامٍ لَهُ.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾

١٨ - مِثْلَمَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى السَّمَاوَاتِ، خَلَقَ الْأَرْضَ كَذَلِكَ، وَحُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى نَافِذٌ فِيمَا بَيْنَهُمَا، وَلَا يُوَجَدُ شَيْءٌ خَارِجٌ حُكْمِهِ، وَلِئِنْ تَدَبَّرْتُمْ نِظَامَ الْكَائِنَاتِ هَذَا لَتَيَقْنَنَّ مِنْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَعِلْمُهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ.

الفقيه إلى الله: محمد إمداد حسين بيرزاده،

جامعة الكرم، إنجلترا

بعد فجر يوم الأربعاء ٢٠ أكتوبر ٢٠١٠ م

الموافق ١١ ذي القعدة ١٤٣١ هـ.

هذا وقد اكتمل بفضل الله تعالى وكرمه تفسير سورة «الطلاق» في أربعة أيام فقط، أي: من ١٦ إلى ٢٠ أكتوبر، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٦) سُورَةُ التَّحْرِيمِ

هذه السُّورَةُ مَدَنِيَّةٌ، واسمُها: «التَّحْرِيمُ»، وهو مأخوذٌ من جُمْلَةٍ ﴿لَمْ تَحْرَمُوا﴾ من الآية الأولى منها.

الحث في القسم

جاء في بداية هذه السُّورَةِ الإخبارُ بأنه لو أقسم أحدٌ على عَدَمِ تناولِ طعامٍ حلالٍ، فعليه أن يحثَّ في قَسَمِهِ هذا، يعني: أن يأكلَ ما قد أقسم على عَدَمِ أَكْلِهِ، ثم يؤدي الكفَّارةَ.

الأزواج المطهرات رضي الله عنهن

في الآية الثالثة والرابعة والخامسة من هذه السُّورَةِ تعلِيمُ الأدبِ لأزواجِ النبي ﷺ المطهَّراتِ، بأنكنَّ سَعْدَاءُ الطَّالِعِ، إِذْ مَنَحَنَّ اللهُ تَعَالَى شَرَفَ أَنْ تَكُنَّ زَوَاجَاتِ سَيِّدِ كُلِّ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وبالتالي فإنَّ هذا الشَّرَفَ الْعَظِيمَ يَقْتَضِي مِنْكُنَّ أَنْ لَا تُقَصِّرْنَ مطلقًا في الحصولِ على رِضَى رَسولِ اللهِ ﷺ، ولو حَدَثَ مِنْكُنَّ تَقْصِيرٌ في هذا الْخُصُوصِ يَجْعَلُ النَّبِيَّ ﷺ يَحْرِمُكُنَّ مِنْ شَرَفِ كَوْنِكُنَّ زَوَاجَاتِهِ، فَإِنَّ في هذا خَسَارَةً عَظِيمَةً لَكُنَّ، أَمَّا النَّبِيُّ ﷺ فَسَيَنْعِمُ اللهُ تَعَالَى

٣٢٢ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

عليه بزوجاتٍ أفضلَ منكُنَّ. ورَغِمَ أَنْ زوجاتِ النبي ﷺ أفضلُ من كلِّ نساءِ العالم، لكن لو طلقهنَّ النبي ﷺ - معاذَ الله - بسببِ إغصابهنَّ له، وتزوَّجَ غيرهنَّ، لكانت هذه الزوجاتُ الأخرياتُ أفضلَ من السابقات^(١).

اتقوا النار

في الآية السادسة من هذه السورة جاء الحُكْمُ لأهل الإيمانِ أَنْ جَنَّبُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ وَأَطْفَالَكُمْ وزوجاتكم النارَ، وأنقذوهم منها، وعندما نزلت هذه الآية قال سيّدنا عُمَرُ رضي الله عنه، لرسولِ الله ﷺ: يا رسولَ الله، نَقِيَ أَنْفُسَنَا، فكيف لنا بأهلينا؟ فقال: «تَنْهَوْنَهُمْ عَمَّا نَهَاكُمُ اللهُ، وتأْمُرُوهُمْ بما أَمَرَ اللهُ»^(٢).

توبوا إلى الله

جاء في الآية رقم ٨ من السورة بيانٌ لأهميّة التوبةِ وفَضْلِهَا.

- يقولُ سيّدنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: إِنَّ النبي ﷺ قال: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ»^(٣).

مثال النساء المؤمنات والكافرات

في نهاية هذه السورة جاء مثالٌ لامرأتينِ أقامتا على الكُفْرِ رَغِمَ أَنْ زوجيهما كانا نبيّين، كما جاء مثالٌ لامرأتينِ مؤمنتينِ ثبّتتا على الإيمانِ رَغِمَ ما واجههما من مصاعبٍ ومُشكلاتٍ، وعن طريقِ هذه الأمثلةِ يكونُ ترغيبُ أهلِ الإيمانِ

(١) تفسير نور العرفان.

(٢) تفسير القرطبي، الآية ٦.

(٣) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ٣٠ برقم ٤٢٥٠.

من النساء بأن يثبتن على إيمانهن، وعندما يواجهن مشكلات عليهن أن يتذكرن
المشكلات التي واجهت السيدة آسية من قبلهن.

الفقيه إلى الله: محمد إمداد حسين بيرزاده،

جامعة الكرم، إنجلترا

بعد صلاة المغرب من يوم الأربعاء ٢٠ أكتوبر ٢٠١٠م

الموافق ١١ ذي القعدة ١٤٣١هـ.



سُورَةُ النَّحْلِ (٦٦)،

مدنية (١٠٧)، آياتها (١٢)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْلَغِي مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ. وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِنْ نُبَوَّأَ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةِ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَنَاطَاتٍ تَزِينْنَ لِنَفْسِكُنَّ سِجْنَاتٍ سَحَابَاتٍ وَأَنْبَكَارًا ﴿٥﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفُسُكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْنَدُزُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْلَغِي مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

١ - ما هو الشيء الذي منع النبي ﷺ نفسه من تناوله، وكان سبباً في نزول هذه الآية؟ هناك روايتان تُذكران في هذا الشأن، وأنا هنا أذكر الرواية التي رأى العلامة القرطبي أنها الراجحة والأقرب إلى الصحة، وهذه الرواية مذكورة في كتب الأحاديث مع اختلاف في الألفاظ، وخلصتها أن النبي ﷺ كان معتاداً على أن

يذهب إلى حُجرات زوجاته بعد صلاة العصر، ويسأل عن أخبارهم وهو واقف.

تقول السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: إن النبي ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلاً (وهكذا كان ﷺ يمكث عند السيدة زينب رضي الله عنها وقتاً أطول، وكانت نساء النبي ﷺ جميعاً يحببته كثيراً، وكلما زادت المحبة زادت معها الغيرة)، قالت: فتواطأت أنا وحفصة أن آتيننا ما دخل عليها رسول الله ﷺ فلتقل: إني أجد منك ريح مغافير! أكلت مغافير؟ (والمغافير: عسل يخرج من شجرة معينة وله رائحة كريهة)^(١)، فدخل على إحدهما فقالت له ذلك. فقال: «بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود له». فنزل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ نُبَوَّأ﴾ (أي: لعائشة وحفصة)، و﴿وَإِذَا سَأَرْتَنِي إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِّثْنَا﴾ لقوله: «بل شربت عسلاً».

وعنها أيضاً، قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل، فكان إذا صلى العصر دار على نسائه فيدنو منهن، فدخل على حفصة فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس، فسألت عن ذلك فقيل لي: أهدت لها امرأة من قومها عكة من عسل، فسقت رسول الله ﷺ منه شربة. فقلت: أما والله لنتحالن له، فذكرت ذلك لسودة وقلت: إذا دخل عليك فإنه سيدنو منك فقولي له: يا رسول الله، أكلت مغافير؟ فإنه سيقول لك: لا. فقولي له: ما هذه الريح؟ - وكان رسول الله ﷺ يشتد عليه أن يوجد منه الريح - فإنه سيقول لك: سقتني حفصة شربة عسل. فقولي له: جرسنت نحله العرُفط^(٢). وسأقول ذلك له، وقوليه أنت يا صفية. فلما دخل على سودة، قالت: تقول سودة: والله الذي لا إله إلا هو، لقد كدث أن أبادته بالذي قلت لي، وإنه لعلی

(١) مفردة مغفور، بالضم. مسند أحمد (الحاشية).

(٢) جرسنت: أكلت. والعرُفط، بضم العين وسكون الراء وضم الفاء: شجر له صمغ كريه الرائحة، فإذا أكلته النحلة حصل في عسلها من ريحه. مسند أحمد (الحاشية).

الباب، فَرَقًا مِنْكَ. فَلَمَّا دَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكَلْتَ مَغَافِيرَ؟ قَالَ: «لَا»، قَالَتْ: فَمَا هَذِهِ الرِّيحُ؟ قَالَ: «سَقَنْتَنِي حَفْصَةُ شَرْبَةً عَسَل»، قَالَتْ: جَرَسَتْ نَحْلَهُ الْعُرْفُطَ. فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيَّ قُلْتُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ. ثُمَّ دَخَلَ عَلَيَّ صَفِيَّةٌ فَقَالَتْ بِمِثْلِ ذَلِكَ. فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيَّ حَفْصَةُ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا أَسْقِيكَ مِنْهُ؟ قَالَ: «لَا حَاجَةَ لِي بِهِ» قَالَتْ: تَقُولُ سَوْدَةُ: سُبْحَانَ اللَّهِ! وَاللَّهِ لَقَدْ حَرَمْنَاهُ. قَالَتْ: قُلْتُ لَهَا: اسْكُتِي^(١).

وهكذا، أَقْسَمَ النَّبِيُّ ﷺ أَلَّا يَتَنَاوَلَ الْعَسَلَ فِيمَا بَعْدَ إِرْضَاءِ لَزَوْجَاتِهِ، وَأَكَّدَ عَلَى السَّيِّدَةِ حَفْصَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَلَّا تُخْبِرَ أَحَدًا بِذَلِكَ؛ لِأَن فِيهِ إِيْذَاءٌ لِمَشَاعِرِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، لَكِنَّ السَّيِّدَةَ حَفْصَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَخْبَرَتِ السَّيِّدَةَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِالْأَمْرِ، وَأَطْلَعَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ عَلَى الْأَمْرِ كُلِّهِ، فَتَرَلَّتْ هَذِهِ الْآيَاتُ.

والْحَقِيقَةُ أَنَّ الْإِعْتِقَادَ بِحُرْمَةِ شَيْءٍ حَلَالٍ يُعَدُّ ذَنْبًا كَبِيرًا فِي الْإِسْلَامِ، بَلْ وَيُعَدُّ كُفْرًا كَذَلِكَ، وَمِنْ غَيْرِ الْمُمْكِنِ وَقُوعُ مِثْلِ هَذَا الْأَمْرِ مِنْ أَيِّ نَبِيٍّ؛ لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ جَمِيعًا عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مَعْصُومُونَ مِنَ الذُّنُوبِ، أَمَّا إِذَا حَدَّثَ تَجَنَّبَ لاسْتِعْمَالِ شَيْءٍ مَا إِرْضَاءً لِأَحَدٍ أَوْ تَطْيِيبًا لِخَاطِرِهِ، فَلَا يُعَدُّ ذَنْبًا، بَلْ عَلَى الْأَكْثَرِ هُوَ خِلَافُ الْأَوَّلَى، لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرَادَ أَلَّا يَقَعَ مِنْهُ ﷺ مَا هُوَ خِلَافُ الْأَوَّلَى أَيْضًا؛ لِأَنَّ فِعْلَ مَا هُوَ خِلَافُ الْأَوَّلَى لَمْ يَكُنْ مَنَاسِبًا لِمَقَامِ النَّبِيِّ ﷺ الرَّفِيعِ، وَلِهَذَا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَشَارَ إِلَى هَذَا وَقَالَ لَهُ: لَا دَاعِيَ لِلتَّفَكُّرِ وَالْإِنْزِعَاجِ، فَأَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَقَدْ عَفَوْنَا عَمَّا وَقَعَ مِنْكَ مِمَّا هُوَ خِلَافُ الْأَوَّلَى.

﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾

٢ - لو أَقْسَمَ شَخْصٌ عَلَى أَلَّا يَأْكُلَ شَيْئًا مَا حَلَالًا، فَعَلِيهِ أَنْ يَحْنَثَ فِي قَسَمِهِ هَذَا، وَيُؤَدِّيَ الْكَفَّارَةَ.

(١) تفسير القرطبي، سورة التحريم (٦٦): الآية ١. والخبر في الصحيحين، البخاري، برقم ٥٢٦٨، ٦٩٧٢، ومسلم، برقم ١٤٧٤.

الصور المختلفة للكفارة

- ١ - إطعام عشرة مساكين من أوسط أنواع الطعام الذي نُطعمُ منه أهلينا.
 - ٢ - كسوة عشرة مساكين، وهناك اختلاف فيما يتعلق بالكسوة؛ كيف تكون وكم تكون؟ وعندي، أنّ هذه أيضًا مثلُ الطعام، ينبغي أن تكون من أوسط أنواع القماش الذي نكسو منه أهلينا.
 - ٣ - عتق رقبة، وهو أمرٌ لا يمكن تحقيقه في زماننا هذا؛ لأنّ الرّق قد انتهى من الوجود تدريجيًا ببركة المبادئ الإسلامية. ولمزيد من التفصيل عن هذا الأمر راجع الحاشية رقم ٧ للآية رقم ٣ من سورة النساء.
 - ٤ - إذا لم يستطع الشخصُ تنفيذَ أيِّ واحدةٍ من الصّور الثلاث السابقة فعليه أن يصومَ ثلاثة أيام متتابعة، وهذه هي كفّارته.
- ماذا نقولُ في شأنِ كرمِ الله تعالى وجوده، فالعبدُ يُذنبُ، ويلوّثُ صحيفةَ أعماله، لكنّ الله تعالى يَسْتُرُ هذا باقتراحٍ لطيفٍ منه، يختفي معه جرُمُ العبد، وفي نفسِ الوقت يحظى بدُعاء المساكين الذين سيوفّرُ لهم الطّعام والكسوة على ما يفعلُه معهم، وفي حالة الصّوم يستفيدُ من بركاتِ الصّوم، مثلما يقولُ سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه، من أنه سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يقول: «... فوالَّذي نفسُ محمّدٍ بيده، لخَلْفَةُ فَمِ الصّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ»^(١). سبحانَ الله! فالعبدُ تُغْفَرُ ذنوبُه من جانب، ومن جانبٍ آخرٍ يصبحُ خُلوفُ فَمِهِ سببًا في قُرْبِهِ مِنَ اللَّهِ وَمِنْ رِضاه، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

﴿وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾

٣ - قال النبي الكريم ﷺ للسيدة حفصة رضي الله عنها: إنه لن يتناول العسل عند السيدة زينب رضي الله عنها ثانية، وأكد عليها في نفس الوقت أن هذا الكلام سرٌّ، ولا ينبغي أن تُخبر به أحدًا؛ لأنَّ فيه إيذاءً لمشاعر السيدة زينب رضي الله عنها، لكنَّ السيدة حفصة أخبرت السيدة عائشة رضي الله عنهما بهذا السرِّ، وعندما أخبر النبي ﷺ السيدة حفصة رضي الله عنها ببعض ما قالته للسيدة عائشة رضي الله عنها قائلاً: لماذا أفسيت السرِّ؟ أصابتها دهشة عظيمة، إذ إنها لم تُخبر سوى السيدة عائشة رضي الله عنها بالأمر، والسيدة عائشة رضي الله عنها لا يمكن أن تُخبر أحدًا آخر به؛ لأنَّ الأمر كان بالاتِّفاق معها من البداية، ولهذا قالت السيدة حفصة رضي الله عنها للنبي ﷺ: مَنْ أَخْبَرَكَ بِذَلِكَ؟ فقال ﷺ: أَخْبَرَنِي اللَّهُ تَعَالَى الَّذِي يَعْلَمُ تَمَامَ الْعِلْمِ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ. وَيُعْلَمُ مِنْهُ أَنَّ الْوَحْيَ كَانَ يَنْزِلُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي أُمُورٍ أُخْرَى بِالإِضَافَةِ إِلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَهُوَ مَا نُسَمِّيهِ «الْحَدِيثَ النَّبَوِيَّ»، وَمُنْكَرُ الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْهَمَ الْمَقْصِدَ الصَّحِيحَ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

﴿إِنْ نُوَبِّأُ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾

٤ - الْخِطَابُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِلْسَيِّدَةِ عَائِشَةَ وَالْسَيِّدَةِ حَفْصَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا، بِأَنَّهُ رَغِمَ أَنَّ مَحَبَّةَ النَّبِيِّ ﷺ فَرَضٌ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ، إِلَّا أَنَّ قَلْبَيْكُمَا قَدْ مَالَ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنَ النَّوَاحِي، فَلَمْ تَسْتَطِيعَا أَنْ تَرْعِيَا مَا يُحِبُّهُ النَّبِيُّ ﷺ، وَخَلَقْتُمُ ظُرُوفًا بِالتَّشَاوُرِ فِيمَا بَيْنَكُمَا تَأْذَى مِنْهَا النَّبِيُّ ﷺ، وَلِهَذَا عَلَيْكُمَا أَنْ تُتَوَبَّا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِأَنْ لَا

تفعلاً مستقبلاً ما قد يؤذي النبي ﷺ، وهذا هو الخيرُ لكم، وتذكراً أنكما إن لم تتوبا وتُرضيا رسولَ الله ﷺ، فإنَّ هذا لن يضرَّ النبي ﷺ في شيء؛ لأنَّ الله تعالى هو مَوْلَاهُ ومُدبِّرُ أمرِهِ، وجبريلُ الأمينُ والصالحون من المؤمنين والملائكة كلُّهم ينصرونه، ومن كان ناصرَه الله تعالى والملائكة والمؤمنون، لا يمكنُ أن يضرَّه أحدٌ بشيء.

﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنْ﴾

٥ - في هذه الآية تعليمُ الأدبِ لأزواجِ النبي ﷺ المطهَّرات، بأنَّكنَّ سعيداتُ الطَّالع، إذ مَنَحَكُنَّ اللهُ تعالى شرفَ أن تَكُنَّ زوجاتِ سيِّدِ كلِّ الأنبياء السابقين عليهم السَّلام، وبالتالي فإنَّ هذا الشرفَ العظيمَ يقتضي منكنَّ أن لا تُقَصِّرْنَ مطلقاً في الحصولِ على رضى رسولِ الله ﷺ، ولو حَدَثَ منكنَّ تقصيرٌ في هذا الخصوصِ يجعلُ النبي ﷺ يحرمُكنَّ من شرفِ كونِكُنَّ زوجاته، فإنَّ في هذا خسارةً عظيمةً لَكُنَّ، أمَّا النبي ﷺ فسيُنْعِمُ اللهُ تعالى عليه بزواجٍ أفضلَ منكنَّ. ورَغِمَ أنَّ زوجاتِ النبي ﷺ أفضلُ من كلِّ نساءِ العالم، لكنَّ لو طَلَّقَهُنَّ النبي ﷺ (معاذَ الله) بسببِ إغصابهنَّ له، وتزوَّجَ غيرهنَّ، لكانت هذه الزَّوجاتُ الأخرياتُ أفضلَ من السابقات^(١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾

٦ - في هذه الآية حُكْمٌ لأهلِ الإيمانِ أن يُنْقِذُوا أَنْفُسَهُمْ وأولادَهُم وزوجاتهم من نارِ جهنَّم.

- عندما نزلت هذه الآية قال سيِّدُنا عمرُ رضي اللهُ عنه لرسولِ الله ﷺ: يا رسولَ الله، نَقِي أَنْفُسَنَا، فكيف لنا بأهْلِينَا؟ فقال: «تَنْهَوْنَهُمْ عَمَّا نَهَاكُم اللهُ وتَأْمُرُونَهُمْ بِمَا أَمَرَ اللهُ»^(٢).

(١) تفسير نور العرفان.

(٢) تفسير القرطبي، الآية ٦.

- يقول سيّدنا عليّ رضي الله عنه في تفسير هذه الآية: «قُوا أَنْفُسَكُمْ: بأفعالكم، وقوا أهليكم: بوَصِيَّتكم»^(١).

- نَقَلَ العلامةُ القُرطبيُّ هذا القولَ للّكيا: «فعلينا تعلِيمُ أولادِنَا وأهليِنَا الدِّينَ والخيرَ، وما لا يُستغنى عنه من الأدب»^(٢).

بعض الأحاديث النبوية عن إصلاح الأم والأب

- يقول سيّدنا عبدُ الله بن عُمرَ رضي الله عنهما: إنه سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يقولُ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الإمامُ رَاعٍ ومَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، والرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وهو مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، والمرأةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا ومَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، والخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ ومَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ - قال: وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ - والرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ ومَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وكُلُّكُمْ رَاعٍ ومَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»^(٣).

- تقولُ السيِّدةُ عائشةُ: كان رسولُ الله ﷺ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ، فإذا أَوْتَرَ قال: «قومي فأوترِي يا عائشة»^(٤).

- يقولُ سيّدنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «رَحِمَ اللهُ رَجُلًا قامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى وأَيَقَظَ امرأَتَهُ (أي: للصَّلاة) فَإِنْ أَبَتْ (أي: لم تَنهَضْ) نَضَحَ فِي وَجْهِهَا المَاءَ، رَحِمَ اللهُ امرأَةً قامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ وأَيَقَظَتْ زَوْجَهَا، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ المَاءَ»^(٥).

(١) تفسير القرطبي.

(٢) المرجع السابق.

(٣) البخاري، كتاب الجمعة، باب ١١ برقم ٨٩٣.

(٤) مسلم، صلاة المسافرين، باب ١٧ برقم ١٧٣٤.

(٥) أبو داود، كتاب التطوع، باب ١٨ برقم ١٣٠٨.

- يقول سيّدنا أبو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ وسيّدنا أبو هريرة رضي الله عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إِذَا أَيْقَظَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلِّ أَوْ صَلِّ رَكَعَتَيْنِ جَمِيعًا كُتِبَا فِي الذَّاكِرِينَ وَالذَّاكِرَاتِ»^(١).

تعليم الأولاد وتربيتهم

- يروي سيّدنا عَمْرُو بْنُ شُعَيْبٍ رضي الله عنه، عن أبيه عن جدّه، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرِ سِنِينَ، وَفَرَّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ»^(٢).

- يقول سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ (أي: على الإسلام)، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»^(٣).

- يروي سيّدنا أيوبُ بْنُ مُوسَى رضي الله عنه، عن أبيه، عن جدّه، أنّ النبي ﷺ قال: «مَا نَحَلَ وَالِدٌ وَلَدًا مِنْ نَحْلٍ أَفْضَلَ مِنْ أَدَبٍ حَسَنٍ»^(٤).

- يقول سيّدنا عبدُ الله بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: إنّ النبي ﷺ قال: «مَنْ كَانَتْ لَهُ بِنْتُ فَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، وَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا، وَأَسْبَغَ عَلَيْهَا مِنْ نِعَمِ اللَّهِ الَّتِي أُسْبِغَ عَلَيْهِ، كَانَتْ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ»^(٥).

- يقول سيّدنا عبدُ الله بْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال:

(١) أبو داود، كتاب التطوع، باب ١٨ برقم ١٣٠٩.

(٢) أبو داود، كتاب الصلاة، باب ٢٦ برقم ٤٩٥.

(٣) البخاري، كتاب الجنائز، باب ٨٠ برقم ١٣٥٩.

(٤) الترمذي، أبواب البر، باب ٣٣ برقم ١٩٥٢.

(٥) حلية الأولياء، ٥: ٦٧ برقم ٦٣٤٨، وكنز العمال، ١٦: ٤٥٢ برقم ٤٥٣٩١.

«افْتَحُوا عَلَى صِبْيَانِكُمْ أَوَّلَ كَلِمَةٍ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَقُتْنُوهُمْ عِنْدَ الْمَوْتِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنَّهُ مَنْ كَانَ أَوَّلَ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَآخِرَ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ثُمَّ عَاشَ أَلْفَ سَنَةٍ، مَا سُئِلَ عَنْ ذَنْبٍ وَاحِدٍ»^(١).

﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظُ شِدَادٍ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾

٧ - الملائكة المقررون على نار جهنم أصحاب طبيعة قاسية، لا يمكن أن يؤثروا فيهم ضراخ أحدٍ أو عويله ونحيبه، كما أنهم أقوياء للغاية أيضا، فلا يمكن لأحد أن يفلت من قبضتهم، والملائكة جميعا ملتزمون بأمر الله تعالى، ولا يمكن لهم أن يعصوه.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا نَعْنَدِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

٨ - عندما يرى الكفار عاقبتهم السيئة يوم القيامة سيحاولون اختلاق الأعذار، وعندها سيقال لهم بكل وضوح: إنكم قد طغيتم في الدنيا، ولهذا لا مجال لأي اعتذار هنا الآن، وفي نفس الوقت لن تظلموا، وإنما ستعاقبون فقط على أفعالكم القبيحة التي كنتم ترتكبونها.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ. نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا

٣٣٤ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا ذِكْرٌ وَإِسْمٌ ﴿١٢﴾

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾

٩ - عندما يعصي الله أحدٌ سواءً كان عامداً أم لا، فإنه ما إن يشعر بتقصيره حتى يتوب؛ لأن كثرة الذنوب تصيب الإنسان باليأس، وتدفعه إلى الانتحار، أو إلى سلوك طريق الظلم والعدوان، بينما بالتوبة ينال الإنسان رضا الله تعالى وسكينة القلب، وهكذا ينسى الإنسان ذنوبه ويبدأ صفحة جديدة من حياته، كما أن ارتكاب الذنب والإصرار عليه بعد ذلك وعدم التوبة منه إنما هو من صفات الشيطان، أما ارتكاب الذنب والندم عليه بعد ذلك والتوبة منه فهو سنة من سنن سيدنا آدم عليه السلام، ولهذا ينبغي للإنسان أن ينجو بنفسه من حماقة الشيطان، وأن يعمل بسنة سيدنا آدم عليه السلام.

تعريف التوبة

المراد بالتوبة في الإسلام: أن يتخلّى الإنسان عن طريق السوء، مُراعياً الشروط

التالية:

١ - أن يعترف الإنسان بالذنب، ويطلب العفو والمغفرة من الله تعالى، وأن يندم على ارتكابه الذنب، بمعنى: أنه ظلم نفسه بمعصيته لله تعالى، وأنه ما كان ينبغي له أن يفعل هذا.

٢ - أن يترك الذنب فوراً، ويعزم عزمًا قويًا على عدم ارتكابه ثانيةً.

٣ - إن كان الذنب الذي ارتكبه يتعلق بحقوق العباد، فعليه أن يرد المظلمة إلى من ظلمه، وأن يطلب منه العفو، وإذا كان التقصير حدث في الصلاة والصوم والزكاة وغيرها فعليه أن يتدبر أمر تدارك كل هذا حسب استطاعته.

فضل التوبة

- عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»^(١).

- عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ثم تبتم لتاب عليكم»^(٢).

- عن عبد الله رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»^(٣).

- عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا أيها الناس، توبوا إلى الله، فإني أتوب في اليوم مائة مرة»^(٤).

- عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا تاب العبد من ذنوبه أنسى الله عز وجل حَقَطَتَه ذنوبه، وأنسى ذلك جوارحه ومعالمه من الأرض حتى يلقي الله يوم القيامة وليس عليه شاهد من الله بذنب»^(٥).

(١) الترمذي، صفة القيامة، باب ٤٩ برقم ٢٤٩٩.

(٢) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ٣٠ برقم ٤٢٤٨.

(٣) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ٣٠ برقم ٤٢٥٠.

(٤) مسلم، كتاب الذكر، باب ١٢ برقم ٦٨٥٩.

(٥) الترغيب والترهيب، كتاب التوبة، ٤: ٩٤.

وَحِينَ تَنْصَبُ الْعِدَالَةُ يَوْمَ الْحَشْرِ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ وَالْجَوَارِحَ وَالْأَرْضَ سَتَشْهَدُ عَلَى صَاحِبِهَا لِإِتْمَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ، لَكِنَّ سَعِيدَ الْحِظِّ الَّذِي تَابَ إِلَى اللَّهِ بِصِدْقٍ يُنْسِي اللَّهُ - مِنْ أَجْلِهِ - كُلَّ الشُّهُودِ عَلَى ذَنْبِهِ، وَبِالتَّالِي يُنْجُو مِنَ الْعِقَابِ، إِذْ لَا شَاهِدَ عَلَيْهِ، وَيُعْلَمُ مِنْ هَذَا أَنَّهُ إِذَا تَابَ الْإِنْسَانُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَلَا يَجِبُ الطَّعْنُ فِيهِ بِسَبَبِ مَا ارْتَكَبَ مِنْ ذَنْبٍ، فَإِذَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ طَهَّرَهُ مِنَ الذُّنُوبِ، وَأَنْسَى الْمَلَائِكَةَ ذُنُوبَهُ، فَعَلِينَا نَحْنُ أَيْضًا أَنْ نَنْسَى ذُنُوبَهُ، وَأَنْ نُبْرِزَ حَسَنَاتِهِ.

- قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ عَمِيَ مُؤْمِنًا بِذَنْبٍ تَابَ مِنْهُ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَتْلِيَهُ بِهِ وَيُفَضِّحَهُ فِيهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(١).

وقت التوبة

أَفْضَلُ وَقْتٍ لِلتَّوْبَةِ هُوَ أَنْ يَقُومَ بِهَا الْمُذْنِبُ فَوْرَ أَنْ يَشْعُرَ بِارْتِكَابِهِ الذَّنْبِ، أَوْ فَوْرَ أَنْ يَقْرَأَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي أَكْتُبُهَا، إِذَا ظَلَّ بِالرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ غَافِلًا، فَلَا مَنَاصَ مِنْ أَنْ يَتُوبَ قَبْلَ الْمَوْتِ عَلَى أَيْةٍ حَالٍ؛ لِأَنَّهُ إِذَا مَا حَضَرَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ، وَفَقَدَ كُلَّ أَمَلٍ فِي الْحَيَاةِ، فَتَابَ عِنْدَئِذٍ، فَإِنْ تَوْبَتَهُ سَوَاءٌ كَانَتْ مِنْ ذَنْبٍ أَمْ مِنْ كُفْرٍ، فَإِنَّ تَوْبَةَ النَّفْسِ الْأَخِيرِ هَذِهِ لَا تُقْبَلُ، فَهِيَ مِثْلُ تَوْبَةِ فِرْعَوْنَ الَّتِي قَامَ بِهَا مِنَ الْكُفْرِ، وَأَعْلَنَ إِيمَانَهُ عِنْدَ الْغَرَقِ، وَعِنْدَمَا رَأَى الْمَوْتَ بَعَيْنَيْهِ، لَكِنَّ تَوْبَتَهُ لَمْ تُقْبَلْ: ﴿وَجَوْرْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ، بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، وَلِذَا يَجِبُ الْإِسْرَاعُ إِلَى التَّوْبَةِ، فَمَنْ يَدْرِي؟ قَدْ يَأْتِي الْمَوْتُ فِي اللَّحْظَةِ التَّالِيَةِ، وَلَا تَتَسَرَّ مُهْلَةً لِلتَّوْبَةِ.

- عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، توبوا إلى الله قبل أن تموتوا، وبادروا بالأعمال الصَّالحة قبل أن تُشغَلُوا»^(١).

- عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النَّبِيِّ ﷺ، قال: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرِغْ»^(٢).

ليعتبر الشاب من الشيوخ

التَّوْبَةُ ضرورةٌ لكلِّ رجلٍ وامرأةٍ من كلِّ عُمُرٍ، لكنَّ الإنسانَ يَغْفُلُ أَكْثَرَ فِي عُمُرِ الشَّبَابِ، بَيْنَمَا هَذِهِ الْمَرْحَلَةُ هِيَ الْأَهَمُّ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ، وَالتِّي يَنْبَغِي التَّوْبَةُ فِيهَا، وَلَوْ تَابَ الشَّخْصُ بَعْدُ فِي عُمُرِ السِّتَيْنِ وَنَصَحَ زَوْجَتَهُ وَأَوْلَادَهُ بِالصَّلَاةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَقَدْ تَقَوَّلَ الزَّوْجَةُ: إِنِّي أَعِيشُ مَعَكَ مِنْذُ ثَلَاثِينَ عَامًا، وَقَدْ كُنْتُ أَنْتَ غَارِقًا فِي ذُنُوبِكَ، وَتَسَحَّقُ حَقُوقِي، فَلَمَّا ذَا فَكَّرْتَ الْيَوْمَ فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ؟ وَيُمْكِنُ أَنْ يَقُولَ الْأَوْلَادُ: يَا أَبَانَا الْعَزِيزُ، ظَلَلْتَ تُعْرِيدُ حَتَّى بَلَغْتَ مِنَ الْعُمُرِ سِتِّينَ سَنَةً، لِهَذَا دَعَانَا نَفْعَلُ مَا نَرِيدُ لِأَرْبَعِينَ عَامًا قَادِمَةً، ثُمَّ سَتُتَوُّبُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَإِذَا لَمْ تَكُنْ إِجَابَةُ الزَّوْجَةِ وَالْأَبْنَاءِ غَيْرَ صَحِيحَةٍ (لَأَنَّ سَعَادَةَ التَّوْبَةِ بِمَثَابَةِ الْغَنِيمَةِ إِذَا تيسَّرتَ لِلْإِنْسَانِ فِي أَيِّ عُمُرٍ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَأْتِيَ الْمَوْتُ فِي مَرْحَلَةِ الشَّبَابِ، وَانْتِظَارُ عُمُرِ السِّتَيْنِ دُونَ تَوْبَةٍ خَطَأً فِي الْفَهْمِ)، لَكِنَّ هَذِهِ الرُّدُودَ مِنَ الزَّوْجَةِ وَالْأَبْنَاءِ تُعَدُّ لِمَحَّةٍ فِكْرِيَّةٍ لِهَذَا الشَّيْخِ الَّذِي بَلَغَ السِّتِينَ مِنَ الْعُمُرِ، وَلَوْ كَانَ قَدْ تَابَ فِي مَرْحَلَةِ الشَّبَابِ لَتَرْتَّبَ عَلَى ذَلِكَ أَثَارٌ جَيِّدَةٌ، وَلَمَّا تَعَرَّضَ فِي شَيْخُوخَتِهِ لِهَذَا الْكَلَامِ الْجَارِحِ لِقَلْبِهِ.

(١) ابن ماجه، إقامة الصلاة، باب ٧٨ برقم ١٠٨١.

(٢) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ٩٨ برقم ٣٥٣٧.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾

١٠ - الذين يتوبون إلى الله من صدق قلوبهم، يكون الأمل كبيراً في أن يعفو الله تعالى عن ذنوبهم، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار.

﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾

١١ - لن يخزي الله تعالى يوم القيامة نبيه ﷺ والذين آمنوا معه، وإنما سيعفو عن كثير من المُذنبين بشفاعتهم.

﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا﴾

١٢ - عندما يفرغ الناس من ميزان العدل يوم القيامة ويتجهون إلى الصراط، سيكون هناك ظلام دامس، وسيضلُّ العصاة والطُغاة في هذا الظلام، بينما ستبْرِقُ صحائف الأعمال لامعة في أيدي أهل الإيمان اليمنى من الرجال والنساء، وسيكون أمامهم نور إيمانهم وأعمالهم الصالحة يضيء، ولكن هذا النور لن يضيء إلا طريق أهل الإيمان فقط، مثلما يربط كل واحد من العاملين في الأنفاق والمناجم كشافاً على رأسه ليضيء له، وهذا الكشاف يضيء لصاحبه فقط الطريق، ولا يتفرق الضوء إلى طريق الآخرين، كذلك ستكون وجوه أهل الإيمان مثل الكشافات تضيء لهم طريقهم، ولكنها لا تضيء طريق الآخرين، وسيدعو أهل الإيمان ربهم قائلين: يا ربنا، اعفُ عنا، واحفظ علينا نورنا حتى نخرج من هذا الظلام إلى الجنة.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّارُ جَهْدًا الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾

١٣ - يعني: عندما يحين وقت مُحاربة الكفار فواجهوهم بكل قوة، وعندما يَسْخَرُ المنافقون من أحكام الإسلام فعاقبوهم بكل شدة، فهاتان الطائفتان ستدخلان

جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ؛ لَأَنَّ وَاحِدَةً مِنْهُمَا أَنْكَرَتِ اللَّهَ تَعَالَى عَلَانِيَةً، وَالثَّانِيَةُ تَعْصِيهِ مِنْ وَرَاءِ سِتَارِ التَّفَاق.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾

١٤ - عِنْدَمَا كَانَ كُفَّارُ مَكَّةَ يُنْذِرُونَ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّهُ إِذَا قَامَتِ السَّاعَةُ فَإِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ سَيَشْفَعُ لَنَا؛ لِأَنَّا أَقَارِبُهُ وَجِيرَانُهُ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ أزال الله تعالى سُوءَ الْفَهْمِ هَذَا لَدَيْهِمْ وَأَبْطَلَهُ بِمِثَالِ ضَرَبِهِ، وَهُوَ أَنَّ زَوْجَةَ سَيِّدِنَا نُوحٍ وَزَوْجَةَ سَيِّدِنَا لُوطٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ كَانَتَا كَافِرَتَيْنِ وَمُنَافِقَتَيْنِ، وَلَمْ تُؤْمِنَا بِزَوْجَيْهِمَا النَّبِيِّينِ الْكَرِيمَيْنِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَهَكَذَا لَمْ يُنْجِهِمَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ كَوْنُهُمَا زَوْجَتَيْنِ لِنَبِيِّينِ كَرِيمَيْنِ، وَسَوْفَ تَدْخُلَانِ جَهَنَّمَ مَعَ أَهْلِ جَهَنَّمَ الْآخَرِينَ، وَلِهَذَا يَنْبَغِي لِكُفَّارِ مَكَّةَ أَيْضًا أَنْ يَتَذَكَّرُوا أَنَّهُمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا فَلَنْ يَشْفَعَ لَهُمْ أَحَدٌ، وَلَنْ تَنْفَعَهُمْ شَفَاعَةُ أَحَدٍ أَيْضًا، فَأَهْلُ الْإِيمَانِ فَقَطْ هُمُ أُولَئِكَ السُّعْدَاءُ الَّذِينَ سَيَسْتَحِقُّونَ الشَّفَاعَةَ بِبَرَكَةِ إِيْمَانِهِمْ.

﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾

١٥ - يَقُولُ الْمَفْسِّرُونَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: «مَا كَانَتْ خِيَانَتُهُمَا؟ نَقُولُ: نِفَاقُهُمَا وَإِخْفَاؤُهُمَا الْكُفْرَ، وَتَظَاهَرُهُمَا عَلَى الرَّسُولَيْنِ، فَامْرَأَةُ نُوحٍ قَالَتْ لِقَوْمِهِ: إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ، وَامْرَأَةُ لُوطٍ كَانَتْ تَدُلُّ عَلَى نَزُولِ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ خِيَانَتُهُمَا بِالْفُجُورِ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: مَا بَغَتْ امْرَأَةُ نَبِيٍّ قَطًّا، وَقِيلَ: خِيَانَتُهُمَا فِي الدِّينِ»^(١).

(١) التفسير الكبير، وتفسير القرطبي، سورة التحريم (٦٦): الآية ١٠.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا أَمْرَاتٍ فِرْعَوْنَ﴾

١٦ - في الآية السابقة جاء مثال المرأتين الكافرتين بغير تنبيه الكفار بأنه رَغِمَ أَنْ زَوْجَ كُلٍّ مِنْهُمَا المرأتين كان نبياً، إلا أنَّهما سَتَدْخُلَانِ النَّارَ بِكُفْرِهِمَا، وفي هذه الآية جاء مثال المرأة المؤمنة، بغير التنبيه عن قلوب أهل الإيمان، بأنه رَغِمَ أَنْ زَوْجَ هَذِهِ الْمَرْأَةِ كَانَ كَافِرًا مَوْغَلًا فِي كُفْرِهِ، إلاَّ أَنَّهَا دَخَلَتْ الْجَنَّةَ بِإِيمَانِهَا.

أَمِنَتِ السَّيِّدَةُ أَسِيَّةُ زَوْجَةُ الْفِرْعَوْنِ بِسَيِّدِنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَمَّا عَلِمَ الْفِرْعَوْنُ بِذَلِكَ أَهَالَ جِبَالَ الظُّلْمِ عَلَيْهَا، لَكِنَّ السَّيِّدَةَ أَسِيَّةَ ظَلَّتْ ثَابِتَةً عَلَى إِيْمَانِهَا بِرَغْمِ كُلِّ هَذِهِ الْمَصَائِبِ. وَذَاتَ يَوْمٍ أَرْسَلَ الْفِرْعَوْنُ بَعْضَ رِجَالِ بَلَاطِهِ إِلَى زَوْجَتِهِ يَهْدِدُونَهَا بِأَنَّهَا إِنْ لَمْ تَرْجِعْ عَنْ إِيْمَانِهَا فَيُفْلِقُونَ فَوْقَهَا صَخْرَةً ثَقِيلَةً مِنَ الْحَجَرِ تَقْتُلُهَا، «فَلَمَّا أَتَوْهَا رَفَعَتْ بَصَرَهَا إِلَى السَّمَاءِ فَأَبْصَرَتْ مَنَزَلَهَا فِي الْجَنَّةِ، فَمَضَتْ عَلَى قَوْلِهَا فَانْتَرَعَ رُوحُهَا، وَأَلْقَيْتِ الصَّخْرَةَ عَلَى جَسَدِهَا وَلَيْسَ فِي جَسَدِهَا رُوحٌ»^(١).

قال الحسنُ وابنُ كَيْسَانَ: «نَجَّاهَا اللَّهُ أَكْرَمَ نَجَاةٍ، وَرَفَعَهَا إِلَى الْجَنَّةِ، فَهِيَ فِيهَا تَأْكُلُ وَتَشْرَبُ»^(٢).

﴿وَمَرْيَمُ ابْنَتُ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا رَبِّهَا وَكَتُبَتْ مِنَ الْقَنِينِ﴾

١٧ - ومثال آخر لأهل الإيمان، وهو: مثال السيدة مريم ابنة عمران، والتي أَوْقَفَهَا والداهَا عَلَى خِدْمَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَكَانَتْ مِنْ أُسْرَةٍ صَالِحَةٍ عَابِدَةٍ، وَكَانَتْ هِيَ نَفْسُهَا سَيِّدَةً صَالِحَةً عَفِيفَةً طَاهِرَةً، فَنَفَخَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا مِنْ رُوحِهِ، فَوَلَدَتْ

(١) تفسير القرطبي، سورة طه (٢٠): الآية ٧٣.

(٢) تفسير القرطبي، سورة التحريم (٦٦): الآية ١١.

(الجزء - ٢٨) سورة التحريم ٦٦ / ١١-١٢ ————— ٣٤١

سَيِّدَنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَرَغِمَ أَنَّ النَّاسَ أَتَّهَمُوهَا بِاتِّهَامَاتٍ خَطِيرَةٍ بِسَبَبِ مَوْلِدِ
سَيِّدَنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِغَيْرِ أِبٍ، إِلَّا أَنَّهَا تَحَمَّلَتْ كُلَّ هَذَا بِصَبْرِ وَثَبَاتٍ، وَصَدَّقَتْ
بِالْكُتُبِ وَالصُّحُفِ السَّمَاوِيَّةِ وَأَمَّنتَ بها، وكانت من الْمُطِيعِينَ لِرَبِّهَا، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ
تَعَالَى تَصَدِيقَهَا هَذَا جُزْءًا مِنَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [الأنعام: ٧٥].

الفقيه إلى الله: مُحَمَّدٌ إِمْدَادُ حُسَيْنٍ بَيْرِزَادِهِ،

جامعة الكرم، إنجلترا

بعد صلاة الظهر من يوم الاثنين ٢٥ أكتوبر ٢٠١٠م

الموافق ١٦ ذي القعدة ١٤٣١هـ

هذا، وقد اكْتَمَلَ بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَكَرَمِهِ تَفْسِيرُ سُورَةِ «التَّحْرِيمِ» فِي خَمْسَةِ
أَيَّامٍ فَقَطْ، أَي: مِنْ ٢٠ إِلَى ٢٥ أَوْتُوبِر، وَقَدْ بَدَأْتُ كِتَابَةَ تَفْسِيرِ الْجُزْءِ الثَّامِنِ وَالْعَشْرِينَ
فِي ١٩ سَبْتَمْبَر ٢٠١٠م، وَأَكْمَلْتُهُ الْيَوْمَ ٢٥ أَوْتُوبِر ٢٠١٠م، أَي: اكْتَمَلَ تَفْسِيرُ جُزْءٍ
كَامِلٍ فِي شَهْرٍ وَسِتَّةِ أَيَّامٍ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِ
الْمُرْسَلِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٧) سُورَةُ الْمُلْكِ

هذه السُّورَةُ مَكِّيَّةٌ، واسمُها: «الْمُلْكُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأولى منها.

ما الحكمة في خلق الحياة والموت؟

في الآية رقم ٢ من هذه السُّورَةِ أَخْبَرَنَا اللهُ تَعَالَى أَنَّ الْحِكْمَةَ مِنْ وَرَاءِ خَلْقِ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ هِيَ أَنْ يَتَلَيَّنَا مَنْ مَنَا أَحْسَنُ عَمَلًا، وَاللهُ تَعَالَى عَالِمُ الْغَيْبِ، وَيَعْلَمُ تَمَامَ الْعِلْمِ أَعْمَالَ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْذُ الْأَزَلِّ، وَلَكِنَّ الْهَدَفَ مِنَ الْإِبْتِلَاءِ هُوَ أَنْ يَعْلَمَ الْآخَرُونَ أَيْضًا أَعْمَالَ هَذَا الْإِنْسَانِ، وَلَا يَكُونُ لِمُعْتَرِضٍ حُجَّةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ الْحِسَابِ.

آيات القدرة الإلهية

بَعْدَ ذَلِكَ بَيَّنَّ اللهُ تَعَالَى خَلْقَ السَّمَاءِ وَمَا يُزَيِّنُهَا مِنَ النُّجُومِ، وَتَحَدَّى أَهْلَ الدُّنْيَا جَمِيعًا أَنْ يَجِدُوا فِيهَا نَقْصًا أَوْ عَيْبًا، فَإِذَا لَمْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَجِدُوا عَيْبًا فِيهَا رَغَمَ إِمْعَانِكُمُ النَّظَرَ إِلَيْهَا مَرَاتٍ وَمَرَاتٍ، فَيَنْبَغِي لَكُمْ إِذَا أَنْ تَوْمِنُوا بِقُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى، أَمَا إِذَا لَمْ تَوْمِنُوا بِرَغَمِ كُلِّ هَذَا فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَسْتَعِدُّوا لِمُوَاجَهَةِ عَذَابِ النَّارِ، وَسَوْفَ تَنْدَمُونَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ كَثِيرًا، وَلَكِنْ بَلَا فَائِدَةٍ. أَمَّا الَّذِينَ سَيُؤْمِنُونَ بِقُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى عِنْدَمَا يَرَوْنَ آيَاتِهِ وَمُعْجَزَاتِهِ، فَإِنَّ اللهُ تَعَالَى سَوْفَ يَغْفِرُ خَطَايَاهُمْ، وَيُعْطِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا عَلَى صَالِحِ أَعْمَالِهِمْ.

مثال المؤمن والكافر

في الآية رقم ٢٢ من هذه السورة جاء مثال للكافر والمؤمن، يعني: أن الكافر مثل ذلك الشخص الذي يمشي مُكِبًّا على وجهه، والأمر الأول هو أن الله تعالى أنعم عليه بأقدام يمشي عليها، ولا يمكن لأي إنسان في هذه الدنيا أن يطوي سَفَرَه ماشيًا على وجهه أو رأسه، وإذا جَرَّبَ أَحَمَقُ أن يسيرَ عكسَ الفطرة، فإنه لن يرى شيئًا عن يمينه ولا عن يساره ولا من أمامه، وسيظلُّ طيلة اليوم يتعثَّرُ في المكان نفسه، فلا يرى الطريقَ بشكلٍ صحيح، ولا يستطيع الوصولَ إلى حيث يريد، وهذا هو مثال الكافر، فهو لا يستخدم عقله في البحث عن الطريق القويم، ولهذا يبقى دائمًا متخبطًا في ضلاله.

أما مثال المؤمن فهو كالذي يمشي على قدميه مستقيمًا، وينظر عن يمينه وعن يساره متحققًا من الطريق القويم متأكدًا منه، ويجد في السير عليه، وهو بهذا سيصل - في نهاية المطاف - إلى هدفه، والآن قرروا أنتم؛ من الذي يسير على الطريق الصحيح، ومن الذي يعمه في الضلال؟

متى تقوم الساعة؟

عندما كان الكفار يُنذرونَ بعذابِ القيامة، فلأنهم كانوا يُنكرون يومَ القيامة، ويعتبرونها مجرد تهديد فارغ لهم من المسلمين، كانوا كثيرًا ما يقولون على سبيل السخرية: إن كنت صادقًا في دعواك فمتى تأتينا الساعة التي تُحذِّرنا منها إذا؟ وقد جاء الردُّ على هذا الكلام في الآية رقم ٢٦ من هذه السورة، يعني: أن النبي ﷺ قال لهم: إن الذي يعلم الوقت الصحيح لقيام الساعة هو الله تعالى وحده، وقد أرسلتُ لأنذرکم بها، وليس من الضروري أن يتحقق العلمُ بوقت قيام الساعة لكي يتحقق الإنذارُ بها.

ويمكنُ استيعابُ هذه الحقيقة من خلالِ المثالِ التالي، يعني: مثلما نَعْلَمُ جميعاً أنَّ كلَّ إنسانٍ لا بد سيموتُ في يومٍ من الأيام، ولكننا لا نَعْلَمُ وقتَ وفاته، ومع ذلك فإننا نؤكدُ على كلِّ إنسانٍ أن يُسرِعَ إلى عملٍ كلِّ ما يلزمُه عمله قبلَ الموت؛ لأنَّ الموتَ يأتي فجأةً، ولن يجدَ عندها فرصةً لعملِ شيءٍ، وبنفسِ الطريقة فإننا جميعاً على يقينٍ من أنَّ الساعةَ ستقومُ، ولكننا لا نَعْلَمُ الوقتَ المحددَ لها، وبالرغم من ذلك ينبغي أن نستمرَّ في التأكيدِ على كلِّ إنسانٍ أن يخشى القيامةَ، وأن لا يفعلَ شيئاً يندمُ عليه عندَ قيامها.

فضل سورة الملك

- يقولُ سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: إنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إِنَّ سُورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ ثَلَاثُونَ آيَةً شَفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّى غُفِرَ لَهُ، وَهِيَ سُورَةُ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾»^(١).

- يقولُ سيّدنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: ضَرَبَ بَعْضُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ خِباءَهُ عَلَى قَبْرِ وَهُوَ لَا يَحْسِبُ أَنَّهُ قَبْرٌ؛ فَإِذَا فِيهِ إِنْسَانٌ يَقْرَأُ سُورَةَ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ حَتَّى خَتَمَهَا، فَأَتَى النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي ضَرَبْتُ خِبَائِي عَلَى قَبْرِ وَأَنَا لَا أَحْسِبُ أَنَّهُ قَبْرٌ فَإِذَا فِيهِ إِنْسَانٌ يَقْرَأُ سُورَةَ الْمُلْكِ حَتَّى خَتَمَهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هِيَ الْمَانِعَةُ، هِيَ الْمُنْجِيَةُ تُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»^(٢).

- يقولُ سيّدنا أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه: إنَّ النبيَّ ﷺ قال: «سُورَةٌ فِي الْقُرْآنِ خَاصَمَتْ عَنْ صَاحِبِهَا حَتَّى أَدْخَلَتْهُ الْجَنَّةَ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾»^(٣).

(١) الترمذي، فضائل القرآن، باب ٩ برقم ٢٨٩١.

(٢) الترمذي، فضائل القرآن، باب ٩ برقم ٢٨٩٠.

(٣) تفسير ابن كثير، تعارف سورة الملك (٦٧).

٣٤٦ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

- يقول خالد بن معدان: «إنها تُجادلُ عن صاحبها في القبر، تقول: اللهم إن كنت من كتابك فشققني فيه، وإن لم أكن من كتابك فامحني عنه، وإنها تكون كالطير يجعل جناحها عليه فيشفع له فيمنعه من عذاب القبر»^(١).

الفقيه إلى الله: محمد إمداد حسين بيرزاده،
جامعة الكرم، إنجلترا
بعد صلاة العصر من يوم الثلاثاء ٢٦ أكتوبر ٢٠١٠ م
الموافق ١٧ ذي القعدة ١٤٣١ هـ.



(١) التفسير المظهرى، سورة الملك (٦٧): الآية ٣٠.

سُورَةُ الْمَلِكِ (٦٧)،

مكية (٧٧)، آياتها (٣٠)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيُنْسُ الْمُصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

١ - الله تعالى ذو بركة ما بعدها بركة، ومُلكُ العالمين كله في يده، يتصرف فيه كيف يشاء، وهو القادر على كل شيء، فيخلق ما يشاء.

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾

٢ - خَلَقَ اللهُ تعالى الموت والحياة لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، والله تعالى عالمُ الغيب، وَيَعْلَمُ تمامَ العلم أعمالَ كُلِّ إنسانٍ منذُ الأزل، ولكنَّ الهدفَ من الابتلاءِ هو أن يَعْلَمَ الآخرونَ أيضًا أعمالَ هذا الإنسان، ولا يكونَ لمعتَرِضٍ حُجَّةٌ يومَ القيامة عندَ الحساب.

يقولُ سَيِّدُنَا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي الله عنهما: «تلا النَّبِيُّ ﷺ ﴿بَرَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فقال: «أورعُ عن محارِمِ الله وأسرعُ في طاعةِ الله»^(١).

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾

٣ - خَلَقَ اللهُ تعالى هذه الكائناتِ جميلةً وقويةً، بحيث لا تجدُ في أيِّ شيءٍ منها نقصًا ولا عيبًا، فكلُّ شيءٍ كاملٌ طبقًا لحاجتهِ وما خُلِقَ له، فارتفعوا أنظاركُم إلى السَّماء، هل ترونَ فيها أيَّ تشقُّقٍ أو تصدُّعٍ رَغْمَ مرورِ هذا الزمنِ الطويلِ على خَلْقِهَا؟ إننا - بصفةٍ عامَّة - لا نستطيعُ اكتشافَ الكثيرِ من عيوبِ الأشياءِ بمجردِ النظرِ إليها مرةً واحدةً، ولهذا تحدَّى اللهُ تعالى الناسَ بأنْ انظروا إلى السَّماءِ مراتٍ ومراتٍ، بل وانظروا إليها نظرَ الفاحصِ الناقد، ومع ذلك ستتعَبُ أنظاركُم وتكلُّ، ولكنكم لن تجدوا في نظامِ الكائناتِ وترتيبها أيَّ خللٍ أو عيبٍ.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾

٤ - جاء في هذه الآية بيانُ مقصدينِ من مقاصدِ خَلْقِ النُّجوم، أولُهما: أنَّها زينةٌ للسَّماء؛ لأنها تضيءُ في اللَّيْلِ كالمصابيح، وثانيهما: أنه عندما تحاولُ الشَّياطينُ

التَّسْلِيلَ إِلَى السَّمَاءِ تَخْرُجُ مِنْ هَذِهِ النُّجُومِ شُعَلَاتٌ تُمَطِّرُ الشَّيَاطِينَ بِنَارِهَا، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعَدَّ لِلشَّيَاطِينَ فِي الْآخِرَةِ أَيْضًا عَذَابَ النَّارِ.

﴿إِذَا الْقَوُوفُ فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾

٥ - عِنْدَمَا تَرْتَفِعُ دَرَجَةً حَرَارَةِ الْمَاءِ فِي الْقِدْرِ عَلَى النَّارِ يَبْدَأُ فِي الْغَلْيَانِ، وَتَصْدُرُ عَنْهُ ضَجَّةٌ مِنْ غَلْيَانِهِ وَفَوْرَانِهِ، وَهَكَذَا جَهَنَّمُ، عِنْدَمَا تَصِلُ إِلَى قِمَّةِ اشْتِعَالِهَا يَصْدُرُ عَنْهَا أَصْوَاتٌ مُخْفِفَةٌ كَأَنَّهَا تَفُورُ وَتَغْلِي، وَعَذَابُ النَّارِ لَا يُمْكِنُ تَحْمِلُهُ أَصْلًا، فَمَا بِالْكَ حِينَ تَفُورُ هَذِهِ النَّارُ وَتَبْلُغُ الْمَدَى فِي تَوْهُّجِهَا، وَتَصْدُرُ عَنْهَا أَصْوَاتُ الْفَوْرَانِ؟ فَيُمْكِنُكَ عِنْدَئِذٍ أَنْ تَتَصَوَّرَ إِلَى أَيِّ مَدَى يَكُونُ عَذَابُهَا، وَحِينَ يُلْقَى بِأَهْلِ النَّارِ فِيهَا فَإِنَّهُمْ يَسْمَعُونَ أَصْوَاتًا مُرْعِبَةً، فَيَبْدُو لَهُمْ وَكَأَنَّ النَّارَ تَنْفَجِّرُ وَتَتَمَزَّقُ مِنْ شِدَّةِ غَيْظِهَا وَغَضَبِهَا، وَأَنَّ كُلَّ شُعْلَةٍ فِيهَا سَتَحْرِقُ مِنْ تَصْيِيهِ وَتُحِيلُهُ رَمَادًا.

﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾

٦ - يَوْمَ الْقِيَامَةِ سِيلْقَى بِالْعَصَاةِ فِي جَهَنَّمَ أَفْوَاجًا بَعْدَ أَفْوَاجٍ، وَسَتَسْأَلُ خَزَنَةُ جَهَنَّمَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ كُلِّ فَوْجٍ مِنْ هَؤُلَاءِ قَائِلَةً: أَلَمْ يَأْتِكُمُ الْأَنْبِيَاءُ الَّذِينَ أَخْبَرُوكُمْ أَنَّكُمْ إِنْ عَصَيْتُمْ اللَّهَ تَعَالَى فسيُدْخِلُكُمْ نَارَ جَهَنَّمَ؟ وَالْمَلَائِكَةُ يَعْلَمُونَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ قَدْ جَاءُواهُمْ بِالْفِعْلِ، وَلَكِنَّهُمْ يَسْأَلُونَهُمْ إِقَامَةً لِلْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، حَتَّى يَعْلَمَ أَهْلُ النَّارِ أَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ ظُلْمٌ يَقَعُ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّمَا كُلُّ مَا هُمْ فِيهِ إِنَّمَا هُوَ نَتِيجَةُ أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ عِقَابًا عَلَيْهَا. فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ: لَقَدْ جَاءَنَا الْأَنْبِيَاءُ فَعَلَاءً، وَحَذَرْنَا مِنْ عَذَابِ النَّارِ فَعَلَاءً، لَكِنَّا كَذَّبْنَاهُمْ، وَقُلْنَا عَنْهُمْ: إِنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا بِتَرْكِهِمْ دِينَ آبَائِهِمْ وَأَجْدَادِهِمْ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُنْزِلْ عَلَيْهِمْ أَيَّ كِتَابٍ مِنْ عِنْدِهِ، وَإِنَّمَا هُمُ الَّذِينَ يُؤَلِّفُونَ الْكَلَامَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، وَيَنْسُبُونَهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا سَمْعًا أَوْ نَعْيُلًا مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾

٧ - حين يُلقى بالعُصاة في نار جهنم يندمون ويقولون: لیتنا سمعنا بتمعن وتدبر ما كان يقوله الأنبياء، وحاولنا فهمه واستيعابه، ولو فعلنا هذا لما كنا الآن من أصحاب النار، وعندما يعترفون بذنوبهم يطردوهم الله تعالى من رحمته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾

٨ - الذين يتقون الله تعالى دون أن يروه، بمعنى: أنهم لم يروا الله تعالى، لكنهم يؤمنون بوجوده في كل مكان وفي كل وقت، ويخافون من عصيانه، فإن هؤلاء الناس عندما يصدر عنهم من الأخطاء ما هو من مقتضيات البشرية، فإن الله تعالى يغفر لهم هذه الأخطاء، ويضاعف لهم أجرهم على صالح أعمالهم.

الإنسان الذي يتولّد في قلبه خوف الله تعالى لا يخاف أبدًا من أي ظالم، ولا يظلم ضعيفًا أبدًا، وإنما يصبح ملاكًا للرحمة، وتجسيدًا للحق والصدق.

﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

٩ - يعني: سواء تحدثتم هامسين أم بصوت عالٍ ليسمعكم الآخرون، فإن الله تعالى يعلم تمام العلم كل ما تقولون، بل إن الله تعالى يعلم الأسرار في قلوبكم، بل ويعلم حتى تلك الأسرار التي لم تذكروها على ألسنتكم أيضًا، فكيف يمكن أن يكون غافلًا عما تقولون؟ لهذا عليكم قبل أن تقولوا شيئًا بألسنتكم، أو تفكروا فيه بقلوبكم، أن تتذكروا جيدًا أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء مما تقولون، أو حتى مما يدور في خلدكم.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾

١٠ - الإنسان الذي يخترع آله من الآلات يكون على علم تام بأجزائها ومكوناتها

وكيفية عملها، وهكذا الله تعالى خالق كل شيء في الكائنات، وهو الذي خلق قلب الإنسان ولسانه، فكيف يمكن أن يخفى عليه ما يفعله القلب واللسان؟ والله تعالى ليس خالق كل شيء فقط، وإنما يرى كل التفاصيل وإن دقت، ويعلم تمام العلم كل شيء وإن صغر.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ أَمْ أَمِنُ
مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنُ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ
حَاصِبًا فَسَتَعْمَلُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى
الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفْتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمْ هَذَا الَّذِي هُوَ
جُنْدٌ لَّكُمْ يَصْرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ
رِزْقَهُ، بَل لَّجُوا فِي غُورٍ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَمْ يَمْشِي مَكْبًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ
هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا
الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّتَتْ وَجُوهَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا
الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ
مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَابُهُ ۖ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَن هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْحَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا﴾

١١ - لقد جعل الله تعالى هذه الأرض ليّنة ومُسَخَّرَةً لكم، وتستطيعون التصرف فيها كيفما تشاءون، ولهذا سيروا فيها وسيحوا، وامشوا في طُرُقَاتِها ودروبها، وكلوا من الرِّزْقِ الذي يَخْرُجُ منها، ولكن تذكروا الله تعالى في غمرة كل هذا، فهو الذي خلق لكم

أسباب الحياة ووسائلها هذه، واشكروا الله تعالى على نِعَمِهِ؛ لأنَّ الناسَ جميعًا - في نهاية الأمر - سيمثلونَ في حضرة الله تعالى بعد موتهم، وهناك سيُحاسِبُهُم الله تعالى على نِعَمِهِ عليهم.

﴿ءَأَمْنُم مِّن فِي السَّمَاءِ﴾

١٢ - رَغِمَ أَنَّ الله تعالى ليس في السَّمَاءِ فقط، وإنَّما هو موجودٌ في كلِّ مكانٍ وناحية، ولكنَّ عندما يكونُ الهدفُ هو الإشارةُ إليه، فإنَّنا نشيرُ إلى السَّمَاءِ لِعَظَمِ شأنِهِ، ونرفعُ أيدينا إلى السَّمَاءِ أيضًا عند الدُّعاء، ونقولُ عن الكُتُبِ التي أنزلها الله تعالى: إنها «كُتُبٌ سَمَآوِيَّةٌ»، وربَّما لهذا السَّببِ أيضًا نُسبُ الله تعالى في هذه الآية إلى السَّمَاءِ، وقد ذُكرت الأحاديثُ النَّبَوِيَّةُ أيضًا اللهُ تعالى بأنه مَن في السَّمَاءِ:

يقولُ سيِّدنا عبدُ الله بنُ عمرو بن العاص رضي الله عنهما: إنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَن فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُم مِّن فِي السَّمَاءِ»^(١).

﴿أَن يَخْشِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾

١٣ - في هذه الآية تنبيهٌ لكفَّارٍ مكَّةَ بأن اتَّقُوا اللهَ واخشَوْهُ، ولئن بقيتم مُصِرِّينَ على عصيانه فسوف يجعلُ الأرضَ ترتجفُ وتهتزُّ وتبتلعُكم، ولن يستطيعَ أحدٌ عندئذٍ مساعدتكم، مثلما قال الله تعالى عن قارونَ: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١]. وبنفسِ الطريقة، حَدَّثَ هذا عند الهجرة النَّبَوِيَّةِ، مثلما يقولُ سيِّدنا أبو بكر الصِّدِّيقُ رضي الله عنه: وتَبِعْنَا سُراقَةَ بنَ مالكٍ ونحن في جَلَدٍ^(٢) من الأرض، فقلْتُ: يا رسولَ الله، هذا الطَّلُبُ قد

(١) الترمذي، أبواب البر، باب ١٦ برقم ١٩٢٤.

(٢) بالتحريك، أي: أرض صلبة. وروى: «جدد»، وهو المستوي، وكانت الأرض مستوية صلبة. صحيح مسلم (الحاشية).

لِحَقْنًا. قَالَ: «لَا تَحْزَنْ، إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا». فَلَمَّا دَنَا مِنَّا وَكَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ قَدْرُ رُمَحٍ أَوْ رُمَحَيْنِ، فَسَاخَتْ بِهِ فَرْسُهُ فِي الْأَرْضِ إِلَى بَطْنِهَا فَوَثَبَ عَنْهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ هَذَا عَمَلُكَ، فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يُنَجِّنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ، فَوَاللَّهِ لَا أَعْمِيَنَّ عَلَى مَنْ وَرَائِي مِنَ الطَّلَبِ»^(١).

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ﴾

١٤ - في هذه الآية أيضًا تحذيرٌ لكفار مكة بأنكم إن ظللتم على عصيانكم لله تعالى وعَدَمِ الخوفِ منه، فيمكنه أن يهلككم بإرسالِ ريحٍ تُمطرُكم بالحجارة، مثلما حَدَّثَ مع قوم لوط: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَنِيبَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢]، وأصحابِ الفيل: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الفيل: ٤]، حيث أهلكهم الله تعالى بمطارٍ من الحجارة، وعندما ترون أنتم أيضًا هذا العذاب، فستعلمون عاقبة إنذاركم، وستندمون كثيرًا، ولكنَّ الندمَ في ذلك الوقتِ لن ينفعكم بشيءٍ؛ لأنَّ وقتَ التوبةِ ينتهي عند مجيء العذاب.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾

١٥ - في هذه الآية تسريّةٌ عن قلبِ النبي ﷺ من جانبٍ بأن لا تحزن ولا تغتم يا رسول الله ﷺ من تكذيبهم لك، فقد كَذَّبَ الناسُ من قبلهم أنبياءهم، وعندما لم يرجعوا عن طغيانهم أنزلنا عليهم عذابًا شديدًا، وعلى الجانب الآخر في الآية تنبيهٌ لكفار مكة بأن اعتبروا من أطلالِ الأَقوامِ السابقة عليكم وآثارهم مثل: قوم عادٍ وثمودٍ وغيرهما، فحين لم يرجعوا عن مخالفةِ أنبيائهم أهلكناهم، وإذا لم ترجعوا أنتم أيضًا عن طغيانكم فسنهلككم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَقَتٍ وَيَقِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾

١٦ - مثلما سَخَّرَ اللهُ تعالى الأرضَ لكي يمشيَ فيها الإنسان، وسَخَّرَ المِياهَ لكي تُسَبِّحَ فيها الأسماءُ، كذلك سَخَّرَ الأجواءَ لكي تطيرَ فيها الطُّيورُ.

عندما تطيرُ الطُّيورُ في الفضاءِ تَبْسُطُ أجنحتها، وأحياناً تَضُمُّها إليها أثناءَ الطيرانِ وتقبضُها، ولكنها معَ ذلك لا تَسْقُطُ على الأرضِ، فتأملوا قليلاً، من يا تُرى ذلك الذي أعطى الطُّيورَ القُدرةَ على أن تطيرَ في الفضاءِ لساعاتٍ طَوَالِ بحيث لا تَسْقُطُ؟ إنها نموذجٌ على قُدرةِ الله تعالى، وهو الذي يُراقِبُ كلَّ شيءٍ ويراه.

﴿أَمَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدُكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾

١٧ - كان كفَّارُ مكةَ يعتقدونَ أنَّ قوتَهُم العدديَّة، وأفواجُ أصنامِهِم، سيُنقِذونَهُم من عذابِ الله تعالى، ولكنَّ هذا وَهْمٌ كبيرٌ وخِداعٌ عاشوا فيه، فقد مَضَتْ أُمَّمٌ من قبلِهِم أكثرُ مِنْهم عدداً، ولم يستطيعوا إنقاذَ أَنْفُسِهِم من عذابِ الله تعالى؛ لأنَّ الله تعالى هو خالقُ كلِّ شيءٍ في الكائناتِ، ولا يمكنُ لمخلوقٍ أن يتساوى معَ خالقه.

﴿أَمَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ، بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾

١٨ - يعني: لو لم يُنْزِلِ اللهُ تعالى المطرَ، أو لو أنه مَنَعَ الأرضَ من الإنباتِ، فَمَنْ ذلك الذي يَهَيِّئُ لَكُمْ الرِّزْقَ عندئذٍ؟ إنكم عندها ستَتَضَوَّرُونَ جوعاً، وستَزْهَقُ أرواحكم من الجوعِ، ولن يكونَ هناكَ مَنْ يسألُ عنكم، ولكنَّ كفَّارَ مكةَ أصحابُ عنادٍ شديدٍ وتعصُّبٍ مَقِيَّتٍ، ولا يقبلونَ نصيحةً من أحدٍ، وإنما يُصِرُّونَ على طُغيانِهِم وكرهيتِهِم للحقِّ.

﴿أَفَنْ يَمْشِيَ مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِيَ سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

١٩ - جاء في هذه الآيةِ مثالٌ للمؤمنِ والكافرِ، يعني: أنَّ الكافرَ مثلُ ذلك الشَّخصِ

الذي يمشي مُكِبًّا على وجهه، والأمرُ الأولُ هو أنَّ الله تعالى أنعم عليه بأقدام يمشي عليها، ولا يمكنُ لأيِّ إنسانٍ في هذه الدُّنيا أن يطويَ سَفَرَه ماشيًا على وجهه أو رأسه، وإذا جَرَّبَ أَحَمَقُ أن يسيرَ عكسَ الفِطرة، فإنه لن يرى شيئًا عن يمينه ولا عن يساره ولا من أمامه، وسيظلُّ طيلةَ اليوم يتعثَّرُ في المكانِ نفسه، فلا يرى الطريقَ بشكلٍ صحيح، ولا يستطيعُ الوصولَ إلى حيث يريدُ، وهذا هو مثالُ الكافر، فهو لا يستخدمُ عقله في البحث عن الطريقِ القويم، ولهذا يبقى دائمًا متخبِّطًا في ضلاله.

أما مثالُ المؤمن فهو كالذي يمشي على قدميه مستقيمًا، وينظرُ عن يمينه وعن يساره متحقِّقًا من الطريقِ القويم متأكِّدًا منه، ويجدُ في السَّير عليه، وهو بهذا سيصلُ في نهاية المطافِ إلى هدفه، والآنَ قرِّروا أنتم؛ من الذي يسيرُ على الطريقِ الصَّحيح، ومن الذي يعمُه في الضلال؟

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾

٢٠ - الله تعالى خَلَقَكُمْ، وأعطاكمُ الآذانَ والأعينَ والقلوبَ والأفئدة، حتى تتدبَّروا في الكائناتِ وتتأمَّلوها، وتعرِّفوا خالقكم الحقيقيَّ، وتشكروه على نِعَمه، لكنْ للأسفِ الشَّدِيد! إنكم قليلًا ما تشكرون، فالآذانُ والأعينُ والقلوبُ والأفئدةُ نِعَمٌ عظيمةٌ، وإن أردتم معرفةَ قدرِ هذه النعم فاسألوا أعمى أو أصمَّ أو مريضًا بالقلب.

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

٢١ - خَلَقَكُمْ الله تعالى وجعلكم تتشرون في الأرض، وسوف يجمعكم يومَ القيامة في حضرته، حيث سيحاسبُكم على أعمالكم، فيثيبكم على حسنِها، ويُعاقبكم على سيئِها.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾

٢٢ - عندما كان الكفار يُنذرون بعذاب القيامة، فلائهم كانوا يُنكرون يوم القيامة، ويعتبرونها مجرد تهديد فارغ لهم من المسلمين، كانوا كثيراً ما يقولون للنبي ﷺ على سبيل السخرية: إن كنت صادقاً في دعواك فمتى تأتينا الساعة التي تُحذرنّا منها إذا؟ وقد قال النبي ﷺ ردّاً عليهم: إنّ الذي يعلم الوقت الصحيح لقيام الساعة هو الله تعالى وحده، وقد أرسلتُ لأُنذركم بها، وليس من الضروري أن يتحقق العلم بوقت قيام الساعة لكي يتحقق الإنذار بها.

وقت الموت ووقت القيامة

ويمكن استيعاب هذه الحقيقة من خلال المثال التالي، يعني: مثلما نعلم جميعاً أنّ كلّ إنسان لا بدّ سيموت في يوم من الأيام، ولكننا لا نعلم وقت وفاته، ومع ذلك فإننا نؤكد على كلّ إنسان أن يُسرّع إلى عمل كلّ ما يلزمه عمله قبل الموت؛ لأنّ الموت يأتي فجأة، ولن يجد عندها فرصة لعمل شيء، وبنفس الطريقة فإننا جميعاً على يقين من أنّ الساعة ستقوم، ولكننا لا نعلم الوقت المحدّد لها، وبالرغم من ذلك ينبغي أن نستمرّ في التأكيد على كلّ إنسان أن يخشى القيامة، وأن لا يفعل شيئاً يندم عليه عند قيامها.

الحكمة من إخفاء العلم بالقيامة

يَنقُلُ العلامةُ فخرُ الدين الرازي عن الباحثين والمحققين قولهم بأنّ «السبب في إخفاء الساعة عن العباد أنّهم إذا لم يعلموا متى تكون كانوا على حذر منها، فيكون ذلك أدعى إلى الطاعة، وأزجر عن المعصية»^(١)، ولهذا السبب أيضاً

أَخْفَى اللهُ تَعَالَى وَقْتَ الْمَوْتِ عَنْ عَامَّةِ النَّاسِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا أُخْبِرَ أَحَدٌ أَنَّهُ سَيَمُوتُ بَعْدَ عَشْرِ سِنَوَاتٍ مِثْلًا، فَمَنْ الْمُمْكِنُ أَنْ يَتَغَلَّبَ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ، فَيَقَرَّرَ أَنْ يَقْضِيَ تِسْعَ سِنَوَاتٍ مِنَ الْعَشْرِ فِي اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ، ثُمَّ يَتُوبَ بَعْدَ ذَلِكَ، أَوْ أَنْ يَتِمْلِكَهُ الْخَوْفُ مِنَ الْمَوْتِ بِحَيْثُ يَتْرُكُ كُلَّ الْأَعْمَالِ وَيَتَفَرَّغُ لِلْعِبَادَةِ فَقَطْ، وَيَعِيشُ أَهْلُ بَيْتِهِ فِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ، وَالْحَالَتَانِ غَيْرُ مَحْمُودَتَيْنِ لَهُ. وَبِاخْتِصَارٍ: أَخْفَى اللهُ تَعَالَى وَقْتَ قِيَامِ السَّاعَةِ عَنْ عَامَّةِ النَّاسِ حَتَّى يَعْمَلُوا عَلَى التَّخْلُصِ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْآثَامِ.

أَمَّا الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فَقَدْ طَهَّرَهُمُ اللهُ مِنَ الذُّنُوبِ مِنَ الْأَصْلِ، وَهُمْ يَخْشَوْنَ اللهَ تَعَالَى فِي كُلِّ حَالٍ، وَلِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ دَاعٍ لِإِخْفَاءِ وَقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ عَنْهُمْ، وَفِي هَذَا الْخُصُوصِ يَقُولُ الشَّيْخُ أَحْمَدُ الصَّاوِي: «إِنَّهَا مِنَ الْأَمْرِ الْمَكْتُومِ الَّذِي اسْتَأْثَرَ اللهُ بَعْلَمَهُ فَلَمْ يَطْلُعْ عَلَيْهِ أَحَدٌ إِلَّا مِنْ ارْتِضَاءِهِ مِنَ الرُّسُلِ... وَالَّذِي يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ لَمْ يَنْتَقِلْ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى أَعْلَمَهُ اللهُ بِجَمِيعِ الْمَغِيَّاتِ الَّتِي تَحْصُلُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَهُوَ يَعْلَمُهَا كَمَا هِيَ عَيْنٌ يَقِينٌ لِمَا وَرَدَ: رُفِعَتْ لِي الدُّنْيَا، فَأَنَا أَنْظُرُ فِيهَا كَمَا أَنْظُرُ إِلَى كَفِّي هَذَا، وَوَرَدَ أَنَّهُ أَطْلَعَ عَلَى الْجَنَّةِ وَمَا فِيهَا وَالنَّارِ وَمَا فِيهَا، وَغَيْرُ ذَلِكَ بِمَا تَوَاتَرَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ، وَلَكِنْ أُمِرَ بِكِتْمَانِ الْبَعْضِ»^(١)، وَلِهَذَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَلَامَاتِ السَّاعَةِ، وَلَكِنَّهُ أَخْفَى وَقْتُهَا، كَمَا أَنَّ إِرَادَةَ اللهِ تَعَالَى هِيَ أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ بَغْتَةً، وَأَلَّا يَعْلَمَ النَّاسُ بِهَا قَبْلَ وَقْعِهَا، مِثْلَمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ ءَانِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ [طه: ١٥]، وَبِنَفْسِ الطَّرِيقَةِ، أَخْفَى اللهُ تَعَالَى وَقْتَ لَيْلَةِ الْقَدَرِ، حَتَّى يَقْضِيَ النَّاسُ أَكْثَرَ عَدَدٍ مِنَ اللَّيَالِي فِي عِبَادَتِهِ تَعَالَى، كَمَا أَخْفَى وَقْتَ قَبُولِ الدُّعَاءِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَيْضًا، حَتَّى يَقْضِيَ النَّاسُ أَكْبَرَ الْوَقْتِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فِي ذِكْرِهِ جَلَّ وَعَلَا.

(١) حاشية الصاوي، سورة الأعراف (٧): الآية ١٨٧.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّتَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾

٢٣ - الكفار اليوم يقولون على سبيل السخرية: أين عذاب القيامة؟ ولكن عندما يرون العذاب قد اقترب كثيرا يوم القيامة، ستتغير وجوههم وتصبح مشوهة من خوفه وتسود، وعندئذ سيقال لهم: نعم، هذا هو عذاب القيامة الذي كنتم تطالبون به مرة بعد المرة، واليوم لن تروه فقط، وإنما ستذوقونه أيضا.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

٢٤ - كان كفار مكة يُطمِئنون رفاقهم قائلين لهم: لا حاجة لكم إلى الانزعاج من هذا الدين الجديد؛ لأن محمدا شاعر، وسوف يموت، مثله مثل من سبقه من الشعراء، وعندئذ سيتفرق أصحابه عليه السلام، وينتهي دينه بنفسه، فرد النبي عليه السلام قائلا: سواء أمانني الله تعالى أنا وأصحابي سريعا أو رحمنا وأطال في عمرنا، بمعنى: سواء متنا اليوم أو بعد عشرة أعوام، لن ينفعكم هذا الأمر بشيء في كلتا الحالتين، لأن العذاب الأليم الذي ستلقونه بسبب كفركم لن يستطيع أحد أن يُنجيكم منه.

﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

٢٥ - قال النبي عليه السلام للكفار بأمر من الله تعالى: سواء أمنتُم بالله تعالى أم لم تؤمنوا، فإننا نؤمن به تعالى، ونتوكل عليه، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، وقريبا ستعرفون أنتم أيضا في القبر ويوم القيامة من هو في الضلال المبين، يعني: أنكم ستتيقنون - عندما ترون عاقبتكم الوخيمة - أنكم كنتم في ضلال مبين.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْحَحَ مَاؤُكُمْ غَوَا فَمَنْ يُبَاتِلُكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾

٢٦ - في هذه الآية خطاب للكفار، يعني: إذا جفت المياه في الأنهار والعيون،

أَوْ اِمْتَصَّتِ الْأَرْضُ الْمَاءَ وَجَذَبَتْهُ إِلَى بَطْنِهَا، بحيث لا تستطيعون استخراجَه، عندئذ أخبروني من أين سَتَحْضِلُون على الماءِ الجاري النظيف؟ ومن أين ستشربُ أنعامكم وتروى حقولكم؟ إنَّ هذا - من رحمةِ الله تعالى فقط - أنه لا يَحْرِمُكم من نعمةِ الماءِ رَغْمَ عصيانكم، ولهذا ينبغي لكم أن تشعروا بِنِعَمِ الله هذه، وألا تعبدوا أحداً سِواه.

الفقيه إلى الله: محمّد إمداد حُسين پيرزاده،
جامعة الكرم، إنجلترا
بعد صلاة المغرب من يوم الجمعة ٢٦ أكتوبر
٢٠١٠ م
الموافق ٢٠ ذي القعدة ١٤٣١ هـ

هذا وقد اكتمل بفضل الله وكرمه تفسيرُ سورة «المُلْك» في ثلاثة أيام فقط،
أي: من ٢٦ إلى ٢٩ أكتوبر، والحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلامُ على سيِّدِ
المرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٨) سُورَةُ الْقَلَمِ

هذه السُّورَةُ مَكِّيَّةٌ، واسمُها: «القَلَمُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأولى منها، وللسُّورَةِ اسمٌ آخرٌ هو «ن والقَلَمُ»، وهو الكلماتُ الأولى منها.

أهمية القلم

جاءت الإشارةُ في بدايةِ هذه السُّورَةِ إلى أهميَّةِ القَلَمِ والكتابة، مثلما قال سيِّدُنا قَتَادَةُ: «القَلَمُ نعمةٌ من الله تعالى عظيمةٌ، لولا ذلك لم يُقَمَّ دينٌ، ولم يَصْلُحْ عِشْرٌ»^(١). واليومَ يوجدُ القرآنُ الكريمَ وكذا الحديثُ الشَّريفُ مكتوبًا عندنا، ومع ذلك فإنَّ سُوقَ الاختلافاتِ رائجة، ويمكنك أن تتصوَّرَ ماذا يمكنُ أن تكونَ عليه الاختلافاتُ لو لم يكنْ هذانِ المصدرانِ موجودَيْنِ في شكلٍ مكتوبٍ.

لم يكن النبي ﷺ مجنوناً

كان كفَّارُ مَكَّةَ يقولونَ عنه ﷺ: مجنونٌ! حسداً من عندِ أنفسهم وبُغْضاً له، وقد رَدَّ اللهُ تعالى عليهم في الآيةِ الثانيةِ من هذه السُّورَةِ بأنْ أقسمَ مؤكِّداً أنه ﷺ ليس مجنوناً، وإنما فَضَّلُ اللهُ عليه عَظِيمٌ، وأنه صاحبُ أخلاقٍ عظيمة، ومَن كان

(١) تفسير القرطبي، سورة العلق (٩٦): الآية ١.

فضلُ الله عليه عظيمًا، وصاحبُ أخلاقٍ عظيمةٍ، لا يمكنُ أن يكونَ مجنونًا، كما جاء الردُّ على كلام الكفارِ في آخرِ السُّورةِ أيضًا من الله تعالى بأنه إذا كان القرآنُ الكريمُ نصيحةً وهدايةً للعالمين، فكيف يكونُ مجنونًا مَنْ نَزَلَ عليه هذا القرآنُ؟ ولهذا فإنَّ نزولَ القرآنِ الكريمِ عليه ﷺ دليلٌ كافٍ على أنه ﷺ لم يكنْ مجنونًا، وإنَّما كان تجسيدًا للعلم والحكمة.

لا تغتروا بالمال والثروة

أَنعَمَ اللهُ تعالى على كَفَّارِ مَكَّةَ بِالْمَالِ والثَّروَةِ، وكانت لهم مكانةٌ محترمةٌ وكريمةٌ بَيْنَ العربِ جميعًا، لكونِهِم المتولِّينَ أمورَ الكعبةِ، ولكنَّ لا يجبُ أن يغترُّوا بذلك؛ لأنَّ هذا كلُّهُ ابتلاءٌ من الله تعالى، فإنَّ لم يؤدُّوا شُكْرَ الله تعالى على هذه النِّعمِ، وأصْرُوا على عصيانِهِم له، فمَنْ الممكِنُ أن يَنزَلَ العذابُ عليهم ممَّا كان يَنزِلُ على العُصاةِ من الأَقْوامِ السابقةِ. وقد جاء في الآياتِ من ١٧ إلى ٣٣ ذِكْرُ عُصاةٍ من النَّاسِ كان اللهُ قد أَنعمَ عليهم بِالْمَالِ والمكانَةِ، ولكنَّ عندما لم يَرِجِعُوا عن طُغيانِهِم زالت كُلُّ هذه النِّعمِ وهَلَكَتْ.

دعوة إلى الكفار للتفكير

جاء التنبيهُ في الآياتِ من ٣٤ إلى ٤٧ على الكفارِ -بطُرُقٍ مختلفةٍ- بأنَّ لا يَعْصُوا اللهَ تعالى؛ لأنَّ العُصاةَ والمطيعينَ لن يتساويا يومَ القيامةِ، وإنَّما سيُصِيبُ العُصاةَ عندئذٍ الخزيُّ والعارُ، بينما سيَدْخُلُ المطيعونَ جناتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ.

إيذاء الكفار للنبي ﷺ

في هذه السُّورةِ تعليمٌ للنبيِّ ﷺ بأنَّ يصبرَ على إيذاءِ الكفارِ له، وأنَّ ينتظرَ

حُكِمَ اللهُ فيما يتعلَّقُ بهم، وألَّا يفعلَ مِثْلَ سَيِّدِنَا يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَام، حيثَ رَحَلَ عن قومِهِ دونَ أنَ ينتظرَ أمرَ اللهِ له، وكانت نتيجةَ ذلكَ أنَ لَبِثَ في بطنِ الحوتِ فترةً.

الفقيِّرُ إلى اللهِ: محمَّدُ إمداد حُسَيْن بيززاده،

جامعةُ الكرَم، بريطانيا

قبلَ صلاةِ الفجرِ من يومِ الأحدِ ٣١ أكتوبر ٢٠١٠م

الموافق ٢٢ ذي القعدة ١٤٣١هـ



سُورَةُ الْقَلَمِ (٦٨)،

مكية (٢)، آياتها (٥٢)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾
وَأَنْتَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتَبْصُرُ وَتُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تَطْعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ
فَيَذْهَبُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تَطْعِ كُلَّ حَلَّافٍ مِثْلِهِ ﴿١٠﴾ هَمَزَ مَشَاءَ بَنِيهِ ﴿١١﴾ مَنَاعَ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ
أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ
أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِفُهُ عَلَى الْحَرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا
مُصْصِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتِ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾
فَنَادَا مُصْصِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ أَغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا
يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَدِيرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصَائِلُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ
مُخْرَمُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لَا فَسَتْحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ
بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوُمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَنْوِلُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا
رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

﴿ت﴾

١ - واحدٌ من الحروفِ المقطعات، وهو سرُّ بينَ الله تعالى وبينَ رسوله ﷺ،

ولمزيد من التفصيل عنها راجع الحاشية رقم ١ من سورة البقرة، كما أن من مقاصد ذكر الحروف المقطعات: إخبار المنكرين بأن هذا القرآن مركب من مثل هذه الحروف التي يتكوّن منها كلامكم، ولهذا إذا كنتم تعتقدون أنه ليس كلام الله تعالى فأتوا بكلام مثله.

﴿وَالْقَلَمِ﴾

٢ - المراد من القلم عند بعض المفسرين هو: القلم الذي يكتب القدر، مثلما يقول سيّدنا عبادة بن الصّامت رضي الله عنه، من أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنّ أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب. قال: ربّ، وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كلّ شيء حتّى تقوم الساعة»^(١).

وأكثر المفسرين على أنّ المراد بالقلم: جنس القلم عموماً، يعني: أنّ الله تعالى أقسم بكلّ قلم يكتب به في السماء والأرض^(٢)، ففي الوحي الأوّل للقرآن الكريم ذكر للقلم العاديّ، أي: من جنس الأقلام، وهو الذي قال الله تعالى فيه: ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿[العلق: ٣-٤]﴾.

الوحي الأوّل والثاني للقرآن المجيد

تقول السيّدّة عائشة الصديقة رضي الله عنها: إنّها (أي: سورة العلق) أوّل سورة أنزلت على رسول الله ﷺ، ثم بعدها ﴿ت وَالْقَلَمِ﴾^(٣). يعني: أنه لم ينزل حكم سورة

(١) أبو داود، كتاب السنة، باب ١٦ برقم ٤٧٠٠.

(٢) «والقلم أكثر المفسرين على أن المراد به جنس القلم الذي يكتب به، أقسم الله سبحانه بكل قلم يكتب به في السماء وفي الأرض». التفسير المنير، سورة القلم (٦٨): الآية ١.

(٣) تفسير القرطبي، سورة العلق (٩٦): الآية ٤.

الصَّلَاةُ أو الصَّيَامُ أو الزَّكَاةُ أو الْحَجُّ في الْوَحْيِ الأوَّل ولا في الْوَحْيِ الثَّانِي للقرآن الكريم، وإنَّما جاء فيهما ذِكْرُ الْعِلْمِ وَالْقَلَمِ، وفي السُّورَةِ الثَّانِيَةِ أَقْسَمَ اللَّهُ بِالْقَلَمِ، واسمُ السُّورَةِ كُلِّهَا «الْقَلَمُ» أيضًا، ويمكنُكَ من خلالِ هذا كُلِّهِ التَّعَرُّفُ على مدى أَهْمِيَّةِ الْقَلَمِ والكتابة، والحقيقةُ أيضًا هي أَنَّ الكتابةَ تَفْضُلُ القراءةَ؛ لأنَّ المقرَّوءَ يُنْسَى، والمكتوبَ يُحْفَظُ، مثلما يقولُ سَيِّدُنَا عُمَرُ الْفَارُوقُ رضي الله عنه: «قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ»^(١).

دم الشهيد ومداد القلم

لقد أَحْدَثَ الْحَاسِبُ الْآلِيَّ (الكمبيوتر) ثورةً في عصرِنَا الْحَاضِرِ، فقد أَتَى بِمَعْلُومَاتِ الدُّنْيَا كُلِّهَا مَجْتَمِعَةً وَوَضَعَهَا أَمَامَنَا على الْمِنْضَدَةِ، وَالْحَاسِبُ الْآلِيَّ (الكمبيوتر) في الْوَاقِعِ ما هُوَ إِلَّا صُورَةٌ مَتَطَوِّرَةٌ مِنْ صُورِ الْكِتَابَةِ، وَأَمَامَ أَهْمِيَّةِ الْكِتَابَةِ هَذِهِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْلَ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةِ عَامٍ: «يُوزَنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِدَادُ الْعُلَمَاءِ وَدَمُ الشُّهَدَاءِ، فَيَرْجَحُ مِدَادُ الْعُلَمَاءِ على دَمِ الشُّهَدَاءِ»^(٢)، وَلَكَ أَنْ تَتَخَيَّلَ كَيْفَ أَنَّ شَهِيدًا ضَحَّى بِدَمَائِهِ وَرُوحِهِ في سَبِيلِ وَطَنِهِ وَأُمَّتِهِ، وَحَصَلَ على دَرَجَةِ الشَّهَادَةِ بِفَضْلِ هَذِهِ التَّضَحِّيَةِ، لَكِنَّ مِدَادَ قَلَمِ عَالِمٍ يَفْضُلُ دَمَ هَذَا الشَّهِيدِ، وَيَبْدُو - في الظَّاهِرِ - أَنَّ فَهْمَ هَذَا الْأَمْرِ صَعْبٌ، وَلَكِنَّكَ إِنْ تَمَعَّنْتَ في الْمِثَالِ التَّالِيَّ سَيَسْهُلُ فَهْمُهُ. يَعْلَمُ اللَّهُ كَمْ مِنَ النَّاسِ قَدْ اسْتَشْهَدُوا في زَمَنِ الْإِمَامِ الْبَخَارِيِّ، فَضَحَّوْا بِدَمَائِهِمْ، وَاسْتَحَقُّوا بِذَلِكَ الْجَنَّةَ، وَنَدَعُو اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَرْفَعَ دَرَجَاتِهِمْ، لَكِنَّا لَا نَعْلَمُ حَتَّى أَسْمَاءَ هَؤُلَاءِ الشُّهَدَاءِ، أَمَّا الْإِمَامُ الْبَخَارِيُّ الَّذِي دَوَّنَ بِمِدَادِ قَلَمِهِ أَحَادِيثَ النَّبِيِّ ﷺ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ النَّبَوِيَّةَ هِيَ الَّتِي تُرْشِدُ النَّاسَ وَتَهْدِيهِمْ مِنْذُ أَلْفٍ وَمِائَتَيْ عَامٍ، وَتَسْتَظِلُّ كَذَلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ.

(١) الدارمي، المقدمة، باب ٤٣.

(٢) كنز العمال، ١٠: ٤١ برقم ٢٨٨٩٩.

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾

٣ - أقسم الله تعالى - مع القلم - بما يُكْتَبُ بالقلم أيضاً، وبه تبرز أهمية الكتابة والتأليف، فما المراد بـ ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ في هذه الآية؟ إذا فهمناه على أنه قلم التقدير، فقد جاء في صيغة الجمع وإن كان مفرداً تعظيماً له وتكريماً، مثلما نستعمل صيغة الجمع لرجل عظيم تكريماً له، وإذا فهمناه على أنه جنس القلم عموماً، سيكون المراد عندئذ الملائكة الذين يَكْتُبُونَ صحائف الأعمال، أو العلماء الذين يَكْتُبُونَ علوم الدين.

كتابة القرآن الكريم

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ جماعة من الصَّحَابَةِ المَهَرَةِ في الكتابة لكتابة القرآن الكريم، وكان يقال لهذه الجماعة: «كُتَابُ الْوَحْيِ»، فكلما نزلت آية كان النبي ﷺ يقول لهم أن يَكْتُبُوها في المكانِ الفلاني، وهكذا كُتِبَ القرآن الكريم كله بإشراف النبي ﷺ ورعايته المباشرة، ولكن هذه الكتابات لم تكن مُدَوَّنة في شكل كتاب، وإنما دُونَتْ على الأوراق والأحجار والعظام وما شابه.

وكانت أهم وسيلة لحفظ القرآن في ذلك الوقت هو حفظه شفهيًا، وكان النبي ﷺ نفسه يحفظ القرآن الكريم، وحثَّ الصَّحَابَةَ الكرام على حفظه أيضاً، وكان نتيجة ذلك أن كثيراً من الصَّحَابَةِ الكرام رضي الله عنهم أيضاً حفظوه شفهيًا.

وبعد انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى استشهد مئات من حُفَاظِ القرآن الكريم، فخاف الصَّحَابَةُ الكرام رضي الله عنهم أن يصبح حفظ القرآن الكريم صعباً إذا استمرَّ استشهاد حُفَاظِهِ بهذه الوتيرة، وهكذا جُمِعَ القرآن الكريم بأمر سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه في شكل كتاب تحت إشراف ورعاية كُتَابِ الْوَحْيِ الْأَصْلِيِّينَ، وظلَّ القرآن بعد تدوينه في شكل كتاب يُحْتَفَظُ به عند خليفة العصر.

وقد كان العربُ هم المخاطَبينَ الأوَّلَ للقرآنِ المجيد، وكانت لهجاتُ القبائلِ العربيَّةِ يختلفُ بعضها عن بعضٍ، وكانوا يقرؤونَ القرآنَ الكريمَ كلُّ بلهجتِه ولهجةِ قبيلتِه، ولأنَّ لغتَهم الأمُّ هي اللُّغةُ العربيَّةُ، لهذا لم يكنْ هناكُ خوفٌ من وقوعِ لَبْسٍ أو خطأٍ في الفَهمِ بسببِ اختلافِ اللُّهجاتِ، ولكنْ حينَ انتشرَ الإسلامُ خارجَ حدودِ شبه الجزيرةِ العربيَّةِ، ووَصَلَ إلى أماكنَ وبلادٍ مختلفةٍ، وأخذَ غيرُ العربِ في تعلُّمِ القرآنِ الكريمِ من القبائلِ العربيَّةِ المختلفةِ بلهجاتِهم المختلفةِ أيضًا، وبالتالي كان من الطبيعيِّ ظهورُ الاختلافاتِ في القراءة، وهكذا أمرَ سيِّدنا عثمانُ رضي الله عنه بكتابةِ القرآنِ الكريمِ بلهجةِ قُريشٍ، ووَزَعَ نُسخًا منه على كلِّ البلادِ الإسلاميَّةِ التي تنتشرُ اليومَ في رُبوعِ العالمِ، وليس بينها أدنى اختلافٍ ولو بقدرِ ذرَّةٍ.

تدوين الحديث الشريف

يقولُ سيِّدنا عبدُ الله بنُ عمرٍ و رضي الله عنهما: كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ من رسولِ الله ﷺ أريدُ حِفْظَهُ، فَهَثَنِي قُريشٌ، وقالوا: تَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ سَمِعْتَهُ من رسولِ الله ﷺ، ورسولُ الله ﷺ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ في الغَضَبِ والرِّضا؟ فَأَمْسَكْتُ عن الكِتَابِ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لرسولِ الله ﷺ، فَأَوْمَأَ بِإصْبَعِهِ إلى فيه، وقال: «اكتبْ، فوالَّذي نَفْسِي بيده، ما خَرَجَ منه إِلَّا حَقٌّ»^(١).

﴿مَا أَنْتَ بِمَجْنُونٌ﴾

٤ - المجنونُ يُقالُ لذلك: الشَّخصِ الذي يَقَعُ قُتُورٌ في عَقْلِهِ، فلا يستطيعُ التَّمييزَ بينَ الصِّدْقِ والحِكمةِ والحِماقةِ والأمانةِ والخِيانةِ، ويتكلَّمُ بكلامٍ غيرِ

مترايط وبلا معنى، لكنّ النبي ﷺ كان في أعلى مراتب الصّدق والأمانة ويقظة الضمير، ومع ذلك عندما كان كفّار مَكّة يقولون عنه: إنه مجنون، كان النبي ﷺ يتأذى كثيراً من هذا الكلام، أيّ حمقى هؤلاء! لقد ظلّوا أربعين عاماً كاملة يدعونني الصّادق الأمين، ويحتفظون بأماناتهم عندي، ويحكمونني بينهم في خلافاتهم، والآن يقولون عني: مجنون!

وفي هذه الآيات أبطلَ الله تعالى ما يقوله كفّار مَكّة من جانب، فأقسم مؤكّداً على أنّ النبي ﷺ ليس مجنوناً، بل إنّ فضلَ الله تعالى عليه خاصٌ وعظيم، حيث أنعم عليه بنعمة النبوة، ومن يتفضّلُ الله عليه لا يكونُ مجنوناً، وإنّما يكونُ معلّماً للناسِ وهادياً لهم، ومن جانبٍ آخرَ سرّى الله تعالى عن قلبِ النبي ﷺ بأنّ يا رسولَ الله ﷺ، إنّك تعلمُ تماماً أنّك لستَ مجنوناً، وأنك بفضلِ الله نبيُّ الله تعالى، والله تعالى سيجزيك على تبليغ الإسلام بكلّ هذا الثّبات والاستقامة، رَغْمَ إيذاء كفّار مَكّة المستمرّ لك، أجراً لا ينتهي أبداً، وسيأتي وقتٌ قريبٌ للغاية حيث سترى أنت، ويرى كفّار مَكّة أيضاً، من منكم المجنون.

يعني: أنّهم هم المجانين في الحقيقة، وسوف يشاهدون بأنفسهم جنونهم هذا سريعاً، وهكذا عندما بدأ العربُ يدخلون في دين الله أفواجاً بعد فتح مَكّة، تيقّن الجميع من أنّ النبي ﷺ ليس مجنوناً، وإنّما نبيُّ الله تعالى.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

٥ - عندما يمدح الإنسان أحداً فقد يكون لسوء الفهم أو المبالغة أو الطمع أو الخوف دخلٌ في ذلك، ولكنّ الله تعالى قادرٌ مطلق، وهو المستغني، وهو العالمُ بأسرار القلوب، فإذا مدح الله تعالى أحداً أو أثنى عليه، فلا مجال إذاً للزيادة أو النقصان فيه، والآن يمكنك أن تقرّر بنفسك، إذا قال شخصٌ - عن الإنسان الذي

يقولُ عنه الله تعالى: إنه على خُلُقٍ عظيمٍ - إنه مجنون، ألا يكونُ هو نفسه المجنون؟ لأنَّ كلامَ الله تعالى لا يمكنُ أن يكونَ خاطئًا.

ومضات من حسن أخلاق النبي ﷺ

١ - يقولُ سيِّدنا مالكٌ رضي الله عنه: إنه بَلَغَهُ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ حُسْنَ الْأَخْلَاقِ»^(١).

٢ - يقولُ سيِّدنا ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي»^(٢).

٣ - يقولُ سيِّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: قيل: يا رسولَ الله، ادْعُ على المشركين، قال: «إِنِّي لَمْ أَبْعَثْ لَعَنًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً»^(٣).

٤ - يقولُ سيِّدنا أنسٌ رضي الله عنه: خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ فَمَا قَالَ لِي: أَفٍّ قَطُّ، وَمَا قَالَ لَشَيْءٍ صَنَعْتُهُ؟ لَمْ صَنَعْتُهُ؟ وَلَا لَشَيْءٍ تَرَكْتُهُ؟ لَمْ تَرَكْتُهُ؟ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا، وَلَا مَسَسْتُ خَزَأًا قَطُّ وَلَا حَرِيرًا وَلَا شَيْئًا كَانَ أَلَيْنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا شَمَمْتُ مِسْكَ قَطُّ وَلَا عِطْرًا كَانَ أَطْيَبَ مِنْ عَرَقِ النَّبِيِّ ﷺ»^(٤).

٥ - يقولُ سيِّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: مَا عَابَ النَّبِيُّ ﷺ طَعَامًا قَطُّ، إِنْ اشْتَهَاهُ أَكَلَهُ، وَإِلَّا تَرَكَهُ»^(٥).

(١) الموطأ، كتاب حسن الأخلاق، باب ١.

(٢) الجامع الصغير ١: ٢٥ برقم ٣١٠، وكتر العمال ١١: ٤٠٦ برقم ٣١٨٩٥.

(٣) مسلم، كتاب البر، باب ٢٤ برقم ٦٦١٣.

(٤) الترمذي، أبواب البر، باب ٦٩ برقم ٢٠١٥.

(٥) البخاري، كتاب المناقب، باب ٢٣ برقم ٣٥٦٣.

٦ - يقول سيدنا جابر رضي الله عنه: ما سئل النبي ﷺ عن شيء قط فقال: لا^(١).

٧ - تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده ولا امرأة ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله^(٢).

٨ - تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط، إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم بها الله^(٣).

٩ - قال كفار مكة عن النبي الكريم ﷺ: إنه ساحرٌ ومجنونٌ، وقاطعوه اجتماعياً، وتأمروا على قتله ﷺ، وأجبروه على الهجرة من مكة المكرمة، وقتلوا عمه سيدنا حمزة رضي الله عنه ومثلوا بجثته، ولكن حين فتح النبي ﷺ مكة بعد ثمانين سنة، خطب في هؤلاء الأعداء الألداء داخل حرم الكعبة قائلاً: «يا معشر قريش، ما ترون أني فاعلٌ فيكم؟»، قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]، اذهبوا وأنتم الطلقاء»^(٤)، وهذا المِثال الذي ضربته النبي ﷺ في العفو والتسامح وحسن الخلق، لا نجد له مثيلاً في التاريخ الإنساني، فلما رأى أهل مكة هذا الكرم العظيم من النبي ﷺ تقدّموا أفواجا، وأسلموا على يديه الطاهرتين.

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب ٣٩ برقم ٦٠٣٤.

(٢) مسلم، كتاب الفضائل، باب ٢٠ برقم ٢٣٢٨.

(٣) البخاري، كتاب الأدب، باب ٨٠ برقم ٦١٢٦.

(٤) سبل الهدى والرشاد، ٥: ٣٦٤، وفتح الباري لابن حجر العسقلاني، كتاب المغازي، باب دخول النبي ﷺ من أعلى مكة، ٨: ١٨ برقم ٤٢٨٩، وضياء النبي، المجلد ٤: ٤٤٥.

١٠ - يقول سيّدنا عثمان بن طلحة رضي الله عنه، وهو من بني شَيْبَةَ، وكان لَدَيْهِ مفتاح الكعبة: لِقَيْني رسولُ الله - ﷺ - بمكةَ قبلَ الهجرة، فدعاني إلى الإسلام فقلت: يا محمد، العَجَبُ لك حيثَ تطمَعُ أن أَتْبِعَكَ وقد خالفتَ دِينَ قومِكَ وجئتَ بدينٍ محدثٍ، وكنا نفتحُ الكعبةَ في الجاهليّةِ الاثنينَ والخميسَ، فأقبلَ يوماً يريدُ أن يَدْخُلَ الكعبةَ معَ النَّاسِ فأغلظتُ عليه ونلتُ منه، فحلُمَ عَنِّي، ثم قال: «يا عثمان، لعلَّكَ سَتَرِي هذا المِفْتَاحَ يوماً بيدي أضْعُهُ حيثَ شِئْتُ»، فقلتُ: لقد هَلَكْتُ قُرَيْشٌ وذَلَّتْ. قال: «بل عَمَرْتُ يومئذٍ وعَزَّتْ»، ودخلَ الكعبةَ، فوَقَعْتُ كلمتهُ مِنِّي موقِعاً فَظَنَنْتُ أَنَّ الأمرَ سَيَصِيرُ كما قال، فأردتُ الإسلامَ، فإذا قومي يَزْجُرُونَنِي زَجْراً شديداً (أي: وتخلّي عن إرادته في ذلك)، فلما كان يومُ الفَتْحِ قال لي: «يا عثمان، ائْتِ بالمفتاحِ» فَأَتَيْتُهُ به. فأخذه مِنِّي، ثم دَفَعَهُ إِلَيَّ وقال: «خُذوها خالدةً تالدةً لا يَتَزَعُّهَا مِنْكُمْ إِلَّا ظالمٌ، يا عثمان، إِنَّ اللهَ اسْتَأْمَنَكُمْ على بَيْتِهِ، فَكُلُوا مِنِّمَّا وَصَلَ إِلَيْكُمْ من هذا البيتِ بالمعروفِ»، فلما وَلَّيْتُ ناداني، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ، فقال: «ألم يكنِ الذي قلتُ لك؟» فذَكَرْتُ قولَه لي بمكةَ قبلَ الهجرة: «لعلَّكَ سَتَرِي هذا المِفْتَاحَ يوماً بيدي أضْعُهُ حيثَ شِئْتُ»، فقلتُ: بلى. أَشْهَدُ أَنَّكَ رسولُ الله^(١). وهكذا، مَضَتْ أَلْفٌ وأربعمائةُ سنةً، ولا يزالُ مفتاحُ الكعبةِ يَنْتَقِلُ في ذُرِّيَةِ سَيِّدِنَا عثمانَ بنِ طلحةَ رضي الله عنه، وسيبقى هكذا حتى يومَ القيامةِ يَقِينًا، وهذه معجزةٌ حَيَّةٌ للنبيِّ ﷺ، ونموذجٌ رائعٌ لإحسانِ النبيِّ ﷺ ولحسنِ أخلاقِهِ رَدًّا على قَسْوَةِ سَيِّدِنَا عثمانَ بنِ طلحةَ رضي الله عنه في الحديثِ معه.

١١ - تقولُ السَّيِّدَةُ عائشةُ رضي الله عنها، عن النبيِّ ﷺ: «لم يكنْ فاحشًا ولا متفحِّشًا، ولا صَحَابًا في الأسواقِ، ولا يَجْزِي بالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ ولكنْ يعفو ويصْفَحُ^(٢)».

(١) سبل الهدى والرشاد، ٥: ٣٦٦، وفتح الباري لابن حجر العسقلاني، وكتاب المغازي، باب دخول النبي ﷺ من أعلى مكة برقم ٤٢٨٩.

(٢) الترمذي، أبواب البر والصلة، باب ٦٩ برقم ٢٠١٦.

٣٧٤ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

١٢ - سَأَلَ سَيِّدُنَا سَعْدُ بْنُ هِشَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ السَّيِّدَةَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنْ خُلُقِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: بَلَى. قَالَتْ: فَإِنْ خُلِقَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ^(١)، يَعْنِي: أَنَّ كُلَّ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ حَقَّقَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَمَلِيًّا.

وما أَحْسَنَ مَا قَالَهُ سَيِّدُنَا أَحْمَدُ رِضَا خَان:

- قَالَ الْحَقُّ عَنْ خُلُقِكَ: عَظِيمٌ، وَجَمَلُ الْحَقِّ خُلُقُكَ.

- أَقْسَمَ بِمَنْ خَلَقَ حُسْنَكَ وَجَمَالَكَ، لَمْ يُولَدْ مِثْلَكَ يَا سَيِّدِي وَلَنْ يُولَدَ.

- أَعْطَاكَ اللَّهُ مَرْتَبَةً وَمَقَامًا لَمْ وَلَنْ يَنَالَهُ غَيْرُكَ.

- فَقَدْ أَقْسَمَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِمَدِينَتِكَ وَكَلَامِكَ وَخُلُودِكَ يَا سَيِّدِي.

١٣ - يَقُولُ الْعَلَامَةُ ابْنُ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيُّ وَالْعَلَامَةُ ابْنُ الْأَثِيرِ: إِنَّ قُطَاعَ الطَّرِيقِ مِنْ بَنِي قَيْسٍ هَاجَمُوا قَبِيلَةَ أُمِّ زَيْدٍ، وَنَهَبُوا مَتَاعَ الْبَيْتِ، وَأَخَذُوا زَيْدًا مَعَهُمْ عَنُوءً، وَبَاعُوهُ فِي سَوْقٍ عُكَاظٍ، حَيْثُ اشْتَرَاهُ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ بِأَرْبَعِمِائَةِ دِرْهَمٍ وَأَهْدَاهُ لِعَمَّتِهِ السَّيِّدَةَ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَلَمَّا تَزَوَّجَتِ السَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَهْدَتْهُ زَيْدًا، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ بِإِعْتَاقِهِ وَاتَّخَذَ مِنْهُ ابْنًا لَهُ.

وَسَافَرَ حَارِثُهُ وَالذُّزَيْدُ إِلَى مَنَاطِقَ عَدِيدَةٍ بَحْثًا عَنْ ابْنِهِ، وَذَاتَ يَوْمٍ عَرَفَ أَنَّ ابْنَهُ فِي مَكَّةَ، «فَخَرَجَ حَارِثُهُ وَكَعَبُ أَخُوهُ بِفِدَائِهِ، فَقَدِمَا مَكَّةَ، فَسَأَلَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَقِيلَ: هُوَ فِي الْمَسْجِدِ، فَدَخَلَا عَلَيْهِ، فَقَالَا: يَا ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يَا ابْنَ سَيِّدِ قَوْمِهِ، أَنْتُمْ أَهْلُ حَرَمِ اللَّهِ تَفْكُونُ الْعَانِي وَتُطْعَمُونَ الْأَسِيرَ، جِئْنَاكَ فِي وَلَدِنَا عَبْدِكَ، فَاْمُنْ عَلَيْنَا، وَأَحْسِنْ فِي فِدَائِهِ، فَإِنَّا سَنَرْفَعُ لَكَ. قَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟»، قَالُوا: زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ. فَقَالَ: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟ أَذْعُوهُ، فَخَيِّرُوهُ، فَإِنِ اخْتَارَكُمْ فَهُوَ لَكُمْ بَغِيرَ

فداءً، وإنِ اختارني فو الله ما أنا بالذي أختارُ - على من اختارني - فداءً»، قالوا: زدنا على النصف، فداءه، فقال: هل تعرف هؤلاء؟ قال: نعم، هذا أبي وهذا عمي، قال: فأنا من قد علمت، وقد رأيتُ صُحبتِي لك فاختَرني أو اختَرهما. فقال: يا زَيْدُ! ما أنا بالذي أختارُ عليك أحداً، أنتَ مِنِّي بمكانِ الأبِ والعمِّ. فقالا: وَيَحَكْ يا زَيْدُ! أختارُ العبوديةَ على الحرِّيةِ، وعلى أهلكَ وعمِّك وأهل بيتك؟ قال: نعم، إنِّي قد رأيتُ من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختارُ عليه أحداً. فلما رأى رسولُ الله ﷺ ذلك أخرجَه إلى الحَجَرِ، فقال: «اشْهَدُوا أنَّ زَيْداً ابني، يَرِثُنِي وأرثُهُ»، فلما رأى ذلك أبوه وعمُّه طابَتْ أنفُسُهُما، وانصَرَفَا، فدُعِيَ زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حتى جاء الله بالإسلام.... وقال ابنُ عمر: ما كنَّا ندعو زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ إِلَّا زَيْدَ بْنَ مُحَمَّدٍ حتى نَزَلَتْ: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥] (أي: فنادوه بزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ) ^(١). وهذا هو سعيدُ الحظِّ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ رضي الله عنه، والذي جَعَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ أميراً على الجيشِ الإسلامي يومَ مؤتة، وقد اسْتَشْهَدَ رضي الله عنه في هذه المعركة.

ومضات من حسن طباع النبي ﷺ

١ - يقولُ سَيِّدُنَا أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال ذاتَ مرةٍ لأصحابه: «إِنِّي لَأَمْرُحٌ، وَلَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا». قالوا: إِنَّكَ تُدَاعِبُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قال: «إِنِّي لَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا» ^(٢).

٢ - يقولُ سَيِّدُنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه: إِنَّ رَجُلًا اسْتَحْمَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فقال: «إِنِّي حَامِلُكَ عَلَى وَلَدِ النَّاقَةِ». فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَصْنَعُ بَوْلِدِ النَّاقَةِ؟ فقال

(١) أسد الغابة، ٢: ٢٣٨.

(٢) مجمع الزوائد، ٩: ١٧.

رسول الله ﷺ «وَهَلْ تَلِدُ الْإِبِلُ إِلَّا النُّوقَ؟»^(١)، فَقَدْ فَهِمَ هَذَا الرَّجُلُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: صَغِيرِ النَّاقَةِ، بَيْنَمَا كَانَ يَقْصِدُ ابْنَ النَّاقَةِ.

٣ - يَقُولُ سَيِّدُنَا الْحَسَنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَتَتْ عَجُوزٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُدْخِلَنِي الْجَنَّةَ، فَقَالَ: «يَا أُمُّ فُلَانٍ، إِنَّ الْجَنَّةَ لَا تَدْخُلُهَا عَجُوزٌ»! قَالَ: فَوَلَّتْ تَبْكِي، فَقَالَ: «أَخْبِرُوهَا أَنَّهَا لَا تَدْخُلُهَا وَهِيَ عَجُوزٌ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَهُنَّ إِنْسَاءً * جَعَلْنَهُنَّ أَزْوَاجًا * عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة: ٣٥-٣٧]^(٢)، فَقَدْ فَهِمَتْ هَذِهِ الْعَجُوزُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَتَحَدَّثُ عَنْهَا هِيَ، وَلِهَذَا بَكَتْ، لَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْصِدُ أَنَّ الْعَجُوزَ لَنْ تَدْخُلَ الْجَنَّةَ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ فِي الْجَنَّةِ مِنَ النِّسَاءِ سَيَكُنُ فِي عُمْرِ الشَّبَابِ، وَسَتَكُونُ أَعْمَارُهُنَّ مَا بَيْنَ ٣٠ وَ ٣٣ عَامًا^(٣).

٤ - يَقُولُ سَيِّدُنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ كَانَ اسْمُهُ زَاهِرًا، وَكَانَ يُهْدِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ هَدِيَّةً مِنَ الْبَادِيَةِ، فَيُجْهِّزُهُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ زَاهِرًا بَادِيْتُنَا وَنَحْنُ حَاضِرُوهُ»، وَكَانَ ﷺ يُحِبُّهُ، وَكَانَ رَجُلًا دَمِيمًا، فَاتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا وَهُوَ يَبِيعُ مَتَاعَهُ، فَاحْتَضَنَهُ مِنْ خَلْفِهِ وَهُوَ لَا يَبْصُرُهُ. فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ أُرْسِلْنِي، فَالْتَفَتَ، فَعَرَفَ النَّبِيَّ ﷺ، فَجَعَلَ لَا يَأْلُو مَا أَلْصَقَ ظَهْرَهُ بِصَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ عَرَفَهُ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ يَشْتَرِي هَذَا الْعَبْدَ؟»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذَا - وَاللَّهِ - تَجِدْنِي كَاسِدًا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَكِنْ عِنْدَ اللَّهِ لَسْتَ بِكَاسِدٍ». أَوْ قَالَ: «أَنْتَ عِنْدَ اللَّهِ غَالٍ»^(٤)، فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ يَكُونُ الْمَرَادُ بِالْعَبْدِ

(١) الترمذي، أبواب البر، باب ٥٧ برقم ١٩٩١.

(٢) شمائل الترمذي، ٢: ١١١، باب في صفة رسول الله ﷺ.

(٣) الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب ١٢ برقم ٢٥٤٥.

(٤) مسند أحمد، ٣: ١٦١، وشرح شمائل الترمذي، باب في صفة مزاح النبي ﷺ، ٢: ١٠٧.

في الظاهر هو الغلام، لكنّه كان ذلك الشخص الحرّ، وكان النبي ﷺ يقصد أنه عبد الله تعالى.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾

٦ - الله تعالى يعلم تمام العلم أولئك الذين ضلّوا عن الطريق القويم، كما يعلم تمام العلم أيضًا الذين يسيرون على هذا الطريق رغم الصعوبات الجمة التي يواجهونها، وسيجزي الله تعالى يوم القيامة كلًّا من الطائفتين طبقًا لأعمالهم.

﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾

٧ - الذين رَفَضُوا الإيمان بك نبيًا لا يمكن أن يكونوا مخلصين لك، ولهذا لا تُبالِ بهم؛ لأنهم - أصلًا - يريدون أن تتخلّى عن بعض أحكام دينك، حتى يتركوا هم أيضًا بعض أحكام شريكهم^(١)، ولو بدأت سلسلة التعديل والترميم هذه في دين الإسلام، فسيأتي يوم ينتهي فيه هذا الدّين تمامًا، ولهذا لا تنخدع بكلامهم، واثبت على أحكام دينك كلّها.

النبيّ يكون معصومًا من الذنوب، ولا يمكن أن يفكر مجرد التفكير في حذف أيّ حكم من أحكام الدّين، ولهذا فإنّ في هذه الآيات تنبيهًا للأمة المسلمة من خلال سيّدنا محمد ﷺ بأن لا ينخدعوا بكلام الكفار فيما يتعلّق بالدّين.

﴿عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْمٌ﴾

٨ - يقول المفسّرون: «نزلت في الوليد بن المغيرة»^(٢)، وفي هذه الآيات تسريّة

(١) «قال الحسن: «ودّوا لو ترفض بعض أمرك فيرفضون بعض أمرهم». تفسير القرطبي.

(٢) صفوة التفاسير.

عن قلبِ النبي ﷺ بأن لا يحزنَ ولا يغتمَ من الكلام الجارح لذلك الحَبِيث، إذ إنه سيكونُ ذليلاً مَخْزِيًّا إلى الأبد.

يُروى أن «الآيةَ لَمَّا نَزَلَتْ جاءَ الوليدُ إلى أمِّه فقال لها: إنَّ محمدًا وَصَفَنِي بتسعِ صفاتٍ، كُلُّها ظاهرةٌ فيَّ أعرفُها غيرَ التاسعِ منها، يريدُ أنه ﴿زَنِيمٌ﴾، فإنَّ لم تَصْدُقْني ضَرَبْتُ عُنُقَكَ بالسيف، فقالت له: إنَّ أباك كان عَنِينًا أي: لا يستطيعُ معاشرَةَ النساءِ - فَخِفْتُ على المالِ فمَكَّنْتُ راعيًا من نَفْسي، فأنت ابنُ - ذلك الراعي»^(١).

ذم النيمة

تقولُ السيِّدةُ أسماءُ بنتُ يزيدَ بنِ سَكَنٍ الأنصاريَّةُ رضي الله عنها: إنَّ النبي ﷺ قال: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخِيَارِكم؟»، قالوا: بلى، قال: «فَخِيَارُكم الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللهُ تعالى، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشَرِّارِكم؟»، قالوا: بلى، قال: «فَشَرَّارُكم المَفْسِدُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ، الْمَشَاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ، الْبَاغُونَ الْبُرَاءَ الْعَنَتُ»^(٢).

﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾

٩ - يعني: أنَّ ذلك الشَّخصَ كان قد قَطَعَ شوطًا كبيرًا في الطُّغيانِ والغرورِ بسببِ كثرةِ مالِهِ وأولادِهِ، بحيث أنه كان يقولُ عندما تُتلى عليه آياتُ الله تعالى: إنَّ هذه قَصَصٌ كاذبةٌ من قَصَصِ السابقين.

﴿سَنَسِيحُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾

١٠ - الأنفُ هو العضو الأعلى في الوجه، وهو مَظْهَرٌ من مظاهرِ الجمالِ في الإنسان، فَمَنْ كان أنْفُه مجدوعًا، أو مُشوَّهاً كان قبيحَ المنظر، ولهذا تُستخدَمُ

(١) صفوة التفاسير.

(٢) مسند أحمد، ٦: ٤٥٩.

عباراتٌ مثلُ: جَدَعَ الأنفِ وتشويهه وقَطَعَهُ وغيرها للدلالةِ على الذلِّ والخِزيِ للإنسان، وقد استعملَ اللهُ تعالى أيضاً تعبيرَ تشويهِ الأنفِ وكَيِّهِ على سبيلِ الكنايةِ لبيانِ ذلِّ الوليدِ وخِزيه، يعني: أننا سنضَعُ على أنفه الكبيرِ شبيهَ خرطومِ الفيلِ وَضَمَاتِ العارِ والذلِّ قريباً، بحيث لا يستطيعُ أن يُريَ وجهه لأحدٍ أو يُواجهه، وهكذا عندما تيقنَ الناسُ من أنه ذو أصلٍ سيئٍ بعدَ نزولِ هذه الآيةِ وتأكيدهِ أمه لها، كانوا يكرهونه وَيَنفِرُونَ منه بمجرّدِ رؤيةِ وجهه.

﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾

١١ - أنعم اللهُ تعالى على كفّارِ مكّةَ بالمالِ والثروة، كما أنعمَ عليهم بالمكانةِ الرَّفِيعَةِ والاحترامِ في شبهِ الجزيرةِ العربيّةِ كلّها لكونِهِم القائمينَ على خدمةِ الكعبةِ، ولكن لا ينبغي لهم أن يَغْتَرُّوا بهذا الأمرِ؛ لأنّ هذا ابتلاءٌ لهم من الله تعالى، فإن لم يؤدُّوا شُكْرَ هذه النِّعمِ، وظلُّوا مُصِرِّينَ على عصيانِهِم لله، فسيُصِيبُهُم أيضاً ذلك العذابُ الذي أصابَ العُصَاةَ من الأممِ السابقة. وفي الآياتِ الستِ عشرةِ التَّالِيَةِ جاء الحديثُ عن قصّةِ عُصَاةٍ مثلِ هؤلاءِ أنعمَ اللهُ عليهم بالمالِ والاحترامِ، لكن عندما لم يَرِجِعُوا عن طُغْيَانِهِم أَهْلَكَ كُلَّ مَا لَدَيْهِمْ ودمَّرَهُ، وقد بيّنَ المفسِّرونَ هذه الواقعةَ بِالْفَاطِظِ وأسلوبٍ مختلفٍ، وأنا هنا أقدمُ خلاصةَ كلّ ما أوردوه:

كان أحدُ الأغنياءِ يعيشُ بالقربِ من صنعاءَ في اليمنِ، وكان رجلاً صالحاً من متَّبِعي سَيِّدِنَا عيسى عليه السَّلامِ، وقد جَعَلَ من بعضِ أرضِهِ بُسْتَاناً من العِنَبِ، بينما كان يزرَعُ الجزءَ الآخرَ منها بمحاصيلٍ أخرى، وكان من عادةِ هذا الرَّجُلِ الصَّالِحِ أنه عندما ينضِجُ المحصولُ وَيَحِينُ موعدُ حَصَادِهِ وقَطْفِ ثمارِهِ، كان الفقراءُ والمساكينُ في منطقتهِ يجتمعونَ عندَ أرضِهِ، وكان هو يقومُ بتقسيمِ بعضِ الغلالِ والثَّمارِ بينهم، وكان لهذا الرَّجُلِ الصَّالِحِ ثلاثةُ أبناءٍ، فلَمَّا مات وورَثَهُ أبنَاؤُهُ الثلاثةُ،

تشاؤروا فيما بينهم بأن إنفاقنا قد ازداد، ولهذا سندهب لجمع الثمار غداً في الصباح الباكر قبل أن يجتمع الفقراء عند الأرض، فقال الأخ الأوسط لأخويه - وكان الأكثر ذكاءً بينهم -: ينبغي لنا أن نشكر الله تعالى، وأن نستمر في مساعدة الفقراء، وعلينا أن نحرس على تقديم المشيئة قائلين: «إن شاء الله» أيضاً، وعليه أقسم أخواه بأن البستان بستاننا، ونحن الذين نعمل فيه بجد واجتهاد، ولهذا لن نعطي أولئك العاطلين منه شيئاً. وهكذا اغترؤا بثمارهم ومحصلهم إلى درجة أنهم لم يشعروا بحاجة إلى تقديم المشيئة، وباختصار، فإن من استيقظ منهم مبكراً قبل الآخر أيقظ باقي أسرته، واتجهوا مسرعين إلى البستان، وكانوا يتحدثون فيما بينهم بهمس حتى لا يسمعهم الفقراء، فيستيقظون هم أيضاً ويلحقون بهم من خلفهم، وكانوا يعتقدون أنهم قادرون على تنفيذ ما أرادوا، وأنهم سيجمعون ثمارهم ومحصلهم قبل أن يجتمع عندهم الفقراء، ولكن حين وصلوا بالقرب من البستان فوجئوا بأنه قد احترق واستحال رماداً، وفسد كل ثماره أيضاً. في البداية اعتقدوا أنهم أخطأوا الطريق إلى بستانهم في عتمة الليل، وأنهم وصلوا إلى بستان ليس لهم، ولكن حين تمعنوا في المكان وتأملوه أصابتهم دهشة عظيمة، إذ تأكد لهم أن هذا البستان المحترق هو بستانهم، وأن حظهم قد ساء، وأنهم قد حرّموا من بستانهم، وعندئذ أخذ أخوهم الأوسط يذكرهم قائلاً: ألم أقل لكم: تذكروا الله تعالى ولا تظلموا الفقراء، فلما شعروا بخطئهم، وأخذ كل منهم يلوم الآخر على هذا الخطأ، تابوا إلى الله تعالى قائلين: يا ربنا، سبحانه، لقد طعنا واعتدنا يقيناً، فاعفُ عنا، وأنعم علينا ببستان خير منه.

وباختصار، فإن الذين يعصون الله تعالى ويظفون ينزل عليهم العذاب بهذا الشكل، وهذا هو عذاب الدنيا، أما عذاب الآخرة فهو أشد منه وأعظم.

ملحوظة

رَغِمَ أَنَّ الْأَخَ الْأَوْسَطَ قَامَ بِعَمَلٍ طَيِّبٍ لِلْغَايَةِ بِأَنْ حَاوَلَ مَنَعَ إِخْوَتِهِ مِنْ ارْتِكَابِ مَا ارْتَكَبُوهُ، وَلَكِنْ حِينَ لَمْ يَسْتَطِعْ إِنْقَاذَ نَفْسِهِ، وَاشْتَرَكَ مَعَهُمْ فِي الْفِعْلِ، كَانَ حُكْمُهُ هُوَ حُكْمَهُمْ أَيْضًا.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخْتَرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَلَيْنَا بَلَاغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنْ لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَشَعَةَ أَبْصَارِهِمْ رَهَقَهُمْ ذُلٌّ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ نَوْلَا أَنْ تَدْرِكُهُمْ نِعْمَةُ مِنْ رَبِّهِ لَنُبْذِلَ بِالْعَرَاءِ وَهُمْ ذَمُّومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَنِبْ رَبَّهُ، فَعَجَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾

١٢ - يقول العلامة القرطبي: «إِذَا سَمِعُوا (أَي: سَادَةُ قُرَيْشٍ) بِحَدِيثِ الْآخِرَةِ وَمَا وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ قَالُوا: إِنْ صَحَّ أَنَا نُبْعَثُ كَمَا يَزْعُمُ مُحَمَّدٌ وَمَنْ مَعَهُ لَمْ يَكُنْ حَالُنَا وَحَالُهُمْ إِلَّا مِثْلَ مَا هِيَ فِي الدُّنْيَا، وَإِلَّا لَمْ يَزِيدُوا عَلَيْنَا وَلَمْ يَفْضَلُونَا، وَأَقْصَى أَمْرِهِمْ أَنْ يُسَاوُونَا»^(١)، وَقَدْ أَبْطَلَ اللَّهُ تَعَالَى زَعْمَهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَوِيَ فِي أَيِّ بِلَدٍ مَتَحَضِّرِ الْمَوَاطِنِ الْمَلْتَزِمِ بِالْقَانُونِ مَعَ نَظِيرِهِ الْمَجْرَمِ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ إِذَا أَنْ يَتَسَاوَى الْمُطِيعُونَ لِلَّهِ مَعَ الْعُصَاةِ لَهُ؟ مَا الَّذِي دَهَاكُم؟ كَيْفَ تَقُولُونَ مِثْلَ هَذَا الْكَلَامِ

الذي لا يَقْبَلُهُ أَيُّ عَقْلٍ أَوْ مَنْطِقٍ، إِلَّا إِذَا كَانَ لَدَيْكُمْ كِتَابٌ سَمَآوِيٌّ مَكْتُوبٌ فِيهِ أَنْكُمْ سَتَفُوزُونَ فِي الْآخِرَةِ بِمَا تَرِيدُونَ، فَأَحْضِرُوا هَذَا الْكِتَابَ وَأَرْوْنَا إِيَّاهُ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَدَيْكُمْ مِثْلُ هَذَا الْكِتَابِ السَّمَآوِيِّ فَاتَّقُوا اللَّهَ إِذَا وَخَافُوهُ، وَلَا تُفْسِدُوا آخِرَتَكُمْ.

﴿أَمْ لَكُمْ أَيمَنٌ عَلَيْنَا بَلِغَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾

١٣ - إِذَا لَمْ يَكُنْ لَدَيْكُمْ أَيُّ دَلِيلٍ: عَقْلِيٍّ أَوْ نَفْلِيٍّ، فَهَلْ لَدَيْكُمْ أَيْمَانٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَعَهْدٌ وَمِيثَاقٌ عَلَى أَنْكُمْ سَتَفُوزُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا تُقَرَّرُونَهُ أَنْتُمْ بِأَنْفُسِكُمْ؟ فَإِنْ كَانَ لَدَيْكُمْ مِثْلُ هَذَا الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ، فَمَنْ يَأْتِي الضَّامِنُونَ لَهُ وَالشُّهُودُ عَلَيْهِ، مَنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْرِمَتْ هَذِهِ الْمَعَاهِدَةُ بِضَمَانِهِمْ وَشَهَادَتِهِمْ، وَلِهَذَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِيمَا تَقُولُونَ فَاتُّوا بِأُولَئِكَ الشُّهُودِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَدَيْكُمْ شُهُودٌ، وَمَنْ الْمُؤَكَّدُ أَنَّهُ لَيْسَ لَدَيْكُمْ بِالْفِعْلِ أَيُّ شُهُودٍ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَخَافُوهُ، وَلَا تُفْسِدُوا آخِرَتَكُمْ.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾

١٤ - عِنْدَمَا يَكْشِفُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ نُورِ سَاقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَدْعُو النَّاسَ لِلسُّجُودِ، سَيَخِرُّ أَهْلُ الْإِيمَانِ الْمَخْلَصُونَ سَاجِدِينَ لَهُ، أَمَّا الْكَفَّارُ فَسَوْفَ تَتَصَلَّبُ ظُهُورُهُمْ، وَلَنْ يَسْتَطِيعُوا السُّجُودَ رَغْمَ مُحَاوَلَاتِهِمْ ذَلِكَ، فِي حِينٍ أَنَّهُمْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فِي الدُّنْيَا، لَكِنْ لَمْ يَكُونُوا يَسْجُدُونَ رَغْمَ صِحَّةِ أَبْدَانِهِمْ، وَلِهَذَا فَإِنَّهُمْ سَيُحَرِّمُونَ الْيَوْمَ مِنَ السُّجُودِ عِقَابًا لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَسَتَكُونُ أَبْصَارُهُمْ خَاشِعَةً مِنَ النَّدَمِ وَالْحَجَلِ، وَيَغْشَى وَجُوهَهُمُ الذُّلُّ وَالْخِزْيُ.

يَقُولُ سَيِّدُنَا أَبُو سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا»^(١).

﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾

١٥ - يا أيُّها النبي الحبيب ﷺ، لا تُبَالِ بالذين يُكذِّبونَ القرآنَ الكريمَ، واترك أمرهم إليَّ أنا، وأنا سأنتقمُ منهم.

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾

١٦ - الذين يُكذِّبونَ القرآنَ المجيدَ، لا يتمُّ عقابُهم فوراً في أحيانٍ كثيرة، بل على العكس، يزيدهم الله سعةً في الدنيا ورفاهيةً في العيش، وهكذا يفهمون خطأ أن عملهم صحيح، بينما الحقيقة هي أنهم يتقدمون إلى الهلاك والدمار تدريجياً، والله تعالى يمهّلهم لكي يصلحوا من أنفسهم ويهتموا بهذا، لكن الذين لا يتوبون برغم كل هذا، فإن مؤاخذه الله لهم تنزل عليهم في شكل عذابٍ شديدٍ يصيبهم، ولو أراد الله لأخذهم في هذه الدنيا وفي أي وقتٍ شاء، ولو أراد لأخر ذلك إلى الآخرة، ولكنه عندما يأخذهم لا يفلتهم، ولا يقدر أحدٌ على إفلاتهم، لأنَّ أخذه شديدٌ، فإذا وجد أحدُ العصاة سعةً في رزقه في هذه الدنيا، لا ينبغي أن يظنَّ أن هذه نعمةً من الله عليه، فمن الممكن أن تكون هذه السعة وسيلةً لابتلائه وهلاكه.

يُنْقَلُ العلامةُ القرطبيُّ في تفسير هذه الآية حديثاً يقول: «إنَّ رجلاً من بني إسرائيل قال: يا ربِّ، كم أعصيك وأنت لا تعاقبني! قال: فأوحى الله إلى نبيِّ زمانهم أن قلَّ له: كم من عقوبةٍ لي عليك وأنت لا تشعر. إنَّ جمودَ عينيك وقساوةَ قلبك استدراجٌ مِنِّي وعقوبةٌ لو عَقَلْتَ»^(١).

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾

١٧ - يا أيُّها النبي الحبيب ﷺ، لو أنَّكَ تطلُبُ منهم أجراً على دعوتك لهم

(١) تفسير القرطبي، سورة القلم (٦٨): الآية ٤٤.

بما لا يستطيعون تحمُّله لكان لإنكارهم سببٌ مفهوم، لكنك تسعى إلى خيِّرهم بغير أجر، فما أحمق هؤلاء الناس وما أجهلهم إذ لا يسمعون ما تقول!

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾

١٨ - يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، هؤلاء الكفار لا يؤمنون بك برغم نزول القرآن والمعجزات، فسألهم؛ هل لديهم دليلٌ على إنكارهم هذا؟ إن كان يأتيهم من الغيب خبرٌ يكتبونه، فليقدِّموا هذا الذي كتبوه، ولكن ليس لديهم بالفعل أيُّ شيءٍ مكتوبٍ من علم غيبي، وإنما يرفضون الإيمان بك بسببٍ تعصُّبهم وعنادهم لا أكثر.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾

١٩ - يعني اصبر على إيذاء الكفار لك، وانتظر حُكم الله تعالى فيما يتعلَّق بهم، ولا تفعلْ مثلَ ما فعل سيِّدنا يونس عليه السَّلام، إذ رَحَلَ عن قومه دون أن ينتظر حُكمًا منَّا وأمرًا، وكانت نتيجة ذلك أن مكث في بطن الحوت لفترة، ثم تضرَّع إلى الله تعالى في حالة من الحُزن والغضبِ قائلاً: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

قصة سيِّدنا يونس عليه السَّلام والحوت

أرسلَ اللهُ تعالى سيِّدنا يونس عليه السَّلام نبيًّا إلى أهل نينوى في العراق، فنهى أهل نينوى عن الشُّرك، ودعاهم إلى التوحيد، لكنَّهم كذبوه، وازدادوا عنادًا وطغيانًا وتعصُّبًا، فأخبرهم بالوعيدِ بالعذابِ على كلِّ هذا بأنَّ العذابَ سينزلُ عليهم في غضونِ ثلاثةِ أيام، وغَضِبَ هو نفسه من هؤلاء الناسِ ورَحَلَ من عندهم، ولم ينتظرَ وحياً من الله في أمرِ هذه الهجرة التي قام بها، ورغم أنَّ من المستحسنِ لعامةِ

المؤمنين أن يُهاجروا من بلادِ أمثالِ هؤلاءِ المشركينَ المعاندينَ، لكنّ الذي يليقُ بشأنِ النبيِّ هو أن ينتظرَ الوحيَ من الله تعالى.

يقولُ العلامةُ الرازي: إنّ سيّدنا يونسَ عليه السّلامُ «رَكِبَ مَعَهُمْ (أي: في السّفينة)، فلمّا تَلَجَّجَتِ السّفينةُ تَكْفَأَتْ بهم وكادوا أن يَغْرَقُوا، فقال المَلّا حُونَ: ها هنا رجلٌ عاصٍ أو عبدٌ أَتَقُّ؛ لأنّ السّفينةَ لا تَفْعَلُ هذا من غيرِ رِيحٍ إلّا وفيها رجلٌ عاصٍ، ومِن رَسْمِنَا أنّا إذا ابْتَلَيْنَا بِمِثْلِ هذا البلاءِ أن نَقْتَرِعَ، فَمَنْ وَقَعَتْ عليه القرعةُ أَلْقَيْنَاهُ في البحرِ، ولأنّ يَغْرَقُ أحدٌ خَيْرٌ من أن تَغْرَقَ السّفينةُ، فاقْتَرَعُوا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَوَقَعَتِ الْقُرْعَةُ فيها كُلُّهَا على يونسَ عليه السّلامُ، فقال: أنا الرَّجُلُ العاصي والعبدُ الأَبَقُ، وأَلْقَى نَفْسَهُ في البحرِ، فجاء حوتٌ فابْتَلَعَهُ، فأوْحَى اللهُ تعالى إلى الحوتِ لا تُؤْذِ منه شعرةً فَإِنِّي جَعَلْتُ بِطْنَكَ سِجْنًا لَهُ ولم أَجْعَلْهُ طَعَامًا لَكَ»^(١).

خَرَجَ سيّدنا يونسُ عليه السّلامُ دُونَ أن ينتظرَ الوحيَ، وكان يَظُنُّ أنه لا يَرْتَكِبُ بهذا خطأً، ولهذا لا مُؤَاخَذَةً عليه، ولكنّه بعدَ ذلك شَعَرَ وهو في بطنِ الحوتِ أنّ الهجرةَ قَبْلَ نزولِ الحُكْمِ بها من الله تعالى كان خطأً في اجتهاده، ولهذا اعْتَرَفَ بِخَطِئِهِ، ودعا الله وهو في ظُلُمَاتِ بطنِ الحوتِ، وَقَبِلَ اللهُ دَعَاءَهُ، وأَخْرَجَهُ الحوتُ من بطنِهِ وأَلْقَى به على شاطئِ البحرِ.

فضل دعاء سيدنا يونس عليه السلام

- قال النبيُّ الكريمُ ﷺ فيما رواه سَعْدُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحَوْتِ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ»^(٢).

(١) التفسير الكبير، سورة الأنبياء (٢١): الآية ٨٧.

(٢) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ٨٢ برقم ٣٥٠٥.

- ذات مرة قال النبي ﷺ لأصحابه: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشَيْءٍ إِذَا نَزَلَ بِرَجُلٍ مِنْكُمْ كَرْبٌ، أَوْ بَلَاءٌ مِنْ بَلَايَا الدُّنْيَا، دَعَا بِهِ يُفَرِّجُ عَنْهُ؟»، فقليل له: بلى، فقال: «دَعَاءُ ذِي الثُّنُونِ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾»^(١).

﴿لَوْلَا أَنْ تَدْرَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾

٢٠ - لو لم يُسَبِّحْ سَيِّدُنَا يونسُ عليه السَّلامُ الله في بطنِ الحوتِ، ولو لم يَقْبَلِ اللهُ تعالى توبته، لَأَلْقَى به في مِيدَانِ صَحْرِيٍّ، وَلَمَّا كَانَ هُنَاكَ مَنْ يَسْأَلُ عَنْهُ، أَوْ بَقِيَ فِي بطنِ الحوتِ حَتَّى قِيَامُ السَّاعَةِ، مِثْلَمَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلِئْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣-١٤٤].

﴿فَأَجْنَبْهُ رُبَّهُ، فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

٢١ - جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سَيِّدُنَا يونسَ عليه السَّلامُ مِنَ الصَّالِحِينَ بِفَضْلِ تَسْبِيحِهِ فِي بطنِ الحوتِ وَتَوْبَتِهِ إِلَى اللهِ، وَعَادَ أَمْرُهُ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ، وَعِنْدَمَا عَادَ عَلَيْهِ السَّلامُ إِلَى قَوْمِهِ فَرَحُوا بِهِ جَمِيعًا، وَآمَنُوا بِهِ، وَهُمْ الَّذِينَ كَانُوا قَدْ كَذَّبُوهُ مِنْ قَبْلُ، مِثْلَمَا يَقُولُ اللهُ تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٧-١٤٨].

﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾

٢٢ - عِنْدَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتْلُو الْقُرْآنَ كَانَ الْكَفَّارُ يُحَدِّقُونَ فِيهِ بَعْيُونَهُمْ، وَكَأَنَّهُمْ سَيَأْكُلُونَهُ إِنْ اسْتَطَاعُوا، كَمَا أَنَّ الَّذِينَ اسْتَهْرُوا بِالْحَسَدِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ،

قاموا بتقديم خَدَمَاتِهِمْ أيضًا في هذه الخصوصِ بالنَّظَرِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بعيونٍ حاسدةٍ لِيُلْحِقُوا بِهِ ضَرَرًا، لَكِنَّ الشَّمْعَةَ الَّتِي يَرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَحْفَظَ نُورَهَا، لَا يُمْكِنُ لِأَيِّ أَحَدٍ مِنْ سَيِّئِي الطَّوْيَةِ أَنْ يَضُرُّوَهَا بِنَظَرَاتِهِمْ السَّيِّئَةِ.

النظرة السيئة (الحسد)

- يَقُولُ سَيِّدُنَا أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْعَيْنُ حَقٌّ»، وَنَهَى عَنِ الْوَشْمِ^(١).

- تَقُولُ السَّيِّدَةُ أُمُّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى فِي بَيْتِهَا جَارِيَةً فِي وَجْهِهَا سَفْعَةٌ^(٢)، فَقَالَ «اسْتَرْقُوا لَهَا، فَإِنَّ بِهَا النَّظْرَةَ»^(٣).

- يَقُولُ سَيِّدُنَا أَبُو سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنَ الْجَانِّ وَعَيْنِ الْإِنْسَانِ، حَتَّى نَزَلَتِ الْمَعْوِذَتَانِ، فَلَمَّا نَزَلَتَا أَخَذَ بِهِمَا وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا»^(٤).

- يَقُولُ سَيِّدُنَا أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْعَيْنُ حَقٌّ، وَيَحْضُرُهَا الشَّيْطَانُ، وَحَسَدُ ابْنِ آدَمَ»^(٥).

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾

٢٣ - إِذَا كَانَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ نَصِيحَةً وَهَدَايَةً لِلْعَالَمِينَ جَمِيعًا، فَكَيْفَ يُمْكِنُ

(١) البخاري، كتاب الطب، باب ٣٦ برقم ٥٧٤٠. ومسلم، كتاب ٣٩، باب ٢١ برقم ٢١٩٧.
(٢) بفتح السين، الفعلة الواحدة، أي: علاقة من الشيطان. النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير، وتفسير غريب ما في الصحيحين لابن فتوح.
(٣) البخاري، كتاب الطب، باب ٣٥ برقم ٥٧٣٩.
(٤) الترمذي، أبواب الطب، باب ١٦ برقم ٢٠٥٨.
(٥) تفسير ابن كثير، سورة القلم (٦٨): الآية ٥١، ٤: ٣٥٨.

أن يكونَ من نَزَلَ عليه هذا القرآنُ مجنوناً؟ ولهذا فإنَّ نزولَ القرآنِ الكريمِ يُعدُّ في ذاته دليلاً كافياً على أنه ﷺ ليس مجنوناً، وإنما هو تجسيدٌ للعلم والحكمة.

الفقيهُ إلى الله: محمَّد إمداد حُسَيْن بيززاده،

جامعةُ الكرم، بريطانيا

بعد إشراف يوم الجمعة ٥ نوفمبر ٢٠١٠م

الموافق ٢٧ ذي القعدة ١٤٣١هـ

هذا وقد اكتمل بفضل الله تعالى وكرمه تفسيرُ سورة «القلم» في خمسة

أيام فقط، أي: من ٣١ أكتوبر إلى ٥ نوفمبر، والحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ

والسَّلام على سيِّد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٩) سُورَةُ الْحَاقَّةِ

هذه السورة مكيّة، واسمها: «الحاقة»، وتبدأ به السورة.

قيام الساعة أمر يقيني

في الآيات الأولى لهذه السورة جاء التنبيه للكفار بأن قيام الساعة أمر يقيني، والأقوام التي جاءت من قبلكم وكذّبت بالساعة مثل: قوم ثمود وعاد وقوم فرعون وقوم لوط وقوم نوح وغيرهم، نزلت عليهم أنواع مختلفة من العذاب مما تسمعون عنه من آباءكم وأجدادكم، ولهذا ينبغي لكم أن تعتبروا من أحوال الأقوام السابقة، وتؤمنوا بيوم القيامة.

أهوال القيامة

جاء في الآيات من ١٣ إلى ١٧ من السورة بيان لأهوال القيامة، يعني: أن سيدنا إسرافيل عليه السلام سينفخ في الصور، فتشقق الأرض والجبال وتفتت، وتشقق السماء وتتطاير كالعهن المنفوش.

صحائف الأعمال

في الآيات من ١٨ إلى ٣٧ من السورة جاء ذكر إثابة الناس وعقابهم طبقاً

٣٩٠ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

لأعمالِهِمُ الحَسَنَةِ وأعمالِهِمُ السيِّئَةِ، يعني: أنه عندما يصلُ الناسُ إلى ميزانِ العدلِ يومَ القيامةِ، فسوف تُكشَفُ الأعمالُ الظاهرةُ والأحوالُ الباطنةُ للناسِ جميعًا، فمَن كان منهم يؤمِّنُ بيومَ القيامةِ، وكان يعملُ صالحًا خوفًا من عذابِها، سيُعْطَوْنَ صحائفَ أعمالِهِم في أيديهم اليُمنى، وسيعيشون حياةً يحبُّونها في جنَّاتٍ عاليةٍ، أمَّا من كان منهم يُنكِرُ القيامةَ، وانشغلَ في الدُّنيا بالأعمالِ السيِّئةِ، فسَيُعْطَوْنَ صحائفَ أعمالِهِم في شمائلِهِم، وسَيَنْدُمُونَ في جهنَّمَ كثيرًا.

القرآن المجيد

من الآية ٣٨ وحتى نهاية السُّورة جاء بيانُ صِدْقِ القرآنِ الكريمِ وأهميَّتهِ، يعني: أنَّ القرآنَ المجيدَ ليس كلامَ شاعرٍ ولا كلامَ كاهنٍ، وإنَّما هو كلامُ الله المنزلُ، ولا مَجالَ فيه للشكِّ ولا للزَّيادةِ أو التَّقْصانِ، والذين يُكذِّبونَ القرآنَ الكريمَ اليومَ، سيستغيثونَ يومَ القيامةِ في حَسرةٍ قائلين: ليتنا لم نُكذِّبَ بالقرآنِ المجيدِ، لكنَّا دخلنا الجنةَ نحن أيضًا.

الفقيهُ إلى الله: محمَّدُ إمداد حُسين بيْرزاده،

جامعةُ الكَرَم، بريطانيا

بعد صلاة المغرب من يوم الجمعة ٥ نوفمبر ٢٠١٠م

الموافق ٢٧ ذي القعدة ١٤٣١هـ



سُورَةُ الْحَاقَّةِ (٦٩)،

مكية (٧٨)، آياتها (٥٢)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ ١ مَا الْحَاقَّةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ٣ كَذَبَتْ ثَمُودُ بِعَادٍ بِالْقَارِعَةِ ٤ فَأَمَّا ثَمُودُ
فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ
سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازٌ مُنْخَلٍ خَاوِيَةٍ ٧
فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ٨ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ٩ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ
فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً ١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُ كُرِّيَ الْبَارِيَةِ ١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِبَهَا أُنْزُ
وَعِيَةً ١٢ فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ١٣ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكْدَا دَكَّةً وَاحِدَةً ١٤ فَيَوْمَئِذٍ
وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ١٥ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ١٦ وَالْمَلِكُ عَلَى أَزْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ
رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ ١٧ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ١٨ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ
بِمِيمِنَةٍ ١٩ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ وَأَكْنِئَةُ ٢٠ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسْبِي ٢١ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٢٢
فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ٢٣ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ٢٤ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ٢٥
وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ٢٦ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابَهُ ٢٧ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِي ٢٨ يَلَيْتَنِي كُنْتُ
الْقَاضِيَةَ ٢٩ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِي ٣٠ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِي ٣١ خَذُوهُ فَعِلُوهُ ٣٢ ثُمَّ لَتَحِمِّمْ صَلَوَهُ ٣٣
ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ٣٤ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ٣٥ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ
الْمُسْكِينِ ٣٦ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ ٣٧ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ٣٨ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ٣٩

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾

١ - المراد بالحاقة: القيامة، والتي مجيئها حق، ولبيان شدتها جاء السؤال عنها مرتين، يعني: هل تتصورون ما القيامة؟ إن أهوال يوم القيامة رهيبه إلى درجة أن أعظم المفكرين لا يستطيع إدراك أهوالها بشكل كامل، وبالطبع كيف يمكن لإنسان بيان شدة أهوال القيامة؟ وهي التي تنشق السماء بمجيئها، وتتطاير الجبال في الفضاء بقيامها.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودٌ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾

٢ - المراد بالقارعة أيضًا: القيامة، فعندما تقوم الساعة يصدر عن تمرق كل شيء وتفتته صوت مروع تطير منه حواس الإنسان، وهنا تنبيه لكفار مكة بأن قيام الساعة أمر يقيني، وعليكم الإيمان بها، والاعتبار من أحوال الأقوام التي جاءت من قبلكم، على سبيل المثال: عندما كذب قوم ثمود نبيهم سيدنا صالح عليه السلام، وأنكروا يوم القيامة، ولم يرجعوا عن طغيانهم، أهلكهم الله بعذاب الصيحة الشديدة، والتي بلغ من شدتها أن زلزلت الأرض كلها، وهكذا جاء الصباح فكان قوم ثمود ملقين على وجوههم موتى في بيوتهم، وقد مر ذكر أحوال قوم ثمود في سور عديدة، ويمكنك مراجعة الآيات من ٧٣ إلى ٧٩ من سورة الأعراف (٧)، والآيات من ٦١ إلى ٦٨ من سورة هود (١١)، وكذا الآيات من ١٤١ إلى ١٥٩ من سورة الشعراء (٢٦).

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَفَرَى الْقَوْمُ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَزُوا
فَخَلَّيْنَاهُمْ تَوَالِيًا﴾

٣ - كان قوم عاد أشداء ضخام الجثث، وكانوا يعتبرون أنفسهم عظماء

وَالْآخَرِينَ حَقْرَاءَ، وَكَانُوا يُنْكِرُونَ الْقِيَامَةَ مِثْلَ قَوْمِ ثَمُودَ، وَقَدْ أَفْهَمَهُمْ نَبِيُّهُمْ سَيِّدُنَا هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَثِيرًا بِأَنْ تَعَقَّلُوا، فَالَّذِي خَلَقَكُمْ وَجَعَلَكُمْ أَقْوِيَاءَ، هُوَ نَفْسُهُ أَقْوَى مِنْكُمْ، وَلَكِنْ لَمَّا لَمْ يَرْجِعُوا عَنْ طُغْيَانِهِمْ، وَأَصْرُوا عَلَى الْإِنْكَارِ الدَّائِمِ لآيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، عِنْدُنَا أَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ رِيحًا عَاصِفًا، اسْتَمَرَّ مِنْ صَبَاحِ الْأَرْبَعَاءِ إِلَى مَسَاءِ الْأَرْبَعَاءِ التَّالِي، يَعْنِي: ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ وَسَبْعَ لَيَالٍ بِصِفَةِ مُسْتَمِرَّةٍ، فَرَفَعَهُمْ إِلَى أَعْلَى فِي الْفُضَاءِ، ثُمَّ أَلْقَى بِهِمْ إِلَى الْأَرْضِ بِشِدَّةٍ فَصَلَّتْ رِءُوسَهُمْ عَنْ أَجْسَادِهِمْ، حَتَّى بَدَتْ جُثَثُهُمْ وَكَانَهَا أَعْجَازُ نَخْلٍ مَقْطُوعَةٍ مَتَنَاطِرَةً عَلَى الْأَرْضِ، وَقَدْ هَلَكَ كُلُّ قَوْمٍ لُوطٍ فِي هَذِهِ الْعَاصِفَةِ، وَلِهَذَا لَا يُوْجَدُ الْيَوْمَ أَحَدٌ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُ أَحْوَالِ قَوْمِ عَادٍ فِي سُورَةِ عَدَّةٍ سَابِقَةٍ، وَلَمَزِيدٌ مِنَ التَّفْصِيلِ رَاجِعٌ عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ: الْآيَاتِ مِنْ ٦٥ إِلَى ٧٢ مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (٧)، وَالْآيَاتِ مِنْ ٥٠ إِلَى ٦٠ مِنْ سُورَةِ هُودِ (١١)، وَكَذَا الْآيَاتُ مِنْ ١٢٣ إِلَى ١٤٠ مِنْ سُورَةِ الشُّعَرَاءِ (٢٦).

﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً﴾

٤ - بِالْإِضَافَةِ إِلَى قَوْمِ عَادٍ وَثَمُودَ، كَانَتْ هُنَاكَ أَقْوَامٌ أُخْرَى كَافِرَةٌ مِنْ قَبْلِهِمْ، كَمَا أَنَّ قُرَى قَوْمِ لُوطٍ قَدْ قُبِلَتْ رَأْسًا عَلَى عَقِبِ، وَكُلُّ هَؤُلَاءِ الْأَقْوَامِ عَصَوْا رُسُلَهُمْ، فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ أَخْذًا عَزِيزًا، وَأَهْلَكَهُمْ وَلَمْ يُفْلِتْهُمْ.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾

٥ - فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ جَاءَ الْخِطَابُ لِكُفَّارِ مَكَّةَ، يَعْنِي: حِينَ جَاءَ طُوفَانُ الْمَاءِ فِي زَمَنِ سَيِّدِنَا نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، غَرِقَ فِيهِ الْبَشَرُ جَمِيعًا، لَكِنَّا أَنْقَذْنَاكُمْ، يَعْنِي: أَنْقَذْنَا آبَاءَكُمْ وَأَجْدَادَكُمْ بِأَنْ جَعَلْنَاكُمْ يَرْكَبُونَ السَّفِينَةَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَنْجُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ سِوَى بَعْضِ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِالرُّكُوبِ فِي السَّفِينَةِ، وَهُمْ الَّذِينَ اسْتَمَرَّ مِنْ خِلَالِهِمْ

النَّسْلُ الْبَشَرِيُّ، وأنتم أيضًا من ذُرِّيَّتِهِمْ، ولو لم تُنْجِ آبَاءَكُمْ وأجدادكم لما كنتم أنتم موجودين في هذه الدُّنْيَا، ولهذا عليكم أن تسمَعوا لهذه الواقعة بأذانكم وقلوبكم، وتذكروها، واعتبروا منها، كيف نَجَّى اللهُ تعالى آبَاءكم وأجدادكم المؤمنين، وأغرق العَصَاة من الناس في الماء، كما أن عليكم أن تتمعنوا في هذه الحقيقة بأن آباءكم وأجدادكم كانوا مؤمنين، فنجوا من الغرق، فلماذا لا تؤمنون أنتم إذا.

﴿وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّنَاذَكُ وَحِدَةً﴾

٦ - في هذه الآية بيان لبعض أحوال قيام الساعة، يعني: عندما ينفخ سيِّدنا إسرافيل في الصُّور للمرة الأولى تقوم الساعة عندئذٍ، وترتفع الأرض والجبال من أماكنها وتضطدُم بعضها، بحيث تتفتَّت من اصطدام واحد.

﴿وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فِيهِ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةً﴾

٧ - السَّمَاءُ مُحْكَمَةٌ قَوِيَّةٌ، بحيث أنها لم يحدث فيها أيُّ تصدُّع أو تشقُّق برغم مرور مئات الآلاف من السنين على خلقها، ولكنها تصبح في غاية الضعف يوم القيامة خوفًا من الله تعالى، بحيث تتطاير كالعِهْن المنفوش.

﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾

٨ - حين تنشق السماء ينتقل الملائكة الذين يعيشون فيها إلى أطرافها، وسيحمل العرش الإلهي عندئذٍ ثمانية من الملائكة المخصوصين.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾

٩ - عندما تمثلون بين يدي الله تعالى يوم القيامة، لا يستطيع من يريد الاختباء أن يختبيء، كما لن يبقى سرُّ أحدٍ خفيًا، فاليوم أيضًا لا يخفى شيء أبدًا على الله

تعالى، ولكنَّ أحوالَ الجميع وأعمالهم سيَتَمُّ الكشفُ عنها في ذلك اليوم لإقامة الحُجَّةِ على الناس.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾

١٠ - يقولُ العلَّامةُ القُرطبيُّ في تفسيرِ هذه الآية: إن «إعطاء الكتابِ باليمينِ دليلٌ على النِّجاة»^(١)، ومن العلاماتِ على كَوْنِ الإنسانِ من أُمَّةِ النَّبِيِّ الكريمِ مُحَمَّدٍ ﷺ يومَ القيامةِ في ميدانِ الحَشْرِ: أنَّ صحيفةَ أعمالِهِ ستُعطى له في يمينِهِ.

علامات الأمة المحمدية في ميدان الحشر

يقولُ سيِّدنا أبو الدَّرداءِ رضي الله عنه: إنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «أنا أوَّلُ من يُؤَدَّنُ له بالسُّجودِ يومَ القيامةِ، وأنا أوَّلُ من يُؤَدَّنُ له أن يرفعَ رأسِهِ، فأنظُرُ إلى بينَ يَدَيَّ، فأعرفُ أُمَّتي من بينِ الأُمَمِ، ومن خَلْفِي مثْلُ ذلك، وعن يميني مثْلُ ذلك، وعن شمالي مثْلُ ذلك»، فقال رجلٌ: يا رسولَ الله، كيف تعرفُ أُمَّتَكَ من بينِ الأُمَمِ فيما بينَ نوحٍ إلى أُمَّتِكَ؟ قال: «هم غُرٌّ مَحْجَلُونَ من أثرِ الوضوءِ، ليس أحدٌ كذاكَ غيرُهُم، وأعرفُهُم أنَّهم يُؤْتَوْنَ كُتُبُهُم بأيْمَانِهِم، وأعرفُهُم يسعى بينَ أيديهِم ذُرِّيَّتُهُم»^(٢).

﴿فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِي﴾

١١ - عندما يُيسَّرُ طالبٌ بعدَ اجتِهاده طيلةَ العامِ بأنَّه قد نَجَحَ في الامتحان، ويُمنَحُ الشَّهادةَ الدَّالَّةَ على ذلك، فإنَّه يكادُ يطيرُ من فرحتِهِ، ويقولُ لوالديهِ وأصدقائِهِ وأحبائِهِ وإخوتِهِ وأخواتِهِ: تعالَوْا، أقرأوا شهادتي، لقد أثمرَ اجتِهادي العامُ كُلَّهُ، ونَجَحْتُ، وبنفسِ الطريقةِ في ميدانِ الحَشْرِ، حيثُ يُعطى السَّعيدُ صحيفةَ أعمالِهِ

(١) تفسير القرطبي.

(٢) مسند أحمد، ٥: ١٩٩.

في يمينه، فيكاد لا تسعه فرحته، ويقول لأصدقائه وأحابيه وأقاربه وأعزائه: تعالوا، اقرأوا صحيفة أعمالي، لقد قبل الله تعالى حسناتي في حياتي، ومُنحتُ التصريح بدخول الجنة.

﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ﴾

١٢ - كنتُ على يقينٍ من أنني سأمثلُ بينَ يدي ربي يومَ القيامة للحساب، ولهذا اتَّقيتُ الله في حياتي، ولم أرتكب شيئاً يُخجلني اليومَ أمامَ ربي.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْغَالِيَةِ﴾

١٣ - الذين سيعطون صحائف الأعمال يومَ القيامة في أيّمانهم، سيدخلون جنّاتٍ عاليةً، قُطوفُها دانية، وعندما يريد أحدهم تناول شيءٍ من هذه الفاكهة، فإنّها تتدلّى أمامه وتقربُ منه، فيقطعُها بيده ويتناولُها، وسيقالُ لهم: لقد تحملتمُ الجوعَ والعطشَ والمصاعبَ الأخرى في الحياة الدنيا من أجل التغلّب على شهواتكم النفسانيّة، ولهذا عيشوا هنا حياةً منعمّةً، وكُلوا واشربوا جزاءً لكم على تحمّلكم تلك المصاعب، والآن ستدخلون في هذه الجنة التي دخلتموها.

- يقول سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: إنّ النبي ﷺ قال: «يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَشَبُّوا فَلَا تَهَرَمُوا أَبَدًا، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَنُعمُوا فَلَا تَبْتَئِسُوا أَبَدًا»^(١).

- يقول سيّدنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: «تَذْنُو الشَّجَرَةُ حَتَّى يَجْتَنِيَهَا وَلِيُّ اللَّهِ إِنْ شَاءَ قَائِمًا وَإِنْ شَاءَ قَاعِدًا وَإِنْ شَاءَ مُضْطَجِعًا، لَا يَرُدُّ يَدَهُ بَعْدَ وَلَا شَوْكًا»^(٢).

(١) مسلم، صفة الجنة، باب ٨ برقم ٧١٥٧.

(٢) تفسير القرطبي، سورة الرحمن (٥٥): الآية ٥٤.

- جاء في الحديث: «إِنَّكَ لَتَشْتَهِي الطَّيْرَ فِي الْجَنَّةِ، فَيَخْرُيبُ يَدَيْكَ مَشْوِيًّا»^(١).

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوفِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيِّنَنِي لَأُرِثَ كَنِيَّةً﴾

١٤ - يقول العلامة محمد علي الصابوني في تفسير هذه الآية: «وَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ، وهذه علامة الشقاوة والخسران»^(٢)، ولهذا فإنَّ الشخص الذي سيعطى صحيفة أعماله في شماله، سيصرخ مُناديًا في حسرةٍ وندمٍ ويقول: ليتني لم أعط صحيفة أعمالِي، وليتني لم أدر ما حسابي، وليت الموت قضى عليَّ إلى الأبد، حتى لا أحيَا من جديد، ولا أواجه هذا الذلَّ والعارَ.

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي﴾

١٥ - إنَّ المالَ والمتاعَ والقوَّةَ والجاهَ والسُّلطانَ الذي ظَلَلْتُ أَسْعَى لتحقيقه في الحياة الدنيا، لم ينفعني شيءٌ منه هنا، وفي هذا درسٌ عبرةٌ لأهل الدنيا من الذين يتركون الله تعالى، وينهمكون في الحصول على العظمة والجاه الدنيوي، بأنهم لن ينالوا في الآخرة سوى الذلَّ والعارَ والخسران.

﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلَّوْهُ﴾

١٦ - الشخص الذي سيعطى صحيفة أعماله في يده اليسرى سيكون مشغولاً بالصُّراخ والعويل حين يأمر الله تعالى ملائكة جهنم قائلاً: خذوا هذا العاصي، وألبسوه طوقاً في عنقه، وألقوا به في جهنم، ثم قيِّدوه بسلسلةٍ طولها سبعون ذراعاً، حتى لا يفكر مجرد التفكير في الهروب من جهنم.

(١) تفسير روح البيان، سورة الطور (٥٢): الآية ٢٢.

(٢) صفوة التفاسير.

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ﴾

١٧ - جاء هنا بيانٌ لسببين من أسباب عقاب ذلك الذي جاء ذكره في الآيات السابقة من أهل جهنم:

السبب الأول هو: أنه كان لا يؤمن بالله العظيم، فاغتصب بذلك حقوق الله تعالى، ولهذا كيف يمكن أن يكون له صديق أو متعاطف في الآخرة، من لم يكن الله تعالى له وليًا ولا نصيرًا؟

أما السبب الثاني فهو: أنه لم يكن يُطعم المسكين والجائع، فاغتصب بذلك - حقوق العباد، ولهذا سيُطعم في الآخرة من القيح الخارج من جروح المجرمين؛ لأن هذا هو الطعام الذي تقرر للمُذنبين في جهنم.

وفيه درسٌ عبرة لأهل الإيمان بأن يهتموا اهتمامًا خاصًا بحقوق الله وحقوق العباد، وأن يعملوا على توفير الطعام للمساكين، فمن لم يكن ذا مال، ولم يرغب الآخرين في الاهتمام بالفقراء والإنفاق عليهم، ستكون عاقبته في غاية السوء بهذا الشكل، فما بالك بمن يمتلك المال، ولا يُطعم المسكين، إلى أي مدى سيكون سوء عاقبته؟

حقوق المساكين

قال الله تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩]، يعني: أن الله تعالى قرّر للفقراء زكاة في أموال الأغنياء بمقدار اثنين ونصف في المائة، بالإضافة إلى ما عند الحكومة، ولهذا فإن هذه النسبة أمانة للفقراء لدى الأغنياء، ومن الفرض على الأغنياء أن يسارعوا بقدر الإمكان إلى أداء هذه الأمانة إلى أهلها، فمن الممكن أن يكونوا في أشد الحاجة إليها، كما أن الله تعالى لم يفرض على الفقراء أن يذهبوا إلى الأغنياء لطلب حقهم هذا، وإنما فرض على الأغنياء أن

يَذْهَبُوا - بِأَنْفُسِهِمْ - إِلَى الْفُقَرَاءِ وَيَبْحَثُوا عَنْهُمْ لِيُؤَدُّوا إِلَيْهِمْ حَقَّوَقَهُمْ. لَيْتَ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا يُؤَدُّونَ هَذَا الْفَرَضَ بِكُلِّ أَمَانَةٍ، لَمَا رَأَيْنَا فَقِيرًا وَاحِدًا فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ.

- يَقُولُ سَيِّدُنَا أَبُو هَرِيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ، مَرَضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فَلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوْجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَطَعْمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطَعَمَكَ عَبْدِي فَلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوْجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟ يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فَلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَسْقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي»^(١).

- يَقُولُ سَيِّدُنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَشْبَعُ وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ»^(٢).

- يَقُولُ سَيِّدُنَا أَبُو هَرِيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمَسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوِ الْقَائِمِ اللَّيْلَ الصَّائِمَ النَّهَارَ»^(٣).

- يَقُولُ سَيِّدُنَا أَبُو أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ مَسَحَ رَأْسَ يَتِيمٍ لَمْ يَمَسْخُهِ إِلَّا اللَّهُ كَانَ لَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ مَرَّتْ عَلَيْهَا يَدُهُ حَسَنَاتٌ، وَمَنْ أَحْسَنَ إِلَى يَتِيمَةٍ أَوْ يَتِيمٍ عِنْدَهُ كُنْتُ أَنَا وَهُوَ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ» وَفَرَّقَ بَيْنَ أَصْبُعَيْهِ: السَّبَابِغَةُ وَالْوُسْطَى^(٤).

(١) مسلم، كتاب البر، باب ١٣ برقم ٦٥٥٦.

(٢) مشكاة المصابيح، باب الشفقة، الفصل الثالث، رواه البيهقي في شعب الإيمان برقم ٤٩٩١.

(٣) البخاري، كتاب النفقات، باب ١ برقم ٥٣٥٣.

(٤) مسند أحمد، ٥: ٢٥٠.

- لم يكن سيّدنا إبراهيم عليه السّلام يتناول طعامه وحده أبداً، «إذا حضر طعامه أرسل يطلب من يأكل معه، فلقي يوماً رجلاً، فلما جلس معه على الطّعام، قال له إبراهيم: سمّ الله، قال الرجل: لا أدري ما الله؟ فقال له: فاخرج عن طعامي، فلما خرج نزل إليه جبريل فقال له: يقول الله: إنه يرزقه على كفّره مدى عمره، وأنت بخلت عليه بلقمة، فخرج إبراهيم فرعاً يجزّ رداءه، وقال: ارجع، فقال: لا أرجع حتى تُخبرني لم تردني لغير معنى؟ فأخبره بالأمر، فقال: هذا ربّ كريم، آمنْتُ، ودخل وسمّى الله وأكل مؤمناً»^(١).

فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تَبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴿٤٢﴾ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾

١٨ - أقسم الله تعالى بكلّ ما خفي وما ظهر مؤكّداً أنّ القرآن المجيد كتابٌ يثّلوه النبيّ الكريم ﷺ، وأنه ليس كلام شاعر أو كاهن، وإنّما كلام الله تعالى أنزله إلى الناس جميعاً، وأبلغه لكم النبيّ الكريم ﷺ، لكنكم قليلاً ما تقبلون النصيحة.

القرآن المَجِيدُ ليس كلام شاعر؛ لأنّ الشّعَرَ في الغالبٍ يحتوي على كلامٍ خياليٍّ ومبالغٍ كثيرة، في حين أنّ تعاليم القرآن الكريم مبنيةٌ على حقائق، وتطابق الاعتدال والتوازن. والقرآن الكريم ليس كلام كاهنٍ كذلك؛ لأنّ الكهنة

يُحَدِّثُونَ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ تَخْمِينًا، وكثيرًا ما يُخْطِئُ حَدْسُهُمْ أَيْضًا، فِي حِينَ أَنْ كُلِّ مَا فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ صِدْقٌ وَحَقٌّ.

﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾

١٩ - يعني: أَنْ مَنْ نَبَعَثُهُ نَبِيًّا، وَنُعْطِيهِ الْمَعْجَزَاتِ عَلَى نُبُوَّتِهِ، لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ فِي الْكَلَامِ الْإِلَهِيِّ، وَإِنَّمَا يَقُولُ مَا يُنْزَلُ عَلَيْهِ فَقَطْ، وَعَلَى فَرَضِ الْمُسْتَحِيلِ لَوْ أَنَّ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَسَبَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مَا لَيْسَ مِنْ كَلَامِهِ، فَإِنَّهُ - فِي هَذِهِ الْحَالَةِ - قَدْ خَانَ فِي النُّبُوَّةِ مِنْ جَانِبٍ، وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ تَصَبَّحُ طَاعَتُهُ - فِي الضَّلَالِ الَّذِي هُوَ مِنْ وَرَاءِ سِتَارِ الصِّدْقِ - لَا زِمَةً؛ لِأَنَّ طَاعَةَ النَّبِيِّ وَاجِبَةٌ بِاعْتِبَارِ أَنَّ كُلَّ نَبِيٍّ صَادِقٌ، وَلِهَذَا فَإِنَّا فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ نُمَسِّكُ بِيَدِهِ، وَنَقْطَعُ بِكُلِّ قُوَّةٍ وَرِيدِهِ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَمْنَعَنَا مِنْ هَذَا.

وَبِمَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُوَاحِذْ نَبِيَّنَا الْحَبِيبَ ﷺ بِمِثْلِ هَذِهِ الْمُؤَاخَذَةِ، فَإِنَّ مَعْنَى هَذَا أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَنْسُبْ شَيْئًا مِنْ كَلَامِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَإِنَّمَا أَوْصَلَ أَحْكَامَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى خَلْقِهِ بِكُلِّ أَمَانَةٍ.

وَالْحُكْمُ بِقَطْعِ وَرِيدِ النَّبِيِّ إِنَّمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ الصَّادِقِينَ فَقَطْ، فَالْكَذَّابُونَ مِنَ النَّاسِ لَا يَدَّعُونَ النُّبُوَّةَ فَقَطْ، وَإِنَّمَا يَدَّعِي بَعْضُ الظَّالِمِينَ مِنْهُمْ الْأُلُوْهِيَّةَ أَمْثَالَ الْفِرْعَوْنَ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يُؤْخَذُوا عَلَى الْفُورِ؛ لِأَنَّ طَاعَةَ مَدَّعِي النُّبُوَّةِ وَمَدَّعِي الْأُلُوْهِيَّةِ غَيْرُ لَا زِمَةٍ، وَلِهَذَا يُمَهِّلُ أَمْثَالُ هَؤُلَاءِ لَكِي يُصْلِحُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ.

﴿وَإِنَّهُ لَلَّذِكْرُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

٢٠ - أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ نَصِيحَةً وَهَدَايَةً لِلنَّاسِ جَمِيعًا، وَلَكِنْ جَاءَ التَّخْصِيصُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِالْمُتَّقِينَ؛ لِأَنَّ الَّذِينَ يَحْصُلُونَ عَلَى النَّصِيحَةِ مِنَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بِالْمَعْنَى الصَّحِيحِ هُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَتَّقُونَ اللَّهَ تَعَالَى وَيَخَافُونَهُ.

﴿وَأَنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

٢١ - الذين يكذبون القرآنَ المَجِيدَ اليومَ، سيكونُ هذا القرآنُ سببًا في حَسْرَتِهِمْ يومَ القيامةِ، وذلك حين يَرَوْنَ أَنَّ الذين صَدَّقُوا القرآنَ المَجِيدَ يدْخُلُونَ الجنةَ، وعندئذٍ سيقولونَ في حَسْرَةٍ: لَيْتَنَّا لَمْ نُكَذِّبْ بِالقرآنِ المَجِيدِ، لَكُنَّا دَخَلْنَا الجنةَ اليومَ.

﴿وَأَنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾

٢٢ - يعني: أَنَّ القرآنَ المَجِيدَ حقٌّ تمامًا، ولا شيءَ فيه من الباطل، وكلُّ حُكْمٍ فيه يقينيٌّ، ولا مجالَ فيه لأيِّ شكٍّ.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾

٢٣ - يا أَيُّهَا النبيُّ الحَبِيبُ ﷺ، لا تَحْزَنْ ولا تَغَمَّ عندما يُكَذِّبُ الكَفَّارُ القرآنَ المَجِيدَ، فقد أدَّتِ أنتَ حقَّ تبليغِ القرآنِ إليهم، ولهذا لا تَهْتَمُّ بهم ولا تُبالِ، وإنما سَبِّحْ باسمِ ربِّك، لكي يطمئنَّ قلبُك.

- يقولُ سَيِّدُنَا عُقْبَةُ بْنُ نَافِعٍ رضي الله عنه: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قال رسولُ الله ﷺ: «اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ» (أي: اقْرَأُوا فِي الرُّكُوعِ سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ). فَلَمَّا نَزَلَتْ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] قال: «اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ» (أي: اقْرَأُوا فِي السُّجُودِ: سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى) ^(١).

- يقولُ سَيِّدُنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: إِنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إِذَا رَكَعَ أَحَدُكُمْ فَقَالَ فِي رُكُوعِهِ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَقَدْ تَمَّ رُكُوعُهُ، وَذَلِكَ

أدناه. وإذا سَجَدَ فقال في سجوده: سبحانَ رَبِّيَ الأعلى، ثلاثَ مرّاتٍ، فقد تَمَّ سجوده، وذلك أدناه»^(١).

- يقولُ سيّدنا حُذَيْفَةُ رضي الله عنه: إنّه صَلَّى معَ النَّبِيِّ ﷺ، فكان يقولُ في ركوعه: «سبحانَ رَبِّيَ العظيم»، وفي سجوده: «سبحانَ رَبِّيَ الأعلى». وما أتى على آيةِ رحمةٍ إلّا وَقَفَ وسأل، وما أتى على آيةِ عذابٍ إلّا وَقَفَ وتعوّذ»^(٢).

- يقولُ سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إلى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ على اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ في المِيزَانِ: سبحانَ الله وبِحَمْدِهِ، سبحانَ الله العظيم»^(٣).

الفقيهُ إلى الله: محمّد إمداد حُسين بيّزاده،
جامعةُ الكرم، إنجلترا
بعد إشراق يوم الاثنين ٨ نوفمبر ٢٠١٠ م
الموافق الأول من ذي الحجة ١٤٣١ هـ

هذا، وقد اكتمل بفضل الله تعالى وكرمه تفسيرُ سورة «الحاقة» في ثلاثة أيام فقط، أي: من ٥ إلى ٨ نوفمبر، والحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلام على سيّد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.



(١) الترمذي، أبواب الصلاة، باب ٧٩ برقم ٢٦١.
(٢) الترمذي، أبواب الصلاة، باب ٧٩ برقم ٢٦٢.
(٣) البخاري، كتاب التوحيد، باب ٥٨ برقم ٧٥٦٣.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٠) سُورَةُ الْمَعَارِجِ

هذه السُّورَةُ مَكِّيَّةٌ، واسمُها: «المعارج»، وهو مأخوذٌ من الآية رقم ٣ منها.

عذاب القيامة

كان كفَّارُ مَكَّةَ يطالبونَ النَّبِيَّ ﷺ قائلين: متى يأتينا عذابُ القيامةِ الذي تُنذِرُنا به يومياً؟ فجاء الردُّ عليهم في الآياتِ الأولى من هذه السُّورة، بأنَّ عذابَ القيامةِ جاهزٌ في انتظارِ المنكرين، وسيأتي في يومٍ من الأيام تأكيداً، لكنَّ الذي يَعْلَمُ تمامَ العلمِ وقته تحديداً هو اللهُ تعالى وحده، على أيِّ حال، عندما يَحِينُ ذلك الوقتُ، فلن يستطيعَ أحدٌ أن يوقِّفه؛ لأنه عذابٌ من الله تعالى، والله هو الغالبُ على الجميع، وهو القادرُ على كلِّ شيءٍ، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يَمْنَعَهُ مِن فِعْلٍ ما يريد.

كان الكفَّارُ يعتقدونَ أنَّ قيامَ السَّاعةِ أمرٌ بعيدٌ عن العَقْلِ والمنطق، حتى وإن كان سيأتي فهو لا يزالُ بعيداً للغاية، بينما يَعْلَمُ المسلمونَ أنَّ قيامَ السَّاعةِ أمرٌ يقينيٌّ، والأمرُ الذي يكونُ وقوعه يقينياً يعني أنه قريبٌ أيضاً؛ لأنه يقتربُ كلَّ ساعةٍ عن السَّاعةِ التي سَبَقَتْها، وبالتالي سيأتي على وجهِ اليقين، إلا أنه عندما يأتي هذا الوقتُ ستتغيَّرُ خريطةُ الدُّنيا، فستكونُ السَّماءُ كالنَّحاسِ الذي يَغْلِي، وستتطايرُ الجبالُ كالصُّوفِ ذي الألوانِ المتعدِّدة، إذ بما أنَّ ألوانَ الجبالِ مختلفةٌ، فستبدو عندما تتفتَّتْ كأنَّها أصوافٌ ملوَّنة.

حال الأصدقاء في ميدان الحشر

كلُّ شخص في هذه الدُّنيا يحاولُ قَدَرَ إمكانِهِ مساعدةَ صديقه، لكنَّ يومَ القيامةِ سينظرُ كلُّ شخصٍ ليرى ماذا يحدثُ لصديقه المقرب، وفي نفسِ الوقتِ يكونُ مشغولاً غايةَ الانشغال بنفسه، بحيث لا ينتبه إلى السؤال عن أحوال غيره، إلا أن أولياء الله سيهتمُّون في ذلك اليوم بأمرِ أحبائهم، وسيُساعدُ كلُّ منهم الآخر، مثلما قال الله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

في ذلك اليوم لن يرتدع المجرمون والعصاة من الناس حتى عن التضحية بأعزائهم من أجل إنقاذ أنفسهم، يعني: أنهم يتمنُّون لو أنهم استطاعوا أن يُقدِّموا أبناءهم وإخوانهم وعائلاتهم، وإن أمكنَ كلٌّ من في الأرض أيضاً فديةً يُنقذون بها أنفسهم، ولكنَّ مثلَ هذا الظلم لن يحدث يومَ القيامة، بأن يؤخذَ آخرُ بدلاً من المجرم، وإنما سيكون على المجرمين مواجهةُ عقابِ جرائمهم بأنفسهم.

ضعف الإنسان الفطري

جاء ذكرُ ضَعْفِ الإنسانِ الفِطْرِيِّ في الآياتِ من ١٩ إلى ٢١، يعني: أن الإنسان قليلُ الصَّبْرِ طَمَاعٌ إلى أقصى درجة، إذا أصابه ضُرٌّ خاف واضطرب، وجزع وفزع، وإذا أصابته راحةٌ بخلَ بدلاً من أن يشكر، لكنَّ الناسَ جميعاً ليسوا على هذا المِنوال، فهناك محترمون مكرمون من الناس منزّهون عن هذا الوصف، ويمكنك التعرفُ على مزيدٍ من التفصيل في تفسيرِ الآيات من ٢٢ إلى ٣٤.

ادعاء مشركي مكة

يقول العلامةُ القُرطبيُّ: «فإذا سَمِعُوا (أي: سادةُ قُريش) بحديثِ الآخرةِ

وما وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ، قَالُوا: إِنَّ صَحَّ أَنَّا نُبْعَثُ كَمَا يَزْعُمُ مُحَمَّدٌ وَمَنْ مَعَهُ لَمْ يَكُنْ حَالُنَا وَحَالُهُمْ إِلَّا مِثْلَ مَا هِيَ فِي الدُّنْيَا، وَإِلَّا لَمْ يَزِيدُوا عَلَيْنَا وَلَمْ يَفْضُلُونَا، وَأَقْصَى أَمْرِهِمْ أَنْ يُسَاوُونَا»^(١).

فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ رَدَّ اللهُ تَعَالَى عَلَى زَعْمِ مُشْرِكِي مَكَّةَ هَذَا قَائِلًا بِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ مِثْلُ هَذَا، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَوِيَ الْمَوَاطِنُ الْمَلْتَزِمُ بِالْقَانُونِ فِي أَيِّ دَوْلَةٍ مَتَحَضَّرَةٌ بِنَظِيرِهِ الَّذِي يَخْرِقُ الْقَانُونَ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَدْخُلَ الْمَطِيعُونَ وَالْعُصَاةُ كِلَاهُمَا الْجَنَّةَ؟

الفقيه إلى الله: مُحَمَّدٌ إِمدَادُ حُسَيْنٍ بَيْرَزَادِهِ،
جامعة الكرم، بريطانيا
بعد صلاة المغرب من يوم الاثنين ٨ نوفمبر ٢٠١٠ م
الموافق الأول من ذي الحجة ١٤٣١ هـ.



(١) تفسير القرطبي، سورة القلم (٦٨): الآية ٣٥.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ (٧٠)،

مكية (٧٩)، آياتها (٤٤)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ① لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ② مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ③ تَعْرُجُ
الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ④ فَأَصْبَرَ صَبْرًا جَمِيلًا ⑤
إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ⑥ وَرَأَيْنَهُ قَرِيبًا ⑦ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ ⑧ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ⑨
وَلَا يَسْتَلُ حِمِيمٌ حَمِيمًا ⑩ يُبْصَرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرَمِ تَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِبَنِيهِ ⑪
وَصَدِجَتِ بَنِيهِ ⑫ وَأَخِيهِ ⑬ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَبُّ ⑭ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ⑮ كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْنَى ⑯
نَزَاعَةً لِلشَّوَى ⑰ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ⑱ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ⑲ * إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ⑳
إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ㉑ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ㉒ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ㉓ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ
دَائِمُونَ ㉔ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ㉕ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ㉖ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيَّوْمِ
الَّذِينَ ㉗ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ㉘ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَا مُنِ ㉙ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ
حَافِظُونَ ㉚ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ㉛ فَمَنْ أَتَّبَعَى ㉜ وَرَأَى ذَلِكَ
فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ㉝ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ ㉞ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ㉟ وَالَّذِينَ
هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ㊱ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ㊲

﴿لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾

١ - طَالِبٌ أَحَدٌ مِّنْ دُوبِي كَفَّارِ مَكَّةَ النَّبِيِّ ﷺ قَائِلًا: مَتَى يَأْتِينَا عَذَابُ الْقِيَامَةِ

٤١٠ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

الذي تُنذِرُنَا به؟، فجاء الردُّ عليهم بأنَّ عذابَ القيامةِ جاهزٌ في انتظارِ المنكرين، وسيأتي في يومٍ من الأيام تأكيدًا، لكنَّ الذي يَعْلَمُ تمامَ العلمِ وقته تحديدًا هو الله تعالى وحده، على أيِّ حال، عندما يَحِينُ ذلك الوقتُ، فلن يستطيع أحدٌ أن يوقِّفه؛ لأنه عذابٌ من الله تعالى، والله هو الغالبُ على الجميع، وهو القادرُ على كلِّ شيءٍ، ولا يستطيع أحدٌ أن يَمْنَعَهُ من فعلٍ ما يريد.

﴿نَعْرِجُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ إِلَيْهِ﴾

٢ - الله تعالى مالكُ العُلَى كُلِّهِ طَبَقًا لَشَأْنِهِ عَزَّ وَجَلَّ، وهناك دَرَجَاتٌ لَا تُحْصَى للوصولِ إلى القُربِ من حَضْرَتِهِ، وكما أنَّ الصالحينَ يَطُوونَ منازلَ القُربِ الإلهيِّ طبقًا لحَسَنَاتِهِمْ، كذلك يَعْرِجُ جبريلُ الأَمِينُ والملائكةُ عليهمُ السَّلَامُ إلى القُربِ الإلهيِّ طبقًا لِمَرَاتِبِهِمْ.

﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾

٣ - يعني: أنَّ العذابَ الذي يُطالِبونَ به سَيَقَعُ في يومٍ مِقْدَارُهُ خمسونَ أَلْفَ سنةٍ.

جاء تقديرُ يومِ القيامةِ في هذه الآية بخمسينَ أَلْفَ سنةٍ، بينما جاء هذا التقديرُ في الآية رقم ٤٧ من سورة الحج (٢٢)، والآية رقم ٥ من سورة السَّجدة (٣٢) بأَلْفِ سنةٍ، وقيل: إنَّ السَّبَبَ في هذا أنَّ مِقْدَارَ يومِ القيامةِ بالفعل أَلْفُ سنةٍ، لكنَّ الكُفَّارَ بسببِ خَوْفِهِمْ وَقَلَقِهِمْ يَشْعُرُونَ وكأنَّه يَعدِلُ خمسينَ أَلْفَ سنةٍ، بينما يَشْعُرُ أهلُ الإيمانِ بأنَّ وقتَ القيامةِ مختَصَرٌ للغاية بما يَعدِلُ الوقتَ الذي تَوَدَّى فيه صَلَاةٌ مفروضة، وذلك بسببِ تبشيرِهِم بِالْجَنَّةِ، مثلما يقولُ سيِّدُنَا أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ

رضي الله عنه: قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يوماً كان مقداره خمسين ألف سنة، ما أطول هذا اليوم! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «والذي نفسي بيده، إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يُصلّيها في الدنيا»^(١).

كم من الوقت سيستغرقه حساب الناس جميعاً: من سيدنا آدم عليه السلام وحتى قيام الساعة؟ لمزيد من التفصيل عن ذلك راجع الحاشية رقم ٦٠ للآية رقم ٦٢ من سورة الأنعام (٦).

﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾

٤ - يعني: لا تضطرب ولا تنزعج من إيذاء الكفار لك، وإنما اصبر صبراً جميلاً، وإذا لم يرجعوا عن طغيانهم فسوف ننتقم نحن منهم.

يقول العلامة القرطبي في تفسير هذه الآية: «والصبر الجميل: هو الذي لا جزع فيه ولا شكوى لغير الله. وقيل: هو أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يدرى من هو»^(٢).

﴿وَنَزَلَتْ قَرِيبًا﴾

٥ - كان الكفار يقولون: إن قيام الساعة أمرٌ بعيدٌ عن العقل والمنطق، حتى وإن كان سيأتي فهو لا يزال بعيداً للغاية، بينما يعلم المسلمون أن قيام الساعة أمرٌ يقيني، والأمر الذي يكون وقوعه يقينياً يعني أنه قريبٌ أيضاً؛ لأنه يقترب كل ساعة عن الساعة التي سبقتها، وبالتالي سيأتي على وجه اليقين، إلا أنه عندما يأتي هذا

(١) مسند أحمد، ٣: ٧٥.

(٢) تفسير القرطبي، سورة المعارج (٧٠): الآية ٥.

٤١٢ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

الوقت ستغيّر خريطة الدنيا، فستكون السماء كالنحاس الذي يغلي، وستطير الجبال كالصوف ذي الألوان المتعددة، إذ بما أن ألوان الجبال مختلفة، فستبدو عندما تتفتت كأنها أصواف ملونة.

وإذا كانت القيامة بعيدة فإن الموت قريب للغاية، والموت بمثابة القيامة لمن يموت؛ لأنّ عمليّة الثواب والعقاب تبدأ بمجرد وفاة الشخص.

يقول سيّدنا أنس بن مالك رضي الله عنه: إنّ النبي ﷺ قال: «إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته، فاعبدوا الله كأنكم ترونه، واستغفروه كلّ ساعة»^(١).

﴿بَصَرُوهُمْ﴾

٦ - كلّ شخص في هذه الدنيا يحاول قدر إمكانه مساعدة صديقه، لكن يوم القيامة سينظر كلّ شخص ليرى ماذا يحدث لصديقه المقرب، وفي نفس الوقت يكون مشغولاً غاية الانشغال بنفسه، بحيث لا ينتبه إلى السؤال عن أحوال غيره، إلّا أنّ أولياء الله سيهتمون في ذلك اليوم بأمر أحبائهم، وسيساعد كلّ منهم الآخر. قال الله تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

- روى عن سيّدنا عثمان بن عفّان رضي الله عنه: إنّ النبي ﷺ قال: «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثمّ العلماء ثمّ الشهداء»^(٢).

- روى الإمام مسلم حديثاً طويلاً، عن سيّدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، جاء فيه: «ثمّ يضرب الجسر على جهنّم وتحلّ الشفاعة ويقولون: اللهمّ سلّم

(١) كنز العمال، ١٥: ٦٨٦ برقم ٤٢٧٤٨.

(٢) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ٣٧ برقم ٤٣١٣.

سَلَّمَ... فَيَمُتُّ الْمُؤْمِنُونَ: كَطَرَفِ الْعَيْنِ وَكَالْبَزْقِ وَكَالطَّيْرِ وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ
وَالرَّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مَرْسَلٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ. حَتَّى إِذَا خَلَصَ
الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مَنَاشِدَةً لِلَّهِ - فِي اسْتِقْصَاءِ
الْحَقِّ - مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فِي النَّارِ يَقُولُونَ: رَبَّنَا كَانُوا يَصُومُونَ
مَعَنَا وَيُصَلُّونَ وَيُحْجُونَ. فَيَقَالُ لَهُمْ: أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ. فَتَحَرَّمْ صُورُهُمْ عَلَى النَّارِ،
فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدْ أَخَذَتِ النَّارُ إِلَى نَصْفِ سَاقِيهِ وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ...»^(١)، وَيُعَلِّمُ مِنْهُ
أَنْ صُحْبَةَ الصَّالِحِينَ وَمَعِيَّتَهُمْ سَتَكُونُ وَسِيلَةً لِلنَّجَاةِ مِنْ جَهَنَّمَ.

﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا نُنَجِّهِ﴾

٧ - فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لَنْ يَرْتَدَّ الْمَجْرِمُونَ وَالْعَصَاةُ مِنَ النَّاسِ حَتَّى عَنِ التَّضْحِيَةِ
بِأَعْرَائِهِمْ مِنْ أَجْلِ إِنْقَاذِ أَنْفُسِهِمْ، يَعْنِي: أَنَّهُمْ يَتَمَنُّونَ لَوْ أَنَّهُمْ اسْتَطَاعُوا أَنْ يُقَدِّمُوا
أَبْنَاءَهُمْ وَإِخْوَانَهُمْ وَعَائِلَاتِهِمْ، وَإِنْ أُمَكَّنَ كُلٌّ مَنْ فِي الْأَرْضِ أَيْضًا فِدِيَةً يُنْقَذُونَ
بِهَا أَنْفُسَهُمْ، وَلَكِنْ مِثْلَ هَذَا الظُّلْمِ لَنْ يَحْدُثَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَأَنْ يُوْخَذَ آخَرٌ بَدَلًا مِنْ
الْمَجْرِمِ، وَإِنَّمَا سَيَكُونُ عَلَى الْمَجْرِمِينَ مُوَاجَهَةٌ عِقَابٍ جَرَائِمِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ.

﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾

٨ - سَتَكُونُ نَارُ جَهَنَّمَ فِي غَايَةِ الشَّدَةِ بِحَيْثُ أَنَّهَا سَتَحْرِقُ الْجِلْدَ وَاللَّحْمَ،
وَسَتَدْعُو إِلَيْهَا أَوْلَئِكَ التَّعَسَاءَ الَّذِينَ أَعْرَضُوا عَنْ دِينِ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا، وَكَانُوا
يَكْنِزُونَ الْأَمْوَالَ وَالثَّرَوَةَ، وَيَحْرُسُونَهَا كَالثَّعَابِينَ حَتَّى لَا يَقْتَرِبَ مِنْهَا أَحَدٌ، وَلَمْ
يُؤَدُّوا حَقْقَ اللَّهِ، كَمَا لَمْ يُبَالُوا بِحَقْقِ الْعِبَادَةِ.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾

٩ - يقال للصِّفاتِ التي يولدُ بها الإنسانُ: الفِطْرَةُ أو الجِبِلَّةُ، وفي هذه الآياتِ الثلاثِ جاء ذِكرُ بعضِ من فِطْرَةِ الإنسانِ، يعني: أنَّ الإنسانَ قليلُ الصَّبْرِ طَماعٌ إلى أقصى درجةٍ، إذا أصابه ضُرٌّ خافَ واضطربَ، وجزعَ وفرعَ، وإذا أصابته راحةٌ بخلَ بدلًا من أن يشكرَ، لكنَّ الناسَ جميعًا ليسوا على هذا المِوالِ، فهناك محترمونَ مكرمَونَ من الناسِ منزّهونَ عن هذا الوصفِ، وسيأتي ذِكرُهم في الآياتِ الثلاثِ عشرةَ التالية.

وهنا يتبادرُ إلى الذِّهنِ سؤالٌ فَخواهُ أنه: إذا كان اللهُ تعالى قد خَلَقَ الإنسانَ قليلَ الصَّبْرِ، فما ذنبُه إذا وَقَعَ منه عَدَمُ الصَّبْرِ إذا، باعتبار أنه مجبورٌ بفِطْرَتِه؟
وجوابُ هذا: أنَّ الله تعالى أودَعَ في فِطْرَةِ الإنسانِ - بقصدِ ابتلائه - الاستعدادَ للخيرِ والشرِّ، يعني: القيامَ بعملَينِ متضادَّينِ، ولهذا فإنَّ كلَّ إنسانٍ لا يكونُ طيبًا أو سيِّئًا طبقًا لاستعدادهِ الفِطْرِيِّ، وإنما الشَّخصُ السيِّئُ هو الذي يتركُ الحِسنَةَ عامدًا متعمدًا، ويختارُ طريقَ السيِّئَةِ، والشَّخصُ الخيِّرُ هو ذلك الشَّخصُ الذي يتركُ السيِّئَةَ عامدًا متعمدًا، ويسلكُ طريقَ الخيرِ.

وكما أنَّ الله تعالى أودَعَ في الإنسانِ الاستعدادَ لقبولِ الكُفْرِ، أودَعَ فيه كذلك الاستعدادَ لقبولِ الإيمانِ، مثلما يقولُ سيِّدُنا أبو هريرة رضي الله عنه: إنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «ما مِنْ مولودٍ إلَّا يولدُ على الفِطْرَةِ، فأبواه يهودانه أو يُنصرانه أو يُمجسانه، كما تُتَّجُّ البهيمةُ بهيمةً جَمعاءً، هل تُحِسُّونَ فيها من جَدْعاء؟». ثمَّ يقولُ أبو هريرة - رضي الله عنه: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ أَلْتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُ لِيَخْلُقَ اللَّهُ ذَلِكَ أَلَيْسَ أَلْفَيْمٌ﴾ [الروم: ٣٠] ^(١).

وَيُعَلِّمُ مِنْهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَوْدَعَ فِي فِطْرَةِ النَّاسِ جَمِيعًا صَلَاحِيَّةَ قَبُولِ
الإِسْلَامِ، فَإِذَا جَعَلَ الْوَالِدَانِ أَوْ الْبَيْتُ أَحَدًا غَيْرَ مُسْلِمٍ، فَإِنَّ صَلَاحِيَّةَ قَبُولِ الإِسْلَامِ
تَظَلُّ مُوجُودَةً بِدَاخِلِهِ، فَإِذَا مَا فَكَّرَ وَتَدَبَّرَ وَتَمَعَّنَ، يُمَكِّنُهُ قَبُولُ الإِسْلَامِ، وَلَوْ لَمْ
تَكُنْ صَلَاحِيَّةَ قَبُولِ الإِسْلَامِ فِي فِطْرَةِ أَبِي جَهْلٍ وَأَبِي لَهَبٍ مُوجُودَةً فَعَلًا، لَمَا
صَحَّتْ دَعْوَتُهُمْ لِقَبُولِ الإِسْلَامِ، وَلَمَا صَحَّ أَيْضًا الْحُكْمُ بِدُخُولِهِمْ جَهَنَّمَ عِقَابًا
لَهُمْ عَلَى عَدَمِ قَبُولِهِمْ لَهُ.

فِي رَأْيِي تَنْقَسِمُ فِطْرَةُ الْإِنْسَانِ إِلَى قِسْمَيْنِ، أَحَدُهُمَا: تِلْكَ الْفِطْرَةُ الَّتِي
يَخْتَارُهَا الْإِنْسَانُ أَوْ لَا يَخْتَارُهَا بِمَخْضِ إِرَادَتِهِ، وَهَذِهِ هِيَ الْفِطْرَةُ الَّتِي يُثَابُ أَوْ
يُعَاقَبُ عَلَى أُسَاسِهَا الْإِنْسَانُ، أَمَّا الْفِطْرَةُ الثَّانِيَةُ فَهِيَ تِلْكَ الَّتِي لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَطْرَأَ
عَلَيْهَا تَغْيِيرٌ أَوْ تَبْدِيلٌ، كَأَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ كَتَبَ الْجُنُونَ فِي فِطْرَةِ إِنْسَانٍ مَا، فَهَذَا
لَا يُمَكِّنُ لِأَحَدٍ أَنْ يُبَدِّلَهُ، وَهَذِهِ هِيَ الصُّورَةُ الَّتِي لَنْ يُحَاسَبَ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّهُ مُضْطَرَّرٌ
فِيهَا، مِثْلَمَا يَقُولُ سَيِّدُنَا أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
نَتَذَكَّرُ مَا يَكُونُ، إِذْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُمْ بِجَبَلٍ زَالَ عَنْ مَكَانِهِ، فَصَدَّقُوا،
وَإِذَا سَمِعْتُمْ بِرَجُلٍ تَغَيَّرَ عَنْ خُلُقِهِ، فَلَا تُصَدِّقُوا بِهِ، وَإِنَّهُ يَصِيرُ إِلَى مَا جَبَلَ عَلَيْهِ»^(١)،
وَهَذَا الْحَدِيثُ صَحِيحٌ، وَلَمْزِيدٍ مِنَ التَّفْصِيلِ عَنِ الْفِطْرَةِ تَدَبَّرِ الْمَسْأَلَةَ التَّالِيَةَ.

ثَلَاثَةُ مَذَاهِبٍ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالتَّقْدِيرِ

الْإِنْسَانُ عِنْدَ الْجَبَرِيِّينَ مُجْبُورٌ مَخْضُ، وَعِنْدَ الْقَدَرِيِّينَ (الْإِنْسَانُ مُخْتَارٌ تَمَامًا،
وَلَكِنْ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ النَّظَرِيَّتَانِ تُخَالِفَانِ الإِسْلَامَ، وَالْأَصْلُ أَنَّ الْإِنْسَانَ
لَيْسَ مُجْبُورًا بِشَكْلِ كَامِلٍ كَالْحَجَرِ، وَلَا هُوَ مُخْتَارٌ تَمَامًا كَمِثْلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِنَّمَا

(١) مسند أحمد، ٦: ٤٤٣، ومجمع الزوائد، ٧: ١٩٦.

أعطى الله تعالى الإنسان الصَّلاحية والقُدرة على اختيارِ الحَسَنِ أو السيِّئِ كليهما، وأعطاه في نفسِ الوقتِ العقلَ والتمييزَ، ولهذا أَرَسَلَ اللهُ تعالى إلى بني الإنسانِ الأنبياءَ الكرامَ عليهمُ السَّلامُ، حتى يستطيعوا التمييزَ بينَ الخيرِ والشرِّ، وهكذا فإنَّ الإنسانَ يستطيعُ أن يفعلَ الخيرَ بإرادته ورضاه، وهو ما سينالُ عليه الثوابُ، كما أنه يستطيعُ أن يفعلَ الشرَّ بإرادته ورضاه، وهو ما سينالُ عليه العقابُ، إلَّا أنَّ هناك بعضَ الأشياءِ يكونُ الإنسانُ فيها عاجزًا، مثلًا: الحياةُ والموتُ؛ أين سيكونُ مولدُه؟ وأين سيكونُ موتهُ؟ وكيف سيكونُ شكلُه، وغيرُ ذلك، ولكنَّ الإنسانَ لن يُسألَ عن هذه الأمورِ كُلِّها، وبنفسِ الطريقةِ فإنَّ الفِطرةَ التي خَلَقَها اللهُ غيرُ قابلةٍ للتبدُّلِ، ولا يستطيعُ الإنسانُ أن يُحدِثَ فيها تبدُّيلًا، كما أنه لن يكونَ مسئولًا عن شيءٍ فيها، أمَّا الفِطرةُ التي أُعطيَ الإنسانُ الاختيارَ فيها، فهو مسئولٌ فيها عن جُرمِ معصيةِ الله تعالى إذا ارتكَبَه.

﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾

١٠ - في الآياتِ الثلاثِ عشرةَ التاليةِ جاءَ ذِكرُ أهلِ الإيمانِ الذينَ يعملونَ بأحكامِ الله تعالى، فيَحْضُلُونَ على النَّجاةِ من الجَزَعِ والفَزَعِ والبُخلِ وغيرها من الضَّعْفِ الفِطْرِيِّ، ويُعلمُ منه أنَّ التعاليمَ الإسلاميةَ تُمثِّلُ ضرورةً من ضروريَّاتِ الإنسانِ التي تُهديه إلى طريقِ النَّجاةِ من الضَّعْفِ والأمراضِ الفِطْرِيَّةِ.

- يقولُ سَيِّدُنَا صُهَيْبٌ رضي الله عنه: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «عَجَبًا لَأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وليس ذاكَ لِأَحَدٍ إلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ فكانَ خَيْرًا له، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ صَبَرَ فكانَ خَيْرًا له»^(١).

والصِّفَةُ الأولى من صفاتِ أهل الإيمانِ التي وَرَدَتْ في هذه الآياتِ هي: أنَّهم ملتزمونَ تمامًا ودائمًا بالصَّلَاةِ، يعني: يُوَدُّونَ الصَّلَاةَ بكلِّ آدابِها الظاهرة، والمرادُ بالآدابِ الظاهرة: الالتزامُ بأداءِ الصَّلواتِ كُلِّها في أوقاتها الصَّحيحة، وطبقًا لِسُنَّةِ نَبِيِّنا الحَبِيب ﷺ.

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾

١١ - الصِّفَةُ الثانيةُ من صفاتِ أهل الإيمان: أنَّهم لا يَكْنِزُونَ الأموالَ والثرواتِ بحيث لا يُنْفِقُونَ منها، وإنَّما يُوَدُّونَ ما فَرَضَ اللهُ عليهم فيها من زكاةٍ إلى السائل والمحروم، ويمكنُ أن يكونَ المرادُ بالمحروم أيضًا ذلك الشَّخصُ المحرومُ من الرِّزق، كما يمكنُ أن يكونَ المرادُ به ذلك المحتاجُ الذي لا يَمُدُّ يَدَ السُّؤالِ أمامَ أحدٍ، وزكاةُ المال - في الحقيقة - حقٌّ للفقراءِ وأمانةٌ لهم عندَ الأغنياء، وعليهم أن يُوَدُّوها إلى الفقراءِ في أسرع ما يمكن، إذ قد يكونُ هؤلاء في أمسِّ الحاجة إليها، كما أنَّ الله تعالى لم يَفْرِضْ على الفقراءِ أن يذهبوا إلى الأغنياء للمطالبة بحَقِّهم، وإنَّما فَرَضَ على الأغنياء أن يذهبوا بأنفسهم ويبحثوا عن الفقراءِ ويُوَدُّوا إليهم ما فَرَضَهُ اللهُ عليهم؛ لأنَّ من الممكنِ تمامًا أن يكونَ هناك محتاجون، لكنَّهم لا يَمْلِكُونَ الجُرْأَةَ على السُّؤالِ والطلب.

يقولُ العلامةُ القرطبيُّ: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ يريدُ الزكاةَ المفروضةَ، قاله قتادةُ وابنُ سيرين. وقال مجاهدٌ: سوى الزكاة. وقال عليُّ بنُ أبي طلحة عن ابنِ عباسٍ: صِلَةُ رَحِمٍ وَحَمْلُ كُلِّ. والأوَّلُ أَصَحُّ؛ لأنَّه وصفُ الحقِّ بأنَّه معلومٌ، وسوى الزكاةِ ليس بمعلومٍ، إنَّما هو على قَدْرِ الحاجة، وذلك يَقِلُّ وَيَكْثُرُ^(١). كما

أَنَّ صَدَقَاتِ التَّطَوُّعِ يُمْكِنُ أَنْ تَنْقُصَ وَتَزِيدُ طَبَقًا لِمَقْدِرَةِ الْمُتَصَدِّقِ وَحَاجَةِ الْمُتَصَدِّقِ عَلَيْهِ، فِي حِينَ أَنَّ الزَّكَاةَ تَكُونُ اثْنَيْنِ وَنِصْفًا فِي الْمَائَةِ بِشَكْلِ مُحَدَّدٍ.

﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيَّومِ الدِّينِ﴾

١٢ - الصِّفَةُ الثَّالِثَةُ مِنْ صِفَاتِ أَهْلِ الْإِيمَانِ: أَنَّهُمْ يُصَدِّقُونَ بَيَّومِ الْحِسَابِ، يَعْنِي: أَنَّهُمْ عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَنَّ السَّاعَةَ لَا بَدَّ قَائِمَةٌ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ، حَيْثُ سَيُحَاسَبُونَ فِيهِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَلِهَذَا فَهَمْ لَا يَظْلِمُونَ أَحَدًا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، حَتَّى لَا يَنْدَمُوا عِنْدَ الْحِسَابِ.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾

١٣ - الصِّفَةُ الرَّابِعَةُ مِنْ صِفَاتِ أَهْلِ الْإِيمَانِ أَنَّهُمْ يَخَافُونَ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ، وَعَذَابُ اللَّهِ تَعَالَى مُخِيفٌ بِالْفِعْلِ؛ لِأَنَّ عَدَمَ الْخَوْفِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ يُغْيِي الْإِنْسَانَ بِعَدَمِ الْعَمَلِ.

﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾

١٤ - الصِّفَةُ الْخَامِسَةُ مِنْ صِفَاتِ أَهْلِ الْإِيمَانِ هِيَ: أَنَّهُمْ يُحَافِظُونَ عَلَىٰ عَقَّتِهِمْ، يَعْنِي: أَنَّهُمْ لَا يَقْرُبُونَ سِوَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ بِغَرَضِ قَضَاءِ حَاجَتِهِمُ الْجِنْسِيَّةِ؛ لِأَنَّ الشَّرِيعَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ حَرَّمَتْ كُلَّ الطَّرِيقِ الْآخَرِ لِقَضَاءِ الْحَاجَةِ الْجِنْسِيَّةِ بِاسْتِثْنَاءِ السَّبِيلَيْنِ السَّابِقَيْنِ، وَالْآنَ لَمْ يَبْقَ سِوَى سَبِيلٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ الْأَزْوَاجِ، بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ لَمْ يَعْذُ هُنَاكَ وَجُودٌ لِمَلِكِ الْيَمِينِ.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ﴾

١٥ - الصِّفَةُ السَّادِسَةُ مِنْ صِفَاتِ أَهْلِ الْإِيمَانِ هِيَ: أَنَّهُمْ يُحَافِظُونَ عَلَى الْأَمَانَاتِ، فَكُلُّ حُكْمٍ مِنْ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بِالْمُسْلِمِ هُوَ بِمَثَابَةِ

أمانة الله تعالى عند المسلم، وسواءً كان هذا الحكم يتعلّق بالمسلم نفسه أم بغيره، وسواءً كان يتعلّق بالأمر الدنيويّ أم بالعبادات الدّينية، وسواءً كان يتعلّق بمنصبٍ ما أم بسلطةٍ ما، فإنّ كلّ نفسٍ في حياتنا، وكلّ قول يصدرُ عن أفواهنا، وكلّ فعل يصدرُ عن أيدينا، كلّها أماناتٌ عندنا، وحقُّ الأمانة يمكنُ تأديته حين تؤدّي الأماناتُ بكلّ آدابها ومستلزماتها، ودون زيادةٍ أو نقصانٍ أو ظلم واعتداء، والجميعُ سواءٌ في هذا الحكم، سواءً كانوا أغنياء أم فقراء، وسواءً كانوا حُكّامًا أم محكومين.

- يقول سيّدنا عبدُ الله بنُ عمر رضي الله عنهما: إنه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: «كلُّكم راع، وكلُّكم مسئولٌ عن رعيّته، الإمامُ راعٍ ومسئولٌ عن رعيّته، والرجلُ راعٍ في أهله وهو مسئولٌ عن رعيّته، والمرأةُ راعيةٌ في بيت زوجها ومسئولةٌ عن رعيّتها، والخادمُ راعٍ في مال سيّده ومسئولٌ عن رعيّته - قال: وحسبتُ أن قد قال - والرجلُ راعٍ في مال أبيه ومسئولٌ عن رعيّته، وكلُّكم راعٍ ومسئولٌ عن رعيّته»^(١).

- يقول سيّدنا عليّ رضي الله عنه: إنّ النبيّ ﷺ قال: «ثلاثٌ ليس لأحدٍ من الناسٍ فيهنَّ رخصةٌ:

١ - برُّ الوالدينِ مسلمًا كان أو كافرًا.

٢ - والوفاءُ بالعهدِ لمسلمٍ كان أو كافرًا.

٣ - وأداءُ الأمانةِ إلى أهلها مسلمًا كان أو كافرًا»^(٢).

- يقول سيّدنا عمرُ بن الخطّاب رضي الله عنه: «لا تُغرّنك صلاةُ رجلٍ ولا صيامُه، من شاء صام ومن شاء صلّى، ولكن لا دينَ لمن لا أمانةَ له»^(٣).

(١) البخاري، كتاب الجمعة، باب ١١ برقم ٨٩٣.

(٢) كنز العمال، ١٦: ٢٨ برقم ٤٣٧٩١، وجمع الجوامع، ٤: ١٣٤ برقم ١٠٧٦٠.

(٣) كنز العمال، ٤: برقم ٨٤٣٦.

- يقول سَيِّدُنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا تَنْظُرُوا إِلَى صَلَاةٍ أَحَدٍ وَلَا إِلَى صِيَامِهِ، وَلَكِنْ انظُرُوا إِلَى مَنْ إِذَا حَدَّثَ صَدَقَ، وَإِذَا أَوْثَمَ أَدَّى، وَإِذَا أَشْفَى وَرَعَ»^(١).

- يقول سَيِّدُنَا أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّهَا سَتَأْتِي عَلَى النَّاسِ سِنُونَ خَدَاعَةٌ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ»^(٢).

- يقول سَيِّدُنَا أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ، جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ، فَكَّرَهُ مَا قَالَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ، حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ: «أَيْنَ - أَرَاهُ - السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ؟». قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «فَإِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ». قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: «إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»^(٣).

- يقول سَيِّدُنَا أَبُو سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الْأَمِينُ، مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ»^(٤).

- يقول سَيِّدُنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «التَّاجِرُ الْأَمِينُ الصَّدُوقُ الْمُسْلِمُ مَعَ الشُّهَدَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٥).

- يقول سَيِّدُنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ

(١) كنز العمال، ٤: برقم ٨٤٣٥.

(٢) مسند أحمد، ٢: ٢٩١.

(٣) البخاري، كتاب العلم، باب ٢ برقم ٥٩.

(٤) الترمذي، أبواب البيوع، باب ٤ برقم ١٢٠٩.

(٥) ابن ماجه، أبواب التجارات، باب ١ برقم ٢١٣٩.

التَّفَاقِي حَتَّى يَدْعَهَا: إِذَا أَوْثَمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»^(١).

﴿وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ﴾

١٦ - الصِّفَةُ السَّابِعَةُ مِنْ صِفَاتِ أَهْلِ الْإِيمَانِ هِيَ: أَنَّهُمْ يُحَافِظُونَ عَلَى عَهْدِهِمْ وَمَوَاقِفِهِمْ، وَالْمُرَادُ مِنْهُ كُلُّ تِلْكَ الْمَعَاهِدَاتِ الَّتِي تَكُونُ مَنْعِقَةً بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَرَبِّهِ، وَبَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْإِنْسَانِ، وَسَوَاءٌ كَانَتْ هَذِهِ الْعُهُودُ وَالْمَوَاقِفُ تَتَعَلَّقُ بِالْأَحْكَامِ الدُّنْيَا أَمْ بِالْمَعَامِلَاتِ الدُّنْيَا، وَسَوَاءٌ كَانَتْ مَعَ أَهْلِ الْإِيمَانِ أَمْ مَعَ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ، كُلُّهَا يَجِبُ الْإِتِمَارُ بِهَا، مِثْلَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، لَكِنْ إِذَا أَبْرَمَ شَخْصٌ مَا عَهْدًا أَوْ وَعْدًا فِيهِ عَصِيَانٌ لِلَّهِ تَعَالَى وَلِرَسُولِهِ الْكَرِيمِ ﷺ، فَلَا يَجِبُ الْوَفَاءُ بِهِ.

- يَقُولُ سَيِّدُنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا خَطَبَنَا نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِلَّا قَالَ: «لَا إِيْمَانُ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ»^(٢).

- يَقُولُ سَيِّدُنَا حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا مَنَعَنِي أَنْ أَشْهَدَ بَدْرًا إِلَّا أَنِّي خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي حُسَيْلٌ. قَالَ: فَأَخَذَنَا كَفَّارٌ قُرَيْشِيٌّ قَالُوا: إِنَّكُمْ تَرِيدُونَ مُحَمَّدًا، فَقُلْنَا: مَا نَرِيدُهُ، مَا نَرِيدُ إِلَّا الْمَدِينَةَ. فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصَرِفَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ وَلَا نُقَاتِلُ مَعَهُ، فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ: «انْصَرِفَا نَفِي لِهِمْ بِعَهْدِهِمْ وَنَسْتَعِينُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ»^(٣).

(١) البخاري، كتاب الإيمان، باب ٢٥ برقم ٣٤.

(٢) مسند أحمد، ٣: ١٣٥.

(٣) مسلم، كتاب الجهاد، باب ٣٥ برقم ١٧٨٧.

- يقول سيّدنا عبدُ الله بنُ عمرو رضي الله عنهما: إنّ النبي ﷺ قال: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحَهَا تَوَجَّدَ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»^(١).

- يقول سيّدنا البراء بن عازب رضي الله عنه: صالَحَ النَّبِيُّ ﷺ المُشْرِكِينَ يَوْمَ الْحُدَيْيَةِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: عَلَى أَنْ مَنْ أَتَاهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ رَدَّهُ إِلَيْهِمْ، وَمَنْ أَتَاهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يُرْذَوْهُ، وَعَلَى أَنْ يَدْخُلَهَا (أَي: مَكَّةَ مِنْ أَجْلِ آدَاءِ الْعُمْرَةِ) مِنْ قَابِلٍ وَيُقِيمَ بِهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَلَا يَدْخُلَهَا إِلَّا بِجُلْبَانِ السَّلَاحِ: السَّيْفِ وَالْقَوْسِ وَنَحْوِهِ. فَجَاءَ أَبُو جَنْدَلٍ (وَالَّذِي كَانَ قَدْ أَسْلَمَ) يَحْجِلُ فِي قِيوده فَرَدَّهُ إِلَيْهِمْ^(٢). فَبَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَكْتُبُ الْكِتَابَ هُوَ وَشُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، إِذْ جَاءَ أَبُو جَنْدَلُ بْنُ شُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ فِي الْحَدِيدِ... فَلَمَّا رَأَى شُهَيْلٌ أَبَا جَنْدَلٍ قَامَ إِلَيْهِ فَضَرَبَ وَجْهَهُ، وَأَخَذَ بَتَلْبِيهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قَدْ لَجَّتِ الْقَضِيَّةُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكَ هَذَا، قَالَ: «صَدَقْتُ»، فَجَعَلَ يَنْتَرُهُ بَتَلْبِيهِ، وَيَجْرُهُ لِيُرْدَهُ إِلَى قُرَيْشٍ، وَجَعَلَ أَبُو جَنْدَلٍ يَصْرُخُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أَرُدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ يَفْتَنُونِي فِي دِينِي؟ فزَادَ ذَلِكَ النَّاسَ إِلَى مَا بِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا جَنْدَلٍ، اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ، فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرْجًا وَمَخْرَجًا، إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صُلْحًا، وَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَأَعْطَوْنَا عَهْدَ اللَّهِ، وَإِنَّا لَا نَعْدُرُ بِهِمْ»^(٣).

- يقول سيّدنا عبدُ الله بنُ أبي الحَمَسَاءِ رضي الله عنه: بَايَعْتُ النَّبِيَّ ﷺ بَيْعَ قَبْلِ أَنْ يُبْعَثَ وَبَقِيَتْ لَهُ بَقِيَّةٌ، فَوَعَدْتُهُ أَنْ أَتِيَهُ بِهَا فِي مَكَانِهِ فَنَسِيتُ ثُمَّ ذَكَرْتُ بَعْدَ ثَلَاثِ فَجِئْتُ فَإِذَا هُوَ فِي مَكَانِهِ فَقَالَ: «يَا فُتَى، لَقَدْ شَقَقْتَ عَلَيَّ أَنَا هَا هُنَا مِنْذُ ثَلَاثِ أَنْتَظُرُكَ»^(٤).

(١) البخاري، كتاب الجزية، باب ٥ برقم ٣١٦٦.

(٢) البخاري، كتاب الصلح، باب ٧ برقم ٢٧٠٠.

(٣) سيرة ابن هشام، ٣: ٢٠٤.

(٤) أبو داود، كتاب الأدب، باب ٩٠ برقم ٤٩٩٦.

- يقول سيّدنا عبدُ الله بنُ عمرٍو رضي الله عنهما: إنّ النبي ﷺ قال: «الغادرُ يُرْفَعُ له لواءٌ يومَ القيامة، يقالُ: هذه غَدْرَةُ فلانِ ابنِ فلانٍ»^(١).

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ﴾

١٧ - الصِّفَةُ الثَّامِنَةُ من صفاتِ أهلِ الإيمانِ هي: أنّهم إذا اضْطُرُّوا إلى الشَّهادةِ أدَّوها كاملةً صحيحةً وبكلِّ أمانة، لا يزيدون أو ينقصون فيها طمعاً في شيءٍ أو خوفاً من شيءٍ.

شهادة الزور

لو شهد أحدٌ شهادةَ زورٍ فيما يتعلّق بالله تعالى فقد اعتدى على حقوقِ الله تعالى، وإنَّ شهدَها فيما يتعلّق بالناسِ فقد اعتدى على حقوقِ العبادِ وضيّعها، ولهذا فإنَّ عبادَ الله الصّالحينَ لا يشاركون في مجلسٍ أو عملٍ أو حديثٍ يكونُ فيه اعتداءٌ على حقوقِ الله أو حقوقِ العبادِ، ولو حَدَثَ مصادفةً أنْ وُجِدوا في مجلسٍ بهذا الشكل فإنَّهم سرعانَ ما ينسحبونَ منه بطريقةٍ وقورة، محافظينَ - في نفسِ الوقت - على طهارةِ أنفُسِهِم من هذا الكذبِ.

يقول الدكتور وَهبة الزُّحيلي: «وكانَ عمرُ بنُ الخطابِ يَجِلِدُ شاهدَ الزُّورِ أربعينَ جَلْدَةً، وَيُسَخِّمُ وَجْهَهُ (يَطْلِيهِ بالسَّوَادِ) وَيَحْلِقُ رَأْسَهُ، وَيُطَوِّفُ بِهِ السُّوقَ»^(٢)، حتى ينفَرَ الناسُ من شهادةِ الزُّورِ.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾

١٨ - الصِّفَةُ التَّاسِعَةُ من صفاتِ أهلِ الإيمانِ هي: أنّهم يُحافظونَ على صَلَواتِهِم،

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب ٩٩ برقم ٦١٧٧.

(٢) التفسير المنير، سورة الفرقان (٢٥): الآية ٧٢.

يعني: يؤدونها بكل خشوع وخضوع وإخلاص نية لله تعالى، حتى لا يضيع أجرهم بسبب الرياء.

﴿أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾

١٩ - أصحاب الصفات التسع السابقة هم أولئك السعداء الذين يصبرون ولا يبخلون، وإنما يزُفون ربهم بصبرهم وسخائهم، والله تعالى يُدخلهم الجنة، حيث يعيشون حياة كريمة بكل عز واحترام.

فَالَّذِينَ كَفَرُوا بِكَ مُهَاطِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَنْطَمَعَ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَا أَقْسِمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَنْ نَبْدِلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرَهُمْ يَحْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِفُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلُّكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا بِكَ مُهَاطِينَ﴾

٢٠ - ما أعجب كفار مكة من بشر! إذ عندما يكون النبي ﷺ جالساً في مجلس أصحابه رضي الله عنهم، فإن هؤلاء الكفار كانوا يُسارعون إليه ﷺ في جماعاتٍ عن اليمين وعن الشمال، وبدلاً من أن يؤمنوا به ﷺ، ويستفيدوا من حديثه المليء بحكمة، كانوا على العكس من ذلك يسخرون منه ﷺ ومن أصحابه الكرام رضي الله عنهم قائلين: إذا كان هؤلاء المسلمون سيدخلون الجنة، فسندخلها قبلهم يقيناً^(١).

(١) «قال المفسرون: كان المشركون يجتمعون حول النبي ﷺ حلقاً حلقاً، يسمعون كلامه ويستهنئون به وبأصحابه، ويقولون: إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلها قبلهم، فنزلت الآية» صفوة التفاسير.

﴿كَلَّا﴾

٢١ - يقول العلامة القرطبي: «فإذا سمعوا بحديث الآخرة وما وعد الله المؤمنين قالوا: إن صحَّ أنا نُبعثُ كما يزعمُ محمدٌ ومن معه لم يكن حالنا وحالهم إلا مثل ما هي في الدنيا، وإلا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا، وأقصى أمرهم أن يساونا»^(١).

في هذه الآية أبطل الله تعالى مزاعم مشركي مكة قائلًا: إن هذا لا يمكن، ولا يمكن أن يتساوى مواطنٌ ملتزمٌ بالقانون مع نظيره المجرم في أي بلد متحضّر، فكيف يمكن أن يدخل العاصي لله الجنة مع المطيع له؟

﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾

٢٢ - كان كفار مكة ينكرون مسألة البعث ثانية، ولهذا جاء التنبيه لهم بأنهم يعلمون جيّدًا أنهم خلّقوا من قطرة حقيرة، وإذا كان الله تعالى يستطيع أن يخلّق من هذه القطرة هذا الإنسان الجميل العاقل، فكيف لا يمكنه أن يخلّقه ثانية؟

﴿فَلَا أَقْسِمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾

٢٣ - يقال للمكان الذي تشرق منه الشمس: مشرقٌ، وللمكان الذي تغرب فيه: مغربٌ، ورغم أن الشمس تطلع من المشرق وتغرب في المغرب، إلا أنها تطلع وتغرب كل يوم من مكانٍ جديد، وهكذا يكون للشمس في العام الواحد ٣٦٥ مكانًا تشرق منه، ومثلها تغرب فيه، وقد استعملت ألفاظ المشرق والمغرب بسبب هذه الأماكن المختلفة لطلوع الشمس وغروبها.

﴿عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرَ أَمْنِهِمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾

٢٤ - أقسم الله تعالى بذاته قائلًا: إننا قادرون على أن نهلككم ونأتي بخير منكم

(١) تفسير القرطبي: سورة القلم (٦٨): الآية ٣٥.

٤٢٦ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

بدلاً منكم، ولا يُعجزُنا هذا الأمرُ أبداً، وفيه إشارةٌ إلى القيامة، بمعنى: أنه إذا كان بإمكاننا أن نخلقُ خيراً منهم بدلاً منهم، فكيف لا نستطيعُ أن نُحييهم من جديد؟

﴿فَذَرَهُمْ خَوْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يَلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾

٢٥ - يا أيُّها النبي الحبيب ﷺ، لقد أدَّيتَ حقَّ تبليغِ الرِّسالة، فإذا لم يؤمنوا بك برغم هذا، وإنما سَخِرُوا منك، فلا تَحْزَنْ عليهم ولا تَغْتَمَّ، ولا تُبَالِ بهم، ودَعِّهم مُنْهَمِكِينَ في لَهْوِهِم ولَعِبِهِم وكلامِهِم التافه، إلى أن يَمُتُّوا في عدالتنا يومَ القيامة، وعندئذٍ سنُعاقِبُهُم أشدَّ العقابِ على أفعالِهِم القبيحة.

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَانَهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُؤْفَضُونَ﴾

٢٦ - حينَ ينهَضُ الكفَّارُ من قبورِهِم يومَ القيامة سيَهْرَوِلُونَ بِاتِّجَاهِ مَنْ يناديهِم، مثلما كانوا يُسارعونَ إلى الأصنام في الدنيا، ولكنَّ أَبْصَارَهُم في ذلك اليوم ستَكُونُ خاشعةً ذليلةً مثلُهم مثلُ المجرمين، وسوف تسودُّ وجوهُهُم من الخزي والعارِ والذلِّ، فهذا هو اليومُ الذي وُعدوا به، ولكنَّهُم لم يؤمنوا به.

الفقيهُ إلى الله: محمَّد إمداد حُسين بيْرزاده،

جامعةُ الكرم، بريطانيا

بعد صلاة العصر من يوم الجمعة ١٢ نوفمبر

٢٠١٠م

الموافق ١٥ ذي الحجة ١٤٣١هـ.

هذا، وقد اكتمَلَ بفضل الله تعالى وكرمه تفسير سورة «المعارج» في أربعة أيام فقط، أي: من ٨ إلى ١٢ نوفمبر، والحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلامُ على سيِّد المرسلين، وعلى آله وأصحابِهِ أجمعين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧١) سُورَةُ نُوحٍ

هذه السورة مكيّة، واسمها: «نوح»، وهو مأخوذ من الآية الأولى منها.

دعوة سيدنا نوح عليه السلام

جاء بيان قصة سيدنا نوح عليه السلام في هذه السورة، فقد ظلّ سيدنا نوح عليه السلام يدعو قومه لتسعمائة وخمسين عامًا، وأفهمهم مرارًا أن استغفروا الله تعالى، وعندئذ لن يغفر الله لكم ذنوبكم فقط، وإنما سيُمطرُكم بأُمطارٍ تُنبِثُ حدائقكم وبساتينكم، وتجري منها أنهاركم، وسيُرزقكم بالكثير من الأموال والأولاد.

قدرة الله تعالى

في الجزء الأوسط من هذه السورة عبّر الله تعالى عن قدرته، يعني: أنه خلق السماء والشمس والقمر والأرض، ثم خلق إنسانًا جميلًا وعظيمًا من قطرة حقيرة، ولئن تدبّر الإنسان في هذه الأشياء، لوجدَ فيها آياتٍ عديدة على قدرة الله تعالى.

دعاء سيدنا نوح عليه السلام على قومه

لم يتأثر قوم نوح بدعوة سيدنا نوح عليه السلام لهم ليل نهار، ولم يؤمن به

سوى عددٍ قليلٍ من الناس، بل إنهم تأمروا على قتله، ولمّا لم يبقَ لديه عليه السّلام
أَيُّ أملٍ، حيثنّذ دعا عليهم، فأغرّقهم الله تعالى في الماء.

الفقيّر إلى الله: محمّد إمداد حُسَيْن بيززاده،

جامعة الكرم، بريطانيا

بعد صلاة الفجر من يوم السبت ١٣ نوفمبر ٢٠١٠م

الموافق السادس من ذي الحجة عام ١٤٣١هـ.



سُورَةُ نُوحٍ (٧١)،

مكية (٧١)، آياتها (٢٨)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَاعَهُمْ فِيْ أَعَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيْهِمْ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيْهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِيَسْأَلُوكُمُنْهَا سُبُلًا وَفَجَا ﴿٢٠﴾

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾

١ - وُلِدَ سَيِّدُنَا نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ سَيِّدِنَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْفَنِيِّ عَامَ تَقْرِيبًا، خِلَالَ هَذِهِ الْفَتْرَةِ الطَّوِيلَةِ تَرَكَ النَّاسُ التَّوْحِيدَ، وَأَصَابَهُمْ ضَلَالُ الشَّرِكِ، وَلِهَذَا أَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى سَيِّدَنَا نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَىٰ قَوْمِهِ نَبِيًّا، حَتَّى يُنْذِرَهُمْ بِعَذَابِ اللَّهِ

تعالى، وأنهم إذا أصرُّوا على كفرهم وشركهم، فسيأتيهم عذابٌ أليم، وفي ذلك الوقت لن تجدوا مهلةً للتوبة، ولهذا ينبغي لكم أن تتوبوا من كفركم وتؤمنوا بالله تعالى قبل أن يأتيكم العذاب.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾

٢ - ولهذا أخبر سيدنا نوح عليه السلام قومه قائلاً: إِنِّي جئتُ إليكم لأنذركم من عذابِ الله تعالى، والسَّيْلُ إلى النَّجاةِ من عذابِ الله تعالى هو أن تعبدوه، وتَتَّقُوهُ، وأن تُطِيعُونِي، فإذا فعلْتُم فإنَّ الله تعالى سيغفرُ لكم ذُنُوبَكُمْ، وسيُخْرِجُ عَنْكُمْ ذَلِكَ الْعَذَابَ الَّذِي كُنتُمْ تَسْتَحِقُّونَهُ بِسَبَبِ كُفْرِكُمْ وَشُرْكِكُمْ؛ لأنَّ الَّذِينَ يُتُوبُونَ بَصِدْقٍ قَبْلَ مَجِيءِ الْعَذَابِ يُؤَخَّرُ عَذَابُهُمْ، وإذا بقيْتُم على إيمانِكُمْ وظَلَلْتُم ثابِتِينَ عَلَيْهِ، عِنْدَئِذٍ سَيُؤَخَّرُ عَنْكُمْ بِشَكْلِ مُسْتَقِيلٍ، ولن يأتيكم أبداً بعد ذلك، لكن إذا لم تستفيدوا من هذه المَهْلَةِ، وحانَ وَقْتُ عَذَابِكُمْ، فإنَّ توبَتكم لن تُقْبَلَ عِنْدَئِذٍ، ولن يُؤَخَّرَ عَنْكُمْ الْعَذَابُ، لِيُنْتَكَم تَفْهَمُونَ هذه الحقيقة، وتتوبون إلى الله قبل مجيء العذاب.

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا﴾

٣ - ظَلَّ سَيِّدُنَا نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدْعُو قَوْمَهُ إِلَى التَّوْحِيدِ لِمَدَّةٍ تَسْعِمَائَةٍ وَخَمْسِينَ عَامًا قَبْلَ مَجِيءِ الطُّوفَانِ، ولكن لما لم يبدُ لَهُ شُعَاعُ أَمَلٍ فِي إِيْمَانِهِمْ، تَوَجَّهَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَدَعَا قَائِلًا فِي حَضْرَتِهِ: لَقَدْ دَعَوْتُ قَوْمِي لِيلاً وَنَهَارًا، وَلَكِنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا، بَلْ إِنَّهُمْ مَا إِنْ يَسْمَعُوا صَوْتَ دَعْوَتِي حَتَّى يَفِرُّوْنَ بَعِيدًا.

عمر سيدنا نوح عليه السلام وفترة دعوته

يقول سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «بُعِثَ نُوحٌ بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً،

وَلَبِثَ يَدْعُو قَوْمَهُ تِسْعَمَائَةٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً، وَعَاشَ بَعْدَ الطُّوفَانِ سِتِّينَ سَنَةً (وَضَلَّتْ سُلْسَلَةُ الدَّعْوَةِ متواصلةً، وبهذا) فَكَانَ عُمُرُهُ أَلْفًا وَخَمْسِينَ سَنَةً^(١). وَكَانَتْ فِتْرَةُ دَعْوَتِهِ أَلْفَ عَامٍ وَعَشْرَةَ أَعْوَامٍ، وَرَغِمَ أَنَّ الْعُمَرَ الطَّبِيعِيَّ لِلْإِنْسَانِ لَيْسَ طَوِيلًا إِلَى هَذَا الْحَدِّ، لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَادِرٌ مُطْلَقٌ، يَفْعَلُ مَا يَرِيدُ.

﴿وَإِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِيُغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصْغَعُمْ فِيْٓ أَذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾

٤ - يَا إِلَهِي، إِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ حَتَّى يُؤْمِنُوا بَكَ، فَتَغْفِرَ لَهُمْ ذُنُوبَهُمْ، فَإِنَّهُمْ يَضْعُونَ أَصَابِعَهُمْ فِيْ أَذَانِهِمْ، حَتَّى لَا يَسْمَعُوا مَا أَقُولُ، بَلْ وَيَلْقُونَ ثِيَابَهُمْ فَوْقَ رُءُوسِهِمْ لِكَيْ لَا يَرُونِي وَلَا أَسْتَطِيعَ أَنَا التَّعَرُّفَ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ تَعَتَّتُوا إِلَى حَدٍّ بَعِيدٍ فِي شِرْكِهِمْ وَكُفْرِهِمْ إِلَى دَرَجَةِ أَنَّهُمْ لَمْ يَعُودُوا عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِلتَّخَلِّي عَنْهُ، وَلِهَذَا يَتَكَبَّرُونَ، وَلَا يُعِيرُونَ كَلَامِي اهْتِمَامًا.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ۖ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾

٥ - ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ عَلَانِيَةً بِشَكْلِ اجْتِمَاعِيٍّ فِي مَجَالِسِهِمْ، وَأَفْهَمْتُهُمْ - بِشَكْلِ فَرَدِيٍّ فِي بَيْوتِهِمْ - أَنْ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ تَعَالَى، وَعِنْدَئِذٍ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ فَقَطْ، وَإِنَّمَا سَيُطْرِكُكُمْ بِأَمْطَارٍ تُنْبِتُ حَدَائِقَكُمْ وَيَسَاتِينَكُمْ، وَتَجْرِي مِنْهَا أَنْهَارُكُمْ، وَسَيَرْزُقُكُمْ بِالْكَثِيرِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ.

فضل الاستغفار

- يَقُولُ الْعَلَامَةُ الْقُرْطُبِيُّ: «وَقَالَ مُقَاتِلٌ: لَمَّا كَذَّبُوا نُوْحًا زَمَانًا طَوِيلًا حَبَسَ اللَّهُ

(١) تفسير الخازن، سورة هود (١١): الآية ٢٧.

عنهم المطر، وأَعْقَمَ أَرْحَامَ نِسَائِهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَهَلَكْتَ مَوَاشِيَهُمْ وَزُرُوعُهُمْ، فَصَارُوا إِلَى نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاسْتَغَاثُوا بِهِ. فَقَالَ: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾^(١).

- يَقُولُ الْإِمَامُ الشَّعْبِيُّ: «خَرَجَ عُمَرُ يَسْتَسْقِي، فَلَمْ يَزِدْ عَلَى الْاسْتِغْفَارِ، حَتَّى رَجَعَ، فَأَمَطَرُوا، فَقَالُوا: مَا رَأَيْنَاكَ اسْتَسْقَيْتَ؟ فَقَالَ: لَقَدْ طَلَبْتُ الْمَطَرَ بِمَجَادِيحِ السَّمَاءِ الَّتِي يُسْتَنْزَلُ بِهَا الْمَطَرُ، ثُمَّ قَرَأْتُ: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ * يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا»^(٢).

- يَقُولُ ابْنُ صَبِيحٍ: «شَكَأَ رَجُلٌ إِلَى الْحَسَنِ الْجُدَوِيَّةَ، فَقَالَ لَهُ: اسْتَغْفِرِ اللَّهَ. وَشَكَأَ آخَرُ إِلَيْهِ الْفَقْرَ فَقَالَ لَهُ: اسْتَغْفِرِ اللَّهَ. وَقَالَ لَهُ آخَرٌ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَنِي وَلَدًا، فَقَالَ لَهُ: اسْتَغْفِرِ اللَّهَ. وَشَكَأَ إِلَيْهِ آخَرٌ جَفَافَ بَسْتَانِهِ، فَقَالَ لَهُ: اسْتَغْفِرِ اللَّهَ. فَقُلْنَا لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: مَا قُلْتُ مِنْ عِنْدِي شَيْئًا، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي سُورَةِ «نُوحٍ»: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ * يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا»^(٣).

- يَقُولُ سَيِّدُنَا سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَكْثِرُوا مِنَ الْاسْتِغْفَارِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يُعَلِّمْكُمْ الْاسْتِغْفَارَ إِلَّا وَهُوَ يَرِيدُ أَنْ يَغْفِرَ لَكُمْ»^(٤).

- رَوَى عَنْ سَيِّدِنَا أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَتَرْفَعُ دَرَجَتَهُ فِي الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: أَتَى هَذَا؟ فَيَقَالُ: بِاسْتِغْفَارٍ وَلَدِكَ لَكَ»^(٥).

(١) تفسير القرطبي، سورة نوح (٧١): الآية ١٠.

(٢) المرجع السابق، سورة نوح (٧١): الآية ١٠.

(٣) المرجع السابق، سورة نوح (٧١): الآية ١٠.

(٤) تفسير الدر المنثور، سورة نوح (٧١): الآية ١٠.

(٥) ابن ماجه، أبواب الأدب، باب ١ برقم ٣٦٦٠.

- يقولُ سَيِّدُنَا أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رضي الله عنه: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «إِنَّ إبليسَ قال لربِّه: بِعِزَّتِكَ وَجَلَالِكَ، لَا أَبْرَحُ أُغْوِي بني آدَمَ مَا دَامَتِ الْأَرْوَاحُ فِيهِمْ، فقال له الله: فَبِعِزَّتِي وَجَلَالِي، لَا أَبْرَحُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي»^(١).

- يقولُ سَيِّدُنَا أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: إِنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»^(٢).

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾

٦ - يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ، هَلْ فَكَّرْتَ مَرَّةً مَا هُوَ أَصْلُكَ؟ كَيْفَ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْكَ إِنْسَانًا جَمِيلًا عَظِيمًا بَحِثْ تَحَكُّمُ الْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا، وَقَدْ خَلَقَكَ مِنْ قَطْرَةٍ لَا رُوحَ فِيهَا، وَجَعَلَكَ تَطْوِي مَراحِلَ عَدِيدَةٍ خَلالِهَا، وَكَانَ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْتَرِفَ بِأَفْضَالِ الْمُحْسِنِ الْحَقِيقِيِّ عَلَيْكَ، وَتُصْبِحَ عَبْدًا شَكُورًا لَهُ، وَلَكِنْ مَاذَا دِهَاقَ حَتَّى لَا تَعْتَرِفَ بِعَظَمَةِ خَالِقِكَ الْحَقِيقِيِّ، وَلَا بِقُدْرَتِهِ؟

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾

٧ - يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ، هَلْ تَدَبَّرْتَ ذَاتَ مَرَّةٍ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيْسَ خَالِقُكَ أَنْتَ فَقَطْ، وَإِنَّمَا هُوَ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ أَيْضًا، وَخَلَقَ تَحْتَهَا الْقَمَرَ يَضِيءُ اللَّيْلَ، وَخَلَقَ الشَّمْسَ لِتَضِيءَ النَّهَارَ، وَكُلُّ هَذِهِ آيَاتٌ تَدُلُّ عَلَى عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ.

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾

٨ - مِثْلَمَا يُنْبِتُ اللَّهُ تَعَالَى الْنبَاتَاتِ مِنَ الْأَرْضِ، خَلَقَ أَبَاكُمْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ

(١) مسند أحمد، ٣: ٤١.

(٢) البخاري، كتاب الدعوات، باب ٣ برقم ٦٣٠٧.

الطِّينَ بنفسِ الطريقة، ولهذا يُنسَبُ الإنسانُ إلى الطِّينِ باعتبارِ الأصل، ولا تزالُ صلةُ الإنسانِ قائمةً بالطِّينِ من عدّةِ اعتباراتٍ، مثلاً: النُّطفَةُ التي خُلِقَ الإنسانُ منها يأتي غذاؤها أيضاً من الطِّينِ، كما أنَّ سُرَّةَ الإنسانِ عندَ ولادته تُصْبَغُ بلونِ التُّرابِ أيضاً، مثلما يقولُ سيِّدنا ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه، من أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «ما مِن مولودٍ إلَّا وفي سُرَّتِهِ من تُرْبَتِهِ التي يولَدُ منها، فإذا رُدَّ إلى أَرْضِ العُمَرِ رُدَّ إلى تُرْبَتِهِ التي خُلِقَ منها حتَّى يُدْفَنَ فيها، وإنِّي وأبو بكرٍ وعُمَرُ خُلِقْنَا من تُرْبَةٍ واحدةٍ وفيها نُدْفَنُ»^(١).

- يقولُ سيِّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: إنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «ما مِن مولودٍ إلَّا وقد ذُرَّ عليه من تُرابِ حُفْرَتِهِ». قال أبو عاصمٍ: ما تجدُ لأبي بكرٍ وعُمَرَ رضي الله عنهما فضيلةً مثلَ هذه؛ لأنَّ طينتهما من طينةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلَّم»^(٢).

- يقولُ سيِّدنا عبدُ الله بنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «يُدفَنُ كلُّ إنسانٍ في التُّربةِ التي خُلِقَ منها»^(٣).

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾

٩ - جَعَلَ اللهُ لَكُمْ الْأَرْضَ - مِثْلَ الْفِرَاشِ - مُنْبَسِطَةً، وَجَعَلَ فِيهَا طُرُقًا وَاسِعَةً فَسِيحَةً حَتَّى تَسْتَطِيعُوا الْمَشْيَ فِيهَا بِسُهُولَةٍ وَلَا تُوَاجِهُوا صَعُوبَاتٍ فِي التَّنَقُّلِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ.

قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهْمَ عَصَوْنِي وَأَتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿١١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا ﴿١٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا

(١) كنز العمال، ١١: ٥٦٥ برقم ٣٢٦٧٣.

(٢) حلية الأولياء، ٢: ٣١٨ برقم ٢٣٨٩.

(٣) مصنف عبد الرزاق، ٣: ٥١٥ برقم ٦٥٣١.

وَلَا نُزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا نُزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَارًا ﴿٢٨﴾

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾

١٠ - يا إلهي، لقد دعوت قومي إلى التوحيد، لكنهم عصوني، واتبعوا أولئك الزعماء الذين جعلتهم كثرة أولادهم وأموالهم طغاة في هذه الدنيا، وأضفت إليهم مزيداً من الضر والخسران في الآخرة.

﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا كَبَارًا﴾

١١ - كان زعماء الكفار يعملون جاهدين ليل نهار على الكيد والخداع لسيّدنا نوح عليه السلام، ولما لم تُتمِز جهودهم شيئاً في هذا الخصوص، عزموا فيما بينهم على تنفيذ مؤامرة كبيرة ضده عليه السلام، يعني: تأمروا على قتله مثلما جاء في القول الذي نقله العلامة القرطبي: «فقيل: تحريشهم سفلتهم على قتل نوح»^(١).

﴿وَقَالُوا لَا تَذَرْنِ الْهَتَكُمْ وَلَا تَذَرْنِ وُدًّا وَلَا سُوعًا وَلَا يَعُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾

١٢ - من أشهر الأصنام التي كان يعبدها قوم نوح خمسة أصنام هي: وُدٌّ، وسُوعٌ، ويعُوثُ، ويعُوقُ، ونَسْرٌ، وحين نهى سيّدنا نوح عليه السلام قومه عن عبادة الأصنام، ودعاهم إلى التوحيد، قال زعماء قوم نوح لعامة الناس: إن نوحاً عليه السلام مجنون! لهذا لا تتركوا - بناءً على كلامه - عبادة أصنامكم أبداً، وإنما استمروا

(١) تفسير القرطبي، سورة نوح (٧١): الآية ٢٢.

في عبادتها. وعليه قال سيّدنا نوح عليه السلام: يا إلهي، لقد أضلّ هؤلاء الظالمون كثيراً من الناس، فعاقب هؤلاء الظالمين على ظلمهم، وزد في ضلالهم.

﴿مَمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾

١٣ - لما لم يرجع قوم نوح عن ضلالهم وطغيانهم أغرقهم الله تعالى بسبب ذنوبهم، ثم سلط عليهم بعد ذلك مباشرة عذاب القبر، أمّا الأصنام التي كانوا يعبدونها فلم تستطع إنقاذهم من عذاب الله تعالى.

يقول العلامة الألوسي: «فأدخلوا ناراً هي نار البرزخ، والمراد عذاب القبر، ومن مات في ماء أو نار أو أكلته السباع أو الطير مثلاً أصابه ما يصيب المقبور من العذاب»^(١).

ما المراد بالقبر؟

المراد بالقبر ليس تلك الحفرة التي يُدفن فيها الميت فقط، وإنما المراد منه أيضاً ذلك المكان الذي توجد فيه الأجزاء الأصلية للإنسان بعد موته، سواء كان ذلك المكان عبارة عن التراب، أو الماء أو بطن حيوان من الحيوانات.

ما المراد بالميت في القبر؟

المراد بالميت في القبر ليس ذلك الجسد الذي يكون معنا في هذه الدنيا فقط؛ لأنّ هذا الجسد تأكله الأرض بعد فترة من وفاة صاحبه، كما أنّ الميت الذي تأكل النار جسده، أو الذي يأكله حيوان، لا يبقى من جسده شيء، فلا يّ جسد إذا يكون العقاب أو الإثابة في القبر؟ والجواب عن هذا: أنّ لروح الإنسان علاقة مخصوصة بالأجزاء الأصلية للإنسان تظلّ قائمة معه، وبها يشعر الميت بالفرحة

(١) تفسير روح المعاني، سورة نوح (٧١): الآية ٢٥.

والأذى أيضًا، ومثل ذلك الشخص الذي يرى في المنام أنه رَحَلَ إلى بلدٍ آخر، وهناك حَدَثَ له ما يُسَعِّدُهُ أو يُؤْذِيهِ ويُحْزِنُهُ، في هذه الحالة لا يكونُ جَسَدُ هذا النائم مصاحِبًا له، ومع ذلك يَشْعُرُ بالفرحة والتَّعَبِ أيضًا، وبنفسِ الطريقة فإنَّ الميِّتَ الذي يَتَلَفُ جَسَدَهُ، يَشْعُرُ بالفرحة والأسَى بسببِ ذلك التعلُّقِ المخصوص للروح مع أجزاء الإنسان الأُصْلِيَّةِ.

لمزيدٍ من التفصيل عن العذابِ في القبر، والنَّعيمِ في القبر، والاستعاذة من عذابِ القبر، وصوتِ عذابِ القبر، والتخفيفِ في عذابِ القبر، راجع الحاشية رقم ٣٨ للآية رقم ٤٦ من سورة غافر (٤٠).

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾

١٤ - ظَلَّ سَيِّدُنَا نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدْعُو قَوْمَهُ إِلَى التَّوْحِيدِ قَبْلَ الطُّوفَانِ لِمُدَّةٍ تَسَعِمَائَةٍ وَخَمْسِينَ عَامًا، وَلَمَّا لَمْ يَرْجِعُوا عَنِ الطُّغْيَانِ وَالْعِصْيَانِ حَتَّى بَعَدَ هَذِهِ الْفَتْرَةُ الطَّوِيلَةَ مِنَ الدَّعْوَةِ وَالتَّبْلِيغِ، عِنْدَئِذٍ شَعَرَ سَيِّدُنَا نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنَّهُمْ لَنْ يُؤْمِنُوا أَبَدًا، وَاللَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَهُ بِذَلِكَ فَعَلَّا، مِثْلَمَا يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَى إِلَيَّ نُوحٌ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦]، وَبِالتَّالِي دَعَا سَيِّدُنَا نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَيْهِمْ، وَاسْتَجَابَ اللَّهُ دَعَاءَهُ، وَأَغْرَقَهُمْ جَمِيعًا، وَنَجَّى سَيِّدَنَا نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَنْ آمَنُوا مَعَهُ فَقَطْ، وَكَانَ تَعْدَادُهُمْ ثَمَانِينَ فَرْدًا.

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾

١٥ - مِثْلَ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، دَعَا سَيِّدُنَا نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوَّلًا لِنَفْسِهِ بِالْمَغْفِرَةِ، ثُمَّ دَعَا لَوَالِدَيْهِ، ثُمَّ دَعَا لِأَهْلِ الْإِيمَانِ. يَا اللَّهُ، هَذَا الْفَقِيرُ إِلَيْكَ - عَمَلًا

٤٣٨ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

بِسُنَّةِ أَنْبِيَائِكَ الْكَرَامِ الْمُقَرَّبِينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - يَضْرَعُ إِلَيْكَ قَائِلًا: يَا رَبَّنَا، اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، آمِينَ.

الفقيه إلى الله: محمّد إمداد حسين بيرزاده،

جامعة الكرم، بريطانيا

بعد صلاة الفجر من يوم الأحد ١٤ نوفمبر ٢٠١٠م

الموافق ٧ ذي الحجة ١٤٣١هـ

هذا، وقد اكتمل تفسير سورة «نوح» في يوم واحد فقط، أي: من ١٣ إلى ١٤

نوفمبر، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٢) سُورَةُ الْجِنِّ

هذه السُّورة مَكِّيَّة، واسمُها: «الْجِنُّ»، وهو مأخوذٌ من الآية الأولى منها.

قبول الجن للإسلام

جاء في الجزء الأول من هذه السُّورة بيانٌ لأحوالِ مجموعةٍ من الجنِّ كانوا مشركين، وحين سَمِعُوا القرآنَ الكريمَ من النبيِّ الكريمِ ﷺ تابوا من الشُّركِ وأَسْلَمُوا، وقد مرَّ ذكرُ مجموعةٍ من الجنِّ أيضًا قبلَ ذلك في الآية ٢٩ من سورة الأحقافِ (٤٦)، وكانوا أهلَ كتابٍ، فلَمَّا سَمِعُوا القرآنَ الكريمَ من النبيِّ ﷺ أَسْلَمُوا أيضًا. يقولُ العلامةُ الألوسي: «وقد دَلَّتْ الأحاديثُ على أنَّ وفادةَ الجنِّ كانت ستَّ مراتٍ»^(١)، وكما أنَّ في بني الإنسانِ فِرَقًا عديدةً، ومنهم الأشخاصُ الطيِّبونَ والسيِّئونَ، كذلك في الجنِّ فِرَقٌ عديدةٌ أيضًا، ومن بينهم جنٌّ صالحون لا يؤذونَ أحدًا، ومنهم جنٌّ شرِّرونَ وسيِّئونَ يُضايقونَ الناسَ.

الدعوة إلى التوحيد

في الجزء الأوسطِ من السُّورة جاءتِ الدَّعوةُ إلى التوحيدِ ودَحْضِ الشُّركِ، والتأكيدُ على أنَّ الهدفَ من بناءِ المساجدِ أيضًا هو أنَّ لا يُعبدَ فيها سوى الله تعالى،

(١) تفسير روح المعاني، سورة الجن (٧٢): الآية ١.

٤٤٠ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

ولهذا فَإِنَّ مَنْ يُشْرِكُ مِنَ الْإِنْسِ أَوْ الْجِنِّ، ويعصي الله تعالى ورسوله ﷺ، فإنه سيُخْلَدُ فِي جَهَنَّمَ إِلَى الْأَبَدِ.

في هذه الآياتِ جاء التنبيهُ لكفَارِ مَكَّةَ بأنه عندما يدْعُوكم نبيِّي الحبيب ﷺ إلى التوحيد، فإنَّكم تَسْخَرُونَ منه، وتتفاخرونَ بِقَوَّاتِكُمْ وكثرتِكُمْ، ولكنَّ إن لم تَرْجِعُوا عن شِرْكِكُمْ، فسيأتي يومٌ قريبٌ تكونُ فيه القوَّةُ والكثرةُ لدى نبيِّي الحبيب ﷺ، وتكونونَ أنتم بلا مُعينٍ أو نصير. وهكذا ظَهَرَتِ أُولَى بَوَادِرِ هذا الأمرِ في ميدانِ بدر، وسيكونُ آخِرُهَا في ميدانِ الحشر.

علم الغيب

في نهايةِ هذه السُّورة أَخْبَرَنَا اللهُ تَعَالَى أَنَّ عِلْمَ الْغَيْبِ مَخْصُوصٌ بِهِ هُوَ فَقَطْ، لَكِنَّهُ يَعْلَمُ أَنْبِيََاءَهُ وَرُسُلَهُ فَقَطْ بِالْغَيْبِ، وَلَا يُعْطَى عِلْمَ الْغَيْبِ لِلْجِنِّ أَوْ السَّحَرَةِ أَوْ الْكَهَنَةِ.

الفقيرُ إلى الله: مُحَمَّدٌ إِمْدَادُ حُسَيْنٍ بَيْرَزَادِهِ،

جامعةُ الكَرَم، بَريطَانِيا

بعدَ صلاةِ الفجرِ من يومِ الاثنينِ ١٥ نوفمبر ٢٠١٠م

الموافق ٨ ذي الحجة ١٤٣١هـ.



سُورَةُ الْجِنِّ (٧٢)،

مكية (٤٠)، آياتها (٢٨)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِك بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَلَّىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صُحْبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مِثْلَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهْبًا ﴿٨﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنهَا مَقْعَدَ لِلْسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَحْدِثْ لَهُ شَهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرٌ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَا دُونُ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا ﴿١١﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَعِجَزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ ءَامَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَحْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَالْوَالِدُ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لَنُقَنِّعَنَّهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾

﴿قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾

١ - جاءت مجموعات مختلفة من الجن إلى النبي ﷺ في أوقات متفاوتة،

وَاسْتَمَعُوا إِلَى رَسُولِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَأَسْلَمُوا. يَقُولُ الْعَلَّامَةُ الْأَلُوسِيُّ: «وَقَدْ دَلَّتِ الْأَحَادِيثُ عَلَى أَنَّ وفَادَةَ الْجِنِّ كَانَتْ سِتِّ مَرَاتٍ»^(١).

فِي هَذَا الْخُصُوصِ مَرَّ ذِكْرُ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْجِنِّ أَيْضًا قَبْلَ ذَلِكَ فِي الْآيَةِ ٢٩ مِنْ سُورَةِ «الْأَحْقَافِ» (٤٦)، وَكَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ مِنْ أَتْبَاعِ سَيِّدِنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَطَائِفَةُ الْجِنِّ الَّذِينَ جَاءَ ذِكْرُهُمْ هُنَا كَانُوا مُشْرِكِينَ، «وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أُولَئِكَ الْفَرَّكَانُوا مُشْرِكِينَ»^(٢)؛ لِأَنَّهُ عِنْدَمَا سَمِعَتْ هَذِهِ الْمَجْمُوعَةُ مِنَ الْجِنِّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ، ثُمَّ عَادُوا إِلَى رِفَاقِهِمْ مِنَ الْجِنِّ الْآخَرِينَ قَالُوا: لَقَدْ سَمِعْنَا قَرَأْنَا عَجَبًا، لَا نَظِيرَ لَهُ بِاعْتِبَارِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ، وَلَا مِثِيلَ لَهُ بِاعْتِبَارِ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ، وَيَهْدِي إِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ، وَلَقَدْ تَأَكَّدَ لَنَا أَنَّهُ لَيْسَ كَلَامَ بَشَرٍ، وَإِنَّمَا هُوَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، وَلِهَذَا آمَنَّا بِهِ، وَلَنْ نُشْرِكَ بِهِ أَحَدًا فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَيُعَلِّمُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ مُشْرِكِينَ، ثُمَّ تَابُوا مِنَ الشِّرْكِ وَقَبِلُوا الْإِسْلَامَ، وَإِلَيْكَ فِي هَذَا الْخُصُوصِ وَاقِعَةٌ أَضَعُهَا بَيْنَ يَدَيْكَ فَتَأَمَّلْهَا:

يَقُولُ الْعَلَّامَةُ الرَّازِي: «قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: أُمِرْتُ أَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ عَلَى الْجِنِّ، فَمَنْ يَذْهَبُ مَعِيَ؟»، فَسَكَتُوا، ثُمَّ قَالَ الثَّانِيَةُ فَسَكَتُوا، ثُمَّ قَالَ الثَّلَاثَةُ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ قَلْتُ: أَنَا أَذْهَبُ مَعَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَانْطَلَقَ، حَتَّى إِذَا جَاءَ الْحَجُّونَ عِنْدَ شُعْبِ بْنِ أَبِي دُبٍّ، خَطَّ عَلَيَّ خَطًّا فَقَالَ: «لَا تُجَاوِزْهُ»، ثُمَّ مَضَى إِلَى الْحَجُّونَ فَانْحَدَرُوا عَلَيْهِ أَمْثَالَ الْحَجَلِ كَأَنَّهُمْ رِجَالُ الزُّطِّ يَقْرَعُونَ فِي دَفُوفِهِمْ كَمَا تَقْرَعُ النَّسُوءُ فِي دَفُوفِهَا حَتَّى غَشَوْهُ، فَغَابَ عَنْ بَصَرِي فَقُمْتُ، فَأَوْمَأَ إِلَيَّ بِيَدِهِ أَنْ اجْلِسْ، ثُمَّ تَلَا الْقُرْآنَ، فَلَمْ يَزَلْ صَوْتُهُ يَرْتَفِعُ، وَلَصِقُوا بِالْأَرْضِ حَتَّى صِرْتُ أَسْمَعُ صَوْتَهُمْ وَلَا أَرَاهُمْ. وَفِي رَوَايَةٍ أُخْرَى: فَقَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مَا أَنْتَ؟ قَالَ: «أَنَا نَبِيُّ اللَّهِ»،

(١) تفسير روح المعاني، سورة الجن (٧٢): الآية ١.

(٢) تفسير الخازن، سورة الجن (٧٢): الآية ١.

قالوا: فمن يشهد لك على ذلك؟ قال: «هذه الشجرة، تعالني يا شجرة»، فجاءت تجرُّ عروقهـا لها قعاقع حتّى انصبّت بين يديه، فقال: «على ماذا تشهدين لي؟»، قالت: أشهد أنّك رسول الله، قال: «اذهبي»، فرجعت كما جاءت حتّى صارت كما كانت. قال ابن مسعود: فلما عاد إليّ، قال: «أردت أن تأتييني؟»، قلت: نعم يا رسول الله، قال: «ما كان ذلك لك، هؤلاء الجنُّ أتوا يستمعون القرآن، ثم ولّوا إلى قومهم مُنذرين»^(١).

كما أنّ في هذه الآية تنبيهاً لكفار مكّة بأنّ الجنّ سمِعوا القرآن الكريم مرّة واحدة، وتوصّلوا بعدها إلى نتيجة أنّ هذا القرآن ليس كلام بشر، وإنّما هو كلام الله تعالى، فماذا دهاكم أنتم الذين تستمعون كلّ يوم إلى القرآن الكريم من النبيّ ﷺ، ومع ذلك لم تُحاولوا فهم حقيقته.

ويُعلم من هذا أنّ من الجنّ أهل كتابٍ ومُشركين ومسلمين، ويُعلم منه أيضاً أن مجموعات الجنّ الذين اتّقوا النبيّ ﷺ كانوا يعرفون اللّغة العربيّة جيّداً، ولهذا أسلموا لما سمِعوا القرآن الكريم.

من هم الجن؟

الجنُّ مخلوقٌ من نار، ولا نراهم، وقد أعطاهم الله تعالى المقدرة على أن يتشكّلوا بالشكل الذي يُريدون، وهم - فيما يتعلّق بالطعام والشراب والعقل والشّعور والحياة والموت والأولاد - مثلهم مثل بني الإنسان، لكن أعمارهم أكثر طويلاً.

الجنُّ كالشّر أيضاً يجبُ عليهم الإيمان بالله تعالى والعمل بالأحكام الإلهيّة، مثلما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]،

(١) التفسير الكبير، سورة الجن (٧٢): الآية ١.

٤٤٤ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

وبعضُ الجنِّ مسلمٌ وبعضُهم كافرٌ، ومنهُمُ الشَّرِيرُ والكافرُ، وهم الذين يقالُ عنهم: الشَّيَاطِينُ، وكان إبليسُ أيضًا من الجنِّ، مثلما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠].

﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾

٢ - مثلما أنَّ في بني الإنسانِ فرقًا كافرةً عديدةً، يعتقدون بأنَّ لله زوجةً وبناتٍ وأولادًا، كذلك الجنُّ الذين جاءوا هذه المرَّة إلى النبي ﷺ، كانوا أيضًا يعتقدون بمثل هذه الأمور، ولكنَّ عندما سَمِعُوا عن عَظَمَةِ الله تعالى وِجَالِهِ من خلال القرآن الكريم قالوا: إِنَّ شَأْنَ رَبِّنَا فِي غَايَةِ الرَّفْعَةِ وَالسُّمُوِّ، وهو ليس في حاجةٍ إلى زوجةٍ وأطفال.

﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾

٣ - قال الجنُّ الذين قبلوا الإسلام: لقد كان زُعماءُنا يَفْتَرُونَ الكَذِبَ على الله تعالى، وكنا نَظُنُّ أنه لا يمكنُ لإنسانٍ أو جنٍّ أن يكذبَ على الله تعالى، ولهذا ابتلينا بالشُّركِ والكُفْرِ بسببِ هؤلاء الحمقى، لكننا عَلِمْنَا الآنَ بعدَ سَمَاعِنَا للقرآن الكريم أنَّ زُعماءنا كَذَّبُوا ومتجاوزونَ للحدود، ولهذا تُبْنَا إلى الله من الكُفْرِ والشُّركِ، وقبلنا الإسلام.

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾

٤ - كان أهلُ الجزيرةِ العربيَّة يعتقدون أنَّ الجنَّ يسيطرونَ على الأماكنِ غيرِ العامرة، ولئن أقام فيها أحدٌ دونَ أن يستجيرَ بهم، فإنَّ الجنَّ يضايقونه، مثلما يقولُ

الحافظُ ابنُ كثيرٍ في تفسيرِ هذه الآية: «كان عادةُ العربِ في جاهليّتها يُعوذونَ بعظيم ذلك المكانِ من الجنِّ أن يُصيبَهُم شيءٌ يسوؤُهُم، فلمّا رأتِ الجنُّ أن الإنسانَ يُعوذونَ بهم من خَوْفِهِم منهم، ﴿فَرَادُوهُمْ رَهَقًا﴾»^(١)، فقال زعماءُ الجنِّ: إنّنا سادةُ الجنِّ من قبلُ، بل وأصبحنا سادةُ لبني الإنسانِ أيضًا؛ لأنّهم يُعوذونَ بنا الآنَ أيضًا^(٢).

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾

٥ - فيما يلي خلاصةُ أقوالِ المفسِّرينَ في تفسيرِ هذه الآية:

١ - قال الجنُّ الذين قبلوا الإسلامَ للجنِّ الذين يشاركونَهُم نفسَ العقيدة: كما أنكم كنتم تعتقدونَ أنّ الله تعالى لن يُحييَ أحدًا من جديدٍ، ولن يُرسلَ أحدًا نبيًّا، لهذا فإنَّ عقيدةَ أكثرِ البشرِ أيضًا كانت فاسدةً، فأنكروا هم أيضًا الآخرةَ ومجيءَ أيِّ نبيٍّ، ولكنَّهُم بعدَ نزولِ القرآنِ الكريمِ آمنوا بالآخرةَ وبسيِّدنا محمدٍ ﷺ، ولهذا عليكم أنتم أيضًا أن تؤمنوا بالآخرةَ وبسيِّدنا محمدٍ ﷺ.

٢ - القولُ الآخرُ هو أنّ هذا الخطابَ لكفّارِ مكةَ، يعني: مثلما كنتم تعتقدونَ أنّ الله تعالى لن يُحييَ أحدًا من جديدٍ، ولن يُرسلَ أحدًا نبيًّا، لهذا فإنَّ عقيدةَ أكثرِ الجنِّ أيضًا كانت فاسدةً، فأنكروا هم أيضًا الآخرةَ ومجيءَ أيِّ نبيٍّ، ولكنَّهُم بعدَ نزولِ القرآنِ الكريمِ آمنوا بالآخرةَ وبسيِّدنا محمدٍ ﷺ، ولهذا عليكم أنتم أيضًا أن تؤمنوا بالآخرةَ وبسيِّدنا محمدٍ ﷺ.

وفي ألفاظِ القرآنِ الكريمِ متَّسعٌ لهذينِ القولينِ، ولا فَرْقَ مطلقًا بينِ الاثنينِ باعتبارِ النتيجة.

(١) تفسير ابن كثير، سورة الجن (٧٢): الآية ٦.

(٢) «حتى قالت الجن: سدا الإنسان والجن» تفسير القرطبي.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا﴾ (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا
لِّلسَّمْعِ فَمَن يَسْمَعُ الْآنَ يَحْدِلْهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾

٦ - هنا يَنْقُلُ العلامةُ القرطبيُّ الأقوالَ المختلفةَ، وخلاصتها: أنه «لم تكن تُحرسُ السَّمَاءُ في الفترةِ بينَ عيسى ومحمدٍ صَلَوَاتُ اللهَ عليهما وسلامُهُ: خمسمائة عامٍ (وخلال هذه الفترة لم تكن هناك قيودٌ مُشددةٌ على الجنِّ، ولهذا كان الجنُّ يصعدونَ إلى السَّمَاءِ، ويسمعونَ إلى كلام الملائكة)، وإنما كان من أجل بعثة النبي ﷺ، فلما بُعثَ محمدٌ ﷺ مُنعوا من السَّمَوَاتِ كُلِّها، وحُرِسَتْ بالملائكة والشُّهَب... كانت الشَّيَاطِينُ في الفترة تَسْمَعُ فلا تُرْمَى، فلما بُعثَ رسولُ الله ﷺ رُمِيَتْ بالشُّهَبِ» (١).

يقول العلامةُ الرازي: «إنَّ هذه الشُّهَبُ كانت موجودةً قبلَ المبعثِ (ولكن كانت هناك بعضُ الأماكن في السماءِ ليس فيها ملائكةٌ ولا شُهَبُ)، إلَّا أنَّها زِيدت بعدَ المبعثِ وجُعِلَتْ أَكْمَلُ وأقوى، وهذا هو الَّذي يَدُلُّ عليه لفظُ القرآن؛ لأنَّه قال: ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ﴾، وهذا يَدُلُّ على أنَّ الحادثَ هو المَلَأُ والكثرةُ، وكذلك قوله: ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا﴾ أي: كُنَّا نَجِدُ فيها بعضَ المقاعدِ خاليةً من الحَرَسِ والشُّهَبِ، والآن: مُلِئَتْ المقاعدُ كُلُّها» (٢).

وليس معنى هذا أبدًا أنه لو لم تكن هناك حراسةٌ من الملائكةِ والشُّهَبِ فإنَّ الجنَّ يستطيعونَ الاختباءَ والصُّعودَ إلى أعلى، هذا لا يمكنُ أبدًا، فالحقيقةُ أنَّ الله تعالى هو الَّذي أعطى الجنَّ القُدرةَ على الطَّيرانِ إلى أعلى، ثم إنَّ الهدفَ من إعادتهم عن طريقِ الملائكةِ والشُّهَبِ هو أن يَعْلَمَ النَّاسُ أنَّ الجنَّ الَّذينَ يَعْصُونَ اللهَ

(١) تفسير القرطبي، سورة الجن (٧٢): الآية ٩.

(٢) التفسير الكبير، سورة الجن (٧٢): الآية ٩.

تعالى سَتِّمُ مطاردتهم أَذِلَّاءَ مَخْزِيَّينَ، ولا يمكنُ أن يَصِلُوا إلى العُلى في القُربِ الإلهيِّ.

﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرُ أُرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمَّ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾

٧ - عندما أَغْلَقْتُ كُلَّ طُرُقِ الذَّهَابِ إلى السَّمَاءِ أمامَ الجِنِّ قال بعضهم لبعضٍ: إنه قد يكونُ من بينِ أسبابِ مَنْعِهِمْ أَنْ عذابًا قريبًا سَيَنْزِلُ بَمَنَ في الأرضِ، ويجري إخفاءُ خَبَرِهِ عن الناسِ، وذلك لكي لا تَسْمَعَهُ الجِنُّ فتُخْبِرَهُم به، وقد يكونُ من بينِ الأسبابِ أيضًا أَنَّ اللهَ تعالى سَيُرْسِلُ قريبًا نبيًّا لهدايةِ البشرِ، ويجري إخفاءُ خَبَرِهِ عن الجِنِّ، حتى لا تَنْشُرَ أخبارًا كاذبةً عن هذا النبيِّ قبلَ بَعْثِهِ.

يقولُ الحافظُ ابنُ كثيرٍ في تفسيرِ هذه الآية: «وهذا هو السَّبَبُ الَّذِي حَمَلَهُمْ على تَطَلُّبِ السَّبَبِ في ذلك، فأخذوا يضربونَ مشارِقَ الأرضِ ومغاريبَها، فوجدوا رسولَ الله ﷺ يقرَأُ بأصحابِهِ في الصَّلَاةِ، فعَرَفُوا أَنَّ هذا هو الَّذِي حُفِظَتْ من أَجْلِهِ السَّمَاءُ، فأَمَنَ مَنْ آمَنَ منهم، وتمرَّدَ في طُغْيَانِهِ من بقي»^(١).

﴿وَأَنَا مِمَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾

٨ - كما أَنَّ في بني الإنسانِ فِرَقًا عديدةً، ومنهمُ الأشخاصُ الطيِّبونَ والسيِّئونَ، كذلك في الجِنِّ فِرَقٌ عديدةٌ أيضًا، وَمِنْ بَيْنِهِمْ جِنٌّ صالحونَ لا يؤذونَ أحدًا، ومنهم جِنٌّ شرَّيرونَ وسيِّئونَ يضايقونَ الناسَ.

﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنَّ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾

٩ - لقد تأكَّدَ لنا بعدَ سَماعِ القرآنِ المجيدِ أَنَّ اللهَ تعالى هو القادرُ على كُلِّ

(١) تفسير ابن كثير، سورة الجن (٧٢): الآية ١٠.

شيء، وهو الغالب على كل شيء، ولئن عصيناهُ فلن نستطيع الإفلات من عذابه، فلا يمكنُ لنا أن نُعجزه في الأرضِ إن بقينا فيها، ولا يمكنُ لنا أن نُعجزه بالهروب منها؛ لأنَّ الله تعالى هو الحاكمُ والمالكُ لكلِّ مكان.

﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْمَدَىٰءَ آمَنَّا بِهِ ۖ فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ ۚ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾

١٠ - إننا ما إن سَمِعنا كلامَ الحقِّ والهدايةِ حتَّى آمَنَّا به، ولهذا عليكم أنْتم أيضًا أن تؤمنوا، ومن يؤمن بالله، سيجزى الجزاء الأوفى على حسناته، ولن يُنقصَ منه شيئًا، وسيعاقبُ أيضًا على سيئاته، ولن يُظلمَ في ذلك شيئًا.

﴿وَأَنَا مِمَّا الْمُتَسَلِّمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ ۖ فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾

١١ - الجنُّ الذين سَمِعوا القرآنَ الكريمَ من بَيْننا أَسْلَموا، وأطاعوا أحكامه، وهؤلاء هم المفلحون الذين تحرَّوا طريقَ الحقِّ واتَّبَعوه، وأمَّا الجنُّ الذين عصوا الله تعالى من بَيْننا، فهؤلاء هم الظالمون، وهم وفودُ جهنم.

﴿لَنَفْنِزَنَّهُمْ فِيهِ ۖ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾

١٢ - يعني: يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، أخبرِ أهلَ الإيمانِ أنَّهم إن استقاموا على الطريقِ القويمِ وعلى دينِ الفطرة، فسوف يُعْديقُ اللهُ تعالى عليهم بالماءِ الكثير، أي: برَغْدِ العيش، ولكن سيكونُ في رَغْدِ العيشِ هذا ابتلاءٌ لهم أيضًا؛ لأنَّ الله تعالى خلقَ هذه الحياةَ الدُّنيا ومآلها ومتاعها لابتلاءِ الإنسان، والذين لا يشكرون الله تعالى على وَفْرةِ أموالهم ومتاعهم، ويُعْرِضُونَ عن أحكامه، سوف يُدْخِلُهُم اللهُ تعالى عذابًا شديدًا، عقابًا لهم على هذا الجحودِ منهم والطُّغيان.

المال والمتاع أيضاً ابتلاء

- يقول سيّدنا عمّرو بن عوف رضي الله عنه: إنّ النبي ﷺ قال: «... فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكنّ أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتلهيكم كما ألهمهم»^(١).

- يقول سيّدنا عقبه بن عامر رضي الله عنه: إنّ رسول الله ﷺ خرج يوماً فصلى على أهل أُحُدِ صلّاته على الميّت، ثمّ انصرف إلى المنبر، فقال: «إني فرطكم وأنا شهيدٌ عليكم، وإني - والله - لأنظرُ إلى حوضي الآن، وإني قد أُعطيْتُ مفاتيحَ خزائن الأرض - أو مفاتيحَ الأرض - وإني والله ما أخافُ عليكم أن تُشركوا بعدي، ولكنّي أخافُ عليكم أن تنافسوا فيها»^(٢).

- يقول سيّدنا أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: إنّ النبي ﷺ قال: «إنّ أكثر ما أخافُ عليكم ما يُخرجُ الله لكم من بركات الأرض». قيل: وما بركات الأرض؟ قال: «زهرة الدنيا».... ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «وإنّ هذا المال خلوةٌ، من أخذه بحقه ووضعه في حقه، فنعِمَ المعونةُ هو، ومن أخذه بغير حقه، كان الذي يأكل ولا يشبع»^(٣).

﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾

١٣ - المسجدُ يقالُ لذلك: المكان الذي يُسجدُ فيه، ورغم أن الأرض كلّها بمثابة المسجدِ للأمةِ المسلمة، ولكن يُقالُ للمبني الذي اختصَّ بالسُّجود: مسجدٌ،

(١) البخاري، كتاب الرقاق، باب ٧ برقم ٦٤٢٥.

(٢) البخاري، كتاب الرقاق، باب ٧ برقم ٦٤٢٦.

(٣) البخاري، كتاب الرقاق، باب ٧ برقم ٦٤٢٧.

وهو الذي يُبْنَى لعبادة الله فقط، ولهذا فإنَّ المسجدَ يَسْتَحِقُّ أَنْ لَا يُعْبَدَ فِيهِ أَحَدٌ سِوَى اللَّهِ تَعَالَى، وَكَانَ مُشْرِكُو مَكَّةَ قَدْ نَصَبُوا الْأَصْنَامَ فِي بَيْتِ اللَّهِ، وَلِهَذَا يَجْرِي نَهْيُهُمْ بِصِفَةِ خَاصَّةٍ هُنَا بِأَنَّ عِبَادَةَ غَيْرِ اللَّهِ لَا تَجُوزُ فِي أَيِّ مَكَانٍ أَصْلًا، وَلَكِنَّكُمْ تَعْبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ فِي بَيْتِ اللَّهِ، فَارْجِعُوا عَنْ هَذَا.

أول مسجد

إِنَّ أَوَّلَ مَسْجِدٍ بُنِيَ لِلَّهِ فِي الْأَرْضِ هُوَ بَيْتُ اللَّهِ، أَيُّ: الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ، مَثَلَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

يَقُولُ سَيِّدُنَا أَبُو ذَرٍّ الْغِفَارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ أَوَّلَ؟ قَالَ: «الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ»، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «ثُمَّ الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى»، قُلْتُ: كَمْ كَانَ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ»^(١).

وَيُعَلِّمُ مِنْهُ أَنَّ أَوَّلَ مُهَنْدِسٍ لِلْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَانَ سَيِّدُنَا آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَوَّلُ مُهَنْدِسٍ لِلْمَسْجِدِ الْأَقْصَى كَانَ أَحَدُ أَبْنَاءِ سَيِّدُنَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَدْ تَهَدَّمْ هَذَانِ الْمَسْجِدَانِ فِي طُوفَانِ نُوحٍ، فَقَامَ سَيِّدُنَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِإِعَادَةِ بِنَاءِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ بِأَمْرِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَبَنَى سَيِّدُنَا سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى.

فضل المسجد الحرام

يَقُولُ سَيِّدُنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي بَيْتِهِ بِصَلَاةٍ، وَصَلَاتُهُ فِي مَسْجِدِ الْقِبَائِلِ بِخَمْسٍ وَعَشْرِينَ صَلَاةً، وَصَلَاتُهُ فِي

(١) البخاري، كتاب الأنبياء، باب ٤٠ برقم ٣٤٢٥.

المسجد الذي يُجَمَّع فيه بخمسمائة صلاة، وصلاته في المسجد الأقصى بخمسين ألف صلاة، وصلاته في مسجدي خمسين ألف صلاة، وصلاته في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة»^(١). وإليك هذه الحكاية فيما يتعلق ببركات الكعبة فتدبرها: «رُوي أن الكعبة تقول: إيذن لي يا رب في زيارة قبر رسول الله ﷺ، قال: فيؤذن لها، فإذا جاءت إلى قبر رسول الله ﷺ تقول لرسول الله ﷺ: لا تهتم لثلاثي، فإنني أشفعُ لهم: مَنْ طاف بي، ومَنْ خَرَجَ من البيت ولم يصل إليّ، والثالث: مَنْ انتهى أن يقصدني فلم يجد سبيلاً إلى ذلك»^(٢).

المساجد التي بناها الأنبياء الكرام عليهم السلام

في الدنيا أربعة مساجد بناها الأنبياء الكرام عليهم السلام، وهي: بيت الله المسجد الحرام، وبيت المقدس المسجد الأقصى، ومسجد قباء، والمسجد النبوي^(٣).

بناء المساجد

- يقول سيّدنا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: إن النبي ﷺ قال: «من بنى لله مسجداً من ماله بنى الله له بيتاً في الجنة»^(٤).

- روي عن سيّدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «من بنى مسجداً لله كمفحص قطاة أو أصغر، بنى الله له بيتاً في الجنة»^(٥)، وعُش الحمامة لا

(١) ابن ماجه، كتاب الصلاة، باب ١٩٨ برقم ١٤١٣.

(٢) نزّه المجالس، ١: ١٥٣، وشرف المصطفى لعبد الملك النيسابوري، ٢: ٢٤٠.

(٣) التفسير المظهر، سورة النور (٢٤): الآية ٣٦.

(٤) ابن ماجه، أبواب المساجد، باب ١ برقم ٧٣٧.

(٥) ابن ماجه، أبواب المساجد، باب ١ برقم ٧٣٨.

يزيدُ عن مقدارِ نصفِ لَبَنَةٍ، وهو ما لا يَسْتَوِعُبُ حتى مجرَّدَ قَدَمٍ مَصْلٍ، فأين سيَضَعُ المَصْلِي قَدَمَهُ الثَّانِيَةَ، وأين سَيَسْجُدُ؟ والمقصودُ أنَّ من يُنفِقُ في بناءِ مسجدٍ ولو بمقدارِ نصفِ لَبَنَةٍ سَيَبْنِي اللهُ تعالى له في الجَنَّةِ بيتًا كاملاً، وشأنُ البيتِ في الجَنَّةِ أنه لو جُمِعَت مَمِيزَاتُ بيوتِ الأرضِ كُلِّها من حُسْنٍ وَجَمَالٍ فَإِنَّهَا لَن تَعْدَلَ بيتًا في الجَنَّةِ؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ في الجَنَّةِ يُفَوِّقُ تصوُّرَنا وتخيُّلَنا.

نظافة المسجد

قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ فِي شَيْءٍ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦]، يعني: نظفوا مَبْنَاهُ من الترابِ والغبارِ، حتى تستريحَ إليه عيُونَ العابِدِينَ وأنظروا لهم، وطهِّروا جَوَّهُ من الكُفْرِ والشُّرِكِ حتى تَطْمَئِنَّ قُلُوبُ العابِدِينَ، فَيَسْجُدُوا لله تعالى خَالِقِهِمُ الحَقِيقِيَّ بكلِّ سَكِينَةٍ واطمئنانٍ، ويُعَلِّمُ منه أنَّ الحِفَاطَ عَلَى نِظَافَةِ المساجِدِ حُكْمٌ من اللهِ تعالى، وَسُنَّةٌ من سُنَنِ الأنبياءِ الكرامِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

- يقولُ سَيِّدُنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ رضي اللهُ عنهما: إِنَّ امْرَأَةً كَانَتْ تَلْقُطُ الْقَذَى من المسجدِ، فَتُوقِفُ فلم يُؤْذِنْ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِدَفْنِهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا مَاتَ لَكُمْ مَيِّتٌ فَأَذِنُونِي»، وَصَلَّى عَلَيْهَا، وَقَالَ: «إِنِّي رَأَيْتُهَا فِي الْجَنَّةِ تَلْقُطُ الْقَذَى مِنَ الْمَسْجِدِ»^(١).

آداب المسجد

عِنْدَ الدُّخُولِ إِلَى الْمَسْجِدِ عَلَيْكَ أَنْ تَدْخُلَ بِرِجْلِكَ الْيُمْنَى أَوَّلًا، وَأَنْ تَمْشِيَ فِيهِ بِمَنْتَهَى الْأَدَبِ؛ لِأَنَّ هَذَا لَيْسَ بَيْتًا خَاصًّا بِكَ، وَإِنَّمَا هُوَ بَيْتُ اللهِ تَعَالَى، وَاللهُ

تعالى يَراك، ولهذا حيثُما وَجَدْتَ مكانًا في المسجدِ اعْبُدِ الله فيه بكلِّ هدوءٍ، ولا تُضايقُ أحدًا فيه، ولا تتحدَّثْ فيه بحديثٍ لا قيمةَ له، وعندَ الخروجِ من المسجدِ عليك أن تَخْرُجَ بِرِجْلِكَ اليُسرى أولاً.

- يقولُ سيِّدنا أبو حُمَيدٍ وسيِّدنا أبو أُسَيدٍ رضي الله عنهما: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ»^(١).

- عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِیاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعَوْا». قلت: يا رسولَ الله، وما رِیاضُ الجَنَّةِ؟ قال: «المساجِدُ». قلت: وما الرِّتْعُ يا رسولَ الله؟ قال: «سبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إلهَ إلاَّ الله، واللهُ أكبر»^(٢).

فضل المساجد

- يقولُ سيِّدنا أبو سَعيدٍ الخُدَريُّ رضي الله عنه: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعتادُ الْمَسْجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيْمَانِ، قالَ اللهُ: ﴿إِنَّمَا يَعمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾»^(٣).

- حديثٌ قُدسيٌّ: عن أنسٍ - مرفوعًا -: «يقولُ اللهُ: وَعِزَّتِي وَجَلالِي، إِنِّي لَأَهْمُّ بِأَهْلِ الْأَرْضِ عَذابًا، فَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى عُمَارِ بِيوتِي وَإِلَى الْمُتَحائِنِينَ فِيَّ، وَإِلَى الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ، صَرَفْتُ ذَلِكَ عَنْهُمْ»^(٤).

(١) النسائي، كتاب المساجد، باب ٣٦ برقم ٧٣٠.

(٢) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ٨٢ برقم ٣٥٠٩.

(٣) تفسير الدر المشور، سورة التوبة (٩): الآية ١٧.

(٤) المرجع السابق، سورة التوبة (٩): الآية ١٧.

- يقولُ سَيِّدُنَا سَلْمَانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَوَضَّأَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ فَهُوَ زَائِرُ اللَّهِ، وَحَقٌّ عَلَى الْمَزُورِ أَنْ يُكْرَمَ الزَّائِرُ»^(١).

- يقولُ سَيِّدُنَا أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَلْفَ الْمَسْجِدَ أَلْفَهُ اللَّهُ»^(٢).

- عن ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: الْمَسَاجِدُ بِيُوتُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ تُضِيءُ لِأَهْلِ السَّمَاءِ كَمَا تُضِيءُ نَجُومُ السَّمَاءِ لِأَهْلِ الْأَرْضِ^(٣).

- يقولُ سَيِّدُنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ عَلَّقَ قِنْدِيلًا فِي مَسْجِدٍ صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُ مَا دَامَ ذَلِكَ الْقِنْدِيلُ يَقْدُ»^(٤).

- يقولُ سَيِّدُنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَلْيُحِبَّنِي، وَمَنْ أَحَبَّنِي فَلْيُحِبَّ أَصْحَابِي، وَمَنْ أَحَبَّ أَصْحَابِي فَلْيُحِبَّ الْقُرْآنَ، وَمَنْ أَحَبَّ الْقُرْآنَ فَلْيُحِبَّ الْمَسَاجِدَ، فَإِنَّهَا أَفْنِيَةُ اللَّهِ أَبْنِيَتُهُ أَذِنَ اللَّهُ فِي رَفْعِهَا وَبَارَكَ فِيهَا، مِمُّونَةٌ مِمُّونٌ أَهْلُهَا، مُحْفُوظَةٌ مُحْفُوظٌ أَهْلُهَا، هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي حَوَائِجِهِمْ، هُمْ فِي مَسَاجِدِهِمْ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ»^(٥).

- يقولُ سَيِّدُنَا أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ:

١ - الإمامُ العادلُ (الحاكم).

(١) تفسير الدر المنثور، سورة التوبة (٩): الآية ١٧.

(٢) المرجع السابق، سورة التوبة (٩): الآية ١٧.

(٣) المرجع السابق، سورة التوبة (٩): الآية ١٧.

(٤) المرجع السابق، سورة التوبة (٩): الآية ١٧.

(٥) تفسير القرطبي، سورة النور (٢٤): الآية ٣٦.

٢ - وشابُّ نَشَأً في عِبَادَةِ رَبِّهِ.

٣ - ورجلٌ قلبُه معلقٌ في المساجد.

٤ - ورجلانِ تحابَّتا في الله اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه.

٥ - ورجلٌ طلبته امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمالٍ فقال: إني أخافُ الله.

٦ - ورجلٌ تصدَّق أخفى حتَّى لا تعلم شماله ما تُنفقُ يمينه.

٧ - ورجلٌ ذَكَرَ الله خالياً ففاضتُ عيناه ^(١).

﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾

١٤ - المراد بعبدِ الله - في هذه الآية - نبيُّنا الحبيبُ سيِّدُنا محمدٌ ﷺ، فعندما كان النبيُّ ﷺ يقومُ لعبادةِ الله تعالى، كان الكفَّارُ يغضبونَ غضبًا شديدًا، ويأتونَ مندفعين، فيسخرُون منه ﷺ، ويمنعونَ الناسَ من دخولِ الإسلام، ولكنَّ بعدَ فتح مكةَ جاء عهدٌ دَخَلَ فيه الكفَّارُ أنفُسَهُم في دينِ الله أفواجًا، وقبلوا الإسلامَ.

قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ^(٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ^(٢١) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ^(٢٢) إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ^(٢٣) حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفَ ناصِرًا وَأَقْلَفَ عَدَدًا ^(٢٤) قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ^(٢٥) عَنِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ^(٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ^(٢٧) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ^(٢٨)

﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾

١٥ - قال مشركو مكة للنبي ﷺ: إِنَّا عَلَى الشَّرْكِ مِنْذُ فِتْرَةٍ طَوِيلَةٍ، فَإِذَا كُنْتَ نَبِيًّا حَقًّا فَلِمَاذَا لَا تَأْتِينَا بِالْعَذَابِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَهُمْ بِأَمْرِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى: إِنَّ وَاجِبِي هُوَ أَنْ أُبَلِّغَكُمْ رَسُولَ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ مَا أَفْعَلُهُ الْآنَ، أَمَّا عِقَابُكُمْ إِذَا أَنْكَرْتُمْ رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ إِثَابُكُمْ إِذَا قَبِلْتُمُوهَا، فَهَذَا لَيْسَ مِنْ عَمَلِي، وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ فِي يَدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَسَوْفَ يُحَاسِبُكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ وَقَتْمَا يَشَاءُ.

﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخْرِجَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾

١٦ - قَالَ وَقَدْ مِنْ الْمُشْرِكِينَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: لَقَدْ جَعَلْتَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ كُلِّهِمْ أَعْدَاءَ لَكُمْ بِدَعْوَتِكَ لَهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَلِهَذَا فَإِنَّا نَشِيرُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَخَلَّى عَنْ دَعْوَةِ التَّوْحِيدِ، وَإِذَا نَزَلَ عَلَيْكَ عَذَابٌ بِهَذَا السَّبَبِ، فَإِنَّا نَعِدُكَ أَنْ نُجِيرَكَ، وَأَنْ نَحْمِيكَ. فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ رَدًّا عَلَيْهِمْ، وَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِأَمْرِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى: إِنِّي لَنْ أَشْرِكَ مَعَ اللَّهِ أَحَدًا بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، وَعَلَى فَرْضِ الْمُسْتَحِيلِ لَوْ أَنَّي قَصَّرْتُ فِي تَبْلِيغِ أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَنْ يَسْتَطِيعَ أَحَدٌ أَنْ يُنَجِّينِي مِنْ حِسَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَيْسَ لِي مُعْجِزٌ سِوَى اللَّهِ تَعَالَى.

﴿إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾

١٧ - يَعْنِي: أَنَّ وَاجِبِي هُوَ أَنْ أُبَلِّغَكُمْ أَحْكَامَ اللَّهِ تَعَالَى، وَهَذَا هُوَ مَا أَفْعَلُهُ، فَإِذَا أَعْرَضَ أَحَدُكُمْ عَنْ أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ، فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا.

﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفُ نَاصِرًا وَأَقْلُ عَدَدًا﴾

١٨ - كُفَّارُ مَكَّةَ يُنْكِرُونَ عَذَابَ الْآخِرَةِ الْيَوْمَ، وَيَغْتَرُّونَ كَثِيرًا بِقُوَّتِهِمْ وَكَثَرَتِهِمْ،

وَيَسْخَرُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَفَقَرَهُمْ وَقَلَّةَ عِدَدِهِمْ، وَلَكِنْ فِي الْغَدِ الْقَرِيبِ، حِينَ يَتَوَاجَهُونَ فِي مِيدَانِ الْحَرْبِ، وَحِينَ يَكُونُ الْحِسَابُ فِي مِيدَانِ الْحَشْرِ، سَتُفْتَحُ أَعْيُنُ الْمُشْرِكِينَ عِنْدئِذٍ، وَسَيَعْرِفُونَ مِنَ الْأَضْعَفِ نَاصِرًا وَالْأَقْلُ عِدَدًا، فَلَنْ يَكُونَ هُنَاكَ مَنْ يَسْأَلُ عَنْ أَحْوَالِ الْمُشْرِكِينَ، فِي حِينَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ الْكَرَامَ وَالْمَلَائِكَةَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ سَيَشْفَعُونَ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ.

﴿قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ أَقْرَبُ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾

١٩ - كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَقُولُونَ: مَتَى يَأْتِينَا ذَلِكَ الْعَذَابُ الَّذِي تُخَوِّفُنَا مِنْهُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ رَدًّا عَلَيْهِمْ: إِنَّ قِيَامَ السَّاعَةِ أَمْرٌ يَقِينٌ عَلَى أَيِّ حَالٍ، وَسَيَحْدُثُ ذَلِكَ يَوْمًا مَا، وَلَكِنْ فِي أَيِّ تَارِيخٍ سَيَحْدُثُ هَذَا؟ إِنَّهُ أَمْرٌ يَتَعَلَّقُ بِعِلْمِ الْغَيْبِ، وَلِهَذَا فَأَنَّا لَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي؛ هَلْ هُوَ قَرِيبُ الْحَدُوثِ أَمْ لَا يَزَالُ بَعِيدًا؟ لَكِنَّ هَذَا الْعِلْمَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لَدَيْهِ ﷺ بِإِخْبَارِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُطْلِعُ أَنْبِيََاءَهُ عَلَى الْغَيْبِ مَثَلَمَا سَيَتَضَحُّ مِنَ الْآيَاتِ التَّالِيَةِ.

﴿إِلَّا مَنْ أَرْزَقْنِي مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْأَلُكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾

٢٠ - اللَّهُ تَعَالَى عَالِمُ الْغَيْبِ، وَهُوَ يُطْلِعُ أَنْبِيََاءَهُ فَقَطْ عَلَى غَيْبِهِ، وَحِينَ يُوْحِي اللَّهُ تَعَالَى إِلَى رَسُولٍ مِنْ رُسُلِهِ، فَإِنَّهُ عِنْدئِذٍ يُعَيِّنُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُحَافِظِينَ مِنْ حَوْلِهِ، حَتَّى لَا تَسْتَطِيعَ الشَّيَاطِينُ وَالْجِنَّ سَمَاعَ الْوَحْيِ. وَلِمَزِيدٍ مِنَ التَّفْصِيلِ عَنْ عِلْمِ الْغَيْبِ رَاجِعِ الْحَاشِيَةِ رَقْم ٦٠ لِلآيَةِ رَقْم ٦٥ مِنْ سُورَةِ النَّمل (٢٧)، وَكَذَا الْحَاشِيَةُ رَقْم ٣١ لِلآيَةِ رَقْم ٣٤ مِنْ سُورَةِ لُقْمَانَ (٣١).

﴿يَعْلَمُ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾

٢١ - يُعَيِّنُ اللَّهُ تَعَالَى مُحَافِظِينَ حَوْلَ النَّبِيِّ حِينَ يُوْحِي إِلَيْهِ، حَتَّى يُظْهِرَ لِلنَّاسِ

٤٥٨ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

أَنَّ أَنْبِيَاءَهُ يُبَلِّغُونَهُمْ رَسُولَاتِ اللَّهِ تَعَالَى بِطَرِيقَةٍ صَحِيحَةٍ، وَلَا يَزِيدُونَ فِيهَا أَوْ يَنْقُصُونَ مِنْهَا، وَاللَّهُ تَعَالَى عَالِمُ الْغَيْبِ، هُوَ أَيْضًا يَعْلَمُ تَمَامَ الْعِلْمِ أَعْمَالَ الرُّسُلِ جَمِيعًا، كَمَا أَنَّهُ يَعْلَمُ تَمَامَ الْعِلْمِ أَعْدَادَ الْكَائِنَاتِ وَيُحْصِيهِمْ.

الفقيهُ إلى الله: مُحَمَّدٌ إِمْدَادُ حُسَيْنٍ بَيْرَزَادِهِ،

جَامِعَةُ الْكَرَمِ، بَرِيطَانِيَا

بَعْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ مِنْ يَوْمِ السَّبْتِ ٢٠ نَوْفَمْبَرِ ٢٠١٠ م

الْمُوَافِقِ ١٣ ذِي الْحِجَّةِ ١٤٣١ هـ

هَذَا، وَقَدْ اكْتَمَلَ بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَكَرَمِهِ تَفْسِيرُ سُورَةِ «الْجَنِّ» فِي خَمْسَةِ أَيَّامٍ فَقَطْ، أَي: مِنْ ١٥ إِلَى ٢٠ نَوْفَمْبَرِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٣) سُورَةُ الْمَزْمَلِ

هذه السُّورة مَكِّيَّة، واسمُها «المُزَّمِّل»، وهو مأخوذٌ من الآية الأولى منها، ويرى بعضُ العلماء أنَّ الآية الأخيرة من هذه السُّورة نزلت في المدينة؛ لأنَّ فيها ذِكرًا للزَّكَاةِ والقتال، وقد نزل هذانِ الحُكمانِ في المدينة.

صلاة التَّهَجُّد

عندما نَزَلَ الأمرُ إلى النَّبيِّ ﷺ في بداية هذه السُّورة أنَّ عليك أن تُصَلِّيَ صلاةَ التَّهَجُّدِ في منتصفِ اللَّيْلِ أو قبله أو بعده بقليل، بدأ بعضُ الصَّحابةِ الكرام رضِيَ اللهُ عنهم في الانتظام في صلاةِ التَّهَجُّدِ معه أيضًا، وقيامُ اللَّيْلِ هذا كان يمتدُّ أحيانًا إلى ثُلثِ اللَّيْلِ، وأحيانًا إلى نصفه، وأحيانًا أخرى إلى ثُلثَيْهِ. يقولُ العلامةُ القُرطبي: «شَقَّ ذلكَ عليهم، وكان الرَّجُلُ لا يدري متى نصفُ اللَّيْلِ من ثُلثه، فيقومُ حتَّى يصبحَ مخافةً أن يُخطئَ، فانتَفَخَتْ أقدامُهم، وانتَقَعَتْ ألوانُهم، فرَحِمَهُم اللهُ وخَفَّفَ عنهم»^(١)، يعني: أنَّ الله تعالى قد تَفَضَّلَ عليكم بأنْ أنهيَ فَرَضِيَّةَ صلاةِ التَّهَجُّدِ أيضًا، كما رَفَعَ عنكم قَيْدَ الالتزامِ بنصفِ اللَّيْلِ أو أقلَّ أو أكثرَ منه قليلًا، والآنَ هذه صلاةٌ مُسْتَحَبَّةٌ، وبَقَدَرٍ ما يَتيسَّرُ لكم صَلَاتُهَا فَصَلُّوها، ولهذا فإنَّ صلاةَ التَّهَجُّدِ في أَقلِّها ركعتانِ، وفي أَكثَرِها اثنتا عشرةَ ركعةً، وهذه الصَّلَاةُ نافِلَةٌ على

(١) تفسير القُرطبي، سورة المزمل (٧٣): الآية ٢٠.

٤٦٠ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

الأمة المسلمة، لكنّها كانت بالنسبة للنبي ﷺ صلاةً خاصّةً التزم بها وأداها بانتظام.

تلقين الصبر

في الآية رقم ١٠ من السورة جاء تلقينُ النبي ﷺ الصبر؛ لأنّ المولى الحقيقي ومدبّر الأمر هو الله تعالى، لهذا توكل عليه هو وحده، واصبر على إيذاء الكفار لك، وعلى سوء حديثهم إليك، وحين تتواجه معهم اعتزلهم بأخلاق حسنة طيبة، ولا تُبالِ أيضًا بالذين يكذبونك اغترارًا بأموالهم، واترك أمرهم إليّ أنا، وأنا سأنتقم منهم.

تنبيه لأهل مكة

جاء في الآيات من ١٥ إلى ١٩ من هذه السورة تنبيه لأهل مكة بأن سيّدنا محمدًا ﷺ ليس رسولاً لم يأت من قبله مثله، بل إنّنا أرسلناه إليكم كما أرسلنا سيّدنا موسى عليه السلام من قبل إلى فرعون وقومه، وعندما عصى فرعون سيّدنا موسى عليه السلام أخذناه أخذًا شديدًا، فأغرقناه وجيوشه في البحر، ولئن عصيتم أنتم أيضًا سيّدنا محمدًا ﷺ فسيُنزل عليكم أيضًا العذاب.

الأجر العظيم على الحسنات

في نهاية هذه السورة جاء تذكير للإنسان بالآخرة، يعني: يجب على الإنسان أن يجمع في حياته الدنيوية الفانية هذه ثروة من الصلاة والصيام والصدقات والزكوات وغيرها من الحسنات، حتى يستفيد من الأجر العظيم عليها في الحياة الآخرة.

الفقيه إلى الله: محمّد إمداد حسين بيرزاده،

جامعة الكرم، بريطانيا

بعد صلاة الظهر من يوم السبت ٢٠ نوفمبر ٢٠١٠م

الموافق ١٣ ذي الحجة ١٤٣١هـ.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ (٧٣)،

مكية (٣)، آياتها (٢٠)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ ① قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ② فَصَفَّهُ، أَوْ انْقُصَ مِنْهُ قَلِيلًا ③ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَبُّ الْقُرْآنِ
تَرْتِيلًا ④ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ⑤ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ⑥ إِنَّ لَكَ فِي
النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ⑦ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ⑧ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ⑨ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ⑩ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي
النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ⑪ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَحِمِيمًا ⑫ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ⑬ يَوْمَ
تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلًا ⑭ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِدًا عَلَىكُمْ كَمَا
أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ⑮ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ⑯ فَكَيْفَ تَنْفِقُونَ
إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ⑰ السَّمَاءُ مُنْفِطِرَةٌ بِهِ ⑱ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ⑲ إِنَّ هَذِهِ
تَذَكُّرَةٌ ⑳ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ㉑

﴿يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ﴾

١ - في الوقت الذي نزلت فيه هذه الآيات كان النبي ﷺ مُضْطَجِعًا مُلْتَحِفًا
بردائه مترملًا به، ويقول العلامة القرطبي في تفسير هذه الآية: «فإن العرب إذا
قَصَدَتْ مُلَاطَفَةَ الْمُخَاطَبِ وَتَرَكَ الْمَعَاتِبَةَ سَمَّوْهُ بِاسْمٍ مُشْتَقٍّ مِنْ حَالَتِهِ الَّتِي هُوَ
عَلَيْهَا، كَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لِعَلِيٍّ - حِينَ غَاظَبَ فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَأَتَاهُ وَهُوَ نَائِمٌ

وقد لَصِقَ بِجَنْبِهِ التُّرَابُ - فقال له: «قُمْ يَا أَبَا تُرَابٍ»^(١)، وهكذا خَاطَبَ اللهُ تعالى سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا ﷺ بنفسِ الحالةِ التي كان متَجَلِّيًا بها؛ لأنَّ كُلَّ حَرَكَةٍ مِنَ الْحَبِيبِ عَزِيزَةٌ عَلَى الْمُحِبِّ.

﴿نِصْفُهُ أَوْ أَنْقُصَ مِنْهُ قَلِيلًا﴾

٢ - يا أَيُّهَا النَّبِيُّ الْحَبِيبُ ﷺ، قُمْ بِاللَّيْلِ وَصَلِّ صَلَاةَ التَّهَجُّدِ، وَلَكِنْ لَا يَكُنْ قِيَامُكَ اللَّيْلَ كُلَّهُ، وَإِنَّمَا نِصْفُهُ أَوْ أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرُ مِنْهُ قَلِيلًا، يَعْنِي: لَا حَرَجَ إِنْ كَانَ أَقَلُّ مِنْ نِصْفِ اللَّيْلِ أَوْ أَكْثَرُ مِنْهُ قَلِيلًا.

صلاة التهجد

صَلَاةُ التَّهَجُّدِ تُقَالُ: لِلصَّلَاةِ النَّافِلَةِ الَّتِي تُؤَدَّى بَعْدَ الاسْتِيقَاضِ مِنَ النَّوْمِ لَيْلًا، وَأَقْلَاهَا رَكْعَتَانِ وَأَكْثَرُهَا اثْنَتَا عَشْرَةَ رَكْعَةً، وَكَانَتْ هَذِهِ الصَّلَاةُ فِي بَدَايَةِ أَمْرِهَا فَرَضًا عَلَى الْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ، ثُمَّ جَعَلَهَا اللهُ تعالى نَافِلَةً لَيْلَةَ الْمَعْرَاجِ بَعْدَمَا فُرِضَ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، لَكِنَّهَا مَعَ ذَلِكَ ظَلَّتْ تُمَثِّلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ صَلَاةً خَاصَّةً التَّزَمَ بِهَا وَأَدَّاهَا بِانْتِظَامٍ.

فضل صلاة التهجد

- يَقُولُ سَيِّدُنَا عَمْرُو بْنُ عَبْسَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إِنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ الْعَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللهُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ»^(٢).

(١) تفسير القرطبي، سورة المزمل (٧٣): الآية ١.

(٢) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ١١٨ برقم ٣٥٧٩.

- يقول سيّدنا بلال رضي الله عنه: إنّ رسول الله ﷺ قال: «عليكم بقيام الليل، فإنّه دأب الصّالحين قبلكم، وإنّ قيام الليل قربة إلى الله، ومنهأة عن الإثم، وتكفير للسيئات، ومطرّدة للداء عن الجسد»^(١).

- يقول سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: إنّ رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربّنا تبارك وتعالى كلّ ليلة إلى السّماء الدّنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: مَنْ يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له؟»^(٢).

- يقول سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: إنّ رسول الله ﷺ قال: «أفضل الصّيام بعد رمضان شهر الله المحرّم، وأفضل الصّلاة بعد الفريضة صلاة الليل»^(٣).

- يقول سيّدنا عبد الله بن سلام رضي الله عنه: إنّ النّبي ﷺ قال: «يا أيّها النّاس، أفشوا السّلام، وأطعموا الطّعام، وصلّوا والنّاس نياماً تدخلوا الجنّة بسلام»^(٤).

- تقول السيّدة عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها: إنّ نبيّ الله ﷺ كان يقوم من الليل حتّى تتفطر قدماه، فقالت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله! وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ قال: «أفلا أحبّ أن أكون عبداً شكوراً؟»^(٥).

- يقول سيّدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ذكر عند النّبي ﷺ رجل، فقيل: ما زال نائماً حتّى أصبح ما قام إلى الصّلاة. فقال: «بال الشيطان في أذنه»^(٦).

(١) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ١٠١ برقم ٣٥٤٩.

(٢) البخاري، كتاب التهجد، باب ١٤ برقم ١١٤٥، والترمذي، برقم ٤٤٦.

(٣) مسلم، كتاب الصّيام، باب ٣٨ برقم ١١٦٣.

(٤) الترمذي، صفة الجنّة، باب ٤٢ برقم ٢٤٨٥.

(٥) البخاري، كتاب التفسير، سورة الفتح (٤٨) برقم ٤٨٣٧.

(٦) البخاري، كتاب التهجد، باب ١٣ برقم ١١٤٤.

﴿أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾

٣ - يقول العلامة القرطبي: «أي: لا تعجل بقراءة القرآن، بل اقرأه في مهل وبيان مع تدبر المعاني»^(١).

ويقول العلامة الرازي: «واعلم أنه تعالى لما أمره بصلاة الليل أمره بترتيل القرآن حتى يتمكن الخاطر من التأمل في حقائق تلك الآيات ودقائقها، فعند الوصول إلى ذكر الله يستشعر عظمته وجلالته، وعند الوصول إلى الوعد والوعيد يحصل الرجاء والخوف، وحينئذ يستنير القلب بنور معرفة الله، والإسراع في القراءة يدل على عدم الوقوف على المعاني؛ لأن النفس تبتهج بذكر الأمور الإلهية الروحانية، ومن ابتهج بشيء أحب ذكره، ومن أحب شيئاً لم يمر عليه بسرعة، فظهر أن المقصود من الترتيل إنما هو حضور القلب وكما المعرفة»^(٢).

ويقول سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: إن النبي ﷺ قال: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتيق (أي: درجات الجنة) ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ بها»^(٣).

﴿إِنَّا سُلِّفِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾

٤ - كان الوحي إذا تأخر عن النبي ﷺ في السنوات الأولى للبعثة النبوية، فإنه كان ينتظره بفارغ الصبر، ويظل يفكر: لماذا توقّف الوحي؟ وذات مرة وبينما كان النبي ﷺ مستلقياً متزماً بردائه يفكر في هذا الأمر، إذ نزل عليه الوحي،

(١) تفسير القرطبي، سورة المزمل (٧٣): الآية ٤.

(٢) التفسير الكبير، سورة المزمل (٧٣): الآية ٤.

(٣) الترمذي، فضائل القرآن، باب ١٨ برقم ٢٩١٤.

يعني: يا أيُّها المزمِّلُ بردائه، استمرَّ في قيام اللَّيْلِ وتلاوة القرآن - الذي نَزَلَ عليك من قبل - ترتيلاً، ولا تحزَن ولا تغتم، فسوف نُنزلُ عليك باقي القرآن الكريم قريباً.

القرآن المجيد كلام ثَقِيل

١ - تقولُ السيِّدة عائشةُ أُمُّ المؤمنينَ رضي الله عنها: إِنَّ الحارثَ بنَ هشامٍ - رضي الله عنه - سألَ رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، كيف يَأْتِيكَ الوحي؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «أحياناً يَأْتِينِي مِثْلَ صَلَصلةِ الجرسِ - وهو أَشدُّهُ عليّ - فيفصمُ عَنِّي وقد وَعَيْتُ عَنْهُ ما قال، وأحياناً يَتِمَثَّلُ لِي المَلَكُ رَجُلًا فيكَلِّمُنِي فَأَعِني ما يَقول». قالت عائشةُ رضي الله عنها: ولقد رأيتُهُ يَنزِلُ عليه الوحي في اليومِ الشَّدِيدِ البَرْدِ، فيفصمُ عَنْهُ وَإِنْ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا^(١).

٢ - يقولُ سيِّدنا عبدُ الله بنُ عمرو رضي الله عنهما: سألتُ النَّبِيَّ ﷺ، فقلتُ: يا رسولَ الله، هل تُحِسُّ بالوحي؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «نَعَمْ، أَسْمَعُ صَلَاصِلَ، ثُمَّ أَسْكُتُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَمَا مِنْ مَرَّةٍ يُوْحَى إِلَيَّ إِلَّا ظَنَنْتُ أَنَّ نَفْسِي تَفِيضُ»^(٢).

٣ - تقولُ السيِّدة عائشةُ رضي الله عنها: كان إذا أُوحِيَ إِلَيْهِ وهو على ناقته وَضَعَتْ جِرائِها فما تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَحَوَّلَ حَتَّى يُسْرَى عَنْهُ، وَتَلَتْ ﴿إِنَّا سُلِّقَ عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾^(٣).

٤ - يقولُ سيِّدنا زيدُ بن ثابتٍ رضي الله عنه: أَنزَلَ اللهُ على رسولِهِ ﷺ وَفَخِذَهُ على فَخِذِي، فَتَقُلْتُ عَلَيَّ حَتَّى خِفْتُ أَنْ تُرَضَّ فَخِذِي»^(٤).

(١) البخاري، كتاب بدء الوحي، باب ٢ برقم ٢.

(٢) مسند أحمد، ٢: ٢٢٢.

(٣) تفسير الدر المشثور، سورة المزمل (٧٣): الآية ٥، ومسند أحمد، ٦: ١١٨.

(٤) البخاري تعليقا، كتاب الصلاة، باب ١٢، وكتاب الجهاد والسير، ٤٥٩٢: كتاب تفسير القرآن.

بعض الأسباب وراء وصف القرآن بالقول الثقيل

١ - القرآن الكريم - باعتبار قَدْرِهِ ومنزلته وعظْمته وجلاله - ثَقِيلٌ لدرجة أنه لو أُنْزِلَ على جبل لَخَشَعَ وتصدَّع، مثلما قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهُ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، ولكن من فَضْلِ الله تعالى وكرمه أنه خَلَقَ نَبِيَّنا الحبيب ﷺ قوياً ومتماسكاً بحيث أنه استطاع تحمُّلَ هذا القرآن الذي لا تستطيعُ الجبالُ تحمُّله.

٢ - نَقَلَ العلامةُ الخازنُ قولاً هو: «قيل: هو خفيفٌ على اللِّسانِ بالتلاوة ثَقِيلٌ في الميزانِ بالثوابِ يومَ القيامة»^(١)، مثلما يقولُ سيِّدُنَا أبو هريرة رضي الله عنه، من أن النَّبِيَّ ﷺ قال: «كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»^(٢).

٣ - عِنْدَمَا يَكُونُ كَلَامُ شَخْصٍ ما صادقاً وحكيماً فإنَّ السامعينَ له يقولون: إِنَّ لِكَلَامِهِ وزنًا، وَبِنَفْسِ الطَّرِيقَةِ؛ لَأَنَّ كُلَّ كَلِمَةٍ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ صَادِقَةٌ وَمَمْتَلِئَةٌ حِكْمَةً، لِهَذَا فَإِنَّ لِكُلِّ كَلِمَةٍ فِيهِ وزنًا.

٤ - القرآنُ الكريمُ ثَقِيلٌ عَلَى الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ؛ لَأَنَّ فِيهِ إِطْلَالَ لِعَقَائِدِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ.

٥ - وقيل: السَّبَبُ فِي وَضْفِهِ بِالْكَلَامِ الثَّقِيلِ أَيْضًا إِنَّ اهْتِمَامَ النَّبِيِّ ﷺ كُلَّهُ قَبْلَ نَزُولِ الْقُرْآنِ كَانَ مَنْصَبًا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فَقَطْ، فَكَانَ يَعْبُدُهُ فِي غَارٍ حَرَاءٍ بَعِيدًا، وَيَدْخُلُ السَّكِينَةَ إِلَى قَلْبِهِ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَكِنْ بَعْدَ نَزُولِ الْقُرْآنِ جَاءَهُ الْأَمْرُ

(١) تفسير الخازن، سورة المزمل (٧٣): الآية ٥.

(٢) البخاري، كتاب التوحيد، باب ٥٨ برقم ٧٥٦٣.

بتوجيه الاهتمام إلى المخلوق، حتى يدعو الذين يعبدون مئآت من الأصنام إلى عبادة الله الواحد الأحد، وهو أمرٌ ثَقِيلٌ وعَمَلٌ في غاية الصُّعوبة.

﴿إِنْ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾

٥ - تقول السيِّدة عائشة رضي الله عنها: إِنَّمَا النَّاشِئَةُ: القيامُ بالليل بعدَ النومِ، وَمَنْ قامَ أوَّلَ اللَّيْلِ قبلَ النَّومِ فما قامَ ناشئةً. فقال ابنُ كَيْسَانَ: «هو القيامُ من آخرِ اللَّيْلِ»^(١).

يحتاج الإنسان إلى النوم والراحة بالليل، وخاصةً أن الاستيقاظ بالليل بعد نوم لأداء الصلاة يكون في غاية الثَّقَلِ والصُّعوبة، ولكنه أفضلُ سلاحٍ للتغلبِ على الشَّهَوَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ، وإذا اختار أحدُ السُّعَدَاءِ أن يلتزمَ بقيامِ اللَّيْلِ، فإنَّ نَفْسَهُ عندئذٍ تَتَّبَعُهُ، ويستمتع كثيرًا بتلاوة القرآن الكريم؛ لأنه في ذلك الوقتِ إِنَّمَا نَهَضَ واستيقظَ لأجل رضا الله تعالى فقط، وفي نفسِ الوقتِ لا يراه أحدٌ بحيث يُداخله الرِّياءُ، أمَّا في وقتِ النهارِ فهناك مشاغلٌ أخرى كثيرةٌ يُضْطَرُّ الإنسانُ إلى القيام بها بعد الصلاة، ولهذا تُراوِدُ هذه المشاغلُ فكره، أمَّا بعدَ صلاةِ التهجدِ تكونُ صلاةُ الصُّبحِ هي التي تليها، ولا يكونُ ذهنُ الإنسانِ مشغولًا في التفكيرِ في المشاغلِ الدُّنيويَّةِ، بل لو أنَّ أمرًا ما طرأَ على باله، فإنه ينشغلُ عنه بالدُّخُولِ إلى الصَّلَاةِ التالية، بمعنى أنَّ عبادةَ الله تعالى تكونُ مَسيطرَةً ومتجَلِّيةً على عَقْلِهِ وذَهِنِهِ وضميرِهِ، كما الناسُ في هذه الأوقاتِ يكونونَ نائمِينَ، وليس هناك صَحْبٌ أو ضوضاءٌ وضجيجٌ يُخلُّ بعبادته، إذ في ذلك الوقتِ لا يكونُ هناك أيُّ حائلٍ بينَ العبدِ وربِّه، فالعبدُ يتركُ نومَه مخلصًا ليتلو القرآن الكريمَ أمامَ ربِّه، والله تعالى في السماءِ الدُّنيا يستمعُ إلى تلاوةِ عبده للقرآنِ بما يليقُ بشأنه، ويُعلنُ المغفرةَ له. ما

١ (١) تفسير القرطبي، سورة المزمل (٧٣): الآية ٦.

أسعد أولئك الذين ينهضون بالليل ليرضوا ربهم، يا إلهي، اكثب لعبدك المقصر
هذا دوام هذه النعمة.

﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾

٦ - يا أيها النبي الحبيب ﷺ، إنك تكون مشغولاً بالنهار في تبليغ الأحكام الإلهية، ومناقشة القضايا السياسية، واستقبال الوفود، والحكم في الخصومات، والاستعداد للجهد، والمشاركة في الحروب وما شابه ذلك، ورغم أن كل هذه الأعمال يُعدُّ بشكلٍ غير مباشر عبادةً بالنسبة لك، لكن الوقت المناسب للعبادة المباشرة هو وقت الليل.

وفيه ترغيبٌ للأمة المسلمة كلها في صلاة التهجد، بأنهم أيضاً يكونون مشغولين بالنهار في الأعمال الدنيوية، لهذا يجب عليهم أن ينهضوا بالليل لأداء صلاة التهجد، بعد أن يناموا ويستريحوا بقدر الحاجة؛ لأن الله تعالى يتجلى على السماء الدنيا بما يليقُ بشأنه، داعياً بني الإنسان إلى طلب المغفرة منه، مثلما يقول سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه من أن النبي ﷺ قال: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟»^(١).

﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾

٧ - يا أيها النبي الحبيب ﷺ، اذكر اسم ربك بكثرة، بل اذكر اسمه قبل الشروع في أي عمل، وتوكل على الله دائماً في تكميل هذا العمل، يعني: أقم ذكر الله تعالى في قلبك بحيث يتغلَّب على كل المشاغل الدنيوية فيه، ولا تخطُ قدمك خطوة إلا

في رضاه وبرضاه، وهذا الحُكْمُ ليس خاصًا بالنبِيِّ ﷺ فقط، وإنما هو حُكْمٌ له وللأُمَّة المسلمة كلّها، بأن يذكروا الله تعالى، وأن لا يعبدوا سِواه، وأن يتوكَّلوا عليه، وأن يعتزِّلوا العصاة جميعًا ويطيعوا الله تعالى فقط، وأن يعيشوا حياتهم طبقًا لرضاه.

﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾

٨ - الله تعالى ربُّ المشرق والمغرب، يعني: ربُّ الكائناتِ كلّها، ولا يستحقُّ العبادةَ أحدٌ إلّا ه، ولهذا ينبغي لكلِّ مسلم أن يتوكَّلَ عليه؛ لأنَّ مَنْ يتوكَّلَ على الله فهو حسْبُه، ولمزيدٍ من التفصيل عن التوكَّل راجع الحاشية رقم ١٣ للآية رقم ١٣ من سورة التغابن (٦٤).

﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْجِرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾

٩ - يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، هؤلاء الكفار الذين يتحدَّثون ضدَّك ويؤذون قلبك، عليك أن تصبرَ على سوءِ حديثهم، وإذا تواجَّهتَ معهم فاعتزِّلهم بأحسنِ الخلق.

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهْلُكُمْ قَلِيلًا﴾

١٠ - يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، لا تُبالِ بهؤلاء الكفار الذين يكذبونك اغترارًا بأموالهم، بل اتركْ أمرهم إليَّ أنا، وأنا سأنتقمُ منهم بنفسي، وأمهلهم أنت مهلةً بسيطةً، فإن لم يرجعوا عن طغيانهم فإنَّ معركةً بدرٍ قريبة، حيث سيُذلُّ فيها أولئك الأثرياء، ومنتظرهم في الآخرة عذابٌ أليم.

﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَحِمِيمًا﴾

١١ - يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، الذين لن يرجعوا عن طغيانهم سوف نُقيِّدُهم

٤٧٠ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

بأغلالٍ من حديد، ونُلقي بهم في نارِ جهنّم، وفي جهنّم سوف يُطعمون الزَّقُومَ وغيره، ممّا يقفُ في حلوقهم، فلا ينزلُ إلى بطونهم، ولا يخرجُ من حلوقهم، وإنما سيظلُّون مُبتَلَيْنَ بهذا العذابِ الأليم، وسوف يُعذَّبون هكذا في يوم القيامة، يعني: في اليوم الذي ستزلزلُ فيه الأرضُ والجبال، وتصبحُ الجبالُ مثلَ ذرّاتِ الرّمالِ متفرّقةً ولا قيمةَ لها، يُطَيَّرُها الهواءُ كما تُطَيَّرُ العاصفةُ ذرّاتِ الرمالِ.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾

١٢ - هنا تنبيهٌ لأهل مكّة بأنّ سيّدنا محمداً ﷺ ليس رسولاً لم يأت من قبله مثله، بل إنّنا أرسلناه إليكم كما أرسلنا سيّدنا موسى عليه السّلام من قبلُ إلى فرعونَ وقومه، وسوف يشهدُ يومَ القيامة مَنْ مِنْكُمْ آمَنَ به، وَمَنْ مِنْكُمْ كَذَبَهُ.

﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾

١٣ - عندما عصى فرعونُ سيّدنا موسى عليه السّلام أخذناه أخْذًا بحيث أغرقناه هو وجيوشه في البحر، والآن إذا عصيتم أنتم أيضاً سيّدنا محمداً ﷺ فسينزلُ عليكم مثلُ هذا العذاب.

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾

١٤ - ألم تتفكروا ذات يوم بأنكم إذا بقيتم على كفركم، ونجوتُم من العذاب في هذه الدُّنيا، فكيف ستُفلتُون من العذاب في ذلك اليوم الذي تَشبُّبُ الولدان من أهواله، وتنشقُّ السّماءُ من الرُّعبِ منه؟ فلتفكروا قليلاً، كيف سيكونُ حالُ المخلوقِ البسيطِ في ذلك اليوم الذي ينشقُّ من هوله مخلوقٌ عظيمٌ قويٌّ مثلُ السّماء، وتذكروا أنّ ذلك اليومُ قادمٌ لا محالة؛ لأنّ الله وَعَدَ بذلك، والله مُتِمُّ وَعْدِهِ يقيناً.

يومَ القيامةِ لن يصيرَ الأطفالُ شِيبًا في الحقيقة، وإنّما ضُربَ هذا المثالُ

ليبان شدة هذا اليوم وقسوته، باعتبار أن الإنسان يشيب سريعاً من كثرة الهموم والفكر، ويتبدل شبابه ضعفاً، كذلك سيكون كل إنسان منتهكاً غاية الإنهاك عندما يرى أهوال يوم القيامة.

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾

١٥ - القرآن المجيد نصيحة كله، وجاء فيه التوضيح الشديد لطريقي: الحق والباطل، فأما الذين انحرفوا عن طريق ربهم، فقد جاء بيان المصير الذي سيؤولون إليه، ولهذا من شاء منكم فليختر الطريق الذي يأخذ به إلى رضا الله تعالى، ومن شاء فليختر الطريق الذي يأخذ به إلى جهنم.

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ، وَثُلُثَهُ، وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَّنْ نُّخْصُوهُ فَنَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَلْتَمِسُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقِيلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَقَرِّضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا نَقْضُوا لَأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ بِمَا جَدُّوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ، وَثُلُثَهُ، وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَّنْ نُّخْصُوهُ فَنَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾

١٦ - في بداية هذه السورة عندما نزل الأمر إلى النبي ﷺ أن عليك أن تُصلي صلاة التهجد في منتصف الليل أو قبله أو بعده بقليل، بدأ بعض الصحابة الكرام رضي الله عنهم في الانتظام في صلاة التهجد معه أيضاً، وقيام الليل هذا كان يمتد أحياناً إلى ثلث الليل، وأحياناً إلى نصفه، وأحياناً أخرى إلى ثلثيه. يقول العلامة القرطبي: «شق ذلك عليهم، وكان الرجل لا يدري متى نصف الليل من ثلثه، فيقوم

حَتَّى يَصْبَحَ مَخَافَةً أَنْ يَخْطِئَ، فَانْتَفَخَتْ أَقْدَامُهُمْ، وَامْتَقَعَتْ أَلْوَانُهُمْ، فَرَحِمَهُمُ اللَّهُ وَخَفَّفَ عَنْهُمْ»^(١).

يعني: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ الْحَبِيبُ ﷺ، اللَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ تَمَامَ الْعِلْمِ أَنَّكَ أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ تَقُومُونَ لَصَلَاةِ التَّهَجُّدِ لثُلَاثِي اللَّيْلِ أَحْيَانًا، وَاللَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ تَمَامَ الْعِلْمِ أَيْضًا أَنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ إِلَى هَذَا الْحَدِّ دَائِمًا كَانَ أَمْرًا صَعْبًا عَلَيْكُمْ مِنْ جَانِبٍ، وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ اللَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ تَمَامَ الْعِلْمِ كَمْ مِنَ اللَّيْلِ قَدْ مَضَى، وَلَكِنْ نَظَرًا لَعَدَمِ وَجُودِ السَّاعَاتِ الَّتِي تُحَدِّدُ الْوَقْتَ إِذْ ذَاكَ، لَا تَسْتَطِيعُونَ مَعْرِفَةَ كَمْ مَضَى مِنَ اللَّيْلِ بِشَكْلِ صَحِيحٍ، وَلِهَذَا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ تَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ بِأَنْ أَنْهَى فَرَضِيَّةَ صَلَاةِ التَّهَجُّدِ، كَمَا أَنْهَى الْإِتِمَامَ بِالْقِيَامِ لِنَصْفِ اللَّيْلِ أَوْ لِأَقْلٍ مِنْهُ أَوْ أَكْثَرٍ قَلِيلًا، وَالْآنَ هَذِهِ صَلَاةٌ مُسْتَحَبَّةٌ، فَبَقْدَرِ مَا يَتَيَسَّرُ لَكُمْ صَلَاتُهَا فَصَلُّوْهَا.

وَصَلَاةُ التَّهَجُّدِ فِي أَقْلِهَا رَكْعَتَانِ، وَفِي أَكْثَرِهَا اثْنَتَا عَشْرَةَ رَكْعَةً، وَهَذِهِ الصَّلَاةُ نَافِلَةٌ عَلَى الْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ، لَكِنَّهَا كَانَتْ بِالنِّسْبَةِ لِلنَّبِيِّ ﷺ صَلَاةً خَاصَّةً التَّزَمَ بِهَا وَأَدَّاهَا بِانْتِظَامٍ.

﴿عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرَضٌ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ﴾

١٧ - مِنْ بَيْنِ أَسْبَابِ إِنْهَاءِ فَرَضِيَّةِ صَلَاةِ التَّهَجُّدِ وَالْقِيَامِ الطَّوِيلِ بِاللَّيْلِ لَهَا أَيْضًا: أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَكُونُونَ مَرَضَى، وَبَعْضُ الْآخَرِ يَمْشُونَ فِي الْأَرْضِ بَحْثًا عَنْ أَرْزَاقِهِمْ، وَبَعْضُ الثَّالِثِ يَشَارِكُونَ فِي الْجِهَادِ بِشَكْلِ مُسْتَمِرٍّ، وَيَكُونُونَ فِي حَاجَةٍ إِلَى مَزِيدٍ مِنَ الرَّاحَةِ فِي اللَّيْلِ، وَلِهَذَا رَخَّصَ اللَّهُ تَعَالَى لَكُمْ بِأَنْ جَعَلَ هَذِهِ الصَّلَاةَ صَلَاةً مُسْتَحَبَّةً، وَبَقْدَرِ مَا يَتَيَسَّرُ لَكُمْ صَلُّوْهَا.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾

١٨ - عندما فُرِضَتِ الصَّلَاةُ الخَمْسُ لَيْلَةَ الْمَعْرَاجِ نَسَخَتْ فَرَضِيَّةَ صَلَاةِ التَّهَجُّدِ بِهَذِهِ الْآيَةِ، مِثْلَمَا يَقُولُ سَيِّدُنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَسَخَتْ الَّذِي كَانَ اللَّهُ قَدْ أَوْجَبَهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَوَّلًا مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ»^(١).

﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾

١٩ - رَغْمَ أَنَّ الزَّكَاةَ فُرِضَتْ فِي الْمَدِينَةِ، لَكِنَّ الْحَافِظَ ابْنَ كَثِيرٍ يَقُولُ: «وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أَيُّ: أَقِيمُوا صَلَاتَكُمْ الْوَاجِبَةَ عَلَيْكُمْ، وَآتُوا الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ. وَهَذَا يَدُلُّ لِمَنْ قَالَ: إِنَّ فَرَضَ الزَّكَاةِ نَزَلَ بِمَكَّةَ، لَكِنَّ مَقَادِيرَ النَّصَبِ وَالْمُخْرَجِ لَمْ تُبَيَّنْ إِلَّا بِالْمَدِينَةِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ»^(٢).

﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ فَرَضًا حَسَنًا﴾

٢٠ - مَا الْمُرَادُ بِالْقَرْضِ الْحَسَنِ؟ لِمَعْرِفَةِ ذَلِكَ تَفْصِيلًا رَاجِعَ الْحَاشِيَةِ رَقْمِ ١٨ لِلآيَةِ رَقْمِ ١٧ مِنْ سُورَةِ التَّغَابُنِ (٦٤).

﴿وَمَا نَقْدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا﴾

٢١ - يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَجْمَعَ فِي حَيَاتِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ الْفَانِيَةِ هَذِهِ ثَرَوَةً مِنَ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالصَّدَقَاتِ وَالزَّكَاةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْحَسَنَاتِ، حَتَّى يَسْتَفِيدَ مِنَ الْأَجْرِ الْعَظِيمِ عَلَيْهَا فِي الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ.

- يَقُولُ سَيِّدُنَا أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ الْعَبْدُ: مَالِي

(١) تفسير ابن كثير، سورة المزمل (٧٣): الآية ٢٠.

(٢) المرجع السابق، سورة المزمل (٧٣): الآية ٢٠.

٤٧٤ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

مالي! إنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فافتنى (للآخرة)، وما سوى ذلك فهو ذاهبٌ وتاركهُ للناس»^(١).

- يقول سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أيُّ الصّدقة أعظمُ أجرًا؟ قال: «أن تصدّق وأنت صحيحٌ شحيحٌ، تخشى الفقر وتأملُ الغنى، ولا تمهلُ حتى إذا بلغتِ الحلقوم قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان»^(٢).

- تقول السيّدَةُ عائشةُ أمُّ المؤمنين رضي الله عنها: إنهم ذبحوا شاةً (وقسموا لحومها بين المساكين) فقال النبي ﷺ: «ما بقي منها؟». قالت: ما بقي منها إلا كتفها. قال: «بقي كلُّها غير كتفها»^(٣)، يعني: أن الذي تم تقسيمه في سبيل الله هو الذي حُفِظ في الآخرة لنا، أمّا لحمُ الكتفِ فهو الذي سيفنى لأننا سنأكله.

- يقول سيّدنا عبدُ الله بنُ مسعود رضي الله عنه: إن النبي ﷺ قال: «أيُّكم مالٌ وارثه أحبُّ إليه من ماله؟»، قالوا: يا رسول الله، ما منّا أحدٌ إلا ماله أحبُّ إليه. قال: «فإنّ ماله ما قدّم (أي: للآخرة)، ومالٌ وارثه ما أخر»^(٤).

الفقيرُ إلى الله: محمّد إمداد حسين بيرزاده،

جامعة الكرم، بريطانيا

بعد صلاة الفجر من يوم الثلاثاء ٢٣ نوفمبر ٢٠١٠م

الموافق ١٦ ذي الحجة ١٤٣١هـ.

(١) مسلم، كتاب الزهد، باب ١ برقم ٧٤٢٢.

(٢) البخاري، كتاب الزكاة، باب ١١ برقم ١٤١٩.

(٣) الترمذي، صفة القيامة، باب ٣٣ برقم ٢٤٧٠.

(٤) البخاري، كتاب الرقاق، باب ١٢ برقم ٦٤٤٢.

هذا، وقد اكتمل بفضل الله تعالى وكرمه تفسيرُ سورة «المزمل» في ثلاثة أيام فقط، أي: من ٢٠ إلى ٢٣ نوفمبر، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٤) سُورَةُ الْمُدَّثِّرِ

هذه السُّورَةُ مَكِّيَّةٌ، واسمُها: «الْمُدَّثِّرُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأولى منها.

تبليغ القرآن

نَزَلَتِ الآيَاتُ الْخَمْسُ الْأُولَى مِنْ سُورَةِ الْعَلَقِ (٩٦) أَوَّلًا، ثُمَّ تَوَقَّفَ الْوَحْيُ بَعْدَهَا لِفَتْرَةٍ، وَهُوَ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ «فَتْرَةُ الْوَحْيِ»، ثُمَّ نَزَلَتْ بَعْدَ ذَلِكَ الْآيَاتُ الْأُولَى مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ، وَهِيَ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا ﷺ بِتَبْلِيغِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِشَكْلِ مُنْتَظَمٍ، يَعْنِي: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ الْحَبِيبُ الْمُدَّثِّرُ بِرِثَائِهِ ﷺ، لَقَدْ حَانَ الْوَقْتُ الَّذِي تَنْطَلِقُ فِيهِ لِتَبْلِيغِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَتُبَيَّنَ فِيهِ عَظَمَةُ رَبِّكَ، وَتُنْذَرُ النَّاسَ بِعَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يَتَجَنَّبُوا الْأَصْنَامَ، وَيُطَهِّرُوا مَلَابِسَهُمْ مِنَ الْقَادُورَاتِ.

الوليد بن المغيرة

فِي الْآيَاتِ مِنْ ١١ إِلَى ٢٦ جَاءَ بَيَانٌ لِأَحْوَالِ عَدُوٍّ مِنْ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ، يَعْنِي: ذَلِكَ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ وَفْرَةً فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَالْأَرْزَاقِ، وَلَكِنْ عِنْدَمَا أَنْكَرَ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَقَالَ عَنِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ إِنَّهُ سَاحِرٌ، تَوَعَّدَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِجَهَنَّمَ.

أحوال جهنم

في الآيات من ٢٧ إلى ٤٨ جاء بيان لأحوال جهنم والقيامة، حتى يخاف المجرمون من عذاب جهنم، ويرجعوا عن عصيانهم لله تعالى.

القرآن نصيحة كله

جاء التوضيح في نهاية السورة بأن القرآن الكريم نصيحة كله، ولهذا من يريد الحصول على النصيحة عليه أن يحصل عليها من القرآن الكريم، وأن يتقي الله.

الفقيه إلى الله: محمد إمداد حسين بيرزاده،

جامعة الكرم، بريطانيا

بعد صلاة العشاء من يوم الثلاثاء ٢٣ نوفمبر ٢٠١٠م

الموافق ١٦ ذي القعدة ١٤٣١هـ.



سُورَةُ الْمَدَّثَرِ (٧٤)،

مكية (٤)، آياتها (٥٦)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بَيَّأَتْهَا الْمَدَّثَرُ ① قُرْ فَأَنْذِرْ ② وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ③ وَبَابَكَ فَطَهِّرْ ④ وَالرَّجَزَ فَأَهْجُرْ ⑤ وَلَا تَمْنُنْ
تَسْتَكْبِرُ ⑥ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ⑦ فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ ⑧ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ⑨ عَلَى الْكَافِرِينَ
عَذْرٌ يَسِيرٌ ⑩ ذَرْفِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ⑪ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ⑫ وَبَيْنَ شُهُودًا ⑬
وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ⑭ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ⑮ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا ⑯ سَأَرْهُقُهُ صَعُودًا ⑰
إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ⑱ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ⑲ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ⑳ ثُمَّ نَظَرَ ㉑ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ㉒ ثُمَّ أَدْبَرَ
وَاسْتَكْبَرَ ㉓ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ㉔ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ㉕ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ㉖ وَمَا أَذْرِيكَ
مَا سَقَرُ ㉗ لَا بُقِيَ وَلَا نَذْرُ ㉘ لَوْ آتَاهُ لِلْبَشَرِ ㉙ عَلَيْهَا نِسْعَةٌ عَشْرٌ ㉚ وَمَا جَعَلْنَا نَارًا إِلَّا
مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا
يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ
يُضِلُّ اللَّهُ مَنِ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنِ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ㉛

﴿بَيَّأَتْهَا الْمَدَّثَرُ﴾

١ - كان أهل الجزيرة العربية إذا أرادوا ملاطفة أحد وإظهار الحب له،
خاطبوه بصفة مشتقة من الحالة التي هو عليها وقت الخطاب، مثلما نادى النبي ﷺ

على سيّدنا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قائلًا: «يا أبا تراب»، وتفصيل ذلك فيما يرويه سيّدنا سهل بن سعد رضي الله عنه قائلًا: ما كان لعليّ اسم أحبّ إليه من أبي تراب، وإن كان ليفرح به إذا دُعي به، جاء رسول الله ﷺ بيت فاطمة - عليها السلام - فلم يجد عليًا في البيت، فقال: «أين ابن عمك؟». فقالت: كان بيني وبينه شيء، فغاضبني فخرج فلم يقلّ عندي. فقال رسول الله ﷺ لإنسان: «انظر أين هو» فجاء فقال: يا رسول الله، هو في المسجد راقدًا. فجاء رسول الله ﷺ وهو مضطجع قد سقط رداؤه عن شقه، فأصابه تراب، فجعل رسول الله ﷺ يمسحه عنه وهو يقول: «قُمْ أبا تراب، قُمْ أبا تراب»^(١)، وهكذا عندما نزلت هذه الآية كان النبي ﷺ مُستلقيًا متدثرًا بردائه، فقال الله تعالى له بمحبة: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدِينُ﴾.

﴿قُرْآنَدِرْ﴾

٢ - كان أول وحي نزل هو الخمس آيات الأولى من سورة العلق (٩٦)، ثم توقّف نزول الوحي بعدها لفترة، وهي التي يقال عنها: «زمن فترة الوحي»، وقد اضطرب النبي ﷺ كثيرًا بسبب توقّف نزول الوحي، وفي اليوم الأخير من هذه الفترة حدثت هذه الواقعة:

يقول سيّدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن فترة توقّف نزول الوحي: إن النبي ﷺ قال في حديثه: «بيننا أنا أمشي، إذ سمعت صوتًا من السماء، فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني. فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدِينُ﴾ * ﴿قُرْآنَدِرْ﴾ إلى قوله: ﴿وَالرَّجَزَ فَأَهْجُرْ﴾، فحمي الوحي وتابع»^(٢).

(١) البخاري، كتاب الاستئذان، باب ٤٠ برقم ٦٢٨٠.

(٢) البخاري، كتاب بدء الوحي، باب ٣ برقم ٤.

في هذه الآيات أمر الله تعالى النبي الكريم ﷺ بتبليغ القرآن الكريم بشكل منتظم، يعني: يا أيها النبي الحبيب المتدثر بردائه ﷺ، لقد حان الوقت الذي تنطلق فيه لتبليغ القرآن الكريم، وثبتت فيه عظمة ربك، وتندّر الناس بعذاب الله تعالى، وتدعوهم إلى أن يتجنبوا الأصنام، ويطهروا ملابسهم من القاذورات.

والاضطراب الذي جاء بيانه في هذا الحديث لم يكن راجعاً إلى ذات سيدنا جبريل الأمين عليه السلام؛ لأن النبي ﷺ قد رأى سيدنا جبريل عليه السلام مرات عديدة في غار حراء، بل وعانقه مراراً أيضاً، ومع ذلك لم يضطرب بسببه، وإنما قال بكل طمأنينة: «ما أنا بقارئ»، ولهذا لم يكن السبب في هذا الاضطراب والخوف هو سيدنا جبريل عليه السلام، وإنما كان رؤيته بغير وحي؛ لأن النبي ﷺ كان مشتاقاً إلى الوحي.

ويعلم منه أن أول ما نزل من الوحي هو الخمس آيات الأولى من سورة العلق (٩٦)، وأول ما نزل من الوحي بعد زمن الفترة هو الخمس آيات الأولى من سورة المدثر (٧٤) (١)، وعند البعض: كان أول ما نزل بعد زمن الفترة هو ﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (٦٨).

﴿وَلَا تَمَنَّوْا مَا يَشْتَكِرُ﴾

٣ - لم يكن في قلب النبي ﷺ أي طمع في مال الدنيا وثرواتها، بل إنه كثيراً ما عرّضت عليه ﷺ أموال الدنيا وثرواتها، لكنه فضل اعتزالها، وفي هذا الإطار تأمل الحديثين التاليين:

(١) «وعن الزهري: أول ما نزل سورة: ﴿أَفْرَأَيْتَ يَاسِرَ رَبِّكَ﴾ - إلى قوله: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، فحزن رسول الله ﷺ، وجعل يعلو شواهد الجبال، فأثاه جبريل فقال له: «إِنَّكَ نَبِيُّ اللَّهِ» فرجع إلى خديجة وقال: «دثروني وصبوا علي ماء بارداً» فنزل ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾. تفسير القرطبي، سورة المدثر (٧٤): الآية ١.

- يقول سيّدنا أبو أمامة رضي الله عنه: **إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي لِيَجْعَلَ لِي بِطَحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا، قُلْتُ: لَا يَا رَبِّ، وَلَكِنْ أَشْبَعُ يَوْمًا وَأَجُوعُ يَوْمًا»، أَوْ قَالَ: «ثَلَاثًا» أَوْ نَحْوَ هَذَا، «فَإِذَا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ، وَإِذَا شَبِعْتُ شَكَرْتُكَ وَحَمِدْتُكَ»** (١).

- يقول سيّدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: **نَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ، فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً. فَقَالَ: «مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا؟ مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَائِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»** (٢).

ويقول العلامة غلام رسول سعيدي: **«الْمَنْعُ مِنَ الْمَنِّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لَيْسَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ بِهِ أُمَّةُ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ»** (٣)، ولهذا جاء في هذه الآية تعليم ثلاثة أشياء لهذه الأمة وإرشادهم إليها عن طريق النبي ﷺ:

١ - قَبْلَ الْإِحْسَانِ إِلَى أَحَدٍ

عندما يُحَسِّنُ الْإِنْسَانُ إِلَى أَحَدٍ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ هَذَا الْإِحْسَانُ لَطَمَعٍ فِي أَنَّ هَذَا الشَّخْصَ سِيرُدٌ إِلَيْهِ إِحْسَانُهُ بِأَكْثَرِ مِنْهُ، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ بَغَرَضٍ إِرْضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ سَتَكُونُ فَائِدَتُهُ مَضَاعِفَةً، فَمِنْ جَانِبٍ سِيرَضَى اللَّهُ عَنْهُ، وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ سِيرُدٌ إِلَيْهِ ذَلِكَ الشَّخْصُ الْإِحْسَانُ بِأَفْضَلِ طَرِيقٍ.

٢ - بَعْدَ الْإِحْسَانِ إِلَى أَحَدٍ

يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ لَا يَمُنَّ عَلَى أَحَدٍ أَحْسَنَ إِلَيْهِ فَيُؤْذِي مَشَاعِرَهُ؛ لِأَنَّ الْمَنَّ يُضَيِّعُ أَجْرَ الْإِحْسَانِ وَثَوَابَهُ، مَثَلَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا

(١) الترمذي، أبواب الزهد، باب ٣٥ برقم ٢٣٤٧.

(٢) الترمذي، أبواب الزهد، باب ٤٤ برقم ٢٣٧٧.

(٣) تفسير تبيان القرآن، سورة المدثر (٧٤): الآية ٦، ١٢: ٣٦٧.

صَدَقْتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴿٢٦٤﴾
[البقرة: ٢٦٤].

٣- الرِّبَاء

الذين يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَلَا يَكُونُ هَدْفُهُمْ هُوَ الْحَصُولَ عَلَى رِضَا اللَّهِ تَعَالَى وَالْأَجْرَ وَالثَّوَابَ فِي الْآخِرَةِ، وَإِنَّمَا يَعْمَلُونَهَا رِبَاءً، يَعْنِي: لِلْمَنْفَعَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْمَكَانَةِ وَذِيَوَعِ الصِّيتِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعْطِيهِمْ أَجْرَ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُمْ شَيْئًا، لَكِنَّهُمْ لَا يَحْصُلُونَ عَلَى أَيِّ مُقَابِلٍ لِهَذِهِ الْأَعْمَالِ فِي الْآخِرَةِ؛ لِأَنَّهُمْ حَصَلُوا عَلَى أَجْرِهَا فِي الدُّنْيَا طَبَقًا لِنِيَّتِهِمْ وَرَغْبَتِهِمْ، وَبِالتَّالِي أَصْبَحَتْ أَعْمَالُهُمْ هَذِهِ لَا قِيَمَةَ لَهَا فِي الْآخِرَةِ، لَكِنَّهُمْ - بِالتَّكْثِيرِ - سَيُعَذَّبُونَ عَلَى أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ وَعَصِيَانِهِمُ اللَّهَ تَعَالَى فِي الْآخِرَةِ، وَسَيَكُونُ هَذَا الْعَذَابُ بِمَقْدَارِ سَيِّئَاتِهِمْ، وَالْأَحَادِيثُ التَّالِيَةُ تَسْتَحِقُّ التَّدَبُّرَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْمُرَائِينَ:

- يَقُولُ سَيِّدُنَا أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ: رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَن يُقَالَ: جَرِيءٌ. فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ

فيها لك، قال: كذبت، ولكنتك فعلت ليقال: هو جَوَادٌ، فقد قيل، ثم أُمِرَ به فُسْحِبَ على وجهه ثم أُلْقِيَ في النار»^(١).

- يقول سيّدنا أنس رضي الله عنه: إنّ النبي ﷺ قال: «إذا كان يومُ القيامةِ صارت أمتي ثلاثَ فِرَقٍ: فِرْقَةٌ يَعْبُدُونَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَالِصًا، وَفِرْقَةٌ يَعْبُدُونَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ رِيَاءً، وَفِرْقَةٌ يَعْبُدُونَ اللهَ يَصِيبُونَ بِهِ دُنْيَا. قال: فيقول للذي كان يعبدُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لِلدُّنْيَا: بِعِزَّتِي وَجَلَالِي، مَا أَرَدْتَ بِعِبَادَتِي؟ فيقول: الدُّنْيَا. فيقول: لَا جَرَمَ، لَا يَنْفَعُكَ مَا جَمَعْتَ وَلَا تَرْجِعْ إِلَيْهِ، انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى النَّارِ. قال: ويقول للذي يعبدُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ رِيَاءً: بِعِزَّتِي وَجَلَالِي، مَا أَرَدْتَ بِعِبَادَتِي؟ قال: الرِّيَاءُ. قال: يقول: إِنَّمَا كَانَتْ عِبَادَتُكَ الَّتِي كُنْتَ تُرَائِي بِهَا لَا يَصْعَدُ إِلَيَّ مِنْهَا شَيْءٌ، وَلَا يَنْفَعُكَ الْيَوْمَ، انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى النَّارِ. قال: ويقول للذي كان يعبدُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَالِصًا: بِعِزَّتِي وَجَلَالِي، مَا أَرَدْتَ بِعِبَادَتِي؟ فيقول: بِعِزَّتِكَ وَجَلَالِكَ، لَأَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، كُنْتُ أَعْبُدُكَ لَوَجْهِكَ وَلِدَارِكَ، قال: صَدَقَ عَبْدِي، انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ»^(٢).

- يقول سيّدنا محمود بن لبيد رضي الله عنه: إنّ النبي ﷺ قال: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكَ الْأَصْغَرَ»، قالوا: وما الشِّرْكَ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ الله؟ قال: «الرِّيَاءُ، يقولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَاَنْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جِزَاءً؟»^(٣).

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾

٤ - في هذه الآية إرشادٌ عن طريقِ النبي ﷺ إلى رجالِ الدَّعوةِ في الإسلام

(١) مسلم، كتاب الإمامة، باب ٤٣ برقم ٤٩٢٣.

(٢) شعب الإيمان، ٥: ٣٢٧ برقم ٦٨٠٨.

(٣) شعب الإيمان، ٥: ٣٣٣ برقم ٦٨٣١.

وتعليمٌ لهم بأنه مثلما صَبَرَ النبي ﷺ من أجل إرضاء الله تعالى، بالرَّغم من خوف الكفارِ وطَمَعِهِمْ وظُلْمِهِمْ، وظَلَّ ثابتًا في طريق المهمة التي كُلِّفَ الله بها، عليهم أيضًا أن يَصْبِرُوا على المصاعِبِ التي تَواجَهُهُمْ في طريق الدَّعوة إلى الإسلام، وأن يَثْبُتُوا في طريق المهمة التي يَحْمِلُونَهَا على عاتِقِهِمْ.

﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ﴾

٥ - عِنْدَمَا يُنْفَخُ فِي الصُّورِ لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ، وَيَنْهَضُ الْمَوْتَى مِنْ قُبُورِهِمْ أَحْيَاءً، سَيَكُونُ ذَلِكَ الْيَوْمُ فِي غَايَةِ الشَّدَةِ بِالنِّسْبَةِ لِلْكَفَّارِ، وَلَنْ يَبْدُو لَهُمْ أَيُّ شُعَاعِ أَمَلٍ أَوْ أَيُّ سَهُولَةٍ وَيَسْرٍ، وَإِنَّمَا سَتَسْوَدُّ وَجُوهُهُمْ مِنَ الْيَأْسِ يَوْمَئِذٍ، وَتَنْحِنِي رِءُوسُهُمْ نَدَمًا.

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾

٦ - يَقُولُ الْمَفْسَّرُونَ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِي ذَمِّ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، فَقَدْ تَوَغَّلَ فِي الظُّلْمِ وَالطُّغْيَانِ اغْتِرَارًا بِكَثْرَةِ مَالِهِ وَأَوْلَادِهِ، بَحِيثٌ كَانَ يَسْخَرُ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَقَدْ جَاءَ ذَمُّ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ مِنْ قَبْلِ فِي الْآيَاتِ مِنْ ١٠ إِلَى ١٦ مِنْ سُورَةِ الْقَلَمِ (٦٨).

فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَسْرِيَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ قَلْبِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ بِأَنْ لَا تَنْزَعُ يَارَسُولَ اللَّهِ مِنْ عِدَاوَةِ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ لِلْإِسْلَامِ، وَاتْرُكْ أَمْرَهُ إِلَيَّ أَنَا، وَأَنَا سَأَنْتَقِمُ مِنْهُ بِنَفْسِي، فَلَقَدْ خَلَقْتُهُ وَحِيدًا، يَعْنِي: أَنَّهُ وَحِيدُ أَبَوَيْهِ مِنْ جَانِبٍ، وَلَيْسَ لَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ؛ لِأَنَّ أَبَاهُ كَانَ عَيْنِيًّا، وَأَنْجَبَتْهُ أُمُّهُ مِنْ نُطْفَةٍ حَرَامٍ، وَمِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ عِنْدَمَا وُلِدَ مَالٌ أَوْ أَوْلَادٌ، مِثْلُهُ مِثْلُ بَاقِي الْأَطْفَالِ، وَقَدْ أَنْعَمْتُ أَنَا عَلَيْهِ بِالْمَالِ وَالثَّرْوَةِ، وَرَزَقْتُهُ اثْنَيْ عَشَرَ وَلَدًا، يَعْمَلُونَ دَائِمًا عَلَى إِجْلَالِهِ وَحِمَايَتِهِ، وَلَكِنْ بَدَلًا مِنْ أَنْ يَشْكُرَنِي فَإِنَّهُ طَغَى وَتَجَبَّرَ. عَلَى أَيِّ حَالٍ، لَا تَحْزَنْ وَلَا تَغْتَمَّ، وَإِذَا لَمْ يَرْجَعْ

هذا عن طغيانه فسوف أذيقه الدُّلَّ والخِزْيَ. هذا وقد أسلم ثلاثة من أبنائه فيما بعد، ومنهم الصَّحابيُّ المشهورُ سيِّدنا خالدُ بنُ الوليد رضي الله عنه وأرضاه.

﴿كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لِإِيْتِنَاعِنَا عِنِدَا﴾

٧ - يعني: أنني أنعمت عليه بمقام عظيم باعتبار المال والثروة والمكانة والسيادة، لكنّه مع ذلك كان في غاية الطَّمع، وظلَّ يطلبُ المزيدَ من المال والثروة رَغَمَ عصيانه لي، لكنّه الآن لن يُعطى مزيداً من النِّعم؛ لأنه يأكلُ نَعَمَنَا نحن، ومع ذلك ويُخالفُ آيَاتِنَا. يقولُ العَلَّامةُ الخازن: «فما زال الوليدُ بعدَ نزولِ هذه الآية في نُقصانِ ماله وولده حتى هلك ﴿إِنَّهُ كَانَ لِإِيْتِنَاعِنَا عِنِدَا﴾ أي: مُعَانِدًا، والمعنى: أنه كان مُعَانِدًا في جميع دلائل التوحيد والقدرة والبعث والنُّبوة مُنْكَرًا للكلِّ، وقيل: كان كُفْرُهُ كُفْرَ عناد، وهو أنه كان يَعْرِفُ هذا بقلبه ويُنْكِرُهُ بلسانه، وهو أَقْبَحُ الكُفْرِ وَأَفْحَشُهُ»^(١).

﴿سَأَرْهُقُهُ صَعُودًا﴾

٨ - سوف نبتليه في الآخرة بعذابٍ شديد، يعني: سنجعلُه يصعدُ مرارًا فوق جبالٍ في جهنّم، مثلما يقولُ سيِّدنا أبو سَعِيدٍ الخُدْرِيُّ رضي الله عنه ﴿﴿سَأَرْهُقُهُ صَعُودًا﴾﴾ يعني: سأكلِّفه مشقَّةً من العذاب لا راحةَ له فيها. وعن أبي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الصَّعُودُ: عَقَبَةٌ في النارِ يتصعَّدُ فيها الكافرُ سبعينَ خريفًا ثم يَهْوِي فيها سبعينَ خريفًا، فهو كذلك أبدًا»^(٢).

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾

٩ - يقولُ العَلَّامةُ القرطبيُّ: عن الواقعة التي جاءت الإشارةُ إليها في هذه

(١) تفسير الخازن، سورة المدثر (٧٤): الآية ١٦.

(٢) المرجع السابق، سورة المدثر (٧٤): الآية ١٦.

الآيات «لَمَّا نَزَلَ ﴿حَمَّ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿غافر: ١-٢﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ سَمِعَهُ الْوَلِيدُ يَقْرُأُهَا فَقَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُ مِنْهُ كَلَامًا مَا هُوَ مِنْ كَلَامِ الْإِنْسِ وَلَا مِنْ كَلَامِ الْجِنِّ، وَإِنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّ أَعْلَاهُ لَمَثْمَرٌ، وَإِنَّ أَسْفَلَهُ لَمُغْدِقٌ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَلَا يُعْلَى عَلَيْهِ، وَمَا يَقُولُ هَذَا بَشَرٌ. فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: صَبَأَ الْوَلِيدُ، لَتَصْبُؤَنَّ قُرَيْشٌ كُلُّهَا. وَكَانَ يَقَالُ لِلْوَلِيدِ: رِيحَانَةُ قُرَيْشٍ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: أَنَا أَكْفِيكُمْوه. فَمَضَى إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: مَا لِي أَرَاكَ حَزِينًا؟ فَقَالَ لَهُ: وَمَا لِي لَا أَحْزَنُ وَهَذِهِ قُرَيْشٌ يَجْمَعُونَ لَكَ نَفَقَةً يُعِينُونَكَ بِهَا عَلَى كِبَرِ سِنَّكَ وَيَزْعُمُونَ أَنَّكَ زَيْنَتْ كَلَامَ مُحَمَّدٍ، وَتَدْخُلُ عَلَى ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ وَابْنِ أَبِي قُحَافَةَ لَتَنَالَ مِنْ فَضْلِ طَعَامِهِمَا، فَغَضِبَ الْوَلِيدُ وَتَكَبَّرَ، وَقَالَ: أَنَا أَحْتَاكُ إِلَى كِسْرِ مُحَمَّدٍ وَصَاحِبِهِ؟ فَأَنْتُمْ تَعْرِفُونَ قَدْرَ مَالِي، وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى، مَا بِي حَاجَةٌ إِلَى ذَلِكَ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ، فَهَلْ رَأَيْتُمُوهُ قَطُّ يَخْنُقُ؟ قَالُوا: لَا وَاللَّهِ، قَالَ: وَتَزْعُمُونَ أَنَّهُ شَاعِرٌ، فَهَلْ رَأَيْتُمُوهُ نَطَقَ بِشَعْرٍ قَطُّ؟ قَالُوا: لَا وَاللَّهِ. قَالَ: فَتَزْعُمُونَ أَنَّهُ كَذَّابٌ، فَهَلْ جَرَّبْتُمْ عَلَيْهِ كَذْبًا قَطُّ؟ قَالُوا: لَا وَاللَّهِ. قَالَ: فَتَزْعُمُونَ أَنَّهُ كَاهِنٌ، فَهَلْ رَأَيْتُمُوهُ تَكْهَنَ قَطُّ؟ وَلَقَدْ رَأَيْنَا لِلْكَهْنَةِ أَسْجَاعًا وَتَخَالُجًا، فَهَلْ رَأَيْتُمُوهُ كَذَلِكَ؟ قَالُوا: لَا وَاللَّهِ. وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُسَمَّى الصَّادِقَ الْأَمِينَ مِنْ كَثَرَةِ صِدْقِهِ. فَقَالَتْ قُرَيْشٌ لِلْوَلِيدِ: فَمَا هُوَ (وَكَيْفَ نُبْعِدُ النَّاسَ عَنْهُ)؟ فَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ، ثُمَّ نَظَرَ، ثُمَّ عَبَسَ، فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا سَاحِرٌ! أَمَا رَأَيْتُمُوهُ يُفَرِّقُ بَيْنَ الرَّجُلِ وَأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَمَوَالِيهِ؟! فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ﴾ أَي: فِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ وَالْقُرْآنِ»^(١).

﴿ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَرَ﴾

١٠ - عِنْدَمَا قِيلَ لِلْوَلِيدِ: أَخْبِرْنَا، مَاذَا نَقُولُ عَنْ هَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي فَرَّقَ بَيْنُونَا؟

(١) تفسير القرطبي، سورة المدثر (٧٤): الآية ١٨.

فَكَرَّ كَثِيرًا، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَعْرِفْ مَاذَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ فِي مَخَالَفَةِ هَذَا الْكَلَامِ الصَّادِقِ، وَقَدْ ظَهَرَتْ آثَارُ هَذَا الْانْزِعَاجِ عَلَى وَجْهِهِ، وَفِي النَّهَايَةِ عَبَسَ بِوَجْهِهِ وَبَسَرَ، وَأَظْهَرَ امْتِعَاضًا، ثُمَّ قَالَ وَهُوَ يَدِيرُ ظَهْرَهُ مُتَكَبِّرًا: هَذَا لَيْسَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِنَّمَا هُوَ سِحْرٌ يَنْتَقِلُ مِنَ السَّابِقِينَ إِلَى الْلاحِقِينَ. وَبَعْدَ أَنْ فَكَّرَ مَرَارًا قَرَّرَ - أَهْلَكَهُ اللَّهُ - أَنْ يُخَالَفَ ضَمِيرَهُ، مَعَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ مِنْ قَبْلُ: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَيْسَ كَلَامَ بَشَرٍ.

﴿سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ ۖ وَمَا أَزْوَاجُ مَا سَقَرُ ۖ لَا يُبْقَى وَلَا نَذَرُ﴾

١١ - من بين أسماء جهنم أو درجاتها: «سَقَرٌ»، وقد جاء السؤال بأسلوب استفهامي لبيان شدة «سَقَرٍ»، يعني: مَنْ يَعْرِفُ مَا هِيَ سَقَرٌ؟ في الحقيقة هذه نارٌ غاية في الشدة، تحرق جلد الإنسان فتُحِيلُهُ أَسْوَدَ حَالِكِ السَّوَادِ، بل وتجعله يتفتض بين الحياة والموت، مثلما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [الأعلى: ١٣].

﴿لَوْ أَهْلَكْتُ النَّبْرَةَ ۖ عَلَيْهِمَا تِسْعَةُ عَشْرَ﴾

١٢ - عِنْدَمَا سَمِعَ كَفَّارٌ مَكَّةَ أَنَّ هُنَاكَ نَارًا عَظِيمَةً سَيُلْقَى فِيهَا الْمَجْرُمُونَ جَمِيعًا مِنَ الْبَدَايَةِ حَتَّى قِيَامِ السَّاعَةِ، وَأَنَّ الْحُرَّاسَ عَلَيْهِمْ سَيَكُونُونَ تِسْعَةَ عَشَرَ مَلَاكًا فَقَطْ، عِنْدَئِذٍ قَالَ أَبُو جَهْلٍ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَمَا يَسْتَطِيعُ كُلُّ عَشْرَةٍ مِنْكُمْ لَوَاحِدٍ مِنْهُمْ فَتَغْلِبُونَهُمْ؟^(١) وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ مِائَةً وَتَسْعِينَ مِنْ شَبَابِنَا سَيَتَغَلَّبُونَ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةِ التَّسْعَةِ عَشَرَ. يَقُولُ السُّدِّيُّ: فَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ بْنُ كِلْدَةَ الْجُمَحِيُّ: لَا يَهْوِلُنَّكُمْ التَّسْعَةُ عَشَرَ، أَنَا أَدْفَعُ بِمَنْكِبِي الْأَيْمَنِ عَشْرَةً مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَبِمَنْكِبِي الْأَيْسَرِ التَّسْعَةَ، ثُمَّ تَمُرُّونَ إِلَى الْجَنَّةِ. يَقُولُهَا مُسْتَهْزَأًا^(٢)!

(١) تفسير ابن كثير، سورة المدثر (٧٤): الآية ٣١.

(٢) تفسير القرطبي، الموضع السابق.

كان الكفارُ يعتقدونَ أنَّ مائةً وتسعينَ شابًا، أو حتى رجلًا قويًّا وحده، يُمكنهم التغلُّبُ على الملائكةِ التسعةِ عشرَ، لكنهم لم يستوعبوا أنَّ الملائكةَ ليسوا بشرًا من لحم ودمٍ مثلهم، وإنما هم مخلوقاتٌ نورانيةٌ، وأنهم لا يستطيعونَ تصوُّرَ مدى قوَّتهم، ولو أراد اللهَ لَاسْتَطَاعَ مَلَكٌ واحدٌ التحكُّمَ في جهنَّمَ كُلِّها، مثلما يقولُ العلامةُ القرطبي: «إِذَا كَانَ مَلَكٌ وَاحِدٌ يَقْبِضُ أَرْوَاحَ جَمِيعِ الْخَلَائِقِ، كَانَ أُخْرَى أَنْ يَكُونَ تِسْعَةُ عَشَرَ عَلَى عَذَابِ بَعْضِ الْخَلَائِقِ»^(١)، يعني: أنَّ بني الإنسانِ لن يَدْخُلُوا جَمِيعًا جَهَنَّمَ، ولهذا إِذَا كَانَ مَلَكٌ وَاحِدٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَسْتَطِيعُ قَبْضَ أَرْوَاحِ بَنِي الْبَشَرِ جَمِيعًا، فَكَيْفَ لَا يُمَكِّنُ لَتِسْعَةِ عَشَرَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ تَعْذِيبُ أَهْلِ جَهَنَّمَ فَقَطْ؟

وهكذا يُنْقَلُ أَبُو الْفَرَجِ الْجَوَازِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ، أَنَّ سَيِّدَنَا جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ «اقتَلَ الأرضَ من سبعِ أَرْضِينَ، فَاحْتَمَلَهَا حَتَّى بَلَغَ بِهَا إِلَى أَهْلِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حَتَّى سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ نُبَاحَ كَلَابِهِمْ، ثُمَّ قَلَبَهَا. كَانَتْ خَمْسَ قُرَى، وَكَانَ الْقَوْمُ أَرْبَعَةَ آلَافٍ أَلْفٍ»^(٢).

وَالآنَ، يُمَكِّنُكَ أَنْتَ أَنْ تَتَصَوَّرَ مَدَى الْقُوَّةِ الَّتِي أَعْطَاهَا اللَّهُ تَعَالَى لِمَلَكٍ وَاحِدٍ، بِحَيْثُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْمِلَ - وَحْدَهُ - خَمْسَ قُرَى مَعَ الْأَرْضِ الَّتِي تَحْتَهَا، وَأَرْبَعَةَ مَلَائِينَ فَرْدًا مِنَ الْبَشَرِ إِلَى الْفُضَاءِ، ثُمَّ يُلْقِي بِهِمْ إِلَى الْأَرْضِ بِكُلِّ قُوَّةٍ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ لِأَهْلِ جَهَنَّمَ الْهَرُوبُ مِنْ حِرَاسَةِ تِسْعَةِ عَشَرَ مَلَكًا؟ وَهَذَا الْعَدْدُ، أَيُّ: التَّسْعَةِ عَشَرَ، قَرَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِحِكْمَةٍ عِنْدَهُ هُوَ، وَلَكِنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى أَيِّ مَلَكٍ، فَلَوْ أَرَادَ لَعَذَّبَ أَهْلَ جَهَنَّمَ جَمِيعًا بِكَلِمَةٍ «كُنْ» فَقَطْ.

كَمَا يَقُولُ الْمَفْسَّرُونَ: إِنَّ حُرَّاسَ جَهَنَّمَ لَيْسُوا تِسْعَةَ عَشَرَ مَلَكًا فَقَطْ، وَإِنَّمَا هَؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةُ التَّسْعَةُ عَشَرَ هُمُ الرُّؤَسَاءُ وَالنُّقَبَاءُ فِي جَهَنَّمَ، وَكُلُّ مَنْهُمْ يَعْمَلُ تَحْتَ

(١) تفسير القرطبي، سورة المدثر (٧٤): الآية ٣٠.

(٢) تفسير زاد المسير، سورة هود (١١): الآية ٨٢، ٤: ١١٠.

إمرته ملائكة لا حصرَ لهم، مثلما يقول العلامةُ القرطبي: «قلت: والصَّحيح - إن شاء الله - أنَّ هؤلاء التسعة عشر، هم الرؤساءُ والنُّقباءُ، وأما جُمْلَتُهُمْ فالعبارةُ تعجزُ عنها، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]»^(١).

يقول سيِّدنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: إنَّ النبيَّ ﷺ قال: «يُوتَىٰ بجهنَّمَ يومئذٍ لها سبعون ألفَ زمامٍ، مع كلِّ زمامٍ سبعون ألفَ ملكٍ يجرُّونها»^(٢).

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾

١٣ - لَمَّا سَمِعَ المشركونَ عددَ ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ من الملائكة، سَخِرُوا قائلين: إِنَّا بِالْآلَافِ، فماذا يمكنُ أن يفعلَ تسعةَ عشرَ لنا؟ فنزلت هذه الآيةُ ردًّا عليهم بأنهم ليسوا تسعةَ عشرَ من البشر، وإنما هم ملائكةٌ، وقوَّةُ الملائكةِ تفوقُ الإنسَ والجِنَّ، ولهذا فإنَّ ملكًا واحدًا من هؤلاء الملائكةِ يستطيعُ التحكُّمَ في جهنَّمَ كُلِّها، مثلما قرأت في الحاشيةِ السابقةِ عن قوَّةِ ملكِ الموتِ وقوَّةِ سيِّدنا جبريلَ عليه السَّلام، فإذا كانت لدى واحدٍ من الملائكةِ هذه القوَّةُ الهائلةُ، فكم تكونُ قوَّةُ تسعةَ عشرَ منهم؟

ولأنَّ أهلَ الكتابِ يَعْرِفُونَ مدى قُدرةِ الله تعالى وقوَّةِ الملائكةِ، لهذا كانوا على يقينٍ من أنَّ تسعةَ عشرَ من الملائكةِ يستطيعونَ التحكُّمَ في جهنَّمَ، وأهلُ الإيمانِ حينَ يسمعونَ بحُكمٍ من أحكامِ الله تعالى يزدادُ إيمانُهُم قوَّةً وصلابةً، وبالتالي لم يكنْ لدى أهلِ الكتابِ ولا لدى أهلِ الإيمانِ أيُّ شكٍّ أو اعتراضٍ على هذا الأمرِ، أمَّا الكفارُ فلائهم لم يكونوا يَعْرِفُونَ حقيقةَ قُدرةِ الله تعالى وقوَّةِ

(١) تفسير القرطبي، سورة المدثر (٧٤): الآية ٣٠.

(٢) مسلم، كتاب الجنة، باب ١٢ برقم ٧١٦٤.

الملائكة، لهذا أصبحت مسألة العدد هذه مُربكة لهم وابتلاءً، واعتقدوا بأنه يستحيل على هذا العدد من الملائكة التحكُّم في جهنم.

﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۖ﴾

١٤ - الذين في قلوبهم مرضُ الشكُّ تُجاء الإسلام، أو الذين يُنكرون الإسلام علانيةً، تجدهم يَسْخَرُونَ من هذا المَثَالِ قائلين: ما المراد من بيان عدد تسعة عشر؟ والحقيقة أنَّ المعارضين لأيِّ شيءٍ أو لأيِّ نظريةٍ يحاولون دائماً أن يجدوا فيها عيباً أو نقصاً ليشوهوها، ولو قال الله تعالى عدداً آخرَ - بدلاً من تسعة عشر - لما آمَن هؤلاء أيضاً، وإنما سيحاولون محاولاتٍ فاشلةً للعثور على أيِّ عيبٍ أو نقصٍ فيه، ولكن ينبغي لهم أن يعلموا أنَّ الله تعالى قادرٌ مطلقٌ، ومختارٌ مطلقٌ، ولا يخلو أيُّ فعلٍ من أفعاله من حكمة، ولهذا لا يمكن سؤاله عن أيِّ قولٍ من أقواله أو أيِّ فعلٍ من أفعاله، والله تعالى - أيضاً - هو حاكمُ الكلِّ، ولا يحكمه أحدٌ بحيث يمكنه أن يُحاسبه، في حين أنَّ بني الإنسانِ عبادٌ له، وطاعته فرضٌ عليهم، ولهذا سيُسألُ بنو الإنسانِ عن أقوالهم وأفعالهم، مثلما قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۖ﴾

١٥ - الذين يتفكرون في قدرة الله تعالى من خلال هذه الأمثال، يُرشدُهم الله تعالى إلى طريق الهداية، والذين لا يتفكرون في قدرة الله تعالى، ويظلُّون مُصِرِّينَ على التمسكِ بالضلالِ عامدين، يتركُّهم الله تعالى يعمهون في الضلال، فالله تعالى لا يُجبرُ أحداً على قبول الهداية، وإلا لانتفى الهدفُ من الابتلاء أصلاً.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾

١٦ - عندما سَخِرَ الْكُفَّارُ مِنْ عَدَدٍ ﴿تَسْعَةَ عَشَرَ﴾ قائلين: كيف يمكنُ لتسعةٍ عَشَرَ مَلَكًا السَّيْطَرَةُ عَلَى أَهْلِ جَهَنَّمَ الَّذِينَ لَا حَظَرَ لَهُمْ؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ مَا مَعْنَاهُ: أَنَّ هَؤُلَاءِ التَّسْعَةَ عَشَرَ إِنَّمَا هُمْ الرُّؤَسَاءُ وَالثَّقَبَاءُ الْمُخْتَصُّونَ بِأُمُورِ جَهَنَّمَ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ فَإِنَّ جُنُودَ رَبِّكَ كَثِيرُونَ بَحِثْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَصَوَّرَ عَدَدَهُمْ أَحَدٌ، وَعَدَدُ الْمَلَائِكَةِ - فَقَطْ - كَثِيرٌ لِلْغَايَةِ، بَحِثْ أَنَّ كُلَّ يَوْمٍ يَعْبُدُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنْهُمْ، فَإِذَا خَرَجُوا لَمْ يَأْتِ دَوْرُهُمْ ثَانِيَةً حَتَّى يَوْمَ الْقِيَامَةِ^(١).

وَالآنَ، يُمْكِنُكَ أَنْ تَتَصَوَّرَ مِنْذُ مَتَى خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الدُّنْيَا، وَإِلَى مَتَى سَتَسْتَمِرُّ؟ وَكُلَّ يَوْمٍ يَدْخُلُ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَهَذَا مَجَرَّدُ جَانِبٍ مِنْ تَعْدَادِ الْمَلَائِكَةِ، وَهِيَ وَاحِدَةٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، فِي حِينٍ أَنَّ دَائِرَةَ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَاسِعَةٌ لِلْغَايَةِ، بَحِثْ لَا يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ وَحْدَهُ أَنْ يُحْصِيَ هَذِهِ الْأَقْسَامَ كُلَّهَا، فَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يُحْصِيَ عَدَدَ كُلِّ مَخْلُوقٍ مِنْهُمْ؟

﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾

١٧ - فِي الْحَدِيثِ عَنْ جَهَنَّمَ وَأَحْوَالِهَا، الَّذِي جَاءَ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ، نَصِيحَةٌ وَعِبْرَةٌ لِلنَّاسِ حَتَّى يَخَافُوا النَّارَ وَيَتَّقُوهَا، وَلَا يَرْتَكِبُوا فِعْلًا يَكُونُ سَبَبًا فِي دُخُولِهِمْ جَهَنَّمَ.

كَلَّا وَالْقَمَرِ^(٣٢) وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ^(٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَشْفَرَ^(٣٤) إِنَّمَا لِأَحَدَى الْكَبِيرِ^(٣٥) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ^(٣٦) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ^(٣٧) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَ^(٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ^(٣٩) فِي جَنَّتِ يَنسَاءُ لُونُ^(٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ^(٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ^(٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ^(٤٣) وَلَمْ نَكُ

(١) «فَقَالَ جَبْرِيلُ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يَصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا

إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ». البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ٦ برقم ٣٢٠٧.

نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَحْوُضُ مَعَ الْخَافِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ آتَيْنَا
الْيَقِينَ ﴿٤٧﴾ فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّفِيعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَانَهُمْ حُمُرٌ
مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُوفَّىٰ صُحُفًا مُنْشَرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَلْ
لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ
يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ الْقُوَىٰ وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ ﴿٥٦﴾

﴿إِنَّمَا لِاحْدَى الْكُبَرِ﴾

١٨ - كان كفاراً مكّة يعتقدون أنه لن تقوم الساعة، ولن تكون هناك جهنم، وفي هذه الآيات تنفيذ وإبطال لهذا الاعتقاد، بأن الأمر ليس كما تعتقدون، وأن الساعة آتية لا محالة، وقد أقسم الله تعالى بثلاثة أشياء مهمة، يعني: بالقمر، والليل إذا غاب وأدبر، والصُّبْح إذا طلع وأشفر، مؤكّداً على أن جهنم واحدة من الآفات الكبرى القادمة، وسوف تأتي لا محالة.

﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾

١٩ - إن شدة يوم القيامة، وبصفة خاصة شدة نار جهنم، لأمرٌ مُرعبٌ يكفي لإرعاب الإنسان، ولهذا فالأمر يتوقّف عليكم أنتم، من السَّعيد منكم والذي سيعمل الصّالحات ليحظى بالقرب من الله تعالى، ومن التَّعيس منكم والذي سيعمل السيئات فيطرّد من رحمة الله تعالى ويصبح ملعوناً.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ﴾

٢٠ - يقول مقاتل: «كلُّ امرئٍ كافٍ بما عمِل من الشُّركِ مُرْتَهَنٌ في النار»^(١)؛

لأنَّ الله تعالى قد استثنى من الحُكم السابق أصحابَ اليمين، أي: الذين ستكونُ صُحُفُ أعمالهم في أيَّمانهم، ولهذا فإنَّ هؤلاء سيُكونونَ في الجنَّة.

﴿مَاسَلَكَ كُفْرٍ فِي سَفَرٍ﴾

٢١ - سِيلَتِفَتْ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الدَّرَجَاتِ الْعُلَى نَاحِيَةَ جَهَنَّمَ، وَيَسْأَلُونَ الْمَجْرِمِينَ قَائِلِينَ: أَيُّ جَرَائِمَ جَاءَتْ بِكُمْ إِلَى جَهَنَّمَ لَتُعَاقَبُوا عَلَيْهَا؟ وَعِنْدَئِذٍ سَيُعْتَرِفُونَ بِأَرْبَعِ جَرَائِمَ دَخَلُوا بِسَبَبِهَا النَّارَ، وَهِيَ:

١ - لَمْ نَكُنْ نُصَلِّي.

٢ - لَمْ نَكُنْ نَطْعِمُ الْمِسْكِينَ.

٣ - كُنَّا نَخُوضُ مَعَ التَّافِهِينَ فِي أَحَادِيثَ تَافِهَةٍ.

٤ - كُنَّا نُنْكِرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا نُؤْمِنُ بِهِ.

فالذين تجتمعُ فيهم هذه الجرائمُ الأربعة سيدخلونَ جهنَّمَ؛ لأنَّ من بينها واحدةٌ هي: إنكارُ يومِ القيامة، وهو - في ذاته - كُفْرٌ صَرِيحٌ، والذين يموتونَ على الكُفْرِ لَا يُسَمَّحُ لِأَحَدٍ بِأَنْ يَشْفَعَ لَهُمْ، حَتَّى وَإِنْ تَشَفَّعَ لَهُمْ أَحَدٌ فَلَنْ تُقَبَّلَ شَفَاعَتُهُ؛ لأنَّ الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ الشَّفَاعَةَ هُمُ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ عَلَى الْإِيمَانِ فَقَطْ.

- يَقُولُ سَيِّدُنَا زَيْدُ بْنُ الْأَرْقَمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَقٌّ، فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهَا لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِهَا»^(١).

- يَقُولُ سَيِّدُنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «شَفَاعَتِي مُبَاحَةٌ إِلَّا لِمَنْ سَبَّ أَصْحَابِي»^(٢).

(١) التفسير المظهر، سورة المدثر (٧٤): الآية ٤٨.

(٢) المرجع السابق، سورة المدثر (٧٤): الآية ٤٨.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ ﴿٤١﴾ كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾

٢٢ - ماذا دَهَى الكَفَّارَ، إذ يُعْرِضُونَ عَنِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ حَتَّى بَعْدَ سَمَاعِ أَهْوَالِ جَهَنَّمَ، وَلَا يَحَاوِلُونَ النِّجَاةَ مِنْ عَذَابِهَا، وَيَفِرُّونَ مِنْ نَصَائِحِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ فِرَارَ الْحَمِيرِ فِي الْغَابَةِ خَوْفًا مِنَ الْأُسْدِ؟

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُوقَىٰ صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾

٢٣ - يَقُولُ الْمَفْسِّرُونَ: «إِنَّ كَفَّارَ قُرَيْشٍ قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: لِيَصْبِحَ عِنْدَ رَأْسِ كُلِّ رَجُلٍ مِّنَّا كِتَابٌ مُنَشُورٌ مِنَ اللَّهِ أَنْكَ رَسُولُهُ نَوْمَرٌ فِيهِ بَاتِبَاعُكَ»^(١)، يَعْنِي: أَنَّ كَفَّارَ مَكَّةَ كَانُوا يَرْعَبُونَ أَنْ تُنَزَّلَ صَحِيفَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِشَكْلِ مُبَاشِرٍ، لَكِنَّ مِثْلَ هَذَا لَا يُمَكِّنُ أَبَدًا؛ لِأَنَّهُمْ غَيْرُ مُؤَهَّلِينَ لِأَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ صُحُفٌ بِشَكْلِ مُبَاشِرٍ، وَالسَّبَبُ الْأَصْلِيُّ فِي هَذَا الْجِدَالِ كُلُّهُ هُوَ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَخَافُوا مِنْ عَذَابِهَا، وَلَمَّا جَادَلُوا بِهَذَا الشَّكْلِ.

﴿كَأَلَا إِنَّهُمْ تَذَكَّرَةٌ﴾

٢٤ - أَكَّدَ اللَّهُ تَعَالَى ثَانِيَةً عَلَى أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَبَدًا أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ صُحُفٌ بِشَكْلِ مُبَاشِرٍ، وَالْآنَ فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَكْفِي لِلنَّصِيحَةِ حَتَّى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلِهَذَا فَإِنَّ مَنْ يَرِيدُ الْحُصُولَ عَلَى النَّصِيحَةِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْصُلَ عَلَيْهَا مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ الْقُوَى وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ﴾

٢٥ - لَا يُمَكِّنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَحْصُلَ عَلَى النَّصِيحَةِ إِلَّا بِتَوْفِيقٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَاللَّهُ تَعَالَى يَمْنَحُ تَوْفِيقَهُ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحُصُولَ عَلَى النَّصِيحَةِ بِكُلِّ إِخْلَاصٍ نِّيَّةٍ، وَلِهَذَا

٤٩٦ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

ينبغي للناس أن يرجعوا بكل إخلاص نية إلى الله تعالى؛ لأنه هو الذي يستحق أن يتقّيه الناس، وشأن عظمته هو أنه يعفو عمّن يرجع إليه بإخلاص النية مهما كثرت ذنوبه.

- يقول سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه: إن النبي ﷺ قال في تفسير هذه الآية: ﴿هُوَ أَهْلُ النَّفْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفَرَةِ﴾ قال: «قال الله عزّ وجلّ: أنا أهل أن أتقى، فمن اتّقاني فلم يجعل معي إلهاً، فأنا أهل أن أغفر له»^(١).

الفقيه إلى الله: محمد إمداد حسين بيرزاده،
جامعة الكرم، بريطانيا
بعد صلاة العشاء من يوم الجمعة ٢٦ نوفمبر
٢٠١٠م
الموافق ١٩ ذي الحجة ١٤٣١هـ.

هذا، وقد اكتمل - بفضل الله تعالى وكرمه - تفسير سورة «المدثر» في ثلاثة أيام فقط، أي: من ٢٣ إلى ٢٦ نوفمبر، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.



(١) الترمذي، تفسير القرآن، سورة المدثر (٧٤): برقم ٣٣٢٨.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٥) سُورَةُ الْقِيَامَةِ

هذه السورة مكية، واسمها: «القيامة»، وهو مأخوذ من الآية الأولى منها.

قيام الساعة

كان الكفار يعتقدون أنه لا يمكن إحياء الإنسان من جديد بعد أن يموت ويصير ترابًا، وفي بداية هذه السورة وأخريها جاء دليل بسيط مفهوم على قيام الساعة، يعني: ألم يفكر الإنسان أبدًا؛ هل كانت تبدو له من قطرة الماء العادية هذه، والتي خلق منها، عيونٌ وأذانٌ وأيدٍ وأرجلٌ وقلبٌ وعقلٌ وغيرها؟ فكما خلق الله تعالى الإنسان من هذه القطرة، فإنه أيضًا قادرٌ على أن يُعيدَ خلقه بعد موته.

أحوال القيامة

في الآيات من ٧ إلى ١٥ من السورة جاء أولًا بيان علامات القيامة للمنكرين، يعني: أن البرق سيبرق في ذلك اليوم بحيث يكاد يذهب بالابصار، وسينطفئ نور الشمس والقمر، ثم تقوم الساعة، وعندما يعطون صحائف أعمالهم في أيديهم، ويرون عاقبتهم الوحيدة، يفرون ويهرولون هنا وهناك، ويحاولون اختلاق الأعذار، ولكن لن تنفع الكافر في ذلك اليوم أي حيلة أو عذر؛ لأن أعمال كل إنسان ستكشف أمام الناس جميعًا، وستشهد أعضاؤه بدنه عليه أيضًا.

حفظ القرآن المجيد

في الآيات من ١٦ إلى ١٩ جاء الإعلان عن حفظ القرآن المجيد، يعني: يا أيُّها النبي الحبيب ﷺ، لا تتجشَّم مشقةَ ترديد الوحي سريعاً، وإنما اسمعه بكلِّ اطمئنان، ولا تخشَ من نسيانه؛ لأنَّ جَمَعَ القرآن الكريم حرفاً حرفاً في صدرِكَ المبارك، ثم إجراء تلاوته على لسانِكَ المبارك كما هو تاماً، هو مسئوليتنا نحن، مثلما يقولُ سيِّدنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: «فكان رسولُ الله ﷺ بعدَ ذلك إذا أتاه جبريلُ استمع، فإذا انطلقَ جبريلُ قرأه النبيُّ ﷺ كما قرأ»^(١)، وهكذا حفظ النبيُّ ﷺ القرآن الكريم شفاهةً، وبعدَ ذلك حفظه كثيرٌ من الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم شفاهةً أيضاً بسماعه من رسولِ الله ﷺ، وهذه عظمةٌ مميِّزةٌ لحفظ القرآن المجيد، لا تيسَّرُ لأيِّ كتابٍ آخرَ في الدُّنيا، ولهذا لو حَدَثَ - لا قَدْرَ الله - أنِ اخْتَفَتْ كُلُّ النُّسخِ المكتوبةِ للقرآنِ المجيد من الدُّنيا، فإنه يمكنُ كتابتهُ كاملاً وراءَ طفلٍ في الثامنةِ من عمره يحفظه، بحيث لن يحدثَ فيه أيُّ تغييرٍ ولو في فتحةٍ أو كسرة.

أحوال ميدان الحشر

وبعدَ ذلك جاء بيانٌ لأحوالِ الناس في ميدانِ الحشر، يعني: أنَّ وجوهَ أهل الإيمانِ ستكونُ يومَ القيامةِ وضاءً بفضْلِ حسناتهم، وسيحفظونَ برؤيةِ الله تعالى، بينما يُغطي النَّحْسُ وجوهَ المُنكرينَ بسببِ ذنوبهم، وسيكونونَ في غايةِ الخوفِ والانزعاجِ.

أبو جهل

في الآيات من ٣١ إلى ٣٥ جاء ذِكْرُ سلوكِ أبي جهل ومَقْتَلِه في ذُلٍّ وخِزيٍّ،

(١) البخاري، كتاب بدء الوحي، باب ٤ برقم ٥.

يعني: أنه كان يكذبُ النبيَّ الكريمَ ﷺ ويتكبرُ عليه، فكان عقابه أنه قُتِلَ ذليلاً مَخْزِيًّا يومَ بدر، وسيكونُ ذليلاً ومَخْزِيًّا أيضًا في كلِّ مرحلةٍ من مراحل الآخرة أيضًا.

الفقيرُ إلى الله: محمّد إمداد حُسين بيززاده،
جامعةُ الكرّم، بريطانيا
بعد صلاة العصر من يوم السبت ٢٧ نوفمبر ٢٠١٠ م
الموافق ٢٠ ذي الحجة ١٤٣١ هـ.



سُورَةُ الْقِيَامَةِ (٧٥)،

مكية (٣١)، آياتها (٤٠)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۖ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۚ (١) أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ، بَلَىٰ قَدَرِينَ عَلَىٰ أَنْ تُسَوَّىٰ بَنَانُهُ، (٢) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ، (٣) يَسْتَلْ أَكْبَانَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ (٤) فَإِذَا رَأَىٰ الْبَصَرُ (٥) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٦) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٧) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَتَىٰ الْفَرْجُ (٨) كَلَّا لَا وَزَرَ (٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٠) يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١١) بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٢) وَلَوْ أَلْفَىٰ مَعَادِيرَهُ، (١٣) لَا تَحْرِكْ يَدَهُ لِسَانَكَ لَتَعَجَّلَ بِهِ، (١٤) إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ، وَقَرَأَهُ، (١٥) فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبَعَ قُرْآنَهُ، (١٦) ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا بَيَانُهُ، (١٧) كَلَّا بَلْ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (١٨) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (١٩) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ (٢٠) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ (٢١) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٢) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٣) كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٤) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٥) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٦) وَاللَّفَتِ الْوَسْأَىٰ بِالْوَاقِ (٢٧) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٢٨)

﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾

١ - كان المشركون يعتقدون أن الإنسان عندما يموت يتعفن جسده ويتحلل في التراب والماء والهواء، فكيف يمكن عندئذ إحياءه من جديد؟ فأقسم الله تعالى قَسَمَيْنِ مُؤَكَّدًا على أن اعتقادهم هذا خاطئ تمامًا، فكما خَلَقْنَا الإنسان أول مرة يمكننا خَلْقُهُ من جديد، ونحن قادرون ليس على هذا فقط، وإنما على تهيئة لحمة وجلده

٥٠٢ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

وعظامه من جديد، بل وإصلاح حتى عُقَلَاتِ أَصَابِعِهِ، وستكونُ خطوطُ وَبَصَمَاتِ عُقَلَاتِ أَصَابِعِ كُلِّ إِنْسَانٍ هناك مختلفةً عن الآخرِ كما كانت في الدُّنْيَا تمامًا.

﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾

٢ - هناك ثلاثة أقسام للنفس:

١ - النفسُ الأَمَّارَةُ ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، والمرادُ بها تلك النفسُ التي تأمرُ صاحبها بالسُّوءِ كُلِّ وقتٍ، وَمَنْ يُطِيعُ النَّفْسَ الأَمَّارَةَ بالسُّوءِ سيكونُ عاصيًا وطاغيًا.

٢ - النفسُ اللَّوَّامَةُ ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]، والمرادُ بها: تلك النفسُ التي تَلُومُ صاحبها كُلَّ وقتٍ على تقصيره وِغْفَلَتِهِ، ومن يتدبَّرُ تنبيهَ هذه النفسِ اللَّوَّامَةِ سيَتُوبُ بِصِدْقٍ ويصبحُ مِنَ الصَّالِحِينَ.

٣ - النفسُ المَطمِئِنَّةُ ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧]، والمرادُ بها: تلك النفسُ التي تَطمئنُ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَحُلُّ بِهَا السَّكِينَةَ مِنْهُ، وَمِنْ اصْطَبَحَ بِصِبْغَةِ النَّفْسِ المَطمِئِنَّةِ يَرْضَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ.

﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِفَجَرٍ آمَامَهُ﴾

٣ - في هذه الآية جاء بيانُ سببِ إنكارِ المُنْكَرِينَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، يعني: أَنَّهُمْ أَصْبَحُوا عبيدًا لَشَهَوَاتِهِمْ وَرَغَبَاتِهِمِ النَّفْسَانِيَّةِ، بحيث أَنَّهُمْ يريدونَ أَنْ يَظْلُوا مُبْتَلِينَ مُسْتَقْبَلًا بِالْفَجْرِ وَالْفُحْشِ الَّذِي ظَلُّوا يَرتكبونه من قَبْلُ، وَلَكِنْ إِذَا آمَنُوا بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فسوف يكونُ عليهم التَّحَلِّيُّ عَنْ هَذَا الفَجْرِ مِنْ خَوْفِ الحِسَابِ، وَهُمْ ليسوا على استعدادٍ لذلك.

﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَرْقُ﴾

٤ - يقول مُنْكَرُو القيامة: إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَأَخْبِرْنَا متى يَأْتِينَا يَوْمُ القيامة؟ وهنا بَيَّنَّ اللهُ تعالى ثلاثَ علاماتٍ من علاماتِ يومِ القيامة، يعني: في المرحلة الأولى من القيامة سَيَبْرِقُ البرقُ بحيث يكادُ يذهبُ بالأبصارِ من خوفه، وسينطفئُ نورُ الشمسِ والقمر، وباختصارٍ سينقلبُ كُلُّ نظامِ الكائناتِ رأسًا على عَقَبٍ.

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾

٥ - عِنْدَمَا يَرى مُنْكَرُو القيامةِ مشاهدَها المُرعبةَ سَيَسْأَلُونَ: أَخْبِرُونَا عن مكانٍ يمكننا أَنْ نَهْرُبَ إليه وَنَحْتَمِيَ به، وسيأتيهم صوتٌ يَرُدُّ عليهم قائلًا: لا ملاذَ لكم اليومَ، وليس هناك اليومَ سوى مكانٍ واحدٍ على الجميع الذهابُ إليه، وهو عدالةُ اللهِ تعالى، حيث سيُحاسَبُ كُلُّ إنسانٍ على أعمالِهِ في وجودِهِ وأمامَ عَيْنَيْهِ.

﴿يُبْنَوُا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾

٦ - يَوْمَ القيامةِ سَيُخْبَرُ كُلُّ شَخْصٍ ماذا فَعَلَ من حَسَناتٍ أو سيِّئاتٍ من قَبْلُ لتكونَ له دُخْرًا اليومَ، وماذا خَلَّف وراءه من سُنَّةٍ حَسَنَةٍ أو سيِّئَةٍ.

سلسلة الحَسَناتِ بعد الموت

- يقولُ سَيِّدُنَا أبو هريرة رضي اللهُ عنه: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أو وَلَدٍ صَالِحٍ يدْعُو له»^(١)، فَالْعَمَلانِ الْأَوَّلانِ لِلْمَيِّتِ دَخْلٌ فِيهِمَا، أَمَّا دَعَاءُ الْوَلَدِ فَهُوَ فِعْلٌ خَاصٌّ بِهِ هُوَ، وَمَعَ ذَلِكَ يَنْتَفَعُ بِهِ الْمَيِّتُ.

(١) مسلم، كتاب الوصية، باب ٣ برقم ٤٢٢٣.

- يقول سَيِّدُنَا جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا (أَي: لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَسَّسَ هَذِهِ السُّنَّةَ الْحَسَنَةَ)، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وَزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا (أَي: لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَسَّسَ هَذِهِ السُّنَّةَ السَّيِّئَةَ)، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»^(١).

- يقول سَيِّدُنَا أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ: عِلْمًا عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ، وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَه، وَمُصْحَفًا وَرَّثَهُ أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ أَوْ بَيْتًا لِابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ أَوْ نَهْرًا أَجْرَاهُ أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ، يَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ»^(٢).

﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾

٧- فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ جَاءَ بَيَانُ أَنَّ الْإِنْسَانَ سَيُخْبَرُ بِكُلِّ أَعْمَالِهِ السَّابِقَةِ، وَتُوضَعُ أَمَامَهُ صَحِيفَةُ أَعْمَالِهِ مَكْتُوبًا فِيهَا كُلُّ شَيْءٍ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ جَاءَ بَيَانُ أَنَّ الْإِنْسَانَ أَيْضًا سَيَكُونُ عَلَى عِلْمٍ تَامٍّ بِأَعْمَالِهِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ نَفْسُهُ الَّذِي قَامَ بِهَا.

﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرُهُ﴾

٨- سَيُحَاوَلُ مُنْكَرُو الْقِيَامَةِ يَوْمَهَا اخْتِلَاقَ الْحِيلِ وَالْأَعْدَارِ لِلنَّجَاةِ مِنَ الْعَذَابِ، وَلَكِنْ لَنْ تَنْجَحَ حِيلُهُمْ وَلَنْ تَنْفَعَ أَعْدَارُهُمْ، مِثْلَمَا يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الرُّوم: ٥٧]، يَعْنِي:

(١) مسلم، كتاب العلم، باب ٦ برقم ٦٨٠٠.

(٢) ابن ماجه، كتاب السنة، باب ٢٠ برقم ٢٤٢.

عندما يرى الظالمون مصيرهم السيئ يوم القيامة سيصرون قائلين: لقد أخطأنا، ونحن نتوب الآن، ولهذا ليغفر لنا الله، أو ليمنحنا فرصة أخرى للعودة إلى الحياة الدنيا، ولن نعصيه أبداً، ولكن الوقت حيتئذ يكون قد فات، ولن يُقبل عُذرٌ من معتذرٍ.

في هذه الدنيا أيضاً كل إنسان يعلم جيداً ماذا ارتكب من أفعالٍ قبيحة، ويبحث عن حيلٍ متعدّدة ليخدع بها الناس، ولكن لن تنجح حيلة يوم القيامة؛ لأن أعمال كل إنسان سيتم كشفها أمام الجميع، وستشهد على الإنسان أعضاؤه بذلك.

﴿لَا تَحْرِكْ يَدَكَ لِلسَّانِكِ لَتَعَجَلَ بِهِ﴾

٩ - عندما كان الوحي ينزل في البداية، وبيداً سيّدنا جبريل عليه السلام في قراءة الكلام الإلهي، فإن النبي ﷺ كان يُحرّك لسانه بسرعة، ويقرأ مع سيّدنا جبريل الأمين عليه السلام، حتى يتمكن من حفظ كل ما يقول من وحي، ولا يفوته منه شيء، ولكن سماع الوحي، وفهمه، وترديده على الفور، أعمال ثلاثة يكون القيام بها في وقت واحد أمراً موهقاً للغاية، ولهذا أنزل الله تعالى هذه الآية، يعني: يا أيها النبي الحبيب ﷺ، لا تتجشّم مشقة ترديد الوحي سريعاً، وإنما اسمعه بكلّ اطمئنان، ولا تخش من نسيانه؛ لأنّ جمع القرآن الكريم حرفاً حرفاً في صدرك المبارك، ثم إجراء تلاوته على لسانك المبارك كما هو تماماً، هو مسئوليتنا نحن، مثلما يقول سيّدنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: «فكان رسولُ الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريلُ استمع، فإذا انطلق جبريلُ قرأه النبي ﷺ كما قرأ»^(١).

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾

١٠ - يُعَلِّمُ من هذه الآية أنه كما أنَّ ألفاظ القرآن الكريم وَحْيٌ من الله تعالى، كذلك بيان القرآن المَجِيد وَحْيٌ من الله تعالى أيضًا، وهو الذي نقولُ له: «الحديث»، فهذا أيضًا إلهامٌ من الله تعالى، ولهذا ينبغي الإيمانُ به مثل القرآن، فإذا لم نؤمن بالحديث سيُصْبِحُ العملُ بالقرآن في غاية الصُّعوبة، وعلى سبيل المثال: نجدُ أحكام الصلاة والحج في القرآن الكريم، ولكنَّ التعرفَ على طريقة أدائها يستحيلُ بغير الحديث.

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾

١١ - في هذه الآية تنبيهٌ لمُنْكَرِي القيامة بأنه ليس لديكم أيُّ دليلٍ مطلقًا على إنكار القيامة، وإنما أنتم الذين تَعْتَبِرُونَ الحياة الدنيا هي كلُّ شيء، وتُحِبُّونَهَا كثيرًا؛ لأنَّ أَجَرَ كلِّ عملٍ فيها يتحقَّقُ سريعًا، وتتركون الآخرة؛ لأنه لا يزالُ أمامها وقتٌ طويلٌ حتى تأتي، والإنسانُ بصفةٍ عامة متعجِّلٌ، لكنه لا يُفَكِّرُ ماذا يمكنُ أن يكونَ مصيرُ هذه التَّعَجُّلِ؟

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾

١٢ - الذين يَتَّقُونَ الله تعالى في الدنيا، ولا يرتكبون من الأعمال ما يكونُ سببًا في عصيانِ الله تعالى، ستكونُ وجوههم نَصْرَةً مُتَفَتِّحَةً يومَ القيامة، وسيكونُ الله تعالى راضيًا عنهم، وسيحظونَ برؤية الله تعالى.

رؤية الله تعالى

- يقولُ سيِّدُنَا صُهِيبٌ رضي الله عنه: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ

الجنة - قال - يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيضن وجوهنا، ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل^(١).

- يقول سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: إن النبي ﷺ قال: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسريره مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَجْهٌ يُؤَمِّدُ نَاصِرَةٌ﴾ إلى ربها نظرة^(٢).

- يقول سيدنا جرير بن عبد الله رضي الله عنه: كنا عند النبي ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة - يعني: البدر - فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته»^(٣).

- يقول سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه: إن النبي ﷺ قال: «تضامون في رؤية القمر ليلة البدر، وتضامون في رؤية الشمس؟». قالوا: لا. قال: «فإنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، لا تضامون في رؤيته»^(٤).

﴿تَنْظُرُونَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾

١٣ - الذين لا يؤمنون بالله تعالى، ويضيعون حياتهم في عصيانه، سيُعْمَ وجوههم يوم القيامة الحزن والقلق، وسيؤكدون أنهم سيُعذبون عذاباً يقصم ظهورهم.

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٨٠ برقم ٤٤٩.

(٢) الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب رقم ١٧ برقم ٢٥٥٣.

(٣) البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب ١٦ برقم ٥٥٤.

(٤) الترمذي، صفة الجنة، باب ١٧ برقم ٢٥٥٤.

﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾

١٤ - يَظُنُّ مُنْكَرُ الْقِيَامَةِ أَنَّهُمْ عِنْدَمَا يَمُوتُونَ وَيَصِيرُونَ تَرَابًا، كَيْفَ سَيَذْهَبُونَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى؟ وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ إِبْطَالٌ لِمَا يَظُنُّونَهُ، يَعْنِي: لَيْسَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ تُفْلِتُوا مِنَ الْوُقُوفِ فِي مِيدَانِ الْحَشْرِ أَوْ مِنَ الْعِقَابِ عَلَى أَفْعَالِكُمُ الْقَبِيحَةِ، وَكَمَا أَنَّهُ إِذَا وَصَلَتْ أَرْوَاحُكُمْ إِلَى حُلُقُومِكُمْ عِنْدَ الْمَوْتِ، لَا يَسْتَطِيعُ طَبِيبٌ أَوْ دَجَالٌ أَنْ يَمْنَعَهَا مِنَ الْخُرُوجِ، كَذَلِكَ إِذَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مَنَعَ مَجِيئَهَا.

﴿وَلَقَدْ أَنذَرْنَاكَ﴾

١٥ - عِنْدَمَا لَا تَنْفَعُ كُلَّ حِيلِ الدُّنْيَا وَيَبْطُلُ مَفْعُولُهَا، يَتَيَقَّنُ الْإِنْسَانُ عِنْدَئِذٍ مِنْ أَنَّ سَاعَةَ مَفَارِقَتِهِ لِلدُّنْيَا قَدْ حَانَتْ، وَيَصْبِحُ عَاجِزًا لَا حِيلَةَ لَهُ، بَحِثُ إِذَا التَّصَقَّتْ إِحْدَى سَاقِيهِ بِالْآخَرَى لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُحَرِّكَهَا بَعِيدًا لِيَفْصَلَ بَيْنَهُمَا.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾

١٦ - سَيَكُونُ عَلَى كُلِّ شَخْصٍ أَنْ يَمَثُلَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَكِنَّ الْمَحْطَةَ الْأُولَى فِي هَذَا هِيَ الْمَوْتُ؛ لِأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَمُتْ فَكَيْفَ يَحْيَا مِنْ جَدِيدٍ؟ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ﴿٣١﴾ وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَمَاطِي ﴿٣٣﴾ أَوَّلَ لَكَ فَأَوَّلَ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوَّلَ لَكَ فَأَوَّلَ ﴿٣٥﴾ أَيْخَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُنْ نَظْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عُلُقَةً فَمَلَاقَ فَسَوَىٰ ﴿٣٨﴾ جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدْرِ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾

١٧ - هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي أَبِي جَهْلٍ، مِثْلَمَا يَقُولُ سَيِّدُنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَي: لَمْ يُصَدِّقْ أَبُو جَهْلٍ بِالرِّسَالَةِ وَلَمْ يُصَلِّ»^(١)، بَلْ إِنَّهُ عِنْدَمَا

كان النبي ﷺ يدعو الناس إلى الإسلام، كان أبو جهل يأتي إليه ليُكذِّبه، ويظهر كراهيته للقرآن المجيد، وحين ينتهي المجلس كان أبو جهل يعود إلى بيته مُتَبَخِّرًا وسعيدًا بأنه أدَّى حقَّ إفشال دعوة النبي ﷺ.

﴿أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ﴾

١٨ - في هاتين الآيتين جاء الوعيد إلى أبي جهل بأنه إن لم يرجع عن طغيانه، فسيكون حاله في غاية السوء، سواء عند الموت، أم في القبر، أم في الحشر أم في جهنم. وقد نقل العلامة القرطبي هذا القول بأن «رسول الله ﷺ خرج من المسجد ذات يوم، فاستقبله أبو جهل على باب المسجد، ممًا يلي باب بني مخزوم، فأخذ رسول الله ﷺ بيده، فهزه مرة أو مرتين ثم قال: ﴿أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ﴾ فقال له أبو جهل: أتهددني؟ فوالله، إني لأعزُّ أهل الوادي وأكرمهم. ونزل على رسول الله ﷺ كما قال لأبي جهل»^(١).

ويقول سيدنا قتادة رضي الله عنه: «أقبل أبو جهل بن هشام يتبختر، فأخذ النبي ﷺ بيده فقال: ﴿أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ﴾ ثمَّ أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ». فقال: ما تستطيع أنت ولا ربك لي شيئًا، إني لأعزُّ من بين جَبَلِيهَا. فلما كان يوم بدرٍ أشرف على المسلمين فقال: لا يُعبدُ الله بعد هذا اليوم أبدًا. فضرب الله عنقه، وقتله شرَّ قتلة»^(٢).

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾

١٩ - هل يظنُّ الإنسان أنَّ الله خلقه وجعله أشرف المخلوقات وتَرَكَه هكذا عبثًا؟ بالقطع لا، فلقد جعل الإنسان مسئولًا في هذه الدنيا عن حقوق الله وحقوق

(١) تفسير القرطبي، سورة القيامة (٧٥): الآية ٣٤.

(٢) المرجع السابق، سورة القيامة (٧٥): الآية ٣٤.

العباد، وسوف يُسأل في الآخرة عن هذه المسؤوليات، مثلما يقول سيّدنا عبدُ الله بنُ عمر رضي الله عنهما: إنه سَمِعَ رسولَ الله ﷺ يقول: «كلُّكم راع، وكلُّكم مسئولٌ عن رعيّته، الإمامُ راع ومُسئولٌ عن رعيّته، والرَّجلُ راع في أهله وهو مسئولٌ عن رعيّته، والمرأةُ راعيةٌ في بيت زوجها ومسئولةٌ عن رعيّتها، والخادمُ راع في مال سيّده ومسئولٌ عن رعيّته - قال: وحسبتُ أن قد قال - والرَّجلُ راع في مال أبيه ومسئولٌ عن رعيّته، وكلُّكم راع ومسئولٌ عن رعيّته»^(١).

وقد جاء هذا المفهومُ قبلَ ذلك في سورة «المؤمنون»، حيث يقول الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، يعني: أن الله تعالى لم يخلق ولو ذرّةً واحدةً عبثًا، فكيف يُعقلُ أن يخلق الله تعالى أشرفَ المخلوقاتِ السيّدَ الإنسانَ هكذا عبثًا وبلا هدف؟ لقد أعطى الله تعالى الإنسانَ مقدّراتٍ عظيمةً مثل: العقل والفهم، والتي يُسخرُ من خلالها كلّ الأحياء ويخضعها له، ولهذا سوف يُسألُ الإنسانُ عن كلّ هذه النعم العظيمة.

﴿الَّذِي يُنْفِثُ مِنْ مِّمِّي يُمْنَى﴾

٢٠ - في هذه الآياتِ دعوةٌ فكريّةٌ لمُنكري القيامة؛ ألم يفكروا أبدًا ماذا كانت حقيقتهم؟ مجردَ قطرةٍ ماءٍ عاديةٍ وضعت في رَحِمِ الأمِّ، ثم خلق الله منها مُضغّةً، ومنها خلق الله تعالى أعضاءَ الإنسانِ المختلفة، يعني: خلق منها العينَ واليدَ والقَدَمَ والقلبَ والعقلَ والدّهَنَ وغيرها، ووضعها في مكانها الصحيح، فجعل منها الإنسانَ الذي يحكمُ اليومَ كلّ الكائنات، ثم إنه أودع في هذه القطرة من الماءِ إمكانيةً أن يكونَ منها رجلٌ، وأن يكونَ منها امرأةٌ أيضًا، وذلك حتى يتواصلَ النسلُ الإنسانيُّ،

وبالتالي أليس الله تعالى الذي خَلَقَ مِثْلَ هذا الإنسانِ العظيم من قَطْرَةِ الماءِ العاديّةِ هذه، بقادرٍ على أن يَخْلُقَ مِثْلَ هذا الإنسانِ بعدَ موْتِهِ؟ بلا شكّ، الله تعالى قادرٌ على كلّ هذا، ولن يستطيع المُنْكَرُونَ جميعًا إنكارَ هذه الحقيقةِ يومَ القيامةِ.

الفقيه إلى الله: محمّد إمداد حُسين بيززاده،

جامعة الكرم، بريطانيا

بعد صلاة العصر من يوم الثلاثاء ٣٠ نوفمبر ٢٠١٠م

الموافق ٢٣ ذي الحجة ١٤٣١هـ.

هذا، وقد اكتملَ بِفَضْلِ الله تعالى وكرَمِهِ تفسيرُ سُورَةِ «القيامة» في ثلاثةِ أيامٍ فقط، أي: من ٢٧ إلى ٣٠ نوفمبر، والحمدُ لله ربّ العالمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّد المرسلين، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ أجمعين.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٦) سُورَةُ الْإِنشَانِ

هذه السُّورة مَكِّيَّة، ولها اسمان؛ «الدَّهْرُ» و«الإنسان»، وكلاهما مأخوذٌ من الآية الأولى منها، وهناك اختلافٌ حولَ زمنِ نزولِ هذه السُّورة، فيرى البعض أنها مَدَنِيَّةٌ، ويرى البعض الآخر أن بعض آياتها مَكِّيَّةٌ، وبعضها مَدَنِيَّةٌ، بينما يرى جمهورُ العلماء أنها مَكِّيَّةٌ^(١).

حقيقة الإنسان

في بداية هذه السُّورة تذكيرٌ للإنسان بحقيقته، يعني: يا أيُّها الإنسان، يا مَنْ أنت أشرفُ المخلوقاتِ، وتحكُمُها جميعاً، إنك لم تكن هكذا دائماً، بل ولم تكن شيئاً من قبلُ، ثم كانت بدايتُك بنُطفةٍ مختلطةٍ من الأبِ والأمِّ، ثم أنعمتُ عليك بقُدرةٍ خاصّةٍ على السَّمعِ والرُّؤية بقصدِ ابتلائك، وذلك حتى تسمعَ الدلائلَ، وترى آياتِ القُدرةِ الإلهيَّةِ، فتؤمنَ بالله تعالى، وتكونَ له عبداً شكوراً.

صفات الصالحين

في الآياتِ من ٧ إلى ٩ جاء بيانُ صفاتِ الصَّالحينَ، يعني: أنَّهم يُوفُونَ نذورَهم،

(١) «وهي مكية عند الجمهور» تفسير روح المعاني.

٥١٤ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

وَيَخْشَوْنَ اللَّهَ تَعَالَى فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيُطْعَمُونَ الْمَسَاكِينَ وَالْيَتَامَى وَالْأَسْرَى إِرْضَاءً لِلَّهِ تَعَالَى.

الأجر العظيم للصالحين

في الآيات من ١٠ إلى ٢٢ جاء ذِكْرُ الأَجْرِ العظيم للصَّالِحِينَ، يعني: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيُنْجِيهِمْ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ يَسْتَمْتَعُونَ فِيهَا بِنِعَمِ اللَّهِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَهُوَ مَا سَيَأْتِي الْحَدِيثُ عَنْهُ تَفْصِيلاً فِي الْآيَاتِ الْمَشَارِ إِلَيْهَا.

القرآن المجيد نصيحة كله

في نهاية السُّورَةِ جاء بَيَانُ أَهْمِيَّةِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بِأَنَّهُ نَصِيحَةٌ كُلُّهُ، وَفِيهِ تَوْضِيحٌ كَامِلٌ لَطُرُقِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، كَمَا جَاءَ فِيهِ بَيَانٌ لِلْمَصِيرِ السَّيِّئِ الَّذِي سَيَلْقَاهُ الَّذِينَ انْحَرَفُوا عَنْ طَرِيقِ رَبِّهِمْ، وَلِهَذَا لِيَخْتَرُ مَنْ شَاءَ مِنْكُمْ الطَّرِيقَ الَّذِي يَنْتَهِي بِهِ إِلَى رِضَا رَبِّهِ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيَخْتَرِ الطَّرِيقَ الَّذِي يَنْتَهِي بِهِ إِلَى جَهَنَّمَ.

الفقيه إلى الله: محمّد إمداد حسين بيرزاده،

جامعة الكرم، بريطانيا

بعد صلاة العشاء من يوم الثلاثاء ٣٠ نوفمبر ٢٠١٠م

الموافق ٢٣ ذي الحجة ١٤٣١هـ.



سُورَةُ الْإِنْسَانِ (٧٦)،

مكية (٩٨)، آياتها (٣١)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِّنْ نُطْفَةٍ
 أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾
 إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِّنْ كَأْسٍ
 كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ
 يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَاجِهٍ
 اللَّهُ لَا نُزِيدُكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَّعْنَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ
 وَلَقَّهْمُ نَصْرَهُ وَشُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ
 فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَقْدَامُهُمْ ثَانِيَةً مِّنْ فَضْلِهِ
 وَأَكْوَابٍ كَانَتْ فَوَارِيرًا ﴿١٤﴾ فَوَارِيرًا مِّنْ فَضْلِهِ قَدَرُوا مَنَاقِدِيرًا ﴿١٥﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٦﴾
 عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِلًا ﴿١٧﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنشُورًا ﴿١٨﴾ وَإِذَا
 رَأَيْتَ ثَمَرًا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُورٌ أَسْوَدٌ مِّنْ فَضْلِهِ
 وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴿٢١﴾

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾

١ - نقل العلامة القرطبي في تفسير هذه الآية قولاً هو: «الإنسان في قوله تعالى

﴿هَذَا أَنَّى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ﴾ عُنِيَ بِهِ الْجِنْسُ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ، وَأَنَّ الْحِينَ: تِسْعَةُ أَشْهُرٍ، مَدَّةُ حَمْلِ الْإِنْسَانِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ^(١)، يَعْنِي: أَنَّ الْإِنْسَانَ كَانَ مَعْدُومًا قَبْلَ اسْتِقْرَارِهِ حَمْلًا فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَلِهَذَا لَا تَكُونُ هُنَاكَ حَاجَةٌ أَصْلًا إِلَى ذِكْرِهِ، لَكِنْ بَعْدَ أَنْ يَسْتَقَرَّ الْحَمْلُ فِي بَطْنِ الْأُمِّ، تَكُونُ هُنَاكَ فِتْرَةٌ تِسْعَةُ أَشْهُرٍ لَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ فِيهَا شَيْئًا يَسْتَحِقُّ الذِّكْرَ، رَغْمَ أَنَّ الْمَرْحَلَةَ الْأُولَى مِنْ وَجُودِهِ تَكُونُ قَدْ بَدَأَتْ، فِيهِ الْبَدَايَةُ نُطْفَةً، ثُمَّ عَلَقَةً، ثُمَّ مُضْغَةً، وَهَكَذَا تَتَبَدَّلُ مَرَاحِلُ خَلْقِهِ تَدْرِيجِيًّا، وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ كَيْفَ سَتَكُونُ عَيْنَاهُ أَوْ أَنْفُهُ؟ كَيْفَ سَيَكُونُ عَقْلُهُ وَسُلُوكُهُ؟ وَهَلْ سَيَنْفَعُ وَطَنُهُ بَعْدَ مَوْلِدِهِ أَمْ سَيَكُونُ سَبَبًا فِي تَشْوِيهِ سُمْعَتِهِ؟ فَهَذِهِ فِتْرَةٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ فِيهَا شَيْءٌ حَتْمِيٌّ أَوْ قَاطِعٌ أَوْ حَتَّى يَسْتَحِقُّ الذِّكْرَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ تَنْبِيهٌُ لِلْإِنْسَانِ بِأَنَّهُ عِنْدَمَا يُولَدُ فِي صُورَةِ إِنْسَانٍ مُكْتَمِلٍ حَسَنِ الصُّورَةِ، عَلَيْهِ أَنْ يَتَذَكَّرَ أَيْضًا حَقِيقَةَ أَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ نُطْفَةٍ وَعَلَقَةٍ، وَيَنْبَغِي عَلَيْهِ أَلَّا يَنْسِيَ اللَّهَ تَعَالَى الَّذِي خَلَقَهُ إِنْسَانًا مُكْتَمَلًا.

﴿وَنَا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾

٢ - لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ مَخْتَلِطَةٍ مِنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ، وَقَصَدْنَا بِخَلْقِهِ ابْتِلَاءَهُ، وَلِهَذَا أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ بِقُدْرَةٍ خَاصَّةٍ عَلَى السَّمْعِ وَالرُّؤْيَا، حَتَّى يَسْتَمَعَ إِلَى الدَّلَائِلِ، وَيُشَاهِدَ آيَاتِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ الْقَرَارَ الصَّحِيحَ. وَقَدْ جَاءَ بَيَانُ هَذَا الْمَفْهُومِ فِي سُورَةِ الْمُلْكِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]، يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ كُلَّيْهِمَا حَتَّى يَبْتَلِيَكُمْ وَيَخْتَبِرَكُمْ؛ مِنْ مِّنْكُمْ يَعْمَلُ الصَّالِحَاتِ، وَمِنْ مِّنْكُمْ غَيْرُ ذَلِكَ، وَاللَّهُ تَعَالَى

عَالِمُ الْغَيْبِ، وَيَعْلَمُ تَمَامَ الْعِلْمِ أَعْمَالَ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْذُ الْأَزَلِّ، وَلَكِنَّ الْهَدَفَ مِنَ الْإِبْتِلَاءِ هُوَ أَنْ يَعْرِفَ الْآخَرُونَ مِنَ النَّاسِ أَعْمَالَ هَذَا الْإِنْسَانِ، وَلَا يَعْتَرِضَ أَحَدٌ عِنْدَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ.

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾

٣ - لقد أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ بِالْمَقْدِرَةِ عَلَى السَّمْعِ وَالرُّؤْيَا، وهما الوسيلةُ الأساسيةُ والهامةُ في تحصيلِ الْعِلْمِ، وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِ الْأَنْبِيَاءَ الْكَرَامَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لَهْدَايَتِهِ إِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ، وَقَدْ أَوْضَحُوا لَهُ طَرِيقَيِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ بِالْفِعْلِ، كَمَا أَخْبَرُوهُ كَذَلِكَ بِالْعَاقِبَةِ وَالْمَصِيرِ، بِأَنَّهُ لَوْ اخْتَارَ طَرِيقَ الْحَقِّ سَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ اخْتَارَ طَرِيقَ الْبَاطِلِ سَيَدْخُلُ جَهَنَّمَ. وبالتالي فَإِنَّ الْقَرَارَ بِيَدِ الْإِنْسَانِ، إِنْ شَاءَ أَطَاعَ الْحَقَّ وَأَصْبَحَ مِنَ الشَّاكِرِينَ، وَإِنْ شَاءَ أَطَاعَ الْبَاطِلَ وَأَصْبَحَ مِنَ الْجَا حِدِينَ.

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾

٤ - الَّذِينَ اخْتَارُوا طَرِيقَ الْبَاطِلِ عَامِدِينَ، وَأَضَاعُوا حَيَاتَهُمْ فِي جُحُودِ اللَّهِ تَعَالَى، تَنْتَظِرُهُمُ السَّلَاسِلُ وَالْأَغْلَالُ وَنَارُ جَهَنَّمَ، وَمَا أَنْ يَفْرُغُوا مِنْ مِيزَانِ الْعَدْلِ، حَتَّى يَتِمَّ تَقْيِيدُهُمْ فِي السَّلَاسِلِ، وَيُلْقَى بِهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾

٥ - سَيُقَدَّمُ لِلصَّالِحِينَ فِي الْجَنَّةِ شَرَابٌ مَمْزُوجٌ بِمَاءٍ مِنْ عَيْنِ الْكَافُورِ، وَتَفُوحُ مِنْ هَذَا الشَّرَابِ رَائِحَةٌ مِثْلُ رَائِحَةِ الْكَافُورِ.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾

٦ - فِي الْجَنَّةِ عَيْنٌ يُقَالُ لَهَا: كَافُورٌ، وَمَاؤُهَا أَبْيَضُ اللَّوْنِ كَالْكَافُورِ، وَتَفُوحُ

منه رائحة الكافور، وطعمه لذيذ للغاية، وقد أجرى الله تعالى هذه العينَ لعباده في الجنة، وحيثما يريدون ستكون مياه هذه العين حاضرة أمامهم، مثلما أن الفاكهة التي يرغب أهل الجنة في تناولها ستتدلى أمامهم وتقترب منهم، ولحم الطير الذي يريدون تناوله، سيأتيهم مشويًا أمامهم.

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾

٧- في هذه الآيات جاء بيان لبعض صفات العباد الصالحين، والتي يستحقون بفضلها الجنة، وأول صفة من هذه الصفات هي: أنهم عندما يندرون نذرًا يوفون به.

تعريف النذر

النذر يقال للشيء الجائر الذي يلزم أحد به نفسه ولم تلزمه به الشريعة، على سبيل المثال: لو قال شخص: إنني سأصدق بمبلغ كذا، أو سأفعل الحسنة كذا إرضاءً لله تعالى، أو قال: إذا تحقّق العمل كذا لي، أو إذا سرّ الله لي المشكلة كذا سأصدق بكذا في سبيل الله تعالى، أو سأفعل العمل الصالح كذا، فهذا هو النذر، ومن الضروري الوفاء به.

شروط النذر

- أن لا يندّر شيئاً ألزمه الله تعالى به من قبل، مثلاً: لو قال شخص: إذا تحقّق العمل كذا لي سأصلي الفجر، أو سأؤدّي الزكاة، فهذا النذر لغو؛ لأن الصلاة والزكاة مفروضتان أصلاً، وعليه أن يؤدّيها في كل صورة من الصور.

- أن يندّر شيئاً حلالاً وجائزاً، أما إذا نذر شيئاً غير جائز أو فيه معصية، فعليه أن يتوب منه، وأن لا يفي به، وإنما يحنث في يمينه، ثم يؤدّي الكفارة، وللتعرّف

على كفارة اليمين راجع الحاشية رقم ٢ للآية رقم ٢ من سورة التحريم (٦٦).
- تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: إن النبي ﷺ قال: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعه (أي: يوفِ بِنَذْرِهِ)، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلَا يَعْصِهِ (أي: لَا يوفِ بِنَذْرِهِ)»^(١).

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾

٨ - الصفة الثانية من صفات الصالحين هي: أنهم يخافون من يوم القيامة، ذلك اليوم الذي سيكون الخوف والشر فيه منتشرين في كل اتجاه، وسوف يجير الله تعالى من هذا الشر أولئك الذين يخافون من شر ذلك اليوم، ولا يعصون الله تعالى.

﴿وَيُطْعَمُونَ الْطَعَامَ عَلَى حُبِّهِ، مُسْكِنًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾

٩ - الصفة الثالثة من صفات الصالحين: أنهم إذا سألهم مسكين أو يتيم أو أسير طعامًا، فإنهم يؤثرونهم على أنفسهم، حتى وإن كانوا هم أنفسهم في حاجة إلى هذا الطعام، فيطعمونهم، ويقولون لهم: إننا لا نحسن إليكم بغرض أن تقدّموا لنا عوضًا عنه، أو أن تشكرونا، وإنما نحن نطعمكم إرضاءً لله تعالى فقط.

أفضل الصدقات

- يقول سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجرًا؟ قال: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَاحِبُ شَيْءٍ، تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمَلُ الْغِنَى، وَلَا تُمَهِّلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا، وَلِفُلَانٍ كَذَا، وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ»^(٢).

- يقول سيدنا أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: إن النبي ﷺ قال: «أَيُّمَا مُسْلِمٍ

(١) البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب ٢٨ برقم ٦٦٩٦.

(٢) البخاري، كتاب الزكاة، باب ١١ برقم ١٤١٩.

٥٢٠ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

كَسَا مُسْلِمًا ثَوْبًا عَلَى عُزْيٍ كَسَاهُ اللَّهُ مِنْ خُضْرِ الْجَنَّةِ، وَأَيُّمَا مُسْلِمٍ أَطْعَمَ مُسْلِمًا عَلَى جُوعٍ أَطْعَمَهُ اللَّهُ مِنْ ثَمَارِ الْجَنَّةِ، وَأَيُّمَا مُسْلِمٍ سَقَى مُسْلِمًا عَلَى ظَمٍّ سَقَاهُ اللَّهُ مِنَ الرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ»^(١).

المسكين

- يَقُولُ سَيِّدُنَا أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمَسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوَالْقَائِمِ اللَّيْلِ الصَّائِمِ النَّهَارِ»^(٢).

- جَاءَ فِي الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ أَنَّ سَيِّدَنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ «كَانَ لَا يَأْكُلُ وَحْدَهُ، فَإِذَا حَضَرَ طَعَامُهُ أَرْسَلَ يَطْلُبُ مَنْ يَأْكُلُ مَعَهُ، فَلَقِيَ يَوْمًا رَجُلًا، فَلَمَّا جَلَسَ مَعَهُ عَلَى الطَّعَامِ، قَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: سَمَّيْتُ اللَّهَ، قَالَ الرَّجُلُ: لَا أَدْرِي مَا اللَّهُ؟ فَقَالَ لَهُ: فَاخْرُجْ عَنْ طَعَامِي، فَلَمَّا خَرَجَ نَزَلَ إِلَيْهِ جِبْرِيلُ فَقَالَ لَهُ: يَقُولُ اللَّهُ: إِنَّهُ يَرْزُقُهُ عَلَى كُفْرِهِ مَدَى عُمُرِهِ، وَأَنْتَ بَخِلْتَ عَلَيْهِ بِلُقْمَةٍ؟ فَخَرَجَ إِبْرَاهِيمُ فَرِعَا يَجُرُّ رِدَاءَهُ، وَقَالَ: ارْجِعْ، فَقَالَ: لَا أَرْجِعُ حَتَّى تُخْبِرَنِي لِمَ تُرْذَنِي لَغَيْرٍ مَعْنَى؟ فَأَخْبَرَهُ بِالْأَمْرِ، فَقَالَ: هَذَا رَبُّكَ كَرِيمٌ، آمَنْتُ، وَدَخَلَ وَسَمَّى اللَّهَ وَأَكَلَ مَوْمَنَا»^(٣).

- رُوِيَ عَنْ سَيِّدِنَا أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَوْحَى اللَّهُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ: يَا خَلِيلِي، حَسَنَ خُلُقِكَ، وَلَوْ مَعَ الْكَافِرِ، تَدْخُلُ مُدْخَلَ الْأَبْرَارِ، فَإِنَّ كَلِمَتِي سَبَقَتْ لِمَنْ حَسَنَ خُلُقُهُ أَنْ أُظْلَهُ تَحْتَ عَرْشِي، وَأَنْ أَسْقِيَهُ مِنْ حَظِيرَةِ قُدْسِي، وَأَنْ أُدْنِيَهُ مِنْ جِوَارِي»^(٤).

(١) أَبُو دَاوُدَ، كِتَابُ الزَّكَاةِ، بَابُ ٤١ بِرَقْم ١٦٨٢.

(٢) الْبُخَارِيُّ، كِتَابُ النِّفَقَاتِ، بَابُ ١ بِرَقْم ٥٣٥٣.

(٣) تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ، سُورَةُ هُودَ (١١): الْآيَةُ ٦٩.

(٤) الْمَعْجَمُ الْأَوْسَطُ، الْإِمَامُ الطَّبْرَانِيُّ، ٧: ٢٦١ بِرَقْم ٦٥٠٢، وَالتَّرْغِيبُ وَالتَّرْهِيْبُ، ٣: ٤٠٧،

التَّرْغِيبُ فِي الْخُلُقِ الْحَسَنِ.

اليتيم

- يقول سيّدنا أبو أمامة رضي الله عنه: إنّ النبي ﷺ قال: «مَنْ مَسَحَ رَأْسَ يَتِيمٍ لَمْ يَمْسَحْهُ إِلَّا اللَّهُ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ مَرَّتْ عَلَيْهَا يَدُهُ حَسَنَاتٌ، وَمَنْ أَحْسَنَ إِلَى يَتِيمَةٍ أَوْ يَتِيمٍ عِنْدَهُ كُنْتُ أَنَا وَهُوَ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ» وَفَرَّقَ بَيْنَ أَصْبَعَيْهِ: السَّبَابَةَ وَالْوُسْطَى^(١).

الأسير

نَقَلَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ حَدِيثًا عَنْ سَيِّدِنَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ فِيهِ «كَانَ أُسْرَاؤُهُمْ يَوْمَئِذٍ (أَي: فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ) مُشْرِكِينَ. وَيَشْهَدُ لِهَذَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ أَصْحَابَهُ يَوْمَ بَدْرٍ أَنْ يُكْرِمُوا الْأُسَارَى، فَكَانُوا يُقَدِّمُونَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ عِنْدَ الْغَدَاءِ»^(٢).

﴿فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾

١٠ - لِأَنَّ الصَّالِحِينَ كَانُوا يَخَافُونَ اللَّهَ تَعَالَى مِنْ أَجْلِ قَسْوَةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَمْ يَكُونُوا يَعِصُونَهُ، لِهَذَا سَيُنْجِيهِمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ شَرِّ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمِنْ خَوْفِهِ، وَسَتَكُونُ وَجُوهُهُمْ نَضْرَةً مُسْتَبْشِرَةً بِسَبَبِ هَذِهِ الْفَرَحَةِ.

﴿وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾

١١ - صَبَرَ الصَّالِحُونَ عَلَى كُلِّ الْمَصَاعِبِ الَّتِي وَاجَهْتَهُمْ فِي طَرِيقِ الدِّينِ، وَتَبَتُوا عَلَى دِينِهِمْ، وَسَيُثَبِّتُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى هَذَا بِإِدْخَالِهِمُ الْجَنَّةَ، وَإِلْبَاسِهِمُ الْحَرِيرَ فِيهَا.

(١) مسند أحمد، ٥: ٢٥٠.

(٢) تفسير ابن كثير، سورة الإنسان (٧٦): الآية ٨.

﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾

١٢ - سوف يجلس الصالحون في الجنة على أسرة مذهبة متكئين عليها، وليس في الجنة حر ولا برد، وإنما طقس معتدل لطيف.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَذِيلًا﴾

١٣ - رغم أن الجنة لن يكون فيها شمس، لكن سيكون فيها نور القدرة الإلهية، وإذا رغب أحد من أهل الجنة في ظل، ستكون الأشجار منتظرة على أهبه الاستعداد لتلقي أمر أهل الجنة بالتظليل عليهم، كما أن قُطُوف الفاكهة والثمار أيضًا ستكون في انتظار إشارة من أهل الجنة، وما أن يرغب أهل الجنة فيها حتى تتدلى أمامهم وتقرب منهم.

- يقول سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «تدنو الشجرة حتى يجتنبها ولي الله إن شاء قائمًا وإن شاء قاعدًا وإن شاء مضطجعًا، لا يزدُّ يده بُعد ولا شوك»^(١).

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾

١٤ - جاء ذكر آنية الذهب في الآية رقم ٧١ من سورة الزخرف (٤٣)، وهنا جاء ذكر آنية الفضة، ويُعلم منه أن الطعام سيُقدَّم لأهل الجنة في آنية من الذهب أحيانًا، وأحيانًا أخرى في آنية من الفضة.

﴿قَوَارِيرًا مِّن فِضَّةٍ قَدَرُهَا نَقِيرًا﴾

١٥ - القوارير والأكواب التي سيُقدَّم فيها الشراب الطهور لأهل الجنة ستكون مصنوعة من الفضة، وسيكون الخدم الذين سيُقدِّمون لهم الشراب على

قَدْرٍ كَبِيرٍ مِنَ الْفِطْنَةِ وَالْمَعْرِفَةِ بِطَبَائِعِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، بِحَيْثُ يَضَعُونَ فِي كَأْسٍ كُلِّ فَرْدٍ فِيهَا بِقَدْرِ مَا يَرْغَبُ وَيُحِبُّ.

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾

١٦ - سَيُقَدَّمُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ مَشْرُوبَاتٌ مُخْتَلِفَةٌ فِي أَوْقَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، مِثْلَمَا جَاءَ فِي الْآيَةِ رَقْم ٥ مِنَ السُّورَةِ، بِأَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ سَيَشْرَبُونَ كُؤُوسًا مِنَ الشَّرَابِ مَمْزُوجَةً بِالْكَافُورِ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ جَاءَ أَنَّ هُمْ سَيُسْقَوْنَ كُؤُوسًا مَمْتَرِجَةً بِالزَّنْجَبِيلِ، يَعْنِي: أَنَّ الشَّرَابَ فِي هَذِهِ الْكُؤُوسِ سَيَكُونُ مَمْزُوجًا بِمَاءٍ مِنْ عَيْنِ الزَّنْجَبِيلِ، فَيَفُوحُ مِنْهُ رَائِحَةُ الزَّنْجَبِيلِ، لَكِنَّ طَعْمَهُ سَيَكُونُ لَذِيذًا لِلْغَايَةِ، وَالزَّنْجَبِيلُ: عَيْنٌ فِي الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهَا: السَّلْسِيلُ.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا﴾

١٧ - الْفِتْيَانُ الَّذِينَ يَطُوفُونَ حَوْلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ خِدْمَةً لَهُمْ سَيَكُونُونَ فِتْيَانًا دَائِمًا، وَسَيَكُونُ حُسْنُهُمْ وَبَرَاءَةُ وَجُوهِهِمْ إِلَى الْأَبَدِ، وَلَنْ تُصِيبَهُمُ الشَّيْخُوخَةُ أَبَدًا، وَسَيَكُونُونَ كَاللَّالِئِ فِي الصَّفَاءِ وَالتَّقَاءِ وَالبَرِيقِ، وَعِنْدَمَا يَطُوفُونَ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ فِي خِدْمَتِهِمْ، سَيَبْدُونَ وَكَأَنَّهُمْ لَأَلٌ تُتَنَاقَرُ هُنَا وَهَنَّا.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نِعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾

١٨ - جَاءَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ذِكْرُ النِّعَمِ وَالْمُلْكِ الَّذِي سَيُنْعِمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ عَلَى عِبَادِهِ فِي الْجَنَّةِ.

نعم الجنة

- يَقُولُ سَيِّدُنَا أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»^(١).

ملك الجنة

يقول سيِّدنا عبدُ الله بنُ عمرَ رضي الله عنهما: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةٌ لِمَنْ يَنْظُرُ فِي مُلْكِهِ مَسِيرَةَ أَلْفِي سَنَةٍ، يَنْظُرُ إِلَى أَقْصَاهُ كَمَا يَنْظُرُ إِلَى أَدْنَاهُ»^(٢)، ويقولُ الحافظُ ابنُ كثيرٍ في شرح هذا الحديث: «فَإِذَا كَانَ هَذَا عَطَاؤُهُ تَعَالَى لِأَدْنَى مَنْ يَكُونُ فِي الْجَنَّةِ، فَمَا ظَنُّكَ بِمَا هُوَ أَعْلَى مَنْزِلَةً، وَأَحْظَى عِنْدَهُ تَعَالَى؟»^(٣).

ويقولُ الكلبيُّ في تفسيرِ هذه الآية: «هو: أَنْ يَأْتِيَ الرَّسُولُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِكَرَامَةٍ مِنَ الْكُسُوفِ وَالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالتَّخَفِ إِلَى وَلِيِّ اللَّهِ وَهُوَ فِي مَنْزِلِهِ، فَيَسْتَأْذِنُ عَلَيْهِ، فَذَلِكَ الْمُلْكُ الْعَظِيمُ»^(٤).

﴿عَلَيْهِمْ ثَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾

١٩ - سِيلْبَسُ أَهْلُ الْجَنَّةِ عَلَى أَبْدَانِهِمْ لِبَاسًا مِنَ الْحَرِيرِ الرَّقِيقِ أَحْيَانًا، وَأَحْيَانًا أُخْرَى مِنَ الْحَرِيرِ السَّمِيكِ طَبَقًا لِرَغْبَتِهِمْ. كَمَا أَنَّهُمْ سِيَحْلُونَ بِأَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ، وَقَدْ جَاءَ ذِكْرُ الْأَسَاوِرِ الذَّهَبِيَّةِ فِي الْآيَةِ رَقْمَ ٣١ مِنْ سُورَةِ الْكَهْفِ (١٨)، وَهَنَا جَاءَ ذِكْرُ الْأَسَاوِرِ الْفِضِّيَّةِ، وَيُعْلَمُ مِنْهُ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ سِيلْبَسُونَ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ أَحْيَانًا، وَأَحْيَانًا أُخْرَى أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ.

﴿وَسَقَمَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾

٢٠ - مَرَّرَ ذِكْرُ نَوْعَيْنِ مِنَ الشَّرَابِ قَبْلَ ذَلِكَ هُمَا^(٥): شَرَابٌ مَمْتَرَجٌ بِمَاءٍ مِنْ عَيْنٍ

(١) مسلم، كتاب الجنة: باب ١ برقم ١٧٣٢.

(٢) تفسير ابن كثير، سورة الإنسان (٧٦): الآية ٢٠.

(٣) المرجع السابق، سورة الإنسان (٧٦): الآية ٢٠.

(٤) تفسير القرطبي، سورة الإنسان (٧٦): الآية ٢٠..

(٥) في الآية (٥)، ثم الآية (١٧) من هذه الآية.

الكافور، والشرابُ الثاني هو الممزوجُ بماءٍ من عَيْنِ الزَّنَجِيلِ، وسوف يُقدَّمُ الغِلْمَانُ أو الملائكةُ هَذَيْنِ الشَّرَابَيْنِ لَهِم، وهنا النوعُ الثالثُ من الشراب، وهو: الذي سُمِّيَ بالشرابِ الطَّهْوَرِ، وهذا نوعٌ أعلى من النَّوعَيْنِ السَّابِقَيْنِ؛ لأنَّ الله تعالى نَسَبَهُ إِلَيْهِ، يعني: أنَّ الله تعالى سَيَسْقِي عبادهَ هذا الشرابَ بيدِ قُدْرَتِهِ بما يَنَاسِبُ شَأْنَهُ وَعَظَمَتَهُ.

﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾

٢١ - عندما يَدْخُلُ الصَّالِحُونَ الْجَنَّةَ، وَيَسْتَمْتِعُونَ بِأَنْوَاعِ النِّعَمِ الْمُخْتَلِفَةِ، سَيُقَالُ لَهُمْ: هذه النِّعَمُ فِي الْجَنَّةِ ثَوَابٌ لَكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمُ الصَّالِحَةِ، فمباركٌ عَلَيْكُمْ أَنْ قَبَلَ اللهُ تَعَالَى بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ سَعْيَكُمْ، وعندما يَسْمَعُ أَهْلُ الْجَنَّةِ هَذَا الصَّوْتَ الْخَالِبَ لِلْبِّ، تَزْدَادُ مَعَهُ سَعَادَتُهُمْ وَأَفْرَاحُهُمْ.

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٢﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آيْمًا أَوْ كُفُورًا ﴿٢٣﴾ وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٤﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٥﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ يَجْعَلُونَ الْعِجَالَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ بَدِيلًا ﴿٢٧﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٩﴾ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٠﴾

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾

٢٢ - الْكُتُبُ وَالصُّحُفُ السَّمَاوِيَّةُ الَّتِي نَزَلَتْ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْكَرَامِ السَّابِقِينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، نَزَلَتْ دَفْعَةً وَاحِدَةً، لَكُنَّا أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ مُنْجِمًا فِي شَكْلِ سُورٍ وَأَيَّاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، حَتَّى يَسْهُلَ عَلَى النَّاسِ تِلَاوَتُهُ وَحِفْظُهُ، كَمَا أَنَّ عَلَيْكَ أَنْتَ أَيْضًا أَنْ تَتْلُوَ الْقُرْآنَ عَلَى النَّاسِ بَتَأَنٍّ وَمَهَلٍ وَفَضْلٍ بَيْنَ آيَاتِهِ، حَتَّى يَسْتَطِيعَ النَّاسُ فَهْمَهُ بِسَهُولَةٍ وَيُسْرٍ، وَقَدْ أَنْزَلْنَاهُ فِي ثَلَاثَةِ وَعِشْرِينَ عَامًا تَدْرِيجِيًّا طَبَقًا لِلْأَحْوَالِ

٥٢٦ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

والظروف، حتى يستطيع الناس أن يستوعبوا آياته وأحكامه طبقاً لسياق الظروف والأحوال، ويبحثوا فيها عن حلول لمشاكلهم.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾

٢٣ - يعني: اثبت على أحكام ربك، واصبر على إيذاء المنكرين لك، ولا تنخدع بكلام جاحد مُذنب.

وفي هذه الآية إرشاد لرجال الدعوة الإسلامية عن طريق النبي ﷺ بأنه كما أن النبي ﷺ صبر إرضاءً لربه، برغم الخوف من الكفار وطمعهم وظلمهم، وثبت على طريق دعوته، عليهم أيضاً أن يصبروا على المصاعب التي تواجههم في طريق الدعوة إلى الإسلام، وأن يثبتوا على مهمتهم ودعوتهم.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ، وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾

٢٤ - يعني: أذ صلاة التهجد في جزء من الليل، بالإضافة إلى الصلوات المفروضة، وسبح باسم ربك واذكره صباحاً ومساءً وفي جزء طويل من الليل.

- يقول سيّدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «لم يفرض الله عز وجل على عباده فريضة إلا جعل لها حداً معلوماً (مثلاً: الصلوات الخمس في أوقات مخصوصة، وصيام رمضان في وقت مخصوص، والحج مرة في العمر، والركعة مرة في العام) ثم عذر أهلها في حال العذر، غير الذكر، فإنه لم يجعل له حداً ينتهي إليه ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على عقله، وأمرهم به في الأحوال كلها فقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣] وقال تعالى: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، يعني: بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي الصحة والسقم، وفي السر والعلانية»^(١).

(١) تفسير الخازن، سورة الأحزاب (٣٣): الآية ٤١.

- يقولُ سيِّدُنَا جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ»^(١).

- يقولُ سيِّدُنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْقُلُوبَ تَصَدُّ كَمَا يَصْدَأُ الْحَدِيدُ»، قِيلَ: فَمَا جَلَاؤُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «كَثْرَةُ تِلَاوَةِ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَكَثْرَةُ الذِّكْرِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٢)، وَلَمْزِيدُ مِنَ التَّفْصِيلِ عَنْ تِلَاوَةِ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَذِكْرِهِ رَاجِعِ الْحَاشِيَةِ رَقْمَ ٣٨ لِلآيَةِ رَقْمَ ٢٨ مِنْ سُورَةِ الرَّعْدِ (١٣)، وَكَذَا الْحَاشِيَةُ رَقْمَ ٤١ لِلآيَةِ رَقْمَ ٤٥ مِنْ سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ (٢٩).

﴿إِنَّكَ هَؤُلَاءِ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾

٢٥ - فِي هَذِهِ الْآيَةِ نَبِيَّةٌ لِمُنْكَرِي الْقِيَامَةِ بِأَنَّكُمْ لَيْسَ لَدَيْكُمْ أَيْ دَلِيلٌ عَلَى انْكَارِكُمُ الْقِيَامَةَ، بَلْ إِنَّكُمْ اعْتَقَدْتُمْ أَنَّ هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا هِيَ كُلُّ شَيْءٍ، وَأَحْبَبْتُمُوهَا لِأَنَّ أَجْرَ الْعَمَلِ فِيهَا يَكُونُ سَرِيعًا، وَأَعْرَضْتُمْ عَنِ الْآخِرَةِ لِأَنَّهُ لَا يَزَالُ هُنَاكَ مَتَسَّعٌ مِنَ الْوَقْتِ حَتَّى مَجِيئِهَا، وَالْإِنْسَانُ بِصِفَةِ عَامَّةٍ عَجُولٌ بِطَبْعِهِ، لَكِنَّهُ لَا يُفَكِّرُ مَاذَا سَيَكُونُ مَصِيرُهُ تَعَجُّلُهُ هَذَا؟

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾

٢٦ - لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ، وَأَحْكَمْنَا أَوْصَالَهُ بِالْأَعْيَابِ وَالْأَوْرِدَةِ، بِحَيْثُ تَبَقَّى مَتَّصِلَةٌ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ طِيلَةَ الْعُمُرِ، أَلَا يُفَكِّرُ كَفَارُ مَكَّةَ أَنَّا مِثْلَمَا خَلَقْنَا بَنِي الْإِنْسَانِ أَقْوِيَاءَ، يُمْكِنُنَا أَنْ نُهْلِكَهُمْ وَنَأْتِي بغيرِهِمْ إِذَا لَمْ يَرْجِعُوا عَنْ عَصْيَانِهِمْ، وَظَلُّوا يَسْتَنْزِلُونَ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ هَكَذَا.

(١) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ٩ برقم ٣٣٨٣.

(٢) كنز العمال، ٢: ٢٤١ برقم ٣٩٢٤.

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾

٢٧ - هذا القرآن المَجِيدُ نصيحةٌ كُلُّه، وفيه توضيحٌ كاملٌ لطُرُقِ الحقِّ والباطل، كما جاء فيه بيانٌ للمصيرِ السيِّئِ الذي سيلقاهُ الذين انحرفوا عن طريق ربِّهم، ولهذا ليختَرُ من شاءَ منكم الطريقَ الذي ينتهي به إلى رضا ربِّه، ومن شاءَ فليختَرِ الطريقَ الذي ينتهي به إلى جهنَّم.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾

٢٨ - لا يمكنُ أن يَهْتَدِيَ أَحَدٌ إِلَّا بمشيئةِ الله وتوفيقه، والله تعالى لا يُعْطِي توفيقه، ولا يُدْخِلُ جَنَّتَهُ، إِلَّا لذلك الذي يَرْجِعُ إلى الله تعالى بكلِّ إخلاصٍ نِيَّةً، أمَّا الذين يُنْكِرُونَ الله تعالى، وَيَعِثُونَ في الأرضِ فسادًا وظلمًا، فَإِنَّ الله تعالى قد أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا.

الفقيه إلى الله: محمَّد إمداد حُسَيْن بيززاده،

جامعة الكرم، بريطانيا

بعد صلاة العشاء من يوم الجمعة ٣ ديسمبر ٢٠١٠م

الموافق ٢٦ ذي الحجة ١٤٣١هـ.

هذا، وقد اكْتَمَلَ بِفَضْلِ الله تعالى وكرمه تفسيرُ سورة «الإنسان» في ثلاثة أيام فقط، أي: من ٣٠ نوفمبر إلى ٣ ديسمبر، والحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيِّد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

فهرس المطالب التفصيلي للمجلد السادس (من سورة الطور إلى سورة الإنسان)

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
الله تعالى				
لماذا خلق الله السماء والأرض في ستة أيام؟	٥٧	٤	٤	١٥٤
كيف تجلى على العرش؟	٥٧	٤	٤	١٥٤
علموا الأولاد لا إله إلا الله قبل كل شيء	٦٦	٦	٦	٣٣٠
المراد بأهل السماء الله تعالى	٦٧	١٦	١٢	٣٥٢
لن يستطيع المرائي السجود يوم القيامة	٦٨	٤٢	١٤	٣٨٢
فضيلة الاستغفار	٧١	١٠	٥	٤٣١
الذِّكْرُ والشكر				
الذي يذكر الله في ملاء	٥٣	٨	٥	٣٨
كل شيء يسبح الله تعالى	٥٧	١	١	١٥١
التسبيح بغير لسان	٥٧	١	١	١٥١
ذِكْرُ الله يُطَهِّرُ القلب	٥٧	١٧	٢١	١٦٨
ما الحيُّ وما الميِّتُ	٥٧	١٧	٢١	١٦٨
كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان	٦٩	٥٢	٢٣	٤٠٢

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
فصل ذِكْر اسم الله	٧٦	٢٦	٢٤	٥٢٦
الرحمة				
الرحمن اسم صفة، لكنه خاص بالله تعالى	٥٥	١	١	٩٥
لا يجوز النداء على عبد الرحمن بالرحمن	٥٥	١	١	٩٥
متفرقات				
النبي ﷺ رأى الله في اليقظة	٥٣	١٧	١١	٤٢
ستكون رؤية الله تعالى في الجنة ليلاً ونهاراً	٥٥	٥٦	٣٠	١١٢
اسم الله أيضاً منزّه مثل الذات الإلهية	٥٦	٩٦	٤١	١٤٦
ما المراد بالتسبيح؟	٥٦	٩٦	٤١	١٤٦
فضل التسبيح	٥٦	٩٦	٤١	١٤٦
سَلِّمَتِ الأرواح كلها بالله تعالى في ميثاق أَلَسْتُ	٥٧	٨	١٠	١٥٨
لماذا يتبلى الله تعالى؟	٥٧	٢٥	٣١	١٧٣
شرح أسماء الله والرحمن والإله والمتكبر	٥٩	٢٢	٢٠	٢٢٤
الكبرياء ردائي	٥٩	٢٢	٢٠	٢٢٤
الأسماء الحسنى	٥٩	٢٤	٢١	٢٢٨
رؤية الله تعالى	٧٥	٢٣	١٢	٥٠٦
سيمكنك رؤية الله تعالى مثل بدر التمام	٧٥	٢٣	١٢	٥٠٦
محمد رسول الله ﷺ				
من يكون الكاهن والمجنون؟	٥٢	٢٩	٢١	٢٠
النبي الكريم ﷺ ليس كاهناً ولا مجنوناً	٥٢	٣٢	٢٤	٢١
مؤامرة قتل النبي ﷺ في دار الندوة	٥٢	٤٢	٣٣	٢٤

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
أنا دعاء أبي إبراهيم عليه السلام وبشارة عيسى عليه السلام	٦١	٦	٧	٢٥٠
أنا محمد وأحمد والعاقب	٦١	٦	٧	٢٥٠
معنى أحمد	٦١	٦	٧	٢٥٠
معنى محمد	٦١	٦	٧	٢٥٠
ذِكْرُ سيدنا محمد ﷺ في الكتاب المقدس	٦١	٦	٧	٢٥٠
الفرق بين النبي وساعي البريد	٦٢	٢	٢	٢٦٤
ضلالات أهل الجزيرة العربية قبل النبي ﷺ	٦٢	٢	٣	٢٦٦
من رأي في المنام سيراني في اليقظة	٦٢	٣	٤	٢٦٧
الشیطان لا يتمثل بصورتي	٦٢	٣	٤	٢٦٧
الإمام السيوطي رأى النبي الكريم ﷺ في اليقظة	٦٢	٣	٤	٢٦٧
فيوض النبي والولي تستمر بعد وفاتهما	٦٢	٣	٤	٢٦٧
كان النبي ﷺ يُوقِظُ السيدة عائشة رضي الله عنها لصلاة الوتر	٦٦	٦	٦	٣٣٠
النبي ﷺ ليس معجوناً	٦٨	٢	٤	٣٧٦
أفلا أكون عبداً شكوراً	٧٣	٣	٢	٤٦٢
كانت قدما النبي ﷺ تتورمان	٧٣	٣	٢	٤٦٢
العرق على الجبهة وقت نزول الوحي	٧٣	٥	٤	٤٦٤
خطر طلوع الروح عند نزول الوحي	٧٣	٥	٤	٤٦٤
تكاد الناقة تسقط من ثِقَلِ الوحي	٧٣	٥	٤	٤٦٤
يكاد فخذي يتمزق من ثِقَلِ الوحي	٧٣	٥	٤	٤٦٤

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
لم يكن خوف النبي ﷺ من رؤية جبريل الأمين	٧٤	٢	٢	٤٨٠
النبي ﷺ ليس شاعراً ولا مجنوناً ولا كاذباً	٧٤	١٨	٩	٤٨٦
النبوة والرسالة				
أربع فرائض للنبوة	٦٢	٢	٢	٢٦١
تلاوة القرآن وتركية النفس وتعليم الكتاب والحكمة	٦٢	٢	٢	٢٦١
العرق على الجبهة عند نزول الوحي	٧٣	٥	٤	٤٦٤
خطر خروج الروح عند نزول الوحي	٧٣	٥	٤	٤٦٤
تكاد الناقة تسقط من ثقل الوحي	٧٣	٥	٤	٤٦٤
يكاد فخذي يتمزق من ثقل الوحي	٧٣	٥	٤	٤٦٤
الحاجة إلى القرآن والسنة				
لا يخرج من لسان النبي ﷺ إلا الحق	٥٣	٤	٣	٣٢
اكتب، فإني لا أنطق إلا الحق	٦٨	١	٢	٣٦٦
الله تعالى أنزل الحديث والسنة أيضاً	٧٥	١٩	١٠	٥٠٦
علم النبي ﷺ				
علم النبي ﷺ بالغيب والنبوءة	٥٤	٤٥	٣٦	٨٢
في القرآن الكريم تفصيل كل شيء	٥٥	٤	٣	٩٧
الشفاعة				
منكر شفاعتي سيُحرّم منها يوم القيامة	٧٤	٤٢	٢١	٤٩٤
من سبّ صحابتي حرّم شفاعتي	٧٤	٤٢	٢١	٤٩٤
تواضع النبي ﷺ				
كان النبي ﷺ يتوب إلى الله ويستغفره في اليوم سبعين مرة	٧١	١٠	٥	٤٣١

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
آثار الحصر على الجسم	٧٤	٦	٣	٤٨١
لا حاجة لي بالدينيا، فأنا كالمسافر	٧٤	٦	٣	٤٨١
شأن النبي ﷺ وعظمته				
العرض بجعل أودية مكة ذهبًا	٧٤	٦	٣	٤٨١
أخلاق النبي ﷺ ومزاحه				
بعض ومضات من أخلاق النبي ﷺ	٦٨	٤	٥	٣٧٠
إنما بُعِثْتُ لأتمم مكارم الأخلاق	٦٨	٤	٥	٣٧٠
أدبني ربي فأحسن تأديبي	٦٨	٤	٥	٣٧٠
بعثني ربي رحمة ولم يبعثني لعنة	٦٨	٤	٥	٣٧٠
لم يقل: أَفٍّ لَخادم أبداً	٦٨	٤	٥	٣٧٠
لم يَذَمْ طعاماً أبداً	٦٨	٤	٥	٣٧٠
لم يقل النبي ﷺ: لا أبداً	٦٨	٤	٥	٣٧٠
لم يضرب خادماً ولا امرأة أبداً	٦٨	٤	٥	٣٧٠
ما خُبِرَ بين شيئين إلا اختار أيسرهما	٦٨	٤	٥	٣٧٠
لم ينتقم النبي ﷺ لنفسه أبداً	٦٨	٤	٥	٣٧٠
عفا عن أهل مكة	٦٨	٤	٥	٣٧٠
لم يكن يقابل السيئة بالسيئة	٦٨	٤	٥	٣٧٠
كانت أخلاقه القرآن	٦٨	٤	٥	٣٧٠
حسن التعامل مع زيد بن حارثة	٦٨	٤	٥	٣٧٠
حسن مزاح النبي ﷺ	٦٨	٤	٥	٣٧٠
كان النبي ﷺ يمزح ويضحك أيضاً	٦٨	٤	٥	٣٧٠

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
سأعطيك صغير الناقة لتركبه	٦٨	٤	٥	٣٧٠
لن تدخل الجنة عجوز	٦٨	٤	٥	٣٧٠
زاهر ريفي من عندنا	٦٨	٤	٥	٣٧٠
المعجزات				
معجزة انشقاق القمر	٥٤	١	٢	٦٨
معجزة النبوة	٥٤	٤٥	٣٦	٨٢
معجزة النبوة	٥٩	١١	١١	٢١٨
غاص فرس سراقه في الرمال	٦٧	١٦	١٣	٣٥٢
مفتاح الكعبة لا يزال حتى اليوم في ذرية سيدنا عثمان	٦٨	٤	٥	٣٧٠
شهدت الشجرة	٧٢	١	١	٤٤١
الحديث إلى الجن	٧٢	١	١	٤٤١
معراج النبي ﷺ				
دور جبريل الأمين في واقعة المعراج	٥٣	٥	٤	٣٣
لي وزيران في السماء ووزيران في الأرض	٥٣	٥	٤	٣٣
ما المراد بالقرب قاب قوسين؟	٥٣	٨	٥	٣٨
دلائل رؤية الله تعالى	٥٣	١٠	٦	٣٩
ما سدره المنتهى؟	٥٣	١٤	٨	٤١
منكر المعراج السماوي كافر	٥٣	١٤	٨	٤١
رأى النبي ﷺ الله تعالى بعيني رأسه	٥٣	١٧	١١	٤٢
النبوة والرسالة				
الله تعالى يعين الأنبياء	٥٨	٢١	٢٠	١٩٤

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
الفرق بين النبي وساعي البريد	٦٢	٢	٢	٢٦١
الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء	٦٢	٩	٩	٢٧٠
إنكار بشرية الأنبياء كُفِّرَ	٦٤	٦	٦	٢٩٢
لماذا لم يجعل الله الملائكة أنبياء	٦٤	٦	٦	٢٩٢
عمل الأنبياء هو توصيل رسالة الله تعالى فقط	٦٤	١٢	١٢	٢٩٨
لا ترتكب زوجة نبي فاحشة	٦٦	١٠	١٥	٣٣٩
لا ينسب نبي كلامه إلى الله تعالى	٦٩	٤٤	١٩	٤٠١
سيدنا إبراهيم عليه السلام				
أوقف سيدنا إبراهيم عليه السلام استغفاره لأزر	٦٠	٤	٥	٢٣٧
لكنه استمر في استغفاره لوالديه الحقيقيين	٦٠	٤	٥	٢٣٧
سيدنا عيسى عليه السلام				
إفراط اليهود والنصارى وتفريطهم في حق سيدنا عيسى عليه السلام	٦١	٦	٥	٢٤٩
كان سيدنا عيسى عليه السلام نبياً لبني إسرائيل فقط	٦١	٦	٥	٢٤٩
الأنبياء الآخرون عليهم السلام				
دعا سيدنا نوح لقومه رغم إيذائهم له ٩٥٠ عامًا	٥٤	١٠	١١	٧٣
سيدنا يونس عليه السلام وواقعة الحوت	٦٨	٤٨	١٩	٣٨٤
عمر سيدنا نوح عليه السلام ومدة دعوته	٧١	٦	٣	٤٣٠
تأمر قوم نوح على قتله عليه السلام	٧١	٢٢	١١	٤٣٥
دين الإسلام				
الرهبانية	٥٧	٢٧	٣٥	١٧٤

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
الرهبانية والإسلام	٥٧	٢٧	٣٥	١٧٤
أنا أصلي وأنام أيضًا	٥٧	٢٧	٣٥	١٧٤
لأهل بيتك حق عليك	٥٧	٢٧	٣٥	١٧٤
أول دستور مكتوب في العالم	٥٩	التعارف	التعارف	١٩٩
لا ينبغي أن يكون المال دولةً بين الأغنياء فقط	٥٩	٧	٦	٢٣٨
غلبة الإسلام	٦١	٩	١١	٢٥٥
كل مولود يولد على الفطرة	٦٦	٦	٦	٣٣٠
كل مولود يولد على الفطرة	٧٠	١٩	٩	٤١٤
الفطرة قسمان	٧٠	١٩	٩	٤١٤
قبول الجن الإسلام	٧٢	١	١	٤٤١
الأمة المسلمة				
ستخرج أمتي طاهرة من قبورها	٥٣	٣٩	٢٩	٥٠
سيكون في الجنة ١٢٠ صفًا	٥٦	٣٩	١٥	١٣٧
ستكون الأمة المسلمة أكثر الأمم	٥٦	٣٩	١٥	١٣٧
المؤمنون كالجسد الواحد	٥٧	٢٧	٣٤	١٧٤
لا يتناجى اثنان بينهما ثالث	٥٨	٨	٦	١٨٧
تغاضوا عن هفوات العلية	٦٠	١	١	٢٣٣
كلكم مسئول	٦٦	٦	٦	٣٣٠
مثال المؤمن والكافر	٦٧	٢٢	١٩	٣٥٤
علامات الأمة المسلمة في ميدان الحشر	٦٩	١٩	١٠	٣٩٥
ستكون أيديهم ووجوههم وأرجلهم منيرة	٦٩	١٩	١٠	٣٩٥

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
ستكون صحف أعمالهم في أيامهم	٦٩	١٩	١٠	٣٩٥
ستسبقهم ذريتهم	٦٩	١٩	١٠	٣٩٥
الأمم السابقة				
الرهبانية	٥٧	٢٧	٣٥	١٧٤
الإسلام والرهبانية	٥٧	٢٧	٣٥	١٧٤
لن يتمنى بنو إسرائيل الموت، وهذه معجزة للنبي ﷺ	٦٢	٦	٧	٢٦٨
قوم ثمود	٦٩	٤	٢	٣٩٢
قوم عاد	٦٩	٧	٣	٣٩٢
آل البيت رضي الله عنهم				
الإمام الحسن والإمام الحسين رضي الله عنهما لؤلؤ ومرجان	٥٥	٢٢	١٦	١٠٣
كان ﷺ يوقظ السيدة عائشة لصلاة الوتر	٦٦	٦	٦	٣٣٠
غضب سيدنا علي رضي الله عنه من السيدة فاطمة رضي الله عنها	٧٣	١	١	٤٦١
أبو تراب هو لقب سيدنا علي رضي الله عنه	٧٤	١	١	٤٧٩
غضب سيدنا علي رضي الله عنه من السيدة فاطمة رضي الله عنها	٧٤	١	١	٤٧٩
أبو تراب هو لقب سيدنا علي رضي الله عنه	٧٤	١	١	٤٧٩
الصحابة الكرام رضي الله عنهم				
فضائل الصحابة الكرام رضي الله عنهم	٥٦	١٣	٦	١٣١
لا تسيروا أمام سيدنا أبي بكر رضي الله عنه	٥٧	١٠	١٣	١٦٠

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
سيدنا أبو بكر رضي الله عنه مقدّم على سيدنا علي رضي الله عنه	٥٧	١٠	١٣	١٦٠
لا يؤم الناس أحدًا في الصلاة في وجود سيدنا أبي بكر رضي الله عنه	٥٧	١٠	١٣	١٦٠
الله تعالى سيجزي سيدنا أبا بكر رضي الله عنه على إحسانه	٥٧	١٠	١٣	١٦٠
لو اتخذت أحدًا خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً	٥٧	١٠	١٣	١٦٠
أمر النبي ﷺ سيدنا أبا بكر يصلي بالناس	٥٧	١٠	١٣	١٦٠
ابتعد سيدنا أبو بكر عن الإمامة لما رأى النبي الكريم ﷺ	٥٧	١٠	١٣	١٦٠
لبست الملائكة أيضًا مثل أبي بكر رضي الله عنه	٥٧	١٠	١٣	١٦٠
الصحابة الكرام هم الواسطة بين النبي ﷺ والأمة	٥٧	١٠	١٤	١٦٣
قبضة شعير يتصدق بها صحابي أفضل من ذهب يتصدق به غيره	٥٧	١٠	١٤	١٦٣
قتل سيدنا أبو عبيدة أباه الكافر في غزوة بدر	٥٨	٢٢	٢١	١٩٥
صفح سيدنا أبو بكر رضي الله عنه أباه	٥٨	٢٢	٢١	١٩٥
كان سيدنا أبو بكر رضي الله عنه للنبي ﷺ بمثابة العين والأذن	٥٨	٢٢	٢١	١٩٥
كان المهاجرون مسلمين مخلصين	٥٩	٨	٨	٢١١
اتهام المهاجرين بالنفاق إنكار للقرآن	٥٩	٨	٨	٢١١
دعا النبي ﷺ بوسيلة المهاجرين	٥٩	٨	٨	٢١١
كان الأنصار ثابتين على إيمانهم	٥٩	٩	٩	٢١٢

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
عرض أنصاري أن يطلق زوجته وقت الإخاء مع المهاجرين	٥٩	٩	٩	٢١٢
الإيثار في الطعام: بقي جائعًا وأطعم الضيف	٥٩	٩	٩	٢١٢
الإيثار في المعركة: أعطى الجريح الماء لجريح آخر	٥٩	٩	٩	٢١٢
أعطى رأس الشاة لأخ آخر	٥٩	٩	٩	٢١٢
حب الصحابة واجب	٥٩	١٠	١٠	٢١٥
لا تتحدثوا عن اختلافات الصحابة	٥٩	١٠	١٠	٢١٥
يقول الرافضة: الصحابة أسوأ الناس	٥٩	١٠	١٠	٢١٥
العنوا من يسب الصحابة	٥٩	١٠	١٠	٢١٥
قبضة شعير من صحابي أفضل من مثل أُخِدِ ذَهَبًا	٥٩	١٠	١٠	٢١٥
خُلِقَ سيدنا أبو بكر وسيدنا عمر رضي الله عنهما والنبي ﷺ من طين واحد	٧١	٧١	٨	٤٣٣
كانت أقدام الصحابة رضي الله عنهم تتورم من صلاة التهجد	٧٣	٢٠	١٦	٤٧١
من يسب صحابتي سيُحرَّم من شفاعتي	٧٤	٤٢	٢١	٤٩٤
الإنسان وعظمة الإنسان				
شكل الإنسان وصورته هي الأفضل	٦٤	٣	٤	٢٩٠
الإنسان أجمل من القمر	٦٤	٣	٤	٢٩٠
خلق الله تعالى الإنسان على صورته	٦٤	٣	٤	٢٩٠
لا تصفعوا أحدًا على وجهه	٦٤	٣	٤	٢٩٠
ينبغي ألا يحني الإنسان رأسه إلا لله	٦٤	٣	٤	٢٩٠

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
الإنسان يجمع أكثر مما يأكل	٦٤	١٣	١٣	٢٩٨
كل شخص مسئول	٦٦	٦	٦	٣٣٠
كل شخص يولد على فطرة الإسلام	٧٠	١٩	٩	٤١٤
الفطرة والجبلة الإنسانية	٧٠	١٩	٩	٤١٤
أقسام ثلاثة للنفس	٧٥	٢	٢	٥٠٢
لم يُخلَق الإنسان عبثاً	٧٥	٣٦	١٩	٥٠٩
الجبر والقدر				
مسألة التقدير	٥٤	٤٩	٣٩	٨٣
التقدير كُتِبَ أولاً	٥٧	٢٢	٢٦	١٧١
ثلاثة مذاهب فيما يتعلق بالتقدير	٧٠	١٩	٩	٤١٤
الجهاد والشهادة				
ما المراد بالشهيد والصديق	٥٧	١٩	٢٣	١٦٩
الغزوات الإسلامية				
غزوة بني النضير ونفيهم	٥٩	التعارف	التعارف	١٩٩
تعريف مال الغنيمة وتقسيمه	٥٩	٦	٥	٢٠٨
تعريف مال الفيء وتقسيمه	٥٩	٦	٥	٢٠٨
غزوة بني قينقاع	٥٩	١٥	١٣	٢١٩
كان الشرط في صلح الحديبية إعادة المسلمين من الرجال	٦٠	١٠	١٠	٢٤٢
المساجد				
تعريف المسجد	٧٢	١٨	١٣	٤٤٩

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
أول مسجد	٧٢	١٨	١٣	٤٤٩
فضيلة المسجد الحرام	٧٢	١٨	١٣	٤٤٩
ستشفع الكعبة لثلاثة أشخاص	٧٢	١٨	١٣	٤٤٩
ثواب صلاة في المسجد الحرام يعدل ثواب مائة ألف صلاة	٧٢	١٨	١٣	٤٤٩
أربعة مساجد بناها أنبياء لا تزال موجودة إلى اليوم	٧٢	١٨	١٣	٤٤٩
نظافة المسجد	٧٢	١٨	١٣	٤٤٩
بناء المساجد	٧٢	١٨	١٣	٤٤٩
بيت في الجنة لمن يبني مسجدًا	٧٢	١٨	١٣	٤٤٩
جمال بيوت الدنيا كلها لا يعدل جمال بيت في الجنة	٧٢	١٨	١٣	٤٤٩
آداب المساجد	٧٢	١٨	١٣	٤٤٩
فضيلة المسجد	٧٢	١٨	١٣	٤٤٩
الشیطان				
الغرانيق العلى	٥٣	٢٠	١٢	٤٣
خداع الشيطان في الدنيا	٥٩	١٦	١٤	٢١٩
خداع الشيطان في الآخرة	٥٩	١٦	١٤	٢١٩
اتقوا الشيطان بالاستغفار	٧١	١٠	٥	٤٣١
فرق الجن المختلفة	٧٢	١	١	٤٤١
من هم الجن؟	٧٢	١	١	٤٤١
سقوط الشُّهُبِ من السماء	٧٢	٩	٦	٤٤٦

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
لماذا مُنِعَ الجِنَّ من الصعود إلى أعلى؟	٧٢	١٠	٧	٤٤٧
في الجِنَّ أيضاً الصالحُ وغيرُ الصالح	٧٢	١١	٨	٤٤٧
السياسة				
أول دستور مكتوب في التاريخ	٥٩	التعارف	التعارف	١٩٩
لا تخبروا العدو بالأسرار القومية	٦٠	١	١	٢٣٣
أساس الصداقة والعداوة مع الكفار	٦٠	٨	٩	٢٤٠
حسن التعامل مع غير المسلمين	٦٠	٨	٩	٢٤٠
الكفر والشرك والنفاق				
المنافقون ليسوا مع أحد	٥٨	١٤	١٤	١٩٢
المنافقون معلقون بين الكفر والإيمان	٥٨	١٤	١٤	١٩٢
المنافقون يكذبون	٥٩	١١	١١	٢١٨
الوليد بن المغيرة من أصل سيء	٦٨	١٣	٨	٣٧٧
لا أخاف عليكم الشرك، وإنما حبّ المال	٧٢	١٧	١٢	٤٤٨
ذمُّ الوليد بن المغيرة	٧٤	١١	٦	٤٨٥
جاء الوعيد لأبي جهل	٧٥	٣٤	١٨	٥٠٩
حسن معاملة الأسير الكافر	٧٦	٨	٩	٥١٩
كان الطعام يُقدَّم أولاً لأسرى بدر	٧٦	٨	٩	٥١٩
العبادة والعابدون				
كيف تسجد النجوم والأشجار وغيرها	٥٥	٦	٥	٩٨
المعنى اللغوي والاصطلاحي للسجدة	٥٥	٦	٥	٩٨
الرهبانية	٥٧	٢٧	٣٥	١٧٤

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
العلم وأهل العلم				
ثلاثة أعمال تستمر بعد موت صاحبها	٥٢	٢١	١٤	١٥
نفقات طلاب دار العلوم	٥٥	٢	٢	٩٦
قدّم النبي ﷺ الطعام للطلاب في بيته	٥٥	٢	٢	٩٦
فضل العالم على العابد	٥٨	١١	١١	١٩٠
سيشفع العالم	٥٨	١١	١١	١٩٠
تخفّض الملائكة أجنحتها لطلاب العلم	٥٨	١١	١١	١٩٠
العلماء ورثة الأنبياء	٥٨	١١	١١	١٩٠
مصير الداعي الذي لا يعمل بدعوته	٦١	٢	٢	٢٤٧
العلم اللدني لدى الأنبياء والأولياء	٦٢	٢	٢	٢٦١
مصير العلماء الذين لا يعملون بعلمهم	٦٢	٥	٦	٢٦٨
أكبر عالم وأكبر جاهل	٦٢	٥	٦	٢٦٨
العلم أفضل هدية من الأب لابنه	٦٦	٦	٦	٣٣٠
الترغيب في القراءة والكتابة في الوحي الأول والثاني	٦٨	١	٢	٣٦٦
احفظوا العلم بالكتابة	٦٨	١	٢	٣٦٦
مداد القلم أثقل من دم الشهيد	٦٨	١	٢	٣٦٦
التقوى وأهل التقوى				
جنتان لترك الذنوب خوفاً من الله	٥٥	٤٦	٢٧	١٠٩
كل شخص مسئول	٦٦	٦	٦	٣٣٠
فضيلة الاستغفار	٧١	١٠	٥	٤٣١

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
الاستغفار حلٌّ لمشاكل عديدة	٧١	١٠	٥	٤٣١
أكثرُوا من الاستغفار	٧١	١٠	٥	٤٣١
تُزَفَّعُ درجات الأب باستغفار الابن له	٧١	١٠	٥	٤٣١
كان النبي ﷺ يستغفر ربه أكثر من سبعين مرة في اليوم	٧١	١٠	٥	٤٣١
الإيمان وأهل الإيمان - أولياء الله				
الموت للمؤمن نعمة أيضًا	٥٥	٢٨	١٩	١٠٥
ما المراد بالنور أمام المؤمن وعن يمينه؟	٥٧	١٢	١٦	١٦٥
رأى الإمام السيوطي النبي ﷺ في اليقظة	٦٢	٣	٤	٢٦٧
فيوض النبي والولي تستمر حتى بعد وفاتهما	٦٢	٣	٤	٢٦٧
المصيبة تكون كفارة لذنوب المؤمن	٦٤	١١	١١	٢٩٧
الراحة والتعب كلاهما خير للمؤمن	٦٤	١١	١١	٢٩٧
الدنيا سجن المؤمن	٦٤	١١	١١	٢٩٧
وَرُدُّ عَتَقِ الْأَسِيرِ	٦٥	٢	٨	٣١٥
ترديد وِرْدٍ لا حول ولا قوة إلا بالله	٦٥	٢	٨	٣١٥
كل شخص مسئول	٦٦	٦	٦	٣٣٠
الجنة والنار				
سيكون لكل شخص في الجنة ألفٌ من الخدم	٥٢	٢٤	١٨	٤٠٠
خَدَمُ الْجَنَّةِ أَكْثَرُ جَمَالاً مِنَ اللَّوْلُؤِ	٥٢	٢٤	١٨	٤٠٠
ما الجنة؟	٥٥	٥٦	٣٠	١١٢
من أي شيء خُلِقَتِ الجنة؟	٥٥	٥٦	٣٠	١١٢

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
كيف ستكون نِعَمُ الجنة؟	٥٥	٥٦	٣٠	١١٢
تمني الأولاد في الجنة	٥٥	٥٦	٣٠	١١٢
تمنى تناول طعام الطير في الجنة	٥٥	٥٦	٣٠	١١٢
ما هي أعظم نعمة في الجنة؟	٥٥	٥٦	٣٠	١١٢
رؤية الله تعالى في الجنة	٥٥	٥٦	٣٠	١١٢
كم ستكون الأعمار في الجنة؟	٥٥	٥٦	٣٠	١١٢
ما هي لغة الجنة؟	٥٥	٥٦	٣٠	١١٢
دعاء للجنة	٥٥	٥٦	٣٠	١١٢
كيف ستكون حور الجنة؟	٥٥	٥٦	٣٠	١١٢
ستتزوج الحور من أهل الجنة	٥٥	٥٦	٣٠	١١٢
تَمَّ خَلَقَ الحور في الجنة	٥٥	٥٦	٣٠	١١٢
ما المراد بالغلمان في الجنة؟	٥٥	٥٦	٣٠	١١٢
الزواج من الحور في الجنة	٥٥	٥٦	٣٠	١١٢
ما الذي سيحصل الرجال عليه في الجنة؟	٥٥	٥٦	٣٠	١١٢
ما هو شأن النساء في الجنة؟	٥٥	٥٦	٣٠	١١٢
ما الذي ستحصل عليه النساء في الجنة؟	٥٥	٥٦	٣٠	١١٢
هل سيجتمع زوجا الدنيا في الجنة؟	٥٥	٥٦	٣٠	١١٢
من هم أصحاب اليمين؟	٥٥	٥٦	٣٠	١١٢
ستتدلى فاكهة الجنة لتقترب من أهل الجنة	٥٦	٢٠	٩	١٣٥
لحم الطير المشوي سيأتي بنفسه أمام أهل الجنة	٥٦	٢١	١٠	١٣٥
سيكون لأهل الجنة مائة وعشرون صفًا	٥٦	٣٩	١٥	١٣٧

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
ما هي شجرة الزقوم؟	٥٦	٥٢	٢٠	١٣٩
نار جهنم أشد من نار الدنيا	٥٦	٧٣	٣٠	١٤٣
ستكونون شبابًا إلى الأبد في الجنة	٦٩	٢٤	١٣	٣٩٦
ستقترب منكم فاكهة الجنة طبقًا لرغبتكم	٦٩	٢٤	١٣	٣٩٦
الطير أيضًا سيأتيكم مشويًا	٦٩	٢٤	١٣	٣٩٦
جمال كل بيوت الدنيا لا يعدل جمال بيت واحد في الجنة	٧٢	١٨	١٣	٤٤٩
سيرى أهل الجنة من مسافة ألف عام	٧٥	٢٢	١٢	٥٠٦
نِعْمُ الجنة	٧٦	٢٠	١٨	٥٢٣
إلى أي مدى ستكون الممتلكات في الجنة كبيرة	٧٦	٢٠	١٨	٥٢٣
أهل الجنة يرون عن قرب وعن بُعْدٍ أيضًا	٧٦	٢٠	١٨	٥٢٣
الحسنة والذنب				
الحسنة تمحو السيئة	٥٣	٣٢	٢٢	٤٦
تعريف الذنب	٥٣	٣٢	٢٢	٤٦
كبائر الذنوب وصغائرها	٥٣	٣٢	٢٢	٤٦
لا تستصغروا صغائر الذنوب	٥٣	٣٢	٢٢	٤٦
الحسنات تمحو السيئات	٦٤	٩	١٠	٢٩٦
القيامة				
سَيُعْرَضُ تسجيل مصور للأعمال الإنسانية يوم القيامة	٥٣	٤٠	٣٠	٥٩
بعثتي والقيامة متصلتان	٥٤	١	١	٦٧
ما المراد بالنور أمام المؤمن وعن يمينه	٥٧	١٢	١٦	١٦٥

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
يوم القيامة سيفر الزوج والزوجة والآباء من بعضهم البعض	٦٠	٣	٣	٢٣٦
سيساعد أهل الإيمان بعضهم البعض يوم القيامة	٦٠	٣	٣	٢٣٦
الحكمة وراء الإحياء من جديد	٦٤	٧	٧	٢٩٤
الدليل على الإحياء من جديد	٦٤	٧	٧	٢٩٤
لماذا قيل ليوم القيامة يوم الحسرة والخسران	٦٤	٩	٩	٢٩٥
وقت الموت ووقت القيامة	٦٧	٢٦	٢٢	٣٥٦
الحكمة وراء إخفاء وقت القيامة	٦٧	٢٦	٢٢	٣٥٦
نور أعضاء الوضوء وصحف الأعمال في الإيمان	٦٩	١٩	١٠	٣٩٥
ما مدى طول يوم القيامة؟	٧٠	٤	٣	٤١٠
القيامة قريبة	٧٠	٧	٥	٤١١
الموت أيضًا قيامة	٧٠	٧	٥	٤١١
سيساعد الأنبياء والعلماء والشهداء وأهل الإيمان يوم القيامة	٧٠	١٠	٦	٤١٢
ستكون عقلات أصبع الإنسان أيضًا مستقيمة يوم القيامة	٧٥	١	١	٥٠١
الله تعالى قادر على الإحياء من جديد	٧٥	٤٠	٢٠	٥١٠
التوبة والموت والقبر				
تستمر ثلاثة أعمال حتى بعد الموت	٥٢	٢١	١٤	١٥
عذاب لميتين في قبرين	٥٣	٣٩	٢٩	٥٠
إيصال الثواب لأهل القبور	٥٣	٣٩	٢٩	٥٠

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
الموت أيضًا نعمة للمؤمن	٥٥	٢٨	١٩	١٠٥
الموت أيضًا قيامة	٥٩	١٨	١٦	٢٢٢
تعريف التوبة وفضيلتها	٦٦	٨	٩	٣٣٤
وقت التوبة	٦٦	٨	٩	٣٣٤
ليعتبر الشباب من الشيوخ	٦٦	٨	٩	٣٣٤
يُذَفَّنُ الإنسان في التراب الذي خُلِقَ منه	٧١	١٧	٨	٤٣٣
ما المراد بالقبر؟	٧١	٢٥	١٣	٤٣٦
ما المراد بالميت في القبر؟	٧١	٢٥	١٣	٤٣٦
سلسلة الحسنات بعد الموت	٧٥	١٣	٦	٥٠٣
القرآن المجيد				
يستفيد أهل القبور من سورة يس	٥٣	٣٩	٢٩	٥٠
البانديت الهندوسي كان يحفظ ١٤ جزءًا من القرآن	٥٤	١٧	١٧	٧٤
نبوءة القرآن	٥٤	٤٥	٣٦	٨٢
سورة الرحمن عروس القرآن	٥٥	التعرف	التعارف	٩٣
في القرآن بيان لكل شيء	٥٥	٤	٣	٩٧
كان ابن عباس رضي الله عنهما يبحث عن عقال الجمل في القرآن المجيد	٥٥	٤	٣	٩٧
فضل سورة الواقعة (٥٦)	٥٦	التعارف	التعارف	١٢٥
لا يعرف قارئ سورة الواقعة ضيق ذات اليد	٥٦	التعارف	التعارف	١٢٥
لا يمس القرآن المجيد إلا المطهرون	٥٦	٧٩	٣٣	١٤٤
فضل سورة الحشر (٥٩)	٥٩	التعارف	التعارف	١٩٩

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
نبوءة تثبت صدق القرآن	٥٩	١١	١١	٢١٨
صدقت نبوءة القرآن	٦٠	٧	٨	٢٣٩
تلاوة ألفاظ القرآن المجيد	٦٢	٢	٢	٢٦١
عشر حسنات لكل حرف	٦٢	٢	٢	٢٦١
لسماع القرآن أجران	٦٢	٢	٢	٢٦١
سيشفع القرآن	٦٢	٢	٢	٢٦١
تلاوة القرآن عند الميت وعند القبر	٦٢	٢	٢	٢٦١
إيصال الثواب بقراءة سورة الإخلاص	٦٢	٢	٢	٢٦١
ترديد وزد لا حول ولا قوة إلا بالله	٦٥	٢	٨	٣١٥
فضل سورة الملك	٦٧	التعارف	التعارف	٣٤٣
سورة الملك تكافح من أجل الغفران	٦٧	التعارف	التعارف	٣٤٣
كتابة القرآن وتدوينه	٦٨	١	٢	٣٦٦
القرآن المجيد ليس كلام شاعر أو كاهن	٦٩	٤١	١٨	٤٠٠
تكذيب القرآن سيكون سبباً للحسرة يوم القيامة	٦٩	٥٠	٢١	٤٠٢
سيكون مقام حافظ القرآن حيث آخر آية سيقروها	٧٣	٤	٣	٤٦٤
كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان	٧٣	٥	٤	٤٦٤
قال الكفار: هذا ليس كلام بشر	٧٤	١٨	٩	٤٨٦
لماذا نزل القرآن منجماً	٧٦	٢٣	٢٢	٥٢٥
القرآن نصيحة كله	٧٦	٢٩	٢٧	٥٢٨
الطلاق والعدة والرضاعة				
أيام التطليق	٦٥	١	١	٣٠٨

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
لا يجوز الطلاق في أيام الحيض	٦٥	١	١	٣٠٨
الطلاق في أيام الطهر قبل الجماع	٦٥	١	١	٣٠٨
أبغض الحلال إلى الله الطلاق	٦٥	١	١	٣٠٨
العرش يهتز من الطلاق	٦٥	١	١	٣٠٨
حق الطلقات الثلاث	٦٥	١	١	٣٠٨
الطلاق الأحسن والطلاق الحسن والطلاق البدعي	٦٥	١	١	٣٠٨
مدة العدة لمختلف النساء	٦٥	١	٢	٣١٢
أين تقضي المرأة عدتها؟	٦٥	١	٤	٣١٤
أين تقضي المرأة عدتها؟	٦٥	٦	١٢	٣١٧
أجر إرضاع الأطفال	٦٥	٦	١٢	٣١٧
مكانة المرأة وحقوقها وواجباتها				
ما الذي سيحصل عليه الرجال والنساء في الجنة؟	٥٥	٥٦	٣٠	١١٢
هل سيجتمع أزواج الدنيا في الجنة؟	٥٥	٥٦	٣٠	١١٢
ما المراد بالظهار؟	٥٨	٣	٢	١٨٥
كفارة الظهار	٥٨	٣	٣	١٨٥
لم يكن النبي ﷺ يلمس يد أي امرأة عند المباينة	٦٠	١٢	١٣	٢٤٣
كان النبي ﷺ يوقظ السيدة عائشة رضي الله عنها لصلاة الوتر	٦٦	٦	٦	٣٣٠
ليوقظ كل من الزوجين الآخر للصلاة	٦٦	٦	٦	٣٣٠
تعليم الابنة	٦٦	٦	٦	٣٣٠
لم يضرب النبي ﷺ امرأة أو خادماً أبداً	٦٨	٤	٥	٣٧٠

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
النذر والحنث باليمين				
كفارة الحنث باليمين	٦٦	٢	٢	٣٢٧
تعريف النذر	٧٦	٧	٧	٥١٨
شروط النذر	٧٦	٧	٧	٥١٨
الوالدان وحقوق الأبناء وواجباتهم				
حسنات الآباء تنفع الأبناء	٥٢	٢١	١٤	١٥
الأساتذة المسلمون والمشايخ الروحيون أيضًا ينفعون غيرهم	٥٢	٢١	١٤	١٥
حسنات الأولاد تنفع الآباء	٥٢	٢١	١٤	١٥
تَرْفَعُ درجات الوالدين بدعاء ابنهما لهما	٥٢	٢١	١٤	١٥
ثلاثة أعمال للميت تستمر بعد وفاته	٥٢	٢١	١٤	١٥
الابن الصالح هو الذي يدعو لوالديه	٥٢	٢١	١٤	١٥
ترتفع درجات الأب باستغفار ابنه له	٥٣	٣٩	٢٩	٥٠
يستمر العمل في ثلاثة أشكال	٥٣	٣٩	٢٩	٥٠
ترك الأموال للأولاد المجرمين ليس بالأمر الطيب	٥٧	٧	٩	١٥٥
مروا أولادكم بالصلاة في عمر السابعة	٦٦	٦	٦	٣٣٠
كل طفل يولد على فطرة الإسلام	٦٦	٦	٦	٣٣٠
أفضل هدية من أب لابنه هي العلم	٦٦	٦	٦	٣٣٠
علموا أطفالكم لا إله إلا الله أولاً	٦٦	٦	٦	٣٣٠
تَرْفَعُ درجات الأب باستغفار ابنه له	٧١	١٠	٥	٤٣١

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
الصلاة				
ينادي الله تعالى في السماء الدنيا	٥٣	٨	٥	٣٨
الاغتسال يومياً في النهر وسقوط الأوراق	٥٣	٣٢	٢٢	٤٦
كيف تسجد النجوم والأشجار وغيرها؟	٥٥	٦	٥	٩٨
اقرأوا سبحان ربي الأعلى في السجود	٥٦	٧٤	٣١	١٤٣
فضل الجمعة وأحكامها	٦٢	٩	٩	٢٧٠
لا يبقى درنٌ على جسد الإنسان بالاستحمام خمس مرات في اليوم	٦٤	٩	١٠	٢٩٦
الذنوب تتساقط مثل الأوراق بالصلاة	٦٤	٩	١٠	٢٩٦
كان النبي ﷺ يوقظ السيدة عائشة رضي الله عنها لصلاة الوتر	٦٦	٦	٦	٣٣٠
ليوقظ الزوجان كل منهما الآخر للصلاة	٦٦	٦	٦	٣٣٠
لن يستطيع المراءون السجود يوم القيامة	٦٨	٤٢	١٤	٣٨٢
ستتير أيدي المصلين ووجوههم وأرجلهم	٦٩	١٩	١٠	٣٩٥
بيان تسبيح الركوع والسجود	٦٩	٥٢	٢٣	٤٠٢
ما صلاة التهجد؟	٧٣	٣	٢	٤٦٢
فضل صلاة التهجد	٧٣	٣	٢	٤٦٢
وقت صلاة التهجد	٧٣	٦	٥	٤٦٧
لا يحول شيء بين العبد وربه وقت التهجد	٧٣	٦	٥	٤٦٧
ينادي الله تعالى في السماء الدنيا وقت السحور	٧٣	٧	٦	٤٦٨
انتهت فرضية صلاة التهجد	٧٣	٢٠	١٨	٤٧٣

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
الصوم				
خلف فم الصائم	٦٦	٢	٢	٣٢٧
الخير				
الفرق بين الخمر الطهور والخمر الحرام	٥٥	٥٠	١٨	١٠٥
الزكاة والصدقات				
ثلاثة أعمال تستمر بعد وفاة صاحبها	٥٢	٢١	١٤	١٥
المالك الحقيقي للمال والثروة هو الله تعالى	٥٧	٧	٩	١٥٥
الإنسان ليس مالكاً دائماً للمال والثروة	٥٧	٧	٩	١٥٥
لم يجمع سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه	٥٧	٧	٩	١٥٥
مالاً لأولاده				
ترك أموال للأولاد المجرمين أمر ليس طيباً	٥٧	٧	٩	١٥٥
فضل الصدقة	٥٧	٧	٩	١٥٥
العبد يقول: مالي، مالي	٥٧	٧	٩	١٥٥
أبقت السيدة عائشة رضي الله عنها على كتف الشاة	٥٧	٧	٩	١٥٥
للإنسان ثلاثة أنصبه فقط من ماله	٥٧	٧	٩	١٥٥
زيادة حب مال الوارث	٥٧	٧	٩	١٥٥
ما المراد بالقرض الحسن؟	٥٧	١١	١٥	١٦٥
البخل ظلمات يوم القيامة	٥٩	٩	٩	٢١٢
ما المراد بالقرض الحسن؟	٦٤	١٧	١٨	٣٠٢
التصدق بتمرة يعدل جبل أحد	٦٤	١٧	١٨	٣٠٢
حقوق المساكين	٦٩	٣٤	١٧	٣٩٨

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
كنت مريضًا وجائعًا وظامئًا فلم تهتم بي	٦٩	٣٤	١٧	٣٩٨
لا يؤمن من بات شبعاً وجاره جائع	٦٩	٣٤	١٧	٣٩٨
الذي يساعد الأرملة والمسكين مثله مثل المجاهد وقائم الليل	٦٩	٣٤	١٧	٣٩٨
الذي يمسح بيده على رأس اليتيم	٦٩	٣٤	١٧	٣٩٨
أطعم سيدنا إبراهيم عليه السلام الضيف الطعام	٦٩	٣٤	١٧	٣٩٨
العبد يقول: مالي، مالي	٧٣	٢٠	٢١	٤٧٣
أي صدقة ثوابها أكثر من غيرها؟	٧٣	٢٠	٢١	٤٧٣
أبقت السيدة عائشة رضي الله عنها على كتف الشاة	٧٣	٢٠	٢١	٤٧٣
من يحب مال الوارث أكثر؟	٧٣	٢٠	٢١	٤٧٣
سلسلة الحسنات بعد الموت	٧٥	١٣	٦	٥٠٣
أفضل الصدقات	٧٦	٨	٩	٥١٩
ضيف سيدنا إبراهيم عليه السلام الجائع	٧٦	٨	٩	٥١٩
أطعموا الكافر أيضًا	٧٦	٨	٩	٥١٩
المسح باليد على رأس اليتيم	٧٦	٨	٩	٥١٩
كافل اليتيم مع النبي ﷺ في الجنة	٧٦	٨	٩	٥١٩
السلام				
قول اليهود: السام عليكم	٥٨	٨	٧	١٨٨
الملائكة				
لماذا لم يجعل الله الملائكة أنبياء	٦٤	٦	٦	٢٩٢
قوة ملك الموت وجبريل الأمين	٧٤	٣٠	١٢	٤٨٨

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
سبعون ألفًا من الملائكة يعبدون الله يوميًا في البيت المعمور	٧٤	٣١	١٦	٤٩٢
التوكل				
أمثلة التوكل على الله	٦٤	١٣	١٣	٢٩٨
زيارة القبور وإيصال الثواب				
بعض آيات عن إيصال الثواب	٥٣	٣٩	٢٩	٥٠
بعض الأحاديث عن إيصال الثواب	٥٣	٣٩	٢٩	٥٠
الحج والصيام والصدقة والتضحية عن أحد	٥٣	٣٩	٢٩	٥٠
تضحية النبي ﷺ وسيدنا علي رضي الله عنه بأضحيتين لكل منهما	٥٣	٣٩	٢٩	٥٠
تَرْفَعُ درجات الأب باستغفار الابن له	٥٣	٣٩	٢٩	٥٠
دعاء أربعين من أهل الإيمان	٥٣	٣٩	٢٩	٥٠
ستخرج أمتي طاهرة من قبورها	٥٣	٣٩	٢٩	٥٠
أهل القبور يستفيدون من سورة يس	٥٣	٣٩	٢٩	٥٠
عذاب صاحبي قبرين ووسيلة الأغصان الخضراء	٥٣	٣٩	٢٩	٥٠
يسعد أهل القبور بإيصال الثواب لهم	٥٣	٣٩	٢٩	٥٠
بعض الأقوال عن إيصال الثواب	٥٣	٣٩	٢٩	٥٠
زيارة القبر وتعزية أهل ميت في البيت	٥٥	٤٦	٢٧	١٠٩
ستخرج أمتي طاهرة من قبورها	٥٩	١٠	١٠	٢١٥
الدنيا ومالها ومتاعها				
الحب الزائد لمال الوارث	٥٧	٧	٩	١٥٥

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
مال الدنيا لعب ولهو وزينة	٥٧	٢٠	٢٤	١٧٠
الدنيا مزرعة الآخرة	٥٩	١٨	١٦	٢٢٢
الحسنات عملة الآخرة	٥٩	١٨	١٦	٢٢٢
الآخرة هو وطن الإنسان الأصلي	٥٩	١٨	١٦	٢٢٢
لا يغتر أهل الثروة بها فهي ابتلاء لهم	٦٨	٤٤	١٦	٣٨٣
رغد العيش في الدنيا ابتلاء أيضًا	٧٢	١٧	١٢	٤٤٨
لا أخشى عليكم الشرك، وإنما خطر الرغبة في المال	٧٢	١٧	١٢	٤٤٨
الثروة الحلال خير معين	٧٢	١٧	١٢	٤٤٨
العرض بتحويل وديان مكة إلى ذهب	٧٤	٦	٣	٤٨١
آثار الحصر على جسد النبي ﷺ	٧٤	٦	٣	٤٨١
لماذا يرغب الإنسان في الدنيا؟	٧٦	٢٧	٢٥	٥٢٧
اليتم				
المسح باليد على رأس اليتيم	٧٦	٨	٩	٥١٩
كفالة اليتيم	٧٦	٨	٩	٥١٩
الصبر والشكر				
اصبروا على المصيبة واشكروا على النعمة	٥٧	٢٣	٢٧	١٧١
تعريف الصبر الجميل	٧٠	٥	٤	٤١١
مكة المكرمة والمدينة المنورة				
البيت المعمور	٥٢	٤	٣	١٢
أول دستور مكتوب في التاريخ	٥٩	التعارف	التعارف	١٩٩

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
مفتاح الكعبة لا يزال في ذرية سيدنا عثمان بن طلحة رضي الله عنه	٦٨	٤	٥	٣٧٠
متفرقات				
من يكون الكاهن والمجنون؟	٥٢	٢٩	٢١	٢٠
لا يوجد يوم منحوس في ذاته	٥٤	١٩	١٨	٧٦
ما المراد بالمشركين والمغربين؟	٥٥	١٧	١٢	١٠٢
ماء البحر المالح والعذب	٥٥	١٩	١٤	١٠٢
ماء البحر أيضًا نعمة، والسفن تسير فيه	٥٥	٢٤	١٧	١٠٤
لا بركة في التدخين	٥٦	٩٦	٤١	١٤٦
أنزلوا الناس منازلهم	٥٧	١٠	١٣	١٦٠
أول دستور مكتوب في العالم	٥٩	التعارف	التعارف	١٩٩
عتق الرقاب أحب الأعمال	٦٥	١	١	٣٠٨
ورّد لتحرير الأسير	٦٥	٢	٨	٣١٥
النميمة	٦٨	١١	٨	٣٧٧
الحسد	٦٨	٥١	٢٢	٣٨٦
لا ترسموا الوشم	٦٨	٥١	٢٢	٣٨٦
ما الجِنَّات؟	٧٢	١	١	٤٤١
الجن أيضًا فرق مختلفة	٧٢	١	١	٤٤١
المرائي له النار	٧٤	٦	٣	٤٨١
الرياء شرك صغير	٧٤	٦	٣	٤٨١
تعريف النذر	٧٦	٧	٧	٥١٨
شروط النذر	٧٦	٧	٧	٥١٨

المصادر والمراجع

أولاً: كتب التفسير

- (١) تفسير ضياء القرآن: الشيخ محمد كرم شاه الأزهري، دار نشر ضياء القرآن، لاهور، باكستان ١٩٩٥م (٥ مجلدات).
- (٢) الدر المنثور: الإمام جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت ١٩٩٣م (٨ مجلدات).
- (٣) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي): محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان (١٠ مجلدات).
- (٤) التفسير الكبير: الإمام فخر الدين الرازي، دار الفكر، بيروت، لبنان (١٦ مجلدًا).
- (٥) حاشية الصاوي على الجلالين: الشيخ أحمد الصاوي المالكي، دار الفكر، بيروت، لبنان (٣ مجلدات).
- (٦) في ظلال القرآن: الشهيد سيد قطب، دار الشروق، مدينة نصر، القاهرة، مصر (٦ مجلدات).
- (٧) جامع البيان (تفسير الطبري/ تفسير ابن جرير): أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٨٤م (١٥ مجلدًا).
- (٨) تفسير روح البيان: الإمام إسماعيل حقي، دار الفكر، بيروت، لبنان (١٠ مجلدات).
- (٩) صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان ١٩٨١م (٣ مجلدات).
- (١٠) تفسير البضاوي: الإمام ناصر الدين البضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٨٨م (مجلدان).
- (١١) تفسير فتح العزيز (تفسير عزيزي: أردو)، شاه عبد العزيز الدهلوي، مطبعة عليمي، دهلي، الهند.
- (١٢) تفسير ابن كثير: الحافظ إسماعيل بن كثير، دار القلم، بيروت، لبنان (٤ مجلدات).
- (١٣) التفسير المظهر: القاضي محمد ثناء الله باني بتي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- (١٤) تفسير نعيم: المفتي أحمد يار خان نعيم، المكتبة الإسلامية، الكجرات، باكستان.

٥٦٠ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

(١٥) تفسير روح المعاني: الإمام شهاب الدين السيد محمود البغدادي، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٧٨م (١٠ مجلدات).

(١٦) تفسير الشعراوي: محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة، مصر ١٩٩١م (١٤ مجلدًا).

(١٧) تفسير الحسنات: العلامة أبو الحسنات القادري، دار نشر ضياء القرآن، لاهور، باكستان (٧ مجلدات).

(١٨) تفسير الخازن: الإمام علاء الدين البغدادي، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٧٩م (٧ مجلدات).
(١٩) تنوير المقياس: عبد الله بن عباس، المكتبة الشعبية، القاهرة، مصر ١٩٧٢م.

(٢٠) البحر المحيط: محمد بن يوسف الغرناطي، دار الفكر، بيروت، لبنان (١١ مجلدًا).

(٢١) مدارك التنزيل (تفسير النسفي): الإمام عبد الله بن أحمد النسفي، دار النفائس، بيروت، لبنان ١٩٩٦م.

(٢٢) خزائن العرفان: سيد محمد نعيم الدين مرادآبادي، حفيظ بك دبو، الهند.

(٢٣) أحكام القرآن: الإمام أحمد بن علي الجصاص، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

(٢٤) زهرة التفاسير: محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر.

(٢٥) تفسير المنار: محمد رشيد رضا، دار الفكر، بيروت، لبنان.

(٢٦) تفسير الكشف: محمود بن عمر الزمخشري: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان ١٩٨٧م.

(٢٧) فتح القدير: محمد بن علي الشوكاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

(٢٨) تفسير القرآن العظيم، حافظ بن أبي حاتم، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان (١٤ مجلدًا).

(٢٩) تفسير الجيلاني: محي الدين عبد القادر الجيلاني الحسني الحسيني، شركة التمام، بيروت، لبنان.

(٣٠) التفسير المنير: دكتور وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، الشام (١٧ مجلدًا).

(٣١) زاد المسير: عبد الرحمن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (٨ مجلدات).

(٣٢) تفسير الماجدي: عبد الماجد دريا آبادي، تاج كمپني لميتد، لاهور، كراتشي، باكستان (مجلدان).

(٣٣) تفسير أحكام القرآن: أبو بكر بن العربي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (مجلدان).

(٣٤) تفسير معارف القرآن: مفتي محمد شفيع، إدارة المعارف، كراتشي، باكستان (٨ مجلدات).

(٣٥) تفهيم القرآن: سيد أبو الأعلى المودودي، مركزى مكتبه إسلامى ببلشرز، نيو دلهي، الهند (٦ مجلدات).

(٣٦) تفسير عثمانى: شبير أحمد عثمانى، دار الإشاعت، أردو بازار، كراتشي، باكستان (مجلدان).

(٣٧) تفسير البغوي: الحسين بن مسعود البغوي، دار الفكر، بيروت، لبنان، حاشية تفسير الخازن (٧ مجلدات).

(٣٨) تفسير تبيان القرآن: العلامة غلام رسول سعيدي، فريد بك ستال، اردو بازار، كراتشي، باكستان.

(٣٩) تفسير أبي السعود: القاضي محمد بن محمد، دار الفكر، بيروت، لبنان.

(٤٠) تفسير حقاني: العلامة عبد الحق حقاني، مير محمد كتب خانه، آرام باغ، كراتشي، باكستان.

(٤١) تفسير المراغي: أحمد مصطفى المراغي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

ثانياً: كتب الأحاديث

(٤٢) صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١ م.

(٤٣) صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج القشيري، دار الدعاء، اسطنبول، تركيا ١٩٨١ م.

(٤٤) سنن الترمذي: محمد بن عيسى، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١ م.

(٤٥) سنن ابن ماجه: محمد بن يزيد القزويني، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١ م.

(٤٦) سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١ م.

(٤٧) سنن النسائي: أحمد بن شعيب، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١ م.

(٤٨) مسند أحمد: الإمام أحمد بن حنبل، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١ م.

(٤٩) الموطأ: الإمام مالك بن أنس، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١ م.

(٥٠) مشكاة المصابيح: محمد بن عبد الله التبريزي، دار الفكر، بيروت، لبنان.

(٥١) المعجم الكبير: سليمان بن أحمد الطبراني، مطبعة الزهراء الحديثة، الموصل، العراق ١٩٨٤ م (٢٥ مجلدًا).

(٥٢) المستدرک: الإمام الحاكم النيشابوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٩٠ م (٤ مجلدات).

(٥٣) الجامع الصغير: محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية، بيروت، لبنان ١٩٩٠ م (مجلدان).

٥٦٢ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد السادس)

(٥٤) رياض الصالحين: يحيى بن شرف النووي الشافعي، دار القلم، بيروت، لبنان ١٩٧٠م.

(٥٥) سنن الدارقطني: علي بن عمر الدارقطني، عالم الكتب، بيروت، لبنان ١٩٩٣م (٤ مجلدات).

(٥٦) شعب الإيمان: أحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٩٠م.

(٥٧) الترغيب والترهيب: عبد العظيم المنذري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان ١٩٦٨م.

(٥٨) السنن الكبرى: أحمد بن الحسين البيهقي، نشر السنة، الملتان، باكستان (١٠ مجلدات).

(٥٩) المعجم الأوسط: سليمان بن أحمد الطبراني، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية (١١ مجلدًا).

(٦٠) صحيح ابن حبان: دار الفكر، بيروت، لبنان (٦ مجلدات).

(٦١) سنن الدارمي: الإمام عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، دار الدعوة، استنبول، تركيا ١٩٨١م.

(٦٢) مصنف عبد الرزاق: الإمام عبد الرزاق بن همام الصنعاني، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان (١١ مجلدًا).

(٦٣) مصنف ابن أبي شيبة: عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، دار الفكر، بيروت، لبنان.

(٦٤) المعجم الصغير: الإمام الطبراني، دار الفكر، بيروت، لبنان.

(٦٥) جمع الجوامع: الإمام جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(٦٦) الجامع الصغير: الإمام جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

مراجع أخرى:

(٦٧) معجزات الرسول: محمد متولي الشعراوي، المكتبة الإسلامية الشعراوية، القاهرة، مصر.

(٦٨) الخصائص الكبرى: الإمام جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٧٥م (مجلدان).

(٦٩) السيرة النبوية: عبد الملك بن هشام، دار الجيل، بيروت، لبنان (٤ مجلدات).

(٧٠) البداية والنهاية: الحافظ إسماعيل بن كثير، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٨٢م (٧ مجلدات).

(٧١) المفردات: الإمام راغب الأصفهاني، مكتبة مصطفى البابي، مصر ١٩٦١م.

(٧٢) لسان العرب: ابن منظور، دار المعارف، القاهرة، مصر (٨ مجلدات).

- (٧٣) المنجد: دار المشرق، بيروت، لبنان ١٩٧٥ م.
- (٧٤) شرح المواهب اللدنية: الإمام محمد بن عبد الباقي الزرقاني المالكي، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- (٧٥) دلائل النبوة: أحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ٢٠٠٢ م (٧ مجلدات).
- (٧٦) كتاب المبسوط: شمس الدين السرخسي، دار المعرفة، بيروت، لبنان ١٩٨٠ م (١٥ مجلدًا).
- (٧٧) الفتاوى العالمية: العلامة نظام الدين، بلوچستان بك دبو، كويته، بلوچستان، باكستان ١٩٨٥ م (٦ مجلدات).
- (٧٨) فتاوى قاضي خان: حسن بن منصور الفرغاني الحنفي، بلوچستان بك دبو، كويته، بلوچستان، باكستان ١٩٨٥ م (٦ مجلدات).
- (٧٩) رد المحتار: ابن عابدين، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٧٩ م (٨ مجلدات).
- (٨٠) حاشية الطحطاوي: الإمام أحمد الطحطاوي، مير محمد كتب خانه، كراتشي، باكستان.
- (٨١) مراقي الفلاح: حسن بن عمار الحنفي، مير محمد كتب خانه، كراتشي، باكستان.
- (٨٢) فتاوى أفريقيه: الإمام أحمد رضا القادري، مدينه پبلشنگ كمپني، كراتشي، باكستان.
- (٨٣) بهار شريعت: ربيع الشريعة: العلامة محمد أمجد علي، شيخ غلام علي ايند سنز، لاهور، باكستان.
- (٨٤) إمداد الفقه: محمد إمداد حسين بيرزاده، دار السلام، القاهرة، مصر ٢٠٠٣ م.
- (٨٥) اسلامى عقائد: العقائد الإسلامية: محمد إمداد حسين بيرزاده، الكرم پبلى كيشنز، ايتن هال، نوتنجهام شاير، المملكة المتحدة ١٩٩٩ م.
- (٨٦) كنز العمال: العلامة علاء الدين البرهانپورى، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان ١٩٨٥ م (١٦ مجلدًا).
- (٨٧) مجمع الزوائد: علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٨٨ م (١٠ مجلدات).
- (٨٨) نزهة المجالس: عبد الرحمن الصفوري الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- (٨٩) نور الإيضاح: الشيخ حسن بن علي، كتب خانه مجيديه، ملتان، باكستان.
- (٩٠) قصيدة البردة: الإمام البوصيري، الترجمة الإنجليزية: محمد إمداد حسين بيرزاده، الكرم پبلى كيشنز، ايتن هال، نوتنجهام شاير، المملكة المتحدة.

- (٩١) السيرة النبوية: الحافظ إسماعيل بن كثير، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- (٩٢) ضياء النبي: بير محمد كرم شاه الأزهري، دار نشر ضياء القرآن، لاهور، باكستان ١٤١٥هـ (٧ مجلدات).
- (٩٣) الصراط المستقيم: شاه إسماعيل الدهلوي، اسلامي اكيدي، لاهور، باكستان.
- (٩٤) القول الجميل (أردو): شاه ولي الله، مدينه پبلشنگ كمپني، كراتشي، باكستان.
- (٩٥) سبل الهدى والرشاد: الإمام محمد بن يوسف الشامي، وزارة الأوقاف، القاهرة، مصر (١٢ مجلدًا).
- (٩٦) المنتظم في تواريخ الملوك والأمم: الإمام عبد الرحمن الجوزي، دار الفكر، بيروت، لبنان (١٣ مجلدًا).
- (٩٧) تاريخ الإسلام: المؤرخ شمس الدين الذهبي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان (٥٢ مجلدًا).
- (٩٨) إمتاع الأسماع: تقي الدين المقرئ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (١٥ مجلدًا).
- (٩٩) حلية الأولياء: الإمام أبو نعيم الأصفهاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (١٢ مجلدًا).
- (١٠٠) الفقه الإسلامي وأدلته: وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، الشام ١٩٨٩م (٨ مجلدات).
- (١٠١) الفقه الحنفي وأدلته: الشيخ صاغر جي، دار الكلم الطيب، دمشق، الشام ٢٠٠٠م (٣ مجلدات).
- (١٠٢) الفقه على المذاهب الأربعة: عبد الرحمن الجزيري، دار الفكر، بيروت، لبنان (٥ مجلدات).
- (١٠٣) لسان الميزان: ابن حجر العسقلاني، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان ٢٠٠٢م (١٠ مجلدات).
- (١٠٤) الأدب المفرد: الإمام البخاري، مكتبة الآداب.
- (١٠٥) السيرة الحلبية: نور الدين الحلبي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (٣ مجلدات).
- (١٠٦) شرح الشفاء: القاضي عياض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (مجلدان).
- (١٠٧) طبقات ابن سعد: مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر ٢٠٠١م، (١١ مجلدًا).
- (١٠٨) بدائع الصنائع: علاء الدين الكاساني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ٢٠٠٣م (١٠ مجلدات).
- (١٠٩) الموسوعة الإسلامية: الفيصل ناشران، اردو بازار، لاهور، باكستان (مجلدان).

- (١١٠) تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، (١٠ مجلدات).
- (١١١) الهداية: علي بن أبي بكر الفرغاني، مكتبة شركة علمية، خارج بوابة بوهر، الملتان، باكستان (مجلدان).
- (١١٢) فقه السنة: السيد سابق، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٨٢م (ثلاث مجلدات).
- (١١٣) عمدة القاري، العلامة بدر الدين عيني، دار الفكر، بيروت، لبنان (٢٥ مجلدًا).
- (١١٤) فتح الباري: الإمام ابن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، لبنان (١٣ مجلدًا).
- (١١٥) الأحكام الفقهية: أحمد محمد عساف، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان.
- (١١٦) جامع بيان العلم وفضله: يوسف بن عبد الله القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ٢٠٠٠م.
- (١١٧) المقاصد الحسنة: شمس الدين السخاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٨٧م.
- (١١٨) الفاروق: العلامة شبلي النعماني، مشتاق بك كارنر، أردو بازار، لاهور، باكستان.
- (١١٩) المواهب اللدنية: الإمام أحمد القسطلاني، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان (٤ مجلدات).
- (١٢٠) الحاوي للفتاوي: الإمام جلال الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (مجلدان).
- (١٢١) الكواكب السائرة: الشيخ نجم الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (٣ مجلدات).
- (١٢٢) الفوائد المجموعة: محمد بن علي الشوكاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- (١٢٣) حقوق الأولاد: محمد شريف الصواف، دار الفكر، دمشق، الشام.
- (١٢٤) الإتيقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان ١٩٨٨م (٤ مجلدات).
- (١٢٥) سيرة النبي: سيد سليمان الندوي، ناشران قرآن لميتد، أردو بازار، لاهور، باكستان.
- (١٢٦) الخطبة العصرية: إبراهيم محمد الجمل، مكتبة القرآن، القاهرة، مصر.
- (١٢٧) كتاب الخراج: الإمام أبو يوسف، مكتبة الأزهر للتراث، القاهرة، مصر.
- (١٢٨) شرح شمائل الترمذي: سليمان بن عمر الأزهر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- (١٢٩) البدر المنير: الإمام الشعراي، مكتبة عالم الفكر، القاهرة، مصر.
- (١٣٠) الكامل لابن الأثير، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- (١٣١) إرشاد العباد: عبد العزيز محمد سلمان، مطابع الخالد، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- (١٣٢) نسيم الرياض: شهاب الدين خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

- (١٣٣) أسد الغابة: أبو الحسن الجزري، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- (١٣٤) الإصابة: الحافظ ابن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- (١٣٥) جلاء الأفهام: ابن قيم الجوزية، دار الحديث، القاهرة، مصر.
- (١٣٦) سيرة عمر بن الخطاب: أبو الفرج بن الجوزي، دار الدعوة الإسلامية، القاهرة، مصر.
- (١٣٧) الفاروق عمر: محمد حسين هيكل، دار المعارف، القاهرة، مصر.
- (١٣٨) فيوض القرآن: سيد حامد حسن بلكرامي، فيروز سنز لميتيد، لاهور، باكستان.
- (١٣٩) نزهة القاري شرح البخاري: مفتي محمد شريف الحق أمجدي، دائرة البركات، كهوسي، اعظم كره، يوبي، الهند.
- (١٤٠) منهاج البخاري: محمد معراج الإسلام، عرفان القرآن، أعوان تاون، لاهور، باكستان.
- (١٤١) إرشاد الساري شرح البخاري: شهاب الدين قسطلاني، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- (١٤٢) أيها الولد: الإمام الغزالي، Awakening Publications 200 UK Swansea.
- (١٤٣) دلائل النبوة: أبو نعيم الأصبهاني، دار ابن كثير، بيروت.

ثالثاً: المراجع الإنجليزية

- (144) Miracles of the Qur'an: Muhammad Mutawali ash-Sha'raawi, published by Daar-ul-Taqwa Ltd. London.
- (145) Encyclopedia Britannica: peter B. Norton, Joseph Espsito, USA, 1995.
- (146) Islam & the West: H.R.H. Charles Prince of Wales, printed by Uniskill Ltd. Eynsham, Oxford, UK.
- (147) Muhammad at Madinah: Montgomery Watts. Oxford University Press, 2006.
- (148) Oxford Encyclopedia Dictionary: published by Oxford University Press, USA, 1991.
- (149) Shari'ah the Islamic Law: Abdur Rahman Doi (Zia-un-Nabi).
- (150) The Holy Bible: published by Collins, London, 1954.
- (151) The Living Bible: British Edition, 1975.
- (152) The Hutchinson Encyclopedia: 1999 Edition.

- (153) The New Universal Encyclopedia: Caxton publishing Co, Ltd, London.
- (154) The English Pig: published by The Hambledon Press, London 1998.
- (155) American Government: Lowi & Ginsberg. Published by W.W. Norton Publication 1998.
- (156) Fream's Agriculture: printed by Butler & Tanner Ltd, London. 16th Edition 1983.
- (157) Oxford Advanced Learner's Dictionary: 4th Edition 1989.
- (158) The Hans Wehr Dictionary of Modern Written Arabic: Edited by J. M. Cowan, 3rd Edition.
- (159) The 100: Michael H. Hart, Citadel Press, 1987, New Jersey, USA.
- (160) The Bible, the Qur'an and Science: Maurice, 1979, North America, Trust Publication, USA.



1